

ركائز القدوة فى تفسير الدعوة

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق
جامعة الأزهر

(۲)

(٣)

(١٢)
ركائز القدوة
في تفسير الدعوة

(٤)

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

﴿حقوق الطبع محفوظة للمؤلف﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

(٦)

المجلد الثاني عشر يشمل هذا المجلد تفسير

- سورة "الزمر"
- سورة "غافر"
- سورة "فصلت"
- سورة "الشورى"
- سورة "الزخرف"
- سورة "الدخان"
- سورة "الجاثية"
- سورة "الأحقاف"
- سورة "محمد"
- سورة "الفتح"
- سورة "الحجرات"
- سورة "ق"
- سورة "الذاريات"
- سورة "الطور"

(^)

(٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

وبعد ،،

فقد أعاننى الله تعالى وانتهت من تفسير المجلد الحادى عشر من مؤلفى .

"ركائز القدوة في تفسير الدعوة"

الذى انتهى بتفسير سورة "ص" ... وقد سرت فيه على نفس المنهج الذى اتبعته في المجلدات السابقة ، وهو المنهج الذى وضحته في المجلد الأول . وقد حاولت فيه إيراد عدد من آيات السورة ذات الموضوع الواحد وتقسيمها إلى مقاطع ، أو مشاهد ، أو مواقف ، وتفسيرها متتابعة لأقدم الموضوع مترابطة ، على أن أوضح الركائز بعد الانتهاء من تفسير عدد من الموضوعات المتشابهة ، مثل قصص الأنبياء ، أو الآيات الكونية ... أو غير ذلك ... وقد اخترت إيراد تفصيلات عديدة ، وركائز كثيرة غير الركائز التى ذكرتها فى السور السابقة في هذا التفسير ، وإن تشابه موضوع الآيات .

إن السورة المكية تتشابه في الغايات التى تقصدها ، والأهداف التى ترجوها ، ومهما تنوعت أساليبها ، وتعددت قضاياها فهى كلها تتجه إلى إثبات العقيدة الصحيحة ، وتأكيد أركانها، ولذلك اقتربت صور الركائز المستفادة منها. إن موضوعات السور المكية هى موضوعات العقيدة الإسلامية ، والآيات والبراهين والأدلة في هذه السورة تقدم العديد من الأساليب الدعوية ، وتوضح

(١٠)

المناهج المفيدة في دعوة سائر الطوائف الاجتماعية ، وتناقش كافة الانحرافات المذهبية والفكرية ، وتوضح التباين الكبير في الطبائع الإنسانية والبشرية . ومع الوحدة الموضوعية نجد التنوع في المنهج ، والأسلوب ، والتوجيه والتأثير بصور عديدة ... وهذا يؤكد أن القرآن الكريم هو كتاب الدعوة ، وهو رسالة البلاغ ، الذى تبشر ، وتنذر ، وتدعو .

إن ركائز الدعوة هى الأسس الرئيسية في منهج الدعوة ، وآمل من تحديدها ، وبيانها أن تكون وسيلة عملية متصلة بالآيات يستفيد الدعاة بها ويستنبطونها ، وهم يعملون في رحاب القرآن الكريم .

وآمل أن يحذو المخلصون من الدعاة والعلماء حذو هذا التفسير ، ويأخذون من القرآن الكريم الدروس والعبر لتكون ركائز لهم ، وهو يحدثون الناس ... ويأحبذا أن يجمعوا ما فتح الله عليهم به في مؤلف مطبوع إثراء للركائز ، وتعاوننا في الغاية التى دفعتنى إلى هذا التفسير .

إنى أسأل الله تعالى أن ينفعنى به في الآخرة ، وأن ينفع به المسلمين في الدنيا ، وأن يصير منارة هادية للدعاة إلى الله تعالى .

والله من وراء القصد ... وهو حسبى ونعم الوكيل .

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

غرة ربيع أول ١٤٣٤هـ
م. نصر فى
١٣ يناير ٢٠١٣م

سورة "الزمر"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٣)

- أولا -

التعريف بسورة "الزمر"

سورة "الزمر" سورة مكية بالإجماع ، وقيل إن بعض آياتها مدنية^(١) .
والآيات التي قيل إنها مدنية هي:

(١) قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾
وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٢٠﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢١﴾ .

(٢) قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾^(٣) .

(٣) ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾^(٤) .

وتسمى السورة باسم "الزمر" وهو أشهر أسمائها ، وسميت بذلك لوقوع هذا اللفظ فيها دون غيرها من سور القرآن الكريم .
كما تسمى بسورة "الغرف" لقوله تعالى فيها : ﴿ هُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا غُرْفٌ ﴾^(٥) .

(١) التحرير والتتوير ج ٢٣ ص ٣١٢ . (٢) سورة الزمر ، الآيات ٥٣ . ٥٥ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ١٠ . (٤) سورة الزمر ، الآية ٢٢ .

(٥) سورة الزمر ، الآية ٢٠ .

وقد نزلت سورة "الزمر" بعد سورة "سبا" .

وقد عد بعض المفسرين سورة "الزمر" من سور "آل حم" لنزولها قبلهم مباشرة ، وتشابه بدئها ببداياتهم ، واتحاد موضوعاتها ، مع موضوعاتهم إلا أن جمهور المفسرين لم يروا ذلك لعدم تصديرها بـ "حم" الحروف المقطعة التي بدأت بها "آل حم" .

وعدد آياتها عند المكيين والمدنيين والبصريين اثنان وسبعون آية ، وعند أهل الشام ثلاث وسبعون آية ، وعند أهل الكوفة خمس وسبعون آية .
وسورة "الزمر" تتصل بسورة "ص" من عدة أوجه منها :

(١) تناولت سورة "ص" في أولها وآخرها بيان علو شأن القرآن الكريم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾^(١) ، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾^(٢) وجاءت سورة "الزمر" تعالى شأن القرآن عديدة منها قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾^(٣) ، و ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾^(٤) ، و ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ﴾^(٥) .

(٢) تناولت سورة "ص" عديدا من رسل الله ، ووصفتهم بالعبودية ، وجاءت سورة "الزمر" وأمرت النبي ﷺ بالعبودية في قوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ ﴾^(٦) وفي قوله : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾^(٧) ونادى الله المؤمنين بقوله : ﴿ يٰعِبَادِي ﴾ .

وقد تناولت سورة "الزمر" جميع موضوعات العقيدة مثل سائر السور المكية .

(٢) سورة ص ، الآية ٨٧ .

(٤) سورة الزمر ، الآية ٢٣ .

(٦) سورة الزمر ، الآية ٢ .

(١) سورة ص ، الآية ١ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ١ .

(٥) سورة الزمر ، الآية ٥٩ .

(٧) سورة الزمر ، الآية ٦٦ .

(١٥)

- ثانيا -

- التفسير -

القرآن الكريم مصدر الهداية والإيمان

يقول الله تعالى :

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿ ۝

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل الكتاب بالحق رحمة منه بعباده ، ليعرفوا ربهم ويعبدوه حقا ، ويخلصوا له ، ويتيقنوا أن الدين خالص لله تعالى ، وما أمر الله الناس إلا ليعبدوه مخلصين له الدين حنفاء ، وقد ضل الكافرون عن دين الله فعبدوا آلهة أخرى ، وزعموا أنها تقربهم إلى الله تعالى ، وسوف يحاسبهم الله على ضلالهم ، وكفرهم ، وكذبهم وقولهم : إن الله اتخذ ولدا ، واختص نفسه بالبنات مع ظنهم أنهم أقل منزلة من البنين .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ﴾ أى أنزل الله القرآن الكريم من عنده منجما على

رسول الله ﷺ هاديا للحق ، ومبشرا للطائعين ، ومنذرا للعصاة .

وقد افتتح الله السورة بهذه الحقيقة عن القرآن الكريم بيانا لشرفه ، واطهارا لعلو قدره ، فهو كلام الله المنزل على رسول الله لتبليغ الناس دين الله تعالى .
و ﴿ تَزِيلُ ﴾ مصدر "نزل" الرباعى بالتضعيف لإفادة أن القرآن الكريم نزل منجما وفق حاجات الناس ، ومتطلبات الدعوة .

والألف واللام في ﴿ أَلِكْتَبِ ﴾ للعهد بنوعيه الذهني والذكري ، لأن المستمع والقارئ يعلم أن المراد من الكتاب عند الاطلاق هو القرآن الكريم ، وأن الكتاب اسم للقرآن الكريم ، وقد سبق في كلام الله تعالى أن القرآن الكريم هو الكتاب المبين فهو اسم مذكور معلوم .

﴿ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أى إن القرآن الكريم نزل من عند الله العزيز الحكيم ، وقد صورت الآية مصدر تنزل القرآن الكريم لبيان علو منزلته وشرفه ، ويكفيه شرفا ومقاما أنه كلام الله تعالى الذى اختص به رسوله محمدا ﷺ ليكون دستور الإسلام ، ووصف الله نفسه بصفتي العزيز والحكيم في الآية إشارة إلى ما في القرآن الكريم من آثار هاتين الصفتين . فالقرآن الكريم عزيز في حججه ، غالب خصومه ببراهينه وآياته ، غالب بهيمنته على سائر الكتب المنزلة ، وغالب في قهر كل من أراده بسوء ، وذلك بسبب ما وضع الله فيه من عزة ، ووضوح ، وتيسير ... وقد ثبت عجز البلغاء والفصحاء أن يأتوا بأقصر سورة منه .

ومن صفة ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ يأخذ القرآن الكريم أنه مصدر الحكم . يقول الله تعالى : ﴿ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ ^(١) ... ويأخذ سلطة الحكم التى تعلق

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٩ .

غيرها من الأحكام . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا ﴾ ^(١) ...
 ويتميز بالحكمة والدقة . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا
 فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ^(٢) .

واشتمال القرآن الكريم على هذين الوصفين يحتم ضرورة الإقرار له
 بالفضل ، ووضعه في منزلته بين الأقوال والأحكام ، وأهمية تدبره والعناية به
 ، وفهمه ليكون العمل به موافقا لمراد الله على قدر الطاقة البشرية .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى أنزلنا القرآن الكريم إليك يا
 محمد متلبسا بالحق ومشتملا على الصدق في جميع معانيه ، وألفاظه ، وسائر
 مواعظه وأحكامه .

والآية تكرر وتؤكد للآية الأولى ، وبيان لمنزلة القرآن الكريم ، وعلو
 شأنه . ففي الآية الأولى بيان عزة القرآن الكريم وحكمته المنزل بهما من الله ...
 وفي هذه الآية بيان اشتمال القرآن على الدقة ، والصواب .

وأكدت الآية عظمة القرآن الكريم ببيان مصدره ، وتعريف المنزل عليه
 وتوضيح موضوعه ، فمصدره الله العظيم ، وقد أكد الله عظمته بـ "تأ" مع
 الحرف "إن" ومع الفعل ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ... والعظيم لا ينزل لعباده إلا عظيما ...
 والقرآن الكريم منزل على محمد ﷺ وهو رسول الله الذي أكرمه الله بالرسالة
 وأنزل كلامه له ليكون دستوراً للناس ، ومنهجاً للتي هو أقوم ... وقد نزل القرآن
 الكريم بدين الله تعالى متلبسا بالحق ، مشتملا عليه ، داعيا له فهو يهdy إلى
 صراط الله المستقيم .

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٨٢ .

وقد أعادت الآية الثانية ذكر ﴿الْكِتَابِ﴾ لتأكيد مزايا القرآن الواردة في الآية الأولى ، وبيان أنه حاز من الفضل الكثير حتى صار هو الكتاب المعلوم قدره ، ووظيفته .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ ﴾ يفيد نزول القرآن منجما ، وقوله : ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يفيد نزوله دفعة واحدة . فما معنى هذا ؟

أقول : نزول القرآن دفعة واحدة يعنى نزوله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ... ونزوله منجما يعنى نزوله من السماء الدنيا إلى رسول الله ﷺ .

﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ الأمر لرسول الله ﷺ ليعبد الله وحده ولا يقصد بعمله ، وقوله إلا وجهه ، ومعنى الآية إن الله أكرمك واصطفاك ، وأرسلك ، وأنزل عليك القرآن الكريم يا محمد فاعبده عبادة صافية ، خالية من شوائب الدنيا ، وسوءات المشركين ... وجاء الأمر بالعبادة مصدرا بالفاء لبيان ضرورة المسارعة إلى العبادة في إخلاص تام ، وعبودية كاملة ، لأن إنزال القرآن يبين المنهج المستقيم للإيمان ، ويوضح سفاهة المشركين والعصاة الذين يكفرون بنعم الله تعالى ، ويجحدون فضائله ، ولذلك فهم لا يشكرون ولا يؤمنون .

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أى أن التوحيد الخالص ، والعبادة القائنة لله تعالى حق ثابت له سبحانه ، فقد عمت نعمه الإنسان منذ أن خلقه ، وأنشأه ، وسواه ، وسخر له الكون كله ، وفى تقدم الجار مع لفظ الجلالة ضرورة قصر العبادة الخالصة له سبحانه وتعالى .

و ﴿ أَلَا ﴾ حرف تنبيه لتأكيد هذا الحق الثابت لله تعالى ، وقد تقدم الخبر لتأكيد هذه الحقيقة ، واثبات أن عبودية الناس ثابتة لله وحده .

والمراد بـ ﴿الَّذِينَ﴾ مطلق الخضوع ، والطاعة ، والخلوص من أى شبهة ،
أو قصور ، والتجرد من أى غرض دنيوى .
ومما يتفرع على معنى الآية إخلاص المؤمن فى العبادة ، أى أن يعبد الله
لأجل الله ، أى طلبا لرضاه ، وامتنالا لأمره ، وأن يجعل النية فى كل حياته لله
وحده ، والى ذلك يشير قول النبى ﷺ : "إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ
ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن
كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" (١) .
وعرف الغزالي الإخلاص بأنه تجريد قصد التقرب إلى الله عن جميع
الشوائب ، وسائر الأغراض .

والإخلاص فى العبادة أن يكون الداعي إلى فعل المأمور به أو ترك
المنهي عنه إرضاء الله تعالى ، وهو معنى قولهم : لوجه الله ، أى لقصد
الامتثال بحيث لا يكون الحظ الدنيوي هو الباعث على العبادة ، مثل أن يعبد
الله ليمدحه الناس بحيث لو تعطل المدح لترك العبادة .

ولذا قيل : الرياء هو الشرك الأصغر ، أى إذا كان هو الباعث على
العمل ، ومثل ذلك من يقاتل لأجل الغنيمة فلو أيس منها ترك القتال ، فأما إن
كان للنفس حظ عاجل وحصل تبعا للعبادة ، وليس هو المقصود بذاته فالمغفرة
له أظهر وخاصة إذا كان هذا الحظ لا تخلو عنه النفوس ، أو كان مما يعين
على الاستزادة من العبادة .

وقد سئل النبى ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاقل حمية فأى ذلك فى
سبيل الله ؟

(١) صحيح البخارى . كتاب المقدمة . باب بدء الوحي ج ١ ص ٦ .

(٢٠)

فقال ﷺ : "من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو المقاتل في سبيل الله^(١) .

يقول الرازي : واعلم أن العبادة مع الإخلاص لا تعرف حقيقة إلا إذا عرفنا أن العبادة ما هي ؟ ... وأن الإخلاص ما هو ؟ ... وأن الوجوه المنافية للإخلاص ما هي ؟ ... فهذه أمور ثلاثة لا بد من البحث عنها :
أما العبادة : فهي فعل أو قول ، أو ترك فعل أو ترك قول ، يؤديه صاحبه لمجرد اعتقاد أن الأمر به عظيم يجب قبوله .

وأما الإخلاص : فهو أن يكون الداعي للفعل أو الترك مجرد الانقياد والامتثال ، فإن حصل معه داع آخر ، فإما أن يكون جانب الداعي إلى الطاعة راجحا على الجانب الآخر ، أو معادلا له ، أو مرجوحا . وأجمعوا على أن المعادل والمرجوح ساقط .

وأما إذا كان الداعي إلى طاعة الله راجحا على الجانب الآخر فقد اختلف العلماء في أنه هل يفيد أم لا ؟ ... على قولين .

ولفظ القرآن الكريم يدل على وجوب الإتيان به على سبيل الخلوص ، لأن قوله : ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا ﴾ صريح في أنه يجب الإتيان بالعبادة على سبيل الخلوص وتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾^(٢)
وأما الوجوه المنافية للإخلاص التام فهي :

(١) أن يكون للرياء والسمعة فيه مدخل .

(٢) أن يكون مقصود المسلم من الطاعة الفوز بالجنة والخلاص من النار .

(١) صحيح البخارى . كتاب العلم . باب من سأل ج ١ ص ٣٦ .

(٢) سورة البينة ، الآية ٥ .

(٢١)

(٣) أن يأتي المسلم بالطاعة ويعتقد أن لها تأثيرا في إيجاب الثواب ،
أو دفع العقاب^(١) .

إن الإيمان هو التجرد التام في الاستسلام ، والصدق المطلق في التوجه
لله وحده .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا
إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أى إن المشركين الذين يتخذون غير الله آلهة يعبدونها وهم
على ضلال بعيد عن الإيمان والإخلاص .

وقولهم : إنا نعبد الأصنام لتقربنا إلى الله الكبير تأكيد لجهلهم وضلالهم
لأنهم كانوا يزعمون : أن الله أكبر من أن يتصلوا به مباشرة ، ويرون ضرورة
اتخاذ آلهة صغرى تقربهم إليه ، وكانوا يعبدونها ، ويقدمون لها المناسك ظنا
منهم أنهم يعبدون الله الكبير ... وقد زين لهم الشيطان أعمالهم ، فكفروا بالله ،
وعبدوا غيره على خلاف ما أمروا به . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا
لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾^(٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي
كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾^(٣) .

وانما عدت عبادتهم للأصنام جهلا لأن العبادة تعظيم للمعبود مباشرة فهو
السميع العليم ، واتخاذ وسطاء له من الأحجار لا يحقق شيئا ، لأن الأصنام
جماد لا تسمع ولا تعي ، ولا تقدر على شفاعاة وتنفيذ رجاء ...

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٢٦ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(٢) سورة البينة ، الآية ٥ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

وعدت عبادتهم ضلالا لأنها انحرف عن العدل والمنطق ، ومن الحقائق الثابتة أن الشكر يكون لمن أنعم ، والطاعة تكون لمن خلق ... وهم يعارضون ذلك .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى إن الله يحكم

يوم القيامة بين المؤمنين الصادقين ، وبين المشركين الجاحدين الضالين ، وسيعلم كل فريق القول الفصل ، وسينال كل إنسان عاقبة قوله ، وعمله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أى إن حال الناس

فى الدنيا ، وتقدير الله لهم قائم على ما فى قلب الإنسان من ميل ، ورغبة ، وما فى طبيعته من خلق وسلوك ، فمن كان فى طبعه وقلبه حب الكفر ، والميل إلى الجحود والكذب فلن يهديه الله للصواب ، ولن يرشده للحق ، فقد رضى بالباطل ، ولم يفكر فى صواب ، أو ضلال ما يتمنى ، وجعل الله ولدا ، وتصوره على هينات شتى ، وتقول على الله بأقوال تجعل الله خاضعا لهواه ، مع أن إرادة الله مطلقة ، وقدرته نافذة شاملة ف ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا

سَخَّطَ مَا يَشَاءُ ﴾ أى إن الله واحد لا شريك له يفعل ما يشاء ، فلو أراد سبحانه وتعالى . وحاشاه . أن يتخذ ولدا من الناس لاختاره من أفضل عباده ، وأكملهم ، لكنه سبحانه وتعالى تنزه عن ذلك ، ... ولكنهم يدعون لله الولد ، ويختارون له البنات ، وهم فى نظرهم أقل شأنا من الذكور ... وهذا دليل ضلالهم وكفرهم فقد شبهوا الله بالحوادث ، وزعموا حاجته لولد ، واختاروا له أقل الأولاد قدرا ، وشأنا ، وهم البنات ، تعالى الله عن ذلك علو كبيرا .

والمراد من هذا الكلام رد مزاعم المشركين وبيان ذلك من وجوه :

(٢٣)

الأول : أنه لو اتخذ ولدا لما رضي إلا بأكمل الأولاد وهو الابن ، فكيف نسبتم إليه البنت ؟

الثاني : أنه سبحانه واحد حقيقي ، والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد ، أما أنه واحد حقيقي فلأنه لو كان مركبا لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه ، والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته الواحد ، ولا يكون له ولد لوجوه عدة :

(١) أن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشئ ينفصل عنه ، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد . وهذا إنما يعقل في الشئ الذي ينفصل منه جزء ، والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه .

(٢) شرط الولد أن يكون مماثلا في تمام الماهية للوالد ، وذلك محال . فثبت من كونه إلها عدم ثبوت الولد .

(٣) أن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة ، والزوجان لابد وأن يكونا من جنس واحد ، فلو كان له ولد لما كان واحدا بل كانت زوجته من جنسه ، وكونه تعالى قهارا يمنع من ثبوت الولد له ، لأن المحتاج إلى الولد يكون مقهورا بالموت وبالْحاجة ، والله هو الواحد القهار وفي هذا دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى .

﴿ سُبْحَنَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى تنزه الله وتقدس عن زعم

المشركين ، وجعلهم لله ولدا ، فهو الواحد القادر لم يتخذ صاحبه ولا ولدا ، وقد دانت له المخلوقات .

وناسب ختام الآية موضوعها لأن المشركين بالغوا في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وأكثروا من عبادتهم للأصنام وكفرهم بالله تعالى ، فكان أن عرفهم الله تعالى أنه شديد القهر شديد العقاب لهؤلاء الظالمين .

(٢٤)

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن القرآن الكريم منزل من عند الله نعمة ، ورحمة وتفضلا على العباد ليعبدوه وحده ، فى إخلاص ، وصفاء ، كما أمر سبحانه وتعالى ، فله سبحانه الدين كله صافيا خالصا ... أما الكافرون فهم يعبدون غير الله تعالى ، ويزعمون أن عبادة الأصنام تقربهم إلى الله ، وتصلهم به ، وهذا جهل وخبال ، ووهم ، وسوف يبين الله يوم القيامة للناس جميعا حقيقة ما كانوا فيه ... وهو سبحانه وتعالى لا يهدى للحق من فى قلبه حب الكفر والجحود ...

وتبين الآيات أن المشركين قد عميت أبصارهم فزعموا أن البنات أولاد الله ، وهذا لا يليق بالله تعالى فالخلق جميعا عبيده ، وهو رب العالمين ... ولن يقبل العقل التناقض بجعل الإله أبا ، أو إينا ... فهو سبحانه لم يتخذ زوجة ، وهو الواحد منذ الأزل ، لا شريك له .

- ٤ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية الإخلاص لله فى العبادة

يشهد الكون على وجود خالق ومخلوق ، وصانع ومصنوع ، فكافة ما فى الوجود مصنوع له صانع موجود هو الله الله الخالق العظيم .

والإنسان مخلوق مكلف ، مسئول من بين سائر المخلوقات . فقد أكرمه الله تعالى بطاقات عديدة ، وأكرمه على سائر الخلق بالعقل الفاهم المدرك الذى يفهم الجزئيات فى ذاتها ، وعند اختلاطها بغيرها من الجزئيات ... وقد خاطب

الله العقل ، وأمدّه بالأدلة والبراهين والحجج التى تمكنه من معرفة الله تعالى ، وتحثه على وضع كل ما يفكر فيه فى موضعه الذى يليق به ، ولا يحكم بأمر إلا بعد الوقوف على صلاحية الحكم به ، وثبوتّه بأدلتّه ، وبراهينه .

إن الألوهية تعتمد على إثبات القدرة التامة على التصرف المطلق لله فى سائر الموجودات ، واتصاف الله بكل كمال يليق به سبحانه وتعالى ، وتحكم الله فى خلقه إيجادا واعداما ، وإحياء ، وأماته ، ومسارا ، وحركة .

إن العاقل يرى الجديد فى كل لحظة ، ويرى الغرائب والعجائب ذات الدلالة المبهرة ، والغايات المقصودة التى تؤكد وجود قدرة حكيمة وراءها .

ويرى العاقل من واقع الحياة تعدد التصرف فى المخلوقات حيث العطاء والحرمان ، والغنى والفقر ، والسداد والفشل ، والصحة والمرض ، والنجاح والفشل ... ولا تفسير لهذا إلا بوجود قوة غيبية تتميز بالدقة ، والقدرة .

ولا وجود لقدرة فى هذا الوجود تفعل كل هذا وغيره إلا قدرة الله تعالى أما المشركون الغافلون فإنهم يزعمون أوهاما ... ويتخذون الأصنام آلهة يعبدونها ، مع أنهم يعلمون هوانها فقد صنعوها بأيديهم ، ويعلمون أنه لا قدرة لها لأنها حجر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يقدر على شئ . أى شئ .

ويتمادى المشركون فى الباطل ويزعمون أن الله البنات ولهم البنون فيختارون لأنفسهم ، ويختارون الناقص لله ... وبدل أن يفكروا فى الخلق ، والإيجاد ، وسر التنوع ، ويبحثوا عن من قدر وهدى ... بدل ذلك يجعلون البنات لله ، وكذبوا فالخلق كله لله ، وقد جعل المرأة سبب وجود الرجل فهى أمه ، وربط بين البنت والولد بالزواج لتدوم الحياة ، وتوجد الذارى .

إن المعرفة اليقينية بالله تؤدى إلى ضرورة عبادته وحده فى إخلاص وصدق وطاعته وحده مع البعد التام عن الرياء ، والأنانية .

إن العبادة الخالصة تربط المخلوق بالخالق ، وتسعد المخلوق حين يشعر أنه يعيش مع الواجب الذى خلقه الله له ، وتعينه فى إبعاد الشيطان ، وهزيمة المعوقين عن الحق .

ومسئولية الدعاة فى هذا الإطار الدينى يقوم على ما يلى :

أولاً : أن يهتموا بالإخلاص فى أنفسهم قبل كل شئ ، لأن فاقده الشئ لا يعطيه ، وقلوب العباد تتلاقى ، وما خرج من القلب يصل للقلب ، وما خرج من اللسان فقط لا يتجاوز أسماع الناس .

ثانياً : تعريف العابد بالله المعبود وصفاته العلى بما تدل عليه من رحمة ورأفة ، وكرم وعطاء... وبما تضمنه من إبهار فى خلق هذا الوجود ، والتحكم فى مساره فى الدنيا وفى الآخرة... وبما تشمله من قهر ، وعز ، وقدرة.

ثالثاً : تعريف الناس بالعبادة وتنوعها فعلاً أو تركاً ، ومنهج الإخلاص فيها لله رب العالمين .

رابعاً : توضيح الشوائب التى تحرم الإنسان من الإخلاص فى عبادته لله تعالى .

الركيزة الثانية

ضلال فكر المشركين

تدل أقوال المشركين وحججهم على سفاهتهم وتهاافتهم ، فهم يعبدون الأصنام ويتخذونها وسيلتهم إلى الله مع أنها لا تصلح لشيء ، وهم أقدر منها على الاتصال بالله تعالى ، وقد جاء الرسل لهم لتحديد طرق الاتصال بالله تعالى ، ، وليس منها هذه الجمادات المصنوعة .

والمشركون يكفرون باليوم الآخر ، والأصنام بين أيديهم لا تضر ولا تنفع ، فمتى تقوم بدورها المأمول منها فى نظرهم ؟

(٢٧)

والمشركون يقاسمون الله فى خلقه ، ويجعلون له النبات ولهم البنين ، وهم بهذا يفضلون أنفسهم على الله ، ويسلبون منه الإرادة والقدرة ، ويتقربون للأصنام من دون الله تعالى :

- أليس من السفاهة عبادة الحجر ؟
- وأليس من الجهل التقاسم مع الله ، وجعل الأفضل لهم ؟
- وأليس من الضلال جعل المرأة فى منزلة أدنى من الرجل ، وهى الأم والزوجة ، وصانعة الرجال ؟
- وأليس من الضلال أن يعيش الإنسان فى هذا الكون الفسيح ، ولا يفكر فى موجد ه ؟
- وأليس تأليه حيوان ، أو حجر ، أو أوهام دليلا على هوان الإنسان أمام نفسه بعد أن تعبد لحجر وأوهام ؟
- أرونى شيئا خلقته الأصنام ليكون دليلا على ألوهيتهم ... إنهم لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له !!

إن المشركين لا يعقلون ، وأعمالهم كلها ضلال مبين .

آيات الله ، وتحكمه فى عباده

يقول الله تعالى :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ
النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۚ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ
أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿١﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا
مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ
فَإَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٢﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة أن الله أنزل الكتاب على رسول الله ﷺ ،
وأمر الناس بالإخلاص فى العبادة باستقامتهم فى طاعة رسول الله ﷺ
واتخاذهم ﷺ أسوة وقدوة لهم ، ويتم ذلك بالإيمان بالقرآن الكريم ، والوحى المنزل
على رسول الله ﷺ ، والإخلاص التام فى عبادة الله تعالى وحده ، ووضحت
أيضا أن المشركين كفروا بالله ، وعبدوا الأصنام من دونه لتقربهم إليه ،
وزعموا أن له ولدا ، جاءت هذه الآيات لبيان أدلة التوحيد وإثبات أنه سبحانه
غنى عن المخلوقات ، وأنه سيحاسب الناس جميعا ، وسيجازيهم بما يستحقون .

(٢٩)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيات دلائل قدرة الله تعالى ، ووحدانيته فى خلق الإنسان ،
والسموات ، والأرض ، والليل ، ونحت الإنسان على الإيمان بالله تعالى ،
وتعرفه بان الحساب دقيق يوم القيامة ، فمن كفر فعليه كفره ، ومن آمن فله
إيمانه ... وتبين الآيات أن الإنسان يعرف الله بفطرته ، ويرجوه عند الشدة إلا
أن الشيطان يضلّه عن الحق ، ويبعده عن الصواب ، ويجعله من أصحاب
النار .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

توضح الآيات عددا من الآيات الكونية والإنسانية الدالة على وحدانية الله
تعالى ، وقدرته ، وضرورة إخلاص العبادة له ، ونلاحظ أن الآيات أوردت كل
آيتين متقابلتين معا ، ووضحت مدى تعاونهما فى خدمة الإنسان كما قدر الله
تعالى لهما لتتجلى قدرة الله ، وتظهر عظمة الآية أمام الإنسان ... وهذه الآيات
هى :

(١) آيتا السماء والأرض :

يقول الله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أى خلق الله لكم أيها
الناس العالم العلوى ، والعالم السفلى ، وأودع فيهما بديع صنعه ، وآيات قدرته ،
وسخرهما للإنسان فمن السماء المطر ، والتقدير ، والوحى ، والدين ومن
الأرض الزرع ، والنبات ، والحب ، والفاكهة .
والسموات والأرض متقابلتان ، متماسكتان ، متعاونتان فى خدمة الإنسان
، فى تقدير مبدع ، وقدرة قاهرة . يقول الله تعالى : ﴿ رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ﴾

(٣٠)

تَرَوْنَهَا ﴿١﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿٢﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ
وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿٣﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿٤﴾ ١﴾ .

﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى خلق السماوات والأرض متلبسين بالحق ، الخالى من
العبث ، فكل شئ موزون ، ورغم تباعدهما فى المكان فهما مترابطان فى
الحركة ، يحتاج كل منهما للآخر ، وهذا من دلالة قيامهما على الحق
والصواب .

(٢) آيتا الليل والنهار :

يقول الله تعالى : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾

التكوير هو اللف واللى ، مثل تكوير العمامة على الرأس وعكسه التحوير وهو
فك اللى وحله ومنه قوله ﷺ : "أعوذ بالله من الحور بعد الكور" (٣)
أى أعوذ بالله من الإدبار عن الدين بعد الاقبال عليه . والمعنى أن الليل والنهار
يدوران حول الأرض فى تتابع كامل ، وفلك مستقيم ، وتداخل واضح فى ولوج
لا يعرف أوله من آخره لصناعة زمن متكامل ، تتغير صورته وحركته مع وحدة
صانعه وغايته .

ويستفيد الإنسان بهاتين الآيتين راحة وسكنا بالليل ، وشغلا وعملا بالنهار
، وعليه أن يتيقن بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، الذى لا يستطيع مخلوق أن
يفعل شيئا معهما .

(١) سورة الرعد ، الآية ٢ .

(٢) سورة الرحمن ، الآيات ١٠ . ١٢ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الحج . باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج ج ٢ ص ٩٧٩ .

(٣) آيتا الشمس والقمر :

يقول الله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

أي كما جعل الله الليل والنهار منقادين له سبحانه وتعالى سخر خلالهما الشمس والقمر ، وسيرهما فى تتابع ثابت ، ووضعهما فى فلك لا يتغير ، لتحقيق مصالح العباد ، وقدر لهما دوام التتابع الدقيق إلى أن يحين أجلهما بمجئ يوم القيامة . يقول الله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آِلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾^(١) .

﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ أى إن الله الذى خلق كل هذا هو الإله الغالب ، القوى ، القهار ، الذى يستحق أن يعبد وحده ، وهو الغفور لعباده ، القابل لتوبتهم ، وما عداه من شركاء أوهام ومزاعم لا حقيقة لها . وبعد أن بينت الآيات السابقة الآيات الكونية التى يراها الإنسان حوله جاءت الآيات بآيات ملاصقة للإنسان هى .

(٤) التزاوج فى خلق الإنسان :

يقول الله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

أى إن الله سبحانه وتعالى أوجدكم من نفس واحدة ، هى نفس آدم عليه السلام ، فقد أخرج الله من ضلع زوجته حواء ، وخلق منهما الناس أجمعين ، ومع ذلك اختلفت ألوانكم ، وألسنتكم ، وقبائلكم ، وشعوبكم لتروا قدرة الله ، وتؤمنوا به .

(١) سورة يس ، الآية ٤٠ .

(٥) التزاوج فى خلق الأنعام :

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أزْوَاجٍ ﴾ أى خلق لكم من الأنعام ثمانية أنواع ، كل نوع مكون من ذكر وأنثى ، وبهما تكاثرت الأنعام لتكون طعاما ، ومنفعة لكم ، وللناس فى كل مكان وزمان . ومعنى إنزال الأنعام تسخيرها للإنسان ، أو إنزال أصلها فى سفينة نوح عليه السلام فتكاثرت به ، ومألت الأرض بعد نوح عليه السلام .

(٦) تطور الإنسان فى الخلق :

يقول الله تعالى : ﴿ تَخَلَّقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أى يبدأ الله خلقكم أيها الإنسان فى بطون أمهاتكم نطفة ، ثم يطورها علقة مضغة . يقول النبى ﷺ : "إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ، ورزقه ، وأجله ، وشقي أو سعيد" (١) .

والجنين فى كل طور يصير خلقا جديدا مغايرا للخلق الذى سبقه فى داخل المشيمة ، الموجودة فى الرحم ، داخل البطن . والجنين فى بطن أمه يمر بأطوار عديدة منها :

الأول : طور النطفة ، ويتم بعد التقاء ماء الرجل بماء المرأة ويتحول إلى جسم مخاطي ، مستدير ، أبيض خال من الأعضاء .
الثاني : طور العلقة ، وهي تتكون بعد ثلاثة وثلاثين يوما من وقت استقرار النطفة فى الرحم ، وتكون فى حجم النملة الكبيرة .
الثالث : طور المضغة ، وهي قطعة حمراء فى حجم النحلة .

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق . باب ذكر الملائكة ج ٤ ص ١١ .

(٣٣)

الرابع : طور التخليق ، وفيه يتكون العظم ، ويكسوه اللحم ، ويكبر شيئاً فشيئاً ، ومع نموه يزداد حجمه ويتكون شكله الأدمى صغيراً ويكبر شيئاً فشيئاً ، حتى يتم خلقه ، ويحين مولده .

﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ أى يوجد الجنين فى بطن أمه فى ظلمات ثلاث هى ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة وهى أشدها وأقواها ، لأن المشيمة جلد يخلقه الله حول الجنين لوقايته من التعفن ، وامداده بالغذاء الذى يحتاج إليه ، وصيانتة من كل ما يؤذيه ويضره ، والجنين فى ظلماته تلك يعيش برعاية الله تعالى .

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى إن الذى خلق ذلك هو الله الذى خلقكم ، واعتنى بكم ، وحفظكم .

﴿ لَهُ الْمُلْكُ ﴾ أى الملك كله لله وحده ، ولا ملك لغيره ، وتقدم الجار والمجرور ﴿ لَهُ ﴾ يفيد الحصر .

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَى تُصْرَفُونَ ﴾ أى خالق كل ذلك هو الله تعالى فلم تتركوا عبادته وحده مع وفور دواعى الإخلاص فى العبادة له ، وظهور الدلائل على أنه لا إله الله هو ؟

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات خلق السموات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر وخلق الناس من ذكر وأنثى ، وخلق الأنواع كلها من ذكر وأنثى كذلك ، ووجهت الآيات إلى الاستفادة بها فى الإيمان بالله تعالى .

(٣٤)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

منهجية الآيات فى الدلالة

على قدرة الله تعالى

يظلم الإنسان نفسه حين يغفل البراهين والآيات التى خلقه الله بها ، وأتاه بكثير منها ، يلمسها ، ويراها أمامه ، ويحتاج إليها ، ولا يمكنه أن يعيش بدونها وتتملك الإنسان الغفلة فيتمتع بآيات الله ، ولا يبحث عن موجدتها ، ولا عمن يصونها ، ويهدئها لمهامها بلا توقف ، أو تناقض ... ويسيطر عليه شيطانه وغروره فيتعمى عن هذه الآيات رغم سطوع بيانها ، ووضح دلالاتها .
وحين ينظر الإنسان فى الآيات المذكورة ندرك المقدار الذى ظلم به نفسه...

فهذه الآيات . أولا . شاملة ، تعيش الناس ، ويراهها كل إنسان فى نفسه ، وفى الكون من حوله ، فالجنين فى بطن أمه حلم الآباء بالأبناء ، يحفظه الله ويرعاه حتى يخرج إلى الوجود طفلا ، ويحيا إلى أن يحين أجله ، ويلقى الله تعالى ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والأرض ، والأنعام والدواب ... وهى مجالات حياة الإنسان ، ونشاطه وحركته .

وهى . ثانيا . سهلة الفهم ، يسيرة الدلالة ، فهى ظاهرة فى حركتها ، وعملها ، ومهامها ، وليس فى المخلوقات من يدعى أنه أوجد شيئا منها ، أو أنه يملك شيئا من عملها ، أو أنه يقدر على تغيير وظيفة تقوم بها ... فما هى الشمس تأتى من المشرق فهل يستطيع مخلوق أن يأتى بها من المغرب ؟ ... وهذا الجنين فى بطن أمه هبة إلهية لا يمكن لمخلوق أن يوجد جنينا ...

فالله سبحانه وتعالى : ﴿ يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (١) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ﴾ (٢) ... وهذه الروح فى الإنسان يأخذها الله عند أجل صاحبها ... فهل يستطيع مخلوق أن يمنع الموت أو يؤجله ؟ ... يقول الله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ وَخُنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) .

وهى . ثالثا . تثبت بوضوح عجز الناس أمام القدرة الإلهية ، عن طريق عرض الآيات المبهرة الضخمة مثل خلق السماوات والأرض ، والشمس والقمر ، والأنعام ... الخ وهى مخلوقات يقف الإنسان مبهورا أمامها ويسلم بوجود خالق لها ... ويؤكد أنه يتأمل ويبحث فى ظواهرها ، وحركتها وكيفية الاستفادة منها ... أما خلقها وإيجادها فهو غيب يفسره المؤمنون بأن الخالق هو الله تعالى .

إن الإنسان بين المخلوقات مخلوق ضعيف ، ميزه الله بالعقل ، والفتنة وأهله لحمل الإيمان والإسلام ، ووضع أمامه البراهين والحجج ، والآيات ليصل للحق عن قناعة ، ورضى .

ومنهج الآيات يوضح ما يلى :

- (١) ضرورة مخاطبة الإنسان ، وتعريفه بالله ، بأسلوب سهل ، ومعان دقيقة .
- (٢) أهمية الاستفادة بالواقع ليكون البرهان مسلما .
- (٣) ضرورة التركيز على النقاط المبهرة فى البراهين لمالها من تأثير فى الفطرة الإنسانية .

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٩ .

(٢) سورة الواقعة ، الآيات ٨٣ . ٨٧ .

وعلى الدعاة الاستفادة بمنهجية الآيات ، والأخذ منها فى دعوة الناس إلى الله تعالى .

الركيزة الثانية **أفعال العباد بين إرادة الله وقدرته**

أفعال العباد نوعان اضطرارية واختيارية ، ولا دخل للإنسان فى أفعاله الاضطرارية كدقات القلب وفعل النائم ، أما أفعاله الاختيارية فهو مسئول عنها ومحاسب بها .

والآيات تتناول أفعال العباد ، وتشير إلى صلتها بصفات الله تعالى ، ... فمن ناحية تؤكد الآيات بأن إرادة الله تعالى نافذة ، وقدرة الله شاملة لكل موجود وكل عمل ... ومعنى هذا أن الإنسان لا قدرة له أمام إرادة الله وقدرته ... ومن ناحية أخرى يأمر الله بالمعروف ويرضاه ، وينهى عن المنكر ويأباه ... وهذا الأمر يحتاج لتوضيح حتى لا يتصور تناقض بين الأمر والفعل .

إن الله هو الخالق للإنسان وعمله ... وهو سبحانه يأمر بالمعروف ، ويدعو للإيمان ... وهو . سبحانه . يعلم ما فى الصدور ، ويحيط بميول الإنسان ، ورغباته ، وأمانيه ... وحين يميل الإنسان للكفر والمعاصى التى نهى الله عنها فإن الله يجعله يكفر ، ويعصى ، ويحاسبه على كفره ومعاصيه . فالله سبحانه وتعالى لا يرضى بالكفر ، وينهى عنه ... وهو سبحانه يخلق الفعل الذى يحبه الإنسان ، ويرغب فيه .

وبذلك يتضح الأمر ، وتتحدد مسئولية الإنسان عن الفعل الذى سيحاسبه الله عليه ، ويظهر توجيه دعوة الله إلى القلب والعقل ، وقدرته متصلة بالعمل والسلوك .

(٣٧)

الإنسان مسئول عن عمله ولن يتساوى صالح ومجرم

يقول الله تعالى :

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتُ إِئْتَاءَ أَلِيلٍ سَاجِدًا وَقَآئِمًا تَحَذِّرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أدلة توحيد الله تعالى جاءت هذه الآيات لبيان أن الله مستغن عن الناس ، وإن كل إنسان سينال جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، ولن يتساوى القانت والعاصي ، والذين يعلمون والذين لا يعلمون في نظر العقل ، وحكم الله .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الإنسان مسئول عن عمله ، وأن الله غني عن عباده ، وأن الإيمان يقين واستقرار ، وأن الله سيجازي كل إنسان بعمله ، ولن يسوى الله بين العاملين المطيعين ، وبين العصاة الذين يجهلون ، ولا يعملون .

(٣٨)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ أى إن تكفروا أيها الناس بالله سبحانه وتعالى فعاقبة كفركم عليكم ، ولن تضروا الله فى شئ فهو . سبحانه . غنى عنكم وعن عبادتكم ، وهو سبحانه الغنى عن جميع خلقه ، وقد دعاكم إلى الحق ، وأرسل لكم الرسول رحمة بكم . يقول الله تعالى : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(١) ... يقول النبي ﷺ فى الحديث القدسي الذى رواه عن ربه : "يا عبادى لو أن أولكم ، وآخركم ، وانسكم ، وجنتكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا"^(٢) .

وعدم رضا الله بكفرهم بتعلق بأفعال المكلفين ، ومعنى قوله : ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾^(٣) ، أمام قوله : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾^(٤) يشير إلى تعلق الإرادة بالإيجاد والخلق ، ويترتب على ذلك أن كسب العباد هو أساس الحساب والعقاب ، وأن إرادة الله تتعلق بخلق الأفعال بعد كسب الإنسان وميله فأنه خالق للأفعال غير مكتسب لها ، والعبد مكتسب لها غير خالق لها .

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ط وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أى إن الله لا يرضى لعباده الكفر ، وانما يرضى منهم الإيمان بالله ، والإقرار بحقه ، وشكره بالطاعة على فضله ونعمه .

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٨ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة . باب تحريم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٤ .

(٣) سورة الزمر ، الآية ٧ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية ١١٢ .

ومع ذلك يحقق الله لكل إنسان في حياته العملية ما رضى به ، وتمناه في قلبه ، ومال إليه ، معارضا لمراد الله تعالى فيحقق الله مراده ، ويعاقب الإنسان على كسبه .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ أى أن الله تعالى يحكم بين عباده بالعدل فلا تتحمل نفس حمل وزر غيرها ، ولن يضيع لمحسن شئ من عمله ، ولن تأخذ نفس ثوابا من أخرى .

﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إن مصيركم إلى الله ، ومرجعكم إليه يوم القيامة فيخبركم بما سبق من أعمالكم ، ويسوقها إليكم مصورة ، وناطقة ، ومعها الشواهد المثبتة لها ، ويأتى الخبر مصاحبا لصاحبه حين الحساب قبل دخول الجنة أو دخول النار .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى أن الله مطلع على كل شئ ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وعلمه شامل للظاهر والخفى ، وما تقوم به الجوارح ، أو تتلفظ به الألسنة ، أو تخفيه الخبايا والصدور .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى إن الكافر يعود لفطرته حين يصيبه ضرر وأذى ، ولا يجد إلا الله يدعوه ، ويرجوه ، ويستغيث به ، ويعلن له توبته ... فإذا رفع الله عنه ضره رجع إلى طبيعته ، وغلبه شيطانه فيعود إلى الكفر ، وينسى فضل الله عليه كما كان ينساه قبل ذلك .

إن رجوع الكافر إلى الكفر بعد إيمانه يوضح أنه لم يؤمن إيمانا حقيقيا ، وإنما لجأ إلى الإيمان بالله طاعة لبقايا فى فطرته التى لم تستمر بعد النجاة فتعود إلى الكفر والشرك .

(٤٠)

إن العقيدة تعتمد على الاقتناع ، وتتمو بوجودها فى الأقوال والأعمال ،
وتثبت ، وتستقر بعدما تصبح منهج حياة ... وإيمان الكافر حين وقوع الضر
بعيد عن هذه الأساسيات الإيمانية ، ولذلك لا يعد الكافر مؤمنا بإعلانه المؤقت
لأنه يعود إلى عبادة الشركاء ، واتخاذ الأنداد لإضلال الناس عن الحق ،
والصواب .

﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أى قل يا محمد
لمن فعل ذلك من الكافرين : تمتع بزخرف الحياة الدنيا ، واستغرق فى معاصيك
، واعتقد ما تمثلى به نفسك فستقع القيامة بعد هذه الدنيا الفانية ، قليلة المتاع ،
الملينة بالأوشاب ، والآلام ، وبعدها تأتى القيامة ، ويكون الحساب ، ويعيش
الناس فى الجنة أو فى النار .
واعلم أيها الكافر أنك من أصحاب النار فى الآخرة فقد عصيت الله ،
وكفرت به .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا
رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ ؟ ... السؤال لتقرير أمر عقلى لتأكيد عدم مساواة المؤمنين
بالكافرين ... ومعناه أن الله لا يساوى بين طرفين متعارضين :
أحدهما : المؤمن المطيع لله تعالى ، المستقيم فى عبادته ، العامل فى
نهاره ، القائم فى ليلة ساجدا لربه ، متجردا من الرياء والسمعة ، وغايات الحياة
الدنيا ، وكل رجائه الخوف من عذاب الآخرة ، والأمل فى الفوز برحمة الله
وجنته .

ثانيهما : الكافر الضال الذى يعبد الأصنام من دون الله تعالى ، ولا يريد
طاعته ، والاستقامة على شريعته .

وقد جاء التقرير بصيغة الاستفهام للدلالة على أن المؤمنين بلغوا أوج الكمال ، ووصلوا فى الطاعة إلى منتهاها ، ولم يأت الاستفهام بالطرف الثانى لمعرفته من مفهوم السؤال لإظهار حقارته ، وتوضيح هوانه عند الله فى الدنيا وفى الآخرة ، لأنه لا يستحق أن يذكر .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ؟ ... السؤال

لتقرير تغاير الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، وهو أمر يقرره العقلاء لأن الجاهل لا يساوى العالم أبدا ، فكل له طريقه ، وغايته ، ولا يمكن تساويهما ، ومن مسلمات العقل أن المتعارضين لا يتساويان ، والآية تقيد أن الإيمان أخو العلم فكلاهما نور ومعرفة ، والضلال أخو الجهل فكلاهما ظلام وأوهام .
والعلم يفيد صاحبه فيعرفه الحق من الباطل ، ويبعده عن النوائب ، ويصحح له الإدراك ، ويغنيه عن الناس ، ويسعده بمعرفة الله ، وذلك هو نفس ما يحققه الإيمان لصاحبه فى الحياة .

وعدلت الآية من الضمير إلى الاسم الموصول ﴿ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا

يَعْلَمُونَ ﴾^(١) إبراز للثناء على فريق ، والذم على فريق آخر .

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أى إن أصحاب العقول السليمة هم

أهل العلم الذين يذكرون الحقيقة ، ويفرقون بينها وبين الباطل ، ولذلك يعرفون الله ، ويؤمنون به ، ويستقيمون على منهجه وشريعته وبذلك تسموا أعمالهم ، ويستقيم سلوكهم ، ويقدر الله لهم الخير فى الدنيا وفى الآخرة .

(١) سورة الزمر ، الآية ٩ .

(٤٢)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المؤمن والكافر لا يستويان في الجزاء ، فمن أطاع واستقام
فله الجنة ، ومن عصى وغوى فله العذاب ، ولن يتساوى عالم وجاهل أبداً ،
فليتذكر ذلك أصحاب العقول السليمة ، ويختاروا لأنفسهم ما يريدون .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

فائدة الاستقامة تعود لصاحبها

من الحقائق المؤكدة الثابتة أن الله غنى عن عباده ، لا تنفعه طاعتهم ،
ولا يضره عصيانهم ... يقول الله تعالى في الحديث القدسي : "يا عبادى إنكم
لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى"^(١) .
وكانت دعوة الإسلام للاستقامة على منهج الله تعالى ، وعبادته وحده ،
ومدامة العمل الصالح لتحقيق مصالح الناس ، ونشر الأمن والسلام بينهم ،
ووضع الإنسان المسلم فى طريق الخير الذى يسعده فى الدنيا وفى الآخرة
﴿ مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾^(٢) .

إن الإيمان بالله الواحد يحقق التوازن للمؤمن ، وينقذه من الجهل ، ويبعده
عن التصورات الكاذبة التى تضعه فى مهاوى الفساد ، والكبر ، والغرور .

(١) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة . باب تحريم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٤ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية ١٥ .

(٤٣)

والأعمال الصالحة تضع الإنسان فى إنسانيته العالية التى تلزمه بالواجب وتضمن له الحقوق ، وتحقق له المقاصد الضرورية التى لابد له منها ... وتلزمه بالتعاون مع الناس لأنه يحتاج إليهم ، ويحتاجون إليه .

والأخلاق الكريمة تضع السلوك فى قالب حسن مقبول ، لأنه يقوم على الأمانة ، والعدل ، والتعاون ، والحب ، والنشاط ، والشجاعة ، ووضع الإنسان فى خدمة الآخرين .

إن الدعوة إلى الله تعالى دعت الناس إلى الإسلام دين الله تعالى بمكوناته العقدية والعملية والأخلاقية لتحقيق الخير والمصلحة للمؤمنين .

والآية واضحة الدلالة على ما قلته من أن فائدة الإيمان ، والعمل الصالح تعود على المؤمن نفسه توفيقاً فى الدنيا ، وسعادة فى الآخرة .

إن الله لا يرضى لعباده الكفر ، ويدعوهم إلى الإيمان ، ويحثهم على شكر الله ، ويعرفهم أن كل نفس ستنال جزاء ما عملت ، ولن تتحمل نفس وزر نفس أخرى ، ولن يضيع جزاء حسن لمن قام بعمل صالح .

على الإنسان أن يحرص على مصلحته ، وسعادته ، وليس ذلك إلا بالإيمان ، والعمل الصالح .

وليقدم الدعاة للمدعوين البيان الواضح الذى يؤكد هذه الحقيقة بسرد أركان الإيمان ، وتوضيح جوانب الشريعة ، وبيان ما فيها من مصلحة وفائدة تعود على الإنسان ظاهراً وباطناً سواء كان فى فرد أو فى جماعة .

إن تعاليم الله تعالى توجد الإنسان الصالح ، والأمة الصالحة ، والمجتمع السعيد .

الركيزة الثانية

تردد الضالين بين الطاعة والمعصية

الإنسان اللاهى يعيش فى الدنيا حائرا تائها ، لم يصدق بالحق فيتبعه ولم يفتتن بالباطل فينحاز نحوه ... ولذلك فهو ضال بين الحق والباطل .
يميل للفحشاء والهوى فينهل منهما ... وإذا أصيب بمكروه سارع إلى الله لينجيه من هذا المكروه ... وبعد النجاة يعود لهواه الذى كان فيه أولا ...
إن هذا ضلال كبير ، وأولى بالكافر أن يستمر فى غوايته إلى أن تنتهى دنياه ، وليعلم أن الدنيا برغم زخرفها ، وزينتها ، قليلة المتاع ، قصيرة الأجل ...
وبعدها ينال عقوبة ما قدمت يداه فى نار السعير ... وحينئذ لن ينفعه شرك ، ولن يغنيه غيره ، وتتأديه الملائكة ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾^(١) .

أن الجحود سيطر على هذا الكافر فهو يعرف فضل الله تعالى ، ويقر بقدرته ، وبلجأ إليه ، ويستعين به إلا أن الجحود يغلبه ، ويعيده إلى الكفر مرة أخرى وليحذر العقلاء من هذا المصير المخزى ، ويسلكوا طريق الصالحين .

الركيزة الثالثة

تميز المؤمنين عن غيرهم

من مسلمات الواقع ، ودلالة الآيات أن المختلفين عملا يختلفون جزاء وأثرا ، فالبناءون يصعدون إلى أعلى ، والحافرون ينزلون إلى أدنى ... واللص ، والقاتل ، والكذوب يختلفون عن الأمانة والصادقين .

ولهذا :

(١) سورة الزمر ، الآية ٢٤ .

(٤٥)

لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، ولا يستوى العلماء والجهلة ولا يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون .

إن الذى يقضى نهاره عاملاً فى أرض الله ، ويقضى ليلة راکعاً ساجداً لله ، يرجو رحمة الله ، ويخشى عذابه هو من أصحاب الجنة ، ومن حزب الله تعالى ... ويفترق افتراقاً كلياً عن الكافر الغافل الذى نسى الله ، وعبد غيره ، وضل عن سواء السبيل .

إن الحساب الأخرى حق ، وقد أوجب الله على نفسه العدل فيه ، فليعمل العاملون له ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١) .

ومهمة الدعاة توضيح الفروق النظرية والعملية بين المؤمنين والمشرکين ودعوة الناس للنجاح ، والفوز فى الدنيا ، وفى الآخرة ، وحثهم أن يكونوا مؤمنين صادقين .

(١) سورة النور ، الآية ٦٣ .

توجيهات الله للمؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۚ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ ﴿١﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ ﴿٢﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۖ ﴿٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۖ ﴿٤﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُوا مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۖ ﴿٥﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۗ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۖ ﴿٦﴾ هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۗ ﴿٧﴾ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۗ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ ۖ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ أَجْتَنَبُوا الطَّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى ۚ ﴿٩﴾ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۖ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۗ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولَٰئِكَ ۖ ﴿١١﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ۖ ﴿١٢﴾ لَيْكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۗ وَعَدَ اللَّهُ ۗ لَا تُخْلَفُ ۗ اللَّهُ الْمِعَادَ ۖ ﴿١٣﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات التي سبقت عدم مساواة المؤمنين بالكافرين جاءت هذه الآيات لتقديم نصائح للمؤمنين ، ليجعلوا حياتهم عبادة لله مخلصة ، ويقضوا آخرتهم في غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار .

(٤٧)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات توجيهات الله للمؤمنين لينالوا بها سعادة الدنيا والآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

بدأت هذه الآيات بأمر رسول الله ﷺ بأن يقول للناس وينصحهم ،
وتصدير الآيات بـ ﴿ قُلْ ﴾ أمرا لرسول الله يفيد عدة أمور :

الأمر الأول : ضرورة المواجهة فى الدعوة ، وقد أمر الله الرسول بذلك
ليصل إلى المدعوين مباشرة .

الأمر الثانى : بيان أن الرسول ﷺ واحد من الناس أمر بالإيمان ، وأنذر
بالعذاب .

الأمر الثالث : بيان أن الوحي نزل بالدين ، وبالدعوة إليه ، وبذلك
عد القرآن دستور الإسلام من كافة جوانبه (دينا وتليغا) .

﴿ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ يأمر الله رسوله محمدا ﷺ لينادى عباده
المؤمنين ، ويعظهم ، وينصحهم بما يصلح حالهم فى الدنيا ، ويسعدهم فى
الآخرة ، وانما كان النداء للمؤمنين وحدهم مع أن الدعوة عامة للناس لأن
المؤمنين هم الذين يستجيبون لما ينادون به ، وهم الذين يستفيدون بالنصائح
والإرشادات التى يوجههم إليها رسول الله ﷺ .

﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ أى اتقوا ربكم واعبدوه فى خشية ورجاء ليحقق لكم
الخير فى الدنيا والآخرة ، وينجيكم من عذاب السعير .

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أى أعد الله للمتقين الذين أحسنوا أعمالهم ، وأصلحوا سلوكهم ، وزكوا أنفسهم فى هذه الدنيا جزاء حسنا فى صحتهم ، وأولادهم ، ودنياهم ، وآخرتهم .

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ أى إن إخلاص العبادة لله ضرورة واجبة فإن ضاق الواطن على صاحبه ، وعجز عن أداء حق الله تعالى ، وأوذى فى دينه فالأرض كلها لله تعالى يمكن لمن ضيق أعداء الله عليه فى دينه وأعجزوه عن القيام بواجبات دينه فى بلده أن يذهب إلى أى بلد آخر يمكنه أن يعبد الله فيه ، فالأرض كلها لله ، وهى واسعة فسيحة ، ودائما يوجد فيها موطن يمكن للمؤمن أن يعبد الله فيه .

﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أى يوفى الله المتقين أجرهم على صبرهم وأدائهم حق الله تعالى بلا تأخير أو نقصان ، وبضاعف لهم الحسنات بلا حد ولا عد .

عن الحسين بن علي رضى الله عنهما قال : سمعت جدى رسول الله ﷺ يقول : "أد الفرائض تكن من أعبد الناس ، وعليك بالقنوع تكن من أغنى الناس يا بنى إن فى الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى ، يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصب عليهم الأجر صبا ثم تلا : ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١) .

والمسلمون الأول من هؤلاء المتقين الذين أطاعوا الله تعالى فتمسكوا بإيمانهم ، وهجروا بلادهم لأجل دينهم ، ورضوا بالغرابة فى سبيل الله تعالى ، فهاجروا إلى الحبشة سنة خمس من البعثة . وكان سببها أن رسول الله ﷺ لما رأى ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأن عمه أبا طالب كان يمنع عنه أضرار

(١) المعجم الكبير للطبرانى ج ٣ ص ٩٢ .

المشركين ، ولا يقدر أن يمنع أصحابه قال رسول الله ﷺ : "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه . فخرج ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغارا .

ولما تعلقت إرادة الله تعالى بنشر الإسلام في العالم أذن للمهاجرين بالهجرة إلى الحبشة وأمر الرسول ﷺ بالبقاء بين ظهرائي المشركين لبث دعوة الإسلام ، ولم يأذن له بالهجرة إلى موطن آخر ، حتى إذا تم مراد الله من ظهور نواة الدولة في تلك الأرض الجديدة أذن الله لرسوله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، بعد أن دخل أهلها في الإسلام ، وكل ذلك جرى بقدر ، وحكمة ولطف برسوله ﷺ .

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ

أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿ ١٢٠ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين : إن الله أمرنى أن أعبد وحده مخلصا له الدين ، متبرئا من كل ما عداه ... وأمرت أن أكون أول من أسلم وأخلص ، وصدق ، وأنا أخبركم بأمر الله .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى قل

للمشركين يا محمد إنك تخاف عذاب جهنم إن عصيت الله تعالى ، لأن الحساب دقيق يوم القيامة ، وفيه توفى كل نفس ما قدمت .

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ أى قل لهم يا محمد إنك تعبد الله

وحده أملا فى حصول رضاه ، ورضوانه سبحانه وتعالى كما أمرك .

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى استمروا أنتم على ضلالكم ،

واعبدوا من تشاءون من دون الله لتتالوا عقوبتكم فى الآخرة ، وتكونوا من الخاسرين .

﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أى

إنكم خسرتم خسارنا كبيرا ، وضيعتم أنفسكم وأهليكم بالكفر ، والمعاصى ... أما خسارة أنفسهم فلأنهم بسبب كفرهم اختاروا لأنفسهم المقام فى جهنم يصلون عذابها ، ويعذبون بنارها .

وأما خسارة أهليهم فإنهم أغروهم بالكفر فأضلّوهم عن الحق ، وأبعدوهم عن سواء السبيل ، وجروهم معهم إلى عذاب السعير .

﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ أى إن ذلك هو الخسران الكبير

الحقيقى الواضح الذى سينزل بهم فى الآخرة .

﴿ هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ أى إن النار

تحيط بهم من كل جانب فى كتل متراصة ، متلاصقة متراكمة بعضها فوق بعض ، وانما خصت الآية الفوقية والتحتية بالذكر لبلاغة ذلك فى الدلالة على شدة الإحاطة .

﴿ ذَلِكَ تَخَوْفُ اللَّهِ بِهِ عِبَادُهُ ﴾ أى يقص الله عليكم ذلك القصص

ليكون زاجرا لعباده ، ويراد بالعباد جميع العباد إن أراد عموم الخلق والإيجاد أو الذين يتبعون ما يأمرهم به ، ويخوفهم منه فهم عباد الله تعالى .

﴿ يَعْبادِ فَاتَّقُونِ ﴾ أى بادروا أيها الناس إلى الخوف منى وخشيتى ،

واستقيدوا بأمرى ونهى ، وتجنبوا غضبى وعذابى .

فإن قيل : بعض الناس يتقون الله . فما معنى أمرهم بالتقوى ؟

أقول : أمر الله المتقين بالتقوى ليستمروا على ما هم فيه ، وأمر غيرهم

ليستقيموا عليه ابتداء .

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ

الْبُشْرَى ﴾ أى إن الذين ابتعدوا عن عبادة الشيطان ، وتركوا وساوسه ، ولم يغتروا به ، واستقاموا على طاعة الله تعالى ، وتابوا إليه ، وندموا على كل ذنب ومعصية لهم البشرى بكل خير ومنفعة فى الدنيا وفى الآخرة .
ويطلق الطاغوت فى الكتاب والسنة على قوى الكفر والظلم ، فيسمى به الصنم ، وتسمى به على جماعة الأصنام ، ويعرف به أهل الكفر والضلال .

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ أى

بشر هؤلاء المؤمنين الذين يستمعون القول والنصح والإرشاد فيتبعون أحسنه
بشر هؤلاء بجنات النعيم لأنهم سمعوا ، وفكروا ، واختاروا الرشاد .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ وَأُولَئِكَ هُمْ أُؤْتُوا الْأَلْبَابِ ﴾ أى بشر

عباد الله الذين يتبعون أحسن النصح ، وأرشده فهم الذين هداهم الله للحق ، ومتعمهم بعقل سديد ، وفهم طيب ، واختيار حسن ، ولذلك رفع الله منزلتهم ، ووضعهم فى عليين .

﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ ؟ ...

بعد أن بشر الله الذين اجتنبوا الطاغوت بالخير ، ورفع منزلتهم ، وبين اختلافهم عن أهل السوء الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، الذين كتب الله عليهم الشقاوة فى الجحيم أمر رسوله أن لا يحزن على هذا الفريق الضال وقال له : لا تحزن فأنت لا تستطيع أن تنقذهم من النار اليوم ، لأنهم لم لن يسمعوا نصحا ، ولن يستجيبوا لإرشاد .

والهمزة فى الآيه للاستفهام الإنكارى فى المرتين ، مرة لإنكار نجاته من وجبت له النار ، ومرة أخرى لإنكار تصور أن ينفذ الرسول المشركين من العذاب .

وقد أفادت هذه الآيه أن أهل الشرك قد سيطر الكفر على قلوبهم ، وحق عليهم العذاب ، فهم لا يؤمنون ، وأن حالهم كحال من وقع فى النار فهو هالك لا محالة ، وحال النبى ﷺ كحال من يحاول أن ينفذ رجلا من النار ، ولا يستطيع إنفاذه .

يقول النبى ﷺ : "إنما مثلى ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش ، وهذا الدواب التى تقع فى النار يقعن فيها ، فجعل ينزعهم ، ويغلبنه فيقتحمه فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها" (١) .

﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ هذه بشاره تفصيلية للمؤمنين لتأكيد البشارة السابقة المجمله ، وانما تم الفصل بين البشارتين ببيان عذاب المجرمين ، لتوضيح أنهم لن ينالوا شيئا من العذاب الدائم الذى حل بالكافرين ، وأن النعيم الذى أوتوه لن يرفع عنهم لإظهار عظمة البشارة .

والبشارة الثانية تبين أن للمتقين بيوتا عالية مكونة من بيوت فوقها بيوت أعدت لهم إعدادا مكونا من الجدر المبنية بالحجر ، والجص ، والتراب ينتقلون فيها صعودا ونزولا ، ويمنة ويسرة ، كما يشاءون تجرى الأنهار تحتها ، وتحيطها الأشجار ، والثمار ، والمياه ... وهذا المقام الكريم للذين اتقوا يختلف عما أعد لأهل النار من ظلال من النار تحتها ظلال أخرى .

(١) صحيح البخارى . كتاب الرقاق . باب الانتهاء من المعاصى ج ٨ ص ١٠٢ .

(٥٣)

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : "إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم فقالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين"^(١) .

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا تُخْلَفُ ۚ أَلَمْ يَعِدْ﴾ أى هذا وعد الله للمتقين ، ووعد

الله لا يتخلف فليسارع لنواله العقلاء من الناس .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات ما أعد الله للمؤمنين من خير ونعيم فى الدنيا وفى الآخرة ، وتوضح سبب ما هم فيه فقد عبدوا الله مخلصين له الدين ، واتخذوا الرسول قدوتهم وأمامهم فهو أول المؤمنين ، وأول من عبد الله بإخلاص . إن المؤمنين يعلمون أن الكافر خسر نفسه وأهله بسبب كفره وضلاله فقد أوردتهم معه المهالك ، وجعل مأواهم فى الآخرة جهنم التى تحيطهم من كل جانب بغبارها وظلماتها ... أما الذين اتقوا فقد أعد الله لهم غرفا مبنية فوقها غرف مبنية تجرى تحتها الأنهار ، وهم يتحركون فى سعتها وجمالها ، ويتمتعون بخيراتها وقد وعدهم الله بكل خير فى الجنة ، ووعد الله لا يتخلف .

(١) صحيح البخارى . كتاب بدء الخلق . باب ما جاء فى صفة الجنة ج ٤ ص ١١٩ .

(٥٤)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

صفات المؤمن الواجبة

دعا الرسول الناس إلى الإسلام ، وحثهم على التخلق بالأخلاق التى يريدّها الله تعالى للمؤمن ... أهمها :

(١) **التحلى بتقوى الله تعالى** ، وذلك يقتضى من المؤمن معرفة الله تعالى ، ومعرفة ما له من صفات ، على أن تتعكس هذه المعرفة على سلوك المؤمن ، وأعماله ، وأقواله ... وبذلك يحب المؤمن ربه فهو الخالق ، الرازق والمحىى ، والمميت ، والفضل كله منه ، وهو الرحمن الرحيم ، ومع الحب تكون الخشية منه لأنه يحاسب الناس على موقفهم من طاعته ، وهو القاهر للمعتدى ، ذو الطول لا إله إلا هو ، وباجتماع الحب والخوف تكون التقوى ، ومنه قوله ﷺ : "والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له" (١) .

(٢) **إحسان العمل والطاعة** : الإنسان محدود بالزمان والمكان ، ومأمور بطاعة الله العليم الخبير ليصلح عمله فى الدنيا ، ويسعد بجزائه فى الآخرة ... ولذلك حسن له أن يعمل لله ، ويخلص الأداء لربه وكأنه يراقبه ، ويصل فى الطاعة إلى درجة الإحسان التى يشعر خلالها بمعية الله تعالى ، ويتيقن أنه يسلم العمل لله مباشرة ، ويؤمن بأن إحسان العمل يوصل الخير والجزاء الطيب فى الدنيا والآخرة .

(١) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب الترغيب فى النكاح ج ٧ ص ٢ .

(٣) **المحافظة على عبادة الله تعالى** : يحرص المؤمن على أداء العبادات بوجهها الصحيح ، ويعمل على التغلب على أى عائق يمنعه من أدائها ، وقد شرع الله للمسلمين الهجرة من أجل الدين ، فهاجروا إلى الحبشة ، وإلى المدينة المنورة ... وبعد فتح مكة وجب الجهاد ، والمحافظة على دين الله تعالى .

وفى العصر الحديث تكالب أعداء الله على المسلمين ، وضيقوا عليهم القيام بواجبهم الدينى ، ولذلك جاز للمسلمين أن يرحلوا إلى أى مكان يساعدكم على أداء العبادة ، ويحافظوا على دينهم الذى خلقوا له ، وبه يعيشون .

(٤) **التحلى بالصبر والمثابرة** : يحتاج المسلم إلى الصبر فى كل أحواله وحالاته ، يصبر عند البلاء ، ويصبر على الطاعة ، ويصبر على أداء ما وجب عليه الله رب العالمين .

هذا هو المسلم ، يطيع ربه ، ويعبده ، ويخشاه ، ويحافظ على الواجبات . والدعاة بين المسلمين هم رواد الناس ، وورثه النبى ﷺ ، والمبلغون دين الله تعالى ، ولذلك وجب عليهم أن يستقيموا على دين الله تعالى بأعمالهم وأقوالهم فى إخلاص وصدق ، ومراقبة الله فى كل حياتهم .
إن الدعوة تقوم على العلم والمعرفة ، وتحتاج إلى دعاة مخلصين صادقين يدعون الناس ، ويقودونهم للحق والصواب .

الركيزة الثانية

فروق واضحة بين أهل الحق وأهل الباطل

ينقسم الناس عند الله إلى فريقين :

فريق خاسر ، وهو الفريق الذى ضيع حياته الدنيا فى عبادة الأصنام ، ومعصية الله تعالى ، والإعراض عن الصراط المستقيم .

وهذا الفريق يخسر أخراه أيضا حيث يدخله الله النار التي تحيطه من كافة جوانبه ، ويحرمه من أهله وذويه ، ولا يرى فى آخرته إلا خسرانا وهوانا .

وفريق آمن بالله واليوم ، وعمل لآخرته فعبد الله وحده ، واستقام على منهج الله تعالى ... واستمع كلام الله فأمن به ، واتبعه ، وسعد بهدى الله تعالى .

إن الفريقين لا يستويان حيث يكون مصير العاصى غير مصير المؤمن وجزاء كل منهما يختلف عن الآخر . يقول الله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾^(١) .

وعسى أن تكون هذه الفروق عامل هداية لأولى الأبواب ليسعدوا فى الدنيا بالعمل الصالح ، وفى الآخرة بجنات النعيم .

(١) سورة الحشر ، الآية ٢٠ .

حاجة الإيمان إلى العلم والهدى

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ
خُجِرَ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فترثه مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْبًا إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى
نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾
اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ
يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
بِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ
الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿١٩﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَتْهُمْ أَلْعَذَابُ مِن حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي
الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة ما أعده الله للمتقين من غرف مبنية في جنات
النعيم جاءت هذه الآيات لبيان أعمال في الدنيا يجب الحذر منها ، وعدم
الاغترار بها ، وتبين أن الذين ينتفعون بهذا البيان هم من شرح الله صدورهم
للخير ، ونور بصائرهم بالحقيقة .

(٥٨)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الدنيا سريعة الزوال ، وأن مباحها لا تدوم ، ولا يدرك ذلك إلا من شرح الله صدره للإيمان ، ومكنه من فهم القرآن الكريم ، والاهتداء بهدأيته ، وتوضح أن الكافرين حرموا من الهداية فى الدنيا ، واستحقوا عذاب الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ خَرَجَ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَبًا ﴾

هذا مثل ضربه الله للحياة الدنيا فى إقبالها ، وبهجتها ، وزخرفها وزوالها ، وهو مثل مشاهد موجود يراه ويعيشه الناس جميعا ، وقد وجه الله نظر رسوله ﷺ إليه ، وأنزله فى القرآن الكريم آيات ليبقى فى الناس دليلا على ما سيق له ... ويتكون هذا المثل من عناصر عدة :

- من الماء الذى ينزل من السماء مطرا ، يستقر فى الأرض عند نزوله .
- تسير الله للماء فى مسارات مستورة فى باطن الأرض إلى حيث يشاء الله تعالى .
- يخرج الله هذا الماء فى ينابيع تتدفق فوق سطح الأرض ، أو فى آبار يحفرها الناس فى الأماكن التى سار إليها الماء من تحت الأرض .
- ويسقى هذا الماء الأرض فيخرج النبات والزرع بأمر الله تعالى مختلفا فى أنواعه ، وألوانه ، وأحجامه ، ومنافعه .

- ثم يكثر الزرع ، وينتشر الشجر ، وتمتلئ الأرض بالحسن والبهاء ، وكثرة الخيرات من الأنعام ، والطير ، والدواب ، والألوان .
 - ثم يجف الزرع ويتحول إلى حطام تذروه الرياح ، وتنتهى كافة المحاسن والزخارف ، والمباهج .
 - تتجدد دورة الحياة بهذه الصورة التى ضربها المثل إلى أن تنتهى الحياة .
- هذا هو الزرع ، ومثله الدنيا تبدو جميلة ، خيره ، بهية ، وسرعان ما تذيل وتزول .
- وتطابق الدنيا مع مثال الزرع كبير فالقرآن الكريم ودين الله ، والمطر ينزل للناس من السماء ، ومن عند الله تعالى .
- ووصول القرآن الكريم والدين للناس يشبه وصول المطر للأرض اليابسة ... وإخراج النبات والزرع فى الأرض يشبه ظهور الإيمان والكفر بين الناس .
- وكثرة المؤمنين ، وعلو الإيمان يشبه تكاثر الزرع وهياجه ، وأخيرا تنتهى الدنيا كما تقوم القيامة ، ويصل الإنسان لأجله ، وهذا مثل واقعى يؤكد ضرورة الحذر من الدنيا ، وعدم الاغترار بها .
- وهذا من الأمثال السائرة التى لا تحتاج إلى بيان التماثل ، وظهور أدوات التمثيل .

وقريب من هذا قوله ﷺ : "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقية ، قبلت الماء ، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب ، أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" (١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب العلم . باب فضل من علم وعلم ج ١ ص ٢٧ .

ونظرا لعدم ورود أدوات التمثيل فى الآيات ذهب كثير من المفسرين إلى أن الآيات تورء آيات مجردة لإثبات وحدانية الله وقدرته بدلالة مخلوقاته .
والاستفهام فى الآية لتقرير ما جاء فيها ، وقد خوطب بها كل من يصلح للخطاب من الناس . والمعنى ألم تر أياها الإنسان بعينك هذه الدنيا من حولك وتؤمن بسببها بالله رب العالمين .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ أى إن فى هذا التطور فى الزرع ذكرى لأصحاب العقول الفاهمة يعرفون بها قدرة الله تعالى ، ووحدانيته .

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى لإنكار ما يتصوره الضالون من تساوى الذين شرح الله صدورهم للإيمان بمن قست قلوبهم ، فهما لا يستويان ... لأن الذى شرح الله صدره يسمع القرآن الكريم ، ويهتدى بهديه ، ويتبع سبيله ، ويستنير بنور الله فهو من الذين قال الله عنهم : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (١) .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما : من شرح الله صدره للإسلام أبو بكر الصديق ؓ ، وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : "تلا النبي ﷺ هذه الآية فقلنا يا نبي الله : كيف انشراح الصدر ؟ قال : إذا دخل النور القلب انشراح وانفسح .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢ .

قلنا : فما علامة ذلك يا رسول الله ؟

قال : الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والتأهب للموت قبل نزول الموت^(١) .

أما من قست قلوبهم فهم يكرهون القرآن الكريم ، ولا يهتدون بهديه . يقول الله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾^(٢) وقد أضلهم الله تعالى فأصمهم ، وأعمى أبصارهم ، وقد اكتفت الآية بذكر عاقبة الضالين القاسية قلوبهم فقال تعالى : ﴿ قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى هلاك شديد لهم عند الله بسبب قسوة قلوبهم ، وانصرافهم عن ذكر الله تعالى ، وبعدهم عن الصواب .

قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب ، وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة .

وأخرج الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : " لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى "^(٣) .

وعن أبى سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : " قال الله تعالى : اطلبوا الفضل عند الرحماء من عبادى تعيشوا فى أكفانهم فإن فيهم رحمتى ، ولا تطلبوها من القاسية قلوبهم ، فإن فيهم سخطى "^(٤) .

(١) مصنف ابن أبى شيبة . باب ما ذكر عن نبينا ﷺ ج ٧ ص ٧٧ .

(٢) سورة محمد ، الآية ٩ .

(٣) سنن الترمذى . كتاب أبواب الزهد . باب ما جاء منه ج ٤ ص ٦٠٧ .

(٤) مسند الشهاب القضاعى ج ١ ص ٤٠٦ .

﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى إن الله أضل قساة القلوب فأعمى أبصارهم ، وأظلم بصيرتهم فضلوا ضلالا بعيدا .

﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي ﴾ أى أن الله أنزل القرآن الكريم مشتملا على أحسن الحديث ، يشبه بعضه بعضا ، ويتكرر قصصه ، وتتثنى أحاديثه ، ويستمر فى غايته منذرا ، ومبشرا ، والآية تذكر عددا من أوصاف القرآن الكريم هى :

(١) هو حديث الله أنزله وحيا على رسول الله ﷺ بلفظه ومعناه .

(٢) إنه أخبار من الله تعالى حسنة فى لفظها ومعناها ، وغاياتها .

(٣) إنه كتاب مأمور بكتابته وقراءته .

(٤) إنه متشابه الأجزاء ، متماثل فى الفصاحة والبلاغة .

(٥) أن معانيه مكررة بلا ملل ولا سامة .

﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ سَخَشُونَهُمْ ثُمَّ تَلِيْنُ جُلُودُهُمْ

وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى إذا تليت آيات العذاب والوعيد تقشعر منه جلود الذين يؤمنون بالآخرة رعبا وخوفا ، وإذا تليت آيات الرحمة والوعد تلين الجلود ، وتسكن القلوب ، وتطمئن النفوس حبا ، وأملا .

فإن قيل : لم تقشعر الجلود عن الخشية ، وتلين معها القلوب عن ذكر الله ؟

أقول : الخشية محلها القلب وأثرها المباشر على الجلد أما تذكر الله فأساسه الرحمة والحب وهذا يشمل الإنسان كله .

﴿ ذَلِكَ هُدًى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى ذلك القرآن الكريم يهدى

الله به من يشاء من عباده ، وهم المستحقون للهداية .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى ومن يرد الله إضلالة يضلّه

ولن يجد هاديا يهديه للحق ، واردة الله متصلة بالنوايا والمقاصد .

﴿ أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ ؟ ... أى ليس

كل الناس سواء فليس من يستحق العذاب والنار ، ويتقيه بوجهه يوم القيامة مساويا لمن يكون آمنا يوم القيامة فى جنات النعيم لا يأتية عذاب ، ولا يلحق به أمل ، وقد حذفت الآية الطرف الثانى للعلم به .

إن العذاب يحيط بالكافر من كل ناحية إلى أن الآية ذكرت الوجه لأنه أشرف الأعضاء ، وإشارة إلى أن يده مغلولة إلى عنقه لا يمكنه أن يتقى بها العذاب .

﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أى يقال للمجرمين تهكما

واستهتارا ذوقوا وبال كفركم ، وشرككم فى الدنيا .

﴿ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

أى أن الأمم السابقة كذبت الرسل الذين بعثوا فيهم فأذاقهم الله العذاب الأليم من حيث لم يتوقعوا .

﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾

أى لحقهم العذاب الأليم فى الدنيا ، وفى الآخرة يلقون عذابا أشد وأكبر .

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لو علموا أى شئ على حقيقته لآمنوا بالله ،

وصدقوا بالبعث ، ولا تقذوا أنفسهم من عذاب الجحيم .

(٦٤)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الدنيا إلى زوال ، وتضرب لها مثلا بالزرع ينبت ثم يهيج ثم يختفى ، وتفرق الآيات بين رجلين ، رجل شرح الله صدره للإيمان ، وآخر ضاق به ، وتبين أنهما لا يستويان ، وقد نزل الله للناس أحسن الحديث في قرآن تشابهت بلاغة ألفاظه ، وتكررت الدعوة فيه ، وقد أنزله الله لهداية المؤمنين ، وإنذار المكذبين ، وعرفهم أن أمما سابقة كذبت فأتاها العذاب في وقت لم تكن تتوق مجئ العذاب فيه ، وسيلحق بهم عذاب أليم يوم القيامة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دور القرآن الكريم

في الدعوة إلى الله تعالى

أنزل الله القرآن الكريم هاديا ، ومبشرا ، ونذيرا ، وحفظه للناس ليكون وسيلة للبلاغ ، ودستورا للحكم ، ومنهجاً يأخذ الناس إلى صراط الله المستقيم وقد أحاط الله القرآن الكريم بطلاوة الكلام ، وحسن البلاغة ، وبسر الحفظ ، ووضوح المعنى ليقبل المسلم عليه وهو منشراح الصدر ، لين القلب ، محب للهداية ، راغب فيما عند الله تعالى .

إن اشتمال القرآن الكريم على الأساليب العديدة جعله قوى التأثير في الناس .

ويجب على القادة والدعاة أن يضعوا القرآن الكريم فى موضعه الذى نزل له فهو آيات بينات ، تأخذ العقل إلى الحق ، وتدلهم على دلائل قدرته ، وعظيم خلقه ، وتعالى وتنزهه سبحانه وتعالى عن كل نقص .
يجب أن يتحول القرآن الكريم إلى إقناع للعقل ، ومنهج للحكم ، ومصدر للرشاد والهدى ، حتى يأتى يوم القيامة شافعا للمؤمنين ، وشاهدا لهم للفوز والفلاح .

الركيزة الثانية

من مناهج الدعوة فى القرآن الكريم

يقدم القرآن الكريم عدیدا من طرق الدعوة إلى الله تعالى ، وأساليبها ، ومن أهم الأساليب أخذ الدليل من الواقع لتقديم صورة عملية مأخوذة من مسار الحياة ، وقيس عليها أمثالها من قضايا الإيمان ليصل فى النهاية إلى التسليم بالواقع المشاهد والإيمان بما يشبهه من قضايا الإسلام ، وليعرف الإنسان نفسه فى هذه الدنيا .

ومن شدة تأثير الدليل جعله الله موجها لأسماع المدعوين ليكون وقعها فى عقولهم ظاهرا قويا .

والآية تضرب مثلا بالدنيا فى نشأتها ، وظهورها ، وبهجتها ، واضمحلالها ، وفنائها واستمرار تجدها إلى يوم القيامة برهانا على قدرة الله تعالى ، فالدنيا تبدأ بقطرات الماء ، تنزل مطرا ، ينساب إلى باطن الأرض ليخرج للناس آبارا وعيوناً ، تسقى الأرض بمائها فتخرج زرا ، ونباتا ، وثمارا ، ثم تصفر وتضحل وتفنئ لتكرر الصورة على هيئة واحدة إلى تقوم الساعة ويحدث للإنسان ما حدث للدنيا .

ويجرب القدر بحال الإنسان والدنيا على هذا النمط ليعلم الناس قدرة الله ويؤمنوا به سبحانه إليها واحد ، قديرا .

هذه الصورة فى الاستدلال منهج قرآنى يحتاج الدعاة إلى الاحتذاء به للاستفادة.

الركيزة الثالثة

ضرورة الاستفادة بأحداث الماضي

الإنسان محب لمعرفة أخبار غيره ، راغب فى الإحاطة بما يدور فى مجتمعه الصغير والكبير .

وأفضل المعرفة ما استفاد منها الإنسان ، وعلى رأسها معرفة قصص السابقين .

إن قصص السابقين تعد تجارب عملية تبين المقدمات ، والأعمال ، والنتائج ، وتقدم بذلك تجربة متكاملة يستفاد بها .

إن العلماء يهتمون بعمل التجارب للاهتداء بنتائجها ، وقد قدم القرآن الكريم قصصه ليستفيد بها المسلمون ، لأن ما وقع فى الماضى سيقع فى الحاضر والإنسان هو الإنسان .

وقد بين القرآن بالتفصيل ما حدث للسابقين فى الدنيا ، ووضح ما ينتظرهم فى الآخرة ليتذكر بها من عنده قلب يعقل ويفهم، ويرى نجاته فى طاعة الله تعالى

أمثال القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿١٧٧﴾
 قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ
 مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
 يَعْلَمُونَ ﴿١٧٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿١٨٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
 تَخْتَصِمُونَ ﴿١٨١﴾ ۝ ﴾

(٦٧)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات نزول القرآن الكريم للناس متصفا بخصائصه ، جاءت هذه الآيات لبيان اشتغال القرآن الكريم على ألوان عديدة للدعوة إلى الله تعالى ، ومنها ضرب الأمثال ، وقد أوردت مثالا منها ، ووضحت الآيات أن الكل راجع إلى الله تعالى للحساب والجزاء ، ونوال عاقبة أعماله التي عملها في الدنيا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله ضرب في القرآن أمثالا عديدة لدعوة الناس إلى الله تعالى ، وتيسير ما شق عليهم فهمه ، ومن هذه الأمثال الرجل الحائر في عمله بسبب تعارض أوامر مالكيه المتعارضين فإنه لا يحقق أمرا لهم ... وتبين أنه لا يستوى مع عبد يملكه رجل واحد ، ويكلفه بعمل واحد يؤديه على وجهه المطلوب ، ليثبت بهذا المثل أن الكون يملكه إله واحد يصرفه كيف يشاء بلا اختلاف أو تعارض ، وتبين الآيات أن الجميع سيموت ، وسيلقى جزاءه ، وسيأخذ حقه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى أنزلنا في

هذا القرآن أمثالا ضربناها للناس ليظهر الغامض ، ويتضح الخفى ، وأحطناها بجوانب بلاغية لإيقاظ الإنسان الغافل ، وتنبيه العقول اللاهية ، عسى أن يتذكر الناس ما في الأمثال المضروبة من معان يتذكرونها ، ويعرفون بها الحق ، ويكشفون بها الباطل .

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أى عسى أن يتعظ المشركون بهذه الأمثال ،
ويتذكروا عبرها ودروسها ، ولا يكونوا أمثلة للسابقين الذين جعلتهم الآيات مثلاً
مضروبة .

ويراد بضرب المثل هنا إيراد صور وأحوال الأمم السابقة وما حدث منهم
مع الرسل ، وما وقع لهم من عقاب ، لتكوين صور واقعية تعرف الناس بسنة
الله فى الخلق ، والمصير الذى ينتظر المكذبين .

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أى أنزلنا القرآن للناس
بلغة عربية فصيحة خال من العوج والاضطراب ، بين ، واضح الدلالة على
مراد الله تعالى ، منعا لأعداء من نزل فيهم ، عسى أن يؤمنوا بالله ، ويخشوا
عذابه ، ويرجوا رحمته .

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾
أى ضرب الله لإثبات التوحيد ، وإبطال الشرك مثلاً واقعيًا برجلين يوجدان فى
عالم الناس :

أحدهما : رجل مملوك لعدد من الشركاء المتعارضين فى توجيهه ،
وتكليفه بالعمل ...

وثانيهما : رجل مملوك لرجل واحد يأمره بأمر واحد ، ويكلفه بعمل
واحد .

وتسأل الآية : ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ؟ ... والسؤال للإنكار وللتقرير معا
لأنه يقصد أن ينظر الإنسان إلى السؤال ، ويفكر فى الإجابة ، ويجيب
بما يرى ... وفى نفس الوقت ينكر تساوى الرجلين ... لأن الرجل الأول
يضطرب بين الأوامر المتعارضة ، ولا يستطيع عمل شئ ، ويترك ما عداه فلا

يرضى مالكه ... ولذلك لا يعمل شيئاً ... أما الرجل الثانى فقد تحدد له العمل ، وعرف الطريق إليه ، فهو يعمل ما كلف به ، ويرضى سيده .

والمعنى أنسيتم هذه الحقائق ولا تذكرونها ، وتستفيدون بدلالاتها على الإيمان بالله تعالى ؟ ... لأن هذه الصورة التمثيلية تبين وتؤكد أن الله إله واحد لا شريك له ، ولذلك أوجد الكون جميلاً ، متناسقاً ، بلا اضطراب أو تناقض وملاًه بالبراهين على وحدانية الله وقدرته ، ولو كانت الآلهة عدداً ما وجد هذا الكون . يقول الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءِلهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾^(١) لما يحدث بين الآلهة من تعارض واختلاف .

وهذا المثل يفيد فى الناس معنى آخر لأن المشرك يجد نفسه أمام عدد من الآلهة ، ولكل منها نسك وعبادة ، ولذلك يجد نفسه عاجزاً عن عبادة الآلهة لتضاربها فى المناسك والقربات ... أما المؤمن بالله الواحد فإنه يجد نفسه أمام مسلك واحد يقربه إلى الله فيسلكه وهو به راض سعيد .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى أن الحمد كله للإله الواحد الأحد . فقد ثبتت ألوهيته

وبطل الشرك والشركاء ، ووجد العالم جميلاً ، منسقاً .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ "بل" للإعراض عن المشركين لبيان سبب

شركهم ، وهو أنهم لا يعلمون شيئاً أصلاً فقد أغواهم الشيطان ، وصرف عقولهم إلى حب الفحشاء ، والبحث عن المنكر ، ووضع بينهم وبين الحق سدا يمنعهم من الوصول إليه ، وفهم دلالاته .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ أى لا تبتئس لعدم إيمانهم ، فالكل ميت

وراجع إلى الله تعالى ليكون الحساب والجزاء يوم القيامة .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٢ .

(٧٠)

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ أى إنكم أيها

الناس ستختصمون عند ربكم ، ويعرض كل فريق ما لديه من حجة ، ويرد الأنبياء والمؤمنون على أكاذيب الكفار والمنافقين ، فقد علموا الحق ، وجاءتهم الدعوة بينة واضحة ، ونصحهم الرسل والدعاة ، فأصروا على الكفر والمعاصي ، فالיום يعاقبهم الله بما نسوا لقاء يومهم هذا ، ويجازى المؤمنين بما يستحقون من نعيم .

إن يوم القيامة هو يوم الحق والعدل ، ويوم الوفاء والجزاء .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "أتدرون من المفلس ؟

قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع .

فقال رسول الله ﷺ : "إن المفلس من يأتى يوم القيامة بصلاة ، وزكاة ، وصيام ، ويأتى قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحته عليه ثم طرح في النار" (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : "من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء ، فليتحلله منه اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه" (٢) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله ضرب في القرآن الكريم أمثالا عديدة ومتنوعة ليعرف الناس

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب صفة القيامة . باب ما جاء في شأن الحساب ج ٤ ص ٦١٣ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المظالم والغصب . باب من كانت له مظلمة ج ٣ ص ١٢٩ .

الحقيقة ويؤمنوا بالله ، وقد نزل القرآن بلغة عربية فصيحة واضحة ، ومن هذه الأمثال صورة الرجلين المذكورين فى الآية ، وبذلك تثبت الآية أن الله إله واحد ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ... وتوضح الآيات أن يوم القيامة آت لا ريب ، وفيه يكون الفصل التام ، والعقاب الدقيق .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان عظمة القرآن الكريم وأهمية أمثاله

أنزل الله القرآن الكريم للناس لتحقيق السعادة ، وتوجيه الحياة إلى الله رب العالمين . يقول الله تعالى : ﴿ طه ١٠٠ مَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۚ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ۚ تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۚ ﴾ (١) .

ومن منهجية القرآن الكريم أنه يدعو الناس إلى الإيمان برفق ولين ، ويحببه إليهم ، ويزينه فى قلوبهم ، وقد أورد القرآن الكريم براهينه بعيدة عن التصادم ، خالية من الجدل العقيم ، والمراء الباطل .

ومن هذه الأساليب أمثال القرآن الكريم ، فهى تأخذ الإنسان بعيدا عن ذاته وتقدم له الواقع كما يراه ، وتبرز له ما فى هذا الواقع من عظمة القدرة ، وحركة الوجود الذى سخره الله لمنافع الناس بما فيها من انبهار ، واعجاز ، وعون . ويدعو بعد ذلك كل هذا الإنسان ليعقل ، ويفهم ، ويتذكر ... وهذا حال فى عرض الموضوع ، وحسن الخطاب عظيم .

(١) سورة طه ، الآيات ١٠٠ - ١٠٤ .

ومن هذا الأسلوب كلمات القرآن القائمة على فصاحة اللفظ ، وبلاغة الكلمات ، وحسن التراكيب ، وجمال العبارات مما يجعل الإنسان مشدودا إليها لما فيها من محاسن البلاغة العربية ، وخلوها من الخلل والاضطراب .

وقد عرضت الآيات مثلا برجلين أحدهما يملكه عدد من الأفراد مختلفون في أوامرهم فهو لا يقدر على عمل لهم لتحيره ، وتضاربه ، وثانيهما رجل مملوك لرجل واحد يطيعه في كل ما يأمر به ... وهذا المثل لا يعارضه عاقل ، وحين يعود الإنسان العاقل بالمثل إلى أرض الواقع يعلم أن المؤمن بإله واحد يسعد بطاعته ، ويرضيه ... أما من يتخذ عددا من الآلهة فإنه يعجز عن طاعتهم لتعارض أوامرهم وطلباتهم .

يخرج العاقل من النظر في المثل المضروب إلى ضرورة الإيمان بالله الواحد الأحد ليعبده ويطيعه ويسعد بعبوديته له .

وبهذه الطريقة يلج الدليل العقل في هدوء ، ويجد الإنسان نفسه مؤمنا بالله رب العالمين .

والدعاة يستفيدون من هذا ضرورة تخير الأدلة ، ووضعها في قالب محبب ، والاستفادة بأساليب القرآن الكريم أملا في إيمان الناس ، وأخذهم إلى الصراط المستقيم .

الركيزة الثانية

يوم القيامة حق لا ريب فيه

تنتهى الدنيا ، ويموت النماس أجمعون ، مؤمنهم ، وكافرهم ، وبيعهم الله جميعا ، ويحشرهم للحساب والجزاء ، وينصب الله الميزان ، وتتجلى الحقائق حيث يعيش المؤمنون في ظل عرش الله ، ويلقى المشركون الويل والثبور .

(٧٣)

إن يوم القيامة هو يوم الاجتماع الشامل ، وفيه يتم الحساب على رعوس
الأشهاد ، وتوفى كل نفس ما أسلفت ، بعدل تام ، ووضوح مطلق ، ويقول الله
للناس : ﴿ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾^(١) .

إن العاقل هو من يتأمل الدنيا ، ويرى بالآخرة ، ويستعد بدنياه لآخرته
ويتأهل لجنت النعيم .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٥٥ .

حال المؤمنين والكافرين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (١٢) وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (١٣) هُمْ مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٤) لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٥) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۗ وَتُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ (١٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ (١٧) وَلَٰئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ۖ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (١٨) قُلْ يَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١٩) مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (٢٠) ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حال المشركين في الدنيا ، وعدم استفادتهم بالأمثال جاءت هذه الآيات بأنواع أخرى من جرائمهم ، وهو كذبهم على الله تعالى ، ومخالفتهم في ذلك سبيل المؤمنين الصادقين ، وتبيين الآيات أن الله هو القادر ، ولا قيمة لما يزعمون من آلهة ، وهم يعلمون ذلك ، ومع ذلك يكفرون

(٧٥)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين يعملون أشد الظلم بكذبهم على الله ، وادعائهم أن له شركاء ، وتوضح أن جزاءهم جهنم ... أما المؤمنون المصدقون بالله فهم أهل التقوى ، وجزاؤهم عند الله عظيم ، فلهم ما يشاءون ، يغفر الله ذنوبهم ، ويجازيهم أحسن الجزاء ، ويكافئهم بأحسن ما كانوا يعملون ، وتوضح الآيات ضلال المشركين في الفهم والتقدير .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾

أى لا أحد أشد ظلما من الكافرين بسبب جريمتين وقعوا فيهما ...
أحدهما : الكذب على الله بادعاء أن له شركاء في الألوهية ، ويقولهم أن الله ثالث ثلاثة ، ويقولهم الملائكة بنات الله ، وعزيز ابن الله ، والمسيح ابن الله ، فتلك كلها أكاذيب على الله تخالف للواقع ، وتعارضه .
وثانيهما : تكذيب القرآن الكريم بمجرد مجيئه إليهم من غير فكر وروية ، مع أنه كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ الملازم للصدق ، الداعى له ، الهادى إلى صراط الله المستقيم .

﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير لبيان أن

الله جعل جهنم مأوى ومقاما للكافرين ، وعقوبة عادلة يستحقونها ، فقد كذبوا الرسول والقرآن ، وأبوا الإيمان والطاعة ، ورضوا بالكفر والضلال ، فكان أن عاقبهم الله بجهنم يأوون إليها ، ويحترقون بها ، وبقيمون فيها .

وصدرت الآية ببيانها لمصير الكافرين بالاستفهام لينشط عقل المستمع ،
وتشفى القلوب المؤمنة بهذا المصير الذى يستحقه الكافرون ، فقد اعتدوا بكذبهم
على الله وعلى رسوله ، وعلى المؤمنين أجمعين .

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ أى والذى جاء بالصدق وهو
رسول الله ﷺ ، فلقد نزل عليه القرآن الكريم ، وبلغه للناس ، فصدقته المؤمنون ،
واستقاموا معه على منهج الله تعالى .

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ "أولئك" اسم إشارة لرسول الله والذين صدقوه
ليبين أنهم الذين اتقوا الله خائفين من عقابه ، راجين رحمته وثوابه ، وهم لذلك
مشتغلون في العبودية القاننة الدائمة ... وسيجازيهم الله أحسن الجزاء .

﴿ هُمْ مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ أى جعل الله للمتقين كل ما يشاءون
من مقام ، وطعام ، وشراب ، وأزواج ، وعشيرة ، وراحة البال .

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى هذا العطاء العظيم هو جزاؤهم على
إحسانهم فقد عبدوا الله حق العبادة .

﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ أى يكفر الله للمحسنين
أسوأ أعمالهم التى وقعوا فيها ، وتابوا عنها حتى يتمتعوا بالجزاء الحسن ، خاليا
من أى شائبة ، بعد محو سيئاتهم ، وغفرانها ، وتكفير الأسوأ يقتضى تكفير
الأقل منها من باب أولى ...

وقد عبرت الآية عن السيئة بالأسوأ لبيان أن المسلم يستعظم السيئة إذا
وقع فيها ، وإن كانت قليلة حتى يرى زوالها بفضل الله تعالى .

﴿ وَتَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى ويجازيهم الله على عملهم كأحسن الأعمال وأفضلها . ومعنى الآية أن سائر أعمال المؤمن يرفعها الله إلى مستوى أحسنها ، ويجازيه بها جميعا بمستواها العالى .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى لإنكار من يتصور تخلف وعد الله ، ووعيده ، ... وهذا يبين أن الله وحده هو الذى يدفع عن عباده الآفات ، ويزيل عنهم المصائب والويلات ، ويعطيهم ما يريدون ... وقد جاء بيان هذه الحقائق مبتدئة بأسلوب الاستفهام الإنكارى لإثبات أن هذا الأمر لا يمكن لأحد أن ينكره .

﴿ وَخُوفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ لإخباره بما يفعله المشركون معه ﷺ ومع المؤمنين ، فهم يخوفونهم من انتقام الأصنام ويزعمون أن لها قدرة .

روى أنهم خوفوا النبي ﷺ مضرة الأوثان فقالوا : أتسب آلهتنا ؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنك أو تصيبنك بسوء !!

وقال قتادة : مشى خالد بن الوليد ﷺ إلى العزى ليكسرها بالفأس ، فقال له سدنيتها : أحذرکها يا خالد ، فإن لها شدة لا يقوم لها شئ ، فعمد خالد إلى العزى فهشم أنفها حتى كسرها بالفأس^(١) .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى أن جهل المشركين ضلال منهم . فقد حرمهم الله معونته لسوء طوبيتهم ، وسواد قلوبهم ، ومن يضلله الله فلا هادى له .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٧٦ .

﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾ أى ومن يوفقه الله إلى الإيمان وأسباب السعادة فلن يضلّه مخلوق أبدا .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي أَنْتِقَامٍ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ينكر الله فيه على المشركين عبادتهم للأصنام ، وتخويف المسلمين منها ... ليثبت أن الله هو الغالب القهار ، المنتقم من الظالمين الضالين بسبب ما يفعلون ، ويقولون .
﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى إن

هؤلاء المشركين يقرون بوجود الله تعالى ، ويؤمنون به خالقا ، رازقا ، قادرا إلا أنهم يتخذون معه آلهة أخرى يعبدونها من دون الله تعالى ... ولئن سألتهم يا محمد عن الذى خلق السموات والأرض فإنهم يؤكدون لك إنه سبحانه وتعالى ولكنهم مع هذا الإقرار يقلدون أسلافهم ، ويعبدون الأصنام ، ويتخذونها آلهة مع الله تعالى ، وبذلك ضيعوا عقولهم وفطرتهم ، وكفروا بالله تعالى .

﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ؟ ... أى قل لهم يا محمد مستهزئا بهم ، ومظهرا سوء عملهم ، وعقيدتهم . أعميت عقولكم وقلوبكم فاتخذتم آلهة من دون الله ، لا تفيد شيئا ، فأسأتم لأنفسكم ، وأفسدتم رأيكم وقولكم ، وفعلتم ما لا يجوز .

﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ﴾ أى أخبرونى عن آلهتكم ، وهل هى تملك ضرا أو نفعا ؟ ... فلو أراد الله بى ضرا ، هل تستطيع الأصنام رفع الضر عنى ؟ ... وإن أَرَادَنِي اللهُ بِخَيْرٍ فهل تستطيع الأصنام إمساك هذا الخير ؟ ... وهذه أسئلة إنكارية لإنكار ما يزعمه المشركون من قدرة للأصنام ، وتأكيدها أنها لا تقدر على

شئ ، وأن من جعلها آلهة فقد ضل ضلالا بعيدا ، وجاءت الآية بكلمتي ضر ورحمة نكرتين لتشير إلى قلتهما إثباتا لعجز الآلهة عجزا تاما .

﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ أى قل يا محمد

يكفينى الله في كافة شئوني فهو رب العالمين ، وعليه وحده يتوكل المؤمنون .

روى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له : "احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يكتبه الله عليك لم يضروك به ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشئ لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف" (١) ويقول ﷺ : "اعمل لله بالشكر في اليقين . واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا" (٢) .

﴿ قُلْ يَنْفَعُكُمْ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ ﴾ أى قل يا محمد

لقومك : اعملوا بعقيدتكم التي تؤمنون بها ، واثبتوا عليها ، فإنى أعمل بعقيدتى وأنا متمسك بها .

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿ ﴾ أى انتظروا عملكم فإننا ننتظر عملنا ، وسوف تعلمون من سينزل عليه العذاب الشديد ويحل عليه العذاب المستمر ، وحينئذ ستعلمون أيننا على صواب ، وأيننا على خطأ .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع . باب ج ٤ ص ٦٦٧ .

(٢) ترتيب الأمالى للشجرى . باب في الصبر على الشدائد ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٨٠)

وأسلوب الآية يخاطب الكافرين برفق ، ويدعوهم إلى التفكير والتأمل وهو في مضمونه يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، والتصديق باليوم الآخر ، ويخوفهم من عذاب السعير .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن من أشد أنواع الظلم الذى يقوم به الإنسان عبادة الأصنام وتكذيب رسول الله ﷺ ، كما تبين أن مصير من يفعل ذلك عذاب جهنم ، وأن جزاء المؤمنين الجنة ، فلهم فيها ما يشاءون ، ويغفر الله لهم ، ويجازيهم خيرا .
إن الأمر بيد الله تعالى يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الغفار لذنوب عباده الصالحين ، ولا قيمة لأصنام مصنوعة لأنها لا تضر ولا تنفع ، والمشركون يقرون بذلك ، ومع ذلك يكفرون بالله ، ولا يخافون من عذابه الأليم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الكذب صفة أساسية للكافرين

يؤكد الكفر ملامح شخصية الكافر ، لأنه أنكر وجود خالق الوجود الموجود ، وهو يشاهده ، وقد صنع من الحجر صنما ، وزعمه إلها ، وعبدته ...
يسهل على من يفعل ذلك أن ينكر الحق ، ويزعم الباطل ، ويدعى حدوث ما لم يحدث ، وظهور ما لا وجود له .

(٨١)

إن الكافر يظلم نفسه حين يصدق بأمور لا تطابق الواقع ، ويسلم بأشياء لا وجود لها :

- من أين للكافر إنكار وجود الله تعالى ؟
 - ومن أين له إنكار دلالات الله على وجوده ، ووحدانيته مع كثرة الآيات في النفس ، والكون ، وسائر جوانب الحياة ؟
 - ومن أين له اتخاذ الحجر والخشب إلها ؟
- إن ذلك وغيره خداع من الكافر لنفسه ، وكذب للواقع ، وقلب للحقيقة .
- والكافر لا يكتفى بالكذب على نفسه ، وعلى الله ، وإنما ينفي كل حق يأتيه ، ويرده بالباطل فيكذب رسول الله ، ويتهمة بالسحر ، والكذب ، والجنون ...
- ويزعم أن القرآن الكريم ليس كلام الله ، وأنه من أساطير الأولين التي جمعها الرسول ، وزعم أنها وحى الله إليه ، وهم بكفرهم ينكرون البدهيات ، ولا يسلمون بأوليات هذا الوجود .

والضالون في العصر الحديث مستمرون على خطى أسلافهم فهم مستمرون في الكذب ، مسلحون بالمال ، والسلطة ، ويتمسكون ببعض الظواهر ، ويدعون أنها العلم ... وهم يسيئون لله ولرسوله وللمؤمنين ...

لقد جعل الله مأوى الكفار جهنم ...

وعلى الدعاة :

أن يستعدوا لرد شبهات المزيفين المكذبين ، وذلك بإثبات البدهيات الموجودة ، والإقرار بأوليات هذا الوجود ، والانطلاق منها إلى الكون كله الظاهر بآثاره ، ومنافعه للوصول إلى الخالق المبدع الذي لا يماثله مخلوق ، ولا شريك له .

وعلى الدعاة :

التصدى لإفك الكذابين حماية للحق ، وقرارا بالواقع ، مع ضرورة التجرد مع البرهان والدليل ، بعيدا عن المؤثرات الخارجة عنه التى يتخذها الأفاكون تكأة لهم .

إن الحق أبلج وأبقى إلا أنه يحتاج للعلماء الفاهمين ، والدعاة الجادين ، وذلك هو الأمل .

الركيزة الثانية**تميز المؤمنين بالصدق والجزاء الحسن**

لن يعدم الحق من يؤمن به وينصره . يقول النبى ﷺ : "لا تزال طائفة من أمتى قائمة بأمر الله ، لا يضرهم من خالفهم ، أو خذلهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون على الناس" (١) .

هؤلاء المؤمنون بالحق هم الذين صدقوا مع أنفسهم ، والتزموا الصواب حين يروونه ، ويسمعون به ، ولذلك آمنوا برسول الله واتبعوه ، وآمنوا بالقرآن الكريم فحفظوه ، وحافظوا عليه ، وعملوا بما جاء فيه ، وخشوا الله ، ورغبوا في جنته ورضوانه ... إن الله يجازيهم بصدقهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يقيمون فيها ﴿ مُخَلَّدُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (٢) .

ولهم فى الجنة ما يشاءون ، يستر الله عيوبهم ، ويغفر ذنوبهم ، ويجزيهم أحسن الجزاء .

وعلى العقلاء أن يحافظوا على هذا الأمل الكبير فى الآخرة بالعمل له فى الدنيا ، والاستقامة على منهج الله تعالى .

(١) صحيح مسلم . كتاب الإمامة . باب قوله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتى ج ٣ ص ١٥٢٤ .

(٢) سورة الكهف ، الآية ٣١ .

(٨٣)

الركيزة الثالثة

تقوية المؤمنين أمام مزاعم الضالين

الصراع بين الإيمان والكفر صراع مستمر ، ولن يهدأ إلا بقيام الساعة
ولذلك ترى الآيات تقوى جانب المؤمنين ، وتأتيهم بالآيات التي تؤكد الحق ،
وتبطل الباطل ، وترد زيف الكافرين .

إن الكافرين يخوفون المؤمنين من انتقام الأصنام التي يعبدونها ، وهذا
ضلال منهم لا يصمد أمام الحق فإله هو رب العالمين ، وهو القادر على فعل
ما يشاء ، ولا قدرة لسواه ... وقد قضى . سبحانه . بإضلال الكافرين ، ومعاقبتهم
، والانتقام منهم .

إن الكافرين لا يعرفون صوابا ، ولا يتأملون أمرا ... إنهم يقولون بأن الله
هو خالق السموات والأرض ، ومع ذلك يعبدون غيره ، وفي هذا جحود كبير
فهم لا يشكرون من خلقهم وأنعم عليهم ، ... ويعبدون ما لا يملك لهم ضرا أو
نفعا .

الركيزة الرابعة

ضرورة حسن الخطاب الدعوى

حين نتأمل في الآية نرى حسن دعوة النبي ﷺ للكافرين ، ونسأل الضالين
عن قدرة هذه الأصنام أمام قدرة الله تعالى .

– فهل هي تقدر على دفع ضرر إن أراد الله ، أو جلب مصلحة إن
منعها الله ؟ ...

– وهل فعلت شيئا حتى تخافوا من مثله ؟

– وهل هي قديمة حتى تدعون قدرة لها ؟

- وهذه أسئلة يعلم الكافرون أن الإجابة عليها ستكون بالنفى ، لأن الأصنام لا تضر ولا تنفع مطلقا ، وبالتالي لا قدرة لها على رد ضرر ، أو جلب نفع .

ونرى قدرة الله تعالى فى إيجاد كل موجود ، فرحمته سبحانه وتعالى وسعت كل شئ ، وعليه يتوكل المؤمنون ، وهو كافيهم ، والمتفضل عليهم ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾^(١) وقد أمر الله تعالى بالحسن فى دعوة الناس ، وطبقه المسلمون عمليا ، ويبدوا هذا الحسن فى عدم إكراه المشركين على الإيمان ، ودعوتهم إلى انتظار النتائج عند الله تعالى حيث يعلم المشركون ، ويرون العذاب الأليم .

إن هذا الخطاب الحسن لم يفرط فى إبلاغ الدعوة ، فقد وضح قدرة الله تعالى ، وبين عجز الأصنام والآلهة المزعومة ، وأكد ضرورة التوكل على الله وحده ، وعرف المشركين باليوم الآخر ، وما فيه ، وخوفهم من عذاب الله الأليم . وفى هذا الحسن ركيزة تؤكد ضرورة الحسن والاستقامة فى أقوال الدعاة وأعمالهم لينجحوا فى عملهم ودعوتهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾^(٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾^(٣) .

(١) سورة لقمان ، الآية ٢٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٨٣ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

الله رب العالمين ، وبيده الأمر كله

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ أَمْ آتخذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۚ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة الأدلة القاطعة على وجود الله تعالى جاءت هذه الآيات بعدد من الحقائق تسلية لرسول الله ﷺ ، وتعريفا له بأن الأمر كله بيد الله تعالى ، وأن الأصنام لا تفيد شيئا مع أن المشركين يفرحون بها ، ويحبون ذكرها .

(٨٦)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات عددا من الحقائق لرسول الله ﷺ ، فهي تبين إن الله أنزل القرآن الكريم بالحق ، وتوضح أن آثار الهداية والضلال تعود على صاحبها ، وأن الله سبحانه يتوفى الأنفس في المنام فيمسك التي جاء أجلها ، ويرسل الأخرى إلى أجل آخر ، وتذكر الآيات أن الكافرين في غفلة عن الله فهم يتخذون أصناما ، ويحبونها ، ويفرحون بذكرها ، ويشمئزون ويكرهون ذكر الله تعالى ، ولا يخشون خالق السموات والأرض الذي بيده الأمر ، واليه المرجع والمآب .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أى إنا أنزلنا عليك القرآن الكريم يا محمد منجما لتقرأه على الناس على مهل ، وتذكر به ، وتبشر وتضع للناس به مناهج الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة .

﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى فمن آمن بالقرآن الكريم ، واستقام على منهجه ، واهتدى بهديه فقد نفع نفسه بالحق وأكرمها بالصواب ، وجعلها تعيش الخير في الدنيا ، والنعيم في الآخرة ، ومن كفر بالقرآن الكريم ، وبعد عن الصواب ، وكفر بالإسلام فقد أضر نفسه وأضلها ، وأبعدها عن الخير في الدنيا وفي الآخرة .

﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى ولست يا محمد رقيبا مسئولا عن الناس ، فلا تحزن لكفرهم ، فكل ما عليك هو البلاغ فقط ، وعلينا الحساب .

إن أمر العباد تحت قدرة الله ، فهو سبحانه ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يأخذ نفس الإنسان عند النوم ، وحين الموت في صورتين مختلفتين ففي حالة النوم نفس الإدراك والتميز ، وفي حالة الموت يأخذ النفس التى بها الحياة والحركة .

﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ فيمسك النفس التى بها الحياة عنده ، ولا يرسلها لجسد من قضى الله بموته وانقضاء أجله ، ويبقيها عنده لتعود لجسد صاحبها حين البعث في الآخرة .

﴿ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى ويرسل النفس المدركة العاقلة إلى الجسد لمن لم يحن أجله .

- عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفذه بداخله إزاره (طرفه الذي يلي الجسد من الجانب الأيمن) فإنه لا يدرى ما حدث بعده ، وإذا وضع جنبه فليقل : باسمك اللهم وضعت جنبى ، وباسمك أرفعه ، اللهم إن أمسكت نفسى فاغفر لها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين" (١) .

- وعن أبى قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لهم ليلة الوادي : "إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء ، وردّها عليكم حين شاء" (٢) .

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : "كنت مع النبي ﷺ فى سفر فقال : من يكلؤنا الليلة ؟

فقلت : أنا . فنام ، ونام الناس ، ونمت فلم نستيقظ إلا بحر الشمس .

(١) مسند الإمام أحمد . مسند أبى هريرة رضي الله عنه ج ١٣ ص ٣٢٢ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب التوحيد . باب فى المشيئة والإرادة ج ٩ ص ١٣٩ .

فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس إن هذه الأرواح عارية في أجساد العباد يقبضها الله إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء^(١) .

فإن قيل : كيف نوفق بين قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وبين قوله تعالى : ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ ، وبين قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ ؟

أقول : المتوفى في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى ، ولملك الموت أعوان وجنود من الملائكة ، ينتزعون الروح من سائر البدن حتى إذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت بأمر الله تعالى .

ومن هذا نعلم أن النفس روح علوية هبطت من المحل الأرفع ، وشغلت بتدبير منزلها في ليلها ونهارها ، ولا تزال تنتظر العودة إلى حماها الذي جاءت منه ، وحين النوم تنتهز الفرصة ، فيحصل لها نوع توجه إلى عالم النور ، وتستعد لقبول بعض آثاره ، والاستضاءة بشئ من أنواره ، وتسعد بمفارقة القوة العاقلة للبدن المادى ، وتعيش في عالم شفاف يرى المبشرات الغيبية ، ويسبح في عالم رمزى له صلة بالحياة الواقعية ، فمتى رأت وهى في تلك الحال فاضت عليها الأنوار فكانت الرؤيا صادقة .

ومتى رأت وهى راجعة القهقرى إلى الجسد عند اختلاطها بمويقات المادة وأوهام الشياطين ، وميول النفس الأمارة بالسوء ، كانت رؤياها كاذبة . وهى في كلتا الحالين متفاوتة بحسب الاستعداد فبعضها متعلق بعالمه الأول ، وله سلطانه على البدن يسده إلى حب الله ، والتعلق به ... وبعضها الآخر محب للهوى ، عاشق للفحشاء يأمل الخوض فيه .

(١) مسند البزار . مسند أبى ذر ؓ . مسند أبى حمزة بن مالك بن أنس ؓ ج ١٤ ص ٤٢ .

﴿ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى إن في فصل الروح

عن الجسد واعادتها إليه أو حفظه عنده سبحانه وتعالى دلائل وبراهين على قدرة الله تعالى لا يستفيد بها إلا من يفكر بعقله ، وينظر في آيات الله وآلائه .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ﴾ أى إن المشركين لم يفكروا بعقولهم

، ولم يتدبروا بأفئدتهم في كون الله تعالى ، فقلدوا أسلافهم ، وعبدوا الأصنام والأوثان ، لتشفع لهم عند الله ، وظنوها قادرة على ذلك .

﴿ قُلْ أُولَؤْكَائِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى قل لهم

يا محمد ألتخذون الأصنام والأوثان شفعاء مع أنها لا تملك شيئاً ، ولا تقدر على شئ ، ولا تعقل أمراً ، ولا تفهم عبادة ؟!

﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴾ أى أن الشفاعة كلها بيد الله تعالى يأذن بها

لمن يشاء من عباده ، يقوم بها لمن رضى الله عنه ، وكتب له القبول .

﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى والله ملك

السموات والأرض يتصرف فيها كما يشاء ، واليه ترجع الخلائق كلها للحساب والجزاء .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ

وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى أن المشركين قد ضلوا

وكفروا وعادوا الله الذى خلقهم ، ولذلك تمتلئ قلوبهم غيظا وكراهية إذا ذكر الله تعالى وحده لأنهم لا يؤمنون بالبعث ، والحشر ، والجزاء ، وإذا ذكرت الأصنام والأوثان فرحوا بها ، واستبشروا بذكرها لشدة افتتانهم بها ، واقتناعهم بالكاذيب التى نسجت حولها .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ

تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى قل يا محمد أمام تعنت

المشركين ، وسفهمهم ، وسوء خلقهم ، وناد ربك وصفه بما هو فيه ، فهو فاطر السموات والأرض ، وموجدهما ، ومنشئهما من العدم ... وهو الحكم العدل بين الناس في الدنيا والآخرة ، وهو سبحانه يملك الإيجاد والإمداد ، والفصل ، والحكم ، والأمر ، فلا تبتئس بما يفعل المشركون ، وسيلحق بالجميع قضاء الله العدل ، فمن حكم الله له بالاستقامة فاز بجنت النعيم ، ومن قضى عليه بالخسران فله جهنم ، وبئس المصير .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن قول النبي ﷺ في صلاة الليل قالت :

كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم" (١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل الكتاب بالحق فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، والله قادر على كل شئ ، فهو سبحانه يقبض الروح عند النوم وحين الممات فمن بقيت له حياة في الدنيا عادت روحه إليه عند اليقظة ومن جاء أجله تبقى روحه عند الله إلى يوم البعث والقيامة ، وفى ذلك آيات للعقلاء ، توضح أن الأصنام لا تقدر على شئ ، ولا تقدر على شفاعته ، لأن

(١) صحيح مسلم . كتاب صلاة المسافرين . باب الدعاء في صلاة الليل ج ١ ص ٥٣٤ .

(٩١)

الشفاعة لله وحده يأذن بها لمن يشاء ، وهو العليم الخبير فلا تلتفت يا محمد لشركهم ، ولا تحزن عليهم ، وتوكل على الله فهو كافيك ، وله الملك ، والخلق ، واليه يرجع الجميع للحساب والعقاب .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان عظمة القرآن الكريم

عظمة الشيء تبدو في حقيقته ، وما يدور حوله ، وما يتصل به ، والآية توضح عظمة القرآن الكريم من نواح عدة .

فهو في ذاته يهدي للتي هي أقوم ، ويقدم عوامل إنشاء الإنسان الصالح ، وتكوين المجتمع الصالح ، ويبين الحجج والبراهين الدالة على صدق ما جاء فيه .

وموضوع القرآن الكريم هو الإسلام الذي جعله الله للناس مشتملا على الحق والصواب .

والقرآن الكريم هو كلام الله تعالى ، نزل به الروح الأمين على رسول الله .

والمتلقى للقرآن هو محمد ﷺ الذي حمّله ، وبلغه للناس ، وبينه لهم ، وقد عرف المسلمون منزلة القرآن الكريم فأحاطوه بالحفظ ، والفهم ، والتطبيق .

ومهمة الدعاة هو خدمة القرآن الكريم ، وإيصاله للناس ، ومساعدتهم في حفظه ، وفهمه ، والعمل به .

الركيزة الثانية

دلالة آية النوم على قدرة الله

والله لتموتن كما تنامون ، وتغيبون عن الوعي والإدراك في حالتى النوم والموت ، وذلك بقدرة الله تعالى .

إن النوم آية كبرى لا يستغنى الإنسان عنها ليتخلص به من التعب والنصب الذى يصيبه من شغله وعمله ، ويستريح من مشقة العمل ، وضجيج الحياة ، وكثير من الضغوط النفسية ، والعصبية ، والعقلية .

يخلد الإنسان إلى فراشه ، ويأتيه النوم ، ويختلس يقظته ، وهو لا يدري كلص دخل البيت خلصة من غير أن يدري أحد .

ويستيقظ النائم من نومه نشيطا ، معافى ، وكأنه كان في مصحة نفسية وعصبية .

وللعافل أن يسأل :

- أين ذهبت القوة العاقلة في الإنسان أثناء النوم ؟
- ومن الذى أسكتها ، ومنعها من الإدراك والفهم ؟
- وكيف غابت ؟ ... وكيف جاءت ؟

ولن يستطيع علماء الدنيا أن يعلموا أسرار العقل أثناء النوم ... إنهم يتناولون الظواهر ، ويلاحظون حركات النائم ، ويدونون آراءهم المستفادة من تجاربهم ... أما الأسرار الحقيقية للنوم فلا يعلمها إلا خالقه ، ومقدره ، وهو الله رب العالمين .

إن الروح من أمر الله يأخذها عند النوم ، ويرسلها لصاحبها عند اليقظة ولو شاء سبحانه وتعالى إمساكها لأمسكها لينتقل الإنسان إلى القبر والحساب .

وفى النوم آية للعقلاء ليعيشوا مع الموت ويستعدوا له ، ويعلموا أن قبض الروح أمر قدرى لا يعرف الإنسان مواعده ، ولا يمكن دفعه ، ولا تستطيع قوى

الدنيا كلها أن تمنعه عن وقته : ﴿ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ۖ ﴾^(١) .

والعاقل من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، واستفاد من آيات الله فى نفسه ، واتعظ بما خلق الله له ، وفيه ، يتعب ويستريح ، وينشط وينام . يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۖ ﴾^(٢) .

إن التفكير فى آية النوم تؤدى إلى شكر الله تعالى ، واحسان عبادته ، وهى مجال خصيب للدعاة ، يبينون فيه فوائد النوم للجسم ، وللعقل ، وللعاطفة ، وللوجدان ... ويكفى إن يعرف الناس أن النوم سبب للحياة ، وتنظيم الفكر ، وهدوء الأعصاب ، وهجر السوء والمنكر .

الركيزة الثالثة

صور واضحة من ضلال المشركين

يبدو فساد المشركين فى أقوالهم ، وأعمالهم ، وأفكارهم .
إنهم يتخذون الأصنام آلهة ، ويتقربون لها بالقرابين ، ويجعلونها سببا للود والفرح الذى يجمع مشاعرهم وأحوالهم ، ويعطونها الأموال والطعام ... ويعلمون عبادة الأصنام واتخاذها آلهة بأنها شفاعوهم عند الله تعالى .
وهذا جهل ، وخبال ، وأوهام ، لأن الإله يجب أن يكون قادرا ، خالقا ، عليما ، حكيما ... إلى آخر ما يجب له من صفات ، ويجب على الإنسان أن يعبدته ويطيعه بلا واسطة ، فقد خلق الناس والكون كله بلا واسطة ...

(١) سورة يونس ، الآية ٤٩ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٧٢ .

(٩٤)

فما معنى اتخاذ الأصنام واسطة ؟ ...
وماذا تملك الأصنام حتى تقوم بهذه الوساطة ؟ ...
وماذا حققت الأصنام للإنسان فى هذا الحياة الدنيا ؟ ...
هل تمنع الموت حين مجئ أجله ؟
وماذا تصنع لنفسها إن دمرها إعصار ، أو زلزال ، أو هدم ؟
وهل فى عبادة الأصنام شكر للخالق ؟ ...
وما الذى تملكه الأصنام فى الدنيا ؟
وما فى عبادة الأصنام من شكر للخالق ؟ ...
وما الذى تملكه الأصنام فى الدنيا ؟
وما هى المفاهيم العقلية التى توجه إليها ؟
لا شئ من كل ذلك يحدث .
وما الأصنام إلا إفك مفترى ، وما عبادتها إلا ضلال مبين .
إن الله مالك الملك ، وخالق الخلق ، واليه يرجع الأمر ، وهو المستحق
للعبادة وحده ، وما عمل الكافرين إلا فى ضلال .

الركيزة الرابعة

خلوص العبادة لله تعالى

يهدى الله المؤمنين للحق ، ويرشدهم إلى أعظم السبل ، وأكثرها
نفعاً لهم ، ولذلك يأمر الله رسوله بأن يقول للناس الحقائق التالية :

(١) الله خالق السموات والأرض وما فيهما ، والواجب على الإنسان أن ينسب
الفضل لصاحبه ، وينادى الله بما تفضل به على الناس .

(٢) الإقرار بعمل الله المحيط بكل شئ ، فهو سبحانه يحكم بين عباده بالعدل
عند الحساب والجزاء .

(٣) يفصل الله بين العباد ، ويحقق لهم الجزاء العادل فى الجنة أو فى النار .

خيبة الكافرين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ۚ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٢﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الكافرين في ضلال كبير ، وأنهم يجحدون حق الله تعالى ودعت النبي ﷺ إلى الصبر والتحمل جاءت هذه الآيات تبين حسرة المشركين يوم القيامة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات حسرة المشركين يوم القيامة حين يرون العذاب بأهواله ، وشدائده .

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾

بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿ أى إن الذين كفروا يعيشون حسرة وندامة يوم القيامة حين يرون العذاب الأليم ، وحينئذ يتمنون الخلاص من هذا العذاب ، ولا يستطيعون ... إنهم لو كانوا يملكون كل ما في الأرض ، ومثله معه لتمنوا أن يفتدوا به أنفسهم من عذاب يوم القيامة .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾

عذاب الله يوم القيامة ما لم يكن في حسابهم ، ولم يتصوروا هو له وشدته ، ولم يعرفوا صورته وحقيقته .

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وظهرت لهم بوضوح يوم القيامة أعمالهم السيئة الثابتة بالكتابة والشهود ، وأحاط بهم العذاب من كل جانب ، فزادت آلامهم وحسرتهم .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾

أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴿ أى إن أهل مكة لا يتعظون بأخبار الأمم السابقة ، ويقعون فيما وقعوا فيه ، ومنه أنهم إذا أصيبوا بضر من فقر ، أو مرض ، أو حاجة لجأوا إلى الله ، واستعانوا به ، ليقينهم أنه هو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ثم إذا رفعنا عنه الضر ، ينسى الله ، ويدعى أنه اكتسب ذلك بعلمه وعمله .

﴿ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ ﴾

بها عباده ليظهر الخبيث من الطيب .

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى أن أكثر الناس لا يعلمون أنها فتنة فيصابون بالغرور والفخر ، ويقعون في الضلال .

﴿ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ قد وقع في هذا الخطأ كثير من الأمم السابقة وقالوا : أنهم أوتوا النعم على علم منهم مثل قارون فقد قال ذلك .
﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى لم تغن المقالة السيئة عن صاحبها أمرا ، وعاقبهم الله بسوء أعمالهم وأقوالهم .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى أن الأمم السابقة فقد عاقبهم الله بسيئات أعمالهم ، ومن أهل مكة من سيصيبهم الله بسوء أعمالهم ، ولن يفلتوا من جرائمهم بالغلب أو الهرب .

﴿ أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى أجهل هؤلاء الضالون ولم يعلموا أن الله موزع الأرزاق ، ومقدر الأمور ، يبسط الرزق لمن يشاء ، ويضيقه عن من يشاء ، ليسلموا بقدرة الله ، ويؤمنوا منه ، ويستفيدوا بالآيات التى لا يستفيد بها إلا المؤمنون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات حسرة الكافرين ، وندمهم يوم القيامة لأنهم حين يرون العذاب يتمنون النجاة منه ولو بدفع ما يملكون ، ولو كان ضعف الحياة الدنيا فقد رأوا عذابا لم يكن في حسابهم وتصوراتهم ، إلا أن العذاب يحيط بهم يوم القيامة من كل جانب بعدما كانوا به يستهزئون .

(٩٨)

إن الظالم جاحد للحق ، قصير النظر فإذا أصابه ضرر لجأ إلى الله تعالى
وإذا أصيب بخير ونعمة ادعى أنه نالها بعلمه وعمله ، ونسى أن عطاء الله فتنة
واختبار ، ولم يستفد الظالم من السابقين ، فقد سبقه قارون وغيره فحاق بهم
كفرهم وقولهم الخبيث ، وسيكون العذاب لمن يكون مثلهم ... إن الله سبحانه
وتعالى يصرف الأمور كما يشاء وهو على كل شيء قدير .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حسرة الكافرين يوم القيامة

لا يشعر الكافر بظلمه إلا بعد قيام الساعة ، لأنه حينئذ يرى أعماله وقد
تجسدت أمامه ، ويرى معها جزاءه الذي يستحقه ، ويبحث عن الخلاص ، ولا
يجد له طريقا .

في هذه اللحظات الشديدة يوازن الكافرين بين حياته الدنيا وبين مصيره في
الآخرة فيتمنى أن يكون مالكا لجميع ما في الأرض ومثله معه ، ليفتدى به نفسه
من عذاب السعير الذي يرى هوله وشدته ، ولم يتوقعه أبدا .

إن الظالم لم يتوقع مصيره في الآخرة ، وكثيرا ما دعاه رسول الله إلى
الإيمان ، وحذره من العذاب ... إلا أنه كذب الرسول ، وسخر منه ، ومن
دعوته وها هي السخرية قد تحولت إلى عذاب شديد أحاط به من كل جانب .

إن نار جهنم شديدة الإيلام ، قوية الأذى ... وقد أعدها الله للعصاة
والمذنبين ، والمشركين والمكذبين ، وهم في يوم القيامة نادمون .

الركيزة الثانية

التردد في الإيمان لا يجوز

الإيمان بالله قائم على اليقين القلبي ، والتصديق القولي ، والتطبيق العملي في تكامل يقوى بعضه بعضا ، ويبقيه صامدا لا يعرف التردد ، والشك ...
 إن الإيمان التزام وسلوك ، وثقة في قدرة الله تعالى ، ورضا بما يقدر ، ولازم ذلك الثبات على الحق ، والرضى بالقدر خيره وشره ، والتمسك الدائم بصراط الله المستقيم .

إن المؤمن يعلم أن ما قدره الله يكون ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، وهو سبحانه واهب الحياة ، ومقدر الأرض ، بيده مقاليد الوجود كله .

أما الكافرون والمنافقون فهم في شك يلعبون ، لا يعرفون موقفا ثابتا ، ولا يؤمنون بقدر الله تعالى ، ولذلك تراهم متقلبين ، مذبذبين بين الحق والباطل ...
 إن أصيبوا بضر أو أذى لجأوا إلى الله تعالى ، ... وإذا ذهب الضر ، ولحفتهم رحمة الله ضلوا وزعموا أن الخير الذي هم فيه بسبب عملهم وجهدهم وعملهم ... وهم بذلك كاذبون لأن الأمر لو كان كما زعموا لما أتاهاهم الضر أصلا ولاستكثروا من الخير .

إن الله جعل عطاءه للناس فتنة لتظهر فيهم الحقيقة ، وتستبين مناهج وأعمال الضالين .

لقد سبق للضالين في الأمم السابقة أن ادعوا أن الأمر بأيديهم فدمرهم الله وخسف بهم الأرض ، وبمثل ما حل بهم سيصيب الله الضالين من المعاصرين ومن بعدهم .

إن الإنسان عبد ضعيف أمام خالقه ، ولن يفلت من عذاب الله مهما كان شأنه ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

إرشاد المؤمنين ودعوتهم إلى الإيمان

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَنْحَسِرُنِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٤٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٥٠﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥١﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

وردت عدة أسباب للنزول ... أهمها :

- روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول هذه الآية "أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، وانتهكوا الحرمات فأتوا

(١٠١)

رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا بأن لما عملنا كفارة فنزلت الآية^(١) .

- وعن ابن عباس أيضا قال : "بعث رسول الله ﷺ إلى وحشي يدعوه إلى الإسلام ، فأرسل إليه كيف تدعوني إلى دينك ، وأنت تزعم أن من قتل ، أو أشرك ، أو زنى يلقى أثاما ، يضاعف له العذاب ، وأنا قد فعلت ذلك كله فأنزل الله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ .

فقال وحشي : هذا شرط شديد لعلي لا أقدر عليه ، فهل غير ذلك ؟
فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ .

فقال وحشي : أراني بعد في شبهة فلا أدري أيعفو لي أم لا فأنزل الله تعالى : ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ .

فقال : وحشي نعم هذا فجاء فأسلم^(٢) .

- وعن ابن عمر عن عمر رضي الله عنهما قال : لما اجتمعنا على الهجرة اتعدت أنا وهشام بن العاص السهمي ، وعياش بن أبي ربيعة بن عتبة .
فقلنا : الموعد أضاعة بني غفار .

وقلنا : من تأخر منا فقد حبس فليمض صاحباه . فأصبحت أنا وعياش بن عتبة وحبس عنا هشام وقد علنا أنه قد فتن فافتتن ، وكنا نقول بالمدينة : هؤلاء قد عرفوا الله ثم افتتنوا لبلاء لحقهم لا نرى لهم توبة .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٧٨ .

(٢) تفسير الخازن ج ٦ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(١٠٢)

وكانوا هم يقولون هذا في أنفسهم ، فأُنزل الله : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا ﴾ إلى قوله : ﴿ مَتَّوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ .
قال عمر : فكتبت بها بيدي ثم بعثتها إلى هشام .
قال هشام : فلما قدمت علي خرجت بها إلى ذي طوى .
فقلت : اللهم فهمنيها فعرفت أنها نزلت فينا فرجعت فجلست على بعيري
فلحقت برسول الله ﷺ (١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة خسران الكافرين وندمهم في الآخرة جاءت هذه
الآيات بذكر رحمة الله بعباده المؤمنين ، ودعوتهم للخير وقبول توبتهم ورجوعهم
إليه .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات للمؤمنين ضرورة الثقة في رحمة الله تعالى ، وأهمية تجنب
اليأس والقنوط في مغفرة الله ، فهو الغفور الرحيم ، وتأميرهم بالتوبة والرجوع إلى
الله تعالى ، واتباع أحسن ما أنزل الله تعالى قبل مجئ الساعة حتى لا
يكون ندمهم وحسرتهم ، وليعلم المؤمنون إن الدنيا هي دار العمل ، وأنه لا
عودة إليها لمن خرج منها ، وأن الجزاء والفصل الحق سيكون في يوم القيامة
حيث تسود وجوه ، وتبيض وجوه .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٨٠ .

(١٠٣)

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾

أى قل يا محمد للمؤمنين الذين ارتكبوا المعاصي ، وأسرفوا في الآثام ، وأكثروا من الذنوب لا تيأسوا من رحمة الله ، وقبول التوبة فهو سبحانه قابل التوب ، وغافر الذنب ، وهو الرحمن الرحيم .

والنداء عام لكل مذنب وعاص ، وفى مقدمتهم المشركون والكافرون .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أى إن الله يغفر أى ذنب يقع فيه

الإنسان إذا تاب عنه صاحبه ، ورجع إلى الله تعالى ، حتى الشرك إذا تركه الإنسان ، ودخل في دين الله تعالى غفر الله تعالى له .

- روى أحمد عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : ما أحب أن لى الدنيا وما

فيها بهذه الآية : ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى

آخر الآية ، فقال رجل : يا رسول الله فمن أشرك ، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : "ألا ومن أشرك . ثلاث مرات" (١) .

- وعن عمرو بن عبسة ؓ قال : جاء إلى النبي ﷺ شيخ كبير يتوكأ

على عصا له فقال : يا رسول الله إن لى غدرات وفجرات ، فهل يغفر لى؟

قال ﷺ : ألسنت تشهد أن لا إله إلا الله ؟

قال : بلى ، وأشهد أنك رسول الله .

فقال ﷺ : قد غفر لك غدراتك وفجراتك" (٢) .

(١) مسند أحمد . كتاب مسند الأنصار . باب من حديث ثوبان ج ٣٧ ص ٤٥ .

(٢) مسند أحمد . مسند الكوفيين . مسند عمرو بن عبسة ج ٣٢ ص ١٧١ .

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : "كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا ثم خرج يسأل هل له توبة فأتى راهبا فسأله فقال : هل لي من توبة ؟

قال : لا ... فقتله ، وأتم به المائة .

وجعل يسأل فقال له رجل : ائت قرية كذا ، وكذا فأدركه الموت ، فضرب صدره تخوفا ، فاختمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .
فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تقربي ، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي .
وقال : قيسوا ما بينها فوجدوه أقرب إلى هذه بشبر فغفر له" (١) .

- وعن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "قال الله عز وجل يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك ، ولا أبالي ، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة" (٢) .

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أى أنه سبحانه هو الغفار للذنوب ، الرحيم للأوابين والتوابين .

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أى أنيبوا أيها الناس إلى الله وارجعوا إليه ، واستسلموا لأمره واعبدوه وحده ودعوا الذنوب والآثام ، وانقوه قبل موتكم ، وقبل أن يحيط العذاب بكم فلا توبة لكم بعد ذلك ، ولن تجدوا نصيرا ينقذكم من دون الله .

(١) صحيح البخارى . كتاب أحاديث الأنبياء . باب حديث الغار ج ٤ ص ١٧٤ .

(٢) مسند الترمذى . كتاب أبواب الدعوات . باب في فضل التوبة ج ٥ ص ٤٤٠ .

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ
الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أى واتبعوا أوامر الله ونواهيه كما
نزلت من عند الله تعالى فكلها حسن وخير قبل أن يفاجئكم العذاب ، وأنتم لا
تعرفون وقت مجيئه ، ولا منقذ لكم بعد مجيئه إلا عملكم وتقواكم .

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتُنِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ
لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ أى بادروا إلى الطاعة والاستقامة في الدنيا ، واحذروا حسرة
النفس وندمها على تفريطها ، وتقصيرها في حقوق الله عليها في الدنيا وقرارها
أمام الله على ضلالها حين كانت تسخر من رسول الله ومن الإسلام ومن
المسلمين ، ولذلك فهي في حسرة يوم القيامة على ما قامت به من تقصير
وسخريه .

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾
أى واحذروا أن تتدم نفس يوم القيامة وتدعى عدم مجئ الهداية إليها فإنها سبب
ما هي فيه ، فقد ملأت قلبها في الدنيا إثما ، وميلا للفحشاء والظلم وهي اليوم
تؤاخذ به .

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ
الْمُحْسِنِينَ﴾ أو تتمنى نفس حين ترى العذاب الرجوع إلى الدنيا لتعمل صالحا
حيث لا رجوع إلى الدنيا بعد الموت .

ولذلك يقول الله تعالى : ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أى لا فائدة من كل هذه الأقوال ، فقد
جاءت الآيات بينة في الدنيا ، وبلغ الرسل الدعوة ، وانقطعت أعذار المعتذرين

فكذبت بها أيها الإنسان ، واستكبرت ، وتمسكت بالكفر ، وعشت فيه ، ورضيت به .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾

أى ترى الكافرين الذين كذبوا على الله تسود وجوههم يوم القيامة من شدة العذاب والحسرة فقد جعل الله مأواهم جهنم لكفرهم وكبريائهم .

﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير

لبيان أن المتكبر الذى غمط حق الناس ، وضيع حقوق الله ، وكون جهنم مثواه وهذا أمر ثابت مقرر عند الله ، وعند العقلاء ... والكبر درجات كثيرة أعلاها الشرك بالله . يقول النبى ﷺ : " لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من خردل من كبر ... " (١) .

﴿ وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴾ أى وينجى الله الذين آمنوا واتقوا من عذاب النار لا يمسهم منه شئ ، ولا هم يحزنون على شئ فاتهم ، ويحقق لهم الفوز الشامل للزمان ، والمكان ، والعمل ، والأثر .

عن أبى هريرة ؓ أن رسول الله قال ﷺ : " يحشر الله مع كل امرئ عمله ، فيكون عمل المؤمن معه في أحسن صورة وأطيب ريح ، فكلما كان رعب أو خوف قال له : لا ترع فما أنت بالمراد به ولا أنت المعنى به ، فإذا كثر ذلك عليه ، قال : فما أحسنك ؟ فمن أنت ؟ فيقول : أما تعرفنى ؟ أنا عمك الصالح

(١٠٧)

، حملتني على ثقلى ، فو الله لأحملنك ولأدفعن عنك ، فهى التى قال الله عنها : ﴿ وَيُنَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾^(١) .

- ٥ -

معنى الآيات

تبشر الآيات عباد الله جميعا بالخير ، وتدعوهم إلى عدم اليأس والقنوط بسبب الإسراف في المعاصى فإن الله قابل التوبة ، غفور رحيم ، وتدعو الآيات إلى الرجوع إلى الله ، وتسليم الأمر له سبحانه وتعالى ... وتحذر من الغفلة ، ونسيان حق الله حتى لا يقع العذاب وهم في غفلة ، وحتى لا يأتى وقت يتحسر العاصى فيه ، أو يقع ندم لا خلاص منه ... إن الدنيا إذا انتهت فلن تعود أبدا فليعمل الإنسان لنفسه حتى ينصره الله تعالى في الدنيا وفى الآخرة .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

نصائح إيمانية للمتقين

يحتاج المؤمن في مسيرة الحياة إلى زاد يقويه على الطريق ، ويعينه على التغلب على قوى الشر التى تتبع في نفسه وهواه ، أو تأتية من شياطين الإنس والجن .

إن نفس الإنسان أماراة بالسوء ، والشيطان متربص لإغوائه ، وإيقاعه في المعاصى عند حالة ضعف ، أو غرور ، أو ألم .

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء . كتاب الطبقة الأولى من التابعين ج ٥ ص ٦٥ بمعناه .

(١٠٨)

ومن هنا كانت رحمته الله بالمؤمنين أن أمدهم بالمواعظ والنصائح ، وأبقى فيهم القرآن الكريم ببيانه وصدقته وهذا ما نراه في هذه الآيات .
إن الآيات تتادى المؤمنين ليستمروا في الطاعة ، وإن حدثت لهم عثرة في الطريق ، وعليهم أن يبادروا إلى التوبة والاستغفار ، ويثقوا في مغفرة الله ورحمته فهو الغفور الرحيم .
ويوجههم الله تعالى إلى ضرورة الاستسلام له في كل حال وأن قبل أن تقوم الساعة ، ويحين الأجل .
ويدعوهم الله إلى اتباع القرآن الكريم فهو كلام الله تعالى الذي أنزله لتوضيح المنهج والطريق .
إن الموت يأتي فجأة ، وعذاب الله قريب ، والعاقل من استعد لذلك بالطاعة والاستقامة حتى لا يندم يوم القيامة ويتحسر على ما قدمته يداه .

الركيزة الثانية

أحوال المؤمنين والكافرين

في يوم القيامة

في يوم القيامة تسود وجوه ، وتبيض وجوه حين ترى حالها ومصيرها في الآخرة ، لأن الذين كفروا بالله ، ولم يصدقوا برسول الله ﷺ يجدون أنفسهم في جهنم ، تشتعل عليهم بلهيبها ، ونارها ، ويجزون فيها بما يناسب غرورهم ، وكبرياءهم .
وأما المؤمنون الذين صدقوا برسول الله ﷺ واتبعوا دينه ، واستقاموا على صراط الله المستقيم فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون .
إن الإيمان باليوم الآخر إصلاح للدنيا ، لأن الإيمان بوقوع الجزاء الأخرى دافع لإصلاح العمل في الدنيا ... إنما يتذكر أولو الألباب .

آيات الله في الدنيا وفي الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۖ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ۚ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ۝ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة الثقة في الله ، وعرفت المسلمين طريق الفلاح جاءت هذه الآيات لبيان دلائل قدرة الله في الكون ، واطهار ضلالات الكافرين ، وتحديد صورة قيام الساعة .

(١١٠)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قدرة الله تعالى ، وتتعى على الكافرين ضلالهم ، وتصور
صیحات يوم القيامة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى إن الله خالق كل مخلوق ، وموجد كل
موجود .

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى وهو القائم على كل شئ خلقه ،
يتولاه بحراسته ، ويكأله بعنايته ، ويصرفه كما يشاء .

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى هو حافظ الخزائن ، ومدبرها
والمتصرف في السموات والأرض ، وله وحده التصرف المطلق فيها .
عن عثمان رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

فقال لى يا عثمان : لقد سألتنى عن مسألة لم يسألنى عنها أحد قبلك ،
مقاليد السموات والأرض : لا إله إلا الله والله أكبر ، وسبحان الله والحمد لله ،
وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو ، الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، يحيى
ويميت وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شئ قدير^(١) .
وعلى هذا فالمراد أن هذه الكلمات توحده الله وتمجده ، وهى مفاتيح خير
السموات والأرض ، من تكلم بها أصابه خيرهما .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٨٣ .

والآيات تدل على أن الله خالق كل شئ ، وأنه سبحانه المتصرف في خلقه كما يشاء ، وأنه سبحانه المالك لخلقه يعطى ما يشاء لمن يشاء ، ويمنع ما يشاء عن من يشاء ... والواجب على المؤمن أن يوحد الله بخلقه ، ويقر بحكمته ، ويسأله من خزائنه .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ أى إن الذين كفروا بالله تعالى وأنكروا صفاته ، ولم يؤمنوا بدينه ، وعبدوا غير الله أولئك قد خسروا الدنيا والآخرة .

﴿ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَِّيَّ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ ؟ ... أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين أتأمرونى أن أعبد غير الله تعالى بعد أن ظهرت الآيات ، وبان الدليل ، وهذا إنكار شديد لموقف الكافرين ، فقد أنكر الله قولهم ، واتهمهم بالجهل والضلال حين جعلوا أنفسهم دعاه الباطل ، المعادين لله تعالى .

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى أتأمرونى أن أعبد غير الله تعالى ، وقد أوحى الله لى ، وللرسل جميعا أن العبادة لله وحده ، وأن الشرك يضيع العمل ويحقق الخسران لمن يشرك ، وقد أكد الله هذا الخبر ، ووضحه بطرق عدة ليتذكر أولو الألباب .

﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ وقد أوحى الله إلى أن أعبده وحده ، ولا أشرك معه إلها آخر ، وأن أشكره وحده ، وأكون من الشاكرين .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى ما عظم المشركون الله كما يجب عليهم ، وما أعطوه حقه وقدره ، وهذا من ضلالهم وسفاهتهم فقد وضعوا أنفسهم موضع الهلاك والعذاب .

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أى تكون الأرض كلها وما فيها تحت تصرفه وملكه يوم القيامة ، ولا وجود لشريك معه يتصرف ، ويقضى ، ويحكم ، وكما هو قاهر في الإيجاد والإنشاء ، قادر كذلك في الإهلاك ، والافناء .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : "جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد : إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع فيقول : أنا الملك .

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ، تصديقا لقول الخبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية^(١) .

وعن ابن عمر إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ وهو يقول هكذا بيده يحركها ، يقبل بها ، ويدبر ، يمجّد الرب نفسه ، أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا : ليخرن به^(٢) .

﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ أى أن السماوات تطوى كطى السجل للكتب .

(١) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

ج ٦ ص ١٢٦ .

(٢) مسند أحمد . مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ج ٩ ص ٣٠٤ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يقبض الله الأرض ، ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ^(١) ؟
﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزه تعالى ، وتقديس عن
الشرك والشركاء وعن عبادة غيره .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ أى إن الدنيا تنتهى
عند النفخة الأولى في الصور ، حيث يصعق كل من في السموات والأرض
إلا من يريد الله له الحياة مثل جبريل ، واسرافيل ، وملك الموت ، والشهداء ، ثم
نفخ فيه أخرى فإذا الجميع يقومون في قبورهم ، وينظرون حولهم ، وهذا هو
البعث أول مشاهد يوم القيامة وبعده يكون النشر ، والتجمع في أرض المحشر ،
ونصب الميزان .

﴿ وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ وأضاء الله أرض المحشر بما أقامه فيها
من حق ، وعدل ، وحساب ، وجزاء ، وظل .

﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ أو ووضعت صحائف الأعمال ناطقة بأعمال
أصحابها على ملائكة الخلائق .

﴿ وَجِئَءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾ أى وجرى الله بالبنين والشهداء ليشهدوا
على الناس عند الحساب .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى ويقضى الله بين الناس
بالحق والعدل بلا زيادة أو نقص .

(١) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ ﴾ ج ٦
ص ١٢٦ .

(١١٤)

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أى وتعطى

كل نفس جزاء ما عملت وافيا كاملا ، والله عليم بأعمال عباده ، وسوف يوفيهما بما يستحقون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله خالق كل شئ ، وبيده مقاليد الحياة ، وواجب الإنسان أن يؤمن بالله تعالى ، وإن لا خسر الدنيا والآخرة ... ولا يصح أن يعبد غير الله تعالى ليفوز العابد برضوان الله تعالى ، وعند القيامة يموت كل من في السموات والأرض بنفخة واحدة ، وعند النفخة الثانية يبعث الله الخلق للحساب والجزاء ، ويأتى الله بالنبیین والشهداء ، ويقيم الميزان لإقامة العدل ، وتوفى كل نفس ما كسبت .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان سفاهة الكافرين العقلية

يؤكد الكافر أنه لا يدرك الحق ، ولا يفهم الواقع ، ولا يتأمل فيما يرى ، ولا يفكر في الآيات التي تحيط به .

فالله خالق كل شئ ، وقدرته شاملة كاملة ، وتدبيره عام لكل شئون خلقه ... ومع ذلك يتخذ الكافرون لأنفسهم آلهة غير الله تعالى ، وذلك هو الخسران المبين .

(١١٥)

ويصل الخبل بالسفهاء أن يدعوا غيرهم إلى عبادة الأصنام ، مع أن العبادة لا تكون إلا لله تعالى ... ولهذا بعث الله الرسل للناس داعين إلى توحيد الله تعالى ، وعبادته وحده ، والاستمرار على شكر الله ، وطاعته ، وتقديره سبحانه وتعالى .

إن الإنسان العاقل يعلم الواجب عليه لربه وخالقه ، والله رب العالمين .

الركيزة الثانية

تغير الكون عند قيام الساعة

تصور الآيات مشاهد يوم القيامة ، وبيان قدرة الله تعالى ، فالأرض وما فيها من قدرته ، يصرفها كيف شاء سبحانه ، والسموات مطويات كالسجل وتبدل الأرض غير الأرض ، والسموات غير السموات .

وتبدأ الساعة بنفخة الصور الأولى حيث تموت الخلائق في السموات والأرض إلا من أراد الله لهم الحياة .

وبعدها تكون النفخة الثانية حيث تقوم الخلائق كلها ، من مات بالنفخة الأولى أو مات قبلها ، وتعود الأرواح إلى الأجساد ، ويحيا الناس انتظارا لأمر الله تعالى .

وبعد البعث يكون النشر حيث تتحرك الخلائق من أماكن موتها إلى موقف الحساب ، حيث الحشر ، ونصب الموازين العادلة ، ويكون الحساب ، وتكون الشفاعة .

في الحشر يشرق نور الله بعدله ، وقضائه على الناس ، ويوضع الميزان ، ويبدأ الحساب ، ويحضر الشهود من النبيين والملائكة والكتب ، وكل ما يريده الله تعالى .

في هذا اليوم يقضى الله بين الناس بالحق ، والعدل ، وتوفى كل نفس جزاء ما عملت في الدنيا ، وهي معلومة لله منذ الأزل .

مساق الكافرين والمتقين إلى مصيرهم في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبُئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِن حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أعمال المشركين والمؤمنين في الدنيا وعند قيام الساعة بإجمال جاءت هذه الآيات لبيان سوق الكافرين والمؤمنين إلى مثواهم في الآخرة حيث الجنة للمؤمنين ، وجهنم للكافرين بالتفصيل .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أحوال الكافرين والمؤمنين عند مساقهم إلى مصيرهم في الآخرة .

الدلالات اللغوية

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ ﴾ أى وسيق الكافرون بربهم ،

الذين كانوا يعبدون الأصنام سوقا عنيفا كما تساق البهائم في الدنيا ، في أفواج متتابعة ، بعضها إثر بعض كما يساق المجرمون إلى السجون حيث يدفعون إليها دفعا ، والزمرة هى الجماعة المتآلفة ، وانما ساقهم الله زمرا ليجمع كل فريق تشابهت أفعاله في زمرة واحدة .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا ۖ ﴾ أى يساق المجرمون إلى جهنم

فإذا جاءوها فتحت لهم أبوابها سريعا ليدخلوها .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ

رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۖ ﴾ ؟ ... أى ويسألهم حراس جهنم

ووكلائها سؤالا تقريريا توبيخيا : ألم يبعث الله فيكم رسلا منكم تلووا عليكم الوحي الذى نزل عليهم ، وأنذروكم لقاء الله في يوم القيامة حيث العقاب الذى أنتم فيه اليوم .

﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۖ ﴾ قالوا : بلى

أى قد جاءنا نذير فكذبناه ، وكفرنا بدعوته فحققت كلمة العذاب علينا لكفرنا .

﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ ﴾ أى يقال للكافرين ادخلوا

جهنم بادئين بأبوابها لتعيشوا العذاب الدائم ، والتعبير عن جهنم بالباب مجاز علاقته الكلية والجزئية ، فالأبواب جزء من جهنم .

﴿ فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى فبئس مصير المتكبرين الذين ينكرون حق الله ، ويتعالون على الناس .

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ أى ويساق المتقون جماعات إلى الجنة مكرمين أفواجا أفواجا حسب درجة إيمانهم وتقواهم .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ أى إذا جاء المتقون إلى الجنة فتحت أبوابها ترحيبا بهم ، وتكريما لهم .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبِّئَ مَا دَخَلْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ أى يقول لهم خزنتها : سلمتم من كل سوء ، وطبتم في الدنيا من كل دنس ، واليوم ترون طيب الحياة في الجنة فأدخلوها لتمكثوا فيها دائما بين عظمة الجزاء وتحيات الملائكة .

﴿ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ أى ادخلوا الجنة ، وامكثوا فيها .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ ﴾ أى يقول المؤمنون : الحمد لله أن أدخلنا الجنة كما وعدنا فقد آمننا ، وصدقنا كما أمرنا الله ، واليوم نعيش في رضوان الله تعالى .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾ أى مكننا من أرض الجنة نتصرف فيها كما نشاء فقد جعلنا الله أصحابها ، وملاكها ، واعلم أن الآيات وصفت مصير أهل الكفر ومصير المتقين يوم الحشر ، وسكتت عن مصير أهل المعاصي الذين لم يتوبوا عن الصغائر والكبائر ، وهذه سنة القرآن في الإعراض عن وصف رجال من الأمة الإسلامية بمعصية ربهم إلا عند

الاقتضاء لبيان الأحكام ، فإن الكبائر من أمر الجاهلية فما كان لأهل الإسلام أن يفعلوا فيها فإذا وقعوا فيها فعليهم بالتوبة ، فإذا ماتوا غير تائبين فإن الله تعالى يحصي لهم حسنات أعمالهم ، وطيبات نواياهم فيقاصهم بها إن شاء ، ثم هم فيما دون ذلك يقتربون من العقاب بمقدار اقترابهم من حال أهل الكفر ، في وفاة المعاصي ، فيؤمر بهم إلى النار ، أو إلى الجنة ، ومنهم أهل الأعراف .

﴿ فَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴾ فنعم الأجر أجر المؤمنين العاملين .

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾

وترى أيها الرائي الملائكة حافين حول العرش يسبحون ، ويحمدون الله .

﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ ويقضى الله بين الناس بالحق فيدخل

بعضهم الجنة ، وبعضهم النار .

﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى ويقال الحمد لله رب العالمين ،

وهذه حكاية لقول الرسل والملائكة والمؤمنين .

اللهم احشرنا في زمرة المتقين ، واجعلنا من عبادك الصالحين ،

واغفر ذنوبنا ، وتجاوز عن سيئاتنا ، واجعلنا عندك من المقبولين .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أحوال المؤمنين والكافرين عند مسارهم إلى مصيرهم في

الآخرة واستقبال الخزنة لهم ، وتنتهى بحمد المؤمنين لله على نعمه ، فهو رب

العالمين .

(١٢٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

خزي الكافرين في الآخرة

يُزن الله أعمال عباده يوم القيامة ، ويوضع كل إنسان في الصورة التي يستحقها ، وترى الكافرين يساقون إلى جهنم سوق البهائم لحظائرها جماعات جماعات ، ويستقبلهم خزنة جهنم ساخرين منهم ، ويسألونهم عن سبب كفرهم وعن الدواعي لكفرهم بالرسول الذين بلغوهم رسالة الله ، وحذروهم من عذاب هذا اليوم الكبير .

يقر الكافرون بذنبهم ، ويعترفون باستحقاقهم العذاب الأليم ، فيسخر الله منهم ، ويدخلهم جهنم ، ويبين لهم أن ذلك جزاء الظالمين .
يدخل المجرمون جهنم ، ويعيشون فيها جزاء ظلمهم وكفرهم .

الركيزة الثانية

تكريم المؤمنين في يوم القيامة

يسعد المؤمنون برضى الله عنهم ، وفوزهم برضوانه ، وتدلهم الملائكة على مأواهم ومستقرهم ، فيتحركون جماعات جماعات من أرض المحشر ويجتازون الصراط حتى إذا جاءوا إلى الجنة تفتح أبوابها ، ويناديهم حراسها ووكلاهما بالسلام والتحية ، ويبينون لهم أنهم كما عاشوا في الدنيا طيبين أصفياء فإنهم اليوم يجزون طيب المقام خالدين فيها .

(١٢١)

ولا يجد المؤمنون من وسائل الشكر إلا أن يحمّدوا الله الذي جازاهم على عملهم كما وعدهم ، وملكهم الجنة ، وصاروا أصحابها المتمتعين بخيرها وحسنها ، وجمالها .

إن الله أكرم المؤمنين جزاء استقامتهم ، واخلصهم في الدنيا لله رب العالمين ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون .

الركيزة الثالثة

تجليات عظمة الله يوم القيامة

وهكذا تنتهي الدنيا ، ويتحقق وعد الله تعالى ، وترى الملائكة حافين حول العرش ، يسبحون الله ، ويقدسونه ، ويحمدونه ، ونرى الناس وقد استقر كل منهم في مثواه ، ويرتفع صوت العابدين الحمد لله رب العالمين .
وهذا أمر عظيم ، وحالة من حالات السرور التي يعيشها المؤمنون عند الله تعالى ، ننادى بها المؤمنون ليعملوا لها ، فهي الفوز الحق ، وهي النصر المبين .



إلى هنا ينتهي تفسير سورة "الزمر" بتوفيق الله تعالى .

سورة "غافر"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(١٢٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أولا -**التعريف بسورة "غافر"**

سورة "غافر" سورة مكية بالإجماع ، وقد استثنى منها الحسن قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾^(١) ، واستثنى أبو العالية منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ^٢ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ ﴾^(٢) فقد ذكر الحسن أن الآية الأولى نزلت في تشريع الصلاة التي تم في المدينة بعد الهجرة ، وذكر أبو العالية أن المراد بالمجادلين هم اليهود في المدينة بعد الهجرة .

وهذا التعليل لمدينة الآيتين فيه مقال ، لأن الصلاة فرضت في مكة ولم تفصل إلا في المدينة ، وكان المسلمون في مكة يصلون ركعتين في العشي ، وركعتين في الإبكار .

وأیضا فإن المشركين في مكة جادلوا رسول الله قبل الهجرة ، ولهذا كان القول بمدينة الآيتين محل نظر .

ويمكن التسليم بأن الآيتين نزلتا مرتين مرة في مكة قبل الهجرة ، ومرة ثانية في المدينة بعد الهجرة ، والقول بهذا أولى حتى تكون السورة كأخواتها من "آل حم" مكية مثلهم .

وسورة "غافر" أول سور "آل حم" التي جاءت متتابعة في مصحف عثمان رضي الله عنه وهذه السور هي (غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف) وهي معروفة بـ "آل حم" وكأنها أسرة واحدة يجمعها افتتاح

(١) سورة غافر ، الآية ٥٥ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٥٦ .

(١٢٥)

واحد ، وغرض واحد ، ونسق بياني متشابه إلى حد كبير ... كما أنها من
السور بين الطويلة والمفصل يسهل قراءتها ، وحفظها .

وللسورة عدة أسماء هي :

(١) تسمى السورة بـ "غافر" لوصف الله فيها بأنه ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ ﴾ وهو أشهر
أسمائها .

(٢) وتسمى بسورة "حم المؤمن" لذكر قصة مؤمن آل فرعون الذي كان يكتنم
إيمانه في السورة .

(٣) وتسمى بسورة "ذی الطول" لوصف الله فيها نفسه بـ "ذی الطول" .
وقد نزلت سورة "غافر" بعد سورة "الزمر" .

وعدد آيات سورة "غافر" عند أهل المدينة وأهل مكة أربع وثمانون آية
وعند أهل الشام والكوفة خمس وثمانون آية ... وعند أهل البصرة اثنتان
وثمانون آية .

وتتصل سورة "غافر" بسورة "الزمر" بعدة أوجه منها :

(١) بينت سورة "غافر" أن الله تعالى غافر الذنب وقابل التوب، ليكون ذلك
دعوة للكافر إلى الإيمان ، وإلى الإقلاع عما هو فيه ، وأن يعلم أن باب
التوبة مفتوح . وذكر شدة عقابه وصيرورة العالم كلهم فيه ليرتدع عما هو
فيه ، وأن رجوعه إلى ربه فيجزيه بما يعمل من خير أو شر ، وهو نفس
الموضوع الذي قدمته سورة "الزمر" .

(٢) أن السورتين قدمتا مشاهد يوم القيامة ، وأحوال الناس في المحشر
وعند الحساب .

(٣) أنهما يعتمدان على المواعظ والنصائح ، وعرض الآيات والبراهين الدالة
على صدق العقيدة والإسلام .

وآيات السورة تعرض قضايا العقيدة ، وتورد الآيات والبراهين على صدقها وثبوتها .

فعن الإيمان بالله ... يقول الله تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾^(١) .

وعن الرسل والرسالات ... يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾^(٢) .

وعن الملائكة ... يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ تَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾^(٣) .

وعن الكتب المنزلة ... يقول الله تعالى : ﴿ حَمْدٌ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾^(٤) .

وعن اليوم الآخر ... يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٥) .

وتتضمن السورة عددا من الأساليب البيانية الدالة على وحدانية الله تعالى ، واتصافه بصفات الجلال والكمال ، وتنفرد السورة بقصة مؤمن آل فرعون الذى ظهر أمام فرعون وقومه ، وأخذ يدافع عن موسى عليه السلام ، وقدم الدعوة فى منهج عقلى هادئ .

(١) سورة غافر ، الآية ١٤ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٧٨ .

(٣) سورة غافر ، الآية ٧ .

(٤) سورة غافر ، الآيات ١ - ٢ .

(٥) سورة غافر ، الآية ٥٩ .

(١٢٧)

وقد ورد في فضل سورة "غافر" وأخواتها قوله ﷺ : "كل شئ ثمرة ، وإن ثمرة القرآن ذوات حم ، هن روضات حسان ، مخصبات ، متجاورات فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ آل حم"^(١)...

ويقول ﷺ : "مثل آل حم في القرآن كمثل الخيرات في الثياب"^(٢) .
وعنه أيضا : إذا وقعت في آل حم فقد وقعت في روضات دمنات أتأنق فيهن^(٣) .

وعن سعد بن إبراهيم قال : كن آل حم تسمى العرائس^(٤) .
وقال ابن عباس رضى الله عنهما : إن لكل شئ لبابا ، وللباب القرآن آل حم^(٥) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : " من قرأ حم المؤمن ... إلى قوله إلى المصير ، وآية الكرسي حين يصبح حفظه الله بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظه الله بهما حتى يصبح"^(٦) .

(١ ، ٥) تفسير الألوسي ج ١٢ ص ٢٩٣ ، وتفسير الخازن ج ٦ ص ٨٧ .

(٦) سنن الترمذى . كتاب فضائل القرآن . باب ما جاء في فضل سورة البقرة ج ٥ ص ١٥٧ .

- ثانيا -**- التفسير -****تعظيم الله تعالى
وبيان علو القرآن الكريم**

يقول الله تعالى :

﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ
التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۝ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝ مَا يُجَدِلُ
فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرَكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ۝ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۝
وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝
وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات عظمة الله تعالى ، وتفضله على عباده المؤمنين بإنزال القرآن
الكريم كتابا معجزا قويا في دلالاته ، وأحكامه ، عالما بتوجيهاته ، وبيانه .
وهو سبحانه غفار رحيم ، يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن الكثير ،
وهو صاحب البأس ، والعزة ، والغلبة ، وهو الواحد الأحد ، واليه المرجع والمآب ،
وتبين أن الذين يجادلون بالباطل هم أصحاب النار ، فلا تغتر بما هم فيه من
غنى وسلطان ، وسيلحق بهم العذاب والعقاب كما حصل للأمم السابقة لأن
الكفر ظلم ، وعقوبة الكافرين ثابتة .

الدلالات اللغوية

﴿ حَمْ ﴾ "حم" حرفان مقطعان هما (الحاء والميم) ، جئ بهما فى أول السورة لبيان تكون القرآن الكريم من حروف الهجاء التى يتكلم بها العرب ، الذين عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة قرآنية ، وصدرت السورة بالحرفين لتنبية الغافلين ، وتعريفهم ما تدل عليه السورة ، ولذا جاء الخبر بعدها بيانا لعظمة القرآن الكريم ، وتوضيحا لأهم خصائصه ، ومزاياه .

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٢﴾

أى إن هذا القرآن المكون من حروف الهجاء كلام الله العظيم ، أنزله على رسول الله ﷺ دستورا للدين ، ومصدرا للهدى ، ونزول القرآن الكريم من عند الله دليل رفعة وعلوه ، لأن العظيم لا يصدر عنه إلا العظيم ، ودائما تظهر خصائص صفات الفاعل فى صنعته ... ولذلك تجلت صفات الله فى قرآنه ، وقد اختارت الآيات ذكر بعض صفات الله لوضوحها فى كلام الله تعالى . فقد ذكرت الآيات الصفة الأولى وهى ﴿ الْعَزِيزِ ﴾ ومعناها أن الله لا مثل له ، وأنه القوى القدير ، فهو سبحانه منزّه عن صفات الحوادث ، ومن هذه الصفة استفاد القرآن الكريم تميزه عن سائر كلام الناس ، فهو كلام الله تعالى الهادى للحق الداعى إلى الصراط المستقيم ، الذى لا يماثله كلام الإنس والجن ولو اجتمعوا ويثبت عجزهم أمامه .

والصفة الثانية هى ﴿ الْعَلِيمِ ﴾ فهو سبحانه عالم بكل المعلومات بصورة مطلقة ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون ، وقد أودع سبحانه شيئا من علمه فى كتابه العزيز ، وجعله محيطا بوجوه المصالح ، وصور المفاسد داعيا إلى

(١٣٠)

الحكمة والصواب ، منزها من كل قبيح وباطل ، فهو أحسن الحديث نزله الله رب العالمين .

والصفة الثالثة ﴿ غَافِرِ الذُّنُوبِ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى يغفر ذنوب عباده ويفتح باب القبول لمن يرجع إليه ، ويتوب عن معاصيه ... والقرآن الكريم يدعو إلى التوبة ، وعدم اليأس من رحمة الله تعالى .

والصفة الرابعة ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى يقبل التوبة بشروطها من عباده رحمة ، وتفضلا ... والقرآن الكريم ينادى المؤمنين بالتوبة ، والرجوع إلى الله تعالى .

والصفة الخامسة ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يعاقب العصاة عقابا شديدا حينما يريد ، وكيفما يشاء ، والقرآن الكريم يبين شدة عقاب الله للمذنبين ، والعصاة ، والضالين .

والصفة السادسة ﴿ ذِي الطَّوْلِ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى صاحب الفضل والعطاء ومن ذلك عطاء القرآن الكريم ، وهدايته للصالحين .

والصفة السابعة ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى لا إله إلا الله ، فهو واحد لا شريك له وهو منزل القرآن الكريم الذى لا نظير له .

والصفة الثامنة ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى أن الخلق جميعا راجعون إلى الله حيث يلقون المصير الذى يستحقونه كما بينه القرآن الكريم .
وفى القرآن الكريم بيان هذه الصفات ، ودعوة الناس إلى الإيمان بالله تعالى والحذر من عذاب الله فى اليوم الآخر .

فإن قيل : ما سر مجئ الآية الأولى من سورة "الزمر" بصفتي ﴿ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ واشتمال الآية الثانية من سورة "غافر" على صفتي ﴿ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ؟

أقول : فى كل سورة تأتى الصفات المناسبة للآيات المذكورة معها فى سورة "الزمر" ناسبت دعوة النبى ﷺ إلى التمسك بهذا الكتاب الحكيم ، واهتدائه بهديه القويم ، وفى سورة "غافر" ناسبت دعوة الناس إلى التوبة والرجوع إلى الله تعالى فهو العزيز القهار .

وان قيل : لم عطفت ﴿ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ بالواو ، ولم يعطف عليها ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ ؟

أقول : جاء العطف بين ﴿ عَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ بالواو لبيان أنهما صفتان متغايرتان ، لأن عدم العطف يجعلهما صفة واحدة لتلازمهما . أما ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ فهى صفة مستقلة مغايرة لغافر الذنب لا التباس بينهما فجاءت بلا عطف .

﴿ مَا تُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى إن الذين كفروا يجادلون بالباطل ، ويقولون عن القرآن الكريم : إنه سحر ، وشعر ، وأساطير الأولين ، ويتحاورون لإثبات الباطل ، ورد الحق .

إن الجدل نوعان جدال فى تقرير الحق ، وجدال فى تقرير الباطل . أما الجدل فى تقرير الحق فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام والدعاة وقد أمر الله به محمدا ﷺ فقال تعالى له : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾^(١) .

وقال سبحانه حكاية عن الكفار أنهم قالوا لنوح عليه السلام : ﴿ يَنْتُوخُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾^(٢) .

وأما الجدل فى تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد فى الآية .

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٦ .

(٢) سورة هود ، الآية ٣٢ .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : "هاجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج يعرف في وجهه الغضب ، فقال ﷺ : إنما هلك من كان قبلهم باختلافهم في الكتاب" (١) .

وقال أبو العالية : آيتان ما أشدهما على : ﴿ مَا تُجَدِّلُ فِيَّ ءَايَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَزَلَّ أَلَكْتَبَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (٣) .

﴿ فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ﴾ أى لا تغتر بما هم فيه من غنى ، وصحة ، وحركة ، وتنتقل فى البلاد ، فإن الله يمهلهم ، ولا يمهلهم ، وكان القرشيون يعلنون الشرك والكفر ، ويرحلون إلى الشمال والجنوب ، ويغترون بذلك .

﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أى كذبت قبل أهل مكة أمم سابقة منهم قوم نوح والأحزاب الذين تحزبوا ضد رسلهم ، وهم قوم هود ، وقوم صالح ، وغيرهم واستمروا على عبادة الأصنام ، وحاولت كل أمة قتل الرسول المبعوث فيها ، وجادلوا بالباطل ، وتمسكوا بالكفر ، وعبادة الأصنام ، وعملوا على رد الحق ودحضه ، وابطاله ، فكان أن عاقبهم الله تعالى ، وأهلكهم بعذاب أليم .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٨٨ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية ١٧٦ .

(١٣٣)

﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ

النَّارِ ﴾ أى وبمثل هذا الجزاء يكون عقاب الله لكل كافر ضال فقد رضوا لأنفسهم أن يكون من أصحاب النار .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات عظمة القرآن المنزل من عند الله المتصف بصفات الجلال والكمال التى تليق به سبحانه وتعالى ، وتوضح أن الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل هم الكافرون بالله ، فلا تهتم بهم يا محمد ، ولا تحزن لسلطانهم ، وقوتهم ، وكبريائهم فقد أهلك الله أقواما كفروا به فى الأمم السابقة ، وحاولوا قتل الرسل ، ومثل هذا الهلاك سيلحق بكل كافر لأنه مستحق للدمار والهلاك .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان عظمة الله وجلاله

بعث الله رسله للناس ليحددوا لهم الطريق الذى يعيشون به ، ويخلصون فيه ، وأول الواجبات معرفة الله ، ومعرفة صفاته ، والتمسك بلوازم هذه المعرفة .
إن الله واحد ، لا شريك له ، ولذلك فهو المعبود وحده ، ولا معنى لإيمان بالله لا يؤدى إلى عبادته وحده .

والله هو العزيز العليم ، له الطاعة ، وعنده المغفرة ، وهو العليم الخبير .

(١٣٤)

إن الإنسان عبد لله تعالى ، فهو خالقه ، ومنشئه ، ورازقه ، وهو المتصرف فى كافة شئونه ... وحين يتيقن العبد من قوة سيده وكرمه ، وعظمته يحبه ، ويتعلق به ، ويعمل ما يطلبه .

والعبد يتوكل على الله ، ويلجأ إليه فى كل حاجاته وقضاياه ، والدعاة يعملون لنشر دين الله تعالى ، وأول واجباتهم تعبيد الناس لله ، ولابد لذلك من معرفة بصفات الله تعالى ، والارتباط به حبا وخوفا ، ورغبة ، ورحمة ، فهو البر الرحيم الودود ، وهو الفعال لما يريد .

وعليهم أن يعرفوا الناس بأفضال الله وآلائه فهى عديدة متنوعة ، ماثلة فى النفس ، وفى الكون كله .

ووسيلة الدعاة إلى الناس هى وسيلة الرسل إلى أقوامهم ، وعليهم أن يصبروا ويتحملوا ، ولكم فى رسول الله أسوة حسنة .

الركيزة الثانية

أخلاق الكافرين

تبين الآيات أهم صفات أعداء الله ، الذين يكفرون بالحق ، ويجادلون بالباطل ... وهى :

أولا : العناد فى الحديث ، فهم يجادلون بالباطل ، ويخاصمون الحق بلا برهان ولا دليل ويظنون أن الشرك هو الحق الثابت .

ثانيا : الغرور والتعالى فقد تكبروا على الناس ، واغترؤا بما هم فيه من نعيم ، وسيطر عليهم الهوى وظنوا أنفسهم أعلى من غيرهم .

ثالثا : الميل إلى العدوان على الرسل ، وعلى الدعاة ، لأنهم لما عجزوا عن مواجهة الحجة بالحجة ، والرأى بالرأى ، حاولوا قتل الرسول واستمروا فى تكذيبه بلا دليل وادعوا أنه ساحر ومجنون .

(١٣٥)

وتوضيح القرآن الكريم لأخلاق الكافرين فى الأمم السابقة بيان لأخلاق
المشركين والمنافقين فى كل العصور ليعرف الدعاة ، وهم يدعون صفات
وأخلاق الذين يدعونهم ، ويعدوا لكل فريق عدته ، وحتى لا يضعفوا أمام أعداء
الله تعالى ، فلقد بعث الرسول الواحد إلى جماعة ظالمة طاغية ، فأدى الأمانة
وبلغ الدين ، ونصح الناس ، وقدم البراهين والآيات المعجزات الدالة على صدقه
إلا أن الكافرين أصروا على الفساد والضلال ، وأظهروا خصائصهم وطبائعهم
التي تميزوا بها .

دور الملائكة وجزاء المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ
تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي
وَعَدْتَهُمْ وَمِنْ صَلَاحٍ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتُهُ وَذَلِكِ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ۞ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة جدل المبطلين ، وتحزيبهم على رسل الله عليهم
السلام جاءت هذه الآيات لبيان تقديس الملائكة لله ، ودعائهم للمؤمنين بالفوز
والنعيم .

(١٣٦)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات عمل الملائكة فى الآخرة ، ودعاءهم لإثابة المؤمنين بالمغفرة ، وبنجات النعيم ، وبنجاتهم من السوء ، وبأن يجمعهم الله مع آبائهم وأزواجهم وذرياتهم فى الجنة وهى ما وعدهم الله به فى الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ أى إن الملائكة الذين يحملون عرش الله بكيفيات يعلمها الله وحده ، ويوجدون حول العرش يسبحون الله تعالى ، ويقصدونه ، وينزهونه عن أى نقص ، ويدعونه ، ويصدقونه ، ويؤمنون به كما هو حالهم وشأنهم .

﴿ وَیَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى إن الملائكة تدعو للمؤمنين ، وتسأل الله أن يغفر لهم ، وتقدم بين یدى دعائها تعبدها الله ، وتثنى عليه ، وتنادى :

﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى يتقرب الملائكة لربهم ، ويمدحونه ، ويصفونه بربوبيته ، وسعة رحمته ، وشمول علمه لكل شئ ، ويجعلون هذا الثناء مدخلا لدعائهم ، وسؤالهم الله أن يغفر للذين تابوا واستقاموا على طريقه ومنهجه ، وأن ينجيهم من عذاب جهنم بعدما استجابوا لدعوة رسول الله ﷺ ، ودخلوا فى الإسلام ، وآمنوا بالله رب العالمين ، وتابوا عن المعاصى التى وقعوا فيها .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ
 ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أى بعدما طلبت الملائكة من الله أن ينجى
 المؤمنين من عذاب جهنم ، أخذت تطلب من الله تعالى أن يدخلهم جنات عدن
 لتكون مقاما دائما لهم .
 وجنات عدن هى أوسط الجنة ، وأرقاها التى وعد الله بها المؤمنين ،
 وتدعو الملائكة أن يدخل الله معهم الصالحين من زوجاته ، وآبائه ، وبنيه
 ، وذريته .

قال سعيد بن جبير : يدخل الرجل الجنة فيقول : يارب أين أبى ؟ وأين
 أمي ؟ وأين ولدي ؟ وأين ولد ولدي ؟ وأين زوجاتى ؟
 فيقال : إنهم لم يعملوا كعملك . فيقول : يارب كنت أعمل لى ولهم .
 فيقال : أدخلوهم الجنة ، ثم تلا الآية^(١) .

﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى أنت يا الله القادر على فعل ما تريد
 والأمر كله بيدك ، فأكرم عبيدك الذين اخلصوا لك ، وعبدوك حق العبادة .
 ﴿ وَفِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى اصرف عنهم سوء ما عملوا قبل توبتهم .
 ﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أى ومن تصرف عنه آثار
 السيئة فقد أحاطته بالرحمة .

﴿ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى إن من رحمته يا ربنا فقد فاز فى
 الدنيا وفى الآخرة .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٩٠ .

(١٣٨)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن حملة العرش والملائكة الحافين بالعرش يسبحون الله ، وينزهونه ، ويطلبون منه ، ويدعونه أن يغفر للمؤمنين ، وينقذهم من عذاب جهنم ، وأن يدخلهم وأزواجهم ، وأبائهم ، وذرياتهم معا فى جنات النعيم ، وينجيهم من آثار السوء الذى وقعوا فيه قبل التوبة ، وبذلك يتحقق لهم النجاة والفوز .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

تكريم المؤمنين فى الآخرة

المؤمنون فريق من الناس ، آمنوا بالله تعالى ، واستقاموا على صراط الله المستقيم ، وعاشوا فى الدنيا عبيدا لله تعالى يوحدهونه ، ويحافظون على شريعته ، ويتعاملون بالأخلاق الكريمة ، ويستعدون للقاء الله فى الآخرة ، ولذلك يحقق الله لهم عنده المقام الكريم جزاء ما تمنوا ، وما عملوا له .

والآيات تقدم صورة الملائكة وهم يسعون سعيهم لتقرير المؤمنين واسعادهم حيث يتجمع حملة العرش ، والمحيطون به يؤدون لله حقه عليهم فيسبحونه ، ويعددون فضله ، ويؤكدون عبوديتهم لله ... ومع هذا يدعون ربهم ، ويسألونه أن يسع برحمته وعلمه الذى آمنوا به من الناس ، وأن يقبل توبتهم ، ويغفر ذنوبهم ، وأن يقيهم عذاب الجحيم ، فقد أخلصوا فى العبادة ، وصدقوا فى الطاعة والانقياد .

ويطلبون منه أن يدخلهم جنات عدن وعدهم الرسل بها ، وأن يجمع معهم من صلح من آياتهم ، وأزواجهم ، وذرياتهم .

إن هذه التجليات العالية تتحقق للمؤمنين يوم القيامة وينزل بها القرآن الكريم فى الدنيا لحمل البشرى ، وترغيب العقلاء بخيرات يوم القيامة .
 إن الله يحب للناس أن يؤمنوا ، ولذلك أنزل آياته ، وحثهم على طاعته ووعدهم بالمقام العالى عند ربهم الكريم .
 والكيس القطن من دان نفسه ، وعمل ليوم الدين .

حسرة الكافرين يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ ١
 فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ٢
 وَحَدَّهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ٣ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حسن مقام المؤمنين ، ودعوة الملائكة لهم ، وطلبهم من الله أن يغفر للمؤمنين ، وأن يجمعهم مع آبائهم ، وزوجاتهم ، وذرياتهم فى جنات النعيم كما وعدهم الله فى الدنيا جاءت هذه الآيات لبيان غضب المشركين من شركهم ، وندمهم على ما كانوا فيه من ضلال وفساد .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الذين كفروا يصابون بالخزى والحسرة وكرهية ما كانوا فيه ، وتوضح أن الملائكة تعرفهم بأن الله مقتهم فى الدنيا بسبب كفرهم

(١٤٠)

حينما دعوا إلى الإيمان ، وحين يطلبون العودة إلى الدنيا ليصلحوا أمورهم ، ويتوبوا عن ذنوبهم إلا أن الرجوع إلى الدنيا لن يكون ، فلا عودة للدنيا بعد انتهائها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ أى إن الملائكة الذين يدعون الله ليغفر للمؤمنين ، ينادون الكافرين ، ويقولون لهم : إن غضب الله عليكم أكبر من غضبك على أنفسكم فقد دعاكم الرسول وأنتم فى الدنيا إلى الإيمان فأصررت على الكفر فغضب الله عليهم ، ومقتهم فى الدنيا ، وفى يوم القيامة حين يرون البعث ، والعذاب الأليم يغضبون مما عملوا فى الدنيا فنقول لهم الملائكة : إن غضب الله عليكم كان فى الدنيا أشد وأقوى من مقتكم لأنفسكم اليوم فى الآخرة ، وهذا لا ينافى أن الله يمقتهم فى الآخرة ، ويجازيهم بنار السعير .

وبعدما يمقت الكافرون أنفسهم فى الآخرة ، يقرون بصفات الله تعالى ويعترفون بقدرته ، و ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴾ أى يقر الكافرون بقدره الله ، ويعترفون بفضل الله عليهم ، فلقد كانوا أمواتا مرتين ، فأحياهم الله بعد هاتين الموتتين مرتين آخرين .

أما الموتة الأولى فيراد بها الجنين في بطن أمه قبل أن تدب فيه الروح والإحياء الأول هو خروجه من بطن أمه بشرا سويا .

والموتة الثانية هى خروج روحه من جسده عند مجئ أجله ، والإحياء الثانى يكون يوم بالبعث ، والقيام من القبور .

﴿ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ﴾ يقول الكافرون : لقد أقررنا بخطايانا ، واعترفنا بذنوبنا ، ومعاصينا .

﴿ فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ؟ ... أى فهل تعيدنا يا ربنا إلى الدنيا لنعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ... والاستفهام نوع من الإلحاح في الطلب عسى أن يستجاب لهم .

وهنا يرد الله عليهم ، ويعرفهم بأنهم سبب ما هم فيه ، ويقول لهم : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ^ط وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوُمِنُوا ﴾ أى إنكم أيها الكافرون سبب ما أنتم فيه من عذاب ، لأنكم كنتم في الدنيا إذا دعيتم إلى الإيمان بالله وحده كفرتم ، وأنكرتم أن تكون الألوهية لله وحده ... وإن أشرك بعضكم مع الله آلهة أخرى صدقتم به ، وآمنتم به ، وفرحتم بلقائه وعبدتم غير الله تعالى .

﴿ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ أى الحكم في الآخرة هو لله تعالى العليم بكل شئ ، العادل في حكمه ، العظيم في تعاليه ، وكبريائه ، وهو يجازيكم بعملكم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يمقت الكافرين أكبر من مقتهم لأنفسهم في الآخرة لأنهم كانوا يتمسكون بالكفر إذا دعوا إلى الإيمان في الدنيا ... وفى الآخرة يقرون بقدرة الله ، ويبينون أن الله خلقهم وأحياهم مرتين ، وأماتهم مرتين ، ويرجون العودة إلى الدنيا ليصلحوا عملهم ، ويستجيبوا لدعوة الله تعالى ، فيرد الله عليهم ويعرفهم أنه لا عودة للدنيا ، وأنهم سبب ما هم فيه فقد كانوا في الدنيا

(١٤٢)

، يسارعون إلى الكفر إذا دعوا للإيمان ، وإذا دعوا إلى الشرك ، ورأوا الشركاء انضموا لهم ، وكفروا مثلهم ، والله يوم القيامة يحكم بين عباده أجمعين بالعدل ، والقسطاس المستقيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تقدم الآيات ركيزة هامة ... هي :

سوء عاقبة الكافرين

يعيش الإنسان حياتين هما حياة الدنيا وحياة الآخرة .

ففي الحياة الدنيا يكلفهم الله تعالى الناس بدينه ، وبشرع لهم منهج الحركة والعمل ، ويدعوهم إلى الاستقامة على ما جاءهم من الله تعالى ، ويحذرهم من عمل السوء في الدنيا ، ويؤكد لهم أنهم سيحاسبون على أعمالهم ... وحتى يقنعهم الله بما دعاهم إليه وضح لهم قدرته في الخلق والإبداع ، ورحمته بهم في تسخير ما في الكون لخدمتهم ، وتحسين معاشهم ... وبذلك يعيش الإنسان في الدنيا ، ويؤدي عمله وهو عليم بواجباته ، ومسئوليته .

وفي الآخرة يحقق الله للناس ما وعدهم به ، ويتحقق البعث والحشر ، ويقيم الله الميزان ، ويتم الحساب بعدل ووفاء .

في الآخرة يرى الكفار ما أعد الله لهم من عذاب السعير ، ويعمهم الخزي والعار ، ويندمون ما عملوا في الدنيا ، ويعلنون غضبهم وكراهيتهم لما عملوه في الدنيا ، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا ليصلحوا ما أفسدوا ، ويستقيموا بعدما رأوا سوء المصير ، ويقولون بأن الله قادر على إحيائهم ، وامانتهم مرة ثالثة فقد أحياهم وأماتهم مرتين وهم محتاجون للرجوع إلى الدنيا فقد أقرؤا بذنوبهم ، وهم يريدون التخلص منها .

(١٤٣)

فيرد الله أمْلهم ، ويعرفهم بأنه يمقتهم ويكرههم أكثر من كراهيتهم لأنفسهم وعملهم فقد دعاهم إلى الإيمان ، وحثهم على طاعة رسول الله ، وأحاطهم بالأدلة والبراهين ، فأصروا على الكفر ، وانحازوا إلى الضلال والضالين ، ولذلك يمقتهم ، ولن يعيدهم إلى الدنيا .

يعيش الكافرون هذه الحالة في الآخرة ، ويصابون بالحسرة والندامة ، وعلى المسلمين أن يحذروا هذه الحالة ، ويطهروا دنياهم ليسعدوا في آخرتهم .

آيات الله المثبتة لقدرته

يقول الله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُزِيلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ ١ فادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٢﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿٣﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤﴾ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۖ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة هوان الكافرين في الآخرة جاءت هذه الآيات لإيراد بعض البراهين الدالة على وحدانية الله وقدرته ، ورعايته شئون الدين ومصالح الدنيا .

(١٤٤)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات كمال قدرة الله ، وكمال حكمته ، وتدعو إلى الإيمان به من خلال تفصيل بعض آياته وصفاته ، وتوضح الحساب العادل في الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ أى هو

الله الواحد القهار الذى يريكم براهين قدرته ، ويطلعكم على آيات وجوده لتؤمنوا به ، وتتبعوا رسوله ، وتخلصوا في عبادته ، وهو سبحانه الذى ينزل لكم من السماء مطرا ليخرج به من الأرض نباتا وثمارا ، تعيشون به طعاما وفاكهة .

والخطاب للناس أجمعين ليؤمنوا بالبراهين التى تقنع عقولهم وأرواحهم ويعيشوا مع الآيات التى تشبع بطونهم ، وتحفظ حياتهم ، وقدمت الآية الجار والمجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ لبيان كمال الامتتان الإلهى بأن أنزل المطر ، وجعل الرزق للناس خاصة .

وايراد الفعل بصيغة المضارع ﴿ يُرِيكُم ﴾ ، ﴿ وَيُنَزِّلُ ﴾ لإفادة التجدد

الدائم في عطاء الله تعالى .

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ أى إن آيات الله موجودة في النفس

والكون ، والحياة إلا أن الذى يعتبر بها ، ويفهم دلالاتها هو الإنسان الذى يرجع إلى الله تعالى ، ويفكر في بديع صنعه سبحانه وتعالى ، ويتدبر في الآيات الماثلة في النفس والكون .

﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ أى إذا

علمتم أن الذى يرجع إلى الله هو الذى يتذكر ، ويعقل ، ويؤمن فأنيبوا إلى الله وتوبوا عن المعاصى ، وأخلصوا لله في العبادة ، وخالفوا المشركين فهم يكرهون إيمانكم واستقامتكم .

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَادْعُوا ﴾ لطلب المسارعة في عبادة الله تعالى سدا لشجرة يلج منها الشيطان إلى النفس ، ومنعا لتمادى الكافرين فى باطلهم ، واستعلائهم .

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبة : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون " (١) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء قلب غافل لاه " (٢) .

﴿ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ﴾ أى أنه سبحانه على الشأن ، رفيع المنزلة فهو

العليم القدير لا يحتاج لمخلوقاته ، والخلق كله يحتاج إليه .

﴿ ذُو الْعَرْشِ ﴾ أى هو صاحب العرش ، ومالكة ، والمتصرف في

الكون كله .

(١) صحيح مسلم . كتاب المساجد ومواضع الصلاة . باب استحباب الذكر في الصلاة ج ١ ص ٤١٥ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب الدعوات ج ٥ ص ٥١٧ .

﴿يُلْقِ الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى ينزل الوحي على من يختاره للرسالة من عباده ، ويصطفيه لتبليغ الوحي ، وارشاد الناس إلى الصراط المستقيم .

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ أى أوحينا إلى الرسول المختار ليدعو إلى الله ويخوف الناس من يوم القيامة ، يوم يلتقى الناس جميعا في أرض المحشر بين يدي الله ليحاسبهم ، ويجازيهم .

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أى ينذرهم الرسول المختار بيوم القيامة ، حيث يحاسبهم الله ، وقد ظهرت أعمالهم وأقوالهم ، وكافة أحوالهم لا يخفى منها شئ عن الله تعالى .

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ؟ ... السؤال للتقرير ، ومعناه أن الله يسأل الخلاق كلها ، وقد ظهرت الخبايا ، واتضح السرائر ، وانزلت غفلة المشركين ، ويقول لهم : لمن الملك اليوم ؟ ... ليجيبوا بما يرون ... إلا أنهم لا يجيبون من شدة خزيهم وحسرتهم فيجيب الله بما هو ظاهر منهم ، وبالحقيقة الجليلة ، المؤكدة ، ويقول : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أى الملك كله لله الواحد الذى لا مثيل له ، الغالب لكل ما عداه .

وقيل : إن الإجابة لأهل المحشر ، يسارعون إليها أملا في العفو ، والمغفرة . يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة ، لم يعص الله عز وجل عليها ، فينادى مناد من قبل الله تعالى : لمن الملك اليوم ؟

فيقول العباد مؤمنهم وكافرهم : ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ .

يقول المؤمنون ذلك سرورا ، وفرحا ، وتلذذا .

ويقوله المشركون والعصاة غما ، وحزنا ، وخضوعا ، وانقيادا .

﴿ أَلْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ أى في يوم القيامة تقام

الموازين العادلة ، ويقضى الله للناس بالحق ، بلا زيادة أو نقصان .

﴿ لَا ظُلْمَ أَلْيَوْمَ ﴾ أى ينال كل إنسان جزاء عمله بعدل تام خال من

الظلم والمحاباة ، ودخلت ﴿ لَا ﴾ النافية على النكرة لنفى كافة أفراد الظلم صغر أم كبر .

روى أبو ذر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع ، إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار ، إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تببلغوا ضري فتضروني ولن تببلغوا نفعي ، فتتفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألتة ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا ، فليحمد الله ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه" ^(١) .

(١) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة والآداب . باب تحريم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٤ .

(١٤٨)

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى إن الله يحاسب الخلائق جميعا بسرعة كبيرة لأنه سبحانه يعلم كل شئ عنهم ، والشواهد كثيرة ، ولذلك كان حسابهم كأنه حساب نفس واحدة .

- ٤ -

معانى الآيات

تبين الآيات أن الله شمل عباده برحمته فأرسل لهم رسلا يبلغونهم دين الله تعالى ، وأنزل عليهم نعمه وفضله ليشكروه ، وتوضح الآيات أن الله أمر الناس بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى ، والإخلاص في عبادته وطاعته ، فهو سبحانه المتصف بصفات العظمة والجلال والكمال ، والمتصرف في شئون خلقه ، وهو الذى يبعثهم ، ويحشرهم ، وهو الذى سيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم بعدل مطلق لا ظلم فيه البتة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حسن الدعوة إلى الله تعالى

يحتاج الإسلام إلى دعاة ، يفهمونه ، ويخلصون له ، ويستقيمون على هديه ، ويقومون بالدعوة إليه منعا لأعداء الناس ، وتوضيحا لوصول الإسلام للكافة بصفاته ودقته .

وكان رسول الله رائد الدعوة وقائدهم ، بلغ الرسالة ، ودعا إلى الله بالحسنى ، وترك في الأمة تراثا يعرفهم بدين الله ، ويبين لهم المنهج الحسن في الدعوة إلى الله تعالى .

والآيات تقدم أهم الملامح الحسنة للدعوة إلى الله تعالى :

فهى . أولا . تخاطب العقلاء ، وتطلب منهم الصدق في التلقى ، والإخلاص في الفهم والحوار .

وهى . ثانيا . تعرض الأدلة والبراهين والحجج التى تبين قدرة الله تعالى ، ووحدانيته ، وتدعو إلى الإيمان .

وهى . ثالثا . تحدد قضية الدعوة ، وهى الإيمان بالله تعالى ، وتحدد صفاته الواجبة له ، وقدرته التى يلمسها الإنسان في نفسه ، ومعاشه . وهى . رابعا . تؤكد الحسن والخلق في الدعوة والبلاغ .

وعلى الدعاة :

أن يعلموا قضيتهم ، ويؤمنوا بها ، ويدعوا إليها بأقوالهم وأعمالهم ليتمكنوا من إقناع المدعويين بالقضية ، ويدافعوا عنها ، ويزينوها للمستمعين . وعليهم أن يخاطبوا الناس بالحسنى ، وعلى قدر عقولهم .

الركيزة الثانية

الدعاة جنود الله للناس

الدعاة إلى الله تعالى يقومون بأحسن الأعمال ، والأقوال ، وهو القائمون بعد رسول الله بتبليغ الإسلام ، وإيصاله للناس ، وتوفيرهم في الدعوة عون من الله لهم ، ولذلك وجب عليهم أن يأخذوا من رسول الله ﷺ رائدا وقائدا يقتدون بهديه ، ويلتزمون بمنهجه .

إن حب الدعوة والإخلاص لها ، والتفانى في تبليغها ونشرها أعمال ضرورية لا بد منها لنجاح الدعوة .

لقد تحمل رسول الله والمؤمنون معه الكثير من الأذى ، واضطروا إلى ترك البلاد ، وهجرة الأوطان من أجل خدمة الدعوة ، وتبليغه ، ويجب أن يتحلى الدعاة بهذه الروح ، وأن يعيشوا للدعوة وحدها .

(١٥٠)

ويجب أن يهئ المسلمون لهم كافة السبل التي تعينهم في إيصال الإسلام للناس ، وبخاصة أن العصر يحتاج إلى مساعدات مادية عديدة للنجاح .
إن الدعوة لم تعد منحصرة في المواجهة المباشرة في بيوت العبادة ، فلقد تعامل الناس بكافة وسائل الاتصال المسموعة ، والمرئية ، والمقروءة ، ومن الواجب أن تكون هي وسائل الدعاة إلى الناس .
لقد جعل العصر من وسائل التأثير الأعمال الخيرية ، والخدمات التعليمية والصحية والرياضية ، وليس بمستحسن أن يبتعد الدعاة عن هذه المؤثرات الهامة في الناس ...
ومن الواجب الاستفادة بكل ممكن لنشر الإسلام وتبليغه للعالم كله بالحق والعقل والعدل .

الركيزة الثالثة **الإنذار باليوم الآخر**

من رحمة الله أن عرفهم باليوم الآخر ، وصوره أمامهم واضحا كأنهم يشاهدونه ، وقربه لهم بمسميات الحياة الدنيا ليبقى في عقولهم بارزا ، وليتذكروا اجتماعهم في أرض المحشر يوم القيامة للحساب والجزاء .
وتبين الآيات أن أعمال الإنسان في الدنيا ستظهر بارزة مصورة يوم القيامة لا يختفى منها شيء ... وسيعلم الجميع أن الملك لله في الدنيا وفي الآخرة .

إن صورة الحركة في يوم الحساب تدعو العقلاء إلى الإيمان بالله تعالى والالتزام بدينه . ففي هذا اليوم تبرز أعمالهم مصورة مرئية أمام الخلائق أجمعين ، من لدن آدم عليه السلام إلى آخر الدنيا ، وتلك حالة تجلب الخزي والحسرة للظالمين

(١٥١)

حيث توضع أعمالهم بشكل قبيح على أكتافهم ، ورءوسهم ، ليراها الرسل والنبيون ، وأسلافهم ، وأعاليتهم ، وذرياتهم .

وهي مع المؤمنين عز ، وفخار ، ومجد ، إذ تتلقاهم الملائكة ، وتسوقهم إلى الجنة ، وينادونهم ﴿ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبَّتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾^(١) .

إن مشهد الحشر شديد الأثر ، داع إلى الإسلام ، ناه عن المنكر والسوء .
في هذا الوقت يؤمن الجميع بأن الملك لله ، ويقولون بذلك ... وشتان بين المؤمنين والكافرين في هذا الإقرار ... فالمؤمن سعيد بإقراره لأنه به يواصل حياته الطيبة ، ويسعد بها ... والكافر يقر وهو نادم لأنه لم يؤمن به يوم أن كان في إيمانه فائدة .

ويا ليت قومي يعلمون .

(١) سورة الزمر ، الآية ٧٣ .

أهمية الإنذار والتذكير بالماضي

يقول الله تعالى :

﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ^١ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ^٢ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ^٣ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ^٤ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ^٥ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ^٦ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ^٧ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ^٨ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة رحمة الله تعالى بعباده ، وتوجيههم إلى الإيمان به جاءت هذه الآيات لإنذار الناس ، وتوجيههم إلى الاعتبار والاتعاظ بقصص السابقين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تأمر الآيات بإنذار الناس بيوم القيامة حيث يضطرب الكون ، ويسيطر الفزع على الناس ويخيل لهم أن أرواحهم ستتخلع من حناجرهم ، ولا يجدون نصيرا ، ولا شفيعا يعينهم وينقذهم ... في هذا اليوم يتم الحساب والجزاء العادل على سائر العمل ، وتوجه الآيات إلى النظر في أخبار السابقين ليعتبروا بهم فقد أهلكهم الله بكفرهم ، وكانوا أشد منهم قوة .

(١٥٣)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ أى خوف

يا محمد مشركى مكة من يوم القيامة ليقلعوا عن الكفر ، ويدخلوا في الإسلام ويدعوا الظلم والشرك فسوف يأتى هذا اليوم مفاجئاً لهم ، وفيه يشتد الخوف ، ويكثر الفرع حتى ليخيل للناس من شدة الفرع أن قلوبهم شخست إلى الصدور ، واتجهت للخروج ، ووصلت إلى الحناجر ، وسكنت فيها ، ومنعتهم من الكلام ، فهم كاظمون لا يتكلمون ، حالهم حال الأبكم المضطرب .

وسمى يوم القيامة بيوم الآزفة لما للروح من قرب الخروج ، ومفاجأة الفرع الكبير .

﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أى وليس للمشركين

قريب يعينهم ، أو صنم يدفع عنهم ، أو صديق يساعدهم ، أو شفيع يشفع لهم وليس لأى نصير لهم عند الله طاعة ، فالיום تجزى كل نفس بما كسبت .

ونلاحظ أن "ال" في الظالمين للاستغراق ليعم الحكم كل ظالم قبل كفار مكة ، أو بعدهم ، في أى وقت ، وفى أى مكان ولهذا أبرز الله الاسم الظاهر بدل الضمير لإفادة أن الظلم هو سبب ما هم فيه من هوان .

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ أى احذروا أيها الظالمون حساب يوم القيامة

لأن الله يعلم الأسرار والخفايا ، لأنه سبحانه ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ ﴾ أى يعلم مسارقة النظر لشيء لا يجوز النظر إليه في خفية واستتار حتى لا يراه أحد .

يقول ابن عباس في خائنة الأعين : هى الرجل يكون في القوم فتمر بهم المرأة فيريهم أنه يغض بصره عنها ، وإذا غضوا هم نظر إليها هو ، وإذا

نظروا غض بصره عنها ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ود أن ينظر إلى عورتها^(١) .

﴿ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ أى يعلم الله خائنة الأعين ، وما تخفيه الصدور من النوايا ، والعزائم ، والمقاصد .

﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ﴾ أى والله يحكم بين الناس بالعدل على كل عمل فيشمل خيانة العين ، وما استتر في الصدور ، فيجازى الذين صرفوا أنظارهم عن المحارم ، وطهروا قلوبهم بالحسنى ... ويجازى الذين رددوا النظر في الحرام ، وأخفوا ما في قلوبهم من ظلم ومعصية بالعذاب الأليم .
وصدرت العبارة بلفظ الجلالة لتربية المهابة ، وتأکید حكم الله العادل في الناس .

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ أى إن الأصنام والأوثان التى يعبدونها من دون الله لا تقضى بشئ لأنها عاجزة لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تقدر على شئ أبداً ، وفى هذا سخريّة بالظالمين لاتخاذهم آلهة يعبدونها من دون الله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى هو العليم بكل شئ ، السميع لكل قول ، البصير بكل ما يقع ، المحيط بأفعال الخلق كله .
﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتعجب ومعناه أقعد أهل مكة ولم ينظروا ، ويتأملوا

(١) مصنف ابن أبى شيبة . كتاب النكاح . باب ما قالوا فى الرجل تمر به المرأة ج ٤ ص ٧ .

(١٥٥)

فيما حدث للأمم قبلهم ، فلقد كانوا أشد منهم بأسا ، وأقوى سلطانا ، وأوسع ملكا ، ومع كل ما كانوا فيه أخذهم الله بكفرهم ، وأهلكهم ودمرهم بسبب كفرهم ، وظلمهم ، ومعاصيهم ، فإلحاق العذاب بأهل مكة أيسر وأهون .

﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ أى أهلك الله السابقين بذنوبهم

ولم يجدوا معينا غير الله يدافع عنهم ، ويقيهم من العذاب الذى نزل بهم .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ

اللَّهُ ﴾ أى عاقبهم الله بالعقوبة التى يستحقونها ، وأهلكهم بظلمهم لأن رسل الله أتوهم بالمعجزات ، وبالدلائل على صدقهم فكفروا بهم ، ولم يصدقوهم فأهلكهم الله تعالى بسبب ما كانوا فيه من ضلال وكفر .

﴿ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى قوى يأخذ

الظالمين يقوه ، ويعاقبهم بشده فاحذروه .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أمر الله لرسوله محمد ﷺ لينذر المشركين من عذاب يوم القيامة ، الذى سيأتى فجأة ، ويعيش الكافرون خلاله في رعب وفزع ، وتضطرب قلوبهم ، وتضيق صدورهم حتى تخيل إليهم أن القلوب صعدت إلى الحناجر ، ويسيطر عليهم الصمت وليس لهم أنيس ، ولا حام ، ولا شفيع وسيحاسبهم الله تعالى بدقة عادلة لا تقدر عليها الأصنام المزعومة .

إن هؤلاء المشركين لم يتأملوا في أخبار الأمم الماضية ، ولم يعتبروا بها فلقد كانوا أشد منهم قوة وسلطانا ، وأخذهم الله بذنوبهم ، وليس لهم من دون الله واق ، فقد عاقبهم الله بكفرهم ، وتلك عاقبة كل كافر ... والله شديد العقاب .

(١٥٦)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

منهج الترهيب في الدعوة وضرورة الاعتبار بالماضى

استعمل رسول الله ﷺ منهج الترغيب والترهيب وهو يدعو الناس ، ويعرفهم بما في اليوم الآخر من نعيم يناله المطيعون ، ونار وعذاب يلحق بالضالين المكذبين ، والآيات توجه رسول الله إلى تعريف المكذبين قرب قيام الساعة ، الذى سيكون مفاجئاً لهم ، حيث يسيطر عليهم الاضطراب والفرع ، وتتخلع أرواحهم ، ولن يجدوا نصيراً ، ولا شفيعاً ، ولا مدافعاً عنهم ، وسيعاقبهم الله على أعمالهم وجرائمهم التى يعلمها الله تعالى ، وهو عليم بكل شئ ، يعلم خائنة الأعين ، وما تخفيه الصدور ، ويقضى بين الناس بالحق .

إن المشركين يعبدون أصناماً لا تعى شيئاً ، ولا تقدر على شئ ، ولا تستطيع قضاء أى شئ ، لأن الله وحده هو السميع العليم .
وتوجه الآيات إلى وسيلة هامة وهى النظر في أخبار الأمم السابقة ، والاستفادة بها في معرفة الحقائق لأن الماضى يعتبر تجربة عملية لها نتائجها .
ورؤية أخبار الأمم الماضية يتم بوسيلتين :

أحدهما : معرفة أخبار الماضين من خلال قراءة قصصهم في القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، ومؤلفات المؤرخين .
ثانيها : الرحلة والسفر إلى مواطن الأمم السابقة لرؤية آثارهم ، ومعرفة ما حدث لهم .

وبمعرفة أخبار السابقين يمكن لمن عرف أن يستفيد ويتعظ ، ويمكن للدعاة أن يستفيدوا بالماضى للاعتبار والعظة ، والقرآن الكريم ملئ بقصصهم وأخبارهم .

قصة "موسى" ﷺ

تكررت قصة موسى ﷺ في القرآن الكريم ، وفى كل مرة تأتى الآيات بجديد في القصة ، وفى سورة "غافر" جاءت قصة موسى ﷺ ببعض القضايا التى لم ترد في غيرها من السور ، فلقد بينت قصة موسى ﷺ في سورة "غافر" أن موسى ﷺ بعث إلى فرعون وقومه ، ووضحت تهديد فرعون بقتل موسى ﷺ وسخريته من الله تعالى ... ولعل ما تميزت به القصة في سورة "غافر" حديثها عن المؤمن الذى ظهر من آل فرعون ، الذى أخذ يدعوهم إلى الله تعالى بمنهجية دقيقة ، فلقد ظهر محايدا ، وأخذ يسألهم عن سبب قتل موسى ، وبين لهم أن الأولى بهم أن يتركوه وشأنه ... ثم انتقل إلى بيان فضل الله عليهم ، وخوفهم من الحساب الأخرى والجنة والنار ، وقصة هذا المؤمن لم ترد في غير سورة "غافر" ، ولذلك سميت السورة بسورة "حم المؤمن" .

وتستغرق قصة مؤمن آل فرعون أغلب آيات القصة حتى سمي بعض المفسرين القصة بأنها قصة مؤمن آل فرعون ، وذهب البعض إلى أن هذا المؤمن هو الرسول الثالث الذى عزز الله به موسى وهارون عليهما السلام أمام فرعون وهو المذكور في سورة "يس" .

والقصة في مجملها متصلة بما قبلها لأن الآيات قبلها تحدثت عن ضلال المشركين في الدنيا ، وعدم اعتبارهم بقصص السابقين فاستحقوا ما لحق بهم ... وجاءت قصة موسى ﷺ بعد ذلك لبيان صورة عملية للكفر والضلال الذى لم يستند بالآيات والشواهد والحجج التى عرضها المؤمن على فرعون ومن معه . وسأورد قصة موسى ﷺ وما يتصل بها في مقاطع متتابعة ، تتكامل لتقديم القصة كلها .

(١٥٨)

المقطع الأول

عرض "موسى" ﷺ الدعوة

على فرعون ومن معه

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَمَنَ وَقُرُوتَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿١٧﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع الأول

يبين هذا المقطع دعوة موسى ﷺ للمصريين ممثلين في فرعون وهامان وقارون إلى الله تعالى ومعه المعجزات ، والحجج البينة ، والدلائل الواضحة ، إلا أنهم اتهموه بالسحر والكذب .

- ٢ -

معنى المقطع الأول

من خلال دلالات الآيات

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ يخبر الله تعالى أنه أرسل موسى ﷺ ، واختاره ، وبعثه إلى فرعون وقومه ، ومعه المعجزات التي تؤيده ، والحجج الواضحة البينة التي تؤكد صدقه ، وصدق رسالته ، ودعوته .

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَمَنَ وَقُرُوتَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

أى أرسل الله موسى ﷺ إلى فرعون وقومه ، وما يمثلونه من طغيان وظلم

(١٥٩)

ودعاهم إلى الحق ، وإلى صراط الله المستقيم فلم يستمعوا له ، ولم يؤمنوا بدعوته ، واتهموه بأنه ساحر ، وكذاب .

ورسالة موسى عليه السلام كانت إلى فرعون وقومه جميعا إلا أن الآية خصت فرعون وهامان وقارون بالذكر لأنهم رؤساء القوم ، وأولو الرأي فيهم ، فلقد كان فرعون رئيس القوم وقد ادعى أنه ربهم الأعلى ، وكان هامان يمثل القوة فهو قائد الجيش ، وكان قارون يمثل القوة المادية ، وخازن المال . فقد آتاه الله المال حتى إن العصابة من الرجال تعجز عن حمل مفاتيح خزائن أمواله .

المقطع الثانى

رد فرعون ومن معه على "موسى" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُونِى أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۗ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع الثانى

يمثل المقطع الثانى الرد المباشر الذى اتخذه فرعون ومن معه ضد موسى عليه السلام وقومه بنى إسرائيل .

(١٦٠)

- ٢ -

معنى المقطع الثانى من خلال دلالات الآيات

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أى لما أتى موسى ﷺ فرعون ومن معه بدعوة الحق مصحوبة بآياتها ، وبراهينها التى أيده الله بها ، وآتاه إياها لجأوا إلى التهديد والوعيد .

و ﴿ قَالُوا أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ أى قال فرعون وهامان وقارون لأتباعهم : اقتلوا أبناء الذين آمنوا مع موسى من بنى إسرائيل ، واتركوا نساءهم ، لضعف شأنهم ، وحتى تنتشر الفحشاء فيهم ، ويصيروا خدما للمصريين ...

وهذا قتل غير القتل الأول فقد توقف القتل الأول عقب ولادة موسى ﷺ فأمر فرعون بإعادته بعدما دعاه موسى ﷺ .

﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى قد أفسد الله كيد الكافرين ، وأضل فعلهم بأن سلط عليهم الجراد ، والقمل ، والضفادع ، والطوفان ، فلم يقدروا على تنفيذ كيدهم ، وانما شغلهم الله بما سلط عليهم ، وأفسد كيدهم ومكرهم .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ أى وقال فرعون لقومه دعونى أقتل موسى لخروجه على ، ودعوته لإله غيرى ...

وقول فرعون يدل على خوفه وفزعه من موسى ، وأراد بقوله هذا أن يبين لقومه قوته ، وثقته في نفسه ... وهو كاذب في ذلك ، لأن من يريد أن يقتل حقيقة يدبر للقتل سرا ، ولا يعلن نيته ... وأيضا فإن فرعون لا يحتاج من قومه

الموافقة على القيام بالقتل حتى يقول لهم : ﴿ ذَرُونِي ﴾ ، وكان مذهبه بين الناس كما قال الله تعالى : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ وانما قال ما قال تمويها على قومه ، وايهاما بأن قومه هم الذين يمنعونهم من قتل موسى وزعما أنه يطيعهم ، ويقدر رأيهم في مشاورة حرة مزعومة .

﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ أى وليطلب موسى ﷺ من ربه الذى يدعونا لعبادته أن ينصره ، وينقذه من العذاب والانتقام الذى سأفعله معه ، وهذا استهزاء موسى من فرعون بالله تعالى ذكره أمام قومه وجنده وهو خائف مضطرب .

﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أى إننى أخاف من أن يتمكن من تغيير دينكم الذى أنتم عليه من عبادة غير الله ، وأنا ربكم الكبير .

﴿ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ أى وأخاف من أن يوقع الخلاف والفتنة بين الناس ، لأنه إما أن يجعل الناس يعبدون الله ، ويتركون الدين الذى هم فيه ... أو يوقع الخلاف والشقاق بين الناس حين يؤمن به فريق من الناس ، ويختلفون مع السادة والملا ، ويكثر التنازع ، ويقع الخلاف وتتعطل المصالح .

إن فرعون أعلن خوفه من ضياع دين القوم ، وفساد الدنيا بالتنازع والتعارض ... ومنطق فرعون هو منطق الظالمين في كل وقت ، إنهم يدعون الخوف على القيم والمبادئ وهم أول من يعتدى عليها ويضيعها ، ويدعون حرصهم على التقدم والنهضة وهم أول من يهدم الخير ، ويحارب التقدم والغنى ، ويزعمون أنهم يعملون لمصلحة الشعوب وهم أول من يسجن الأبرياء ، ويقتل الأقوياء ، ويفرط في حقوق البلاد والعباد ، ويجهد نفسه وحاشيته في الاستيلاء على الوطن كله .

(١٦٢)

المقطع الثالث

لجوء "موسى" ﷺ إلى الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع الثالث

يبين المقطع الثالث أن موسى ﷺ لجأ إلى الله ، واستعاذ به من ظلم
فرعون وطغيانه ، وتكبره ، وكفره بالله ، وباليوم الآخر .

- ٢ -

معنى المقطع الثالث من خلال دلالة الآية

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ ﴾ أى اتجه موسى ﷺ إلى الله
تعالى ، ولجأ إليه ، وقال لقومه : إني استعذت بالله تعالى ، ولجأت إليه ، فهو
ربى وربكم .

ونلاحظ تمسك موسى ﷺ برسالته ، وعدم تأثره بتهديد فرعون ، فقد
بين للناس أنه عبد لله تعالى ، الواحد القادر ، ولذلك استعاذ به وحده ... وقال
للناس هو ربي وربكم أى هو الذى خلقنى ، ورزقنى ، وأمرى كله بيده ، وهو
ربكم ، وهو صاحب الفضل عليكم ، ولا صحة لما يزعمه فرعون لكم .

﴿ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ أى إني استعيز بالله من كل
متكبر طاغية ، يكفر بالله تعالى ، ويضيع كافة الحقوق ... وعمم موسى ﷺ
استعاذته من كل متكبر ، ولم يخص فرعون ، مكتفياً بالتعريض ، إظهاراً لخلق

عليه السلام في حسن الخطاب ، وتعميما للدعاة لينجي الله موسى عليه السلام من فرعون وقومه ، وخصت الآية المتكبر بأنه لا يؤمن بيوم الحساب مع أنه يكفر بجميع أركان الإسلام ، وذلك لأن الذي يكفر بيوم القيامة مع التكبر ، لا يبالي بسائر أركان الإيمان ، ولا يقدر الله حق قدره ، ولا يعمل عملا ينتظر عليه مثوبة في الدنيا وفي الآخرة لأنه لا ينتظر ثوابا ، ولا يخاف عقوبة .
وقد استجاب الله لموسى عليه السلام ونصره على فرعون وقومه .

المقطع الرابع

ظهور الرجل المؤمن

ودعوته لما دعا إليه "موسى" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿١٨﴾ يَنْقُومَ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَهْرَيْنِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ۖ ﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع الرابع

تبين الآيات ظهور مؤمن آل فرعون ، ودعوته الحسنة لفرعون وقومه في إطار منهج متكامل في الدعوة إلى الله تعالى .

(١٦٤)

- ٢ -

معنى المقطع الرابع
من خلال دلالات الآيات

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ أى

استجاب الله لدعاء موسى ﷺ وأرسل له من يدافع عنه ويؤازره ، وهو مؤمن
آل فرعون الذى آمن بموسى ﷺ وأبقى إيمانه سرا لا يعلمه أحد .

وهو ابن عم فرعون ، وقد نجاه الله مع موسى ﷺ من الغرق ...

وذهب بعض المفسرين إلى أنه كان من قوم موسى ، وآمن به ، ولم
يعلن إيمانه لأحد . والمعنى قال رجل مؤمن يكتُم إيمانه عن قوم موسى ...
وعلى كلا المعنيين فهو رجل آمن سرا ، وكان له دور هام بين القوم ، عرف
بعلمه وعقله ، وفطنته ، وقد ظهر بصورة الشخص المحايد الذى يناقش
الموضوع بصورة عقلية ، وموضوعية ، وحيادية ، ولذلك كتم إيمانه .

وقد اتبع المؤمن في قوله منهاجا دعويا مرتبا ، واضحا في خطوات
مترابطة ومتتابعة هي :

- أولا -

أنكر العدوان على رجل مسالم

قال الرجل المؤمن : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى ينكر فيه الرجل محاولة فرعون قتل رجل لم يذنب بذنب ، ولم
يعتد على أحد ، ولم يكره أحدا على ترك دينه ، وكل ما ذكره أن ربه هو الله
الذى خلقه وسواه ، ورزقه ، وسخر له الكون كله .

ولم يسم المؤمن موسى ﷺ باسمه ، وإنما جعل إنكاره عاما إظهارا
للحياد ، وبيانا لمنطقه المعتدل .

- ثانيا -**بيان المواقف الحسنة لموسى عليه السلام**

﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى أن هذا الرجل الذى دعاكم إلى الله الواحد الأحد جاءكم بالشواهد المثبتة لصدق ما يقول . فقد أظهر المعجزات الدالة على صدقه ، وناقشكم بالحجة العقلية ، ويحسن مواجهة الحجة بالحجة إذا كان من يعارضه يملك حجة أو دليلا .
ومثل هذه المقالة لا تستدعى قتلا ولا تستحق عقوبة فاستمع فرعون لكلامه ، وأصغى لمقاله ، وتوقف عن قتله .

قال ابن عباس : لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره وغير امرأة فرعون وغير المؤمن الذي قال : ﴿ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾^(١) .
وخلاصة ذلك : أترتكبون هذه الفعلة الشنعاء ، وهى قتل النفس المحرمة من غير روية ولا تأمل ولا اطلاع على سبب يوجب قتله ؟ وما لكم علة في ارتكابها إلا كلمة الحق ، وهى قوله : ربه الله .

أخرج البخاري وغيره من طريق عروة بن الزبير قال : قيل لعبد الله بن عمرو ابن العاص : أخبرنا بأشد شئ صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال : "بيننا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبيه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾"^(٢) ؟

(١) سورة القصص ، الآية ٢٠ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ ج ٦ ص ١٢٧ .

(١٦٦)

وأخرج البزار وأبو نعيم في فضائل الصحابة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : "أيها الناس أخبروني من أشجع الناس ؟
قالوا : أنت .

قال : أما إني ما بارزت أحدا إلا انتصفت منه ، ولكن أخبروني عن أشجع الناس ؟
قالوا : لا نعلم . فمن ؟

قال أبو بكر : رأيت رسول الله ﷺ وأخذته قريش فهذا يجؤه ، وهذا يتلنله ، وهم يقولون : أنت الذي جعلت الآلهة إلها واحدا .

قال : فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر يضرب هذا ، ويجأ هذا ، ويتلنل هذا وهو يقول : ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟

ثم رفع بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : أنشدكم : أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر ؟ فسكت القوم .

فقال : ألا تحببون ؟ فو الله لساعة من أبي بكر خير من مثل مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتنم إيمانه ، فأثنى الله عليه في كتابه ، وهذا رجل أعلن إيمانه وبذل ماله ودمه" ^(١) .

- ثالثا -

بيان أن ترك موسى وشأنه أولى من قتله

﴿ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ

الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ أي إن الأولى ترك موسى وعدم قتله ، لأنه إما أن يكون كاذبا ، وإما أن يكون صادقا ، فلا تؤمنوا به ، ولا تقتلوه ، فإن كان كاذبا فجزاء كذبه

(١) مسند البزار . مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه . باب ومما روى ربيعة بن ناجد ج ٣ ص ١٤ .

(١٦٧)

عائد عليه وحده ، فقد كذب ولم يتبعه أحد ، وان يك صادقا يصبكم بعض ما خوفكم منه ، فلا تضموا إلى الذنب الذى خوفكم منه وهو الكفر ذنبا آخر وهو قتله .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴾ أى اتركوا موسى وشأنه واعلموا أن الله لا يعين ، ولا يوفق ، ولا ينصر كل مسرف فى القتل والعدوان كذاب فى أقواله وأفعاله ، وجعل المؤمن هذا الحكم عاما ليرتدع الناس عن العدوان ، والكذب ، ويعلموا احتمال أن يكون فرعون مسرفا كذابا .

ـ رابعا ـ

ضرورة المحافظة على الملك

وقال المؤمن للناس : ﴿ يَنْقُومِ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى قال المؤمن لقومه ناصحا لهم فهو واحد منهم ، وهم قومه ، ولذلك فهو يعرفهم بأنهم ملوك مصر ، وأصحاب الرأى فيها ، والأولى بهم أن لا يفسدوا فى الأرض ، ويمنعوا العدوان ، ويتدبروا فى أمر المحافظة على الملك والسلطان .

﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا ﴾ أى لا تتعرضوا لغضب الله تعالى لأنه لا يوجد من ينصركم من غضب الله وبأسه .

ونرى فى قول المؤمن فطنته وذكاءه لأنه حين تكلم عن الملك جعله لهم خاصة ، وحين تكلم عن بأس الله جعل نفسه واحدا من الناس ، وذلك يبعد عن المؤمن مظنة أنه ينشد لنفسه أمرا .

(١٦٨)

المقطع الخامس استبداد فرعون برأيه

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
الرَّشَادِ ﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع الخامس

يبين المقطع الخامس استبداد فرعون وموقفه من نصائح المؤمن ، وزعمه
أن الرأى له وحده ، وأنه يهديهم إلى الصواب والرشاد فقط .

- ٢ -

معنى المقطع الخامس من خلال دلالة الآيات

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾

أى قال فرعون ردا على ما سمعه من المؤمن : لا أشير عليكم برأى سوى ما
ذكرت لكم من قتل موسى ، والقضاء على الإسرائيليين ، وأن الرأى الذى أقوله
لكم هو الطريق الصحيح ، ومنهج الرشاد والاستقامة .

المقطع السادس

المؤمن يخوف قومه من مصير السابقين

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَنْقَوْمٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٠﴾
 مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ؕ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ
 ﴿٢١﴾ وَيَنْقَوْمٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٢٢﴾ يَوْمَ تُنْزِلُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ
 اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ؕ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ
 مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ؕ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ
 لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ؕ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ
 ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ تَتَّبِعُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بَغْيٌ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ؕ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ
 وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ؕ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٢٥﴾ ۝

- ١ -

موضوع المقطع السادس

يبين المقطع السادس نصح المؤمن لقومه ، وخوفهم عليهم من يوم
 المواجهة الدنيوية كما حدث مع الأمم السابقة فقد أهلك الله قوم نوح ، وعاد ،
 وثمود وكل من عارض الرسل ، واستمر يعبد الأصنام من دون الله تعالى .

معنى المقطع السادس

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾

أى إن المؤمن بعد أن نصح فرعون قال لهم : إني أخاف عليكم أن يحل بكم ما نزل بالذين تحزبوا ضد رسلهم ، وكذبوهم من الأمم الماضية .

﴿ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أى إني

أخاف عليكم من أن يحل عذاب الله بسبب كفركم كما نزل بالأمم السابقة كقوم نوح وعاد وثمود وقوم شعيب ، وقوم لوط وغيرهم من سائر الأمم فقد أصروا على الكفر فأهلكهم الله تعالى .

﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ أى إن الله يعامل الناس بالحق ، ويحكم

بالعدل ، ويقضى لكل إنسان بما يستحق ، وبلا ظلم أو قصور ، ولذلك كان إهلاك الأمم الماضية عدلا كاملا لا خطأ فيه ، لأنهم بكفرهم استحقوا الهلاك فى الدنيا .

ولما بين المؤمن سوء عاقبة المكذبين للدنيا ، أخذ يبين سوء المصير فى

الآخرة فقال لهم : ﴿ وَيَنْقُومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴾ أى إني أخاف يا

قومى عذاب يوم القيامة ، وسمت الآية يوم القيامة بيوم التناد لأن التناد يفيد المناداة والفرار ، وهما حالتان يعيشهما الكافرون يوم القيامة فهم فى هذا اليوم يحاولون الفرار من مصيرهم المؤلم بالاعتذار ، ويطلبون الرجوع إلى الدنيا ، وينادى بعضهم بعضا استغاثة من شدة العذاب والهول ، وبمناداة أهل الجنة ليفيضوا عليهم من الماء .

حذر المؤمن قومه من يوم القيامة وقال لهم : ﴿ يَوْمَ تُولُون مُدْبِرِينَ ﴾

أى احذروا يوم تولون هربا من زفير النار ، وشهيقها بلا أمل ولا رجاء .

﴿ مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنَّ عَاصِمٍ ﴾ أى لا عاصم لكم اليوم من العذاب إلا عفو الله الذى كفرتم به ، فعاقبكم الله لكفركم .

﴿ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ أى ومن يضلله الله ، ويخذله ، ولا يمنحه الرشد والصواب فليس لهم هاد بعد الله تعالى .

ولما أصر قوم فرعون على الكفر ، بين لهم المؤمن أن الكفر الذى يتمسكون به توارثوه عن أسلافهم فقال لهم : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ^ط حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ أى إن يوسف عليه السلام جاء من قبل لأبائكم بالدلائل الظاهرة ، والبيّنات الباهرة فكذبوا به ، وظلوا فى شك فى رسالته ، فلما مات زعموا أن الله لن يبعث رسولا من بعده .

وقد نسبت الآية تكذيب الآيات إلى أبائهم ، لأن التكذيب متوارث والعناد قديم ، والأبناء يتمسكون بما كان عليه الآباء ، ولذلك قال نوح عليه السلام ما حكاه الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٦٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٦٧﴾ ﴾ ^(١) .

والآية تبين أن القوم يقلدون أباءهم فى الكفر ، ويتمسكون بما كانوا عليه من ضلال وكذب ، وهذا أمر مرفوض فى العلم والإيمان .
إن السابقين زعموا أنه لا رسالة بعد يوسف عليه السلام مع أنهم كفروا برسالته حين دعاهم ، وهذا يدل على أنهم كذبوا بالرسالات كلها ... وأن الواقع يثبت كذبهم وضلالهم .

(١) سورة نوح ، الآية ٢٦ ، ٢٧ .

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ أى مثل ضلال

المشركين يضل الله كل مسرف فى العدوان ، شاك فى صدق رسول الله .

﴿ الَّذِينَ تَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ﴾ هذه إجابة

سؤال محذوف تقديره من هم المسرفون المرتابون ؟ ... وجاءت الإجابة بأنهم الذين يخاصمون فى الحجج الثابتة ، ويردوا الآيات البينة التى جاء الرسل بها من غير أن يعتمدوا على برهان شرعى أو عقلى ... وكل غايتهم هدم الحق ، واثبات الباطل .

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى كبر ذلك الجدل

الذين يقولون به ، فهو سفسطة مردودة ، غضب الله على من يجادل فى آيات الله بالباطل ، وغضب الناس على الذين يتمادون فى البهتان .

﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ أى كما طبع

الله على قلوب المسرفين الشاكين يطبع الله على قلب كل ظالم جبار .
والطبع على القلب يشمل الإنسان كله لأن فساد القلب يعنى فساد الجسد كله .

(١٧٣)

المقطع السابع

تمادى فرعون فى عتوه

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٦٧﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا ۚ وَكَذَلِكَ زُينَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٦٨﴾ ۚ .

- ١ -

موضوع المقطع السابع

يبين المقطع السابع استهزاء فرعون بالله تعالى وأمره هامان أن يبنى له برجاً عالياً يصعد عليه ليرى إله موسى ، ويجادله ، ويثبت كذبه ، وبذلك يبقى فرعون الرب الكبير .

وقد ظهر من طلبه غروره بنفسه ، وثقته فى ألوهيته ، وصد الناس عن دعوة موسى ﷺ وقد أفسد الله كيده ، وأضله ، وأغرقه .

- ٢ -

معنى المقطع السابع

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرَاحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ أى قال

فرعون بعدما سمع نصائح المؤمن استهزاء بدعوة موسى ورسالته : يا هامان ابن لى قصرا ، منيفا ، عاليا ، رفيع العماد لأصل به إلى أبواب السماء حتى أرى إله موسى ، وأعرفه بألوهيتى ...

وقول فرعون استهزاء بإله موسى ﷺ وإيهام لقومه ، وخداع لهم ببيان قوته ، وقدرته على مواجهة إله موسى .

﴿ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ أى أريد الصعود إلى أبواب السماء لأقابل إله موسى .

﴿ وَإِنِّي لَأُظُنُّهُ كَذِبًا ﴾ أى وانى لأتوقع كذب موسى فيما يقوله لى وسأثبت لكم من أنه ليس لموسى عليه السلام إله غيرى ... وفى هذا إيغال فى الإضلال لأنه بنى حكمه على الظن ، والحقيقة من حوله شاهدة على صدق موسى عليه السلام ، ووجود الله الواحد ، القادر ، الخبير ... وما قال ذلك إلا خداعا لقومه .

﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ أى وهذا الضلال زينه الشيطان لفرعون فوقه فيه ، وكفر بالله ، وادعى الألوهية ، وبذلك التقى إغراء الشيطان مع نفس فرعون الخبيثة ، وحبه للضلال والكفر .

﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ أى وما حيل فرعون ، ومكره إلا فى خسران وبوار .

المقطع الثامن

المؤمن يعاود نصيح قومه

ويذكرهم بالحساب فى اليوم الآخر

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿١٧٥﴾
يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿١٧٦﴾ مَنْ
عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَتَتْهُ ؕ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ ۖ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٧٧﴾ وَيَنْقُومِ مَا لِي
أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَى وَتَدْعُونِنِي إِلَى النَّارِ ﴿١٧٨﴾ تَدْعُونِنِي لَأُكْفِرَ بِاللَّهِ
وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ﴿١٧٩﴾ لَا جَرَمَ
أَنَّمَا تَدْعُونِنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ
وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿١٨٠﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع الثامن

يبين المقطع الثامن نصائح المؤمن لقومه ، وتذكيرهم باليوم الآخر ،
وضرورة العمل الصالح فى الدنيا للفوز بالجنة فى الآخرة ، ويعيب عليهم
تمسكهم بالكفر مع أنه سيوصلهم إلى النار ، ويتعجب من إصرارهم على عبادة
الأصنام ، ودعوة غيرهم مع أنها لا تضر ، ولا تفيد .

(١٧٦)

- ٢ -

معنى المقطع الثامن من خلال دلالات الآيات

أخذ المؤمن بعد أن استهزأ فرعون بالله وبموسى عليه السلام بدعوة الناس إلى الله وتخويفهم من عذاب الآخرة كما يلي :

(١) بين لهم أن دعوة موسى عليه السلام هي طريق الرشاد :

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ أى آمنوا بدعوتى ، وصدقوا بموسى ، وأتبعوا ما يدعوكم إليه فهو الهدى والرشاد والحق الذى ينجيكم فى الدنيا وفى الآخرة .
(٢) بين لهم أن الآخرة خير من الأولى :

يقول الله تعالى : ﴿ يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَتْنٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ أى أدعوكم إلى العمل الصالح ، والإيمان بالله تعالى لتفوزوا بالآخرة فهى دار القرار والاستقرار ، أما الدنيا فهى فانية ، ومتاعها قليل ، ولا تساوى عند الله جناح بعوضة ، ولا قيمة لها بالنسبة للآخرة .
(٣) بين لهم أن الجزاء الأخرى عدل ورحمة :

يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى إن من عمل سيئة فى الدنيا فإنه يجزى فى الآخرة سيئة مثلها ، أما من عمل حسنة من ذكر أو أنثى فإن الله يضاعف له الجزاء ، ويدخله الجنة ، ويرزقه فيها بغير حساب .

(٤) بين لهم أن دعوة الإيمان هي دعوة النجاة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَيَقَوْمٍ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفِيرِ ﴾ أى أنى ادعوكم إلى الفوز بالجنة ، وذلك يكون بالإيمان والعمل ، وتدعوننى أنتم إلى المعصية والكفار مع أن ذلك يؤدى إلى النار .

وكيف يجوز منكم أن أدعوكم إلى الإيمان بالله الذى خلق ، ورزق ، وقدر ، وهدى ، وتدعوننى أنتم إلى الشرك والكفر ، وإلى عبادة إله لا أعرف عنه شيئا ، وكل الآلهة التى تدعون إليها كذب وافتراء .

(٥) بين أن الله له الأمر كله والرجوع إليه :

يقول الله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى أنكم تدعوننى لأعبد إلها لا يسمع ولا يبصر ، ولا يجيب من يدعوه ، ولا قدرة له فى الدنيا وفى الآخرة ، وهذا أمر حق وثابت بشهادة الواقع .

﴿ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أى إننا جميعا راجعون إلى الله تعالى للحساب والجزاء .

﴿ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ أى إن المشركين المعتدين على حقوق الله وحقوق الناس هم أصحاب الجحيم ، المستحقون للعذاب الأليم .

(١٧٨)

المقطع التاسع نهاية النصح والحوار وظهور جزاء الله للجميع

يقول الله تعالى :

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٧٨﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿١٧٩﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿١٨٠﴾ ۚ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع المقطع التاسع

تبين الآيات نهاية الحوار بين المؤمن وقومه ، وأنه فوض أمره إلى الله العليم البصير ... ولما تركهم نجاه الله من مكرهم السيئ ، وأنزل بآل فرعون سوء العذاب في الدنيا بأن أغرقهم في اليم ، ووضعهم في نار قبورهم التي يعرضون عليها غدوا وعشيا قبل يوم القيامة ، ولهم في الآخرة عذاب أليم .

- ٢ -

معنى المقطع التاسع من خلال دلالة الآيات

ختم المؤمن نصيحته ودعوته لقومه بعد أن بين لهم صدق موسى عليه السلام وحذرهم من إغواء الشيطان ، وعرض عليهم الأدلة والبراهين ، وتركهم ليفكروا ويتدبروا ، وقال لهم :

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۖ وَأَفِوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾

أى فستعلمون صدق ما قلته لكم ، وما أمرتكم به ، وما نهيتكم عنه فى يوم الحساب والجزاء ، فقد نصحت ، وصدقت ، وشأنى وشأنكم بيد الله رب العالمين .

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِصِيرُ الْعِبَادِ ﴾ أى إن الله عليم بجميع عباديه ، محيط بهم

وسيحاسبهم فى الآخرة على ما قدموا فى الدنيا .

﴿ فَوَقَّهٖ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ

الْعَذَابِ ﴾ أى أن الله نجى المؤمن من الغرق ، وخلصه من مكر الكافرين ،

ونزل بآل فرعون الهلاك والدمار ، والعذاب .

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا

آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ أى أهلك الله الكافرين ، وجعل أرواحهم

فى نار حامية فى الغداة والعشى ، وسوف يستمر عرضهم على النار إلى يوم القيامة حيث يحاسبون ، ويدخلون جهنم ، وبئس المصير .

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : أرواح آل فرعون فى أجواف طيور سود يعرضون

على النار كل يوم مرتين تغدو وتروح إلى النار ويقال يا آل فرعون هذه منازلكم حتى تقوم الساعة ، وعند قيام الساعة يلقون عذابا أشد وأقسى .



العناصر الرئيسية

لقصة "موسى" عليه السلام فى سورة "غافر"

تقدم الآيات قصة "موسى" عليه السلام ومؤمن آل فرعون متضمنة العناصر الآتية :

(١) أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون وهامان وقارون لدعوتهم إلى الإيمان بالله ، وعبادته وحده ، وأيده سبحانه وتعالى بالمعجزات والبراهين والحجج .

(٢) قابل فرعون وملاه دعوة موسى عليه السلام بالاستهزاء بالله ، والتهديد بالقتل والسخرية من دعوة موسى عليه السلام ، وبين أنه يريد قتل موسى عليه السلام خوفاً من تغيير دين المصريين الفاسد ، وانتشار الفساد بين الناس .

(٣) لجأ موسى عليه السلام إلى الله ودعاه لينصره على عدوه فرعون .

(٤) ظهر رجل مؤمن من آل فرعون ، كان يكتُم إيمانه ، وأخذ يناقش الناس ويخاطب عقولهم ، ويحاول أن يرشدهم إلى الصواب والحق بمنهج عقلى سليم .

(٥) استبد فرعون برأيه وقال للناس لا رأى إلا رأى .

(٦) عاد المؤمن إلى نصح الناس ، وتذكيرهم بالأُمم السابقة ، حتى لا ينزل بهم ما نزل بالأُمم السابقة .

(٧) استمر فرعون فى طغيانه ، واستمر المؤمن فى نصحه ، وأخذ يحذرهم عذاب الله يوم القيامة ، وعتب عليهم عدم استجابتهم لدعوته ، مع أنه يريد نجاتهم .

(٨) ختم المؤمن نصحه بأن تركهم ، وفوض أمره إلى الله تعالى ، فنجاه الله من كيد آل فرعون ، وأهلك فرعون وأهله ، وجعل أرواحهم فى النار وهم فى قبورهم إلى يوم القيامة .

ركائز الدعوة

فى قصتى "موسى" ﷺ ومؤمن آل فرعون

حين ننظر فى قصة موسى ﷺ ومؤمن آل فرعون كما جاءت فى سورة "غافر" نستفيد منها الركائز التالية :

الركيزة الأولى

سمو غاية الدعوة إلى الله تعالى

بعث الله رسله للناس ، وأيدهم بالمعجزات ، وأنزل فيهم كتبه لتحديد غاية الدعوة ، وبيان مسارها وكيفيته بين الناس ، وجعل مسلك الأنبياء منهاجاً أساسياً للدعاة ، يتبعونه ويتخذونه طريقاً يهتدون به ... يقول الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفَتُهُ ﴾^(١) ، وقد ورث النبي ﷺ أصحابه واتباعه أمانة الدعوة إلى الله ، وأوجب عليهم القيام بنشر الإسلام والدفاع عنه .

ومن الآيات نعلم سمو غايات الدعوة وأهدافها ، فلقد أرسل الله موسى ﷺ إلى فرعون وهامان وقارون وأيده بالمعجزات والبراهين ، ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، وسلوك الصراط المستقيم .

ومن هنا ندرك غاية الدعوة ، وهى أخذ الناس إلى الله وحده ، وإلى الاستقامة على منهجه ، وإخلاص العبادة له ، ونبذ ما عداه من الآلهة المزعومة ، والشرائع الموضوعة .

وندرك كذلك أن الدعوة عمل شاق يواجه به الداعية أعداء الله فى الأرض ليذلهم الله الذى خلقهم ورباهم .

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٠ .

وندرك أيضا أن الداعية لا يعمل لنفسه ، وإنما يسعى لمصلحة الناس وهدايتهم لله رب العالمين .

وندرك أن البناء الصحيح يبدأ بالقضايا الكبرى حين يسود التسلط ، ويكثر جنده ، ويعلو صوته ، فلقد ادعى فرعون الألوهية ، ونشر اتباعه ، وزبانيته بين الناس في كافة مدن مصر ، وأخذ يراقب ويحصي أى معارض له ... ولذلك بدأ موسى بدعوته كما أمره الله تعالى في قوله: ﴿ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾^(١)

وندرك ضرورة أن يتسلح الدعاة بالعلم ، وقوة الدليل ، ودقة الفهم ، وسرعة الإجابة ليرى الناس حججهم واضحة ، ويشاهدوا قوة البيان ... وقد تمتع الرسل جميعا بهذا فصاحبوا المعجزات والبراهين ، والآيات البينات .
إن الدعاة هم صفوة العلماء يضمون إلى العلم والمعرفة الحركة بين الناس واقناعهم بما علموا .

ويكفى الدعاة شرفا وعزا أنهم يقومون بما قام به رسول الله ﷺ وهو تبليغ الإسلام ، وإيصاله للناس بينا واضحا .
ويكفى الدعاة قوة أن الله معهم ... والامة من ورائهم بأمر الله تعالى .

الركيزة الثانية

العدوان والتهكم طبيعة الكافرين

الكافر يرى في نفسه هوان موقفه ، ولذلك لا يواجه الدعاة بالدليل لأنه لا دليل معه ، وإنما يرد عليهم بسلطانه ، وقوته ، وبتهمهم زورا وكذبا بما ليس فيهم ، ويأخذ في العدوان والسخرية ، ويستخدم في نشر الأكاذيب المفتراه ، والمزاعم الهابطة ضدهم ، ويملاً الدنيا ضجيجا ، وافتراء ، وتهديدا ... ولا سبيل أمامه غير هذا إلا أن يؤمن بالدعوة وقد اتخذ فرعون وقومه هذا المسلك

(١) سورة طه ، الآية ٢٤ .

مع موسى ﷺ فقد اتهموه بالسحر وكذبوا به ، وقال عنه : ﴿ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَاذُ يُبِينُ ﴾^(١) وأمر جنوده بتشديد الاضطهاد على قوم موسى ، وأمرهم بقتل الذكور ، وترك الإناث إضعافا لهم : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾^(٢) حتى لا يفسد في أرض مصر بترك الدين ، أو نشر الوقيعة بين الناس .

وأخذ يستهزئ بالله ، وطلب من هامان أن يقيم صرحا عاليا يتمكن من الصعود عليه لرؤية إله موسى ويناقشه ، ويثبت كذبه ... وهو كاذب وضال في هذا ، لأنه عجز عن مواجهة موسى بالحق أمام الناس . فكيف له أن يواجه رب موسى ، وهو ضال في تصويره فمهما بلغ ارتفاع الصرح فلن يصل لشيء ، ويبيدوا أنه يعلم ذلك إلا أنه قصد بطلبه إضاعة الوقت ، واشعار الجمهور بقوته لأن بناء الصرح يستغرق أعواما لو بدأوا في البناء .

إن أعداء الإسلام لا يملكون حجة ، ولذلك يسارعون في نشر الشبه ، والقاء المزاعم ، والتهكم بأهل الحق ، واضطهادهم ، وقد تجلّى ذلك في موقف موسى ﷺ من السحرة بعد إيمانهم . يقول الله عن ذلك : ﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُفُّوا أَلْسِنَهُمْ عَمَّا قَالُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبُهُمْ مُصَفًى وَقَدْ تَبَدَّلَ لَهُمْ خَلْقٌ خَيْرٌ مِّنْ خَلْفِهِمْ وَأَنْ لَّا تُصَلِّبَهُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُمْ قَبِلُوا طَٰغُوتَ الْعَصْرِ عَلَىٰ هَٰذَا الْمَسْلِكِ فَمَا يَضْطَهُدُونَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَعِيشُونَ بِالْعُدْوَانِ وَالتَّهْدِيدِ وَالظُّلْمِ .

وقد عرف الله الدعاة هذا الحال ليستعدوا له ، ويعلموا أنهم جنود الله ، والله معهم .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٥٢ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٢٦ .

(٣) سورة طه ، الآية ٧١ .

الركيزة الثالثة

معونة الله لعبادة المؤمنين

الدعاة جنود الله بين الناس ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾^(١) ولذلك ينصرهم الله ويخزي عدوهم ، ويلحق بإعدائهم البوار والخسران ... ولذلك أفسد الله كيد فرعون ، وأبطل مكره وحيله ، ونجى الله موسى ومن معه من ظلم فرعون ، وعدوانه .

وقد استعان موسى بالله ، ولجأ إليه لأنه نصير الدعاة للمؤمنين ، وقد تجلى هذا النصر فى مؤازرة رجل من آل فرعون جاء موسى . يقول الله تعالى :

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ آلَ الْمَلَأِ يَأْتُمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾^(٢) فترك موسى مصر وذهب إلى مدين ، وبعد عودته واجه فرعون بالدعوة ، وأيده الله بمصرى آخر وهو المعروف بمؤمن آل فرعون .

وكانت المعونة الكبرى فى نجاته وقومه من الغرق ، واهلاك فرعون وجنوده فى اليم .

إن الله ينصر عباده ، ويعينهم ، والله جنود السموات والأرض .

الركيزة الرابعة

منهجية مؤمن آل فرعون

فى مؤازرة موسى عليه السلام

أيد الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام برجل من آل فرعون ظهر حين آمن السحرة برب موسى وهارون عليهما السلام واضطرب معسكر فرعون ، وظهرت

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٣٩ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٢٠ .

صيحة التخلص من موسى بقتله لخطورته على المجتمع والدين . يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنَقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾^(١) ، و ﴿ الْمَلَأُ ﴾ هم سادة القوم وكبرائهم ، يطلبون من فرعون عدم ترك موسى ومن معه أحرارا ؛ لأنهم يفسدون الناس ، ويدعون إلى ترك عبادة فرعون ، ونبذ عبادة سائر الآلهة ، فيجيبهم فرعون بخطة وضعها إزاء هذه القضية ، وهي تقتيل ما يولد للإسرائيليين ، من ذكور ، وترك البنات ، حتى ينقطع نسلهم ، ثم يطمئن الملاء على قوته ، وعلوه ، وسلطانه ، كما هو شأنه دائما .

إنه لم يتحدث معهم في قتل موسى كما طلبوا ؛ لأنه في قرارة نفسه . والله أعلم . كان متيقنا من صدق موسى ، وأنه كان يخاف إن أصابه بسوء بعدما رأى من آياته ومعجزاته أن يصيبه هلاك ودمار لا يقدر على دفعه فحاول إيهامهم بقوته وهو يخادعهم .

فقله : ﴿ ذَرُونِي ﴾ من باب التمويه ، وإيهام القوم بأنهم هم الذين يمنعونه من قتله ... لأن من يقصد القتل لا يعلن عزمه ، وإنما يلجأ للتنفيذ مباشرة ... ويتم فرعون مقالته لهم بالخوف على الناس من موسى ؛ لأن موسى عليه السلام إما أن يبدل دينهم ، أو أن يظهر في الأرض الفساد ، وعليهم أن يحذروه ، ولا يسمعوا قوله .

علم موسى عليه السلام بما يدور في معسكر فرعون بشأنه ، فلجأ إلى الله ، واعتصم بالله ، وتوكل عليه لينقذه من طغيان فرعون ومن كل طاغية يتكبر في

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٢٧ .

الأرض ، ولا يؤمن بالله ، ولا بيوم الحساب ، فليس هنالك إذا ما يمنعه من الظلم ، والفساد ، والقتل ، والتدمير .

ولما قويت مؤامرات فرعون ، وتعاون الملاء على موسى ، غضب رجل من آل فرعون عن قومه ، ولذلك سمح له فرعون بهذا الحديث الطويل وانفعل بكلامه ، واستمع له ، ولو كان إسرائيليا لعاجله بالعقوبة^(١) .

آمن الرجل بموسى سرا ، ولم يجد بدا من إظهار إيمانه ، وعلان غضبه على فرعون وملئه لظلمهم ، وعدوانهم ، وتفكيرهم في قتل موسى ، وأخذ في مناقشتهم بعقل ، وحكمة .

لقد نصح المؤمن قومه بحق ، وسلك في نصحه لهم منهجا رشيدا وخطا حسنة ، فهو واحد منهم ، يهتم شأنهم ، ويعرف طبائعهم واتجاهاتهم ؛ ولذلك تعامل معهم بما يليق بهم ، وكان دائما يخاطبهم بقوله : ﴿ يَنْقُومِر ﴾ .

ومن منهجه في مخاطبة فرعون وقومه ، تقدير فكرهم ، ومحاولة إيقاظ عقولهم بالاستفهام المتكرر ، المتصل بواقع الحياة التي يعيشونها ، وكان يتنقل معهم من مسألة إلى مسألة ، ترفقا بهم ، وكان يبين لهم في كل مرحلة حرصه عليهم ، وتمنيات النجاة لهم ، وأمل استمرار الملك فيهم :

(أ) أخذ الرجل يحاور قومه ، ويعرض عليهم الموضوع ، ويناقش عقولهم بعيدا عن العصبية والانفعال ، ورد الفعل ، وبلا تحيز ظاهر لموسى أو لدعوته ، ويبين لهم أن موسى إما أن يكون كاذبا ، أو صادقا ، وخير لهم أن يتجنبوا إيذائه في الحالتين ؛ لأنه إن كان كاذبا فسيتحمل عقوبة كذبه بعيدا عنهم ، وإن كان صادقا ، فستحل بهم عقوبة الكفر به فلا تضيفوا إليها جريمة قتله ، فيتضاعف عذابهم ؛ لأن احتمال صدقه أقوى

(١) تفسير الزمخشري ج ٤ ص ١٦١ ، وابن كثير ج ٤ ص ٧٧ ، والقرطبي ج ١٥ ص ٣٠٦ .

، فقد جاءكم بالبيّنات المؤيّدّة له ، وعرفهم أنّ الكذاب ، المكثّر في الإفك ، لن يوفقه الله للخير أبداً ، مهما كان ...

(ب) ثمّ انتقل إلى مسألة ثانية ، وهي قضية ملك مصر ، وفي هذه المسألة وضح المؤمن لهم أنّ الملك بيدهم الآن ، وهم به ظاهرون في الأرض ، وعلى الناس ، وهذا أمر يجب أن يحافظوا عليه ، وعليهم أن يفكروا في بأس الله الذي خوفهم منه ، من ناحية كيفية مواجهته ، والانتصار عليه في حال صدق موسى ، ولن يقدر عليه أحد لأنّه من الله تعالى ... في هذه المسألة يضع نفسه معهم ، في حال مجئ بأس الله ، وهو إظهار لحرصه عليهم ، وعلى الملك الذي جعله لهم خاصة .

إنّه يوقظ عقولهم أمام حقائق الحياة ، حتى لا يستمروا في أمانهم وأحلامهم ، التي لا تتصل بحقيقة الوجود ، وحركة الحياة . وقد رأى فرعون خطورة حديث الرجل ؛ لأنّه يلامس العقل المجرد ، ويعرض المسألة كما هي واضحة أمام الناس ، فأراد أن يصرف الناس عنه ، فقال لهم ما تشير إليه الآية في أنّ الرأي الصائب هو رأيه ، وأنّه يعمل لمصلحتهم ، ورشدهم ، وسعادتهم ، وعليهم أن يطمئنوا لذلك .

(ج) وبعدها انتقل الرجل إلى مسألة أخرى ، وهي خوفه على الناس من عذاب الله أن يحلّ بهم في الدنيا ، فأخذ يذكرهم بأحداث الأمم التي سبقتهم ، فقد كذبوا رسلهم ، ولم يؤمنوا بدعوتهم ، فأهلكهم الله تعالى ، جزاء كفرهم وضلالهم ، وأعلن الرجل لهم أنّه يخاف عليهم من نزول الهلاك بهم ؛ لأنّ الله بعدله يمهّل ولا يهمل .

(د) ومع هذه المسألة يوضح الرجل لقومه ، أنّه يخاف عليهم من عذاب يوم القيامة ، حيث لا قوة إلاّ الله ، وحيث لا يرى الظالمون نصيراً أو معيناً ، ينادي بعضهم بعضاً ولا مجيب ، ويفرون من العذاب ، لكن إلى عذاب

آخر أشد وأنكى ؛ لأن يوم الآخرة يوم شديد ، لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

(هـ) وينتقل الرجل إلى إظهار أخطاء القوم في تقدير رسالة موسى وهارون اعتمادا على تجربة لهم سابقة مع يوسف عليه السلام ، وهذه التجربة دليل واضح على سوء التقدير لديهم ، فلقد جاءهم يوسف عليه السلام من قبل بدين الله تعالى ، ودعاهم إلى التوحيد ، وأظهر المعجزات الدالة على صدقه وهو نفس ما فعله موسى عليه السلام لكنهم كفروا برسالة يوسف عليه السلام ولم يؤمنوا به ، وقالوا بعد موته : ﴿ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ وظهر كذبهم بمجئ موسى وهارون عليهما السلام رسولين إليهم ، وهذا ضلال في التفكير ، والتقدير ، سببه التماذي في الشك ، والبعد عن الله تعالى . إن موقفهم أساسه الكبر ، والطغيان ، والجدل في الحق بلا دليل من العقل أو الشرع ، وبذلك حلت عليهم لعنة الله ، ونزل بهم غضبه ؛ لأن الله يطبع على قلب كل متكبر جبار ، ومن تعود المعصية استمرأها ، ومن استمرأها صارت له مذهباً ، وطريقاً .

(و) ثم أخذ المؤمن يبين لهم قيمة الحياة الدنيا ، وزخارفها بالنسبة للآخرة ، فمتاع الدنيا قليل وزائل ، أما متاع الآخرة فمستقر ودائم وكثير ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَرَ يَتَقَوَّمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿١٧﴾ يَتَقَوَّمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿١٨﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ

أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿١﴾ .

وقد تفضل الله على الناس فجعل جزاء السيئة بمثلها ، وأما من عمل
صالحا فجزاؤه غير محدد ، ويكفي أنه يدخل الجنة يتمتع فيها بغير
حساب .

وينهي الرجل المؤمن حديثه مع الناس ، ويوضح لهم أنه يدعوهم إلى
النجاة والخير ، وهم يدعونه إلى النار والإثم ، وأنه سيدعهم ويترك الأمر
لله العليم بكل شيء .

وقد سكت فرعون عن الرجل أولا لقربته ، فلما تبين خطورته حاول قتله إلا
أن الله نجاه منه ، قال تعالى: ﴿ فَوَقَّهٖ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ
بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٢) .

(١) سورة غافر ، الآيات ٣٨ . ٤٠ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٤٥ .

مخاصمة أهل النار

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنَوْنَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۖ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ۖ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۖ قَالُوا فَأَدْعُوا ۚ وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة مؤمن آل فرعون ، ومخاصمته الكافرين في الدنيا جاءت هذه الآيات لبيان المخاصمة بين الكافرين في الآخرة وهم يعذبون في نار جهنم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات مخاصمة المشركين وهم يعذبون ، وتوضح محاولة الضعفاء تخفيف العذاب عنهم فقد طلبوا من الكبار تحمل جزء من العذاب عنهم ، وطلبوا من الخزنة الدعاء لهم ، وكل تلك محاولات لا تجدى نفعا .

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أى اذكر يا محمد لقومك هذه الصورة الدالة على خيبة المشركين فى الآخرة ، حيث يتخاصم أهل النار ، ويجادل بعضهم بعضا ، فيقول المشركون الذين كانوا ضعفاء فى الدنيا للذين كانوا سادة وكبارا : إنا كنا فى الدنيا نسير وراءكم ، ونتبعكم فكفرنا مثلكم ، وعبدنا آلهتكم .

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ ؟ ... أى فهل

تقدرون اليوم أن تتحملوا عنا قسطا من العذاب الذى نستحقه ؟

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أى يرد الذين استكبروا

على الضعفاء : إنا جميعا نعذب فى نار جهنم ، فنحن وأنتم فيه سواء ، لا نقدر على رفع شئ منه ، ولو كنا نقدر على تحمل جزء من العذاب عنكم لرفعناه عن أنفسنا .

﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ أى إن الله يحكم بين عباده

جميعا ، وقد قضى . سبحانه . بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

وفى ذلك تحذير لكل من له عقل يفكر به ليترك التقليد الأعمى ، والتبعية لغيره ، ويستقيم على دين الله الذى حفظه الله بحفظ مصادره ، وتفهمه للناس .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أى يتجه جميع أهل النار إلى

الملائكة الذين وكلهم الله لحراسة النار ، والإشراف عليها ، يطلبون منهم مساعدتهم .

﴿ اَدْعُوا رَبَّكُمْ مُخَفِّفَ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ أى يطلب المشركون

من خزنة جهنم أن يدعو ربهم ليخفف عنهم مدة من العذاب ... وانما طلبوا ذلك لظنهم أن قرب الملائكة من الله يمكنهم من الدعاء ، وتصورهم أن المحسوبة التى عاشوها فى الدنيا هى نفس الحال فى الآخرة .

﴿ قَالُوا ﴾ أى قال الملائكة لأصحاب النار ، وردوا عليهم ﴿ أَوَلَمْ تَكُ

تَأْتِيَكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى . والمعنى ألم يأتكم الرسل الذين اختارهم الله منكم ، ليعرفوكم بالحق فى الدين ، ومعهم الحجج والبراهين ؟ ... وبذلك لا يكون لكم عذر فيما تطلبونه اليوم .

﴿ قَالُوا ﴾ أى قال المشركون ﴿ بَلَى ﴾ أى نعم أتانا الرسل فكذبناهم ، ولم

نؤمن بما دعونا إليه ، ولم نصدق بالوحي ، ولم نعقل شيئاً من البراهين التى عرفونا بها .

﴿ قَالُوا ﴾ أى قال خزنة جهنم للمشركين ﴿ فَادْعُوا^١ وَمَا دُعَاؤُا

الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ أى إذا كان الأمر كما أقررتم فادعوا الله بما

تشاءون ، فلن يسمع لكم دعاء ، وكل ما تطلبونه خاسر ، وهالك لن يتحقق .

عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال : "يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما

هم فيه من العذاب ، فيستغيثون منه ، فيغاثون بالضريع لا يسمن ، ولا يغنى من

جوع ، فيأكلون لا يغنى عنهم شيئاً ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة

فيغصون به ، فيذكرون أنهم كانوا فى الدنيا يجيزون الغصص بالماء ،

فيستغيثون بالشراب فيرفع لهم الحميم بالكلايب ، فإذا دنا من وجوههم شواها

فإذا وقع فى بطونهم قطع أمعاءهم وما فى بطونهم ، فيستغيثون بالملائكة

يقولون : ﴿ اَدْعُوا رَبَّكُمْ مُخَفِّفَ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴾ فيجيبونهم : ﴿ اَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۚ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَاَدْعُوا ۚ وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ اِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ ، فيقولون ادعو مالكا . فيقولون : ﴿ يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ، فيجيبهم : ﴿ اِنَّكُمْ مَّكْثُوتٌ ﴾ ^(١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين يتخاصمون بعدما يرون العذاب ، فيطلب الضعفاء من الذين استكبروا أن يتحملوا عنهم قسطا من العذاب ، لأنهم كانوا تبعا لهم ، فيرد المستكبرون بأن الجميع يعذب ، وبأنهم لا يستطيعون شيئا ، وينتجه المعذبون فى النار إلى الخزنة ، ويطلبون منهم دعوة الله ليخفف عنهم شيئا من العذاب فيرد الخزنة عليهم بأن الله أرسل لهم رسلا ، وأيدهم بالمعجزات أمامهم فكفروا بهم وكذبوهم ، فالיום يجزون العذاب الأليم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

هوان أهل النار وحسرتهم

تتحدد الأعمال بالسعى فيها ، وتعرف قيمتها بنتائجها ، ولذلك قالوا : فى يوم الامتحان يكرم المرء أو يهان ، لأنه إن فاز ونجا فقد نجح وريح ... وان خسر وعذب فقد ضاع وخسر .

(١) البعث والنشور للبيهقى . باب ما جاء فى طعام أهل الجنة ج ١ ص ٣٠٣ .

وفى يوم القيامة تتجلى خسارة المشركين والعصاة ، ويظهر ندمهم وألمهم لأنهم يستقرون فى جهنم بعد محاسبتهم ، واقامة الحجة عليهم ، ويبحثون عن مخرج لهم يخرجهم من النار ، أو يخفف عنهم شيئاً من العذاب ويجدون الذين استكبروا معهم فيقولون لهم لقد سرنا وراءكم ، واتبعناكم ، أصنامكم ، وعبدنا آلهتكم فهل يمكنكم أن تحملوا عنا قسطاً من العذاب الذى أنتم سبب فيه ؟ ...

فيقول الذين استكبروا : إنا لا نقدر على شئ والأمر لله ، ونحن نعذب مثلكم ...

فيلجأ الضعفاء إلى خزنة جهنم يطلبون منهم أن يسألوا الله ليخفف عنهم فيلومهم الخزنة ، ويقولون لهم لقد جاءكم رسل الله ، وبلغوا الدعوة ، وبرهنوا على صدق دين الله تعالى ، وأظهروا الآيات العديدة الدالة على وحدانية الله تعالى ، وثبتت كافة صفات الكمال والجلال الواجبة لله تعالى .

إن هذا الحوار يبين مدى حيرة الكافرين ، وحسرتهم بعدما يظهر الحق وهذا يؤكد ضرورة أن يفكر الإنسان بعقله ، ويتجنب التبعية حتى لا يضل من الضالين ، حيث لا ينفع الإنسان إلا عمله الصالح ، واستقامته على الصراط المستقيم الذى دعا الله إليه .

ومن رحمة الله بالناس أن عرفهم بهذه الحيرة لكى يتجنبها العقلاء ، ويحذرها أولو الألباب .

وعلى الدعاة أن يستفيدوا بهذه الحقائق وهم يخاطبون الناس ، وتلك هى مسئولية الدعاة .

نصر الله لرسله وأوليائه

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهُدُ ۖ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ
الْآخِرَةِ ۖ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ۖ هُدًى
وَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۖ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۖ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ
اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ ۖ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ ۖ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ
إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۖ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۖ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۖ إِنَّ السَّاعَةَ
لَأَتِيَةٌ ۖ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مخاصمة المشركين يوم القيامة ، واستمرارهم في
العذاب جاءت هذه الآيات تبين أن الله ينصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا ،
وفي الآخرة ، وتأمر رسوله ﷺ بالصبر ، والثقة في وعد الله تعالى ، والعمل
للآخرة لأنها حقيقة واقعة .

(١٩٦)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله قضى بنصر الرسل والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة كما نصر موسى عليه السلام وأتباعه ، ولن ينتفع الظالمون بشركهم في الآخرة ، فاصبر يا محمد فإن وعد الله لك بالنصر ، ولا تحزن لما ترى من كفر وجدل .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ ﴾ أى يؤكد الله تعالى أنه خص رسله والمؤمنين معهم بالنصر ،
والتمكين في الحياة الدنيا ، وفي الآخرة .

أما نصرهم في الدنيا فيكون بتقويتهم بالحجة والبرهان ... وبهزيمة عدوهم
... وبالذكر والتقدير ، والمديح ... وبرزقهم الثقة بما هم فيه ... ويخزي
خصومهم حتى لو انتصروا عليهم في وقت ما ... وبإثابتهم على الصبر على
البلاء ... وببقاء ذكرهم والتأثر بهم بعد موتهم ... وبتمكين عقائدهم وأديانهم
في قلوب الناس ، وفي أرض الله تعالى خلال حياتهم ، وبعد مماتهم ، وسمت
الآية يوم القيامة بـ "يوم الأشهاد" لبيان أن الحقائق تظهر يوم القيامة وتكون
ظاهرة مشهودة أمام الخلائق أجمعين .

وقد حدث هذا النصر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين في الدنيا فبلغت دولة
الإسلام المشارق والمغارب ، وسكن حب الإيمان قلوب العباد ، واصلح الله به
الدنيا كلها .

وأما النصر في يوم القيامة فهو إقرار الشهداء يوم القيامة بقربهم من الملائكة ، والنبیین ، والمؤمنین بفضل إيمانهم ، وسبقهم ، واستحقاقهم لجنت النعيم .

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

أى ينصر الله عباده المؤمنين ، ورسله المرسلين في يوم يخزى الله فيه المشركين ، ولن يقبل منهم عذرا لأنهم لا يعتذرون إلا بباطل .. وسيلعنهم الله ، ويطردهم من رحمته ، ويجازيهم على كفرهم بالويل والثبور ، ويجعل مأواهم الإقامة في دار السعير .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾

ومن أمثلة نصر الله لرسله والمؤمنين في الدنيا ما قضى الله به لموسى عليه السلام فقد اختاره الله للرسالة ، وأنزل عليه المعجزات ، والعقيدة ، والشرعية ليهتدى بها الناس ، ومكن له في الأرض ، وورث اتباعه من بنى إسرائيل الكتاب ، وكثر الأنبياء الذين بعثهم الله فيهم لدعوتهم بدين موسى عليه السلام .

﴿هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾

لموسى عليه السلام ولبنى إسرائيل دليل هداية ، وتذكرة ، وتبشيرا لأصحاب العقول السليمة .

﴿فَاصْبِرْ﴾

يا محمد لأمر الله ، وبلغ دين الله للناس ، وتيقن من نصر الله ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾

أى ما وعد الله به يتحقق ، وسوف يعينك ، وينصرك ، وينشر دعوتك .

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

داوم على ذكر الله ، وتسبيحه أثناء الليل وأطراف النهار .

ويأمر الله الرسول ﷺ بالطاعات كلها ليترك ما لا ينبغي ، ويستغفر الله ليعينه على الترك ، ويفعل ما ينبغي وهو العبادة الدائمة لله تعالى .
واستغفار النبي ﷺ يعنى دوام العبادة والابتعاد الكلى عن كل ذنب صغر أو كبر .

ولما دعا الله رسوله إلى الصبر والتحمل عرفه بأن المعارضين له لا يملكون حجة فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ ﴾ أى إن الذين يخاصمونك يا محمد ، ويجادلونك بالباطل هم قوم يخوضون في الحديث بلا حجة شرعية أو عقلية ، وما يجادلونك إلا بسبب ما هم فيه من كبر وغرور يمنعهم من اتباعك ، والاستماع لنصحك .

إنهم يعملون على قهر دعوتك ، واطفاء نور الله في الأرض ، ولن يبلغوا ذلك ، ولن ينتصروا على الحق أبداً ، لأن الرسالة فضل يؤتيه الله لمن يشاء ، والدين حق كتب الله له النصر ، والغلبة ، والتمكين .

﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى إعمل يا محمد بما أخبرتك به ، والجا إلى الله ، واستعذ به فهو سبحانه السميع لدعائك ، العليم بكل شئ ، وببيده مقاليد الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه .

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ أى إن الذين

يجادلون في دين الله بغير برهان ديني ، وبغير دليل عقلي ، وينكرون البعث والحساب قوم ضالون ، فهم يقرون بأن الله هو خالق السموات والأرض ، ويقرون بأن خلقهما أكبر واشمل من خلق الناس ، وكان الواجب عليهم أن يقروا بقدرة الله على البعث والحشر والمعاد لأن من قدر على خلق الأقوى الأكمل

قادر على خلق الأضعف الأرذل ... وما جادلوا في ذلك إلا جهلا ، وحقدا ، وحسدا ، وكبرا .

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى ولكن أكثر المشركين لا

يعلمون شيئا ، ولا يتدبرون فيما يقولون ويفعلون ، ولا يقدرّون الله حق قدره ، ولا يربطون آيات الكون بدلالاتها على الله تعالى .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ أى إن المتناقضين والمتعارضين لا

يستويان فكما لا يستوى الأعمى والبصر لا يستعري المؤمن العالم العارف مع الكافر ، الجاحد ، المجادل الذى يجادل في الله بغير دليل .

وكذلك لا يستوى المؤمن المحسن والمسيء الضال . يقول الله عنهم :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ فإنهما لا يستويان

لأن المؤمن يرى بعينه الحجج ، ويعترف بها ، ويهتدى بهديها ، ويجعلها دليلا للإيمان ... أما الكافر فهو مسيء لجوارحه لا يرى بها ، ومسيء لعقله فلا يهتدى به .

﴿ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى إنكم أيها المشركون لا تتذكرون من آيات

الله إلا القليل ، ولا تستفيدون بها إلا في الجوانب المادية التى تنفعكم في الدنيا أما التجرد في النظر ، والإقبال على الله فهو أمر بعيد عنكم .

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أى إن الأدلة السابقة دليل على

اليقين بوقوع يوم القيامة ، وهو حق واقع لا شك فيه ، فآمنوا به ، واستعدوا له لو كنتم تعقلون .

(٢٠٠)

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أى ولكن أكثر الناس لا يؤمنون
بمجيئ يوم القيامة ، وان آمن به بعضهم ، فهم لا يعملون له ، ولا يستعدون
لوقوعه ، والله الأمر كله .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله ينصر رسله والمؤمنين في الحياة الدنيا ، وفى الآخرة
في يوم لا يقبل الله توبة مذنب ، ولا تنفع فيه معذرة لكافر ، يوم يلعن الله فيه
الظالمين ، ويسكنهم جهنم وبئس المصير ، ولقد نصر الله موسى وقومه بنى
إسرائيل ، فمكن لهم في الأرض ، وأورثهم الكتاب ليكون ذلك ذكرى وعبرة لأولى
الألباب .

ويأمر الله رسوله محمدا ﷺ ليصبر ويتيقن من نصر الله تعالى فوعده حق
، وعليه أن يستغفر ربه ، ويسبحه ، ويداوم على عبادته ... وليعلم أن الذين
ينكرون البعث يجادلون بالباطل بلا دليل ولا برهان ، وينكرون البعث والحشر
والحساب مع أن كل الدلائل تؤكد وقوعها ، فلقد خلق الله السموات والأرض
وهى أكبر من خلق الناس ، وهذا يؤكد قدرته على البعث والإعادة .

إن المشركين ينكرون البعث كبرا وحقدا وحسدا ، وهم يختلفون عن
المؤمنين اختلافا كلياً فهما لا يستويان ، كاختلاف الأعمى عن البصير ... إن
يوم القيامة واقع لا ريب فيه ، وان كذبه المشركون الذين لا يعلمون ولا
يتذكرون .

(٢٠١)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

رعاية الله للدعاة

الدعاة هم علماء الأمة الذين يبلغون دين الله للناس ، ويحملون الوحي ببيانه ، ووضوحه في قلوبهم ، وعملهم ، وإيصاله إلى الناس .

وهم في حركتهم يتخذون رسول الله ﷺ أسوة لهم يقتادون به ، ويتتبعون خطاه ، ولذلك فهم يتميزون بما يلي :

(١) العلم الدقيق بالدين على قدر طاقتهم البشرية ، لأنهم إن لم يعلموا لن يبلغوا ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، ودائما تعبر الألفاظ عن مكنون النفس وخلجات الضمير ، ولهذا أعطى الله علماء بنى إسرائيل الذين خلفوا موسى ﷺ التوراة هداية لهم ، ومصدرا يوصلونه للناس .

(٢) الاستسلام التام لهدى الله ، ومداومة التسبيح والاستغفار ، والإخلاص في عبادة الله ، واللجوء إليه سبحانه لأن هو يفتح مغاليق القلوب ، ويربط العباد بالله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ۗ ﴾^(١) ويقول النبي ﷺ : "من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم"^(٢) .

(٣) ملازمة الأخلاق الكريمة ، وبخاصة تلك التي تقوى صلة الناس به مثل الكبر ، والصبر ، والتحمل ، وعدم مقابلة السيئة بمثلها ، وكان رسول الله ﷺ خير أسوة للدعاة في الخلق الكريم فتحمل أذى الناس ، وصبر على عدوانهم وسفاهتهم ، ولم يقابلهم بالسوء الذي فعلوه .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ .

(٢) معانى الأخبار ج ١ ص ٩٩ .

(٢٠٢)

وكانت المرأة تستوقفه في الطريق وقتاً طويلاً تستفتيه ويجيبها ، وكان يدعو لقومه المشركين ، ويسأل الله لهم ويقول : اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون .

وكان ﷺ معطاء كريماً لا يرد سائلاً ، ويعطى عطاء من لا يخشى فاقه ... فأحبه الناس قبل الإسلام وسموه الصادق الأمين ، وشهد الله له فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾^(١) .

(٤) الحرص على تبليغ الإسلام للناس لأنه واجب عليه ﷺ وعلى المسلمين غيره ، وهذا يحتاج إلى التعب والمشقة والمعاملة الحسنة حتى يصل دين الله للناس أجمعين .

هذه هي الصفات الضرورية للدعاة ، وهم في أمس الحاجة إليها ليتمكنوا بها من توصيل الإسلام للناس كما نزل من عند الله تعالى .
ولهذا :

كان الدعاة جنوداً لله تعالى ، يرعاهم ، ويصونهم ، ويعلى شأنهم ومقامهم ، وقد أكدت الآيات نصر الله للدعاة بصور عديدة أهمها :
(أ) تحقيق نصرهم في الدنيا ، وفي الآخرة ، فهم في الدنيا يعلمون الناس ، وينشرون دين الله رغم عراقيل المرجفين ، وعداوة الخصوم ... وفي الآخرة يفوزون بجنان النعيم يوم أن يلحق بالمشركين لعنات الله ، وعذاب جهنم ، وبئس المصير .

(ب) إمدادهم في الدنيا بأسباب النصر فيوفقهم للطاعة ، ويهديهم للصواب ، ويمتعم بنور القرآن ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويسلم لهم

(١) سورة الفلم ، الآية ٤ .

(٢٠٣)

العقل ، والعلم ، والفكر ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ،
وقد هدى بنى إسرائيل بالكتاب الذى نزل على موسى ﷺ .
(ج) بث اليقين في قلوبهم وذلك بالتأكيد الدائم بصدق وعد الله تعالى .
وقد عاش رسول الله ﷺ والصحابية والتابعون هذه المعانى المستفادة في
هذه الركيزة فصدقوا في عبادة الله ، وخلصوا في الدعوة للإسلام ، وتركوا لنا
تراثا عظيما في العلم ، والخلق ، والدعوة .

الركيزة الثانية

فساد منطق الكافرين

الكافرون فريق من الناس لا يخلو منهم زمان ، ولن يتطهر منهم مكان
ولذلك عرضت الآيات منطقهم لتوضيح ضلالهم ، ولتحذير المؤمنين والعقلاء
من الوقوع فيها ، وأهم صفاتهم هي :
(١) الكبر والاستعلاء على الناس ، ولذلك فهم ينظرون إلى المؤمنين نظره
هينة ، ويعدونهم شرذمة هزيلة من الناس .
(٢) المجادلة بالباطل فهم يطلقون كلاما لا دليل له ، لا من عقل ولا من نقل .
(٣) خضوعهم لآراء أبا لسة الإنس والجن ، ولذلك وجب الاستعاذة بالله تعالى
حين الحوار معهم فهو سبحانه العليم بنواياهم ، البصير بأعمالهم .
(٤) الجهل بالحقائق الثابتة ، فهم يقولون بأن الله هو خالق السماء والأرض ،
ومع ذلك ينكرون البعث ، وهذا جهل منهم لأن من قدر على خلق الكائنات
العظيمة قادر على خلق الكائنات الصغيرة ، ولكنهم لا يفهمون .
إن منطق المشركين فاسد ، وآراءهم باطلهم ... إنهم يعبدون الأصنام ،
ولا دليل لهم على ذلك ، ولا حجة عندهم تجعلهم يتخذونها آلهة يعبدونها .

(٢٠٤)

وهذا المنطق الفاسد هو منطق خصوم الدعوة في كل وقت ، ولذلك كشف طريقتهم وضلالهم خزيا لهم ، وحتى يعلم الدعاة الطريق الأمثل لدعوتهم ، ورد قبحهم ، وسوء فعالهم .

الركيزة الثالثة

منهجية الدعاة في عرض البراهين الواضحة

يعتمد الإسلام على مخاطبة الناس بالحسنى ، ويقدم لهم البرهان القريب منهم ، ومن ذلك أن الناس جميعا يقرون بضخامة السموات والأرض وما فيهما ، ويرون دقة نظامهما ، وروعة أفلاكها ومسارها ، وكثرة منافعها للكائنات كلها . يسلم المشركون بأن الخالق هو الله ، ويؤمنون بكافة صفاته إلا أنهم يتخذون من الأحجار أصناما آلهة ، ويعبدونها ، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله تعالى ، وهذا ضلال منهم ، ولذلك يجعل الإسلام من موقفهم دليلا على تناقضهم ، وضلالهم حين يكفرون بوحدانية الله وقدرته في الإيجاد والإعدام ، والدنيا والآخرة ...

وحين يعرف بالمشركون يبين أنهم كالأعمى الذى لا يساوى المبصر ، وكالمسئ الذى لا يساوى المحسن ، ويؤكد مجئ الحساب لمحاسبة كل الناس على مواقفهم .

هذه المنهجية في الاستدلال طريق الدعاة إلى الله تعالى يستفيدون بها ، ويسيروا على نمطها وهداها .

آيات الله وقدرته بين هداية المؤمنين ، وضلال الكافرين

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ١٥
 فِيهِ وَالنَّهَارُ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَآَنِي تُؤْفَكُونَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٣﴾ ۝

(٢٠٦)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المشركين ينكرون البعث عنادا ، وتكبرا ، وأنهم لا يتذكرون آيات الله ويجهلون قدره سبحانه وتعالى جاءت هذه الآيات تأمر الناس بدعوة الله تعالى ، والاستفادة بآياته ، والبعد عن ضلال الكافرين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات آيات الله تعالى في الليل والنهار ، والأرض والسماء ، وفي تصوير الخلق وتحسينه ، وفي خلقه كله لتعرفوا فضله ، وتعبدوه حق العبادة ولا تكونوا من الضالين الجاحدين المكذبين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ أى وقال لكم ربكم على لسان

رسله اعبدوه وحده ، واتجهوا إليه بالدعاء .

ويراد بالدعاء العبادة لقوله ﷺ : "الدعاء هو العبادة"^(١) ، وكثيرا ما يستعمل القرآن الكريم الدعاء بهذا المعنى . يقول الله تعالى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا لِنُؤْثِرُهُ ﴾^(٢) أى يعبدون .

ويراد به الطلب والرجاء . يقول النبي ﷺ : "من لم يدع الله سبحانه غضب عليه"^(٣) .

ويقول ﷺ : "الدعاء مخ العبادة"^(٤) .

(١) سنن أبي داود . كتاب الصلاة . باب الدعاء ج ٢ ص ٧٦ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١١٧ .

(٣) سنن ابن ماجه . كتاب الدعاء . باب فضل الدعاء ج ٢ ص ١٢٥٨ .

(٤) سنن الترمذى . كتاب أبواب في فضل الدعاء ج ٥ ص ٤٥٦ .

(٢٠٧)

وسئل النبي ﷺ : "أى العبادة أفضل ؟ قال ﷺ : دعاء المرء لنفسه" (١) .
ولا مانع من إرادة المعنيين معا ... ويكون الأمر فى الآية شاملا لعبادة الله وحده ، والتوجه إليه فى الطلب والاستغفار والرجاء .
والاستجابة على المعنيين تعنى إعطاء السائل ما سأل ، وإيصال أثر العبادة إليه مادام الدعاء قد أدى بشروطه .
وتعريف الله بلفظ الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين إشارة إلى ضرورة الطاعة والامتثال لله صاحب الفضل والعطاء لأن مسمى الرب يعنى العناية ، والتربية ، والحفظ ، وهذه المعانى تلزم العبد بالطاعة الدائمة لله تعالى .
فإن قيل : كثير من الناس يدعون ، ولا يستجيب الله لهم مع أنه تعالى يقول : ﴿ اَدْعُونِيْ اَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ؟

أقول : شرط الدعاء الإخلاص فيه ، والصدق فى العبودية لله تعالى ، والتوجه إلى الله وحده . أما إذا فقد الداعى شيئا من ذلك فلن يعتد الله بدعائه .
يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِيْنَ اِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴾ (٢) .
وأىضا فإن من اعتمد على ماله ، وجاهه ، وأقاربه ، وأصدقائه ، واجتهاده فإنه فى الحقيقة ما دعا الله حقا ، وإنما دعاه بلسانه لا بقلبه .
وأىضا فإن المعاصى تمنع الاستجابة . يقول النبي ﷺ : "إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم" (٣) .

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم . كتاب الدعاء والتكبير والتهليل . باب وأما حديث رافع

بن خديج ج ١ ص ٧٢٧ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١٤ .

(٣) شعب الإيمان . كتاب تعديد نعم الله عز وجل ج ٦ ص ٣٠٨ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

أى إن الذين يستكبرون عن عبادة الله تعالى ، ولا يلجأون إليه عبادا خاشعين سيدخلون جهنم صاغرين أذلاء لتكون مستقرهم ومأواهم .

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ

اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بدأت

الآية بذكر اسم الذات العلية ﴿اللَّهُ﴾ لبيان حقين من حقوقه سبحانه وتعالى على العباد .

أحدهما : حقه فى الإقرار بكافة صفات الكمال والجلال الخاصة به سبحانه وتعالى .

ثانيهما : حقه فى أن يطاع بمقتضى الربوبية والعبودية .

والآية استدلال واضح بالأكوان العلوية وآثارها الواصلة إلى الأكوان السفلية ، وهي مظهر النعمة بالليل والنهار فهما تكوينان عظيمان دالان على عظيم قدرة مكونهما ، ومنظمهما ، وجاعلهما متعاقبين ، فنيطت بهما أكثر مصالح هذا العالم ، ومصالح أهله ، فمن مصالح العالم حصول التعادل بين الضياء والظلمة ، والحرارة والبرودة لتكون الأرض لائقة بمصالح من عليها فتنبت الكأ ، وتنضج الثمار .

ومن مصالح سكان العالم سكون الإنسان والحيوان في الليل لاسترداد النشاط العصبي الذي يعييه عمل الحواس والجسد في النهار ، فيعود النشاط إلى المجموع العصبي والحواس في الجسد كله .

ولولا ظلمة الليل لكان النوم غير كامل فكان عود النشاط بطيئا وواهدنا ولعاد على القوة العصبية بالانحطاط والاضمحلال في أقرب وقت ، ولا يتمتع الإنسان بعمر طويل .

ومن مصالح العباد انتشار الناس والحيوان في النهار ، وتمتع الكائنات بالضياء ، وبذلك تتم المساعي للناس في أعمالهم التي بها انتظام أمر المجتمع في المدن والبادي ، والحضر والسفر ، فإن الإنسان مدني بالطبع ، وكادح للعمل والاكتساب ، فحاجته للضياء ضرورة ، ولولا الضياء لكانت تصرفات الناس مضطربة متخبطة .

وللتنويه بشأن إبصار الناس في الضياء ، وكثرة الفوائد الحاصلة لهم من ذلك أسند الإبصار إلى النهار على طريقة المجاز العقلي بقرينة الحالية والمحلية .

وأما نعمة السكون في الليل فهي نعمة واحدة كبرى بها يتحقق السكون ويرجع النشاط ويعود للإنسان نشاطه وحيويته .

وفي ذكر الليل والنهار تذكير بآية عظيمة من المخلوقات ، وهي الشمس التي ينشأ الليل من احتجاب أشعتها عن نصف الكرة الأرضية ، وينشأ النهار من انتشار شعاعها على النصف المقابل من الكرة الأرضية .

ولكن لما كان المقصد الأول من هذه الآية الامتتان بذكر الليل والنهار دون الشمس والقمر ، لأن المقصد بيان وعاء النشاط والعمل ، وتحقيق الهدوء والسكن ، وذكرت الشمس والقمر في آيات أخرى للدلالة على عظيم القدرة والوحدانية لله تعالى بعيدا عن حاجة الإنسان . يقول الله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ ^(١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَشْكُرُونَ ۝ ﴾ أى إن الله وحده صاحب الفضل كله على الناس ، ولكن

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٦ .

أكثرهم لا يذكرون الفضل ، ولا يشكرون النعم ، وان ذكره بعضهم فهو ذكر بغفلة ونسيان .

﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ؟ ... أى إن الله هو الذى خلق لكم ما فى الكون ، وتفضل

عليكم بالنعم العديدة هو ربكم الخالق لكل شئ ، وهو الإله الواحد الأحد . فكيف لا تعبدونه وحده ؟ وتشركون معه غيره مع وضوح الدليل ، وثبوت البرهان على إنه إله واحد لا شريك له .

﴿ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِعَايَةِ اللَّهِ تَجْحَدُونَ ﴾ أى بمثل

إضلال أهل مكة المشركين أضل الذين كانوا على الشرك قبلهم ، لأنهم كانوا ينكرون آيات الله ، ويكذبون على أنفسهم ، وعلى رسل الله إليهم ، وعبدوا الأصنام التى لا تضر ولا تفيد .

ثم أخذت الآيات تعدد فى الآيات والنعم التى تفضل الله بها على الناس ليؤمنوا به ، ولا يكونوا من الأفاكين الكذابين ... وهذه الآيات هى :

(١) خلق الأرض والسماء :

يقول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ

بِنَاءً ﴾ أى هو الله الذى أوجد الأرض ، وأسكنكم فيها ، وجعلها لكم دون سائر المخلوقات مستقرا مع أنها كروية دائمة الدوران ، وجعل السماء فوقكم بناء مرفوعا مستقرا ﴿ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ ^(١) .

وخلق السماء والأرض هكذا لخدمة الإنسان فاعرفوا فضل الله عليكم .

(١) سورة النمل ، الآية ٨٨ .

(٢) تحسين صورة الإنسان :

يقول الله تعالى : ﴿ وَصَوِّرْكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ ﴾ أى هو الله الذى صوركم فأحسن صوركم ، وجعل لكم هامة منصوبة ، ووجها جميلا ، وجمع الجوارح فى الوجه لملاقات الناس ، والتعامل مع الخارج .

(٣) ضمان أرزاق العباد :

يقول الله تعالى : ﴿ وَرَزَقْكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يحتاج الإنسان ليعيش إلى طعام ، وشراب ، وحاجات عديدة ، وقد ضمن الله هذا فقدر رزقه ، وأوصله إليه بالقدر ، وبالوجه الذى يراه الله تعالى .

(٤) كمال العناية بالإنسان :

يقول الله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى إن الذى سخر لكم الكون ، وحسنكم ، ورزقكم ، هو ربكم الذى خلقكم ، وأحاطكم برعايته وعنايته ، وهو رب العالمين سبحانه وتعالى .

(٥) هو الإله المعبود بحق :

يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى هو الله الحى الذى لا يموت دون غيره من المخلوقات ، لا إله إلا هو ، فاعبدوه واتجهوا بالحمد والدعاء والتسبيح له سبحانه ، فله الحمد وحده فى الأولى وفى الآخرة .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْيَتِيمَتُ مِن رَّبِّي ﴾ أى قل يا أيها الرسول لمشركى مكة : إن الله نهانى أن أعبد أصنامكم وآلهتكم ، لأنها أسماء واهية سميتوها أنتم وآباؤكم ، وقد جاءتني

الأدلة ، والبراهين ، والآيات التى أنزلها ربى على ، وعلمت بها هوان ألهمتكم ، وضلالكم ، ولن أكون مثلكم .

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى وأمرنى الله أن أعبده وحده

وأخلص له ، فهو الواحد الذى أوجدكم أيها الناس أول مرة من التراب حين خلق أباكم آدم عليه السلام ، ثم خلق من آدم حواء ، ثم جعل منهما البنين والبنات فتزوجوا وتكاثروا ، وملاؤا الأرض شعوبا ، وقبائل ، وطوائف ، ومذاهب .

إن الله تعالى خلقكم أطوارا حيث بدأكم بالنطفة ، ثم صرتم علقة ، ثم استمر تطوركم فى بطون أمهاتكم حتى ولدتهم أطفالا ، وعشتم حتى صرتم شبابا وقوة ، وبعد ذلك امتد عمركم ، وصرتم شيوخا ، ومنكم من يأتية أجله خلال مسيرة العمر ، ومنكم من يبلغ أراذل العمر إلى أن يلقى الله تعالى .

والإنسان مع تطور صورة خلقته مكون من تراب ، لأن ماء الرجل وماء المرأة نتاج الدم المتولد من التغذى بالنبات الذى أصله التراب .

وفى ذكر تطور الإنسان ، وانتقاله من طور إلى طور إشارة إلى عدد من الحقائق ... منها :

(١) إن هذا التطور قدر إلهى محض لا يدري إنسان ما ، مهما بلغ علمه بداية كل مرحلة ، ونهايتها على وجه الدقة ، ولا يستطيع أن يحدد الطور الذى تتوقف فيه الحياة والنمو لمخلوق معين ، والكل يسلم الأمر لله فهو العليم الخبير ، فمن الناس من يموت فى بطن أمه ، ومنهم من يأتية أجله طفلا ، أو شابا ، أو شيخا ، أو هرما : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ^(١) .

(١) سورة لقمان ، الآية ٣٤ .

(٢١٣)

(٢) تطور الإنسان ، وانتقاله من حالة لحالة غيرها ، وتنقله من العدم إلى الوجود ، ومن الحياة إلى الموت دليل على كمال قدرة الله تعالى ، وامكانية وقوع البعث والحشر والحساب والجزاء .

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ ۗ ﴾ أى إنى أمرت أن أعبد الله وحده فهو يحيى ويميت ، وقضاؤه هو القضاء ، وإذا أراد شيئاً قال له : كن ... فيكون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أمر رسوله أن يخصه بالدعاء والعبادة ، ويترك المستكبرين عن عبادة الله لأن مصيرهم جهنم ، وأمره أن يعرف فضل ربه فهو الذى خلق الليل والنهار ، وجعل الشمس والقمر ، وصور وأحسن التصوير .

وتوضح الآيات أن المشركين كاذبون جاحدون وهم يعبدون الأصنام ، فهم ينسون أن الله جعل الأرض قراراً والسماء بناء ، ورزق عباده جميعاً ، فله الحمد والتسبيح ، والعبادة المخلصة ، وهو رب العالمين .

وقد نهى الله رسوله عن عبادة غير الله ، أو التوجه إليه ، وأن يسلم الأمر كله لله ، فهو الذى خلق الإنسان فى أطوار شتى ، وهو الذى يحيى ويميت ، واليه المرجع والمآب .

(٢١٤)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الاتصال الدائم بالله أساس الفلاح

لو تدبر الإنسان فى نفسه ، وطاقاته ، وملكاته لعلم حاجته لله تعالى فهو محدود فى المكان ، والزمان ، والعلم ، والتصور وهذه المحدودية دليل عجزه فهو فى المكان لا يدرى إلا المكان الذى يوجد فيه . أما ما بعد عنه فهو لا يدرى عنه شيئا إلا إذا أخبر به ، ومحدودية الزمان تجعله لا يعلم ما مضى ولا يعلم ما سيأتى ، وهو فى العلم لا يعلم إلا ما تعلم ، ... وهو فى التصور يعود لذاكرته ، ويتخيل المجهول كالمعلوم ، ويفهم المستقبل على ضوء مشاهداته مع احتمال تغييره تغيرا كليا .

هذه المحدودية البشرية تؤكد حاجة الإنسان لله تعالى فهو سبحانه وتعالى لا يحده أى شأن من شئون المادة ... وكل ما خطر ببالك من صور فهو على خلاف ذلك بوجه من الوجوه .

ومن هنا ...

كانت حاجة الإنسان إلى الله ليعينه ، ويوفقه ، وصور اتصال الإنسان بالله عديدة ، ومنها الدعاء الخالص الذى ينادى فيه العبد ربه ، وقد وعد الله بالاستجابة لمن صدق فى إيمانه ، واعتمد على ربه ، ولجأ إلى الله .
إن الإنسان يعيش فى كون الله تعالى ، ويستفيد به ، ويجب عليه أن ينظر فيه ، ويتدبر ليشكر الله على أفضاله ونعمه .

(٢١٥)

فالليل والنهار آيتان من آيات الله تعالى يعيشها الناس ، وعليهم أن يشكروا الله عليهما .

وآيات الله عديدة منها خلق الأرض ، وجعلها سكنا ، ومفرا ، وخلق السماء ، وجعلها سقفا وبناء ، وخلق الإنسان فى أطوار متعددة ، ووضع فى صورة جميلة ، وامداده بكل حاجاته ، وضرورات بقائه فى الدنيا ... وهو سبحانه الخالق لكل مخلوق ، الموجد لكل موجود ، وحاجة العباد إليه دائمة .
وواجب المؤمن أن يعيش مع الله دائما ، يذكره ، ويشكره ، ويعبده ، ويدعوه ، والله سميع عليم .

الركيزة الثانية

البعث حق لا ريب فيه

عمر الدنيا قصير ، ونهايتها مؤكدة ، وبعدها تكون الآخرة الحقيقة المؤكدة التى جعل الله الإيمان بوقوعها ركنا أساسيا فى الإيمان .
وقدرة فى الخلق تؤكد قدرته سبحانه وتعالى على إيجاد ما وعد به ، وهو سبحانه يوجد أى شئ بقوله : ﴿ كُنْ ﴾ وعلى الناس أن يستعدوا للآخرة بالإيمان والعمل الصالح .

مصير المكذبين الجاحدين

يقول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ ﴾ ٦٦ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ٦٧ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۖ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۖ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيُّنَا مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ۖ ﴿ ٦٨ ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُن نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ ٦٩ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ۖ ﴿ ٧٠ ﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ٧١ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۖ ﴿ ٧٢ ﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِغَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ۖ ﴿ ٧٣ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بين الله في الآيات السابقة ما أمر الله به رسوله من التقوى والعبادة ليكون قدوة لغيره جاءت هذه الآيات لإظهار التعجب من المجادلين الذين لا يستفيدون بدليل ، ولا ينتفعون بقدوة .

(٢١٧)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات التعجب من الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل ، وتوضح
المصير الذى سيأول إليهم حالهم فى الآخرة ، وتحث الآيات رسول الله على
الصبر والتحمل ، وتعرفه أن عذاب الله محيط بالمشركين فى وقت يقدره الله
تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تُجَادِلُونَ فِيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ ﴾ ؟ ...

الاستفهام للتعجب ، أى ألم تشاهد وتتعجب من حال هؤلاء المكابرين الجاحدين
الذين يخاصمون فى آيات الله ، ويجادلون بغير حق ، كما تتعجب من
انصرافهم عن الإيمان مع تعاضد الدواعى على الإقبال عليه ، وانتفاء الصوارف
عنه ، وقيام الأدلة على صحته .

ثم بينت الآيات صفات الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل وهى .

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ﴾ أى هم الذين

كذبوا بالقرآن الكريم ، وبجميع رسل الله ، وبما دعوا إليه من إخلاص العبادة له
سبحانه وتعالى ، وضرورة البراءة من الأصنام والشركاء .

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١٥٦٦ ١٥٦٧ ١٥٦٨ ١٥٦٩ ١٥٧٠ ١٥٧١ ١٥٧٢ ١٥٧٣ ١٥٧٤ ١٥٧٥ ١٥٧٦ ١٥٧٧ ١٥

جلودهم وعروقهم ، وأجسادهم ، ولحومهم ، وتشتعل النار بهم ، وتستمر إقامتهم فى وهجها كما يشاء الله لهم .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيُّنَا مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ (١) مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ ...

السؤال للإنكار والسخرية لأنهم كانوا يزعمون أن الأصنام التى يعبدونها ستشفع لهم ، وتتقذهم من عذاب النار ، فلما ألقوا فى النار سئلوا عن أصنامهم وكيف أنهم صانعوها . وما سبب اتخاذها آلهة ؟ ولم عبدوها من دون الله تعالى ؟ ولم أشركوها مع الله فى الألوهية ؟

﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ أى يقول

عبدة الأصنام : غابت عنا الآلهة التى عبدناها ، لأننا لم نر صنما أو وثنا ينصرنا ويشفع لنا ، وتبين لنا أننا لم نكن نعبد إلها حقيقيا ، وتأكدنا أن الأصنام ليست بشئ ، وقد وضعناها فى غير موضعها ... ومنه قوله تعالى : ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴾ (١) . وقول النبى ﷺ : "الكهان ليسوا بشئ" (٢) .

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ أى كما أضل الله المشركين فأعمى

أبصارهم ، وجعل مأواهم النار يضل الله الكافرين الذين لا يؤمنون بالله تعالى فى كل مكان وزمان .

﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ

تَمْرَحُونَ ﴾ أى سبب هذا الإضلال هو فرحهم الذى عاشوا به فى الدنيا ، فلقد كانوا يعبدون الأصنام ، ويشركون بالله تعالى ، ويبغون ، ويظلمون .

(١) سورة المائدة ، الآية ٦٨ .

(٢) جامع معمر بن راشد . باب الكاهن ج ١١ ص ٢١٠ .

﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

أى يقال للمشركين : ادخلوا جهنم من أى أبوابها السبعة التى قسمها الله لكم ، وامكثوا فيها فهى مأوى لكم ، وفيها مقامكم .

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى فاصبر يا محمد ، ولا تحزن على

جحد المشركين ، وتيقن من نصر الله تعالى ، فوعد الله حق ، وقد أعد الله للكافرين نار جهنم ، وقضى عليهم بالعذاب والهزيمة فى الدنيا والآخرة .

﴿ فَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا يُرْجَعُونَ ﴾ أى

إن الله وعدهم بالخزى والهزيمة فى الدنيا ، ووعد الله لا يتخلف فتيقن من لحوق العذاب بهم سواء نزل العذاب بهم وأنت حى كما حدث فى يوم " بدر " ، أو سينزل بهم بعد وفاتك ، وقد وقع .

﴿ فَإِنَّمَا يُرْجَعُونَ ﴾ أى وسوف يرجع المشركون إلى الله تعالى ليجازيهم

ويعاقبهم بالعذاب الأليم فى الآخرة .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ

مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ أى أرسلنا رسلا عديدين قبلك منهم من قصصناهم

فى القرآن الكريم ، ومنهم من لم يأت ذكرهم فى القرآن الكريم .

وعدد الرسل المذكورين فى القرآن الكريم خمسة وعشرون رسولا جمعها

بعضهم فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية .: من بعد عشر ويبقى سبعة وهم

إدريس ، هود ، شعيب ، صالح ، وكذا .: ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

وأما عدد الأنبياء فقد سأل أبو ذر رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن عدد الأنبياء .

فقال : يا رسول الله كم عدة الأنبياء ؟

(٢٢٠)

قال ﷺ : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولا^(١) .

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى لم يأت رسول بعثه الله تعالى بآية من عنده ، ولم يقل قولاً من قبل ذاته ، وإنما بلغ الوحي المنزل ، وقدم الآيات والبراهين التى جاءت من عند الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾^(٢) .

وقد طلب كفار مكة معجزات خاصة فلم يستجب لهم الرسول ، وعرفهم أنه عبد أرسله الله ، وما عليه إلا البلاغ المبين ، وقال لهم ما حكاه الله تعالى فى قوله : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾^(٣) .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ أى فإذا جاء الموعد ، ووقعت الساعة فإن الله يقضى بين الناس بالحق ، ويفوز المؤمنون بالجنة ، ويخسر المفترون الكاذبون الجاحدون ، الذين عملوا على إزهاق الحق ، واحقاق الباطل ، والله من ورائهم محيط .

- ٤ -

معنى الآيات

تتعجب الآيات من هؤلاء الجاحدين الذين يجادلون فى آيات الله بالباطل وتساءل عن سبب انصرافهم عن الحق مع ثبوته ، وقوة براهينه .

(١) المستدرک على الصحيحين للحاكم . كتاب تواریخ المتقدمین ج ٢ ص ٦٥٢ .

(٢) سورة الحاقة ، الآيات ٤٤ . ٤٧ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٩٣ .

(٢٢١)

ولا عجب فى انصراف المشركين عن الحق فقد كذبوا بالقرآن الكريم ، وبالوحي ، وبالدين الذى جاء به الرسل جميعا .

وتبين الآيات أن الله سيعذبهم فى الآخرة ، ويضع فى أعناقهم سلاسل الحديد التى يسحبون بها ، ويدخلون جهنم المشتعلة لتحرق أجسادهم ، وعظامهم ، وسيسخر الله منهم ويسألهم عن آلهتهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ، وعن موقفها من عذابهم ... فيقررون بأنهم غائبون ، وأنهم ليسوا بشئ ولا قيمة لها .
إن الله يضل الكافرين بسبب إقبالهم على الكفر وهم فرحون ، ويسوقهم إلى الجحيم رغم أنوفهم .

وتحت الآيات الرسول ﷺ إلى الصبر والتحمل ، واليقين بأن عذاب الله سيلحق بالمشركين فى حياة النبي ﷺ كما حدث فى غزوة "بدر" ، أو بعد وفاته ﷺ وتأمره أن يقوم بما أمر الله به الرسل ، فقد أمرهم جميعا أن يلتزموا بما أوحى إليهم ، وفى يوم القيامة ستنال كل نفس ما تستحق .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

خزي المشركين وهوانهم

لا يخجل الكافرون من سفههم ، وشركهم ، وعبادتهم أصناما ، وأوثانا من دون الله تعالى فهم يجادلون عنها ، ويخاصمون المؤمنين من أجلها فى الدنيا .
وفى يوم القيامة ستظهر الحقيقة ، وينال المشركون جزاءهم فلقد كذبوا بالكتب المنزلة ، وبالرسل الذين أرسلوا إليهم . ولذلك توضع السلاسل فى

(٢٢٢)

أعناقهم ، وتجرحهم الملائكة جرا إلى جهنم كالبهائم ، ليقيموا فيها ... ثم يسخر الله منهم ، ويسألهم وهم يعذبون عن الأصنام التي عبدوها ، ولم لم تأت لمساعدتهم ، والدفاع عنهم ؟ ... فيقولون بأن هذه الآلهة لا قيمة لها وقد كفروا بها بعدما رأوا العذاب ... فيستمر عذابهم على ما فعلوا ، ولا قيمة لتبرئتهم منها ، فقد مضى وقت العمل ، وجاء وقت الجزاء والعقاب .

الركيزة الثانية **أهمية الانعاط بالآخرين**

فى أحداث الناس دروس وعبر ، يعيش بها البعض ، ويراهم الآخرون وعليهم أن يأخذوا منها الدروس والعبر ... وخير الناس من انعظ بغيره ، واتخذ من الماضى دروسا للحاضر والمستقبل .

إن الأمم الماضية تقدم تجارب عملية للناس ليعيشوا أحداثها ، ويأخذوا من أحداثها دروسا لحياتهم ، وعبرا لنشاطهم ، وأخلاقهم ، ويستعدوا للآخرة بإيمانهم وعملهم .

آيات الله التي خلقها الله للناس وجعلها براهين للإيمان

يقول الله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَتْعَمَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٦﴾
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ
تَحْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ وَيُريْكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٧٨﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ
مُشْرِكِينَ ﴿٨١﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ
فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلال الكافرين ، وجدلهم الباطل في الحق
جاءت هذه الآيات لبيان الأدلة والبراهين الدالة على قدرة الله تعالى ، وتوضيح
العذاب المعد للكافرين الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة .

(٢٢٤)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أنعم على الناس بما خلق لهم فى كونه الواسع ، وتوجه إلى النظر فى سير الأمم السابقة للاعتبار والعظة فقد أهلكهم الله على كفرهم وضلالهم ، وتبين الآيات أن المشركين يحاولون التوبة بعد رؤيتهم للعذاب بعد فوات قوته ، ولذلك لا يستجيب الله لمحاولاتهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالأنعام فى الآية الإبل لذكر جعلها للركوب ولا مانع من أن يكون المراد بها جميع أنواع الأنعام ليتخذ الناس بعضها للركوب ، وبعضها للأكل ... وهكذا .

ومعنى الآية أن الله خلق الأنعام للناس ليركبوها إلى أماكن بعيدة يسافرون بها ، ويأكلون لحمها ، ويستفيدون بوبرها ، وشعرها ، وجلودها ، وتلك نعمة من الله تعالى تدل على قدرته ، وكمال صفاته ، واستحقاقه أن يعبد وحده .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أى ولكم فى الأنعام منافع أخرى غير الركوب

والأكل كالإتجار ، والإكثار .

﴿ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴾ أى ولتتمكنوا من فعل أشياء

تريدونها من الأنعام مثل شرب لبنها ، واستخدامها فى الحرث .

﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ أى وتحملون أثقالكم على الأنعام

وعلى السفن فى البحر .

﴿ وَبُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ ؟ ... أى إن آيات الله كثيرة بالغة ، وقد أراها الله للناس ، ودعاهم إلى الاعتبار بها فأنكرها الجاحدون ، ولذلك سألهم :

أى الآيات تتكرون ؟

وأى الآيات تجدون أن إنكاركم لها واقع مقبول ؟

وهذا سؤال إنكارى لأن آيات الله بينة واضحة لا يمكن إنكارها ، وجحودها وابطالها .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى أقعدوا وجعلوا ولم يسيروا فى الأرض بأرجلهم وعقولهم ، ويتأملوا فى أخبار وآثار الأمم السابقة ، وما حصل لها من هلاك دمر سلطانهم ، وقوتهم ، وكسبهم ، وكانوا أشد من مشركى أهل مكة قوة ، وبأسا ، وسلطانا ، ولم يدفع عنهم العذاب ما كانوا فيه .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى أن الأمم السابقة جاءهم الرسل بالمعجزات والبراهين فكفروا بدعوتهم ، وفرحوا بما عندهم من الشبهات والمزاعم ، وتمسكوا بها ، وبقوا على استهزائهم بالرسل وبآيات الله تعالى حتى جاء وعد الله فأهلكهم ، ودمرهم وأحاط بهم العذاب الأليم .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ أى فلما عاين المشركون عذاب الله تعالى فى الآخرة أعلنوا

(٢٢٦)

إيمانهم بالله ، وكفروا بمعبوداتهم الباطلة ، وآلهتهم المزعومة بعدما تبين لهم أن الأصنام والأوثان لا تصلح أن تكون آلهة .

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَاسَنَا ﴾ أى إن إيمانهم بعدما

رأوا العذاب فى الآخرة لا يفيد شيئاً ، ولا يقبله الله تعالى .

﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾

أى جرت سنة الله فى عباده أنه لا توبة بعد معاينة العذاب عند الحساب ، وفى يوم القيامة يفوز المطيعون ، ويخسر المبطلون .

والآية دعوة لأهل مكة ليعتبروا بمن سبقهم من الأمم ، ويبتعدوا عن عملهم ومصيرهم ، ولا يكونوا أمثالهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله خلق لكم الأنعام لتركبوها ، وتأكلوا لحمها ، وتنتفعوا بها كما تريدون ... وهداكم إلى صناعة السفن لتركبوا البحر بها ، وتنقل أحمالكم بواسطتها ، ويرىكم الله آياته الحق ، فأى منها تتكرون أيها الجاحدون ؟ ... حيث لا وجه للإنكار ...

وتأمر الآيات الناس أن يتدبروا فى أحداث الأمم السابقة ليأخذوا منهم العبر فقد أهلكهم الله تعالى بسبب كفرهم وضلالهم .

ومن سنة الله أنه لا توبة بعد الموت ، ولا إيمان بعد رؤية العذاب فلإيمان والعمل وقتها ، وللعقوبة والجزاء وقتها .

(٢٢٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حسن اختيار البراهين من واقع الناس

أرسل الله رسله للناس ، وأنزل الكتاب بالحق ، وأنزل فى الكتاب الآيات والحجج التى يعيشها الناس ، ويلمسونها ، وينتفعون بها ... ومن دقة اختيار هذه الآيات أن سائر الناس يرونها ، ويستفيدون بها ، ولا يمكن لأحد إنكارها ، أو يدعى إيجادها ... من هذه الآيات الأنعام التى يأكل الناس لحمها وينتفعون بوبرها ، وجلدها ، وشعرها ، وركوبها وينتقلون بها إلى الأماكن البعيدة وهى مركب البر ، كما أن السفن هى مركب البحر .

إن العاقل ينظر فى هذه الآيات ، وعليه أن يعرف الله بها لأنه هو الذى أوجدها ، وذلّلها للناس ، وهداها لما أوجده لها .

إن هذه نعم الله للناس ... ويمكن للإنسان أن يتصور وجوده يدونها وحينئذ سيعلم قيمة خلقها ، ويقدر من خلقها له .

وآيات الكون كلها على هذا التقدير ، ولو نظر الإنسان إليها تفهم ، وتدبر لآمن بالله وتعالى ، وقال : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾^(١) .

ومن إعجاز القرآن اختيار البراهين التى يعرفها الناس ويستفيدون بها ، فالأنعام لها صلة بسائر الناس ، يشربون لبنها ، ويأكلون لحمها ، ويستفيدون

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ .

بعملها فى الزراعة ، والتجارة ، والصناعة ، وكذلك البحر ، وسائر آيات الله فى النفس ، وفى الآفاق .

الركيزة الثانية وقت التوبة المقبول

التوبة هى ترك الذنب ، والرجوع إلى الله تعالى ، وتسديد حقوق العباد وكراهية المعاصى ، والعزم الأكيد على الاستقامة منهج الله تعالى .

والتوبة من قيم الإسلام العظيمة لأنها تتعامل مع إنسان له فطرته وغرائزه ، وفيه روحه وشهوته ... وهى تنقذه من خطأ قد يقع فيه وتفتح باب الرجوع إلى الله ، والتطهير من الذنوب والمعاصى . يقول الله تعالى : ﴿ يَتَّأَيُّبُ الَّذِينَ

ءَامَتُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ (١) .

وقد حدد الله لقبول التوبة وقتا ، وهو حياة الإنسان فى الدنيا أما إذا انتقل الإنسان إلى الله بالموت وفى آخر الدنيا يغلق الله باب التوبة ، ويكون الحساب والجزاء ، وتلك سنة الله فى الناس التى لم تتبدل ، ولن يتغير .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "غافر" بتوفيق الله تعالى .

(١) سورة التحريم ، الآية ٨ .

سورة "فصلت"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٢٣٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٣١)

- أولا -

التعريف بسورة "فصلت"

سورة "فصلت" سورة مكية بالإجماع كسائر سور "آل حم" نزلت بعد سورة "غافر" .

وتتصل سورة "فصلت" بسورة "غافر" من عدة أوجه ... منها :

(١) تشترك السورتان في تهديد قريش ، وتقريعهم فقد توعدهم الله تعالى وهو يأمرهم بالنظر في مصير الأمم السابقة في سورة "غافر" فقال تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(١) ، وقال في سورة "فصلت" : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾^(٢) .

(٢) أن السورتين بدأتا وصفا حسنا للقرآن الكريم . ففي سورة "غافر" . يقول الله تعالى : ﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ ﴾^(٣) وفي سورة "فصلت" . يقول الله تعالى : ﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ ﴾^(٤) .

وللسورة أسماء عديدة ... أهمها :

(١) تسمى السورة بسورة "حم السجدة" لأنها السورة الوحيدة من سور "آل حم" التي جاءت فيها سجدة التلاوة وتمييزا لها عن سورة "الم السجدة" .

(٢) سورة فصلت ، الآية ١٣ .

(١) سورة غافر ، الآية ٨٢ .

(٤) سورة فصلت ، الآيات ٣ ، ١ .

(٣) سورة غافر ، الآية ١ ، ٢ .

(٢) وتسمى بسورة "فصلت" لوقوع كلمة ﴿فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ فيها وحدها .

(٣) وتسمى السورة بسورة "المصاييح" لقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ
الْدُّنْيَا بِمَصَاصِيحَ﴾^(١) .

(٤) وتسمى بسورة "الأقوات" لقوله تعالى : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾^(٢) .

(٥) وتسمى السورة بسورة "سجدة المؤمن" تمييزا لها عن سورة "ألم السجدة" .
وموضوعات سورة "فصلت" هي موضوعات السور المكية ، ولذلك نرى
في السورة حديثها عن أركان العقيدة .

فتحدثت عن الله وصفاته ... يقول الله تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا أَمْرًا لَكُمْ لَتَكْفُرُونَ
بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) .

وتحدثت السورة عن الرسل والرسالات ... يقول الله تعالى : ﴿مَا يُقَالُ
لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(٤) .

وتحدثت السورة عن اليوم الآخر ... يقول الله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ
أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٥) .

وتحدثت السورة عن الكتب السماوية ... يقول الله تعالى : ﴿كَتَبَ
فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٦) .

(١) سورة الملك ، الآية ٥ .

(٢) سورة فصلت ، الآيات ٩ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ١٩ .

(٤) سورة الملك ، الآية ١٠ .

(٥) سورة فصلت ، الآية ٤٣ .

(٦) سورة فصلت ، الآية ٣ ، ٤ .

وتحدثت السورة عن الملائكة ... يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾^(١) .

وقد وضحت أساليب السورة هذه الموضوعات بطرق مؤثرة ، وبلغت .
ولأوائل السورة دور في الدعوة إلى الله تعالى . فقد رد الرسول ﷺ على أهل مكة بقراءتها .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : "اجتمعت قريش يوما فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليكلمه ولينظر بم يرد عليه ؟ فقالوا : ما نعم أحدا غير عتبة بن ربيعة ... فأرسلوه إليه . فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، قال عتبة : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك ، أما والله ما رأينا أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا وكاهنا ، يا رجل إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا ، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا .

فقال رسول الله ﷺ : فرغت ؟

قال عتبة : نعم .

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٠ .

(٢٣٤)

فقال رسول الله ﷺ : "بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حَمْ ﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾ . حتى بلغ . ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴾ .

فقال عتبة : حسبك حسبك ، ما عندك غير هذا ؟
قال ﷺ : لا .

فرجع عتبة إلى قريش .

فقالوا له : ما وراءك ؟

قال : ما تركت شيئا أرى أنكم تكلمونه به إلا كلمته ، والذي نصبها بنية (يريد الكعبة) ما فهمت شيئا مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .

قالوا : ويليك يكلمك الرجل بالعربية وما تدري ما قال ؟

قال : لا والله ما فهمت شيئا مما قال غير ذكر الصاعقة^(١) .

فعلموا من ذلك أن دين محمد حق ، وشأنه إلى علو ونصر ... إلا أنهم كابروا ، واستمروا على الكفر والضلال .

(١) مصنف ابن أبي شيبة . كتاب المغازي . باب في أذى قريش للنبي ﷺ ج ٧ ص ٣٣٠ ،
والمستدرک على الصحيحين للحاكم . كتاب التفسير . باب من كتاب قراءات النبي ﷺ ج ٢
ص ٢٧٨ .

(٢٣٥)

- ثانيا -

- التفسير -

بيان عظمة القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

توضح الآيات وجوها لإعجاز القرآن الكريم ، وتبين أنه مع إعجازه مركب من الحروف التى يتكلم بها العرب ، وقد فصل الله فيه الآيات ، وأمر بقراءتها وحفظها ، والعلم والعمل بها ، وقد اهتدى بها المخلصون ، وأعرض عنها الجاحدون .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ حَمْدٌ ﴾ بدأت السورة بهذين الحرفين "الحاء والميم" يقرأهما القارئ مقطعتين لتأكيد صورة التلقى التى انتقل بها القرآن الكريم من الله ، إلى جبريل عليه السلام ، إلى رسول الله ﷺ ليستمر تواتره بنفس النطق الذى نزل به .

وأيضاً ليعلم الناس أن الحروف المقطعة دليل موجز ، وقوى على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، ولإفادة تنبيه المستمع إلى أهمية الآيات التي تأتي بعد الحروف المقطعة ، وقد سبق تفصيل ذلك .

﴿ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ بيان لرحلة القرآن الكريم الأولى ، فهو تنزيل هام صادر من الله تعالى ، حمله جبريل عليه السلام بأمر الله ، وأوصله إلى محمد ﷺ بلفظه ومعناه ، مع تأكيد رعاية الله لكلامه بحفظه مع الناس لفظاً ومعنى . يقول الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۚ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۚ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۚ ﴾ (١) .
و ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ مصدر بمعنى اسم المفعول ، فهو منزل من الله تعالى ... بدأت السورة بذلك لبيان أن القرآن الكريم موحى به ، وليس هو من أساطير الأولين ، وليس من كلام البشر .

والقرآن الكريم منزل من عند الله بلفظه ومعناه ، ولذلك وجب التعبد بقراءته مجوداً ، وتدبر معانيه مفصلاً ، والعمل بأوامره ونواهيه إيماناً وطاعة .
﴿ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أى إن مصدر القرآن الكريم هو الله ، فهو كلامه ، واختارت الآية صفتي ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ لبيان ما فى القرآن الكريم من نعمة عظمت للناس ، لأن الخلق فى هذا العالم كالمرضى والمحتاجين يحتاجون للوقاية والعلاج .

والقرآن الكريم يشتمل على ما يحتاجه الأصحاء ليكونوا صالحين ، وعلى ما يحتاجه المرضى ليسلموا ، ويؤمنوا بالحق ، ويتركوا الكفر ، ويخرجوا من الظلمات إلى النور .

(١) سورة القيامة ، الآيات ١٦ . ١٩ .

وفى ذكر هاتين الصفتين مع القرآن الكريم بيان بأن الذين بعدوا عن هدى القرآن الكريم قد بعدوا عن الرحمة أيضا ، وأن الذين استقاموا على منهجه ، وتمسكوا بتعاليمه هم أهل الرحمة .

﴿ كِتَابٌ ﴾ أى أن القرآن الكريم جامع لكلمات الله تعالى ، فهو كتاب جمع علوم الأولين ، وآخرين ، وضم فى ثناياه تعاليم خير دين .

﴿ فَصَّلَتْ ءَايَاتُهُ ﴾ التفصيل هو البيان الخالى من الغموض والخفاء وهو الدقة البعيدة عن الاختلاف والتعارض .

وأوضح ما فى القرآن الكريم من تفصيل هو أسلوبه المشتمل على المعانى الكثيرة الموجودة فى الألفاظ الفصيحة ، والتراكيب البليغة ، والمحسنات البديعة .
وحين نتأمل فى تفصيل القرآن الكريم نجد بعضها فى وصف ذات الله تعالى ، وشرح صفات التنزيه والتقديس ، وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، وعجائب أحوال خلقه السموات والأرض والكواكب ، وتعاقب الليل والنهار وعجائب أحوال النبات والحيوان والإنسان .

ونجد بعضها فى أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ، ونحو الجوارح .
ونجد بعضها فى الوعد والوعيد والثواب والعقاب ، ودرجات أهل الجنة ودرجات أهل النار .

ونجد بعضها فى المواعظ والنصائح ، وتهذيب الأخلاق ، ورياضة النفس ، وقصص الأولين ، وتواريخ الماضين .

وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس فى يد الناس كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتباينة مثل ما فى القرآن الكريم .

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ أى أنزل الله القرآن الكريم فى أمة العرب ليقرأوه بلغتهم ، ويفهموا معانيه ، ويدركوا مقاصده ومرامييه .

وفى تسمية كلام الله بالقرآن بيان لسهولة التلفظ به ، وسهولة تلاوته ، وسهولة حفظه ، وقد حفظه رسول الله ﷺ وحفظه كثير من الصحابة ، ومنازل المسلمين فى الدنيا والآخرة بقدر ما حفظوا من القرآن الكريم .

﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى إن هذا القرآن نزل لقوم يعلمون الخير ، ويحرصون عليه . أما غيرهم فلا يستفيدون به ، ويعرضون عنه فكأنه لم ينزل لهم .

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى أنزل الله القرآن الكريم لتبشير المؤمنين الطائعين وإنذار الجاحدين الضالين .

﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أى أعرض أكثر أهل مكة عن القرآن الكريم فسمعوا البشارة وأنكروها ، وسمعوا النذارة ولم يخافوا منها .

﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ أى فأكثر أهل مكة لم يستفيدوا بسماع القرآن الكريم ، ولذلك عد سمعهم كالعدم سواء بسواء ، وقد علل المشركون أسباب إعراضهم عن القرآن الكريم وعدم استفادتهم منه بما يلى :

(١) انغلاق عقولهم : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ أى

إن عقولنا وضعت فى أغطية منعتهما من الفهم والإدراك ، فهى لا تفهم ما يقال لها ، ولا تدرك دلالة ما ترى ، ولا تستفيد من المعجزات والآيات البينات شيئا ، ولا تعقل معنى ما تدعى إليه .

(٢) صمم السمع : ﴿ وَفِيَّ أَذَانِنَا وَقَرْءٌ ﴾ أى قال المشركون : فى أذاننا ثقل

وضع فيها فأصمها ، ومنعها من استماع ما تدعى إليه .

(٣) وجود حواجز بينهم وبين محمد ﷺ : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ﴾ أى

يوجد بينا وبينك يا محمد حواجز تمنعنا من رؤيتك ، وسماع دعوتك وتفهيم رسالتك .

وهذه الأسباب تشير إلى أن نفرة المشركين من القرآن الكريم بدأت بعقولهم ، لأن العقول محل المعرفة ، والقيادة ... وتقوم الجوارح بإمدادها بالمشاهدات الحسية ... وقول المشركين بوجود الحجاب يعنى أن أسماعهم وأبصارهم لم توصل للعقول شيئا من مداركها ، ووضعاء بذلك فى عزلة عن المعارف والحقائق .

﴿ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ﴾ لما بين المشركون حالهم بالأسباب المذكورة

أمروا رسول الله ﷺ أن يعمل لدينه ، وينصره ضد معارضيه لأنهم عاملون لنصره الأصنام ومعارضة من يخالفها .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم معجزا بلفظه ومعناه ، لإصلاح البلاد والعباد ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وجعله كتابا ، مفصلا وأنزله بلغه العرب ، وأمر بكتابته وقراءته ، وقد حفظه الله مع الناس ليبقى داعيا لله تعالى ، ومبشرا ونذيرا ، وقد عارض أهل مكة القرآن الكريم ، ووضحوا أن عقولهم لا تعى ، وأذانهم لا تسمع ، وأبصارهم لا ترى ، ولما دعاهم رسول الله إلى الإسلام عارضوه ، وقالوا له : ليعمل كل منا على دينه وينصره .

(٢٤٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الخصائص العامة للقرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله على رسول الله ﷺ هاديا للحق ، ومبشرا ، ونذيرا ، ومخرجا للناس من الظلمات إلى النور .

وتشير الآيات إلى بعض خصائص القرآن الكريم ... وأهمها :

(١) أنه منزل من عند الله تعالى ، مصون من الزيف والريب ، والتناقض ، والاختلاف ، والإيمان بهذه الخاصية ركن من أركان العقيدة الإسلامية تلزم المؤمن بتعظيم شأن القرآن الكريم ، فهو رسالة الله إلى جميع الناس ، كما تحتم عليه أن يلتزم بما نزل القرآن به من عقيدة ، وشرعية ، وأخلاق .

(٢) إنه دعوة للتراحم بين الناس ، لأنه بيان لصفات الله الذي أنزله فكل ما في القرآن الكريم يدعو إلى الألفة ، والتماسك ، والمودة بين الناس جميعا ، ومع سائر المخلوقات .

إن القرآن الكريم يأمر بالعدل والإحسان ، ويدعو إلى الاستقامة ، ويحقق الأمن والسلام .

(٣) إنه يتميز بدقة أحكامه ، ووضوحها ، بلا خفاء أو ستور ، فمن قصده ليعلم علم ... ومن استفاد به للحكم والقضاء عدل ... فأياته مفصلة في دلالتها ، متطابقة مع الحق والواقع ، بينة في معانيها وفصاحتها .

(٢٤١)

(٤) إن القرآن الكريم نزل بلغة من نزل إليهم أولا ، فقد نزل القرآن الكريم فى مكة ليخاطب العرب لأنه لو نزل بغير لغة العرب ما فهمه أحد ، ولاستمر للعرب عذر فى الكفر والضلال .

(٥) إن القرآن الكريم يهذى من يدرك الأمر ، ويعلمه ، أما من لا يدرك ولا يعلم فلن يعلم نور القرآن ، ولن يهتدى بهداه ... إن القرآن الكريم يخاطب العقل السوى ، ويقبل الحوار والمناقشة ، ويعتمد على العلم فى الوصول لل غاية ليتم الإيمان بالإسلام على بينة وعلم .

(٦) يخاطب القرآن الكريم عباد الله تعالى ، ويدعوهم إلى دين الله تعالى بمنهج واضح يعتمد على التبشير والإنذار ليبشر الطائعين بالجنة ، وينذر المخالفين بالنار .

هذه أهم خصائص القرآن التى أشارت إليها الآيات .

الركيزة الثانية

الدعاة وخصائص القرآن الكريم

يجد الدعاة منهجهم الدعوى فى القرآن الكريم ، ولذلك حسن لهم أن يستقيموا على عبره وتوجيهاته .

ومن الحسن توضيح موضوع الدعوة ، وتقصيله ، وإثباته بالدليل والبرهان ، وأن يكون الخطاب بلغة المدعويين ليتم الفهم والإقناع .

ومن خطاب الدعوة الترغيب والترهيب من خلال العرض المباشر ، أو من خلال القصص القرآنى ، أو بإيراد الأحداث والوقائع التاريخية .

ويجب على الدعاة أن يستعدوا لمواجهة خصومهم نظريا وعمليا ، وذلك يكون بسعة العلم ، وسرعة البديهة ، وشجاعة المواجهة .

(٢٤٢)

إن الدعوة هي الوجه الحركي لدين الله بين الناس ، والدعاة هم جنودها القائمون بها ... ولذلك يجب أن يعدوا أنفسهم ليكونوا دعوة عملية ونظرية فى وقت واحد .

ويمكن للدعاة الاستفادة من كافة وسائل الاتصال بالناس ، والتحرك للأفراد ، والجماعات ، والجماهير فى قوالب معينة .
ومما ييسر نجاح عمليات الاتصال أن العلماء المهتمين بالدراسات الإنسانية وضعوا أسس التأثير ، وقواعد الاتصال .
ومسئولية الدعاة هامة ، ولذلك يجب عليهم الاستعداد التام للدعوة إلى الله تعالى .

الركيزة الثالثة

طمس المدارك عند خصوم الإسلام

يقوم الإسلام على الحق والعدل ، ويخاطب العقل والضمير ...
ولو أنصف الناس لدخلوا فى دين الله أفواجا ... إلا أن خصوم الإسلام بعدوا عن الانصاف ، ولجأوا إلى الرفض بلا دليل ... فأعرض أكثر المشركين عن الاستماع إلى القرآن الكريم ، فلم يدركوا معناه ، ولم يتدبروا فى آياته ودلالته فأصموا آذانهم ، ووضعوا عقولهم فى صناديق مغلقة فهى لا تفهم ، وجعلوا على آذانهم ثقلا يمنعهم من سماع أى شئ ، وشعروا بوجود حاجز بينهم وبين الحق .

إن خصوم الحق يلجأون للعنف والعدوان حين يعجزون عن المواجهة والحوار ، والداعية الجيد هو من يحاور بهدوء ، ويدعو إلى الحق فى أناة .

الرسول داع إلى الله بالحسنى

يقول الله تعالى :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۖ

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة إعراض المشركين عن الهداية جاءت هذه الآيات لبيان أن الرسول بشر عادى أوحى الله ليلبغ دين الله تعالى ، ويعرفهم بأنه رسول الله ، يدعو للحق بلا إكراه ، ولا عنف ، وهو بشير للصلحين ونذير للضالين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل رسوله محمدا ﷺ للناس ليعرفهم بالله الواحد الأحد ، ويأمرهم بالاستقامة على منهجه ، والإيمان به ، ويبشرهم وينذرهم بجزاء أعمالهم فى الآخرة حيث البشرى للمؤمنين ، والإنذار للعصاة والمجرمين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاستَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ﴾ أى قل يا محمد لقومك من أهل مكة : إنما أنا مثلكم فى البشرية ، والصورة ، والهيئة ، ولذلك التقى بكم ، وأخاطبكم ، وقد ميزنى الله عنكم باصطفائى ، واختيارى للرسالة ، وأنزل على وحيه وأمرنى

بدعونكم إلى التوحيد الخالص الذى دلت عليه الدلائل الكونية ، وأيدته الآيات التنزيلية ، وشهدت له دعوات الرسل عليهم السلام من لدن آدم عليه السلام إلى محمد عليه السلام .

فرسول الله عليه السلام بشر أوحى الله إليه ، وهو بهاتين الصفتين صاحب رسالة ودين ، والمؤمنون يصدقون بهاتين الصفتين لرسول الله ، ويصدقون بكل ما أخبرهم الله به ، وبكل ما أمرهم بالتمسك والعمل به ، أما المشركون الجاحدون فلم يروا فى محمد عليه السلام إلا جانب البشرية ، ولذلك قالوا ما حكاه الله عنهم : ﴿ أَبَشَرًا مِّمَّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِى ضَلَلٍ وَسُعْرٍ ﴾ ^(١) ، وقالوا أيضا ما حكاه الله عنهم : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا ﴾ ^(٢) .

﴿ فَاسْتَقِمْوْا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى آمنوا بالله الواحد ، واخلصوا فى عبادته ، واصدقوا فى طاعته ، والتزموا تعاليم دينه ، واطلبوا منه المغفرة ، والعفو ، والستر .

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۖ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَاةَ وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۖ ﴾ أى هلاك كبير ، وخسارة عظيمة لمن أشرك بالله تعالى ، وعبد غيره ، ولمن لم يساعد الفقراء والمحتاجين ، ولمن أنكر اليوم الآخر بما فيه من بعث ، وحشر ، وحساب .

(١) سورة القمر ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة المؤمنون ، الآية ٢٤ .

(٢٤٥)

وانما قرنت الآية منع الزكاة بالكفر وانكار اليوم الآخر ، لأن أحب شئ للإنسان هو ماله ، فإذا بذله صاحبه في سبيل الله فهو أقوى دليل على استقامته ، وصدق نيته . أما من فسدت نيته ، وساء عمله فهو يمنع المال ، ولذلك بدأت الردة بعد رسول الله ﷺ بمنع الزكاة ، وحارب أبو بكر رضي الله عنه من أجل أدائها والمحافظة عليها ... وتشير الآية إلى أن مانع الزكاة من المسلمين يناله ويل يناسب عمله ، أما المؤمنون الذين يحافظون على دين الله فهم على خلاف ذلك .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أى

إن الذين آمنوا بالله تعالى ، وعبدوه وحده ، واستقاموا على شريعته ، وأطاعوا رسوله يجازيهم الله بثواب دائم ، وأجر حسن كريم .

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآيات رسول الله ﷺ أن يعرف المشركين أنه رجل مثلهم اختاره الله للرسالة ، وميزه بالوحي ، وكلفه بدعوتهم إلى توحيد الله ، فأخذ يورد لهم الأدلة ، ويخاطبهم بلغتهم ، ويناقشهم وهو واحد منهم ... وهذا أولى لهم من أن يكون ملكا أو جنا لا يمكنهم ملاقاته ، والتحدث معه ... فآمنوا بالله تعالى واستقيموا على منهجه ، واطلبوا منه العفو والصفح والمغفرة ، واعلموا أن الهلاك والخسران لمن أشرك بالله ، ومنع الزكاة ، وأنكر اليوم الآخر ، وحث الله رسوله أن يعرف المؤمنين بأن الذين يؤمنون بالله ، ويعملون الصالحات لهم جزاء حسن دائم عند الله تعالى .

(٢٤٦)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الرسالة مسئولية وتكليف

يختار الله رسوله واحدا من الناس ، ويصطنعه ، ويرسله بدعوة الله تعالى ، وكان المأمول أن يسمع الناس من الرسول الذي بعث فيهم ، وبخاصة أنه وضح لهم أدلة صدقه بخوارق العادات التي يجريها الله على يديه .
إن الرسول يتلقى الوحي من الله تعالى ، ويبلغه للناس ، ويدعوهم إلى الحق والخير بمنهج الله تعالى .

إن الوحي الإلهي يقدم للرسول الدين والدعوة إليه ، والرسول ﷺ ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنْ أَهْوَى ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۚ ﴾^(١) .

وبهذا يتميز الرسول بالوحي مع محافظته على بشريته ، وقد أقدره الله على القيام بالرسالة ، فهو ببشريته يعايش الناس ، ويشاركهم في وسائل حياتهم ، يعرف عاداتهم ، وتقاليدهم ، ويفهم مشاربهم ومذاهبهم ، ويعظهم ، وينصحهم ، ويدعوهم إلى صراط الله المستقيم .
وبالوحي يتصل الرسول بالملا الأعلى ، ويتلقى كلام الله تعالى ، ويبلغه للناس .

ومن هنا يجب معاملة الرسول على أساس أنه بشر يوحى إليه ، وهذه المعاملة تؤدي إلى حب رسول الله ، والحرص على طاعته ، والاستقامة على منهجه ، وتحمل الأمانة من بعده .

(١) سورة النجم ، الآية ٣ ، ٤ .

(٢٤٧)

ولا يصح لمؤمن أن يرفع الرسول عن مقام الرسالة ليكون إلها أو نائبا له
... ولا بد من الإيمان بأنه الموحى إليه ، وهو مرسل من الله رب العالمين .

الركيزة الثانية **أساس الدعوة الإلهية**

تبين الآيات أساسيات الإيمان ... وهى :

- (١) الإيمان بأن الله إله واحد ، وهو أساس الدين ، ومن التزم بتوحيد الله تعالى يعبدده ، ويطيعه ، ويصدقه في كل ما جاء به .
- (٢) الاستقامة على منهج الله تعالى ، والعمل بكل ما جاء الوحي به من قرآن ، وسنة ، والافتداء برسول الله ﷺ في القول والعمل والسلوك .
- (٣) أداء العبادات المفروضة ، ومداومة الذكر والاستغفار والدعاء .
- (٤) الإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من حساب جزاء ، وضرورة الاستعداد له .

إن من يحافظ على هذه الأسس يوفقه الله للخير ، ويهديه إلى سواء السبيل ، ويعطيه في الآخرة جزاء حسنا لا ينقطع .
والعقلاء يعرفون ذلك ويعملون له ، ولهم أجر عظيم .

الركيزة الثالثة **مصير المشركين في الآخرة**

تخبر الآيات أن للمشركين هلاكا كبيرا في الآخرة لأنهم كفروا بالله ، وخصوا أصنامهم بالعبادة ، ورفضوا الشريعة ، ولم يتخلفوا بأخلاق الإسلام .
إن الكفار لا يصدقون باليوم الآخر ، ولا يستقيمون على تعاليم الله تعالى ، ولهم عذاب عظيم .

آيات الله فى كيفية خلق السماء والأرض

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما أمرت الآيات السابقة رسول الله أن يقول للناس إن الله إله واحد ، ويدعوهم إلى عبادته وحده ، ويوضح عقوبة الكافرين جاءت هذه الآيات تأمره أن يعرف الناس بالله الذى يكفرون به ، مع أن قدرته بادية فى كل شئ ، وتبين كيفية خلق السماء والأرض بالتفصيل .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين يكفرون بالله القادر العظيم الذى أبدع فى خلق السموات والأرض وأوجدهما فى ستة أيام ليتعلموا الأناة ، وعدم اليأس .

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى جئ به لتوبيخ المشركين على فعلهم ، وتصدير مقول القول بهمزة الاستفهام الداخلة على "إن" ، والحق اللام بالخبر لبيان أن الموضوع الذى تتناوله الآية هام ... وإيراد الكفر بصيغة الفعل المضارع ﴿ لَتَكْفُرُونَ ﴾ لبيان استمرار الكفار على كفرهم ، وتجدد صور الكفر فى كل آن .

ومعنى الآية كيف تكفرون بالله تعالى الذى خلق الأرض فى يومين ؟ وكيف تقولون : إن الله غير قادر على البعث والإعادة ؟

﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ﴾ أى وتجعلون لله شركاء يماثلونه ،

ويشبهونه وتخصوهم بالعبادة .

﴿ ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى إن الله تعالى الذى خلق الأرض فى يومين هو

الله رب العالمين لا شريك له ، أما أصنامكم فهى أوهام وضلال لا قيمة لها .

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا ﴾ أى وخلق الله فوق الأرض

رواسى لتقويتها وتشبيثها .

والرواسى هى الجبال التى خلقها الله تعالى ، وجعلها أوتادا فوق الأرض

حتى لا تهتز وتسقط .

﴿ وَبَرَكَ فِيهَا ﴾ أى وبارك الله فى الأرض ، وأكثر الخير فيها ، فأنبث

الزرع ، والأشجار ، وأجرى البحار ، والأنهار ، وأخرج من باطنها الأحجار والمعادن ، والغاز ، والركاز .

(٢٥٠)

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ أى خلق فى الأرض القوى التى توجد الأقوات بأنواعها جميعا ، الكافية لسائر الكائنات الحية .

﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ أى إن مجموع خلق الأرض وتقدير أقواتها تمت فى أربعة أيام شاملة لليومين السابقين .

﴿ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ ﴾ أى جعل فى الأرض أقواتا ، متنوعة ، كافية لكل من يحتاج للقوت من سائر الكائنات .

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ أى بعد أن خلق الأرض وسواها ، وقدّر فيها أقواتها أخذ سبحانه فى تسوية السماء ، وكانت كائنا هلاميا مظلما يشبه الدخان .

﴿ فَقَالَ هَا وَلِلْأَرْضِ آتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ أى قال الله للسماء والأرض : إظهرا بخلقكما ، وهيتكما طائعين أو كارهين .

﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ أى قالت السماء والأرض لله : أتينا طائعين ، وبهذا سارت السماء والأرض فى حركتهما بانسياب تام بلا عوائق ، فى فلك محدد ، ومستقر ثابت .

﴿ فَقَضَلَهُنَّ سَبْعَ سَمَنَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ أى أتم الله خلق السموات السبع فى يومين آخرين ، فتم خلق السموات والأرض فى ستة أيام .

وهذه الآيات تشير إلى أن الله خلق الأرض أولا ، وفى سورة "البقرة" بينت الآيات أن الله خلق السماوات أولا ... ويبدو أن السماء وجدت أولا على هيئة دخان مظلم ، وبعده خلق الله الأرض فى أربعة أيام ، ثم سوى السماء فى يومين بعد أيام الأرض .

وانما استغرقت الأرض مدة أطول من السماء ، لأن السماء كانت دخانا هائما قسمه الله ، ووزعه فى سبع سماوات ... أما الأرض فقد تكونت بصورة التولد والتكاثر .

فإن قيل : لم استغرق خلق السموات والأرض ستة أيام مع أن الخلق يكون بـ "كن" ؟

أقول : استغرق خلق السموات والأرض هذه المدة ليتعلم الناس الأناة وعدم العجلة فى الحصول على نتائج الأعمال .

وقد جرت أيام الخلق على أيام الأسبوع الذى بدأ بيوم السبت وقد اتخذه اليهود عيداً لهم ... ويرى النصارى أن بداية الأسبوع هو يوم الأحد ، فاتخذوه عيداً لهم ... ويذهب المسلمون إلى أن يوم السبت هو أول أيام الأسبوع وأن الله بدأ الخلق فيه ، وأتمه فى يوم الخميس .

وقد خلق الله آدم يوم الجمعة وجعله أفضل أيام الأسبوع ، ولذا اتخذه المسلمون عيداً لهم .

وقد هدى الله المسلمين ليوم الجمعة فسبق عيدهم عيد اليهود والنصارى .
﴿ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ أى وخلق الله فى كل سماء من السموات السبع ما استعدت له ، واقتضت حكمة الله أن يوجد فى كل سماء ما أراده لها .

﴿ وَزَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ﴾ أى خلقنا فى السماء الكواكب المضئية الساطعة التى تشبه المصابيح التى تزين المكان ، وتجليه .

﴿ وَحِفْظًا ﴾ أو وحفظنا السماء من الاضطراب والسقوط ، وجعلناها تسير فى فلك ثابت لا يتغير ، وتتألف مع سائر الكواكب لا يبغي بعضها على بعض .

(٢٥٢)

﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ أى هذا الخلق ، وهذا التقدير ، وهذا التحسين قدره الله تعالى بحكمة ، وقدره ، وعلم .

- ٤ -

معنى الآيات

تتكرر الآيات على المشركين شرکهم ، وكفرهم بآيات الله مع ظهورها ووضوحها ، فقد خلق الله الأرض والسماء وسواهما ، وقدر أقوات المخلوقات فيهما في ستة أيام ، ومع ذلك يشرك الكافرون ، وينكرون البعث ، والحساب والجزاء ، ولا يعتبرون بآيات الله من حولهم ، وفيهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

جحود المشركين ضلال وهوى

يأمر الله رسوله أن يعرف المشركين بجحودهم ، وإنكارهم حق الله عليهم ، مع أن البراهين والحجج والآيات الدالة على وجود الله وقدرته ماثلة في الكون كله .

فهو . سبحانه . خلق السماء على هيئة كتلة دخانية كثيفة ، ثم أوجد الأرض بما فيها من سهول ووديان ، وأنهار وبحار ، وإنسان وحيوان ، وقدر لها العيش والحياة لسائر المخلوقات ، وقدر العمل ، والأقوات ، والعطاء لكل مخلوق على هذه الأرض بصورة متساوية في أربعة أيام ، ثم سوى السماء وقسمها في يومين ، وألهمها أمرها وشأنها ، وجملها بالكواكب والنجوم وحفظها

(٢٥٣)

سبحانه وتعالى بقدرته ، وأبقى السماء والأرض فى فلكهما إلى قيام الساعة ...
لا تتخلف أحدهما فى مدارها ، ولا تقعد عن وظيفتها .
وهكذا ينعم الإنسان بكافة المخلوقات فى السماء والأرض ، وعليه أن
يشكر الله على هذا العطاء الكبير .

إن العلماء قد تمكنوا من السفر إلى الكائنات العلوية ، والغوص فى باطن
الأرض ، ورأوا عجائب خلق الله ، وشاهدوا كثيرا من أسرار السموات والأرض ،
ومكنهم الله من الاستفادة خلالها ... وليس على الإنسان بعد ظهور هذه
الحقائق إلا أن يؤمن بالله تعالى .
ويكفى الإنسان أن يرى بعقله ضوء الشمس ، ونور القمر ، وما فيهما من
فائدة ومنفعة .

ويكفيه الماء والهواء يأتياه من أماكن بعيدة ، وهو لا يدرك أسرار حركة
الهواء ، وجريان الماء .

يكفيه ما يرى من حيوان وأنعام ، وطير وحمام ، وحشرات وهوام ، وقد
خلقها الله تعالى من العدم ، وأوجد كل مخلوق بمقدار لينظر الإنسان إلى
طعامه ، وشرابه ، وملبسه ، وسائر كافة حياته ليرى قدرة الله تعالى .

وليتأمل الإنسان فى حياة كل مخلوق قدرة الله تعالى ليرى كيف تعمل ؟
وكيف تحقق غاياتها فى إطار نظام عجيب لا تقدر عليها وحدها ؟

من جعل النحلة تنتج عسلا ؟

ومن جعل الدودة تنتج حريرا ؟!

ومن جعل الأنعام تخرج من بين فرث ودم لبنا خالصا للشاربين ؟!

إنه الله رب العالمين الذى سخر الكون كله لخدمة الإنسان بمعايير ثابتة
وقدر محدد .

(٢٥٤)

يرى الإنسان هذه البراهين ، ولا يؤدي حقها ، ولا يؤمن بمن خلقها له ولا
يمن قدر له فيها سائر ما ينفعه .

إن الذين كفروا بالله يجحدون فضل الله عليهم ، ولا يؤمنون به ، وينكرون
قدرته وحكمته ... ويذهبون إلى القول بالصدفة ، أو بالانفعال الذاتى دون وجود
فاعل ... وهذا هراء لا يقبله عقل .

إن السير يدل على السائر ، والمصنوع يدل على الصانع ، والأثر يدل
على المؤثر ... وهذه الحقائق البديهية الموجودة فى الكون كله تؤكد وجود الله
وتثبت قدرته .

ولذلك كان الجحود كفرا والحادا لا يصح أن يكون .

الركيزة الثانية

أهمية التنظيم فى العمل

قدرة الله غير محددة بأمر حادث . زمانا ، أو مكانا ، أو أمرا آخر . وإذا
أراد سبحانه شيئا قال له : كن فيكون ... ومع ذلك أوجد كونه على سعته
وضخامته وفق زمان منظم ، ووقت طويل ليتعلم الإنسان من هذا ضرورة أن
ينظم عمله ، ويرتبه ، ويخطط لما يريد .

إن خلق الكون فى ستة أيام قدرة واضحة ، واعجاز بين ، ولو أراد
سبحانه أن يخلقه بـ "كن" لكان ... وإنما أراد سبحانه أن يعلم الإنسان ضرورة
النظام والترتيب ، والتأنى فى الحصول على النتائج ، وأن يقسم عمله على يومه
وزمنه ، وبذلك ترتبط الأعمال بالأوقات ، ويستفيد الإنسان من نعم الخالق ،
وتؤمن بالله رب العالمين .

لقد قسم الله العبادات على الأوقات ، وجعل الليل لباسا ، والنهار معاشا
وحدد لكل شئ غاية ، ولكل نبي مستقرا ... وهذه قضايا تدعو إلى النظام ،
والعمل .

إنذار الكافرين بعذاب الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿٣٧﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٨﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِعَايِنَتِنَا سَاهُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ وَكَانُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ آهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤١﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المشركين كفروا بالله تعالى مع أنه خلق لهم السموات والأرض وما فيهما جاءت هذه الآيات لإنذار المشركين بعذاب يأتيهم يشبه العذاب الذي نزل بعاد وثمرود .

- ٢ -

موضوع الآيات

تنذر الآيات المشركين الذين يعرضون عن آيات الله ، ويكفرون به بعذاب أليم يشبه ما نزل بعاد وثمرود .

الدلالات اللغوية

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴾
 إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾
 أى قل أيها الرسول لمشركى مكة الذين يخاصمونك ويعارضونك ، وعرفهم أنهم
 إن أعرضوا عن الإسلام ، وكفروا بالله ، واستمروا على هذه المعارضة فسوف
 ينزل عليهم عذاب شديد فى صورة عاصفة عاتية ، تشبه صاعقة عاد و ثمود
 حين جاءهم رسلهم فكذبوهم ، ولم يصدقوا بهم ، وظلوا يعبدون الأصنام
 ويشركون بالله تعالى ، ولم يسمعوا لدعوة الرسل الذين بلغوهم الدين بكافة
 الوسائل ، والطرق .

والتعبير بقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ يدل على
 أن الرسل أتوا قومهم بكافة الوسائل والسبل التى بلغوهم بها دين الله تعالى .
 فلقد أتوهم بدين الله من كل ناحية ، وبلغوهم الرسالة بكل ما أمكنهم من
 وسائل ، وأساليب .

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى إن الرسل جميعا ، وفيهم هود وصالح
 عليهما السلام جاءوا لأقوامهم برسالة واحدة تدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وترك
 عبادة الأصنام ، وعدم اتخاذها آلهة من دون الله تعالى .

﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِمْ كَافِرُونَ ﴾
 أى قال عاد و ثمود لهود وصالح عليهما السلام : إنا لا نؤمن برسالتكم ،
 ولا نصدق باختيار الله لكم .

ويعلل المشركون رفضهم دعوة الرسل بزعم أن الله لا يرسل رسولا من البشر ، وأنه سبحانه لو أراد أن يرسل رسولا لاختار بعض الملائكة ، ولذلك فهم برسالة البشر كافرون .

وهذه ضلالة جرت على السنة أقوام الرسل جميعا فقد قالوها لنوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط ، وإبراهيم ، وجميع الأنبياء عليهم السلام .
وهى نفس الضلالة التى قال بها كفار مكة ، ونطقوا بمثل ما نطق به المشركون السابقون .

ومن دلالة خبلهم فى ضلالهم أنهم ينكرون رسالة البشر فى الوقت الذى يؤمنون فيه بالوهمية الحجر ، ويعبدون الأصنام ، ويتعلقون بالأوهام ... وما دروا أنهم لا يستطيعون لقاء الملائكة ، وقد أوردت الآية صور هلاك عاد وثمود ليكون عبرة لأهل مكة .

- أولا -

هلاك "عاد" قوم هود عليه السلام

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ أى إن عادا كفروا بالله تعالى ، واستمروا فى عبادة الأصنام بسبب تعاضمهم فى الكبر ، واحتقار الناس المقيمين معهم فى أرضهم المعهودة وقد بنوا فيها البنايات العالية والأبراج الشاهقة التى لم بين فى الأرض مثلاً . يقول الله عنها : ﴿ أَلَيْسَ لَمْ تُخَلَقْ مِثْلُهَا فِي آلِبَلَدٍ ﴾^(١) ولم يكن لتكبرهم سبب ، فقد استكبروا على الناس ﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ لأن الكبر لا حق فيه مطلقا ، والصواب أن الإنسان كلما بلغ من العلم ،

(١) سورة الفجر ، الآية ٨ .

(٢٥٨)

والمال ، والصحة وغير ذلك مبلغا كبيرا عليه أن يلجأ إلى شكر الله ، وتذكر أفضاله وآلائه ، ونعمه ، ويبتعد عن الكبر والتعالى ، ويخضع لله رب العالمين . وقد اغتر عاد بما جعل الله لهم ، وتصوروا أنفسهم قادرين على فعل ما يريدون ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ؟ ... فقد أصابهم الغرور ، وتصوروا أنه لا قوة تعلو على قوتهم ، فتساءلوا متعجبين ومنكرين عن من هو الأشد منهم والأكثر قوة ؟

فأنكر الله كبرياءهم ، وغرورهم وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ؟ ... أى أأصيبوا بالعمى والجهل ولم يروا خلال تتقلهم وتدبرهم قدرة الله الذى خلقهم ، ومكنهم من الأرض ، ورزقهم ، وأعطاهم ما هم فيه ؟ أولم يعلموا أن الخالق أقوى من المخلوق ؟ وهكذا ...

يعمى الكبر والغرور صاحبه فينسيه الحقيقة ، ويوقعه فى الغفلة والجهل لأن المخلوق لن يكون أقوى من الخالق أبدا ؟ ... والمخلوق محتاج لخالقه ، ولا يصح له أن يتعالى على من يحتاج إليه .

﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أى إن عادا لم ينظروا فى آيات الله فى أنفسهم ، وفى الكون من حولهم ، ولذلك جحدوا الآيات ، ولم يؤمنوا بالله تعالى .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴾ أى أرسلنا عليهم عقب كفرهم ، وتكبرهم ، وجحودهم ريحا عاتية عاصفة ، شديدة البرد عالية الصوت ، تقتل ببرودتها ، وصوتها ، وسرعتها .

والريح الصرصر هي الريح الشديدة ذات الصوت القوى والسرعة العاصفة.
﴿ فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ ﴾ أى هب عليهم هذا الريح فى أيام مشئومة متربة ،
معدودة أهلكتهم خلالها جميعا ... وقد استمرت هذه الريح ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ
أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾^(١) .

﴿ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى أرسلنا عليهم الريح
خلال هذه المدة التى أهلكتهم ، وأذاقتهم عذاب الخزى والذل ، والهوان فى الحياة
الدنيا ، وانما كان الجزاء خزيا لكبريائهم لأنهم ادعوا القوة والشدة ، وإذا بهم لا
يصمدون أمام الهواء العاصف ، ولم يتمكنوا من إيقافه وصرفه عنهم ،
وبذلك ثبت خزيهم وكذبهم .

﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ أى إن عادا سيلحقها
فى الآخرة عذاب أشد وأخزى ، ولن يجدوا فى الآخرة وليا يعينهم ، أو ناصر
ينصرهم ، أو شفيعا يشفع لهم كما لم يجدوه فى الدنيا حين نزل العذاب بهم .
وعذاب الله لعاد نذير لأهل مكة ليعتبروا به ، ويعودوا لله رب العالمين .

- ثانيا -

هلاک ثمود قوم صالح عليه السلام

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ أى أرسلنا صالحا عليه السلام لقومه ثمود ، فدعاهم
إلى الإيمان بالله ، وحثهم على الهدى ، وبين لهم الصراط المستقيم ، وذكرهم
بالآيات البينات وأظهر لهم المعجزات الدالة على صدقه .

(١) سورة الحاقة ، الآية ٧ .

(٢٦٠)

﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ أى أنهم مالوا إلى الضلال الذى أعماهم عن الحق ، وأبعدهم عن الله ، وأحبوا الكفر على الإيمان ... فكان أن عاقبهم الله تعالى .

﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ آهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى إن ثمود لما كذبوا صالحا ، وكفروا بدعوته أنزل الله عليهم صاعقة من السماء أهلكتهم ، وتمثلت هذه الصاعقة فى صوت زلزل الأرض ، وأزعج الأرواح وأهانهم الله بصوت سمعوه ، وقضى عليهم بـ "الدبور" ، وكانوا ينكرون قدرة الله تعالى .

﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ أى ونجيننا صالحا والذين آمنوا معه من العذاب الأليم بسبب إيمانهم بالله ، وتقواهم لربهم العظيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تتذر الآيات أهل مكة وتعرفهم بأن إعراضهم عن الإيمان والتصديق برسول الله ﷺ سيؤدى إلى نزول العذاب الأليم عليهم فى الدنيا بصور لا يتوقعونها ، فله جنود السموات والأرض ، وقد أهلك الله عادا وثمود بسبب كفرهم ، وعدم تصديق رسلهم ، وسوء خلقهم ، وقد كتب الله النجاة للمؤمنين .

(٢٦١)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية الدعوة بالقصة

القصة ذات أثر بالغ في النفس البشرية ، وسبب ذلك أن القصة تبرز ما تكنه النفس إلى عالم الواقع ، وتعرض الأحداث وصلتها بالصواب والحق ، ونتائجها .

إن الإنسان يبحث عن المعرفة ، ويحاول اكتساب ما يجهله ، ومهما بعد الحدث عنه مكانا أو زمانا ، فإنه يفعل معه ، ويتصوره ، ويحكم عليه .

لو اجتمع الناس في مكان ما لأسرع الآخرون إليهم ليعرفوا سبب اجتماعهم ... وبصورة تلقائية يتخذ الآخرون موقفا ، ويتفاعلون مع الأحداث .

ومنطلق القصة يعتمد على هذا الجانب النفسى فهمي تثير أحداثا معينة من خلال عناصرها ، وتبرز العنصر الحيوى المقصود في إطار القصة ، وحين يعيش الإنسان مع أحداث القصة تترك الأحداث أثرا في عالم اللا شعور وسرعان ما ينتقل إلى عالم الشعور ، ويتحول إلى سلوك وعمل .

إن القصة القرآنية تؤثر في الإنسان بهذه الصورة ، فحين تقرأ ظلم فرعون للإسرائيليين وقتل أولادهم ، وترك بناتهم يؤدي ذلك إلى كراهية الظلم والطغيان .

إن فنية القصة تركز على العنصر المراد التأثير به ، ولذلك نجد القصص القرآنى يبرز الزمن أحيانا ﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾^(١) وأحيانا يظهر الكبرياء والطاغوت ،

وأحيانا يركز على وهن حجج المشركين ، أو قوة حجج المؤمنين ، وأحيانا يبين المصير الذى نزل بالمؤمنين والمكذبيين .

(١) سورة الحج ، الآية ٤٧ .

إن القصة القرآنية وسيلة دعوية عظيمة لأنها لا تتطرق إلا بالحق ، وتظهر ما فى النفوس والضمير ، وتحدد خصائص وطبائع المؤمنين والكافرين ... وذلك كله ليتخذها الدعاة تكأه ينطلقون من خلالها لهداية الناس .

إن الآيات التى نحن بصدد ركانتها تظهر من قصة عاد وثمود العذاب الذى لحق بهم يعد كفرهم ليعتبر بذلك من نزل القرآن الكريم لهم .

ويمكن للدعاة الاستفادة بهذا الأسلوب الهام فيعرضوا قصصا مشهودا من الواقع مع التعليق عليه ، أو إيراد جزء من قصص القرآن الكريم له دلالاته ومعانيه .

وللعلماء ، والأدباء ، والدعاة عبرة من كتاب "كلىة ودمنة" فقد ألفه الفيلسوف "بيدبا" على لسان الطيور والحيوانات شاكية ، ومعبرة تتطرق بالظلم وتنادى بالعدل فى صورة بعيدة عن الإنسان إلا أن دلالتها تؤدى إلى تمثيلها فى مواقع بشرية ، واتخاذ موقف منها .

الركيزة الثانية

إن بطش ربك لشديد

إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، ويدعو الناس ليكونوا مؤمنين ، وينهى عن الفحشاء والمنكر ، وينذر ، ويخوف .

وتوضح الآيات أن الله أخذ عادا وثمودا بقوة ، لأنهم عارضوا رسلهم بقوة ، ولم يلتفتوا إلى دعوات الرسل الذين دعوهم بكل الطرق والوسائل ... فلما كفروا واستكبروا وتجبروا أرسل الله عليهم ريحا شديدة دمرتهم ، وأهلكتهم بسبب هذا الكفر والضلال .

وقد أبقى الله قصتهم فى أمة محمد ﷺ للعظة والعبرة ، والاستجابة لدعوة الله تعالى .

سوء أعداء الله فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ ۖ وَإِنْ يُسْتَغْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿١٦﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة عذاب المشركين فى الدنيا جاءت هذه الآيات لبيان عذابهم فى الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات سوء منقلب المشركين والكافرين فى الآخرة ، وتصور الخزى الذى سيلقونه فى الحشر والحساب حيث لا يجدون مفرا ، ولا اعتذارا أمام فضائحهم ، وظهور ضلالهم ، وتشهد عليهم ألسنتهم وجوارحهم بما كانوا يعملون .

(٢٦٤)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ أعداء الله هم مشركو مكة ، ويجوز أن يكون المراد بهم سائر الكفار فى الأمم كلها إلا أن المقام يجعل المراد بهم كفار مكة لأن الآيات نزلت فيهم ولهم ، وما جاء فى القرآن الكريم عن عموم الكفار مقصده تخويف مشركى مكة . والآية تقدم أعداء الله فى صورة رهيبة ناطقة حيث يجمع الله فى أرض المحشر سائر المشركين فى ذلة وصغار ، وبرغم كثرة عدد المشركين ، وتداخل بعضهم فى بعض ، فإنهم يتجمعون فى استسلام وذل وصغار ويعودون للحياة بعد البعث .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى إن المشركين يوزعون ، ويتجمعون على أرض المحشر ، وحين الحساب تشهد عليهم أسماعهم ، وأبصارهم ، وجوارحهم ، وتدل على أعمالهم التى عملوها فى الدنيا . وحقيقة هذه الشهادة يعلمها الله تعالى ، فهى من خوارق العادات ، وتظهر بالقراءة ، أو بالصورة ، أو بعلامات يفهمها الناس يوم القيامة .

﴿ وَقَالُوا لِمَ لُجُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير والتعجب حيث يلجأ الإنسان لجوارحه ، ويسألها عن سبب شهادتها مع أنه كان يعمل لإرضائها ؟

﴿ قَالُوا ﴾ أى قالت الجوارح مجيبة صاحبها ﴿ أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ أى إن الله أودع فينا دواعى النطق فأطعنا من خلقنا ، وشهدنا بالحق ، وما كان لنا أن نتخلف عن الشهادة .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : "كنا عند رسول الله ﷺ فضحك . فقال ﷺ : هل تدرون مم أضحك ؟

قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال ﷺ : من مخاطبة العبد ربه .

يقول العبد لربه : ألم تجرنى من الظلم ؟

فيقول الله : بلى بلى .

فيقول العبد : فإنى لا أجز على نفسى إلا شاهدا منى .

فيقول الله : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا ، وبالكرام الكاتبين شهودا .

فيختم الله على فيه ويقول لأركانه : انطقى ، فتتطق بأعماله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام .

فيقول الرجل : بعدا لكن وسحقا ، فعنك كنت أناضل" (١) .

﴿ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى إن الله هو الذى خلقنا وخلقكم ، وأودع فينا دلائل القدرة فهو لا يخالف ولا يمانع .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى إن مصير الناس عند مماتهم إلى الله تعالى ، وقد علمتم ذلك فى دنياكم ، فلا تتعجبوا من الشهادة اليوم عليكم .

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ أى ما كنتم تستترون وأنتم تعملون السيئات ، وظننتم أنه لا بعث

(١) صحيح مسلم . كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٨٠ .

ولا حشر ولا حساب ، ولذلك جاهرتم بالكفر والمعاصي ، وافتخرتم بذلك ، وتوقعتم أن جوارحكم لن تشهد عليكم فلم تستتروا عنها .

﴿ وَلَٰكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى إنكم أيها الجاحدون ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا من أعمالكم فكنتم تستترون عن الناس خوف الفضيحة والعار ، ولم تتوقعوا أن تشهد جوارحكم عليكم . وفي الآية إيماء إلى أنه لا ينبغي للمؤمن أن تمر عليه حال إلا وهو يفكر في أن الله رقيب عليه ، كما قال أبو نواس :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل .: خلوت ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة .: ولا أن ما يخفى عليه يغيب

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : "كنت مستترا بأستار الكعبة فجاء ثلاثة نفر قرشى وثقفيان ، أو ثقفى وقرشيان ، قليل فقه قلوبهم ، كثير شحم بطونهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعهم .

فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟

فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه .

فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمع كله^(١) .

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ

الْخَاسِرِينَ ﴾ أى أوقعكم ظنكم الفاسد فيما أنتم فيه اليوم ، فلقد كنتم تظنون أن الله لا يعلم كثيرا من عملكم فأسرفتم فى الكفر ، والفسوق ، والمعاصي .
والظن نوعان :

ظن محمود وهو الظن برحمة الله وتفضله وإحسانه ، وتوقع اليوم الآخر والاستعداد له .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب التفسير . باب ومن سورة "السجدة" ج ٥ ص ٣٧٥ .

(٢٦٧)

وظن مذموم وهو ظن الكافر ان الله لا يعلم كل شئ ، وأنه لا بعث ، ولا حشر ، ولا حساب .

وظن المشركين من النوع المذموم لأنهم ظنوا أن الله لا يعلم عملهم ، وقد أهلكهم هذا الظن وأرداهم .

﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ ﴾ فَإِنْ تَمَسَّكُوا بِضُلَالِهِمْ ، وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ فَإِنَّ مَأْوَاهُم النَّارُ وَبُئْسَ الْمَصِيرُ .

﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ أى وان يعتذروا عند الحساب ورؤية العذاب فلن يقبل عذرهم ، وأن يتوبوا فلن تقبل توبتهم فقد مضى زمن التوبة ، وانتهى وقت الاعتذار .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يحشر كفار مكة وغيرهم من المشركين ، ويجمعهم فى المحشر أذلاء صاغرين ، وأن الجوارح ستشهد عليهم ، وحين يتعجبون ترد الجوارح عليهم بأن الله انطقهم ، فهو الخالق ، واليه يرجع الناس أجمعون وتعرفهم بسوء ظنهم أن الله لا يعلم كل شئ ، وأنه لا بعث ولا حشر ، ولذلك لم يستتروا بجرمهم عن جوارحهم ... وقد أوصلهم ظنهم السئ إلى الهلاك والخسارة .

وتؤكد الآيات أن تمسكهم وصبرهم على الضلال والكفر يؤدي بهم إلى النار ، وان اعتذروا فلن يقبل الله عذرهم ، ولن يقبل توبة منهم .

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

سوء خزي المشركين فى الآخرة

يحشر الله عباده جميعا يوم القيامة ، ويحاسبهم على أعمالهم ، ويرى كل إنسان نتيجة عمله بالصوت والصورة ، ويدون عمله فى كتاب مصور مكتوب مربوط بعنقه . يقول الله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۚ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ ﴿١﴾ أقرأ كتبك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴿٢﴾ .

يجمع الله المشركين فى عرصات أرض المحشر ، ويفضحهم على رعوس الخلائق حيث يشهدون على أنفسهم ، وتشهد الجوارح عليهم ... وتشهد عليهم قرناؤهم من الجن فقد سجلوا كل حركة وكل لفظ ... وتشهد عليهم الأرض التى عاشوا فوقها وتحركوا خلالها ... ويشهد عليهم رسول الله ﷺ .

إن حقيقة المشركين والظالمين واضحة بينة يكفى فى إظهارها شاهد واحد ، إلا أن الله يأتى بالشهداء جميعا زيادة فى التكيل بالظالمين ، واشهارا لفضيحتهم جزاء ما عملوا فى الدنيا .

فى يوم القيامة يلقى المشركون مصيرهم ، ويعلمون أن الله عليم بكل شئ ، وأن الرجوع إليه حق لا ريب فيه .

وتسيطر الدهشة على المشركين فقد خاب ظنهم ، وخسروا كل شئ فقد ضاعت الدنيا فى الشهوات ، وها هم فى الآخرة معذبون ، ولن يقبل لهم عذرا أو عتابا .

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٣ ، ١٤ .

أسباب ضلال المشركين ومظاهره

يقول الله تعالى :

﴿ وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿١٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿١٦﴾ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لِنَجْعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿١٩﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة العذاب الشديد الذى يستحقه المشركون الجاحدون جاءت هذه الآيات لبيان الأسباب التى أوقعتهم فى الضلال ، وتوضيح صور هذا الضلال .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات سبب ضلال المشركين ، وتوضح أن قرناءهم هم الذين زينوا لهم الضلال فاتبعوهم ، وبذلوا جهودهم فى الصد عن القرآن الكريم ، وقد وعدهم الله بالعذاب الشديد ، وحينئذ سيعلمون من أضلهم ، وكان سببا فى هوانهم .

الدلالات اللغوية

﴿ وَفِيضْنَا هُمْ قُرْنَاءَ فَرَيْنُوا هُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾

أى سلطنا على الجاحدين إخوانا من شياطين الإنس والجن زينوا لهم المنكر الذى يجدونه بين أيديهم فى الدنيا ، ويسروا أمامهم الشهوات والمنكرات فأضلّوهم وضيعوهم .

لقد غرهم القرناء الذين يصاحبونهم ، ويعيشون معهم بالفحشاء والمنكر وقالوا لهم : إنه لا بعث ، ولا حشر ، ولا حساب .

﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ

وَالْإِنْسِ ﴾ أى وجب عليهم العذاب كما وجب على المشركين فى الأمم السابقة من الجن والإنس .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴾ أى إنهم خسروا الدنيا والآخرة بما عملوا فى

الدنيا ، فقد كفروا بالله ، وعصوا الرسول ، وضلوا ضلالا بعيدا .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ

تَغْلِبُونَ ﴾ أى وقال الذين كفروا بالله ورسوله من أهل مكة لأنفسهم ، وأصحابهم

: لا تنتصتوا لسماع هذا القرآن ، ولا تتدبروا فى معانيه ، وارفعوا أصوات اللهو والضجيج عند قراءة القرآن حتى لا يسمعه أحد عسى أن تغلبوا محمدا بهذه الطريقة .

إنهم يحرصون على إهمال القرآن ، وعدم السماح بإظهاره ، ورفع أصوات

اللهو والهوى فوقه ، وبذلك يتحقق لهم ما يريدون من غلب وظهور .

وكان أبو جهل يقول : إذا قرأ محمد شيئا من القرآن فصيحوا في وجهه حتى لا يدرى ما يقول^(١) .

﴿ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى يؤكد الله ويقسم أنه سيعذب الذين كفروا عذابا شديدا مؤلما ، وسيجازيهم بجزاء يساوى أسوأ أعمالهم ، وبذلك يندرج أقلها سوءا فى أشدها وأكبرها ، وأما أعمالهم الصالحة كصلة الرحم ، أو عمل مؤسسة خيرية ، أو اختراع دواء لمرضى المسلمين فإن الله يحبط أجره بسبب كفرهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا ﴾^(٢) وبذلك لا يبقى لهم من أعمالهم إلا السوء ، ويكفيهم ما نالوه فى الدنيا من حظ ونصيب .

﴿ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ أى هذا الجزاء الشديد هو جزاء أعداء الله تعالى ، فقد أعد الله لهم جهنم ، وجعلها مأواهم ومستقرهم عقوبة لهم على أعمالهم السيئة وكفرهم بالله ورسوله .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾ أى ويقول الكافرون وهم يتقلبون فى نار جهنم ، وينادون : ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس لأنهم سبب ما نحن فيه من عذاب وآلام .

﴿ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أى نريد أن ننتقم منهم ونضعهم تحت أقدامنا احتقارا لهم ، واستصغارا لشأنهم .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ١١٠ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية ٢٣ .

(٢٧٢)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يسلط قرناء المشركين من الإنس والجن عليهم ويجعلهم سبب ضلالهم ، وخسرانهم فى الدنيا وفى الآخرة .
وتبين الآيات منهج الكفار فى صرف الناس عن القرآن الكريم وذلك برفع صوت الفحشاء والهوى على القرآن الكريم حتى لا يسمعه أحد .
ويقسم الله على أنه سيديق المشركين عذابا أليما ، ويجازيهم بأسوأ ما كانوا يعملون ... وفى يوم القيامة يسأل الله المشركين عن الذين أضلّوهم من الجن والإنس ليضعوهم تحت أقدامهم احتقارا لهم ، واستهزاء بهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

المشركون والقرآن الكريم

أنزل الله القرآن الكريم ليكون دستور الدعوة ، ومنهجها إلى الناس ، وقد أنزله الله بلسان عربى فاستقبله فصحاء العرب ، وبلغاؤهم بالدهشة والإعجاب وكانوا : ﴿ وَإِذَا تُلِيتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(١)
، وكانوا : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾^(٢) .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٨٣ .

لقد كان للقرآن تأثير كبير فى الناس ، وكان المسلمون الأول يهتمون بحفظه والعمل به ، وكانوا يعلمون أن القرآن للفصل والحكم بين الناس ، وكانوا يعلمون أنه يتضمن تعاليم الدين ، ومنهج الدعوة إليه ، ويثقون من أهميته فى حياة المسلمين .

إلا أن خصوم الإسلام عملوا على إطفاء نور القرآن الكريم ، وصرف الناس عنه ، فجعلوا حملته أدنى طبقات الناس ، ووضعوا من شأن الكتاتيب التى تقوم بتحفيظ القرآن الكريم ، وصوروا القراء بصور هزيلة متدنية .

لقد عمل الاستعمار الغربى على إبعاد حفظه القرآن الكريم عن التجنيد فى الجيش فحرم حفظة القرآن الكريم من التجنيد ... وسار العلمانيون وأشباههم على نمط خصوم الإسلام فادعوا التتوير والتحرير ، وقصدوا التحرر من تعاليم الإسلام ، وجعلوا الخروج على تعاليم القرآن تتويرا ونهضة .

وما اختلفوا فى عدواتهم عن كفار مكة الذين عمدوا إلى عدم الاستماع للقرآن الكريم ، وتواصوا فيما بينهم ، وقال بعضهم لبعض : لا تسمعوا لهذا القرآن ، واذا قرئ أمامكم فالغوا فيه ، وارفعوا أصوات اللهو والضجيج فوق صوت القرآن حتى لا يستطيع أحد سماعه .

وما أشبه الليلة بالبارحة . فقد شاعت أصوات الباطل بين المسلمين ، وانتشرت صور البغى فيهم حتى كادوا أن ينسوا الحق ، ولا يرون إلا الفحشاء والمنكر .

وحين نريد إعلاء شأن القرآن الكريم نرى ضرورة الاهتمام بنشر تعاليم القرآن الكريم بين الناس ، ورفع الصوت به ، ومنع أى منكر يعارضه ، وأن يعيش الناس بمنزلتهم مع القرآن الكريم ، وأن نؤمن إيماناً راسخاً بنصر الله تعالى لدينه ، وقرآنه ، وللمؤمنين .

إن قضية القرآن الكريم هى قضية كل مسلم ، وإن المحافظة عليه واجب دينى عام ... والأمة الناهضة هى التى تهتم بالقرآن الكريم .

الركيزة الثانية

ضرورة تغير الأصدقاء

الصديق مرآة صديقة ، يؤثر فيه ، ويتأثر به ، ولذلك قال الحكماء :
تخير الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق ، وعلماء التربية ينادون بضرورة
تخير الأصدقاء ، وبخاصة للصغار .
والآيات توضح دور القرناء فى الضلال والإفساد ، لأن القرين السئ يزين
لصاحبه السوء ، ويجره إلى الفساد ، ويلهيه عن الخير والصلاح .
يقول النبى ﷺ : "مثل الجليس الصالح والسوء كبائع المسك ونافخ الكير
فحامل المسك إما أن يهديك ، وأما تتباع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ،
ومثل الجليس السوء كنافخ الكير فهو إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه
ريحا خبيثة" (١) .

إن أصدقاء السوء فى الدنيا يضل بعضهم بعضا ، ويجر بعضهم بعضا
إلى الفساد ، ولذلك قال إبراهيم عليه السلام لعبدة الأصنام ما حكاه الله عنه فى
قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ﴾ (٢) أى إنكم جعلتم عبادة الأصنام منهجا يوحدكم ، ويجمع بينكم .

فى يوم القيامة يكتشف المشركون سبب الضلال الذى عاشوه فى الدنيا
وهو سماعهم لقرنائهم ، ولذلك يتمنون الانتقام منهم ، ووضعهم تحت أقدامهم .
إن هذه الركيزة ضرورية فى الحياة الاجتماعية ... فمن أراد الاستقامة
لنفسه ، وأهله ، وولده فليصاحب الأخيار ، ومن أراد غير ذلك فلا يلومن إلا
نفسه .

(١) صحيح البخارى . كتاب الذبائح . باب المسك ج ٧ ص ٩٦ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٢٥ .

جزاء المؤمنين على أعمالهم وقيامهم بالدعوة إلى الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢١﴾ ثُلَاثٌ مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّمَا يَرْغَبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة عذاب الكفار في الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان مقام المؤمنين في الآخرة بعدما أحسنوا أعمالهم في الدنيا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات حسن مقام الآخرة ، وتوضح أن الملائكة تنزل على المؤمنين وتبشرهم بالجنة ، وتطلب منهم عدم الخوف ، وعدم الحزن ، وتعرفهم أن الله كفهم بولاية المسلمين ، وتحقيق ما يطلبون .

وتبين الآيات أن أحسن الأقوال هو الدعوة إلى الله ، وأحسن الأعمال العمل الصالح ، وتوضح أن السيئة لا تساوى الحسنة أبداً ، لأن الحسنة تزيل العداوة ، وتذهب الشحنة ، ولا ينالها إلى المؤمنون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا ﴾ يؤكد الله تعالى على حقيقة قدرها للمؤمنين ، وهى أنهم قالوا بألسنتهم الله ربنا ، وأقروا بوحديته سبحانه وتعالى ، واعترفوا بربوبيته ، وثبتوا على ذلك ، واستمروا يعبدون الله وحده ، ويحافظون على دينه ، ويطيعون رسول الله ﷺ ويستقيمون على الصراط المستقيم ، ولذلك يجازيهم الله الجزاء الحسن فى الدنيا والآخرة .

والاستقامة الالتزام بما أمر الله تعالى ، وترك ما نهى عنه بلا عوج أو انحراف ، فى أى قضية من قضايا الدين (عقيدة ، وشريعة ، وخلقاً) .

عرف أبو بكر رضي الله عنه الاستقامة فقال : هى عدم الشرك بالله .

وعرفها عمر رضي الله عنه فقال : هى التزام الأمر والنهى ، وعدم الروغان مثل روغان التغلب .

وعرفها عثمان رضي الله عنه فقال : هى أداء الفرائض خالصة لله تعالى^(١) .

إن الآية تدعو إلى الكمال الإنسانى بطريقة كاملة لأن الإنسان يحتاج فى كماله أن يعرف الحقيقة مجردة من أى زيف ، وأن يستقيم عليها بروحه ، وعقله ، وجوارحه ...

والحقيقة المطلقة هى معرفة الله تعالى معرفة يقينية ، تشمل وجوده ، ووحدانيته ، وكافة صفاته ، وتقوم على البراهين ، والآيات البينات .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ١١٠ .

والاستقامة على هذه الحقيقة هي إخلاص الطاعة لله تعالى ، والرضى بقضائه وقدره ، والاعتماد عليه في السراء والضراء ، والتزام المسؤولية والشعور بأنه من أوائل المؤمنين ، وإدراك أن سعادته في معية الله ، والاتصال به والتواصل معه ...

يقول النبي ﷺ : "عرض علي ربي عز وجل أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يا رب ، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً ، فإذا شبعت حمدتك وشكرتك ، وإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك" (١) .
إن الاتصال بالله ، والاستقامة على منهجه هو طريق الفوز والفلاح ، وسبيل السعادة والرضى .

يقول الله في الحديث القدسي : "ما تقرب إلى عبدي بشئ أفضل من أداء ما فترضت إلى مما عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ولئن سألتني ل أعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذته" (٢) .
إن الاستقامة هي الإخلاص في الطاعة ، وهي الصدق في حب الله ورسوله ، وهي الريانية في القول والعمل والسلوك .

﴿ تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ أى تنزل عليهم الملائكة بأمر الله تعالى في أوقات الخوف والفرح لتبث في قلوبهم الطمأنينة ، وتبشرهم بالخير ، وذلك يكون عند قبض الروح ، وفي القبر ، وعند الحشر .

﴿ أَلَّا تَخَافُوا ﴾ أى تقول الملائكة لهم : لا تخافوا من الأهوال التي ستقع ، وترىهم مقامهم في الجنة عند الموت ، وتجعل قبورهم روضة من رياض الجنة بأمر الله ، ويظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .

(١) شعب الإيمان . كتاب الزهد وقصر الأمل ج ١٣ ص ٤٣ .

(٢) مسند البزار . مسند أنس بن مالك ج ١٥ ص ٢٧٠ .

﴿ وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ أى وتقول الملائكة لهم أيضا : ولا تحزنوا على ما خلفتم وراءكم من أبناء وزوجات وآباء فسوف تلتقون بهم ، ولا تحزنوا على ذنوب وقعتم فيها فسيغفرها الله لكم .

﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ أى وتقول لهم الملائكة وهم فى أرض الحشر : افرحوا بالجنة التى وعدكم الله بها على لسان رسوله فى الدنيا ، وأنتم تعيشون بداياتها بالحساب اليسير ، وبحديث الملائكة ، وبعدهم عن الفرع الأكبر الذى يعيشه المجرمون ، وتتلقاهم الملائكة ، وينادونهم : هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ أى وتقول الملائكة لهم : نحن أعوانكم وقد أمرنا الله بحفظكم ، وتولى شئونكم فى كل الأحوال . فى الدنيا تلهمكم الحق ، ونطرد الشياطين ، ونحببكم فى التقوى والصلاح والاستقامة ... ونحن معكم عند الموت ، وفى القبر ، وحين البعث والحشر والحساب ، ونصحبكم إلى جنات النعيم .

فإن قيل : حديث الملائكة هنا يفيد صحبة الملائكة للمؤمنين فى الدنيا مع أن أول الآية يفيد تنزلهم عن الموت والحساب . فكيف نفهم ذلك ؟

أقول : حديث الملائكة يعم ما كانوا عليه فى الدنيا مع المؤمنين ، وما يكونون عليه معه بعد الموت حثا للأحياء على الصدق فى الطاعة والإيمان ، وأيضا لبيان أن الملائكة تصاحب الإنسان فى الدنيا بصورة دائمة بأمر الله تعالى ... فهم فى الأرض يتعاقبون بالليل والنهار ... وهم الكتبة والرقباء ... وهم جنود الله فى كل مكان . أما الملائكة التى تنزل عند الموت وفى القبر ، وعند الحساب فهم ملائكة خصهم الله بهذه الأعمال ، وينزلون عند وقتها للقيام بوظيفتهم ولرعاية المؤمنين فى مواقف الفرع والهول .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ ﴾ أى تبشر الملائكة المؤمنين قبيل

دخولهم الجنة بأن لهم فيها كل ما يرغبون ، ويريدون ، ويحققون لهم ما تشتهيه نفوسهم بلا طلب ولا رجاء .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أى ولكم فى الجنة كل ما تطلبون وتسالون .

﴿ تَزُلَّازِلُكُمْ مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ أى يحقق الله لكم أيها المؤمنون ما تشتهون

وتطلبون رزقا كريما من لدنه ، فقد غفر الله لكم كافة ذنوبكم ، ورحمكم ... وهو الكريم الذى لا تتقطع فضائله ، ولا يتوقف عطاؤه .

والنزل ما يقدم للضيف من عطاء ، وهو يدل على كرم صاحبه ، والله هو أكرم الأكرمين .

وهذا الخير العظيم يخبر الله به على لسان رسوله ، ويبقيه قرآنا بين الناس ليعمل له العاملون ... ويحرص عليه أهل البصيرة والنهى ، ويسعد به الصادقون المخلصون .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ أى اعلّموا أيها المسلمون أن

أحسن أقوال المؤمن هو توجهه إلى الله بالدعاء ، فقد علم أن له ربا فقصدته وطلب منه ، وتوجهه إلى الناس بالدعوة إلى الله فقد علم واجبه مع دين الله فدعا الناس إليه ، وكان الرسل عليهم السلام خير من دعوا إلى الله تعالى ، فهم يأخذون الوحي ، ويبلغونه للناس .

ورسول الله ﷺ هو أول المسلمين وأول المؤمنين ، وكان يبلغ وحى الله للناس ، ويفصل لهم ، ويدعوهم إلى الإيمان ، ويجادلهم بالحسنى ، ويتمنى لهم

الإيمان وكان يقول ما حكاه الله عنه : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾^(١) .

وكان رسول الله ﷺ يعيش مع الله بروحه ويقول : "أبيت عند ربي يطعمني ويسقينى"^(٢) ، ويقول الله على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾^(٣) ، ويقول تعالى لرسوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾^(٤) .

ودعوة الأنبياء عليهم السلام راجحة على دعوة غيرهم من وجوه :
أحدها : أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة أولا ، ثم الدعوة بالجهاد ثانيا ،
وفلما اتفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين .

وثانيها : أنهم هم المبتدئون بهذه الدعوة ، وأما العلماء فإنهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء ، والشارع في إحداث الأمر الشريف على طريق الابتداء أفضل .

وثالثها : أن نفوسهم أقوى قوة ، وأرواحهم أصفى جوهر ، فكانت تأثيراتها في إحياء القلوب الميتة وإشراق الأرواح الكدرة أكمل ، فكانت دعوتهم لذلك أفضل .

إن النفوس على ثلاثة أقسام ، ناقصة تحتاج لمن يكملها ، وكاملة لا تقوى على تكميل الناقصين ، وكاملة تقوى على تكميل الناقصين ، ورسول الله من القسم الثالث ، وهم قدوة الدعاة ، والصورة المثلى في تبليغ الإسلام ، ونشر دين الله بين الناس .

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٨ .

(٢) مسند البزار . مسند أبي ذر الغفاري . مسند أنس بن مالك ج ١٥ ص ٣٩١ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية ٦٢ .

(٤) سورة الضحى ، الآية ٣ .

والآية شاملة لكل مراتب الدعوة وهى :

الأولى : دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الله تعالى بالمعجزات
وبالحجج والبراهين وبالسيف وهذه المرتبة لم تتفق لغير الأنبياء.

المرتبة الثانية : دعوة العلماء إلى الله تعالى بالحجج والبراهين فقط
والعلماء أقسام علماء بالله وعلماء بصفات الله وعلماء بأحكام الله.

المرتبة الثالثة : دعوة المجاهدين إلى الله تعالى بالسيف فهم يجاهدون
الكفار حتى يدخلوا في دين الله وطاعته .

المرتبة الرابعة : دعوة المؤذنين إلى الصلاة فهم أيضا دعاة إلى الله
تعالى وإلى طاعته .

﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى ومن أحسن الأعمال الأعمال الصالحة الشاملة
لأعمال القلب ، وأعمال اللسان ، وأعمال الجوارح التى هى نتاج فطرى لحسن
الدعاء والدعوة ، لأن المؤمن يتطابق فوله وعمله ، ويستحيل عليه الوقوع في
تضارب بينهما .

﴿ وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى إن المؤمنين في حياتهم يفرحون
بإيمانهم ، ويفتخرون بإسلامهم ، ويعلنون ذلك ... وبذلك تطهر ألسنتهم ،
وقلوبهم ، وجوارحهم .

﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ أى اعلّموا أيها المسلمون أن ما
جاء به الإسلام هو الحسنة ، وما عليه المشركون هو السيئة ، ولا تستوى
الحسنة والسيئة .

﴿ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى ادفع يا محمد سفاهة المشركين
بالطريقة الحسنة القائمة على حسن المعاملة والخلق

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ أى إنك إن فعلت ذلك ، وتعاملت مع الناس بالخلق الكريم ، والمعاملة الحسنة انقلبوا من العداوة إلى المحبة ، ومن البغض إلى المودة .

﴿ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا أهل الصبر والتحمل لأنهم لا يقابلون الإساءة بمثلها ، وإنما يردون عليها بالحسن ، وهذه حالة تحتاج إلى الصبر .

﴿ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى وما يقبلها إلا أصحاب الحظوظ العالية ، وأهل السعادة في الدنيا وفي الآخرة .

﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى إن أصابك وسواس من الشيطان في أى وقت فالجأ إلى الله ، واستعن به ينجيك منه فهو . سبحانه . السميع لأنات عبادته ، العليم بأحوالهم وأعمالهم .

وليعلم المسلم أن صرف إحياءات الشيطان بالاستعاذة منه من الدفع الحسن .

وفائدة هذه الاستعاذة تجديد داعية الطاعة والإخلاص في النفس لأن الشيطان ينزع النفس بوساوسه ، ويضع غشاوته عليها ، ولذلك كانت الاستعاذة عند لمة السوء ضرورة لقهر الشيطان ، وابعاده عن النفس . يقول النبي ﷺ : "إنه (أى الشيطان) ليغان على قلبي ، وإنى لأستغفر الله في اليوم مائة مرة" (١) .

(١) صحيح مسلم . كتاب الذكر والدعاء والتوبة . باب استحباب الاستغفار ج ٤ ص ٢٠٧٥ .

(٢٨٣)

ويقول ﷺ : "إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فأيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ... وأما لمة الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد لمة الملائكة فليعلم أنه من الله فليحمد الله ... ومن وجد لمة الشيطان فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم" (١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الملائكة تنزل على المؤمنين الصادقين عند القبض ، وفي القبر ، وحين المحشر ، وتبشرهم بالخير ، وتبعد عنهم الحزن والخوف وتبشرهم بالجنة التي وعدوا بها ، وتعرفهم أنهم وكلوا بهم لتحقيق ما يشتهون ويطلبون ، فهم ضيوف الله ، والله معطاء كريم .

وتوضح الآيات أن أحسن الأقوال هو الدعاء والدعوة ، وأحسن الأعمال الطاعة ، وأعظم الفخر أن يكون الإنسان مسلماً .

وترشد الآيات إلى منهج دعوى مستقيم يقوم على أن الإيمان خير من الكفر ، وأنهما لا يستويان ، وعلى المؤمن أن يدعو إلى الله بالحسن ، والخلق الكريم لتقريب القلوب ، وبناء المصلحة ، لأن حسن المعاملة وحسن الخلق تجعل العدو صاحبا ، وتقضى على العداوة والكراهية ، وتلك منزلة ينالها الصابرون ، أصحاب الحظوظ الراقية ، وتتصح الآيات بمواجهة وساوس الشيطان بالاستعاذة منه ، والله خير المجيبين .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب التفسير . باب ومن سورة "البقرة" ج ٥ ص ٢١٩ .

(٢٨٤)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

جزاء المستقيمين في الدنيا وفى الآخرة

المؤمنون بالله تعالى هم عباده الخالص الذين يؤمنون به ، ويحبونه ، ويلتزمون أمره ونهيه ، ويعتبرون بأنهم أنصار الله تعالى ، يرجون لقاءه وهم أطهار ، أتقياء صالحون .

إن عباد الله هم الذين يهتمون بدين الله ، ولا يقدمون غيره عليه أبدا ، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم لتكون كلمة الله هي العليا .

إنهم سعداء بعبوديتهم لله تعالى ، عاشوا التقوى بألسنتهم وأعمالهم وقالوا : ربنا الله ثم استقاموا لله بالمحافظة على العبادات ، وصيانة الحقوق ، وأداء كافة الواجبات عليهم .

وقد دلت الآيات على ما أعد الله لهم من عون ، وتأيد ، وانزال الملائكة عليهم الملائكة تطمئنهم في الدنيا وفى الآخرة ، وتطلب منهم أن لا يخافوا من الأهوال والمصائب .

ولا يحزنون على من خلفهم من الأبناء والأزواج ، وتبشرهم الملائكة بالجنة التى وعدها الله لهم ، وتتولى إعانتهم ، ونصرهم في الدنيا وفى الآخرة وتحقيق ما يتمنون ، وما يريدون ، وتهئ لهم المنزل العالى ، والمقام الكريم الذى قدره الله لهم .

إنهم ينالون خيري الدنيا والآخرة ، ويقدمون بأعمالهم ، وتقواهم نموذجا للمؤمنين الصادقين .

الركيزة الثانية

فضل الدعوة إلى الله تعالى

الدعوة إلى دين الله تعالى واجب شرعى على المسلمين جميعا ، لا يصح التقصير فيه أبدا ، والدعوة هى الطريق لإظهار الإسلام ، وايصاله للناس بينا واضحا ، فقد نزل الإسلام وحيا يحتاج إلى حركة تحمله إلى الناس ، وتبلغه للعالمين ، وهذا هو واجب الدعاة .

ولقد دعا رسول الله ﷺ الناس ، وورث أصحابه منهجيته في الدعوة إلى الله تعالى ... وحتى يجتهد المسلمون في هذا الواجب حدد الإسلام بعض المبادئ الأساسية في مجال الدعوة إلى الله تعالى ... ومنها :

- (١) بيان أن أحسن الأقوال هو الدعوة إلى الله تعالى .
- (٢) الاعتزاز بخدمة الإسلام ، والعمل على انتشاره في الناس .
- (٣) اتباع الخلق الكريم في الحياة والدعوة ، لأن الخلق الكريم يجمع القلوب ويوحد الناس .

إن هذه القيم في مجال الدعوة مبادئ رئيسية يحتاج الدعاة إليها ، والالتزام بها ﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾^(١) .

الركيزة الثالثة

بيان عداوة الشيطان للإنسان

الشيطان عدو للإنسان ، يعمل على إغوائه واضلاله ، وينتهاز لحظات الضعف فيه ليأخذه إلى مواطن الشهوة ، ومرابض الفساد ، ولذلك حق للإنسان أن يدرك عداوة الشيطان ، ويعمل على قهره ، والتغلب عليه بالوسائل الشرعية .

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

(٢٨٦)

إن وساوس الشيطان للإنسان متتابعة تأتي تبعا لهواه ، وتستغل جوانب الضعف عنده ، ولحظات اليأس والقنوط فيه ، وتعمل على إيقاع الإنسان في الشهوات المادية ، والمنكرات الأخلاقية .

وعلى الإنسان :

أن يرجع إلى الله حين تتتابه الوسوس ، ويستعين بالله ، ويستعِذ به من الشيطان الرجيم .

إن المسلم حين يلجأ إلى الله تعالى ينصره الله تعالى ، ويتركه الشيطان ويبتعد عنه . يقول الله عن الشيطان : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(١) .

إن الله ينقذ عباده ، وينصرهم ، ويخذل الشيطان ، ويرد وساوسه ، والله خير الناصرين .

(١) سورة النحل ، الآية ٩٩ .

آيات وجود الله وقدرته

يقول الله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ
اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾
وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ
إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن أحسن الأقوال الدعوة إلى الله تعالى جاءت
هذه الآيات لبيان أدلة الإيمان بالله ، وإثبات وحدانيته ، وقدرته ، وإمداد الدعوة
بالمَنْهَج الذى يساعدهم وهم يدعون إلى الإيمان بالله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات بعض الدلائل على وجود الله وقدرته ، وتورد الأدلة الفلكية
وهى الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، وتذكر الأدلة الأرضية التى يراها
الإنسان ، ويشاهد تطورها ، وانتقالها من حال إلى حال ، ويلمس حياتها بعد
موتها ، وكل هذه الأدلة شاهدة على عظيم قدرة الله تعالى .

(٢٨٨)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى ومن حجج الله

على خلقه ، ودلائلها على وحدانيته وقدرته إيجاد الليل والنهار ، وارتباطهما بالشمس والقمر حيث المنافع والفوائد المبنوثة في كل منهما ، وقد اختار الله من آياته هنا ما كبر منها ، وما عظمه بعض الناس فلقد عبد بعض الناس الشمس والنجوم كالصابئة وغيرهم .

ولذلك بين الله سبحانه وتعالى أنه الخالق لكل موجود ، وهذا دليل وحدانيته وقدرته ، لأن الموجود حادث أوجده غيره ، والحادث لا يصلح للألوهية ، ولا تصح عبادته .

﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ .

إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ أى لا تسجدوا أيها الناس للشمس ولا للقمر فهي مخلوقة حادثه . هداها الله لما خلقت له . وهى مسخرة لا تعقل شيئا ، ولم تدع الألوهية .

والأولى بالإنسان العاقل أن يعبد الخالق ، فهو القادر ، وهو السميع البصير ، واعلموا أيها الناس أن العبادة تكون لله الحق ، فخصوه وحده بالعبادة لأن عبادة غيره كفر به ، فإن آمنتم بوحدانية الله الذى خلقكم ، وتيقنتم أنه سخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر فخصوه وحده بالعبادة التى يستحقها .

﴿ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ أى فإن استكبر المشركون عن عبادة الله وحده ، وأبوا

الطاعة ، وتعالوا على دين الله فدعهم يا محمد ، واصبر ، واعلم أن الملائكة الموجودين في حضرة الله خير من هؤلاء ، لأنهم يطيعون الله ولا يستكبرون ، ويدأومون على الطاعة لا يفترون ، ولا يملون .

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
 أى إن المشركين يتكبرون على العبادة ، ولا يصدقون بدلالات الآيات الفلكية .
 وهم أيضا يكفرون بالأدلة الأرضية التي فيها معاشهم ، ومعها عملهم ونشاطهم .

إنهم يرون الأرض ساكنة ، هامة ، خالية من الزرع والنبات ، فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت ، ونمت ، وعلت ، وظهر فيها الزرع والنبات ، ويجهلون أن الله سيحييهم للحشر والحساب ، فقد أنكروا ذلك ، ولو فهموا وعقلوا ، لعلموا أن الذى أحيا الأرض ، وملاها زراعا ، ونباتا قادر على إحياء الموتى ، ونشرهم ، وحشرهم ، وحسابهم ، فهو على كل شئ قدير .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات دلائل القدرة الإلهية في مخلوقاته العلوية والسفلية وتسوقها للناس دلائل ليؤمنوا بالله تعالى ، ويتيقنوا من البعث والحشر والحساب ، ويعلموا أن الله على كل شئ قدير .

(٢٩٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دلالة الآيات الكونية

الله إله واحد خلق الإنسان ، وأكرمه ، وفضله على كثير من خلقه ...
وكان من رحمة الله بالإنسان أن دعاه إليه ، ووضع أمامه الآيات والحجج التي
خلقها في كونه العظيم .

خلق الله الليل وجعله سكنا وراحة ، وخلق النهار وجعله حركة ، وعملا
ومعاشا ، وجعل في الليل القمر بهدوئه ، وخفوت نوره ، وجعل في النهار
الشمس مع شدة ضوئها ، وقوة حرارتها .

وخلق الله الإنسان متوافقا مع حركة الشمس والقمر خلال الليل والنهار
فهو يكدح في النهار ويعمل ، وبعده يحتاج إلى السكون ، والراحة ، والهدوء
فيأتيه الليل ليسكن ويستريح .

ومن رحمة الله بالناس أن ربط الليل والنهار بسائر المخلوقات فلا بد
للنبات من أشعة الشمس ، ونور القمر ، ولابد لسائر المخلوقات من هذا التنوع
الزمني لتنضج ، لتحقيق الغايات التي خلقها الله لها .

ومن آيات الله في الكون حركة الماء فهو يبدأ بخارا يصعد إلى السماء
وتتبخر ذراته في مقادير معينة تكون سحابا يحركه الهواء ، حتى إذا وصل إلى
قدر معين نزل على الأرض مطرا فوق الهضاب والجبال ليصنع أنهارا تجري
فوق الأرض ، وفي باطنها لتصل إلى الأماكن الذي قدر لها ... وتصحوا
الأرض من رقادها ، وتحيا بعد مماتها ، وتهتز وتربو ، ويخرج الزرع والنبات

من الأرض بعد وصول المطر إليها ، ويعيش الإنسان متمتعاً بما خلق الله ،
منعماً بموجودات الله في الكون .

لو قاس الإنسان نفسه بالمخلوقات المسخرة لحمد ربه ، وشكره لما صنع
معه من فضل معروف فهذه المخلوقات ضخمة ومتنوعة وعديدة ، ولولا
تسخير الله لها ما قدر عليها الإنسان .

على الإنسان أن يتأمل في خلق الله ، ويتدبرها وهي تعمل له . يقول الله
تعالى : ﴿ إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ
لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١) .

فليتأمل الإنسان خلق الله ، ليعلم أنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير
، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ
سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۚ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ۚ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ
تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ
حَسِيرٌ ۚ ﴾ (٢) .

الركيزة الثانية

في آيات الله إثبات للبعث

أنكر المشركون البعث ، وتصوروا استحالته بعدما رمت الأجساد ، وبليت
، وتناثرت ، وتداخلت ... إلا إن هذا التصور غير صحيح لأن الله أوجد خلقه
الكبير ، وأحيا الأرض بعد موتها ، وأنبت فيها الزرع والشجر ، والحقول ،

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠ .

(٢) سورة الملك ، الآية ٣ ، ٤ .

والغابات ، وصانع ذلك قادر على أن يحيى الموتى ، وعلى أن يبعثهم ، ويحشرهم ، ويحاسبهم ، ويجازيهم على أعمالهم .
ولا يصح أن يعيش المسلم في آلاء الله ، ويتمتع بمخلوقاته ثم ينكر ما أخبر الله به ، وهو قادر عليه .

إن ربي على كل شئ قدير ، وهو يبعث من في القبور : ﴿ وَيَسْتَدْعُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ^(١) .

الركيزة الثالثة خبل عقول المشركين

تبين الآيات أن الله خلق كونه الكبير ، وأوجد فيه آياته العظام ، والمؤمنون يعبدون الله الذى خلق هذا الكون ، وسخره لهم ، ويسبحونه سبحانه على هذا الفضل والتقدير .

إلا أن الضالين الذين أضلهم الله تعالى يلتوى فيهم النظر ، وتأخذهم الدهشة ، ويعظمون المظاهر الكونية ، وبدل أن يعبدوا ربهم مالك الملك ، يعبدون الأصنام والأوثان .

إن الإنسان يرى ببصره المخلوقات ، ويرى بعقله وبصيرته الله ، ومن البدهيات أن يعبد الإنسان ربه الذى خلق فسوى ، وقدر فهدى ... إلا أن المشركين تغافلوا عن هذه الحقيقة فأعمى الله أبصارهم ، وبصائرهم ، فتخطوا في التفكير ، وأهانوا أنفسهم بعبادة أحجار وأصنام ، واتخاذ آلهة مع الله تعالى ، لا تقدر على شئ أبدا .

(١) سورة يونس ، الآية ٥٣ .

إن الله هو الخالق ، وهو المستحق للعبادة وحده . يقول الله تعالى :
﴿ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ ۚ إِنَّ كُنُتُمْ
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾^(١) .

إن على المؤمن أن يرتقى بسلوكه وعمله ، وأن يتدبر الأمر بعقل وفهم
وأن تتأمل فى الآيات ، والبراهين ، وأن يتعظ بقصص الأمم السابقة ، وأن يؤمن
بالله المستحق للعبادة ، مالك الملك ، المحيى والمميت ، له الأولى والآخرة ،
واليه ترجعون .

إن الإنسان عبد مخلوق ، وله عقله المدرك وله حواسه الظاهرة ...
ولا يصح له أن يقلد بلا وعى ... أو يؤله من لا يستحق ، ولا يهتم وسط الناس
كما يهتم البهائم فى مراعيها .
إن الكافر جاحد ضال ، بعيد عن الفهم والهدى ... ولا يجوز لعاقل
أن يماثله .

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٧ .

إنذار المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا ۚ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَكَاثِبٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ۚ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝ مَّنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة دلائل التوحيد ، وبراهين صدق البعث جاءت هذه الآيات بإنذار من ينكر البعث ، ولا يؤمن بالله تعالى ، وينكر أن القرآن الكريم كلام الله تعالى .

(٢٩٥)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين الذين يكفرون بآيات الله تعالى سوف يخزيهم الله تعالى يوم القيامة ويعذبهم بعذاب أليم ، فقد كذبوا بالحق بعد ظهوره ، وكذبوا بالقرآن جحودا وعنتا مع تيقنهم من أنه كلام الله تعالى .
وتبين الآيات أن موقف الكفار من القرآن يشبه مواقف المكذبين لرسول الله تعالى في الأمم السابقة ، فقد كذبوا بالوحي وبما جاءوا به .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾ أى إن الذين يميلون عن الحق ، ويجحدون أدلتنا ، وحجبنا ، وبصرفون الناس عنها لا يخفون عنا ولا يغيبون عن علمنا ، فالله يعلمهم ، وأقوالهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم ، وسوف يحاسبهم حسابا عسيرا ، ويجازيهم بأسوا ما كانوا يعملون .
وفى هذا تهديد للمشركين ليعلموا أن الله يعلم نياتهم ، ومقاصدهم وأنهم مهما خادعوا ، واستتروا ، فلن يخدعوا الله ولن يستتروا عنه .
﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ؟ ...
الاستفهام تقريرى لبيان الفرق بين الملحد الذى يلقي في النار لكفره ، وبين المؤمن الذى يأتى آمنا يوم القيامة ، ويدخل الجنة ...
والجواب يحدد غاية السؤال وهو بيان رفعة مقام المؤمنين ، وحسنه ، وعظمته ، وبيان حال الملحدين المشركين ، وهوانهم ، وسوء مصيرهم .

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أى اعملوا أيها الناس ما تميلون إليه ، وتريدونه ، فقد بلغتكم الدعوة ، وبان لكم الطريق ، والله مطلع على نواياكم وأعمالكم .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أى إن المشركين الملحدين كفروا بالقرآن الكريم ، ولم يعملوا به مع أنه جاءهم ، وفيه صلاح الدنيا والآخرة ، ولم يلتفتوا إلى آياته ، ولم يتدبروا في نصائحه ، وتوجيهاته فاستحقوا اللعن والطرده من رحمة الله تعالى .

﴿وَأَنَّهُ لَكَتَّابٌ عَزِيزٌ﴾ أى إن كفر الملحدين بالقرآن الكريم دليل على سفاهتهم ، وخبل عقولهم ، فهو كتاب خال من الريب والعوج ، متضمن لآيات صادقة ، وحجج باهرة ، معجز بلفظه ، يعجز ما عداه عن مجاراته أو الإتيان بأقصر سورة مثله .

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أى إن القرآن الكريم لا يعتريه البطلان ، ولا يوجه إليه نقد فهو مع الحاضر والمستقبل حق كله ، وهو مع من سبقه مؤكد ومصدق ... والمراد بـ ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الحاضر والمستقبل ، وبـ ﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ الماضى .

﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ أى إن القرآن الكريم نزل من عند الله رحمة للناس أجمعين .

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ أى إن الذى يقوله لك المكذبون يا محمد عن القرآن الكريم هو مثل ما قاله السابقون لرسولهم ، فاصبر كصبر إخوانك الرسل ، ودع المشركين وافكهم .

ويذهب البعض إلى أن المعنى ما يقال لك من ربك ، وما ينزل عليك من الوحي هو مثل ما قيل وما نزل على الرسل من قبلك ... وكلا المعنيين تقوية لعزيمة رسول الله ، وتأيد له في الدعوة .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى إن الله تعالى عليم بأعمال الناس ، وهو صاحب المغفرة لمن يتوب عن عصيانه ، ويرجع إلى الله تعالى ... وهو الذى يعاقب المجرمين بالعقاب الأليم يوقعه على من يستحقه .
﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ بيان لعنت المشركين ، وعدوانهم على القرآن الكريم ، وسوء موقفهم من القرآن الكريم ...

وقد بينت سورة "فصلت" من خلال آياتها علو شأن القرآن الكريم . فقد بدأت السورة بإثبات أن القرآن الكريم : ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ، وأكدت ذلك ، وبينته من خلال آياتها الدالة على قدرة الله ، وخلقه للكائنات ، ودعوته إلى الصدق والإخلاص .

وتبين السورة في بعض آياتها موقف المشركين ، وعنهم مع القرآن الكريم . يقول الله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (٢) أى أنهم لم يؤمنوا به ابتداء ، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا

(١) سورة فصلت ، الآية ٢ ، ٣ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٤ .

تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيءَ آذَانِنَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴿١﴾ وقصدوا بذلك إغاطة النبي ﷺ وبيان عدم اقتناعهم بحجج القرآن الكريم ، ثم تجمعوا لصد الناس عن سماع القرآن الكريم ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ ﴿٢﴾ وهذا تصرف منهم يدل على عجزهم وسفاهتهم فهم لأنهم عجزوا عن الإتيان بأقصر سورة منه ، ولم يتمكنوا من مواجهة حجه بحجج أخرى لجأوا إلى التهريج بالخبث والعبث .

وكانت النهاية أن أُنذِرهم الله تعالى بالعقاب لأنه يعلمهم ، ويعلم سوء صنيعهم فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا ﴾ ﴿٣﴾ .

ثم وضح لرسول الله تعنت المشركين ، وسفاهتهم مع القرآن الكريم حتى لا يتأثر بمواقفهم فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ ﴿٤﴾ أى إن هؤلاء المشركين متعنتون فى موقفهم من القرآن الكريم فلقد جاءهم بلغتهم فعارضوه ، ولو قدر الله وأنزله قرآنا بلغة العجم لأنكروا ذلك وقالوا : لو فصل بلغتنا ، ولعارضوه ببيان كيف ينزل القرآن الكريم بلغة العجم مع أن الرسول عربى ، وجاء يدعوننا به ، ونحن لا نفهم إلا اللغة العربية .

وهكذا فلا شئ يرضيهم ، فالقرآن العربى لا يقنعهم ، ولو كان أعجميا لاعترضوا عليه كذلك .

(١) سورة فصلت ، الآية ٥ .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٢٦ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٠ .

إن القرآن الكريم نزل بلغة من نزل فيهم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ﴾^(١) محمد ﷺ بلغة العرب : ﴿ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾^(٢) أى ما آمنوا به وكذبوه .

وهذه الآية بينت فرض أن ينزل القرآن على الرسول العربي ﷺ بلغة غير العربية ليبين موقف المشركين في مكة من هذا .
وفي هذه الآية إشارة إلى عموم رسالة محمد ﷺ للعرب والعجم فلم يكن عجباً أن ينزل القرآن بلغة غير العرب لولا أن في إنزاله بالعربية حكمة علمها الله ، فقد اصطفى الرسول ﷺ عربياً ، وبعثه ابتداء بين أمة عربية ولذلك نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، إذ لو نزل كتابه بغير العربية لاستوت لغات الأمم كلها في استحقاق نزول الكتاب بها ، ولأوقع ذلك تحاسداً بين الناس بخلاف العرب الذين عاشوا في عزلة عن بقية الأمم ، فلا جرم رجحت العربية لذلك ، فهي لغة الرسول ﷺ ولغة القوم المرسل بينهم .

ثم إن العرب الذين يتولون نشر هذا الدين بين الأمم ، وتبيين معاني القرآن لسائر الناس هم أقدر الناس على حفظ لغات الآخرين ، والتحدث بها مثلهم ، وهذا يساعد على تبليغ الإسلام للعالم كله ، ومخاطبة الناس جميعاً كل بلغته كما أن عملية التبليغ تطلب من كل مسلم أن يعلم غيره ما يعلمه .
يقول النبي ﷺ "ألا ليبلغ الشاهد الغائب"^(٣) .

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٩٨ ، ١٩٩ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية ١٩٩ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب المغازى . حجة الوداع ج ٥ ص ١٧٧ .

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ﴾ أى قل يا محمد لهؤلاء

المشركين المتعنتين : إن القرآن الكريم الذى تعارضونه يهدى المؤمنين للحق ويشفى صدورهم من كل ريب وشك ، وهو سبيلهم إلى الله تعالى .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ أى إن

القرآن الكريم الذى لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون بكلامه ثقيل فى آذانهم ، وعمى لأعينهم وبصائرهم ، فهم يسمعون هديا ، ولا يرون استقامة بعدما اسودت قلوبهم ، وطبع الله على أسماعهم وأبصارهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾^(١) .

﴿ أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ أى أنهم لا يفهمون حديثا ،

ولا يسمعون صوتا كأنهم ينادون من مكان بعيد عنهم ، ولبعده لا يسمعون النداء

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ أى ولقد آتينا التوراة

لموسى عليه السلام من قبلك يا محمد فاختلف قومه فيه ، فمنهم من صدقه ، ومنهم من كذبه .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ ولولا أن الله

قضى بأن لا يستأصل المشركين بعذاب لقضى عليهم ولأهلكهم ، فقد قضى

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

(٣٠١)

سبحانه وتعالى بتأخير عذابهم . فقال تعالى : ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾^(١)
وقال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ يُؤَخَّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾^(٢) .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ أى إن قومك يا محمد يشكون فى القرآن الكريم عتوا واستكبار فدعهم وعملهم ، وفى يوم القيامة ينالون جزاءهم .
﴿ مَّنْ عَمَلٍ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ أى إن حكم الله فى الناس أنه من عمل صالحا فقد أفاد نفسه ، وفاز بالجنة ، ومن كفر وأساء فله عذاب أليم .
﴿ وَمَا رُبُّكَ بَظْلَمٌ لِّلْعَبِيدِ ﴾ أى إن الله رب رحيم لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله عليم بجميع خلقه ، ومنهم الذين يلحدون فى القرآن الكريم ، وسيعاقبهم بنار جهنم . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم مع أنه كلام الله تعالى الخالى من العوج ، البعيد عن التعارض والاختلاف .
وتبين الآيات أن الله أوحى لمحمد ﷺ بما أوحى به للرسل السابقين ، ووقف مشركو مكة من القرآن الكريم مثل وقوف السابقين من الوحي المنزل إليهم ... فلا تهتم بمعارضاتهم ، فلقد اعترضوا على القرآن العربى ، ولو أنزلناه بلغة أخرى لاعترضوا أيضا ، وذلك من سفاهتهم ...

(١) سورة القمر ، الآية ٤٦ .

(٢) سورة النحل ، الآية ٦١ .

(٣٠٢)

وتوضح الآيات أن القرآن الكريم للذين آمنوا هدى وشفاء ، وهو للمشركين
عمى وخسارة ، وسيقضى الله بين الناس يوم القيامة فمن اهتدى فلنفسه ، ومن
أساء فعليها .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

علم الله محيط بالكافرين

يتعصب المشركون لباطلهم ، ويعملون على نشره وظهره ، ويلجأون إلى
خطط مستورة وكيد خفى يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويحاولون توجيه
الآيات وليها لتفيد غير معناها ، يظن المشركون أن الله لا يعلم سرهم ،
وعملهم ، ولن يعاقبهم على مكرهم ، وفسادهم ، ولذلك يؤكد الله أن يعلم سرهم
ونجواهم ، ويحيط بمكرهم وخداعهم ، ولذلك يسألهم عن فريقين من الناس فى
الآخرة ، فريق يلقى فى النار خالدا فيها ، وفريق يأتى آمنا يوم القيامة سعيدا
بنعيم الله تعالى .

إن الله سبحانه كل إنسان بعمله ، وقد أعطاه العقل ، وعرض عليه
الآيات ، وبعث إليه الرسل ، وترك لهم اختيار الطريق الذى يريدونه ، ولذلك
قال الله لهم : اعملوا ما شئتم فإن الله بصير بكل ما تعملون ، سميع بكل
ما تقولون ، وسيجازى الجميع بعدل ولا يظلم ربك أحدا .

إن بيان مصير المشركين فى الآخرة ، وإحاطة علم الله بأعمالهم ،
وأقوالهم ، وأحوالهم تحذير لسائر الناس ليتجنبوا ما كان المشركون فيه ،
ويستقيموا على الصراط المستقيم .

(٣٠٣)

وعلى الدعاة أن يعرفوا حجج المشركين ومزاعمهم ليحصنوا أنفسهم
وغيرهم بالحق ، ولا تلعب بهم الوسوس والشهوات .

الركيزة الثانية

رد أقوال المشركين عن القرآن الكريم

اتجه المشركون في ردهم لدين الله تعالى إلى رد مصدره ، وهو القرآن
الكريم فقد كفروا به ، ولم يصدقوا أنه كلام الله ، وقالوا عنه : إنه سحر ، وأنه
ليس كلام الله تعالى ، وأن محمدا اختلقه من قبل نفسه ، وأخذوا يتعننون مع
القرآن الكريم ، ويتساءلون عن سبب عدم نزوله بلغة غير اللغة العربية .
وقد رد الله هذه الافتراءات ، وبين أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ،
وأودع فيه عزة الإيمان ، وحكمة الله تعالى ، وأنه كتاب لا ريب فيه ،
ولا اختلاط ولا تعارض فيه .

وقد أنزل الله القرآن الكريم بلغة العرب لعلمه سبحانه وتعالى أن أمة
العرب هي خير الأمم في حمل الإسلام ، وإيصاله للعالم كله ، ولذلك كان
القرآن بلغتهم ، ولذلك فلا عبرة بما يقوله المشركون عن لغة القرآن الكريم ...
ومن المعلوم أن القرآن الكريم لو نزل بغير اللغة العربية لقالوا : لم لم ينزل بلغة
العرب ؟

إن المشركين متعننون مع القرآن الكريم ، ومع رسول الله ﷺ ، وقد
أصابهم الله بالصمم والعمى فلا يرون ، ولا يسمعون ، ولا يعقلون .
إن المشركين يسировون على خطى الضالين من قبلهم ، وقد سلكوا جميعا طريق
الكفر والضلال .

(٣٠٤)

وواجب الدعاة والمسلمين أن يهتموا بالقرآن الكريم ، وينشروه بين الناس وينفوا عنه مزاعم الضالين وأكاذيب الأفاكين ... ويجب أن يتحول القرآن الكريم بين المسلمين مصدرا للتربية ، وأساس للتوجيه والأعلام ، ومبدأ الحكم والعدل .

الركيزة الثالثة

كل نفس بما كسبت رهينة

تؤكد الآيات حقيقة هامة وهى أن كل نفس بما كسبت رهينة ، واختلاف الناس لا يؤدي إلى ضياع حق ، فاختلاف الناس أمر ثابت فى كل الأمم ، فقد اختلفت الأمم جميعا مع رسلهم ، وظلوا على هذا حتى قضى الله بينهم . وجاء موسى عليه السلام فاختلف فيه ، وهذا حال الناس دائما ، ولكل إنسان ما ذهب إليه فمن عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام العبيد.

(٣٠٥)

بعض ما استأثر الله بعلمه

يقول الله تعالى :

﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنَّوْا مَا هُمْ مِنْهُ مَحْجُوسٍ ﴿٤٨﴾﴾ (١).

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة أن جزاء كل أحد يصل إليه يوم القيامة جاءت هذه الآيات لبيان القضايا التي استأثر الله بالعلم بها ، ومنها ميعاد مجئ يوم القيامة حيث يرى كل إنسان جزاءه .

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيات أن الله استأثر بعلم وقت يوم القيامة ، وما تخرجه الأكمام من ثمراتها ، وما تحمله الأنثى في بطنها ، ويعلم موعد وضعها وولادتها ... وتوضح الآية أن الله يسأل المشركين يوم القيامة عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها فينكرون ويقولون : لم يشهدا أحد منا ، ونحن كافرون بها .

(١) يبدأ الجزء الخامس والعشرون بهذه الآية وهي من الآيات الأخيرة في سورة "فصلت" .

(٣٠٦)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى علم وقت مجئ الساعة لله وحده ،

لا يعلمه غيره ، وتقدم الجار والمجرور يفيد اختصاص الله بعلم وقت الساعة .

والساعة هى يوم القيامة ، ويراد بالساعة الوقت الذى حدده الله ليوم القيامة ، وأخفاها عن الناس . يقول الله تعالى : ﴿ لَا تُجَلِّيْهَا لَوَقْتُهَا إِلَّا هُوَ ﴾^(١) .

وقد أخفى موعد يوم القيامة عن الناس ليستعد لها من يؤمن بها ، فلقد اقترب أجلها ، وحان وقت وقوعها ، فليعلم الناس ذلك ، ويعملوا لها ... يقول الله تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ﴾^(٢) ... ويقول سبحانه : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ﴾^(٣) .

وضم الله إلى العمل بالساعة أموراً أخرى لا يعلمها إلا هو ... وهى :

- ﴿ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامٍهَا ﴾ أى يعلم الله الثمرات التى تخرجها

النخلة من أكمامها ، والأكمام جمع "كم" بوزن "عم" والمراد به الجف الذى يخرج من النخلة محتويًا على طلع الثمر ، وهو عبارة عن كيس مستطيل مغلق يخرج من النخلة ، بداخله الطلع المشتمل على حبيبات صغيرة فى أفرع رفيعة متضامة ، ينغلق الكم بها فتكبر شيئاً فشيئاً فينفلق وتخرج منه ، وتكبر حتى تكون ثمرًا متدليًا فى بساط البلح والتمر .

والله يعلم ما فى الأكمام قبل انغلاقها من ناحية المقدار ، واللون ، والجودة ، وموعد سقوطه ، وبناعته .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٨٧ .

(٢) سورة القمر ، الآية ١ .

(٣) سورة النحل ، الآية ١ .

(٣٠٧)

- ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ ﴾ أى إن الله يعلم ما تحمل كل أنثى من الإنسان والحيوان وسائر الكائنات .

- ﴿ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ أى ويعلم الله موعد وضع الأجنة والولادة لا يعلمها إلا هو .

فإن قيل : لم أوردت الآية ما في الأكمام ، وما في الأرحام ، ووقت الولادة مع موعد قيام الساعة ؟

أقول : ذكر الله هذه الغيوب في الآية ليثبت ما غاب وبعد بما هو مشاهد للإنسان ، فما تخرجه الأكمام ، وما تحمله الأنثى غيب لا يراه الإنسان ، ولا يعلمه إلا بعد وجوده ، فجاءت بها الآية لإثبات غيب موعد الساعة ، فهو مثل هذه الغيوب قبل وجودها لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَيْءٍ ﴾

أى اذكر يا محمد لقومك ما يحدث لهم يوم القيامة ، فسوف يسألهم الله عن أصنامهم التى عبدوها في الدنيا ، وجعلوها شركاء لله ، ويقول لهم استهزاء بهم : أين هى اليوم ؟

فيردون عليه ويقولون : لقد أعلمناك وأخبرناك ، وأسمعناك بأن أحدا لا يشهد لهم بالآلوهية اليوم ، فقد تبرأنا منهم ، ولم يشاهدهم أحد منها اليوم .

﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أى وغاب عنهم يوم القيامة

الآلهة التى كانوا يعبدونها في الدنيا .

﴿ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾ أى وأيقنوا في الحشر أنه لا ملجأ لهم ،

ولا مهرب أمامهم ينقذهم من عذاب الله تعالى .

(٣٠٨)

- ٤ -

معنى الآيتين

تبين الآيتان أن علم وقت الساعة غيب لا يعلمه إلا الله تعالى ومثله علم ما في الأكمام والأرحام ... وفى يوم القيامة ينادى الله الكافرين ، ويسألهم عن آلهتهم التى عبدوها فى الدنيا ، فيتبرأون منهم ، ويقولون بأنها غابت ، ولم يشاهدوها ، وتيقنوا حينئذ أنه لا مهرب لهم من عذاب الله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيتين

تتضمن الآيتان عددا من الركائز ... أهمها :

الساعة غيب لا يعلمه إلا الله تعالى

الحياة الدنيا دار العمل والسعى والكدح ، جعلها الله مقدمة للدار الآخرة فهى دار الحساب والجزاء .

وقضى الله سبحانه وتعالى أن يكون موعد قيام الساعة غيبا لا يعلمه إلا هو ليعمل الناس له ، ويستعدوا للقاء الله فى الموعد المقدر له ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾^(١) فى الآية أمر بالتقوى والاستعداد للموت الذى يقع فى وقت لا يعلمه إلا الله تعالى .

وكذلك كان غيب يوم القيامة فقد أخبر سبحانه باقترابه ، وحدد له علامات صغرى وأخرى كبرى ، وقد ظهر الكثير منها ... ومع ذلك جعل الله وقت وقوعها غيبا على الناس ليستعدوا لها بالعمل الصالح . يقول النبى ﷺ :

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٢ .

(٣٠٩)

"أحرز لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا"^(١) ، ويقول ﷺ : "إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح"^(٢) ... ومن دعاء النوم أن يقول المسلم عند نومه : "باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين"^(٣) .

إن على الإنسان المسلم أن يستعد للموت فى كل لحظة ، ويتوقعه فى كل آن ، وحين يتذكر الإنسان ذلك ، ويتيقنه ، لا يضيع وقتا فى معصية ، ولا يترك طاعة يكلف بها . يعيش المسلم عابدا لله تعالى ، خاشعا لربه ، عاملا للقاءه ، يرجو رحمته ويخاف عذابه .

الركيزة الثانية

خزى الكافرين فى الآخرة

فى يوم القيامة يحاسب الله الخلائق ، ويعطى كل نفس ما تستحق ، ويأتى الذين أشركوا فى الدنيا ، وعبدوا غير الله تعالى ، وحين يحاسبهم الله تعالى سيسألهم عن آلهتهم التى عبدوها من دون الله ، وعند الحساب ستظهر لهم الحقيقة ، ولا يرون للأصنام أثرا ، ولا يجدون منها عونا ولا نصيرا ، وغابت الآلهة المزعومة ، وتأكدوا من عذاب الجحيم .

(١) مسند الحارث . كتاب الزهد . باب كيف العمل للدنيا والآخرة ج ٢ ص ٩٨٣ .

(٢) شعب الإيمان . كتاب الزهد وقصر الأمل ج ١٢ ص ٤٧٣ .

(٣) سنن أبى داود . كتاب الأدب . باب ما يقال عند النوم ج ٤ ص ٣١١ .

تخير الإنسان بين الخير والشر

يقول الله تعالى :

﴿ لَا يَسْعَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُحْسِرُ قَنُوطٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّاهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ ۚ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة براءة المشركين من أصنامهم في الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان حيرة المشركين في الدنيا ، وتذبذبهم بين الإيمان والكفر .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الإنسان متبدل الأحوال ، متغير الأطوار ، إن أصابه خير فرح به ، واغتر ، وتكبر ، وإن أصابه ضرر استكان وأصابه اليأس والقنوط .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَا يَسْعَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أى لا يمل الإنسان من طلب الخير لنفسه ، فهو يتمنى الصحة ، والعافية ، وسعة الرزق ، وكثرة المال والولد ، ومهما يؤتى من هذا الخير فإنه يطلب المزيد ، ولو كان له واد من ذهب ،

لتمنى الثانى ، ولو أعطى الثانى لتمنى الثالث وهكذا يستمر الإنسان في طلب المزيد من الخير والمنفعة .

﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤْسُقْنُوهُ ﴾ أى وان أصابه بؤس ، وضيق في نفسه ، أو في أى أمر يتصل به ، كضياع مال ، أو الابتلاء بمرض ، أو فقد ولد يؤس من فضل الله تعالى ، وأصيب بالكسل والانتكاسار ... فهو غير مستقر على حال واحدة ، تغيره المواقف ، وتبدله الأحوال .

﴿ وَلَئِنْ أَدْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ أى ولئن كشفنا عنه ما أصابه من فقر ، ومرض ، وبلاء ليقولن : هذا حقى الذى وصلت إليه بجهدى وعملى ، وينسى فضل الله وعطاءه ، ويعتر بنفسه ، ويتكبر ، ويكفر بالله تعالى .

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى يصيبه الزهو ، ويقول : لا أتوقع مجئ الساعة ولا أومن به ، وأنه لا بعث ، ولا حشر ، ولا حساب ، وتصير الدنيا هى كل أمله ، وحياته ، ويكفر بحياة ما بعد الموت .

ويقول أيضا : ﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْنَىٰ ﴾ أى وان انتهت الدنيا وحدث ما تقولون ، وجاءت الساعة فإنى سأجد ربي كريما ، يعمنى عطفه ، ويشملنى كرمه ورحمته .

﴿ فَلَنَنْبِتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يؤكد الله ويقسم بأنه سيخبر الكافرين بما عملوا يوم القيامة من كفر ، وعصيان وضلال ، ويؤكد أنه سيعاقبهم بما يستحقون ، ويذيقهم العذاب الأليم ، وسيريهما ما تصورونه غاب وانقضى .

والنبا هو الخبر الهام ، المثير ، المتصل بالماضى البعيد ، ومعنى هذا أن الله سيخبرهم بأعمالهم السيئة مهما كان قدمها .

(٣١٢)

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ ﴾ أى إذا تفضلنا على الإنسان ، ورفعنا عنه الضر ، ودعونا إلى الإيمان أعرض عما دعونا إليه ، واستكبر عن الاستسلام والانقياد لأمرنا .

﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ أى وإذا أصابته شدة ، وضر وألم لجأ إلى الله ، وأخذ يدعو لرفع الضر ، وكشف الغمة ، وأكثر من الدعاء وأطال ، وهذا تناقض يدل على نفاق فاعله ، وعدم صدقه في أى موقف يتخذه ، لأنه لو كان صادقا في إيمانه لثبت على ما آمن به .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الإنسان متردد متحير لا يصلحه إلا الإيمان بالله ، والثقة في رحمته وقدرته ، لأنه لا يمل من طلب النفع والخير ، فإن تحقق له الخير اغتر به ، وادعى أنه بعمله وجهده ، وإذا مسه الشر يئس وقنط ، وسبب ذلك بعده عن الإيمان ، وإنكاره لليوم الآخر ، واعتقاده أن المتع في الدنيا وحدها ، ولا حياة بعدها ، وأنه إن رجع إلى الله كما تزعمون فستكون له منزلة كريمة ، وهذا كله ضلال وغرور ، لا صلة له بالإيمان ، ولذلك يؤكد الله أنه سيخبره بعمله يوم القيامة ، ويعذبه على كفره عذابا أليما .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

أطماع الإنسان الجاحد وأنانيته

إن الإنسان خلق هلوفا ، ولذلك تراه لا يثبت على الحق ، ولا يستقر على الصواب ، ولذلك يغتر بذاته ، ويدعى أن يستحق كل خير ، ويدعيه ، ويتمناه

(٣١٣)

... ولأنه إنسان مادی شهواتي يعيش مع أنانيته ، وحبه لذاته ، نجده إذا رأى خيرا فرح به ، وإن أصابه ضرر يئس ، وقنط ... إنه ينكر يوم القيامة ويزعم أن لا حياة بعد الدنيا ، ويزعم علو مقامه ، ورفع شأنه ، ويدعى إنه إن وقعت القيامة كما يزعم المؤمنون سيكرمه الله تعالى .

إن الجاحد كافر بنعم الله تعالى ، محب لذاته ، مغرور ، متكبر ، وسوف يصلية الله في نار جهنم .

ضرورة التأمل والتفكير في آيات الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ سُرِّبَهُمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنَ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ؕ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطُونَ ﴿٥٣﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الإنسان الضال متحير مغرور لا يثبت على حق ولا يهتدى ببرهان جاءت هذه الآيات تدعو للتأمل والتفكير في الإنسان ، وفي الكون للإيمان بالله وباليوم الآخر .

(٣١٤)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن أشد الضلال الكفر بالله تعالى ، وتكذيب القرآن الكريم ، وتدعو إلى التأمل والنظر في خلق الإنسان ، والكون لمعرفة أن الله هو الحق وأن قرآنه هو الصدق ، وأن علمه محيط شامل .
إن المشركين ينكرون اليوم الآخر ، وسوف يعلمون أن اليوم الآخر حق وأن الله بكل شئ محيط .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ ؟ ... أى قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يكذبون بالقرآن الكريم : أخبروني أيها القوم عما تفعلونه إن ثبت لكم أن كان هذا القرآن الكريم كلام الله تعالى وكنتم تكذبونه ، وتكفرون به ؟
ألا يعد ذلك منكم جهلا بالحق ؟ وانكارا للواقع ؟ وبعدا عن الصواب ؟ وهل ستقرون أنكم كنتم مفارقين للحق ، منصرفين عن سواء السبيل ؟
ألا ما أكثر ضلالكم ... وما أظهر إفككم وكذبكم !! ...

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾
أى سنرى أهل مكة أدلة قدرتنا في الكون المحيط بهم ، والبعيد عنهم ، وفى أنفسهم حتى يظهر لهم أن الله خالق الكون ، وهو الواحد الأحد لا شريك له .
﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ؟ ... الاستفهام لإنكار عدم إيمان المشركين بدين الله تعالى ، وتصورهم أن الله لا يفيهم مع أنه سبحانه وتعالى كاف لكل خلقه ، وهو سبحانه شهيد على جميع أفعال عباده

، وأقوالهم ، وهو الشاهد الحق ، فقد شهد بصدق محمد ﷺ وأرسله للناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ "ألا" حرف تنبيه وتخصيص أى أنهم في شك في البعث والحشر والحساب ، بلا تدبر في دليل ، أو نظر في حجة .

﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى عليم بكل شئ خبير بجميع ما خلق ، وهو الله رب العالمين ، وفى هذا تأكيد لسوء إنكار المشركين لليوم الآخر ، مع أن الله عرفهم بالآيات ، وبعث لهم الرسول مبشرا ونذيرا ، وداعيا إليه سبحانه وتعالى .

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآيات رسول الله بأن يعرف المشركين سفاهتهم في الكفر بالله تعالى ، وعدم تصديق القرآن الكريم ، وانكار نزوله من عند الله تعالى ، وهذا ضلال كبير منهم .

وتبين الآيات أن الله قد أراهم آياته ، وسيرهم حججه الدالة على قدرته الكائنة في أنفسهم ، وفى الكون المحيط بهم والبعيد عنهم ليعلموا أن الله هو الحق ، ويكفى أن ما أخبرنا الله به هو الحق ، وأن الله على كل شئ شهيد .

إن المشركين في شك من اليوم الآخر ، وأنه سبحانه عليم بكل شئ ، وهو على كل شئ قدير .

(٣١٦)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

خزي الكافرين في الآخرة

الخلق جميعا راجع إلى الله للحساب والجزاء ، وفى يوم القيامة يفرح المؤمنون بدنياهم فقد هداهم الله للحق ، ووفقهم للصراط المستقيم ، وقدر لهم الصلاح والتقى ، وهم في آخرهم آمنون سعداء برضوان الله تعالى .
أما الضالون المكذبون فهم في حسرة وندم ، فقد ظهر كذبهم ، وضلال ما كانوا فيه ، وما كانوا به مؤمنين .

سيرون أن الله هو الحق المبين ، وسيعلمون أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى ، وقد كذبوا به في الدنيا ... وستظهر عليهم علامات الهوان فتسود وجوههم ، ويأخذون كتابهم بالشمال ، ويتيقنون من ضلالهم وكذبهم على أنفسهم ، وعلى الله الذى خلقهم ، وبعدهم الكبير عن الحق والصواب .
سيشهد القرآن الكريم عليهم ، ويخزيهم ، ويبين مفارقتهم لتعاليمه ، ومهمة الدعاة تتبع الضالين في الدنيا ، والتحذير منهم ، وبيان صدق القرآن الكريم ، وضرورة اتباعه ، والتمسك بما جاء فيه ففيه المنهج القويم وهو حبل الله المتين .

وليعلم كل مسلم أن من يعصى القرآن الكريم فقد عصى الله تعالى ، ومن أراد النصر والفوز فعليه بالقرآن الكريم .

يجب على كل مسلم التمسك بكتاب الله تعالى ، والتمسك بحبل الله المتين وهجر طريق الضالين المكذبين .

(٣١٧)

الركيزة الثانية **معرفة الله من خلقه**

الإنسان ظالم لنفسه فقد خلقه الله وسواه ، وأرسل له الرسل وبث الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته في كل خلقه ، ولو تدبر الإنسان في بعضها بعقل واع لآمن بالله رب العالمين .

ففى النفس البشرية آيات شاهدة على قدرة الله تعالى ، فالجوارح وعملها ، والعقل وتفهمه ، والباطن ووظيفته ، والروح وانطلاقها عجائب الله في الإنسان ...

هل صنعها الإنسان لنفسه ؟ ...

أم أوجدها صنم أو حجر أو بشر ؟ وهذه الصورة البشرية الظاهرة ...

من ركبها ؟

من صنعها ؟

من جعل العين ترى ؟

من خلق العضلات تتنثى وتتلى ؟ ... من ... من .

إنه الله رب العالمين .

من رفع السماء ؟ من بسط الأرض ؟ من أجرى الريح ؟ من أنزل الماء ؟

كل ذلك خلقه الله ليتمتع به الإنسان ، وبعد ذلك يكفر بالله الذى خلق كل

شئ .

والمطلوب أن يستفيد الإنسان بعقله ، ويتأمل في الخلق والإبداع ليعرف

الله تعالى ... وأن يتأمل في دعاوى الكفر والضلال .

والدعاة هو أولى الناس بتوضيح دعائم الإيمان في النفس والكون والحياة

، ويبينوا للناس أن الله إله واحد ، وليتذكر أولو الألباب .

(٣١٨)

الركيزة الثالثة

البعث حق لا ريب فيه

يظلم الكافر نفسه ، ويوردها موارد الهلكة ، فهو يكفر بالله تعالى ، ويكذب بالقرآن الكريم ، ويخالف كل ما أمر الله .

وأكبر الظلم إنكار اليوم الآخر ، والشك في لقاء الله للحساب والجزاء ، ولذلك ينطلق الكافر في الدنيا يظلم نفسه وغيره ، لا يخشى حسابا ، ولا يخاف حاكما .

إنه يرى أن سعادته ، ونعيمه هي الدنيا ، وما فيها ولا شئ بعدها ، ولذلك يغرف من شهواتها ، ويتلذذ بمنكراتها ، ويستعبد الناس بسلطانه وجاهه .
إنه لا يفكر في ظلم يرتكبه ، أو عدوان يقوم به لأنه لا حساب ولا عقاب .

ومن الغريب أن الكافرين باليوم الآخر يتخذون من المخلوقات آلهة بلا سبب ولا علة .

ما قيمة هذه الآلهة إذا وهى لا تملك شيئا في الدنيا ، ولن تكون هناك آخره ؟

إن هذا ضلال مبين .

إن يوم القيامة لا ريب فيه لتتال كل نفس جزاء ما عملت إن خيرا فخير وإن شر فشر ، وسيعلم الكافرون فساد ما كانوا ، وضل عنهم ما كانوا به يصدقون .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "فصلت" بتوفيق الله تعالى .

سورة "الشورى"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٣٢٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أولا -

التعريف بسورة "الشورى"

سورة "الشورى" سورة مكية عند جمهور المفسرين ، غير أن مقاتل رحمته الله ذكر أن قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۖ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۖ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٢ ۝٣٣ ﴾ أم يقولون أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۖ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٣٤ ﴾ ^(١) آيتان مدينتان ، وزاد عليهما ابن عباس رحمته الله آيتان أخريان هما قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ۝٣٥ ﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۝٣٦ ﴾ ^(٢) ، وزاد قتادة على هذه الأربع آية خامسة هي قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝٣٧ ﴾ ^(٣) وحجتهم فى مدنية هذه الآيات تناولها موضوعات نزلت فى المدينة .

وقد وجه بعض المفسرين معانى هذه الآيات لبيان جواز نزولها مرة فى مكة ، ومرة أخرى فى المدينة المنورة .

وقد نزلت سورة "الشورى" عقب سورة "الكهف" .

(١) سورة الشورى ، الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة الشورى ، الآية ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٢٧ .

وعدد آيات سورة "الشورى" خمسون آية عند أهل مكة ، والمدينة ، والشام ، والبصرة ، وثلاث وخمسون آية عند أهل الكوفة .
وسورة "الشورى" تتصل بسورة "فصلت" من عدة أوجه :

(١) بدأت السورتان ببيان تنزيل القرآن الكريم من الله تعالى . ففي سورة "فصلت" . يقول الله تعالى : ﴿ حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾^(١) ، وفي سورة "الشورى" جاء قوله تعالى : ﴿ حَمْدٌ ۝ عَسَقَ ۝ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ﴾^(٢) .

(٢) فى السورتان بيان أن القرآن الكريم نزل مبشرا ونذيرا . ففي سورة "فصلت" يقول الله تعالى : ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ ﴾^(٣) ، وفي سورة "الشورى" جاء قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝ ﴾^(٤) .

(٣) تشتمل السورتان على العديد من آيات الله فى الآفاق لتأييد قدرته ، وبيان وحدانيته ووجوده .

وموضوعات سورة "الشورى" هى موضوعات السور المكية فهى تثبت وحدانية الله تعالى ... يقول الله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ ﴾^(٥) .

(٢) سورة الشورى ، الآيات ١ . ٣ .

(١) سورة فصلت ، الآيات ١ . ٣ .

(٤) سورة الشورى ، الآية ٧ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ٤ .

(٥) سورة الشورى ، الآية ٤ .

وفيها حديث عن الرسل والرسالات ... يقول الله تعالى :

- ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١) .

- ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾^(٢) .

وتحدثت السورة عن اليوم الآخر ... يقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾^(٣) .

وتحدثت السورة عن القرآن الكريم ... يقول الله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾^(٤) .

ومن دلالة الآيات ندرك ضرورة الإيمان بالملائكة فهم الذين حملوا الوحي للرسل ، وهم شهود على الناس ، وبهم ينتصر المؤمنون بأمر الله تعالى .
وقد قدمت السورة موضوعاتها بأسلوب دقيق ، وعرض يوضح الآيات في النفس والكون والحياة .

(٢) سورة الشورى ، الآية ١٣ .

(٤) سورة الشورى ، الآية ٧ .

(١) سورة الشورى ، الآية ٣ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٢٢ .

(٣٢٤)

- ثانيا -

- التفسير -

عظمة الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ ۝ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ
السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله بعظمته ، وجلال صفاته ، وكمال قدرته ، وسيطرته
على ملكه تفضل على عباده ، فأرسل إليهم رسلا ، وأوحى إليهم ، وعرفهم بأن
الله واحد لا شريك له ، ولا مثل له ، وهو الذى قدر كل شئ ، وهداه لما خلق
له .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ حَمْدٌ ۝ عَسَقٌ ۝ ﴾ هذه حروف مقطعة يقال فيها ما سبق قوله فى
أوائل السور التى بدأت بحروف مقطعة ، وهى حروف تدل على إعجاز القرآن
الكريم ، وتؤكد أنه كلام الله تعالى ، وتقيد أهمية التنبيه ، وتوجيه ذهن المستمع
، وأخذه إلى القضايا الهامة التى يتكلم فيها ، والتى تذكر بعد هذه الحروف وهى

(٣٢٥)

إثبات أن القرآن الكريم نقل إلينا تلقيا عن الله تعالى بلفظه ، وقراءته ، ومعانيه ،
تواترا بين المسلمين نطقا ، وحفظا ، وكتابة .

وعدد الحروف المقطعة في سورة "الشورى" خمسة هي الحاء ، والميم
والعين ، والسين ، والقاف (حم عسق) مثل عدد حروف الآية الأولى في سورة
"مريم" وهى (كهيعص) ومع اتحاد أول السورتين في عدد الحروف المقطعة فإن
حروف سورة "الشورى" انقسمت ، وأخذت شكل كلمتين في الكتابة بينما حروف
سورة "مريم" جاءت مرتبطة في كلمة واحدة ، وسبب ذلك أن سورة "الشورى"
واحدة من سور "آل حم" فحافظت على صورة هذه الجماعية ، وأوردت "حم"
وحدها منفصلة عما بعدها كأخواتها في الحواميم .

وجاءت الميم منفصلة عن العين مع أنها جاءت متصلة في سورة "الرعد"
، وسورة "الأعراف" في قوله تعالى : ﴿الْمَرْءُ﴾ و ﴿الْمَصَّ﴾ ، وذلك لأن ما
بعد الميم في سورة "الشورى" ثلاثة أحرف يشبه كلمة كاملة فناسبه الفصل ، وما
بعد الميم في سورة "الأعراف" وسورة "الرعد" حرف واحد لا يناسبه الفصل فكان
اتصاله بما قبله .

﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أى ويمثل ما جاءت به

السورة من الوحي يكون الوحي كله .

وقد تضمنت السورة محاور الوحي الرئيسية التى جاء للرسل جميعا وهى :

الأول : توحيد الله ، وبيان صفاته التى تفرد بها ، وعرض الآيات ،
والشواهد والحجج المثبتة للتوحيد ، ولأركان العقيدة كلها .

الثانى : إثبات النبوة ، وتأکید صحة ما جاء به الرسل للناس من تعاليم

الله تعالى ، وتنظيمه من تشريع وأخلاق .

الثالث : بيان اليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر وحساب .

وقد نزل وحى الله لرسله جميعا بهذه المحاور الثلاث لإصلاح الدين والدنيا .

إن العقيدة تصلح القلوب والعقول ، وتقوى ركائز الانطلاق فى النفس البشرية لكل عمل سليم .

وتقوم الشريعة ببناء الفرد والجماعة ، وتنظيم الحياة ، وتحقيق المصالح ورسم طريق العمل لسائر الخلق فى إطار أحكام عملية تطبيقية .

ويقوم الخلق الكريم بالمحافظة على القيم النبيلة ، وتدعيم السلوك الجميل حيث مراقبة الله تعالى ودورها فى استقامة العبادة ، والإخلاص لله رب العالمين .

﴿ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى إن الله تعالى أوحى للرسل بذلك لإنقاذ الناس من الجهالة ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، فهو سبحانه الغالب بقدرته ، الدقيق فى صنعه ، المصيب فى قوله وفعله ، لا مثيل له .

والتعبير عن الوحي الذى نزل فى الماضى بصيغة المضارع ﴿ يُوحَى ﴾ لاستحضار الصورة أمام الناس وكأنهم رأوا رسول الله وشاهدوه .

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى يملك مخلوقاته ، ويتصرف فيها وحده كما يشاء ، على تنوعها وكثرتها فى السماء ، وفى الأرض ... فله سبحانه المقام العالى ، والعظمة اللائقة به ، جلّت صفاته عن الوصف ، وعلت حكمته فوق سائر الحكماء .

﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ ﴾ أى تكاد السموات تتشقق من أعلاها هيبة من عظمة الله تعالى ، وتأثرا بثقل ما تحمله من الملائكة وتصاريق القدر .

فإن قيل : تبين الآية أن السموات تتشقق من أعلاها . فلم ذلك ؟ ...
وكيف يكون حال أسفلها ؟

أقول : إن السماء حين تتشقق من أعلاها تؤكد تشققها من أسفلها ، لأن تشقق الأعلى ينبئ على تشقق الأسفل ، وقد خصت الآية الفوقية لأن أعظم الآيات وأكثر المخلوقات العلوية ، وأقواها في الدلالة على الجلال والعظمة وأظهرها للناظرين تكون فوق السموات .

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أى وتقوم الملائكة بتنزيهه سبحانه وتعالى ، وتمجيده ، وشكره ، وتستسلم لطاعته ، وتستقيم على منهجه ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾^(١) .

﴿ وَتَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أن الملائكة تطيع الله ، وتسأله أن يغفر ذنوب من فى الأرض ، ويلهمهم الصواب ، ويوفقهم للحق .
﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أى إنه سبحانه يستر عيوب عباده ويرحمهم ، ويهديهم إلى حسن الأقوال والأعمال .

وفى الآية تنبيه على عظيم رحمة الله بعباده ، وكثرة غفرانه لذنوبهم ليسرع التائبون إليه ، لينالوا رضاه ، ورضوانه .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِیْظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ أى إن المشركين الذين أشركوا بالله ، وصنعوا لأنفسهم آلهة ، وعبدوها من دون الله تعالى لن يكون لهم ولى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهم بكفرهم

(١) سورة التحريم ، الآية ٦ .

(٣٢٨)

مستمرون فى الضلال فلا تهتم بهم يا محمد ، والله حسبهم وكافهم ، وقد أحصى عملهم وأقوالهم ، وحفظ ما قاموا به ، فدع الأمر لله ولا تحزن وتتألم لكفرهم ، فلست وكيلا عليهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يوحى إلى رسوله بالقضايا التى تحقق المصلحة للناس كما هو شأن الوحي مع سائر الرسل ، فهو سبحانه المالك لكل موجود المتصرف فى شأن كل مخلوق ، وعنده الملائكة تسبحه ، وتقده ، وتستغفر لمن فى الأرض فهو الغفور لعباده الرحيم بهم .

وتسلى الآيات رسول الله ، وتعرفه بأن شأن المكذبين المشركين إلى الله وحده ، فهو المنعم المتفضل ، واليه المرجع ، وعنده الحساب والعقاب فلا تذهب يا محمد نفسك عليهم حسرات ، فما عليك إلا البلاغ المبين .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان عظمة القرآن الكريم

عظمة القرآن الكريم ظاهرة فى كل جوانبه ، فهو كلام الله تعالى الكبير المتعال ، وعظمة القول من عظمة قائله ، ويكفى القرآن عظمة أنه كلام الخالق العظيم .

والقرآن معجز للعرب بألفاظه ومعانيه ، وهم الذين أقاموا للبلاغة أسواقا وأياما ، يتبارون خلالها بالكلمة ، ويتسابقون بالفصاحة ، ويلقون الخطب والنثر وينشدون الأشعار والآثار ليفوزوا ، ويكتبوا أشعارهم وخطبهم بماء الذهب ،

ويعلقوها فى جوف الكعبة ، وقد عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة من القرآن الكريم ، وتيقنوا أنه كلام الله وما كان كفرهم إلا حسداً وحقداً . يقول الله تعالى : ﴿ وَجَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظْمًا ﴾^(١) .

وقد نزل الوحي للرسول جميعاً ، وأثبتت الآيات صدق هؤلاء الرسل ، وبينت هلاكهم لكفرهم ، وشهدت قراهم على إهلاكهم ... وعلى أهل مكة وعلى كل من يصدق برسول سبق من رسل الله أن يؤمن بالقرآن الكريم فهو وحى منزل سبقه الوحي على الرسل السابقين .

والقرآن الكريم عزة وقوة للمؤمنين حيث أودع الله فيه عوامل العزة ، ودعائم النصر يستفيد بها كل من يؤمن بالله تعالى ، ويصدق بالقرآن الكريم ، ويهتدى بهديه ، ويتخذة قوله وعمله وخلقه ، فهو يهذى إلى سواء السبيل .

الركيزة الثانية **دلالة آيات الله تعالى**

أخذ النبى ﷺ يدعو الناس ، ويحثهم على الإيمان ، ويعرض عليهم الأدلة والبراهين ، ويبرز لهم الآيات الدالة على وحدانيته ، وقدرته ، ووجوب اختصاصه بالعبادة .

إن الآيات توجه المخاطبين إلى الآيات فى خلق السموات والأرض ، وما فيهما من عجائب الخلق ، وبدائع الوجود ، وكمال التكوين ، وهى شاهدة على قدرة الله تعالى وتؤكد أن الأمر كله بيده .
إن السموات مليئة بالملائكة ، وليس فيها موضع قدم إلا وفيه ملك قائم ، أو راکع ، أو ساجد .

(١) سورة النمل ، الآية ١٤ .

(٣٣٠)

والأرض مليئة بالآيات ، ومن كفر فعليه كفره ، ولا ينال الظالمون من كفرهم إلا بوارا ، وخسرانا .

وتتوالى عناية الله بالناس ، ويستمر الملائكة فى الاستغفار لهم ، والدعاء ليتوب الله عليهم .

ويتألم رسول الله ﷺ من كفر الناس ، وانصرافهم فيسليه الله ، ويعرفه بأنه ليس وكيلا عليهم ، وأن الله يعلم سرهم ونجواهم ، ويحفظ أعمالهم وأقوالهم ، ويحصى حياتهم ، وسيحاسبهم عليها حتى لا يحزن ﷺ ويبتئس .

إن الله خلق الخلق بعزته وحكمته ، ومكنهم من الدنيا بعلوه وعظمته ، وهو الغفور للتائبين ، الرحيم بالناس أجمعين .

وعلى الدعاة ما يلى :

(١) بيان حقيقة القرآن الكريم ، وتوضيح أنه كلام الله المنزل للتطبيق العملى واهتداء الناس بهديه .

(٢) إبراز آيات الله فى الكون والحياة ، وفى السماء وفى الأرض ، وفى الإنسان والحيوان ، والزرع والنبات .

(٣) تسليم الأمر لقدر الله تعالى فكل ما على الإنسان هو السعى والعمل بما يرضى الله ، والرضى بما يقضى الله به .

(٤) التيقن المطلق بأن الله عليم بكل شئ ، واليه المرجع والمآب ، وعنده الحساب والعقاب .

وعلى المدعوين ما يلى :

أن يبصروا الحقيقة بعقولهم ، ويستمعوا لدعاة الله الذين يبينون القرآن الكريم ، لأن العلماء ورثة الأنبياء ، وبهم يفتح الله مغاليق القلوب والأفهام ، وعليهم أن يتبعوا القول بالعمل حتى يقيموا شرع الله فى الحياة ... وعليهم أن يتجنبوا مزالق الهوى ، ودعاة الباطل ، وأصوات المنافقين ، وعليهم أن يتوكلوا على الله رب العالمين .

الإنذار باليوم الآخر

يقول الله تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۖ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله سيحاسب الناس ، ويجازيهم على أعمالهم ، ويعاقبهم على كفرهم ومعاصيهم ، جاءت هذه الآيات لبيان أن الله أنزل القرآن الكريم لدعوة الناس إلى الله تعالى ، وإنذارهم باليوم الآخر حيث ينقسم الناس إلى فريقين ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير بسبب انقسامهم في عبادة الله تعالى .

(٣٣٢)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أوحى بالقرآن الكريم إلى رسوله ﷺ ، وأنزله بلغة العرب لينذر به أهل مكة ومن حولها من المدن والقرى ، ويخوفهم من يوم القيامة حيث يدخل المؤمنون الجنة ، ويدخل المشركون النار ، وقد أراد الله ذلك ليميز الخبيث من الطيب ، والحكم في النهاية لله تعالى المالك لكل شئ ، المتصرف في الخلق أجمعين .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ ﴾ أى وبمثل وحينما إليك أنزلنا عليك القرآن الكريم بلغة قومك العرب فى مكة لتدعوهم إلى الله تعالى ، وتخوفهم من آثار الشرك ومعصية الله تعالى .
﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ أى وتتذر كذلك من يقيمون حول مكة من كافة جوانبها .

فإن قيل : هل القرآن لإنذار أهل مكة وحدهم ؟ وما معنى الآية ؟
أقول : القرآن الكريم نزل للناس جميعا ، لأن إنذار أهل مكة لا يعنى عدم إنذار غيرهم ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن الدعوة إلى الإسلام للناس كافة ...

وأيضا فإن مكة تعد مركز العالم ، وإنذار من حولها يشمل العالم كله ، لأن ما حولها دوائر متتابعة تبدأ من المركز ، وتمتد إلى أقصى مكان فى العالم .

(٣٣٣)

﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أى وتتنذر الناس جميعا بعقاب الله يوم القيامة ، يوم يجمعهم للحساب والعقاب ، وهو يوم آت لا شك فيه ، فقد تضافرت على إثباته الأدلة النقلية والعقلية .

﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ أى إن الناس بعد جمعهم وحسابهم يوم القيامة يتنوعون إلى فريقين :

فريق يدخل الجنة بإيمانه ، وبصالح عمله ، وبرحمة الله وفضله .
وفريق آخر يدخل النار ، ويعاقبه الله بسعير جهنم ولهيبها لكفره ، وشركه وسوء عمله .

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى ولو أراد الله أن يجعل الناس مؤمنين كلهم لكان ، إلا أن حكمته سبحانه اقتضت أن يؤمن بعض الناس ويكفر البعض الآخر لتظهر ميولهم ، ورغباتهم ، ويتحقق الإيمان باختيار الإنسان ، ورضاه .

والآية تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين حين لا تتحقق أمانيتهم ، وحين لا يؤمن الناس أجمعون بدعوتهم ... وعليهم أن يعلموا أن عليهم العمل ، والنصح ، والدعوة ، ويتركوا الأثر والنتيجة لله رب العالمين ، وليفهموا سلفا أن الله قضى بجعل الناس فريقين ، فريق مؤمن ، وفريق ضال .

﴿ وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أى إن الحكم فى يوم القيامة يقوم على أعمال الدنيا .

حيث يجازى الله المؤمنين بالجنة ، رحمة من الله ، ورضى بما يصنعون فلقد عاشوا فى الدنيا مؤمنين مخلصين .

(٣٣٤)

وبعاقب الله المشركين بنار جهنم ، فقد ظلموا أنفسهم بالكفر ، وعصوا الرسول ﷺ ، ولم يصدقوا باليوم الآخر ... ولن يجد المشركون وليا يعينهم ، ولا نصيرا ينقذهم ، أو يرفع عنهم شيئا من العذاب .

﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ "أم" للإضراب أى دع حال المشركين وتأمل فى سبب عبادتهم آلهة أخرى غير الله تعالى ، واتخاذهم أولياء يعينونهم عند الشدة ، وينصرونهم عند الحساب ، فلقد ضلوا فى ذلك ضلالا بينا ، لأن هذه الأصنام جمادات مصنوعة ، لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تقدر على شئ ، ولا شأن لها فى الآخرة .

﴿ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ﴾ أى الولي الحقيقي هو الله تعالى ، فاتخذوه وليا واعبدوه وحده ، واخلصوا فى عبادته ، والتوجه إليه ...
والفاء داخله على جواب الشرط المحذوف ، وتقديره إن أردتم معينا حقيقيا فالله وحده هو الولي ، والناصر ، والمعين .

﴿ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ أى وهو الله الذى يحيى الموتى ، ويبعث من فى القبور .

﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهو الله القادر على كل شئ فى الدنيا والآخرة فاتخذوه وليا يعينكم ، وينصركم .

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ أى وإذا اختلفتم أيها الناس فى أمر من الأمور فأدوا ما وجب عليكم ، واتركوا الحكم لله ، لأن الحكم كله له سبحانه ... وقد أنزل عليكم القرآن الكريم والسنة النبوية لتحكموا بما فيهما وأنتم فى الدنيا ... ويقضى فى عبادته بما شاء وقدر عند الحساب فى الآخرة .

ولا علاقة لهذه الآية باختلاف علماء الأمة في أصول الدين وفروعه ، لأن ذلك الاختلاف حكمه منوط بالنظر في الأدلة والمصادر ، فإصدار الحكم تابع لأدلته التي يقوم عليها علم الفقهاء ، وبذلك يتوصل أهل الحق إلى التمييز بين المصيب والمخطئ ، وكشف براهين الحق ، ومزالق الباطل ... ويميزون بين المشروع ، وغير المشروع .

وانما الاختلاف المذموم في الآية هو الاختلاف في أصول الدين الثابتة ثبوتاً قطعياً ، لأن الخروج عن الثوابت القطعية غير مقبول .

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى ذلكم الذى أصفه لكم هو ربى الذى خلقنى ، وهدانى ، وهو وحده الذى أعبد ، وأعتمد عليه وأرجع إليه ، واخشاه ، وأسأله العفو ، والمغفرة ، والفوز بجنت النعيم .

﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى إن الله هو خالق السماء والأرض وما فيهما من العدم ، وقد سواهما ، وقدر لهما دورهما فى الحياة الدنيا .

﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ﴾ أى ومن قدرته سبحانه وتعالى أن عمر الدنيا ، وحقق فيها النشاط ، والمعاش فى كافة جوانب الدنيا ، بأن خلق الزوجة من الرجل ، وجعل منهما الذرارى فتكونت القبائل والشعوب ، وقدر أيضاً خلق الأنعام وتوالدها بالزوجية .

﴿ يَذُرُكُمْ فِيهِ ﴾ أى يكثر الله الخلائق ، ويطورها بالتوالد والتوالى طبقة بعد طبقة فى إطار هذا الخلق المتكاثر .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ أى وليس لله مثل فى الخلق والإبداع ، لأن ما عداه لا يقدر على خلق شئ ما ، ولا يتصف بأى صفة من الصفات التى وجبت لله تعالى .

(٣٣٦)

والمثل هو الشبيه والنظير ، وقد نفت الآية أن يكون لله شبيه ومثل ، وأكدت هذا النفي بالكاف فى قوله : ﴿ كَمِثْلِهِ ﴾ وذلك بنفى أن يشبه غيره أو يشبه ما يشبهه هذا الغير ، فليس له سبحانه شبيه من خلقه ، وأنه سبحانه لم يتخذ زوجة ولا ولدا ، ولن يماثل مخلوقا ما خلقه .

﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى وهو السميع لكل ما يقال ، البصير بكل ما يحدث ويقع ، ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أى وعند الله وحده مفاتيح الخير فى السماء والأرض يوسع الرزق لمن يشاء ، ويضيقه لمن يشاء ، وهو العليم بكل شئ ، البارئ لكل موجود ، المصور للخلق كما يشاء .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم بلسان عربى لينذر به الناس بدءا بأهل مكة وبمن حولها ، وتخوفهم من عذاب يوم القيامة ، حين يجمع الله الناس للحساب والجزاء ، وينال المطيعون جزاءهم الطيب ، ويوضع الكافرون فى عذاب السعير ، وتلك إرادة الله فى الناس ، وحكمه فيهم ، فقد أراد سبحانه وتعالى أن يحاسب الناس على عملهم ومقاصدهم .

لقد عبد المشركون غير الله تعالى ، واتخذوا آلهة أخرى ... وهذا ضلال منهم لأن الله هو المولى ، وهو خالق السموات والأرض وما فيهما من سائر الموجودات ، ويبيده مفاتيح الخير ، وله الحكم ، واليه ترجعون .

(٣٣٧)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الله واحد لا شريك له

خلق الله الناس جميعا ليكونوا عبادا مخلصين ، وأرسل إليهم رسلهم لوضع المنهج أمامهم ليسلكوه ، وحدد الغاية التي جعلها لهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ^(١) وتجلت رحمة الله بالناس أن بين لهم البراهين والحجج التي تؤكد لهم ضرورة الإيمان بالله الواحد الأحد ، وحتمية إخلاص العبادة له وحده .

فهو سبحانه بديع السموات والأرض وما فيهما ... ومن مقررات العقل والشرع أن الخالق يملك ما خلق ، ويتصرف فيه كما يشاء ، والمخلوق يخضع ، ويطيع سيده الذي أوجده ، وأنعم عليه بأسباب الحياة . والآيات تأخذ الإنسان إلى الله ، وتقدم البراهين الدالة على استحقاقه للعبادة وحده .

فهو سبحانه الولي القادر يتولى أمور عباده جميعا .

وهو سبحانه الذي يحيى ويميت وفق علمه وإرادته .

وهو الله خالق كل مخلوق في السماء وفي الأرض على غير مثال سابق في تزواج بين ذكر وأنثى في الوجود كله ، وليس لله مثل في الخلق ، تعالى الله عن جميع خلقه علوا كبيرا .

وعنده مفاتيح الغيب يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وهو بكل شئ عليم .

إن فهو الإله الحق ، وهو اللطيف الخبير .

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

(٣٣٨)

الركيزة الثانية

الإسلام دين عالمي

بعث الله رسوله محمدا ﷺ مبلغا للإسلام ، وداعيا إليه بإذن الله ، وقد جعل الله الإسلام ديناً للعالم كله ، وجعل الناس جميعاً في كل زمان ومكان مجال الدعوة إلى الله تعالى .

وتبليغ الدعوة يسير ويتحرك وفق طبيعة البشر فلقد بدأ التبليغ سرا ، ثم توسع شيئا فشيئا ، فبلغ الرسول عشيرته ، وأهله ، ثم دعا أهل مكة ثم خرج بالدعوة إلى القبائل حول مكة ثم إلى العالم كله .

وحين ننظر في الآيات نرى أنها تبين أن الدعوة والإنذار لأهل مكة ومن حولها ... وهذا يعنى عالمية الإسلام لأن مكة تقع في سرّة العالم ومركزه ، ويدور العالم كله حولها في دوائر متتابعة تضيق على الأعراب حول مكة ، وتتسع حتى تشمل العالم كله ... ومن الإعجاز القرآني أن حدد انطلاق الدعوة من مكة لينتشر نور الإسلام منها إلى جميع البقاع فهي مركز العالم ، وسرته . ولذلك كان من الحكمة أن تتعلق القلوب والأفئدة بمكة حيث الاتجاه إلى الكعبة عند كل صلاة ، وحيث الحج إليها كل عام .

ولم يلتق الرسول بالرفيق الأعلى إلا وقد بلغ الإسلام كل الآفاق ، وعلم القاصي والداني أن الإسلام جاء للناس كافة .

ويتحرك أعداء الإسلام في العالم المعاصر لإيقاف المد الإسلامي ، واثارة الشبهات حوله ، واستقطاب الضعفاء والمنافقين ضد تعاليمه ... والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

(٣٣٩)

الركيزة الثالثة **ضرورة التوحد اللغوى** **بين الدعوة والمدعوين**

أنزل الله الإسلام للعالم كله ، وأجراه بين الناس على سنة البشر ، وعادة الناس ، ولذلك كانت ضرورة أن يخاطب الرسول ﷺ قومه بلغتهم ، فلقد نزل القرآن بينهم أولا ، فلما حملوه كلفهم بتبليغه إلى غيرهم من البشر بعد أن يتعلموا لغاتهم ويتحركوا إليهم .

وكان العربى فى عصر الوحي أقدر الناس على فهم الفكرة ، والتحمس لها ، ونقلها إلى الآخرين الذين عرفهم خلال السفر والتجارة .
وأثبت العربى قدرته على النطق بلغة الآخرين كواحد منهم ، واتسعت الحروف العربية لسائر اللغات ... ولذلك نزل القرآن الكريم بلغة العرب ...
وحمل العربى ما فى القرآن الكريم إلى العالم كله بعد اتقان لغات العالم ، وإيصال الإسلام بهذه اللغات إلى الناس أجمعين .

ومكن الله للإسلام فى قلوب كثير من الناس ، فأحب غير العرب لغة القرآن الكريم فأتقنوها ، وألفوا العديد من المؤلفات الإسلامية بها ، وصاروا قادة يخدمون الإسلام ، ويعملون لنهضة المسلمين .

إن أغلب علماء السنة ليسوا عربا ، وقادة النصر الإسلامى فى فلسطين كانوا من الأكراد .

والركيزة المستفادة هو أن تكون الدعوة بلغة المدعوين ليتحقق الفهم والفائدة.

وحدة الدين أمام ضلال المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿٣١﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٌ ﴿٣٢﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رُبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ تَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ تَحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٣٤﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

بعد أن بينت الآيات السابقة أن الحكم كله لله ، وأن مفاتيح السموات والأرض بيده سبحانه وتعالى جاءت هذه الآيات لبيان أن الله هو الذى ينزل الوحي ، ويفصل الدين ، ويوضح منهج رسول الله ﷺ فى دعوة الناس لدين الله تعالى ، وأهمية الاستفادة بمنهج الرسل السابقين .

(٣٤١)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله شرع للناس ديناً جاء به الرسل السابقون ، وهو توحيد الله تعالى ، وإخلاص العبادة له ، وتوضيح أن المشركين يرفضون التوحيد ، ويعز عليهم أن يعبدوا إلهاً واحداً ، ويتبعوا رجلاً من بينهم ليس غنياً ، ولا صاحب سلطان وجاه .

وتأمر الآيات رسول الله ﷺ بمواصلة الدعوة ، والاستقامة على أمر الله تعالى ، وعدم اتباع أهواء المشركين ... لأن المرجع الأخير إلى الله تعالى حيث يقضى بين الناس بالحق .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ أى أنزل الله عليكم دينه الذى بلغه رسول الله ﷺ لكم ، وجعله لكم طريقاً ومسلماً ، وهو نفس الدين الذى أنزله الله على رسله نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى عليهم السلام ، وهو دين الرسل جميعاً ...

وخص الله هؤلاء الأنبياء بالذكر لعلو شأنهم ، وعظيم شهرتهم ، واتفاق أغلب الأمم على نبوتهم ، لأن نوحاً عليه السلام أول رسول للناس بعد آدم عليه السلام فدينه أساس الدين كله ، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء ، ودينه هو دين الحنيفية ، واليه ينتسب الأنبياء من بعده ، وموسى عليه السلام صاحب أوسع الأديان أحكاماً ، وأقواهم بياناً ، وأوسعهم جدلاً لمن أرسل إليهم من المصريين والإسرائيليين ، وعيسى عليه السلام جاء تابعاً لموسى عليه السلام فى بنى إسرائيل ، وكان مبعثه ﷺ قبل رسول الله ﷺ مباشرة .

(٣٤٢)

والألف واللام فى ﴿الَّذِينَ﴾ للاستغراق لبيان أن المراد بالدين هنا سائر دين الله للرسل جميعا فهو واحد فى أصوله ومبادئه .
والتوصية بالدين تعنى التمسك به ، والدعوة إليه ، والحث على اتباعه ،
والالتزام بما جاء فيه .

فإن قيل : ما المراد بالمماثلة لأن النظم والأحكام ليست واحدة ؟
أقول : المراد بالمماثلة المماثلة فى أصول الدين المتصلة بما يجب لله تعالى من الصفات ، وأعظمها توحيد الله ، والمشتمة على ما يتصل بالنبوة ،
وبما جاء الوحي به ، ثم ما بعد ذلك من أصول الشريعة ، مثل الإيمان بالكليات الخمس الضرورية التي لا يستقيم نظام البشر بدونها .
إن كل ما اشتملت عليه الأديان المذكورة من أصول ومبادئ قد أودع الله مثله فى دين الإسلام . فالأديان السابقة كانت تأمر بالتوحيد ، والإيمان بالبعث ،
والحياة الآخرة ، وتقوى الله بامتنال أمره ، واجتناب نهيه على العموم ، وبمكارم الأخلاق .

وقد بينت الآية أصالة دين الإسلام فقد جاء على النحو الذى كان عليه الرسل جميعا ، وأصوله هى أصول الأديان كلها .

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ أى اجعلوا هذا الدين الذى جاءكم به محمد ﷺ قائما ظاهرا ... واحفظوه من أى زيف ، ولا تتفرقوا فى فهمه ، ولا تختلفوا فى أصوله .

ومخاطبة جميع الناس بالقيام بالدين إشارة لحقيقة هامة ، وهى أن الاجتماع فى أمر ما ييسر العمل به ، والمحافظة عليه ، لأن اتفاق النفوس على أمر واحد يؤدى إلى حبه ، والتعلق به ، والفرح لظهوره ، والتضافر على إظهاره ، والتمسك به ، والاستمرار عليه .

﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أى ثقل على المشركين ، وشق عليهم أن يؤمنوا بالله الواحد الأحد ، وترك عبادة الأصنام ، وهو ما تأمرهم به وتدعوهم إليه ، وسبب هذه المشقة أنهم لا يصدقون برسالة محمد ﷺ ، ولا يصدقون بالمعجزات ، ويرون أن الدعوة تنادى بالمستحيل ، وكانوا يقولون ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾^(١) .

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى مطلع على قلوب الناس ، يوفق من يشاء لطاعته ، ويقربه منه ويضمه إلى حربه ، ويهديه للخير والطاعة .
وتقدم لفظ الجلالة ﴿ اللَّهُ ﴾ للدلالة على قدرة الله تعالى ، وعلى تحقيق ما وعد به .

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى اختلفت الأمم السابقة فى دين الله تعالى بسبب السلطة والجاه ، فبغى بعضهم على بعض ، واتخذ كل لنفسه مذهباً ، وأنكر ما عداه ، وبذلك تعددت الأديان ، واختلف الناس ، وهم يعلمون أن الفرقة جهل وضعف .

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّفُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى ولولا أمر الله تعالى بإنظار الناس إلى يوم القيامة ، وعدم استئصال الضالين ... لولا ذلك لعجل الله لهم العقوبة فى الدنيا وأهلكهم .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾
أى إن الذين عاصروا رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى قد ورثوا الكتاب عن

(١) سورة ص ، الآية ٥ .

(٣٤٤)

سابقهم ، وعاشوا فى شك كبير ، ولا يزالون فى ضلالهم لا يعرفون صوابا ، ولا يرون حقا .

والضمير فى ﴿ مِنْهُ ﴾ يعود إلى كتابهم فهم لا يصدقون به ، ويشكون فيه ويجوز عوده إلى القرآن الكريم ، وإلى محمد ﷺ ، وعلى الجملة فهم قوم يشكون فى هذه الجوانب كلها .

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ^ط وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ أى ادع يا محمد الناس إلى هذا الدين الواحد الذى دعا إليه الرسل السابقون ، ودع الخلاف والتفرق ... وأثبت على ما أنت عليه من الهدى والحق .

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى ولا تتبع يا محمد أهواء هؤلاء الشاكين المكذبين ، فإنهم لا يريدون حقا ، ويبغون نشر الشرك والفساد .

﴿ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ أى قل لهم يا محمد لقد آمنت بسائر كتب الله المنزلة على رسله وعلى .

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ أى وقد أمرنى الله تعالى أن أعدل بينكم فى الأحكام ، وأبلغكم دين الله تعالى على سواء .

﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ أى إن الله تعالى هو الذى أرسلنى ، وهو صاحب الفضل على وعليكم ، وأنا أدعوكم إليه وحده .

﴿ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾ أى يرزقنا الله على أعمالنا ثوابا وجزاء طيبا ، ويعاقبكم على أعمالكم بالآلم ، والظنك ، والعذاب ، فكل إنسان مسئول عن عمله ولذلك أسندت الأعمال إلى قائلها ، ولا تزر نفس وزر نفس أخرى .

﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾ أى لا خصومة بيننا وبينكم بعد وضوح الحق ، وظهور السبيل ، وسار كل منا فى طريقه .
 ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ^ط وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى إن الله يجمعنا جميعا أثناء الحشر والحساب ، وسيوفى كل نفس جزاءها ، ويأخذ كل إنسان حقه ، ومصير الخلائق كلها إلى الله تعالى .

﴿ وَالَّذِينَ تَحَوَّلُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ مَحْتَرَمٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أى إن الذين يخاصمون المؤمنين ، ويكفرون بالله ، ويجادلون فى الدين ليمنعوا العباد من الاهتداء بهدى الله ، والاستقامة على تعاليمه ، ويسوقون لهم مزامع واهية مردودة ساقطة ، يردها الله ولا يقبلها لهوانها ، وضلالها ... وقد غضب الله عليهم ، وطردهم من رحمته ، ولهم عذاب شديد يوم القيامة .
 وقد بينت الآية اعتماد جدل المشركين على حجج وبراهين واهية يبطلها الله تعالى ويردها ، وتبين ضرورة ردها بالبرهان الدقيق والجدل الحسن ، وإثبات الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ليعلو الحق ، ويزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل للناس ديناً واحداً على ألسنة الرسل جميعاً ، يقوم على التوحيد الخالص ، وعبادة الله وحده ، وقد شق هذا الدين على المشركين الضالين الذين أضلهم الله تعالى ، وأقبل المؤمنون على الإيمان بهداية الله لهم ، وتبين الآيات أن المشركين اختلفوا فى الكتاب بعدما علموا ما فى الاختلاف

(٣٤٦)

من ضلال ، وكان سبب اختلافهم هو البغى ، وحب الدنيا ... ولولا أن الله قضى
بإنظارهم إلى يوم القيامة لأهلكهم ، ودمرهم ، وتأمّر الآيات رسول الله ﷺ
بالاستقامة ودعوة الناس إلى الحق ، وإلى اتباع صراط الله المستقيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

توضح الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دين الله واحد

الدين أصول وفروع ، حيث ترتبط الأصول بالحقيقة المطلقة الثابتة في
دين الله تعالى ، ولذلك تجدها واحدة في دعوات الرسل جميعا حيث قام الدين
عند الرسل جميعا على الأسس التالية :

(١) **وحدانية الله تعالى** حيث ينادى الرسل بوحداية الله تعالى ، والإيمان
بكافة صفاته التي تليق به سبحانه وتعالى ، وإخلاص العبادة له وحده .
ومن هنا كان أول صوت نادى به الرسل أقوامهم هو قوله تعالى :
﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾^(١) فتراهم صلوات الله وسلامه عليهم في
ندائهم يقرنون التوحيد بالأمر بالعبادة ، لأن التوحيد كما يقول الرازي كالعلة
للعبادة لأنه إذا لم يكن لهم إله غيره ، كان كل ما حصل عندهم من وجوه
الإحسان ، والنفع ، والعطف ، والبر ، حاصلا من الله ، ونهاية الإنعام توجب
نهاية التعظيم ، فوجب عبادة الله لأجل العلم بأنه لا إله إلا هو^(٢) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ٥٩ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٢٦١ .

(٣٤٧)

ويجب أن يكون واضحاً أن المراد من الإله المدعو إليه في دعوات الرسل هو الإله المستحق للعبادة حقاً دون سواه ، لأن الأقوام قبل الرسالات كانوا يعتبرون الأصنام ، والأوثان ، آلهة ، ويعبدونها على هذا الاعتبار ، فكان الخطأ في العبادة تابعا للخطأ في التأليه^(١) ، ولذلك كان على الرسل أن يصححوا نظرة للناس في التأليه ، والعبادة ليعبدوا في إخلاص الإله الواحد ، الذي لا شريك له .

إن العبادة رمز الامتثال الحق ، ودليل توحيد الله بصدق ، وهي فرع أصلها هو التوحيد .

والتوحيد ، والعبادة أمران متلازمان في الحقيقة ، وتأكيدا للضرورة للعبادة للتوحيد جاءت آيات كثيرة تأمر بالعبادة والتوحيد من غير أن تفصل بينهما بعاطف ، لأن التوحيد بيان وتفسير لعل اختصاصه تعالى بأن يعبد^(٢) ، وقدمت بعض الآيات التوحيد على العبادة ، وربطت بينهما بالفاء كقوله تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾^(٣) .

وذلك لأن الفاء تفيد التعقيب فكان الربط بها تأكيداً لهذه اللزومية بين توحيد الله وإفراده بالعبادة ، وإشارة إلى أن العبادة تأتي ملازمة للتوحيد مباشرة.

(٢) إثبات الرسالة : لم يدع الله الخلق وحدهم لأن ذلك يحتاج منهم وقتاً والكثير منهم لا يملك الأدوات التي توصله للإيمان ، وإن ملكها لا يصل إلى

(١) تفسير أبي السعود ج ٢ ص ١٧١ .

(٢) البحر المحيط ج ٤ ص ٤٢٥ .

(٣) سورة طه ، الآية ١٤ .

(٣٤٨)

الله بدقة كاملة ، ولذلك اختار الله من الناس بعضهم ، وكلفهم بالرسالة ، وأوحى إليهم فى سلسلة متتابعة بدأت بآدم عليه السلام ، وانتهت بمحمد عليه السلام ، وجميعهم عليهم الصلاة والسلام دعوا إلى دين واحد كما أتاهم من عند الإله الواحد .

وقد أثبت الرسل رسالتهم بالمعجزات التى تؤكد صدقهم ، وبمشابھتهم بالرسل الآخرين ، وبذلك ربطوا الماضى بالحاضر لتستمر رحمة الله بالناس إلى المستقبل حتى يوم القيامة .

(٤) **وقوع يوم القيامة** : دعت الأديان كلها إلى يوم القيامة ، وجعلت الإيمان به ركنا من الدين ، والتقت بذلك مع الفطرة التى خلق الله الناس عليها وقد أجمعت الرسالات كلها على تأكيد وقوع يوم القيامة ، وبينت أن البعث والحساب والجزاء أمر مؤكد ، وكانوا عليهم السلام يبلغون دين الله ، ويعرفون الناس بيوم الحساب تخويفا وترغيبا ... وقدموا عليهم السلام التخويف والتحذير لأن أغلب القوم مقلدون ، والمقلد لا ينظر فى الدليل ، وإنما ينظر فى الماديات المؤثرة ، ولا يهتم بالبرهان إلا بعد الخوف .

ومشاهد يوم القيامة عديدة تبدأ بالبعث ، وتنتهى بدخول الجنة أو بدخول النار .

(٤) **إثبات أصول العبادات** : إن الإنسان لا يكون عبدا إلا بالطاعة ، والاستقامة على منهج سيده .

إن الإنسان مفلطح على التدين فهو يجد فى نفسه ميلا إلى اتباع سلطان غيبى يملك القدرة ، والنفوذ فى هذا العالم الواسع العريض ، وحين يشعر الإنسان به يحبه ، ويطيعه ، ويعبده .

ولقد جاء الرسل عليهم السلام ، وعرفوا الإنسان بالله القوى القدير الذى لا يماثله غيره ، وحددوا له العبادات التى تربطه به .

يقول ابن تيمية : "إن العبادات تتضمن معنى الذل ومعنى الحب معاً ، وأول مراتب الحب العلاقة ، ثم الصباية ، ثم الغرام ، ثم العشق ، وآخره التتيم ، يقال تيم الله أى عبده ، فالمتيم المعبد لمحبيه"^(١) .

ويقول الرازى عند قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾^(٢) فإذا أسلمت وجهى لله فلا أعبد غيره ، ولا أتوقع الخير إلا منه ، ولا أخاف إلا من قهره وسطوته ، ولا أشرك معه غيره فى العبادة^(٣) .
إن أصول العبادات موجودة فى سائر الرسالات ، لأن هذه الأصول تتصل اتصالاً وثيقاً بالتوحيد .

(٥) الاهتمام بمكارم الأخلاق : تعتبر الأخلاق جانباً حيوياً وهاماً فى كل رسالة سماوية ولم تكتف ولحده منها بتصحيح العقائد والمشرائع ، بل وصل اهتمامها بالأخلاق إلى المناداة بها مع الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله تعالى .
والرسل صلوات الله عليهم خير الناس ، اصطفاهم الله تعالى لنشر المكارم الأخلاقية ، وركز فى طباعهم السمو النفسى ، والأخلاقى الذى جعلهم مستعدين للقيام برسالتهم ، ويحدد الرسول الخاتم ﷺ منزلة الخلق فى الرسالات فيقول ﷺ : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"^(٤) .

(١) رسالة العبودية لابن تيمية ص ٥ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٢٠ .

(٣) مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٦٣٠ .

(٤) موطأ مالك بشرح الزرقانى . باب ما جاء فى حسن الخلق ج ٤ ص ١٢ .

(٣٥٠)

فهو ﷺ متمم لمن سبقه من الرسل ، وكان الهدف من كل رسالة هو نشر جانب أخلاقى ما ، إلا أن الرسالة الخاتمة جاءت متممة لهدف هذه الرسائل بتكميل مكارم الأخلاق كلها .

ولقد كان منهج الرسائل فى تعليم الأخلاق واضحاً فى اتجاهات معينة نجملها فى اتجاهات أربعة هى :

الأولى : الدعوة إلى الأخلاق مع بدء الدعوة إلى التوحيد .

الثانى : الدعوة إلى الأخلاق بأعمال الرسل وأقوالهم .

الثالث : محاربة الرذائل الأخلاقية والتركيز على المتفشى منها .

الرابع : بيان العقوبة الحسنة لأصحاب الأخلاق الفاضلة .

وقد دعت الآيات إلى اتباع دين الله الواحد الذى جاء به الرسل جميعا ، وبينت ضرورة عدم التفرق والاختلاف فى التدين ، لأن الاختلاف يؤدى إلى الضعف ، والتمزق ، والجهل بالدين ، وانصراف الناس عنه بعد الجهل به . وبينت الآيات أن للدين أعداء يعملون على إطفاء نوره وعلى رأسهم المشركون الذين يخدمون الأصنام ، ويسعون فى الأرض فسادا ، ولا يريدون للحق أن يظهر ويسود .

فإن قيل : كيف يكون الدين واحداً والعادات ، والأعمال ، والطبائع متغايرة ومختلفة ؟

أقول : إن الله تعالى قدر لتغاير الناس قدره فجعل أصول الدين واحدة ، وحقق لها التجانس والتوافق مع الفطرة ، فالتوحيد فطرة عند سائر الناس يؤكدتها الرسل بأدلة الواقع المتنوعة ، والمتغيرة .

وللرسل دينهم واحد ، ولأن تعددوا زمانا ومكانا ، وسعة وضيقا ، وبينة يصدق بعضهم بعضا وأن اختلفوا فى اللغة والبراهين .

(٣٥١)

واليوم الآخر مسألة واحدة ليلتقى الناس بالله الذى عبده أو عصوه لينالوا جزاءهم .

والأخلاق لم تتغير فى أى رسالة ، وقيمها العامة واحدة ، وإن اختلفت الجريمة والمجرمون .

وأيضاً فإن الحياة العملية التى يعيشها الناس. تختلف من عصر لعصر ومن أمة لأمة ، ولذلك كان الاختلاف فى أحكامها ضرورة حتمية ، وجاءت الأحكام الشرعية فى كل دين مرتبطة بالجوانب العملية فى كل أمة .

إن الاختلاف فى النظم والأحكام لا يعنى الاختلاف فى الدين كله فقد قدر الله للأحكام الشرعية العملية أن تختلف من أمة إلى أمة ومن عصر إلى عصر فوضع لها القواعد الكلية ، والمبادئ الرئيسية لتحتوى هذه المتغيرات لا تؤثر أبداً فى الأصول الثابتة ... يقول الله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾^(١) .

وهكذا تلتقى الثوابت الدينية مع المتغيرات الشرعية فى طريق واحد وهو أن الدين جاء من الله للناس بواسطة رسله ، لإصلاح الحياة ، وتنشيط القيم ، والعمل ليوم اللقاء العظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٨ .

الركيزة الثانية ضرورة الدعوة إلى الله تعالى فى إطار منهج واضح

توجه الآيات أنظار الناس إلى أن دين الله تعالى فكرة نظرية قابلة للتطبيق العملى ، ولابد لها من أناس يؤمنون بها ، ويحملونها للناس ، ويطلبون منهم الاستقامة عليها .

ولقد قام الرسول ﷺ بهذه المهمة خير قيام ، وتركها لأصحابه وأتباعه ليقوموا بها إلى يوم الدين ، وأمرهم الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ^(١) .

وحين ننظر فى الآيات التى نحن معها نجد أنها توضح منهجا عمليا واضحا فى الدعوة إلى الله تعالى ، وأساس هذا المنهج ما يلى :

(١) **الحرص الدائم على الدعوة إلى الله تعالى** ، وحث الناس على اتباع الثوابت الدينية ، وبيان أثرها فى الفرد والجماعة ، وبيان الحيل الخبيثة التى يلجأ إليها الأعداء مثل زرع بذور الفتنة بين المسلمين ، والعمل على إضعافهم وتفريقهم ، وإيقاعهم فى خصومة الاختلاف ، ونشر العداوة فيهم حتى لا يتحدوا على الحق .

(٢) **الفهم التام للدعوة** ، من أساسيات عملية الدعوة العلم الدقيق بالدعوة وواجباتها ، ومسئولياتها وفق تعاليم الله تعالى ، وفى إطار الأخلاق الدينية

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .

(٣٥٣)

المقررة المعتمدة على الصدق ، والإخلاص ، والأمانة ... ومعرفة المزالق التي يلجأ إليها خصوم الإسلام للكيد والضرر .

(٣) **البعد عن الهوى** : الحق ينجح بالحق ، ولذلك كان شرف الوسيلة أصح السبل للوصول للغاية النبيلة ، ولذلك أمر الله رسوله بعدم اتباع الهوى ، وعدم البعد عن منهج الله تعالى .

إن الهوى لا يحقق إلا الضياع واللعب ، ولا يبني فردا ، ولا يصنع أمة ولذلك وجب القيام بالدعوة على قيم أخلاقية تحترم الإنسان وتقدره ، وتعمل على خدمته ، ومساعدته برفق ليصل إلى الله وهو راض سعيد .

(٤) **الإقرار بكافة الحقوق للآخرين** : إن الاعتراف بالآخر قوة ترتد على صاحبها لأن الآخر سيعترف به ... وكلما كان الآخر على صواب وجب الإقرار بصوابه وتتميته ، ووضعه في المسار الذي يرضى الله تعالى ، فهو أولى وأحسن .

(٥) **الإيمان يرسل الله جميعا** : من أساسيات الدعوة الإيمان يرسل الله ، وكتبهم التي نزلت عليهم لأن هذا يرضى اتباع الرسل ، ويدفعهم إلى الاستماع للدعوة ، والدخول في دين الله تعالى لما يظهر من وحده الدين ، وبخاصة في الأمور الثابتة ، وأساسيات القضايا المتغيرة .

(٦) **إيجاد الدعاة الأكفاء** : إن إيجاد الدعاة الأكفاء عملية أساسية لنجاح الدعوة وإيصال الإسلام للناس ، لأنه هو الذى يؤمن بالفكرة الدينية ، ويحيط بها ، ويعرف حججها وبراهينها ، ويتقن فن الدفاع عنها ، ولذلك اختار الله لدينه رسله من أنقى الناس نفسا ، وأبلغهم عقلا ، وأكثرهم جرأة وأوحى إليهم ، وكلفهم بالتبليغ والنصح والإرشاد .

(٧) **عدم التعالى على المدعويين** : لا يصح للداعية أن يتعالى على الناس لأنه واحد منهم ، ولو فسدت أخلاقه فإنهم ينصرفون عنه ، ويأنفون الاستماع

(٣٥٤)

إليه ، ولذلك وجه الله رسوله ليقول للناس : ﴿ اللَّهُ رُبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَّا أَعْمَلُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ۖ ۝ ﴾ .

(٨) **ضرورة التنظيم بين الدعاة** ، وضع خطة للدعاة يستقيمون عليها في كل إقليم يعملون فيه في إطار تنظيم جامع للدعاة يرسم المنهج ، ويمد الدعاة بالدراسات والأبحاث الجديدة ... ورسول الله ﷺ هو رائد المؤمنين جميعا ، ودعوته للناس مسلك وطريق ، وهو ﷺ أسوة لكل مؤمن صادق يعمل لله ويرجو رحمة ربه .

وهذه نقاط في المنهج نقدمها للدعاة ليقوموا بالواجب على الوجه المشروع .

الركيزة الثالثة

ضرورة الاستعداد للقاء الله تعالى

عمر الحياة قصير ، ولا خلود فيها لأحد ، وكل من يوجد فيها يتركها راغما ، ويحمل معه عمله للحساب والجزاء الذي يعم جميع الخلائق في يوم تشخص فيه الأبصار .

إن الموت حق ، وانقضاء الآجال حق ، وكل إنسان يعلم ذلك حين ينظر إلى الماضي القريب والبعيد ، فلقد ذهب آباء وأجداد ، وانتهت ممالك وأمم ... وآثار السابقين تشهد على أنهم كانوا ذا منعة وقوة بادت وانتهت ... وهذه شواهد واقعية على أنه لا خلود في الدنيا ، وأن الآخرة دار الحساب ، والجزاء ، والخلود .

إن الدنيا قنطرة يعبر فيها الإنسان إلى الآخرة ، ومن يغادرها لا يرجع إليها ، ومن يموت يبقى في قبره مع من سبقوه إليه ، أو لحقوا به حتى يسمعوا صيحة البعث ، ويقوموا لله .

وفى الحشر تجتمع الخلائق ، وينكشف المستور ، وينصب الميزان ، وتنتال كل نفس جزاء ما عملت إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .
 إن محاسبة الناس يوم القيامة تقوم على العدل ، والأشهاد عديدون ، وكتاب الإنسان شامل لكل حياته ، والهروب من الموقف محال ، والمكر والخداع مضى زمنه ، ويقول الله لكل إنسان : ﴿ أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ (١) 》 .

لا وجود للباطل يوم القيامة ، والحجج الزائفة ساقطة ، إن المشركين والعصاة ينالون سوء عملهم ، وعليهم غضب الله ، ولهم عذاب السعير .

موقف المؤمنين والمشركين من يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ۚ وَمَا يُدْرِيكُ لَعْلَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ ۝ (٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۚ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۚ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝ (٨) اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۚ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۝ (١٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ

(٣٥٦)

الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٥٦﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا
وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا
يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٥٧﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله أنزل كتبه على الناس ، وأرشدهم إلى
الحق جاءت هذه الآيات لبيان رحمة الله بعباده بما خلقه لهم من النعم ،
وبما عرفهم به من الدين ، وبما أنذرهم منه ، وخوفهم به ، وبما قدره لهم في
الدنيا والآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن أهل الإيمان على الحق ، وأن المشركين يجادلون بالباطل
، ويصدون عن سبيل الله تعالى ، وقد أنزل الله كتبه ، ووضع العدل بين الناس
ليستقيموا ، ويعملوا لليوم الآخر ، فكل إنسان نتائج عمله، وجزاء ما قدمت يداه.

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ
قَرِيبٌ﴾ أى إن الله قادر على كل شئ ، وقد أنزل على سائر الأمم كتبه ،
وأرسل لهم رسله ، وختم الكتب بالقرآن الكريم ، وبين لهم براهين الإيمان ،
 ووضع أساس العدل ، وصيانة الحقوق ، وأمر بالعدل والإحسان ، ... وواجب
على الناس أن يؤمنوا به ، ويصدقوا باليوم الآخر ... فأنت أيها الإنسان لا

تدرى متى الساعة ؟ ... وعسى أن يكون قد اقترب موعدنا فاستعد لها بالاتباع ، والإيمان ، وعبادة الله ، والاستقامة على العمل الصالح .
والانتفات في الآية انتقال من الغيبة إلى الخطاب لبيان أهمية موضوع الخطاب في العقيدة ، وجعل الخطاب في ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ لغير معين ليشمل كل من يقرأ القرآن ، أو يسمعه ، أو يتدبر فيه ليرى الصواب والحق ، ويسارع إلى اتباع سبيل المؤمنين .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ أى إن الكافرين الذين لا يؤمنون باليوم الآخر يستهزئون من ذكرها ، ويسخرون منها ، لأنهم لا يتصورون وقوعها ، ويرون أن الدنيا هي كل شئ ... أما المؤمنون المتقون فهم يصدقون بالساعة ويخافون من أهوالها ، ويخشون مجيئها ، ولا يعلمون ما الله فاعل بهم ، إنهم يصدقون بوقوعها ، ولا يترددون في ذلك ، ولكن خوفهم من نتيجة الحساب رغم صدقهم مع الله شديد ، واخلاصهم في عبادته مقرر ، ودائما يصر العاقل المتفوق على النجاح ، ويخاف من صعوبة الامتحان أكثر من خوف البليد الضعيف .

﴿ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ "ألا" حرف تخصيص وتنبيه جاء لتأكيد مضمون الآية ، والمعنى ألا إن المشركين قد ضلوا ضلالا كبيرا ، وبعدوا عن الحق والصواب حين كفروا باليوم الآخر ، ولم يصدقوا به ، وأخذوا يجادلون فيه .

﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ أى إن الله سبحانه رحيم بعباده ، بار بهم ، يرزقهم ، ويمدهم بما يحتاجون إليه ، ويعرفهم بالواجب عليهم ، ويبرهن لهم على

ثبوت قواعد الإيمان ، ومجئ اليوم الآخر بآيات وبراهين يرونها فى أنفسهم ، وفى كل شئ حولهم .

﴿ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى يرزق من يشاء من عباده كما يشاء ، فيوسع الرزق عمن يشاء ، ويضيقه عمن يشاء ، لا راد لمشيئته ، ولا تعارض لقضائه ، وهو القادر الغالب الذى لا مثيل ، ولا ند له .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ أى من أراد ، وتمنى ، وعمل للفوز بالجنة نوفقه لعملها ، ونقبله منه ، ونضاعف له الأجر يوم القيامة ، ولا نحرمه من خيرات الدنيا .

﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ أى ومن كان سعيه موجها إلى شؤون الدنيا فقط ، واكتفى بطلب طيباتها ، واكتساب لذاتها بلا حد مشروع ، غير عابئ بأعمال الآخرة نؤته من الدنيا ما قسمناه له ، وليس له فى ثواب الآخرة حظ ، فالأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى .

وسمت الآية العمل للدنيا أو للآخرة بالحرث لبيان دور الإنسان من عمله وأن له قصد فى جهده وسعيه ، وتوضيح أن الله عليم بالعمل كله ، وفى ذلك دعوة للإخلاص فيه ، والسعى لنوال الخيرات الأخروية ، وعلى الإنسان أن يقوم بعمله ، ويدع الأمر بعد العمل لله رب العالمين .

يقول قتادة رضي الله عنه : إن الله يعطى على نية الآخرة ما شاء من أمر الدنيا ، ولا يعطى على نية الدنيا إلا الدنيا^(١) .

(١) تفسير المراغى ج ٢٥ ص ٣٥ .

ويقول ابن عباس رضي الله عنه : من يؤثر دنياه على آخرته لم يجعل الله له نصيباً في الآخرة إلا النار ، ولم يزد بذلك من الدنيا شيئاً إلا رزقاً فرغ منه وقسم له ^(١) .
وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "بشر هذه الأمة بالسوء والرفعة ، والنصر ، والتمكين في الأرض ما لم يطلبوا الدنيا بعمل الآخرة ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب" ^(٢) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "تلا رسول الله ﷺ ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ ثم قال يقول الله : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملاً صدرك غنى ، وأسد فقرك ، ولا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك" ^(٣) .

وعن علي كرم الله وجهه قال : الحرث حرثان : فحرث الدنيا المال والبنون ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات ^(٤) .

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ ؟ ...
الاستفهام إنكارى لإنكار ضلال المشركين بسؤالهم عن دينهم الذي شرعته لهم الآلهة المزعومة ، فاستقاموا عليه ، وساروا على ضلالهم الذي لا أصل له .
﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أى لولا قضاء الله بعدم استئصالهم في الدنيا لقضى عليهم ، وأهلكهم ، ودمرهم .

﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى وإن الظالمين الذين ظلموا

(١) المرجع السابق .

(٢) تفسير الخازن ج ٦ ص ١٢١ .

(٣) تفسير المراغى ج ٢٥ ص ٣٢ .

(٤) المرجع السابق .

أنفسهم بترك شرع الله تعالى ، وعملوا للدنيا وحدها ، واتبعوا ما وضعه البشر ، وكفروا بما أنزل الله لهم فى الآخرة عذاب مؤلم شديد لا يقدر قدره إلا الله تعالى .

﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۖ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۖ ﴾ أى ترى يا محمد المشركين الذين عبدوا غير الله يمثلئون خوفا ، ورعبا عند الحساب لما يجدونه من حشر ، وعذاب ، وآلام تلم بهم ، فالشمس فوق رعوسهم ، والعرق يلجمهم ، والحساب عسير ، والفضائح تتوالى أمام الخلق أجمعين ...

أما المؤمنون الذين تيقنوا بوحدانيه الله ، واستقاموا عليها ، والتزموا بشريعة الله وملأوا حياتهم بالأعمال الصالحة والأخلاق السامية يجزون بجنات النعيم ، ويتمتعون بحسنها ، ورياضها ، ورضوانها ، ويحقق الله لهم ما يريدون ، وهذا هو العطاء العظيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الذين يكفرون بالله تعالى يجادلون المؤمنين بالباطل ، ويعملون على صدهم عن دين الله تعالى ، وحججهم باطلة ، مردودة ، وغضب الله عليهم نازل ، ولهم عذاب شديد ... إنهم يستهزئون باليوم الآخر لعدم إيمانهم به ، أما المؤمنون فهم يعملون للآخرة فى وجل وخوف وتقوى وتنقلب تقواهم فى الآخرة إلى جنات يقيمون فيها ، والى نعيم يسعدون به ، والى صحبة الأخيار من النبيين والصديقين والشهداء ... إن الله رحيم بعباده الصالحين فقد رزقهم فى الدنيا وتفضل عليهم بالفردوس الأعلى فى الآخرة ، وعرفهم بأن لكل نفس ما كسبت .

(٣٦١)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الله هو الرزاق ذو القوة المتين

خلق الله الناس من ذكر وأنثى ، ونشرهم في الأرض ، وجعلهم فرقا وقبائل ودولا ، وأمرهم بالتعاون ، والتعارف ليعيشوا آمنين مطمئنين .

وكما قدر الله للناس وجودهم قدر لهم أرزاقهم ، ويسر لهم الحصول عليها وهو سبحانه عليم بالنفوس والطوايا ، يقدر لها ما يناسبها ، فيبسط الرزق لمن يشاء ، ويصرفه عن من يشاء ... ومن الإيمان التسليم بأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، لأن هذا التسليم يؤدي إلى عدة نتائج :

(١) يؤدي إلى الرضا بعتاء الله تعالى ، فهو سبحانه لحكمة يعلمها ، يوسع الرزق أو يضيقه .

(٢) يؤدي المكلف عمله على قدر طاقته ، فقد ربط الله الأسباب بالمسببات ، وقدر الأجرة على قيمة العمل .

(٣) يعلم باب السؤال والطلب ، فيلجأ إليه ، ويقصده ، ويطلب منه ، فهو سبحانه المعطي بلا علة ، المقتر بلا سبب ، وكل من يرغب أمرا فعليه أن يطلبه من الله تعالى .

(٤) يتيقن المؤمن أن قدر الله يكفيه لأن من عباد الله من لا يصلحه إلا الغنى ومنهم من لا يصلحه إلا الفقر .

(٥) يقدر الله الرزق ، لأن الرزق متنوع ، فمنه المال ، والولد ، والزوجة ، والعلم ، وراحة البال ، والصحة ، والمعونة المعنوية ، ولا يمكن لإنسان أن

(٣٦٢)

يجمع الرزق الحسن كله فى حياته، ولكنه ينال بعضه ، ويحرم من بعضه
(٦) إن ما عند الله لا يأتى عنوة ، وإنما يناله صاحبه بالطاعة والاستقامة .

الركيزة الثانية

موقف الناس من الإيمان باليوم الآخر

من أركان العقيدة الإيمان باليوم الآخر حيث تجزى كل نفس بما قدمت .
وقد انقسم الناس بالنسبة إلى الإيمان باليوم الآخر إلى فريقين :

فريق يؤمن بها ، ويصدق الوحي الذى دعا إليها ، ولذلك يعيش فى الدنيا
خائفاً من أهوالها ، وعذابها ، ويعمل فى الدنيا لينقذه الله من أخطارها ، ولذلك
يبارك الله عمله ، وينمى حرثه ، ويهديه للإيمان والعمل الصالح .

هذا الفريق دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، وقام بالتكاليف المشروعة
واستقام على منهج الله تعالى ، ولذلك يفوز فى الآخرة بجنات النعيم .

أما الفريق الثانى فهو المنكر للحق ، الجاحد لفضل الله ، لا يرى
إلا الدنيا ، وإذا ذكرت له الآخرة يستهزئ بها ، ويشكك فيها ، ويستمر فى
ضلاله الكبير إلى أن تجئ القيامة ، وله فيها عذاب الأليم .

إن الإيمان باليوم الآخر يؤدى إلى الاستقامة ، والمحافظة على الحقوق وطهارة
القلب ، وسلامه العمل ، والتخلق بالخلق الكريم ، والبعد عن الفحشاء والمنكر،
لأن المؤمن يخاف من أى ظلم أو تقصير لأن الميزان دقيق ، والحكم عدل
﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾ (١) .

إن الإيمان بالآخرة إصلاح للعالم بالخير ، واعداد للأمة على البر والتقوى

(١) سورة الزلزلة ، الآية ٧ ، ٨ .

علو شأن المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۖ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۖ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۖ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٤﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٣٥﴾ وَنَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَنَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٣٦﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة جزاء الكافرين في الآخرة ، وتميز المؤمنين عنهم جاءت هذه الآيات لبيان علو شأن المؤمنين في الدنيا ، وإبراز أهم المواعظ التي قالها الرسول ﷺ لهم لئبتعدوا عن أعمال الكافرين ومصيرهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات البشريات التي يبلغها رسول الله ﷺ للمؤمنين ، وتوضح بعض المواعظ العملية التي تبعدهم عن أعمال الضالين الخالية من الحق والبرهان .

الدلالات اللغوية

﴿ ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ ﴾ "ذلك" إشارة إلى روضات الجنات

المذكورة في الآيات السابقة لبيان عظمة البشري التي يسوقها الله للذين آمنوا بالله تعالى ، واستقاموا على دينه الذي شرعه لهم ، وقد نسب الله المؤمنين إليه ، وجعلهم عباده تشريفا لهم ، وبيانا لعلو مقامهم .

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أى هؤلاء هم عباد الله ، وقد

تميزوا بالإيمان ، والعمل الصالح .

﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ أى قل يا محمد

لأهل مكة : إنك لا تأخذ منهم أجرا على نصحك ، ودعوتك لهم ، وكل ما تطلب منهم أن يؤدوا حق القربى الموجودة بينك وبينهم ، وكان ﷺ قريبا منهم ، وفي العرب عادة التماسك القبلى ، والتواد بين الأقارب ، فهو ﷺ لا يطلب أجرا إلا الطاعة ، والاتباع ، والاستماع له ، وعدم معاداته ، وتجنب سوء معاملته فهو ناصح أمين لهم .

وهذا الفهم لطلب المودة جزء من أصول الدعوة إلى الإسلام . فقد أمر الله

رسوله بدعوة قومه الأقربين فقال له : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾^(١)

فأنذرهم ﷺ ، وعند الجهر بالدعوة دعا أهل مكة جميعا ، وذكرهم بهذه القرابة لأن جميع بطون مكة كان بينهم وبين رسول الله صلة ونسب .

وهذا الفهم للآية أولى ممن ذهب إلى أن معناها أن رسول الله يذكر قومه

بأنه لا يطلب منهم أجرا ، وأنه يحرص عليهم بسبب القربى بينه وبينهم لأن ظاهر الآية يوضح أنه ﷺ يسألهم المودة .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .

وهو أولى كذلك من قصر القرابة على آل بيت النبي ﷺ وأهله لأن القول بأنه طلب من أهل مكة مودة قرابته وحدهم ، وعدم إلحاق الأذى بهم تخصيص عام بلا مخصص ، وقصر للمودة على حسن معاملة قرابته ، وعدم العدوان عليهم مع أن الرسول ﷺ كان يدعوهم إلى الدين كله ، ويعرفهم بأخوة الدين والعقيدة .

﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدَ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ﴾ أى ومن يعمل عملا فيه طاعة الله ورسوله يجازيه الله عليه ثوابا حسنا فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ أى إن الله يكثر غفران ذنوب عباده التائبين ويضاعف لهم الحسنات .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ "أم" للإضراب والانتقال إلى موضوع آخر ، وهو قول المشركين إن محمدا اختلق القرآن ، وكذب حين ادعى أنه كلام الله تعالى .

﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخَيِّمَ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ أى إن الله اصطفاك ، واختارك وفضلك عليهم يا محمد ، ولو شاء الله أن يجعلك منهم لكان ، ولو أراد سبحانه هذا لختم على قلبك لتفتري وتكذب ، وتكون مع المشركين إلا أن الله حماك من كل هذا ، وعصمك ، وأرسلك للعالمين .

وهذا تعريض بالمشركين ، وبيان ضياع أبصارهم ، وختم قلوبهم حتى صاروا لا ينطقون إلا بالكذب لميلهم إلى الكفر ، وحبهم للضلال .

إلا أن الله لم يشأ لك يا محمد سوءا فأنت رسوله للناس ، ومستقبل الوحي المنزل ، فاعلم أن الله يرفع ذكرك ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّدُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى أنه سبحانه سيمحو الباطل الذى يزعمه المشركون عنك ، وعن الإسلام

(٣٦٦)

والمسلمين ، ويثبت الحق ويبين الصواب فى كتابه المنزل المتضمن لبعض كلام الله تعالى .

وهذا وعد لرسول الله ﷺ بتحقيق النصر ، وزوال الباطل ، واثبات دين الله تعالى بثبوت وثبات وحيه لرسول الله ﷺ ، وحفظه بين المسلمين من بعده ﷺ إلى يوم القيامة .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى عليم بكل شئ عليم بما تظهره الخلائق ، وما تخفيه ، ويجرى الحساب بمقتضى علمه سبحانه وتعالى .

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ أى هو الله الذى يقبل رجوع التائبين إليه ، ويغفر لهم .

والتوبة هى الإقلاع عن الذنب ، والاستقامة على دين الله تعالى .
والتوبة واجبة من كل ذنب سواء بين العبد وبين الناس ، أو بين العبد وبين الله ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى فإن قبولها يتعلق بثلاثة شروط :

أحدها : أن يقلع العبد عن المعصية .

والثاني : أن يندم العبد على فعل المعصية .

والثالث : أن يعزم على أن لا يعود إلى المعاصى أبدا .

فإذا حصلت هذه الشروط صحت التوبة وإن فقد واحد منها لم تصح .
وإن كانت المعصية تتعلق بحق آدمي فشروطها أربعة هذه الثلاثة والشرط الرابع أن يبرأ من حق صاحبها ، ويعيد له حقه .

والتوبة من قيم الإسلام العظيمة التى ينقذ بها المسلم نفسه ، ولذلك دعا إليها الإسلام .

(٣٦٧)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة"^(١) .

وعن الأغر بن بشار المزني رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنني أتوب إليه في اليوم مائة مرة"^(٢) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهب راحلته فطلبها حتى إذا اشتد الحر والعطش أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده"^(٣) .

وعن صفوان بن عسال المرادي قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الله جعل بالمغرب بابا عرضه مسيرة سبعين عاما للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله ، وذلك قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا﴾"^(٤) .
وعن ابن عمر رضي الله عنهما : عن النبي ﷺ قال : "إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرر"^(٥) .

(١) صحيح البخارى . كتال الدعوات . باب استغفار النبي ﷺ ج ٨ ص ٦٧ .

(٢) مسند أحمد ط . الرسالة . مسند الشاميين . حديث الأغر ج ٢٩ ص ٣٩٠ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب التوبة . باب فى الحز على التوبة والفرح بها ج ٤ ص ٢١٠٣ .

(٤) سنن الترمذى . كتاب أبواب الدعوات . باب فى فضل التوبة والاستغفار ج ٥ ص ٥٤٦ .

(٥) سنن الترمذى . كتاب أبواب الدعوات ج ٥ ص ٥٤٧ .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : "إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها" ^(١) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال : اللهم إني أستغفرك ، وأتوب إليك ، وكبر ، فلما فرغ من صلاته قال له على كرم الله وجهه : إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين ، وتوبتك تحتاج إلى التوبة ، فقال : يا أمير المؤمنين ما التوبة ؟

قال علي : التوبة اسم يقع على ستة معان : على الماضي من الذنوب الندامة ، ولتنصيب الفرائض الإعادة ، ورد المظالم ، واذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، واذابتها في الطاعة كما ربيتها في المعصية ، والبكاء بدل كل ضحك ضحكته ^(٢) .

﴿ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى إن الله سبحانه يقبل التوبة ، ويعفو عن الذنوب والآثام السابقة .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ أى ويعلم الله سائر الأعمال والأفعال ويجازى عليها .

﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ﴾ أى يستجيب المؤمنون لدعوة الله تعالى ، ويستقيمون على هديه ، ويعملون الصالحات ، ولذلك يبارك الله لهم ، ويعطيهم كثيرا من نعمه وفضله في الدنيا وفي الآخرة .

(١) صحيح مسلم . كتاب التوبة . باب قبول التوبة ج ٤ ص ٢١١٣ .

(٢) شعب الإيمان للبيهقي . باب الصبر على المصائب ج ١٢ ص ٢٥٣ .

(٣٦٩)

﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أى يعاقب الله الكافرين بالعذاب المؤلم الشديد الذين يستحقونه .
وقد سمت الآية المؤمنين والكافرين بوصفهم لبيان سبب ما سيناله كل فريق .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات البشريات الكبرى للمؤمنين ، وتأمر النبي ﷺ أن يعرف قومه أنه لا يطلب منهم أجرا ، وكل ما يطلبه منهم هو أن يؤدوا له حق القرابة ويسمعوا له ، ويؤمنوا بدعوته لأن الله يجازى الحسنة بعشر أمثالها ، ويقبل التوبة ، ويعفو عن السيئات ، وتبين الآيات ضلال المشركين فى قولهم : إن محمدا كذب على الله ، واختلق القرآن ، وزعم أنه ليس كلام الله تعالى ، وجعلوا أن إرادة الله غالبية ، ولو كذب محمد لفعل الله به الأفاعيل ، ولختم على قلبه وجوارحه ، إلا أن الله لم يشأ ذلك ، وقضى بمحو الباطل ، واطهار الحق .
إن الله يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويجازى المؤمنين بالجنة ، ويعاقب الكافرين بعذاب السعير .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

استقامة المؤمنين على الحق

عباد الرحمن قوم هداهم الله للحق ، وعرفهم الصواب فآمنوا بالله تعالى وصدقوا برسوله ، واستسلموا لكل ما جاءهم من عند الله تعالى .

(٣٧٠)

هؤلاء المؤمنون يبشرهم ربهم بروضات النعيم ، ويجازيهم بالفردوس الأعلى من الجنة .

إن الله أكرمهم بالتوفيق للعمل الصالح ، وعرفهم بالإيمان ، وكتب عليهم أن يطيعوا الله ورسوله .

لقد طلب رسول الله من قرابته أن يحافظوا على حق القرابة ، ويطيعوه فيها ، ويستقيموا على الدين الذي جاءهم به .

ودعا الناس إلى الاستقامة ، والطاعة ، والاستسلام لله رب العالمين . وقضية الاستقامة على منهج الله هي قضية الدعاة ، وعليهم أن يعيشوا مع الناس ، ويحيطوا باتجاهاتهم ، ومقاصدهم ، ويعملوا على زرع الإيمان في قلوبهم بالحسنى ، ويدعموا المؤمنين في إيمانهم ، ويستغفروا لمن أذنب ، وليعرفوا الناس أن باب التوبة لم يغلق ، وأن اليأس والقنوط ليس من صفات المؤمنين ، فرحمة الله واسعة ، وعفوه كريم .

إن الدعاة هم رواد الأمة ، وقادة المسيرة ، ومسئوليتهم بين الناس كبيرة فليكونوا قادة ، وضياء ينير للناس الطريق .

الركيزة الثانية

رد مزاعم المشركين حول القرآن الكريم

القرآن الكريم كلام الله المنزل على محمد ﷺ ، وقد ثبت صدقه بما فيه من إعجاز متعدد الجوانب ، إلا أن خصوم الإسلام لم يسلموا له بالثبوت ، فلجأوا إلى مزاعم وتراعات يسيئون بها إلى القرآن الكريم وإلى الإسلام كله ... وأقام الخصوم معركة حول المصحف الشريف يريدون بها إطفاء نور الله ... ويأبى الله إلا أن يتم نوره .

إن المعركة قديمة منذ نزول القرآن الكريم ، ويجب أن يتصدى الدعاة للدفاع عن كلام الله تعالى .

(٣٧١)

والآية تعرض صورة لمزاعمهم التي ادعوا فيها أن محمدا كذب على الله ، واختلق القرآن من تلقاء نفسه ، وجاء الرد عليهم برد جديد ، وهو إبطال ظنهم أن الله عاجز عن صيانة كلامه وحفظه حتى يكذب عليه مخلوق ، لأن ذلك لو حدث لدل على عجز الله ، وضاع الإيمان كله .

إن الله قادر على صيانة كلامه من الدخيل ، وقلوب العباد بين يديه ، ومصيرهم تحت قدرته ، وأن اعتدى أحد على كلام الله لختم على قلبه ، وأبطل فعله ، وأثبت الحق ، وهو العليم الخبير .

إن المشركين يعملون على هدم الإسلام كله إلا أنهم يتسللون إلى هذه الغاية بطريقة خبيثة ، فيعمدون إلى هدم المصدر ، واسقاطه ، وبذلك ينتهي كل ما بنى عليه ... ومثلهم كذئب يريد أن يفترس فريسته على مراحل عديدة وبطرق غامضة ملتوية .

إن معركة المصحف هي معركة الإسلام كله ، ولذلك وجب على الدعاة أن يبذلوا جهدهم في نواح عدة :

أحدهما : إظهار الإسلام والدفاع عنه ، وبيان مزياه وفوائده .

ثانيها : المحافظة على مصادره ، وتأكيده نزولها من عند الله تعالى .

ثالثها : تربية المسلمين على القيم والأخلاق الإسلامية مع ضرورة التخلص من الزيوف والبدع والأكاذيب .

رابعها : الاهتمام بتحفيظ القرآن الكريم وتفهيمه والعمل به .

خامسها : السعى الدعوى على إيجاد الإنسان المؤمن ، والجماعة المؤمنة .

فضل الله على المؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٣٧٣﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٣٧٤﴾ وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُمْسِيَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٧٥﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣٧٦﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٧٧﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٧٨﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٧٩﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِنَا مَا هُمْ مِنْ مُّحِصِينَ ﴿٣٨٠﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة تبشير المؤمنين ، ومضاعفة حسناتهم ، وصيانة كتاب الله تعالى جاءت هذه الآيات ببعض آيات الله في الناس ، وفي الكون من حولهم برا ، وبحرا ، وجوا .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات بعض نعم الله على الناس ، فهو سبحانه يقدر أرزاقهم بما يناسب طبائعهم وأحوالهم وهو أعلم بهم ، فهو سبحانه الذى ينزل المطر لإغاثة

(٣٧٣)

الناس بعد اليأس والقنوط ، وهو سبحانه خالق كل شئ في السماء وفي الأرض ، وفي البحر ، وفي الفضاء ليؤمن الناس ... ومن كفر بعد هذا فلا نجا له من عذاب الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى لو جعل الله

جميع الناس أغنياء ، وبسط عليهم رزقه لعم الفساد ، وشاعت البغضاء بينهم ، واختل نظام الحياة لعدة أسباب .

السبب الأول : عدم وجود عمال يسعون في الأرض ، يبتغون من فضل الله ، ويطلبون الآخرة ، وبذلك يسقط العمل ، ولا يجد من يقوم به من الناس ، وحينئذ يضطرب نظام العمران .

إن خلق الناس غير متساوين في أرزاقهم ، وامكاناتهم حكمة قدرها الله تعالى لتحقيق عمارة الأرض بتوازن جميل ، فهذا غنى يحتاج لمن يعمل في مصنعه أو متجره نظير أجر يقبضه ... وهذا فقير يسعى للعمل والأجرة . يقول الله تعالى : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِيًّا ۖ وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾^(١) .

السبب الثانى : منع الفساد فى الأرض لأن الناس لو صاروا جميعا أغنياء فسوف يقع التحاسد فيما بينهم ، لأن كثرة المال عند أكثر الناس يدفع

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣٢ .

إلى الغرور ، والكبر ، وظلم الآخرين ، وعدم طاعة الله تعالى ، وحينئذ ينتشر الصراع بين الناس .

السبب الثالث : بيان قيمة النعمة ، لأن الفقير يتمنى الغنى ، والرزق ، الواسع ، وحين يصله يشكر الله تعالى ، ويؤدى حقه وحق الناس ، ويشكر ربه على هذا العطاء ... وإذا نظر الغنى إلى الفقراء يحمد الله تعالى على أن وسع له رزقه ، ومن المعلوم أن النعم لا تظهر إلا بأضدادها ، فالغنى لا يعرف فضل الغنى إلا بمعرفة الفقر ، والصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يشعر بها إلا المرضى .

السبب الرابع : إثارة الجد والنشاط ، لأن الفقير يسعى لكسب يومه ، والغنى يحتاج لتنشيط مشروعاته وأعماله ، وبذلك يكثر النشاط والعمل .

﴿ وَلَٰكِنْ يُزِيلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾ أى إن الله يقدر أرزاق العباد كما يشاء

وفق علمه وحكمته ، فيغنى من يستحق الغنى ويعطيه ما يجعله غنيا بالقدر الذى يريده الله تعالى ، ويلحق الفقر بمن يشاء من الناس وفق علمه وحكمته .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله عز وجل قال : "يقول الله عز وجل : من أهان لي وليا فقد بارزني بالمحاربة ، واني لأغضب لأوليائي كما يغضب الليث الحرد ، وما تقرب إلي عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه ، وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعا ، وبصرا ، ويدا ، ومؤيدا ، إن دعاني أجبت ، وإن سألني أعطيته ، وما ترددت في شئ أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه ، وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكفه عنه حتى لا يدخله عجب فيفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي

المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا الصحة ، ولو أسقمته لأفسده ذلك ، وإن من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو صححته لأفسده ذلك ، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بقلوبهم ، إني عليم خبير" (١) .

﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى محيط بكل ما يصلح عباده ، مطلع على قلوبهم ، ونياتهم .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ أى هو الله الواحد الأحد الذى ينزل عليهم المطر من السماء ليغيثهم به بعد انقطاعه عنهم مدة طويلة حتى يئسوا من نزوله .

والغيث هو المطر الذى ينزل على الناس بعد انقطاعه مدة طويلة ، وسمى بذلك لأن العباد يستغيثون لنزوله لحاجتهم الشديدة إليه ، ويغيثهم الله به بعد انقطاع طويل ظنوا خلاله أنهم حرما منه إلى الأبد .

إن الله عليم بأحوال عباده ، وبطبائعهم ، وبعواقب أمورهم ، يقدر لهم ما يشاء لتحقيق مصالحهم .

﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ أى ينزل الله المطر ، ويغيث العباد ، وينشر منافعه ، وفوائده للناس .

﴿ وَهُوَ أَوْلَىُّ الْحَمِيدِ ﴾ أى والله هو الذى يتولى شئون عباده ، وهو المحمود فى ذاته ، وفى أعماله ، وأفضاله .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى ومن آيات وحدانية الله ، وقدرته خلق السموات والأرض ، وما نشر فيهما

(١) شرح السنة للبغوى . باب التقرب إلى الله سبحانه وتعالى ج ٥ ص ٢٢ .

(٣٧٦)

من دواب تتحرك وتمشى ، وهذا يشمل الإنس ، والجن ، والملائكة ، وسائر
الحيوان ، وكل ما يدب ويمشى .

فإن قيل : كيف نسمى الملائكة بـ "الدابة" وهي لا تمشى ؟

أقول : يحتمل أن يكون للملائكة مشى على الأرض مع الطيران ، وبذلك
فهى تدب على الأرض أحيانا ، وتتصف بالدبيب حينئذ .
ويمكن أن يقال : إن المقصود بدواب السماء ما خلق الله فى بعض
السموات من دواب غير الملائكة .

وقال بعض العلماء : إن الدواب تكون فى الأرض فقط وهى المرادة ،
وجاء ذكر السموات لإحاطتها بالأرض ، فكأنها ظرف احتوى الأرض داخله .

﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴾ أى إن الله قادر على جمع الخلائق
للبعث والحشر والحساب ، لأنه الذى أبدع السموات والأرض وما فيهما ، ومن
أبدع هذه المخلوقات قادر على إعادتها وحيائها حين البعث .

﴿ وَمَا أَصْبَحْكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾
أى اعلّموا أيها الناس أن المصائب التى تلحق بكم تقع بسبب ظلمكم ، وعملكم
السئ ، واعلموا أن الله يعفو عن كثير من الأعمال السيئة ، ويعاقب على
بعضها فى الدنيا وفى الآخرة .

فإن الله سبحانه جعل الذنوب أسبابا لها نتائجها ومسبباتها :

فشارب الخمر يصاب بكثير من الأمراض الجسمية ، والعقلية فى الدنيا
وهى أثر من آثار ما اجترح من الذنب .

والتاجر غير الأمين ، أو الكذاب تصاب تجارته بالكساد ويعرف بين
الناس بالخيانة فيحجمون عن معاملته .

(٣٧٧)

والحكام المرتشون الظلمة الذين يجمعون أموالهم بالسحت يصابون بالفقر والعدم ، ويصبحون مثلاً بين الناس ، وإن لم يصيبهم الفقر يصيب أولادهم فيصبحوا بحال يرثى لها ، ويصيروا أحاديث مجالس الخاصة والعامة .
والأُمم الظالمة التي لا تنصر الحق بين أفرادها ، وتنتشر بينهم التقاطع ، ويبتز بعض أفرادها أموال بعض آخر ، تصاب بالمهانة بعد العظمة ، والذلة بعد العزة .

وما أمثال ذلك بعزير ، ولا بعيد .

فها هي ذى الأُمم الشرقية أصابها ما أصابها من الضعف ، والخمول ، والاضمحلال ، ثم الزوال من صفحة الوجود بما اجتاحت من ظلم وفساد فى الأرض ، وأكل بعضها أموال بعض ، واحتجز عظامؤها الأموال فى خزائنهم وابتزوها من أيدي الضعفاء ، وقد اقتص الله منهم ، فأضاع ملكهم ، وأذهب ربحهم ، وجعلهم لقمة سائغة للمنافقين الذين تحكموا فيهم ، بلؤمهم ، يتصرفون فيهم بحسب أهوائهم ، وما تمليه عليهم مصالحهم الذاتية ، وأهواءهم المنكرة .
وحين ننظر فى مصير المستبدين فى عالم اليوم وقد ضاع سلطانهم ، وسقطت نظمهم ، وصارت السجون مأواهم نتأكد من عدل الله تعالى ، ونعلم أن نهاية الظلم وخيمة .

وفى هذا عبرة لمن يتذكر ويستفيد ، ليعلم أن عقاب الأفراد فى الدنيا ليس مطرداً ، إذ كثيراً ما نرى سكيراً عريداً لا يصاب بأذى مما يفعل ، ونرى تاجراً يخون الأمانة ولا يصاب بكساد فى تجارته ، وحينئذ يكون عقاب كل منهما مؤجلاً ليوم الحساب إن شاء ربك عاقب ، وإن شاء عفا ، وقبل التوبة من الذنوب والآثام .

أما عقاب الأمم على ما تجترح من السيئات فهو محقق في الدنيا ، ولدنيا عظة التاريخ في القديم والحديث ، فما من أمة تركت أوامر دينها وخالفت نواميس العمران إلا زالت وصارت كأمس الدابر ، وأصبحت عبرة للباقيين ، ومثلا للآخرين ، فالرومان ، والفرس ، والعرب في الشرق ، وفي الأندلس والترك ، والعرب في العصر الحديث نماذج ماثلة أمامنا تجلّى لنا تلك القضية .

قال ابن عباس : لما نزلت قوله تعالى : ﴿ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾

قال رسول الله ﷺ : "والذي نفسي بيده ما من خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر" (١) .

وعن أبي سخيلة ؓ قال : قال علي بن أبي طالب ؓ : "ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله حدثنا بها رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ وسأفسرها لكم .

يا علي ﴿ وَمَا أَصْبَحُكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ أي من مرض ، أو عقوبة ، أو بلاء في الدنيا ﴿ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ والله أكرم من أن يثني عليكم العقوبة في الآخرة ، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفو" (٢) .
وقال عكرمة : ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بها أو درجة لم يكن الله ليرفعه إلا بها (٣) .

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : "لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة" (٤) .

(١) شعب الإيمان . باب في الصبر على المصائب ج ١٢ ص ٢٥٣ .

(٢) مسند أحمد ط . الرسالة . مسند العشرة المبشرين بالجنة . مسند علي ؓ ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) تفسير الخازن ج ٦ ص ١٢٦ .

(٤) سنن الترمذی . كتاب أبواب الجنائز . باب ما جاء في ثواب المريض ج ٣ ص ٢٨٨ .

﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى إنكم أيها الناس لن تفلتوا مما قدره الله عليكم من عقوبة ، ولن تعجزوه بالهرب أو المقاومة .
يقول النبي ﷺ : "إن الرجل يحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر" (١) .

﴿ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أى وليس لكم فى الآخرة ولى يدفع عنكم ، أو نصير ينصركم ويعينكم .
﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴾ أى ومن آيات قدرة الله ووحدانيته تسخير البحر لتجرى السفن على سطحه ، وتنتقل بكم من مكان إلى مكان ، فلقد مكن الله الإنسان من ركوب البحر بواسطة السفن المتنوعة الضخمة وهى تسير فى البحر كأنها جبال شاهقة .

﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ﴾ أى إن أراد الله إسكان الرياح ، ومنع هبوبها ، وعدم تنقلها فعل ، وحينئذ تبقى السفن راكدة فى مكانها فوق الماء لا تتحرك ، ولا تحقق نفعا .
فإن قيل : السفن الحديثة تسير بالطاقات الكهربائية المحركة ، وسكون الرياح لا يؤثر فيها . فكيف تمنع من المسير ؟

أقول : قدرة الله شاملة ، وانقطاع الكهرباء ممكن ، وفساد الآلات جائز وهياج البحر وغرق السفينة ليس ببعيد ، وإذا أراد الله شيئا قال له : كن فيكون .
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى إن حركة السفن ، وهبوب الهواء آية للمؤمنين الصادقين يؤمنون بها ، ويصبرون على البلاء بعدها

(٣٨٠)

، ويشكرون ربهم فى السراء ، والعلن ، ويقولون : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ ^(١) .

﴿ أَوْ يُوقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى وان يشأ الله إغراق السفينة بمن فيها من الناس بسبب ظلمهم ، وعملهم السئ أغرقها .
﴿ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴾ أى ويعفو الله عن كثير من ذنوب العباد ، ولا يعاقبهم عليها .

﴿ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ تَجْدِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا هُمْ مِنْ حَاصِرٍ ﴾ أى ويعلم المجادلون فى آيات الله بالباطل أنه لا مهرب لهم من عذاب الله تعالى حين ينزل بهم فى الدنيا وفى الآخرة .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات حكمة الله وقدرته فى عباده فهو يرزقهم بما يصلحهم ، وهو الخبير بهم ، ويجب على العباد أن يستسلموا له سبحانه وتعالى فهو الذى ينزل العيث ، وينشر الخير ، وهو الولى الحميد ، وهو الذى خلق السموات والأرض وما فيهما ، وهو القادر على البعث والحشر والحساب ، وهو الذى يجازى الناس ببعض أعمالهم ، ويعفو عن كثير ... ومن دلائل قدرة الله ما ينتفعون به من السفن الضخمة التى تجرى فوق الماء ، ولو شاء الله سكونها ووقوفها لأوقف الهواء الذى يحركها ويسيرها ، وأبطل أى محرك آخر ولو شاء إغراقها لغرقت ، فاعبدوا الله وحده ، وأطيعوه ، واعلموا أن الذين يجادلون بالباطل ، ويكفرون بالله لن يفلتوا من العذاب أبدا .

(١) سورة الزخرف ، الآية ١٣ .

(٣٨١)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

القيادة إدارة الممكن نحو الأفضل

تقوم الأمة الإسلامية على دعائم الدولة البشرية المنظمة ، فهى جماعات من البشر تسكن أرضا ، فى إطار نظام سياسى يعمل لتسيير الحياة بمنهج الله تعالى الذى أنزله على رسوله ﷺ .

وقد قاد رسول الله ﷺ الأمة بهذا المنهج ، وترك فيهم التشريع الشامل الثابت الذى يحدد معالم الحياة لمسار المسلمين فى هذه الدنيا .

ونلمح من الآيات كيف رزق الله عباده ، فجعل لكل مخلوق رزقا ، وقدره لسائر الناس كثرة أو قلة ، سعة أو ضيقا ، علما أو مالا ، أو سلطانا ... أو زوجة أو ولدا كما نلمح من الآيات أن الله نزل المطر على مكان ، ومنعه عن آخر ، وسير الأنهار لجهات ، وأبعدها عن أخرى ... وذلك كله وفق حكمة الله العزيز الحكيم .

ومن هذا المفهوم ندرك أن القيادة هى إدارة الممكن ، والتوجه به نحو الأفضل والأحسن ... والقائد المسلم يعرف دينه ، ويعرف خصائص أمته ، ومزاياها ، وعليه أن يقودها نحو الله بمنهج الله تعالى ، فيتعامل مع كل موقف بما يناسبه ، ويركز على العوامل المؤثرة ، ويبين لهم أن الحياة تتحرك بقدره ومن المهم اليقين بأن الله يسمع ويرى ، وهو سبحانه خبير بصير .

إن الله سبحانه وتعالى يرزق بقدر ، وينزل المطر بعد اليأس من نزوله ليعلم الناس أنهم عبيد لله ، وأنهم بين يدي رحمته آمنون ... وعليهم أن يستقيموا على ذلك .

وعلى الدعاة :

أن يركزوا على ملامح القدرة الإلهية فى حياة الناس ، ويتعاملوا مع الممكن لأخذ الناس إلى الله تعالى .

إن تنوع العطاء الإلهى بين الناس دلالة شاهدة على قدرة الله تعالى ، ودعوة بينه للإيمان والاصلاح ، وعبرة الاستفادة بها فى تنشئة الفرد ، وبناء الجماعة .

إن غاية الدعوة معلومة ، وسياسة الحياة تقضى بالاستفادة بالممكن لتحقيق هذه الغاية .

الركيزة الثانية**منهج زراعة الإيمان فى القلوب**

الإنسان جسد وروح ، وظاهر وباطن ، وقد أنزل الله دينه للناس ليمتثلوه عقيدة وشريعة وخلقاً ... وقد علمتنا قواعد العلم أن الجانب الباطنى فى الإنسان هو القائد الحقيقى للظاهر المعلن ... فالإنسان إن صدق بقضية ما فإنه يعمل لها ، ويتفانى فى إثباتها ، ويبذل لها كل ما يقدر عليه ... ولذلك بدأت الدعوات الإلهية بتكوين العقيدة فى الإنسان لبناء الباطن على أساس متين ، وبعد ذلك تكون الشريعة العملية ، والأخلاق التنظيمية أمراً سهلاً يسيراً مادام قد تطابق مع العقيدة .

إن المجاهد الذى يقدم على الموت صاحب عقيدة يضحي بروحه لها ... والمؤمن يقضى ليله قائماً ، ونهاره صائماً صاحب عقيدة يعمل لها ... ولذلك صدق من قال :

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها .: فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ولم يكن عجيباً أن يستمر الرسول ﷺ في مكة ثلاثة عشرة سنة يعلم العقيدة ، ويزرعها في الضمير والعقل ، فلما ظهر المسلمون بهذه العقيدة خرجوا إلى العالم مهاجرين يعملون لله ، ويدعون إلى العقيدة الساكنة في قلوبهم ، ولم يأبها بدنياً تذهب عنهم أو بوطن أو أهل يتركونه .

ولذلك :

كان الاهتمام بزرع الإيمان في القلوب ضرورة يجب أن يهتم بها الدعاة ولن يتحقق هذا الأمر إلا بالإقناع القلبي ، واليقين العقلي الذي جعل ياسر بن عمار رضي الله عنه يقبل الموت في مكة ، وهو الذي جعل المهاجرين يتركون ووطنهم وأموالهم ، وأهاليهم إلى حيث يأمرهم رسول الله ، وهو الذي جعلهم يجاهدون في سبيل الله تعالى ، وهم يوقنون بأنه ﴿ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾^(١) .

إن الإيمان القلبي يقوم على الاختيار الحر ، وتلك نقطة أساسية للدعاة لا بد لهم منها وهم ينادون بالإيمان ، ويعملون على إيجاد مجتمع من المؤمنين يقول الله تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾^(٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾^(٣) .

إن التكوين الإيماني يحتاج إلى مخاطبة العقل بالواقع ، وتحليل الواقع ليعرف الإنسان قدره معه ، ويرى قدرة الله فيه .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٤٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

(٣) سورة الكهف ، الآية ٢٩ .

(٣٨٤)

ولهذا كثر الحديث عن مخلوقات الله ، وتكررت فى آيات وسور القرآن الكريم لإظهار مخلوقات الله التى يراها الإنسان ، ويستفيد بها ، ويتيقن من عجزه والناس جميعا عن خلق شئ منها .

وفى هذه الآيات نرى حديث القرآن الكريم عن توزيع الرزق ، ونزول المطر ، وخلق السماء أو الأرض ، وإيجاد الأنعام والدواب ، وجريان البحر والسفن ... إلى غير ذلك .

إن الإنسان يقف أمام هذه المخلوقات ويستفيد بها ، وعليه أن يبحث عن خالقها وموجدتها فهو الإله الذى يجب أن يعبد وحده .

ومن ملامح الآيات نقدم للدعاة منهجا عمليا لتنشئة الناس على حب الله والإيمان به ... وملخصه :

أولا : توجيه الناس إلى التأمل فى تنوع الأرزاق ، واختلافها نوعا وكما بلا سبب بشرى فى أحيان كثيرة ليروا حكمة الله ، وقدرته سبحانه وتعالى فهو الذى قدرها وأوجدتها لحكمة يراها سبحانه وتعالى :

كم عالم عالم أعيت مذهبه .: وكم جاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى سير الأفلاك شاهدة .: وصير العالم التحرير زنديقا

ثانيا : إظهار قدرة الله فى الكون القريب والبعيد ، وفى كل منها منفعة للناس فى صورة متوازنة ، ومنظمة ، فى إطار نظام عجيب لا يتخلف ولا يتوقف ، ولا يتغير ، ويستمر فى وظيفته كما شاء الله له ... كأنه مخلوق واحد تكاملت جزئياته ، وترابطت عناصره ... صنعه صانع واحد ، وليس للناس إلا التأمل فى الظواهر ، واكتشاف بعض العناصر ، ووصفها فى وضع يفيدهم وينفعهم .

وفى كل يوم يكتشف العلماء أن الله على كل شئ قدير ، ورحمته وسعت كل شئ .

(٣٨٥)

ثالثا : إثبات العجز البشرى أمام أسرار الكون فمهما يكتشف العلماء من ظواهر الكون ، وحركة المخلوقات ، فإنهم يصلون إلى نقطة يعجزون عن الخوض فى أسرارها لعدم تمكنهم من العلم بها .

هذا العجز يؤكد وجود قوة عليا هى أسمى من قوة الناس وأعلى من مدركات العلم ... وهى قدرة الله تعالى .

رابعا : إبراز آيات الله المحيطة بالإنسان تؤكد قدرة الله تعالى ، فهذا المطر يصنعه الريح ، ويحمله إلى مكان يريده الله تعالى ليغيث به الناس . وهذه السماء بما حوت ، والأرض وما اشتملت تتحرك وتتكامل وتستمر بأمر الله ... ، وهذه السفن السابحة فوق الماء تسير بقدرة الله ، ولو شاء سبحانه لأمسك ماءها ، وأسكنها ، أو أغرقها لفعل .

وأحداث الدنيا وأحوالها قبل أهوال الآخرة وأحداثها دليل على أن لهذا الكون إلها يصنعه يصدقه ويحكمه .

وما فى الموجودات من تشابه وترابط فى الحركة ، والغاية برهان على أن الصانع إله واحد .

إن إبراز هذه الآيات شديدة الأمر فى زرع الإيمان فى القلوب . إن مهمة الدعاة شاقة ، ومسئوليتهم واسعة ، وأمامهم المنهج والطريق فليسيروا على هدية ، ويتذكر أولو الألباب .

الركيزة الثالثة

حاجة الإنسان لله

خلق الله الإنسان ليعبده ويستقيم على دينه ، وأمره الله أن يتصدى لقوى الشر والظلام فى الأرض .

(٣٨٦)

عرفه بالجانب الشهوانى فى نفسه وأمره أن لا يسمع له ، ونهاه عن اتباع
نزعات الفحشاء فى ضميره .

وحدد له نشاط الشيطان الرجيم وضرورة قهره ، والتغلب عليه .

وعرفه بقراءة السوء ، وأصحاب الفساد حتى يبتعد عنهم ، ولا يتأثر بهم .

إن الإنسان ضعيف يحتاج إلى معونة الله تعالى ، ولذلك وجب عليه أن
يعرف قدره أمام قدرة الله ، وأن يتوب إلى الله ، ويرجع عن ذنوبه ، ويسأله
العون على أعدائه .

إن الله هو الولى الحق ، والنصير القوى ، وكل ما عداه غثاء لا يسمن
ولا يغنى من جوع .

والسعيد من أخلص أمره لله ، ولجأ إليه ، واستقام على دينه ، واتبع هداه
، وهو نعم المولى ، ونعم النصير .

صفات المؤمنين وجزاؤهم عند الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبِيرَ الْأَثَمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٦٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۚ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٧٠﴾ وَلَمَنِ اتَّصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٧١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ وَلَمَنِ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٧٣﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة بعض الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته جاءت هذه الآيات لتزهد الناس من الدنيا ، وحثهم على الاستجابة لدعوة الرسول ﷺ ، وتحديد بعض صفات المؤمنين التي يستحقون الفوز في الدنيا ، وفي الآخرة .

(٣٨٨)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن متاع الدنيا قليل يناله المؤمن والكافر ، أما الآخرة ففيها
الجزاء الحسن والمتاع الجميل للمؤمنين الذين يتوكلون على الله تعالى ،
ويجتنبون كبائر الإثم ، ويتسامحون عن يعتدى عليهم ، ويستجيبون لأمر الله
تعالى إذا جاءهم ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون من أموالهم .
وتوضح الآيات أن الله يجازى السيئة بمثلها ، ويضاعف ثواب الحسنات
فمن أحسن فله الثواب العظيم ... ومن أساء عوقب بمثل إساءته ... إن الله
يحكم بين الناس بالعدل وهو الغفور الرحيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى وكل ما يأتيكم أيها
الناس من الغنى ، وسعة الرزق ، والمال ، والعلم ، وكثرة الأهل والعشيرة ،
والأولاد فهو من متاع الدنيا ، وهو قليل مهما كثر لأن مدته محدودة ،
وفناءه أكيد ، والرضى به قاصر ، واختلاطه بالكدر واضح .
﴿ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى وما عند الله فى الدار الآخرة من
الثواب ، والنعيم خير من متع الدنيا فى ذاته ، وهو مستمر ، دائم ، سرمدى ...
وحكم العقل السليم يؤكد أن الدائم المستمر أفضل وأحسن من المنقطع المنتهى .
والفوز فى الآخرة للذين آمنوا بربهم ، واستقاموا على منهجه ، واتصفوا
بالصفات التالية :

(١) الإيمان بالله تعالى : يقول الله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ أى جعل الله

ثواب الآخرة للذين آمنوا بالله تعالى ، وأخلصوا له العبادة ، واستقاموا على دينه ، وصدقوا بكل ما جاء به رسول الله ﷺ .

(٢) التوكل على الله : يقول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أى إنهم

يعتمدون على الله تعالى وحده ، ويرضون بقضائه وقدره ، ويسارعون إلى طاعته ، والاستقامة على منهجه .

(٣) اجتناب الكبائر : يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ

وَالْفَوَاحِشَ ﴾ أى وهؤلاء المؤمنون يبتعدون عن ارتكاب الآثام الكبيرة والفواحش المنكرة .

والآثام الكبيرة كل ما فيها حد أو قصاص ... والفواحش ما استنكره الشرع ، وقبحه العقل ، أما اللطم فهي الصغائر التى يتوب عنها مرتكبوها .

(٤) التسامح والعفو : يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أى

ومن أوصاف المؤمنين إنهم إذا غضبوا من أمر كظموا غيظهم ، وعفوا عن من يسئ إليهم ، ولا يستمر غضبهم إلا إذا انتهكت حرمة الله تعالى .

(٥) طاعة الله : يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ أى ومن

أوصافهم أنهم يطيعون الله فيما يدعوهم إليه ، ويطبقون شرعه ، ويستقيمون على الخلق الكريم .

(٦) إقامة الصلاة : يقول الله تعالى : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أى إنهم يحافظون

على الصلاة ، ويؤدونها على وجهها الصحيح ، مستوفية شروطها ، وأركانها .

(٧) التشاور والمناصحة : يقول الله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنِهِمْ ﴾ أى

إنهم يتشاورون فيما بينهم ، ويتناصحون ، ويتفقون على أمور حياتهم وشئونهم .

(٨) الإنفاق : يقول الله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ أى إنهم

ينفقون من أموالهم فى سبل الخير ما ينفع الأفراد والجماعات .

(٩) الانتصار للحق : يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ

يَنْتَصِرُونَ ﴾ أى إنهم يردون الطغيان إذا وقع عليهم ، وينتصرون

لأنفسهم ممن ظلمهم بالحق والعدل .

وهذه كانت أوصاف المؤمنين فى عهد رسول الله ﷺ التى صاروا بها خير

أمة أخرجها الله للناس ، كانوا يعملون لله ، ويخلصون فى الطاعة ، ويبتعدون عن كبائر الإثم والعدوان .

فإن قيل : الآيات جمعت بين صفتين متعارضتين للمؤمنين ، الأولى هى

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ ، والثانية هى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ

يَنْتَصِرُونَ ﴾ . فما معنى هذا ؟

أقول : إن المؤمن يتعامل مع الواقع ، وتتمسك بالخلق الكريم ، ولذلك

تنوعت مواقفه فى العفو عن المعتدى عليه ، فإن رأى أن العفو يسكن الفتنة ،

ويجمع الناس ، فإنه يعفو ويتسامح ... وإن رأى أن العفو يؤدى إلى جراءة الظالم

، والتمادى فى العدوان ، وينتصر لنفسه بالعدل .

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ أى وجزاء المرتكب لسيئة جزاء شرعى

يعادل هذه السيئة ... وتسمية الجزاء بالسيئة من باب المشاكلة البلاغية .

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ فمن عفا عن من ظلمه ،

واصلح ما بينه وبينه ، فإن الله تعالى يجازيه على عفوه جزاء حسنا .

وفى الآية حث على العفو ، والمسامحة ، وعدم الانتظار إذا رأى المؤمن أن ذلك يؤدي إلى المودة والتعاون .

﴿ إِنَّهُ لَا تُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أى إن الله لا يحب الظالمين المعتدين .

﴿ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى

لا جناح ولا لوم على من ينتصر ممن ظلمه ، ولا عقوبة عليه ، فقد أخذ لنفسه بالحق ، وذلك يكون فى ميدان الحرب والقتال ، أما فى وقت الأمن والسلام فإن الحاكم المسلم هو ولى المظلومين يحافظ على حقوقهم ، ويعاقب المعتدين .

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ

الْحَقِّ ﴾ أى إنما المؤاخذه والإثم على الذين يظلمون الناس ، ويعتدون عليهم

بغير حق ، ويفسدون فى الأرض ، ولا يراعون حاكما ، ولا يخضعون لنظام .

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هؤلاء الظالمون لهم عذاب أليم فى

الآخرة فقد كفروا ، وعصوا ، وبغوا .

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ أى إن من

صبر على الظلم ، وعفا عن ظالمه صاحب عزيمة وقوة يستحق بها الثواب والأجر الجزيل فى الآخرة .

يقول ﷺ : "يا أبا بكر ثلاث كلهن حق : ما من عبد ظلم بمظلمة

فيغضى عنها إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد

(٣٩٢)

بها صلة إلا زاده الله بها كثرة ، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة" (١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات قلة متاع الحياة الدنيا ، والمؤمنون يتيقنون من ذلك ، ولذلك فهم يتصفون بصفات عدة منها إيمانهم بالله تعالى ، والاعتماد عليه ، والابتعاد عن الكبائر ، والفواحش والآثام ، وهم يستجيبون لربهم ، ويطيعون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويتشاورون ، ولا يرضون بضميم ولا عدوان ، ويأخذون بحقهم ممن ظلمهم ، وهؤلاء المؤمنون من أصحاب العزائم القوية .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الأمور بخواتيمها

ينبهر كثير من الناس بلذائذ الفسق والفجور ، وعلو الظلم والطغيان وهذا وهم يسوقه الشيطان لأصحابه ، لأن قيمة الشيء تكون في ملازمته للحق في ذاته ، والعبرة والحكم يكون على آثار الأعمال وخواتيمها فكم بغى ظالم وتجبر ، وطغى واعتدى حتى ظن أن الأمر قد استتب له ، واستقر سلطانه وطغيانه ... وفجأة تحدث أحداث تؤدي إلى انقلاب الأحوال ، وسقوط الطغيان ، وانتقال الطاغية من عرشه وملكه إلى عالم البؤس ، والسجود .

(١) مسند أحمد . مسند المكثرين من الصحابة . مسند أبي هريرة ؓ ج ١٥ ص ٣٩٠ .

لقد ادعى فرعون الألوهية ، وقال للناس ما حكاه الله عنه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ
 الْأَعْلَى ﴾^(١) ، وقال لهم : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾^(٢) وبقدرة الله يبتلعه اليم ،
 ويغرق فيه هو وجنوده ، ويخرج من البحر جثة هامة عظة للناس من بعده .
 يقول الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً ﴾^(٣) .
 والطغاة كثيرون ، والعبرة بنهاياتهم واضحة ... والعاقل من نظر إلى الدنيا
 ووضعها في موضعها ، وأدى لها حقها ، وأخذ منها ما ينتفع به في الآخرة .
 إن الدنيا في ميزان الحق دار ممر ، وزمن للإخبار والابتلاء ، ومرحلة
 للتكليف ليظهر الخبيث من الطيب ، والمطيع من المعاصي .
 وقد نبهنا الله تعالى بشأن الدنيا حتى لا نغتر بها ، ونغوص في شهواتها
 ونسر بمتعها ... إن متاع الدنيا قليل يحسن التملئ فيه يحذر ، والالتزام فيها
 بشرع الله تعالى .
 والعاقل من عاش الدنيا ، وأمله في الآخرة ، وجعل سعيه للوصول إلى
 رضوان الله تعالى لأن ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا ﴾^(٤) .
 وليضع المسلم أمامه الخاتمة الطيبة فهي مآله ومثواه عند الله تعالى ،
 وأحداث الدنيا دليل على هوانها ، فهي لم تدم لأحد ، ونعيمها لا استمرار له

(١) سورة النازعات ، الآية ٢٤ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٢٩ .

(٣) سورة يونس ، الآية ٩٢ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية ١٩ .

وهى إن حلت خلت ، وإن طالت زالت ، وصفائها مشوب بالعيوب والآلام ...
والآخرة خير وأبقى .

الركيزة الثانية **صفات المؤمنين بالله تعالى**

تبين الآيات أن الله أعد الجنة ونعيمها ، وخيرها للمؤمنين الصادقين ،
المتميزين بصفات معينة ، بينها الآيات لتكون معلما يقصده من يريد الله واليوم
الآخر ... وهذه الصفات هى :

أولا : الإيمان التام بالله تعالى ، الجامع لكل عناصر الإيمان وخصائصه
فهم يصدقون بكل ما أخبر الله به ، ويخلصون فى العبادة والتقوى ، ويعتمدون
على الله اعتماد كلياً ، ويطبقون شرعه ، ويؤدون العبادات على وجهها ،
مخلصين لله حنفاء ، غير مشركين به ، وهم يعتمدون على الله حق الاعتماد
يقومون بما كلفوا به ، مؤمنين بقضائه وقدره .

ثانيا : طهارة العمل والسلوك فهم يلتزمون بحكم الله تعالى ، ويتجنبون
الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا يستبد بهم الغضب ، ويميلون إلى
العفو والسماح .

ثالثا : أمرهم شورى بينهم ، فلا يستبد أحدهم برأى ، وإنما يأخذون أمر
الله ، ويجتهدون فى غيره .

رابعا : العزة الإيمانية ، فهم لا يعتدون على غيرهم ، ولا يقبلون أن يعتدى
عليهم غيرهم ، فإذا بغى عليهم باغ رده ، وانتصروا منه بقدر ما اعتدى
عليهم بلا إسراف ولا تقصير ، وهم لذلك لا يصبرون على ظلم ، ولا يرضون به

سوء مصير المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ ۖ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ ۖ وَتَرَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِّنَ الْأَذَلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ ۚ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ۖ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أهم صفات المؤمنين جاءت هذه الآيات لبيان أن الهادى هو الله تعالى ، وتوضيح صفات الكافرين وبيان أنهم سيصابون بالحسرة والندامة حين يأتيهم العذاب الأليم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن من يضلّه الله فلا هادى له ، وأن الظالمين سينالون العذاب الأليم ، وأنهم فى الآخرة سيتحسرون ، ويتمنون الرجوع للدنيا ليصححوا فسادهم فقد خسروا كل شئ .

(٣٩٦)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى إن من شاء الله ضلاله أضله ، ولن يجد له غير الله وليا يهديه للحق ، أو ينقذه من العذاب أو يشفع له عند الله .

﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾ ؟ ... والخطاب لمحمد ﷺ تسليية له ، وتذكيرا بالعذاب الذى سيحل بمن كفر به ، وبيانا لحال الظالمين البئيس فى الآخرة ...

ويجوز أن يكون الخطاب لغير معين توضيحا لسائر الناس ، وبيانا لكل من له عقل ليعرف ما عليه حال المشركين فى الآخرة ، فلقد ظلموا أنفسهم بالكفر فى الدنيا ، فساء مصيرهم فى الآخرة ، ووجب عليهم العذاب ، وحين يرونه سيتحسرون ، ويندمون ، ويقولون : هل يمكن أن نعود للدنيا لنعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ؟ ... وهل نجد طريقا نعود به إلى الدنيا ، لنستدرك ما فاتنا ؟

﴿ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِّنَ الذَّلِّ يَنْظُرُونَ عَلَىٰ النَّارِ طَرَفٍ خَفِيٍّ ﴾ أى وتراهم يا محمد ، ويراهم كل راء حين يعرضون على النار فإنهم يحاولون الابتعاد عما هم فيه من ذل ، وصغار ، وخضوع ، ويختلسون النظر إلى النار ، ويعجزون عن التمعن فيها لهولها ، وسعيرها ، ومعنى النظر من طرف الخفى النظر السريع إلى الشئ خفية بعيدا عن الناس .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ أى يقول المؤمنون يوم القيامة ، وهم يرقبون أحوال الكافرين وهم

(٣٩٧)

يعذبون فيقولون : إن الذين خسروا كل شيء هم الذين دخلوا جهنم فخسروا أنفسهم ، وكانوا سببا في هوانها وعذابها ، وخسروا أهلهم أيضا بعدما أطاعوهم في الجحود ، وقلدوهم في الكفر وعبادة غير الله تعالى فهلكوا وعذبوا وبعثوا عنهم .

إن الخسارة الكبرى هي خسارة الآخرة لأنها تؤدي إلى عذاب دائم مقيم وحرمان مستمر ، وذل وصغار في الجحيم .

﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ أى إن الكافرين يوضعون في عذاب دائم يقيمون فيه .

﴿ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى إنهم لن يجدوا في الآخرة أولياء ينصرونهم من دون الله تعالى ، ويشفعون لهم عنده ، وغاب عنهم ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ أى ومن يريد الله إضلاله أضله ، ولن يجد سبيلا للنجاة ، ولن يعود إلى الدنيا أبدا .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات إن أمر الهداية والضلال بيد الله سبحانه وتعالى ، ومن أضله الله لن يجد له هاديا ... وفى يوم القيامة يرى المؤمنون الكافرين فى حسرة وندامة ، يطلبون الرجوع إلى الدنيا ليتوبوا بلا مجيب ، ولما لم يجدوا لأنفسهم مفرًا يستسلمون لخزنة النار ، ويسوقونهم إلى جهنم فى ذلة وصغار ، ويحاولون النظر خفية إلى جهنم التى جعلها الله لهم مأوى واقامة ، بعد أن خسروا أنفسهم وأهلهم .

(٣٩٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

خسران المشركين الكبير يوم القيامة

فى يوم القيامة يكون القضاء الحق بين الناس ، فمن أبصر الصواب فى الدنيا ، وعمل به فقد نفع نفسه ، ومن عمى وضل فلا يلومن إلا نفسه .

وبعد الحساب يعاقب الله المشركين ، ومن تبعهم ، ويجعل الجحيم مستقرا لهم ولأهلهم بما كانوا يعملون .

فى يوم القيامة يتمنى المشركون أن يعودوا إلى الدنيا ، ليتوبوا ويصلحوا أمرهم بعدما رأوا الحقيقة ، وعاشوا كما كانوا مرة أخرى ... ولن يستجيب الله لهم ، فقد بان لهم المصير الذى استهزأوا به وما كانوا مؤمنين .

إن التصديق بالآخرة إصلاح للدنيا لأن من يعلم تدوين كل عمله ليحاسب به حسنه وفق تعاليم من سيحاسبه ... والواجب على الإنسان العاقل أن لا يغفل عن الآخرة ، ويبقى مستعدا لها بالإيمان والعمل الصالح ، لأن العمر قصير ، والأجل يأتى فجأة ، والحساب عدل كله ، فليحذر الذين يخالفون دين الله أن تصيبهم فتنة أو يأتيتهم عذاب أليم .

الأمر بالدعوة إلى الإيمان

يقول الله تعالى :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ بِلِّ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكَيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۖ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۚ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّهَا ۖ وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ تَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا ۖ وَجَعَلَ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

مناسبة الآيات لما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أهوال يوم القيامة والخسارة الكبرى التي يلقاها المشركون فيها جاءت هذه الآيات للدعوة إلى الإيمان ، والتحذير من عذاب يوم القيامة ، وتسليية رسول الله حتى لا يحزن ، ولا يتألم لعدم إيمان أهل مكة فقد قام بما وجب عليه ، وهو تبليغ دين الله لهم ، وبشر الطائعين ، وأنذر العصاة بعذاب السعير .

- ٢ -

موضوع الآيات

تأمر الآيات الناس أن يؤمنوا بدين الله تعالى ليسعدوا بنصر الله لهم ، وتوجه رسول الله ﷺ إلى عدم الحزن على المشركين فقد بلغ الرسالة وقام بما كلف به ، وليعلم أن طبيعة الإنسان الجمود والكفر إلا من عصم الله تعالى فله الأمر كله ، وله الحكم ، وهو على شئ قدير .

(٤٠٠)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾

أى استجيبوا أيها الناس لدعوة الله التى بلغها لكم رسول الله ﷺ والدعاة من بعده ، ففيها خيركم وصلاحكم ، واستقيموا على منهج الله تعالى وأنتم فى الدنيا قبل أن يأتى الأجل ، وتقوم القيامة ، ويقع البعث والحشر والحساب ، وهو يوم لا يمكن لمخلوق أن يرده ، أو يمنعه نظريا وعمليا ، فقد أثبت الدليل خطأ من أنكره ، وجحده .

﴿ مَا لَكُمْ مِّن مَّلَجٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ أى إذا قامت القيامة لن تجدوا مكانا

تتحصنون فيه ، ولا سلطانا تستعينون به ، ولا ناصرا ينصركم ، ويتولى أمركم .

﴿ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أى ولا تستطيعون إنكار اليوم الآخر ، فقد

صار حقيقة واقعة ترونها ، وتعيشونها ، وتحترقون بعذابها .

﴿ فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴾ أى فإن استمروا على

الشرك ، وتمسكوا بعبادة الأصنام فدعهم وشأنهم ، فإننا لم نرسلك رقيبا عليهم تحفظ أعمالهم وأقوالهم ... وانما أرسلناك مبلغا للوحى ، وداعيا لدين الله ، ومبشرا بالجنة ، ومنذرا من العذاب الأليم .

﴿ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا أَلْبَلُغُ ﴾ أى ما عليك يا محمد إلا البلاغ ، وإيصال

الوحى للناس بيانا ، واضحا .

﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَّهَا ^ط وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ

بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ أى لا تحزن يا محمد على كفر

أهل مكة لأنهم يتمسكون بطبيعة الإنسان المادية ، وحبه لخراف الحياة الدنيا

(٤٠١)

وشأنهم هو شأن طبيعة الإنسان ، لأنه إن رزقه الله نعمة ورحمة سر بها ، وفرح ، واستغرق في فرحه ، وإن نزلت به نازلة في نفسه ، أو ماله ، أو ولده ، يئس ، وجد فضل الله عليه ، وعاد إلى كفره وإنكاره ، فهو شديد المعصية ، شديد الكفر ، متقلب المزاج والهوى .

والمراد بالألف واللام في ﴿الْإِنْسَنَ﴾ الاستغراق لتشمل جميع الناس من آمن ، ومن كفر .

فإن قيل : كيف يدخل المؤمن في قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ الْإِنْسَنَ كَفُورٌ﴾ ؟
أقول : تشير الآية إلى طبيعة الإنسان التي يعيش بها ، وتبين مدى ميله إلى الجحود ، وإنكار الفضل ، والاعتزاز بالذات ، ويستثنى الواقع من هذا الطبع من نجا منه ، وارتقى بنفسه المطمئنة وانتصر على نفسه الأمانة بالسوء ، وعلا على طبيعته المادية الشهوية ولن يصل الإنسان لهذه الحال إلا بالمجاهدة والتقوى .

إن المؤمن يتجرد من الأنانية والمادية ، وينظر في الآيات ، ويؤمن بالله ويتغلب على طبيعته أملا في الفوز بجنان النعيم ، فهو بذلك ليس من الكافرين .

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى إن مالك الملك هو الله تعالى ،
فله ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما .

﴿سَخَّلْنَاهُ مَا يَشَاءُ^{٤١} يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ^{٤٢} إِنشَاءً وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ^{٤٣} الذُّكُورَ^{٤٤}﴾
أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً^{٤٥} وَجَعَلُ^{٤٦} مَنْ يَشَاءُ^{٤٧} عَقِيمًا^{٤٨}﴾ أى أنه سبحانه وتعالى المتصرف فى خلقه يخلق ما يشاء لمن يشاء ، كما يشاء فيجعل الأبناء ذكورا

(٤٠٢)

لبعض الناس ، وانا لبعض آخر ، ويزوجهم ذكورا وانا لبعض ثالث ، ويقطع
النسل عن غيرهم ، وهو الحكيم الخبير .
﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ أى أنه قادر على فعل ما يريد ، عليم بكل شئ .

- ٤ -

معنى الآيات

تدعو الآيات الناس إلى الاستجابة لدعوة الله ، والدخول فى الإسلام قبل
فوات الأوان بمجئ الموت ، وهم فى الدنيا قبل وقوع يوم القيامة ، حيث لا
يستطيع مخلوق ما رد البعث أو منعه ... وتبين الآيات للرسول ﷺ أن الله
أرسله مبلا فقط حتى لا يتألم من كفرهم واعراضهم ، لأن طبيعة الإنسان
الجحود والكفر إلا من رحم الله تعالى .
إن الله هو مالك الملك ، وخالق الخلق ، وهو المعطى والمتصرف فى
خلقه كله ، يهب من يشاء لمن يشاء ، وهو على كل شئ قدير .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الإيمان طريق النجاة

فى الدنيا وفى الآخرة

بعث الله رسله للناس لنصحهم ، وإرشادهم ، وحثهم على اتباع تعاليم الله
تعالى ، وقد أثبتت الأحداث ، وأخبار السابقين أن طريق الفوز والفلاح فى
الدنيا والآخرة هو الإيمان بالله تعالى ... وسبب ذلك أن الإيمان دعوة إلى

(٤٠٣)

طهارة الباطن والظاهر ، ومنهج سليم لصناعة إنسان كريم ، وإيجاد مجتمع سليم.

إن الإيمان يملأ القلب باليقين ، وحب الله تعالى ، والتمسك بقيم الخير ، والانقياد لله رب العالمين .

ويدعو الإيمان إلى الأعمال الصالحة ، والتعاون مع الناس والبعد عن الفحشاء والمنكر ، ويحث الإيمان على مكارم الأخلاق ، وحسن السلوك .
إن الإيمان استجابة لدعوة الله ، واستقامة على الصراط المستقيم .

الركيزة الثانية

ضرورة تعظيم الله تعالى

هذا الكون المخلوق حادث أوجده الله تعالى بقدرته ، وهده لما خلق له ، وكرم الإنسان ، وفضله على كثير من خلقه ، وميزه بالعقل والإدراك ، والفهم والوعى ، وجعل سبحانه من خلقه دليل وجوده وقدرته .
وعلى الإنسان أن يعرف ربه ، ويقر بنعمه وأفضاله ، ويتيقن من جلاله وعظمته .

إن الله هو الخالق العظيم ، مالك السموات والأرض ، وهو المتصرف فى خلقه كما يشاء العليم بعباده .

وقد قضى الله بالعدل ، وحكم به ، وجعل الدنيا دار عمل وابتلاء ، والآخره دار حساب وجزاء .

والواجب أن يستفيد المسلم بدنياه ، ويملأها بطاعة الله ، والإخلاص فى عبادته ليرى عبادته فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

والطريق إلى الله ينحصر فى الاستسلام لله ، والمحافظة على فرائضه ، والتقرب إليه بالذكر ، وقراءة القرآن ، وأداء النوافل .

وحى الله للرسول "عليهم السلام"

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسَلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات أن الله هو صاحب الفضل والعطاء جاءت هذه الآيات لبيان نزول الوحي على رسوله بدين الله تعالى على أوجه شتى تنبئنا للدين ، وأحياء للفضائل بين الناس .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله يكلم رسوله بصور ثلاث هي الإلهام النفسى ، والكلام من وراء حجاب ، ونزول الملك بالوحي إلى الرسول ، وتوضح الآيات أن الله قد أوحى لمحمد ﷺ بالقرآن الكريم ، الذى أنزله ، وجعله نورا هاديا ، ومعجزا ، يهdy به الله الناس إلى صراط الله المستقيم ، كما أنزله وشرعه ، وهو دين الإسلام الحنيف .

(٤٠٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ أى ما أوحى الله لرسول من رسله

سبحانه وتعالى إلا بإحدى طرق ثلاثة هي :

(١) الطريقة الأولى : أن يحس الرسول بمعان تلقى فى قلبه ، أو يرى رؤيا منامية كرؤيا الخليل إبراهيم عليه السلام ذبح ولده ، ومنه قوله ﷺ : "فتت فى روعى" (١) .

(٢) أن يسمع الرسول كلاما من وراء حجاب كما سمع موسى عليه السلام كلام الله من غير أن يبصر من يكلمه ، فهو قد سمع كلاما ولم ير المتكلم . يقول الله تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ (٢) .

(٣) أن يرسل الله إلى الرسول ملكا بصورة من الصور يبلغه كلام الله تعالى . عن عائشة رضى الله عنها أن الحرث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال : "يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟

فقال رسول الله ﷺ : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد (يسيل) عرقا" (٣) .

(١) جامع معمر بن راشد ج ١١ ص ١٢٥ .

(٢) سورة النساء ، الآية ١٦٤ .

(٣) صحيح البخارى . المقدمة . باب بدء الوحي ج ١ ص ٦ .

(٤٠٦)

﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى عليم بخصائص عباده
يوحى إليهم بما يناسب حالهم بحكمة ودقة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ أى وبمثل وحيانا للرسول
السابقين أوحينا إليك يا محمد ، وأنزلنا عليك القرآن الكريم ، وجعلناه نورا
وبيانا من عندنا لتخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وسمت الآية القرآن
بالروح لما فيه من تهذيب للأرواح ، وسمو بالقلوب والضمير .

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ أى لم تكن يا محمد قبل
نزول القرآن الكريم عليك ، وقبل تكليفك بالرسالة تعلم شيئا عن القرآن الكريم
ولا عن الدين والشرعة ، وكنت أميا لا تقرأ ولا تكتب .

﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا يَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّنْ عِبَادِنَا ﴾ أى
جعلنا القرآن الكريم نورا عظيما يهتدى به من يريد الله هدايتهم ، وهم المستحقون
للهداية .

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى إنك يا محمد تهدي
بالقرآن الكريم الناس إلى صراط الله المستقيم .

﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى إنك
يا محمد تهدي بالقرآن الكريم الناس إلى صراط الله الذى يملك كل ما فى
السماوات والأرض من مخلوقات وكائنات .

﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ أى إن الأمور كلها راجعة إلى الله تعالى
للحساب والجزاء ، وقد تصدرت الآية بـ ﴿ أَلَا ﴾ لتنبه الناس إلى المصير
الحتمى وهو الرجوع إلى الله تعالى لا إلى غيره .

(٤٠٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات صور الوحي لرسول الله عليهم السلام ، وتبين أن الله أوحى لرسول الله ﷺ بالقرآن الكريم ليبلغ الدين للناس ، ويعرفهم بالله تعالى ... هذا القرآن الكريم هو كلام الله الذى أوحى لمحمد ﷺ ، وجعله نورا للهداية والإرشاد والإنذار والتبشير ، وما علم الرسول عنه شيئا قبل البعثة والنبوة .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حاجة الناس إلى رسول الله ﷺ

تعالى الله جلّت قدرته ، وتعاضم شأنه ، واتسعت رحمته لجميع خلقه ، فبعث لهم رسولا ، يعرفهم به ، ويدعوهم إلى الاستقامة على هديه ، ويضع فيهم كتابه المنزل ، ووحيه الكريم .

وقد دلت الحقائق ضرورة إرسال الرسول للناس ، يتلقى عن الله ، ويبلغ للناس بالوحي الذى نزل عليه .

ليس من الممكن أن يتصل الإنسان بربه يأخذ منه الدين ، ويحاوره ، ويسأله ، ولذلك كانت ضرورة الرسالة ، وضرورة أن يكون الرسول من البشر .

أما ضرورة الرسالة فهى الطريق الذى جعله له الطريق إليه ، لأنها تعنى اختيار رسول من الناس ، وصناعته بقدرة الله ، وتهيئته ليلتقى بملائكة الوحي ، ويأخذ الوحي منهم ، ويبلغهم ما جاءه من الله .

(٤٠٨)

وانحصار الرسالة فى واحد من الناس ضرورة أخرى لأن الإنسان يعرف عادة غيره ، ويأنس بهم ، ويتفاعل معهم .
ولقد طلب المشركون فى كل الأمم أن يكون الرسول واحدا من الملائكة فبين الله للناس أن هذا الطلب لا يفيد لأنه لو كان الرسول ملكا لتشكل إنسانا يمكنه التعامل معهم ، ومحاورتهم ... ولأنه لو لم يتشكل فى صورة الإنسان لما تمكن الإنسان من رؤيته ، والتعامل معه .
إن الآيات تبين صور كلام الله تعالى وهى تحتاج إلى إنسان سمت روحه وطهر وجداته ، واستقامت جوارحه على منهج الله تعالى ... ولذلك استطاع الرسول أن يستقبل الوحي كما جاءه بأحد هذه الصور ، وينقله للناس من ورائه .

الركيزة الثانية

دور الرسول فى الناس

يختار الله رسوله من الناس ، ويرسله إليهم ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحدد له دوره فيهم وهو البلاغ المبين .
إن الرسول بشر عادى يتميز على الناس بالوحي إليه ... وحتى لا يرفعه الناس إلى منزلة أعلى من منزلة الرسالة بين الله أن الرسول قبل الرسالة لم يكن يعلم غيبا ، ولم يكن يعرف الكتاب الذى سينزله الله له ، ولم يقف على تفاصيل الإيمان ... وحين يرسله الله يصدق به معجزات للناس تؤكد أنه رسول الله ﷺ ... وأن الوحي هو كلام الله لرسوله ﷺ .
إن دور الرسول هو البلاغ المبين .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الشورى" بتوفيق الله تعالى .

سورة "الزخرف"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٤١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أولا -**التعريف بسورة "الزخرف"**

سورة "الزخرف" سورة مكية بالإجماع ، وما قيل من أن قوله تعالى :
﴿ وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا ﴾
يُعْبَدُونَ ^(١) نزل ببيت المقدس وليس بمكة لا يطعن في مكيتها ، لأن المكي
هو ما نزل قبل الهجرة ولو في غير مكة .

وتسمى السورة بسورة "الزخرف" لورود قوله تعالى : ﴿ وَزُخْرَفًا ﴾ ^(٢) فيها
ولم يرد اللفظ في غيرها من السور .
كما تسمى بسورة "حم الزخرف" .
وقد نزلت سورة "الزخرف" بعد سورة "فصلت" .

وعدد آياتها عند أهل الشام ثمان وثمانون آية ، وعددها عند غيرهم تسع
وثمانون آية .

ووجه اتصال سورة "الزخرف" بسورة "الشورى" انتسابهما معا لـ "آل
حم" ، وأنهما معا يمجدان القرآن الكريم . ففي سورة "الشورى" ... يقول الله
تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى
وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ^(٣) .

وفي سورة "الزخرف" ... يقول الله تعالى : ﴿ حَمْ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُمِينِ ۝
إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ^(٤) .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٤٥ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٣٥ .

(٣) سورة الشورى ، الآية ٧ .

(٤) سورة الزخرف ، الآيات ٣ . ١ .

وموضوعات سورة "الزخرف" هي موضوعات السور المكية .

فعن توحيد الله تعالى ... يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾^(١) .

وعن الرسل ... يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِأَيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) .

وعن الكتب السماوية ... يقول الله تعالى : ﴿ حَمِّمُوا لَكُمْ أَنْ تُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا وَاسْجُدُوا لِلَّهِ رَبِّكُمُ الْكَافُّونَ ﴾^(٣) .

وعن اليوم الآخر ... يقول الله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾^(٤) .

وعن الملائكة ... يقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾^(٥) .

وتعرض السورة موضوعاتها من خلال الآيات ، والإشارة إلى لمحات سريعة من قصص الرسل عليهم السلام بأسلوب القرآن الكريم البين المعجز .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٦٤ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٤٦ .

(٣) سورة الزخرف ، الآيات ١ . ٣ .

(٤) سورة الزخرف ، الآية ٦٦ .

(٥) سورة الزخرف ، الآية ١٩ .

(٤١٣)

- ثانيا -

- التفسير -

القرآن الكريم كلام الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ حَمْ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

توضح الآيات أن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله بلغة العرب على رسول الله ﷺ كما هو كائن في اللوح المحفوظ ، وقد أنزله الله لتحقيق المصلحة التامة ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ حَمْ ﴾ حرفان هجائيان هما (الحاء والميم) بدأت بها سورة "الزخرف"

للاستدلال بها على مثل ما استدلت به السور التي بدأت بالحروف المقطعة .

﴿ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ الواو واو القسم ، والمقسم به هو الكتاب المبين ،

والمراد به القرآن الكريم ، فهو الكتاب المهيمن على غيره ، وهو الكتاب المحكم الواضح ، البين ، ويطلق الكتاب ويراد به القرآن الكريم ، وتعد الألف واللام في الكتاب للعهد ، فهو الكتاب المعهود بالصدق ، والبيان ، والحكمة .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ هذا هو جواب القسم وهو يؤكد أن الله أنزل القرآن الكريم بلغة العرب ليفهموا معناه ، ويستقيموا على منهجه ، ويتخذوه صراطا يستقيمون عليه في توجههم إلى الله تعالى .

وقد أقسم الله بالقرآن الكريم ، ووصفه بالبيان والوضوح بيانا لقدر القرآن وعلاوا لشأنه ، وتوضيحا لعظمته ، فهو كلام الله تعالى المنزل على رسول الله ﷺ ، وقد أودعه الله في اللوح المحفوظ ، وأقسم به ، ووصفه بالظهور والبيان عسى أن يستعمل العقلاء عقولهم ، ويؤمنوا بالكتاب المنزل وبالله المنزل ، وبالرسول المبلغ لما نزل .

وإذا أطلق الكتاب انصرف إلى القرآن الكريم ، وسمى بالكتاب إشارة إلى أنه الكتاب الذي يعتد به من بين سائر الكتب ، وأنه كما يقرأ يكتب ويدون .

﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ ﴾ أى إن القرآن الكريم موجود في اللوح المحفوظ منذ الأزل بخصائصه السامية ، وصفاته العالية وآياته البينة ، المشتمل على الدقة والحكمة في ذاته ، وفى تعاليمه ، وتوجيهاته .

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى جئ به لإنكار موقف المشركين من نزول القرآن الكريم ، واعتراضهم على نزوله مع أنه نزل ليخرجهم من الظلمات إلى النور . ومعناه هل نترك إنذاركم بالقرآن ، وتذكيركم بتعاليمه ، وندعكم في الكفر ، والفسوق والعصيان ؟ ...

كلا ...

فلن نترككم في الضلال ، والفساد ، والخوض في الأعمال السيئة ، رحمة بكم ، وأملا في هدايتكم ، وتحقيق الخير لكم في الدنيا والآخرة ...

ولذا ننزل القرآن عليكم ، نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، ومبشرا ، ونذيرا للناس أجمعين .

والآيات توضح أوصاف القرآن الكريم ... وأهمها :

- (١) اشتمال آيات القرآن الكريم على البيان الواضح ، والتفصيل المحكم .
- (٢) تأكيد أن القرآن الكريم كلام الله تعالى أنزله على رسول الله ﷺ ، وهذا إظهار لعظمة القرآن الكريم ، واعجازه ودقته لأنه كلام الله العظيم نزل به الروح الأمين ، على محمد ﷺ الصادق الوعد المكين .
- (٣) بيان أن القرآن الكريم نزل بلغة من نزل فيهم ، وكلفهم بدعوة الناس إليه .
- (٤) توضيح أن القرآن الكريم يخاطب العقل ، ويعمل على إقناعه بالدليل والبرهان عسى أن يؤمن العاقل بالحق ، ويستقيم على صراط الله المستقيم .
- (٥) بيان أن القرآن الكريم مصان محفوظ في اللوح المحفوظ .
- (٦) توضيح أن القرآن الكريم عالى الشأن ، رفيع المقام .
- (٧) بيان أن القرآن الكريم ، دقيق في أحكامه ، وتوجيهاته .
- (٨) توضيح دور القرآن الكريم في حياة الناس ، فهو يدعوهم إلى الاستقامة على منهج الله تعالى ، وإلى ترك الاستمرار في الشرك والمعاصي .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات علو مقام القرآن الكريم ، وعظمته فقد أنزله الله بلغة العرب وأودع فيه طرق الهدى ، ومنهج السعادة والخير والتقدم على رسول الله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام .

(٤١٦)

وتتكرر الآيات على المشركين إسرافهم في الكفر والضلال ، وتتكرر عليهم
عدم إيمانهم بالقرآن الكريم الذي أنزله الله رحمة بهم ، وبياننا لمنهج السعادة في
الدنيا وفي الآخرة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تبين الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة الاهتمام بالقرآن الكريم

أنزل الله القرآن الكريم على محمد ﷺ وحفظه فيهم ، وصانه من أى زيف أو
تحريف ليستمر مصدر الإسلام ودستوره على الزمن كله وفي كل مكان .
وقد أنزل المسلمون القرآن فيهم منزلته ، فجعلوا المحافظة عليه دليل
الإيمان ووزنوا قدر الإنسان فيهم بمقدار حفظه للقرآن الكريم ، فجعلوا أحفظهم
للقرآن إماما لهم ، ومرشدا للحق .

وقد ساد المسلمون العالم القديم بسبب إخلاصهم للقرآن الكريم ...
وقد اكتشف خصوم الإسلام دور القرآن الكريم في إحياء الهمم والعزائم ، وتقوية
المسلمين في كافة شئونهم فعملوا عن إبعاده عن شئون الحياة ، وحصلوه في
بعض الأنشطة الهامشية .

وكانت جل أنظمة التعليم في الدول الإسلامية تنبع من القرآن الكريم
فعملوا على عزله عن شئون الحياة ، وجعلوا مصدر الصدارة في المجتمع للذين
يبتعدون عن ثقافة القرآن الكريم ، واستمروا على ذلك حتى وصل الأمر إلى
عزل القرآن عن الحياة ، ووضع الحفظة وراء الناس ، وعدم تهيئة المدارس
لتحفيظ القرآن الكريم .

وهذا الحال يلزمنا بمخطط واضح نضع فيه القرآن الكريم في مكانته .

(٤١٧)

ويجب أن نهتم بتحفيظ أبنائنا القرآن الكريم بقدر الإمكان على أن نختار المتفوقين للتخصيص في دراسة علوم القرآن الكريم .
ويجب وضع حفظة القرآن الكريم في مكانة اجتماعية تليق بهم ، وبالقرآن الذى يحفظونه ، ويعبرون عنه .

ويجب أن يتحول العلم بالقرآن الكريم إلى نظم تطبيقه في حياة الناس تشمل العقيدة والشريعة والأخلاق بحيث ترتبط الحياة به ، وتتطبع بطبعته .
ويجب أن لا يعلو صوت على صوت القرآن الكريم وسط المجتمع الإسلامى ، وعلى معاهد التعليم أن تحتفى بالقرآن الكريم ، وتحيطه بالدراسات المتخصصة ليتحول إلى منهج عمل ، يعرف بالناس ، ويبين أهمية الإيمان ، ويوضح ضرورة الاستقامة على منهج الله ، ويحذر ، وينذر ، ويبشر .
وعلى الدعاة :

أن يجعلوا القرآن الكريم حياتهم النظرية والعملية ، ليأخذ الناس من عملهم ديناً ، ومن خلقهم القرآن الكريم .
وعليهم مواصلة البحث والتعلم ليردوا عن القرآن وعن الإسلام زيوف الجاحدين ، وأكاذيب المبطلين .
وعليهم أن يقوموا بتحفيظ القرآن الكريم ، ونشر علومه ، وإظهار ما فيه من كنوز ودرر .

الركيزة الثانية

رحمة الله بالعباد بالقرآن الكريم

خلق الله الإنسان ، وأكرمه ، وفضله على كثير من خلقه ، وأرسل لهم رسله ، وختمهم بمحمد ﷺ ، وأنزل عليه القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيماً عليه .

(٤١٨)

وكان نزول القرآن الكريم هو الرحمة الكبرى بالناس ، فهو كلام الله تفضل الله به ، ونزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، واستمر تنزله من السماء الدنيا إلى الناس وفق حاجاتهم وأسئلتهم ولو شاء سبحانه وتعالى أن يبقيه في اللوح المحفوظ لأبّاه ، ولكنه أنزله نصحا ، وإرشادا ، وتعلّما ، وهداية من مكنه العالى إلى الناس في الأرض رحمة بهم .

وأكرمهم بإنزاله بلغتهم ، وعلى قدر أفهامهم ، ويسر الله فهمه وقراءته ليعقلوا ويؤمنوا .

ولم يرض الله لعباده الكفر والمعصية ، والإسراف في الجرم والضلال فأنزل القرآن الكريم مرشدا للحق ، مبينا للصواب ، فاضحا طرق وأساليب الكذب والضلال .

إن الله لم يترك الناس لسفهمهم وهوهم ، وللشيطان يغويهم ، وإنما أنزل القرآن للنصح ، والإرشاد ، والحكم ، والتوجيه .

إن رحمة الله واسعة ، وكان إنزال القرآن الكريم ، وحفظه للناس أعظم الرحمات فهو النور الساطع وسط ظلام الكفر والجحود ، وهو الصراط المستقيم بين اعوجاج العقول ، وفساد السلوك .

ولهذا :

نقول للدعاة : إن القرآن الكريم نزل للناس رغم معارضه الجاهلين ، وفي هذا نداء ليجتهد العلماء والدعاة للتصدى لمعارضيتهم بالقوة البيانية ، والبيان القرآنى ، ومناقشة الشكوك لإظهار الإسلام بصورته الحقيقية ، ومنهجه الإصلاحى العظيم .

إن مسئولية الدعاة كبيرة ليظهروا الإسلام بسعته وشموله ، وتعرضوا القرآن بسماحته وقوته .

آيات الله ثابتة خالدة وأن أنكرها الضالون

يقول الله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ۚ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٦﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٧﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٩﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة علو شأن القرآن الكريم وعظمة خصائصه وأحكامه جاءت هذه الآيات تسلية لرسول الله حتى لا يحزن من كفر الناس ، وعليه أن يقتفى أثر إخوانه الرسل ، فقد صبروا على تكذيب أقوامهم ، وتحملوا أذاهم ، وردوا إنكارهم للآيات والبراهين العديدة الموجودة في السماء والأرض ، والزرع ، والمطر ، وعدم تأثرهم بخلق الكائنات كلها من ذكر وأنثى مع وضوحها في الدلالة على وجود الله وقدرته .

(٤٢٠)

- ٢ -

موضوع الآيات

تسلى الآيات رسول الله ﷺ أمام ما يلحقه من أذى المشركين والظالمين ليقتنى أثر إخوانه الرسل فقد أذاهم أقوامهم ، وسخروا منهم ، وأخرجوهم من ديارهم ، ولم يمنع هذا الرسل من الاستمرار في الدعوة .
إن الضالين في الأمم السابقة كفروا برسالة الرسل ، واستهزأوا بهم فأهلكهم الله تعالى مع أنهم كانوا أشد من مشركى مكة قوة وبطشا ، وستجزي سنة الله في مشركى مكة كما جاءت للأمم السابقة .
وقد تمسك الضالون بكفرهم وشركهم ، ولم يعبدوا الله تعالى مع أنهم يقرون بما لله من صفات .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ "كم" خبرية جاءت لإفادة التكرير ، والآية تبين أن الله أرسل عديدا من الرسل إلى الأولين في الأمم السابقة .
﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أى إن هؤلاء السابقين كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم ، واستهزأوا بهم ، واتهموهم بالكذب ، والسحر ، والفساد .
﴿ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾ أى أهلك الله من كفر في الأمم السابقة وكانوا أشد قوة من مشركى مكة ، وأكثر بطشا منهم فلا تحزن يا محمد ، واعلم أن الله سينصرك عليهم ، وينتقم منهم كما انتقم ممن سبقوهم .
﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى قد مضت سنتنا في الأمم الماضية بإهلاك المكذبين ، وتلك هى سنة الله الباقية في الناس إلى يوم القيامة .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ

الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ أى ظهر ضلال المشركين ، وسوء فهم ، وتخبط أعمالهم وأفكارهم لأنهم يؤمنون بأن الله خالق كل شئ ، وهو الغالب القدير ، وهو العليم بكل معلوم في الماضى ، والحاضر ، والمستقبل ... ولذلك يقسم الله بذاته بأنك يا محمد لو سألت مشركى مكة عن الذى أوجد هذا الوجود ، وخلق هذه الكائنات لأقروا بأنه الله .

إنهم يؤمنون بأن الله هو الخالق القادر على كل شئ ، العليم بكل شئ ، ومع هذا يعبدون آلهة أخرى غيره .

وتؤكد الآية هذا الإقرار بالقسم المقدر في قوله : ﴿ لَيَقُولُنَّ ﴾ وبلاد

التوكيد ونونه في قوله تعالى : ﴿ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ﴾ .

وهذا تخبط وضلال لأنهم خالفوا المنطق العقلى السليم حين تركوا عبادة الخالق القادر العليم ، وعبدوا أصناما صنعوها بأيديهم من الحجر الأصم أو من الخشب المستخرج من نبات الأرض ... وما يشبه ذلك .

وتأخذ الآيات في عرض براهين وحدانية الله وقدرته من خلال عرض

بعض مصنوعات الله ... ومنها :

(١) تهيئة الأرض للناس :

يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ

فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى خلق الله الأرض للناس ، ومهداها ،

وقسمها إلى أودية ، وسهول ، ومرتفعات ، وأنهار ، وبحار ... وجعل الأرض

لكم أيها الناس موطئا تسكنون فيها ، وتتخذون منها المنافع ، وتصنعون خلالها

الحسن والجمال بقدره الله تعالى .

(٤٢٢)

وقد قسم الله الأرض إلى أقاليم ، وممالك ، وأوطان ، ومكن الإنسان من التنقل من مكان إلى مكان من خلال طرق الأرض ، ومسالك الهواء ، وفوق أمواج البحار والأنهار ، وتلك آية كبرى لأن الأرض كروية ، وضخامتها كبيرة ، ومواطنها متباعدة ، ومع كل هذا قدر الله للإنسان أن يمشى في مناكبها ، ويتعيش بأرزاق الله فيها عسى أن ينظر لهذه الآيات ، ويتدبرها ليؤمن بالله تعالى ، ويهتدى بهديه الكريم .

(٢) إنزال المطر من السماء :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا ﴾ أى وهو الله الذى ينزل الماء مطرا من السماء ، بمقادير معينة ، في أوقات معينة ، ليصل إلى أماكن مقدرة في الأرض يستقر فيها بهدوء وأناة ، ولا يكون سيلا مدمرا ، أو طوفانا مهلكا ، وانما يصل إلى الأرض في جداول وأنهار ، تروى الأرض ، وتسقى الزرع ، وتطفئ الظمأ ، وتحقق الحياة لسائر الكائنات . وبواسطة هذا الماء تهتز الأرض ، وتربو ، وتحيا بعد موتها بقدرة الله تعالى .

﴿ كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ أى وبمثل إحياء الأرض بالماء يحيى الله الموتى ، ويبعثهم من الموت إلى الحياة ، ويجمعهم في أرض المحشر للحساب والجزاء ، وبذلك كان الاستدلال على البعث بدلالة الواقع المنظور .

(٣) وحدة إيجاد المخلوقات :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أى خلق الله المخلوقات كلها من زوجين لكل نوع ، ولذلك كانت الذكورة والأنوثة سببا للإيجاد

(٤٢٣)

في الإنسان ، والحيوان ، والزرع ، والنبات ، والطير ، والهوام ، والسمك ،
والحيتان .

(٤) تهيئة وسائل السفر والتنقل :

يقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾ أى
خلق الله لكم السفن والأنعام لتركبوها ، وتنقلوا أحمالكم عليها ، وتسافروا
بواسطتها برا وبحرا .

﴿ لَتَسْتَؤُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ
وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ أى
لنستأوا على ظهر ما تركبون من سفن وأنعام ... وحين ترحلون بها ، تذكروا
نعمة ربكم في تفضله عليكم حين السفر ، وسبحوه ، وعظموه ، ومجدوه ،
ونزهوه بقلوبكم ، وألسنتكم ، وأعمالكم حين تستقرون على ظهر السفن والإبل
واشكروا له تفضله عليكم أن ذلل هذه الوسائل لكم ، وما كان في استطاعتكم
الوصول إليها .

وقد علمنا الله الذكر الذى نذكره به سبحانه وتعالى عند السفر ، فحين
نركب السفينة نقول : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَلَهَا ﴾^(١) وحين نركب الأنعام نقول

: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا ﴾ وحين نرحل ونسافر بصورة مطلقة شرع

الله لنا دعاء السفر وهو : "اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن
العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده ، اللهم أنت
الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر

(١) سورة هود ، الآية ٤١ .

(٤٢٤)

، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب في المال والأهل " وإذا رجع قالهن وزاد فيهن :
"أييون تائبون عابدون لربنا حامدون"(١) .

وذكر الله عند السفر أمر هام لأن السفر قائم على الفرقة والمخاطرة ، وقد
يكون فيه الموت والأجل ، فكم من مسافر سقطت طائرته ، أو غرقت سفينته ،
أو وكصته دابته ، أو دمرته عربته ، ولذلك حسن تذكر الموت حين السفر
، ومداومة الذكر والدعاء .

﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ أى يؤكد المؤمن وهو يذكر الله عند
الترحال ، والسفر أن الجميع منقلب إلى الله ، راجع إليه عند حلول الأجل
انتظارا للبعث والحساب والجزاء .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل رسله لسائر الأمم ، فلما كفر الناس أهلكهم الله
تبعاً لسنة الله في الناس .

وتوضح الآيات أن المشركين يقرون بأن الله خالق الخلق فهو القدير
العليم ، ومع ذلك يشركون معه آلهة أخرى ، ويعبدونها ، ويكفرون بالله الذى
أنعم عليهم بإيجاد الأرض ، وانزال الماء ، وتيسير ركوب البحر والأنعام ... وقد
أمر الله تعالى بتسبيحه ، وتثنيه ، وتذكر الآخرة بما فيها من حساب وعقاب .

(١) صحيح مسلم . كتاب الحج . باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج ج ٢ ص ٩٧٨ .

(٤٢٥)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

العاقل من اتعظ بغيره

أكرم الله الإنسان ، وجعل له عقلا يدرك ، ويتصور ، ويقرر ، ولذلك كان من الحكمة أن ينظر العاقل في أخبار الأوائل ليأخذ منها العظة والعبرة ... وجاء الإسلام لأهل مكة ، فبعثوا ، وأصروا على الكفر والضلال ، ولم يتعظوا بأخبار السابقين ، وبما حل ونزل بهم حين أصروا على الكفر ، وتمسكوا بعبادة غير الله ، وعصوا رسول الله إليهم ، والآية تبين أن المشركين في الأمم السابقة جاءهم رسل الله فأصروا على الشرك والكفر فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر بريح عاتية أو بأصوات طاغية أو بمياه عالية ... لقد أهلكهم الله وكانوا أشد قوة من مشركي مكة ، وقد أبقي الله آثارهم لمكة ليروها ، ويتعظوا بها .

لو عقل أهل مكة لاستفادوا بهذه الأخبار المعلومة ، وتدبروا في الآثار التي يرونها شمالا وجنوبا .

إن مشركي مكة لم يستفيدوا بما وقع فيمن سبقهم من الأمم ، وتصوروا أنفسهم معجزى الله ، وغفلوا دلالة قصص الأولين .

والعاقل من اتعظ بغيره ، واستفاد من التاريخ لأن الأحداث تتكرر ، والتجارب متشابهة .

ولذلك حسن من المؤمن أن يقف أمام الأحداث والوقائع ليأخذ منها الدرس والعبرة .

(٤٢٦)

إن الاتعاظ بالغير منهج تربوى قوى التأثير ، وله فوائده في الدعوة إلى الله تعالى ، وهذا أحد أسباب نزول القصص القرآنى .
وهو أيسر الطرق وأفضلها لأن من اتعظ بغيره يستفيد من غيره بلا خسارة تقع عليه .

ويمكن للدعاة إبراز هذه الركيزة فيما لديهم من أقاصيص مليئة بالأحداث ذات العبر ، وفى كل لحظة يقع منها الكثير ، والعاقل من اتعظ بغيره .

الركيزة الثانية **وضوح التناقض عند الضالين**

يخطئ الإنسان وهو يتصور استغائه عن الله تعالى ، فالله هو الخالق ، وهو الرازق ، وهو المحيى والمميت ، ويجب أن يعبد وحده .
إلا أن المشركين يتبعون هواهم ، ويتناقضون في حياتهم وأعمالهم فيؤمنون بأن الله هو الخالق العزيز الحكيم ، وأن الله هو الذى ينزل المطر ، ويحيى الأرض بعد موتها ، وهو الذى يسير الفلك فوق الماء ، وهو الخالق لكل شئ .

ومع إيمانهم هذا يعبدون أصناما وأوثانا من دون الله تعالى ويحسبون أنهم يحسنون صنعا .

إنه الضلال بوضوح ، لأن عبادة الحجر ، وترك عبادة الخالق تناقض وضلال .

إذا احتاجوا يدعون الله ، ويلجأون إليه ، وإذا أعطاهم الله عبدوا غيره .
إن الكفر ضياع للعقل يجب أن يبتعد عنه أولوا الألباب .

ضلال المشركين في عقائدهم وأعمالهم

يقول الله تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ۝ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا تَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَيِّنِ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ أَوْ مَنْ يُنشِئُ فِي الْحَلِيِّ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝ وَجَعَلُوا أَلَمَلَيْكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ تَوَسَّلَ أَشْهَدُوا بِخَلْقِهِمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ۚ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا سَخِرُونَ ۝ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۝ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ مُهْتَدُونَ ۝ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ مُقْتَدُونَ ۝ قُلْ أُولَئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُكُمْ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۝ فَآتَنَقَمْنَا مِنْهُمْ ۚ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة إن الله خالق كل شئ ، وأن المشركين كفروا بالله وبآياته جاءت هذه الآيات لبيان أنهم متناقضون متكبرون فهم مع إيمانهم بالله تعالى يصفونه بصفات المخلوقات ، فلقد زعموا أن له أولادا ، وقالوا : إن الملائكة بنات الله ، وقد تمسكوا بكفرهم تقليدا لأبائهم فاستحقوا العذاب والهوان .

(٤٢٨)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين جعلوا لله أولادا ، وأنهم اعترضوا على القدر وجعلوا الملائكة إناثا ، واختاروا لأنفسهم الذكور وجعلوا لله البنات ، وقلدوا آبائهم في الكفر والضلال ، وكذبوا الرسل ، وكفروا بدين الله تعالى ، فوجب عليهم عذاب الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ أى أقر الكافرون بأن الله خلقهم ، إلا أنهم لم يؤدوا له حقه فأثبتوا لله ولدا ، وقالوا : الملائكة بنات الله ، وقد أكد قولهم هذا كفرهم من ناحيتين :

الأولى : جعلوا الله مخلوقا حادثا يشبه الآباء الذين يولد لهم أولاد يتعاونون مع آبائهم ، ويكونون معا الألوهية ، وبذلك يصير الله والدا ، يخرج منه جزء إلهى هو ولده ، ويحتاج إليه ، ولا يكون إلها إلا معه .

الثانية : استخفوا بالله تعالى حين قسموا الأولاد بينهم وبين الله ، وجعلوا لأنفسهم الذكور ، والله البنات مع تيقنهم أن الذكور أعلى قدرا من البنات .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴾ أى إن طبيعة الإنسان الكفر والجحود ، وهذا حال ظاهر في تاريخ الإنسانية ، وأحوالها ، ففترات الكفر والإلحاد أطول من فترات الإيمان ، وعدد الملحدين على مدار التاريخ أكثر من عدد المؤمنين .

﴿ أَمْ آتَّخَذَ مِمَّا سَخَلُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى يرد الله فيه جعل المشركين البنات لله ، والذكور لأنفسهم ، مع أن الكل عباد الله ، وهو الذى خلق الذكور والإناث ، وكلفهم جميعا بعبادته .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا

وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أى إن مشركى مكة كانوا إذا ولدت له أنثى بدت كآبته ، وزاد حزنه ، واشتد غضبه ، واحمر وجهه ، وأسود من الألم ، وانقطع عن الكلام وأمسك لسانه عن النطق لشعوره بالعار والخزى .

﴿ أَوْ مَنْ يُنشِئُوا فِي الْحَلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ ؟ ...

ينكر الله قسمتهم الأولاد بينهم وبين الله تعالى ، وجعلهم البنات لله ، والذكور لهم ، لأنهم بذلك فضلوا أنفسهم على الله ، إذ جعلوا لله البنات ، وهم في نظرهم أقل الأولاد شأنًا ، وأكثر الأناسى ضعفًا ، ينشأون في الحلية والزينة ، وهن عاجزات عن المنازعة ، والجدل ، ولا يقدرّون على إقامة الحجة ، واطهار البراهين ، ويجعلون لأنفسهم الذكور ...

وهذا التقسيم والاختيار فضح لانحطاط فكرهم ، وظهور جهلهم لأن الله منزّه عن الولد والزوجة ، فهو واحد أحد ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿^(١)﴾ والآيات القرآنية والإنسانية والكونية تؤكد هذه الحقيقة ، ولذلك كان القول بغيرها جهل ، والتمسك بها انحطاط في العقل والتفكير .

وفى الآية بيان ما في البنت من الدعة ، والرخاوة ، وضعف القوة الجسمية والبدنية ، وإشارة إلى أن تربية الرجال تحتاج إلى الخشونة ، والصبر ، والشدة ...

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "اخشوشنوا ، واخشوشبوا واخلولقوا وتمعددوا ، كأنكم معد ، وإياي والتتعم وزى العجم"^(٢) وهذا حال نسوقه للآباء

(١) سورة الإخلاص ، الآية ٣ ، ٤ .

(٢) شرح مشكل الآثار ج ٥ ص ٣٣٨ .

(٤٣٠)

ليربوا أبناءهم على تحمل المسؤولية ، وخشونة الحياة ، والصبر على المكاره ومواجهة المواقف بالهدوء ، والحزم والسلام ، وتقدير الناس ، وتقبل الآخر والتواصل مع الجميع لأن الحق يحتاج للتحرك به وسط الناس .

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنْتًا ﴾ أى إن المشركين ضلوا ضلالا بعيدا بقولهم إن الله اتخذ لنفسه ولدا ، وإن الملائكة بنات الله تعالى .

﴿ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ ؟ ... أى أحضروا خلق الله للملائكة ، ورأوهم إناثا حتى يقولوا ما قالوا ؟ ...
إن الله تعالى سيكتب قولهم ، ويحاسبهم عليه يوم القيامة ، لأن الإنسان مسئول عن أقواله وأعماله .

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ أى قال المشركون الذين كانوا يعبدون الملائكة في الدنيا : لو شاء ربنا أن لا نعبد الملائكة ما عبدناها إلا أن الله أراد كفرنا ، وقدره علينا فكفرنا ، وعبدنا الملائكة .

﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى ليس لهم على اعتمادهم على القدر دليل ، فهم لا يعلمون الغيب حتى يتعللوا به ، وينسوا ميلهم للكفر ، وحبهم للمعاصي ، ورفضهم كل دعوة أمرتهم بالمعروف ، ونهتهم عن المنكر .
إن المستقبل غيب لا يعلم الإنسان منه شيئا ، وقد أوجب الله طاعته وفق ما أمرهم به رسول الله ﷺ ، وهداهم لما في قلوبهم من حب وميل .

﴿ إِنَّهُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ أى ما هم في قولهم وتعللهم بالقدر إلا كاذبون لأنهم لا يعلمون القدر حتى يعتذروا به ... ويشهد الظاهر على اختيارهم العبادة التي يكفرون بها وميلهم إليها ، وحبهم أداها .

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ ؟ ...

الاستفهام للإنكار ، والتعجب من تعللهم بالقدر ، ولذلك يسألهم الله منكرًا عليهم ما يقولون ويسألهم : هل أتاهم كتاب من عند الله تعالى قبل القرآن الكريم يدلهم على صحة ما يقولون وما يتمسكون به ، إنهم لم يدعوا نزول كتاب عليهم قبل القرآن الكريم ، ولم يدعوا أن برهانا جاءهم من الله ، وانما هم يتمسكون بالباطل من غير دليل وبرهان ، وأنه لا برهان لهم فيما يزعمون ، ويدعون .

﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾

أضربت الآية عن سؤالهم وانتقلت إلى بيان أنهم مقلدون لآبائهم ، سائرون على عقائدهم الباطلة ، ولذلك فهم متمسكون بما آمنوا به ، مستمرون في عبادة الأصنام كما عبدها أبائهم ، وأسلافهم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا

إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ أى ومثل

مقالة المقلدين من أهل مكة كان المشركون في الأمم السابقة ، فلقد أرسل الله إليهم رسلا دعوهم إلى دين الله تعالى ، والاهتداء بهديه ، والاستقامة على منهج الله تعالى ، وبشروهم بالجنة ، وخوفوهم من النار ، إلا أنهم كفروا برسلكهم ، وتمسكوا بتقليد آبائهم ، وأسلافهم ، وقالوا : إنا سنقتدى بآبائنا ، ونتبع دينهم وملتهم ، ولن نترك ما كانوا عليه من دين وملة .

وفى الآية إشارة إلى دور الرؤساء ، والكبراء ، وأولى الرأي في عامة الناس ، وضرورة التفكير والتدبر فيما يقوله القادة والرؤساء لأن المسؤولية فردية .

يقول الله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ۚ ﴾ (١) .

وسمت الآية الرسول بأنه ﴿ نَذِيرٌ ﴾ مراعاة لموضوع الآية الذى تناولت مقالة المقلدين ، ولذلك ناسب أن يكون الرسول منذرا لهم .

وقد وصف الله كفار مكة بأنهم مقتدون بآبائهم ، ووصف مشركو الأمم السابقة عملهم بأنهم مقتدون بآبائهم كذلك ، لأن أقوال السابقين كثيرة ، ومتعددة يجمعها الاقتداء العملى دون ربط العمل بالقصد القلبى ، لأن المقاصد مختلفة ، والأعمال متشابهة ، أما مشركو مكة فمقاصدهم معروفة ، ولذلك ادعوا الاهتداء بدين آبائهم .

وأیضا فإن مقالة السابقين خبر يحكى ما كان عليه المشركون السابقون ... أما كلام أهل مكة فكان مواجهة لرسول الله ﷺ ، ولذلك أكدوا اقتناعهم باتباع آبائهم ظاهرا وباطنا .

وفى الآية تسلية لرسول الله ﷺ وبيان أن الترف سبب للفساد والهلاك ، وضرورة عدم الاغترار بالمترفين .

﴿ قُلْ أُولُوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ ۖ ﴾ ؟ ...

الاستفهام إنكارى أى قال رسول الله ﷺ لقومه الذين يستمرون على تقليد الآباء وعبادة الأصنام هل تستمرون على التقليد ولو جئتم بدين الله الذى أوحى إلى به ؟ ... وهو أهدى وأصح من الدين الذى وجدتم عليه آبائكم .

(١) سورة مريم ، الآيات ٩٣ . ٩٥ .

(٤٣٣)

فأجابه المشركون ، و ﴿ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أى أجاب المشركون على رسول الله ﷺ ، وقالوا له : إنا ثابتون على دين آبائنا ، ولن نتركه وسنستمر على إنكارك لدعوتك ، وكفرنا بما جئت به .
﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ أى فانتقمنا من هؤلاء المكذبين ، وأهلكناهم ، ودمرنا ما كانوا فيه من نعيم ، فتأمل يا محمد هذه العاقبة ، واعلم إن قومك ليسوا بعيدين عنها .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات إن المشركين جعلوا لله من عباده شركاء له ، وقسموا الأولاد بينهم وبين الله فجعلوا لله البنات وجعلوا لأنفسهم الذكور ، وزعموا أن الملائكة إناث ، وكرهوا البنات ، وعبدوا الملائكة ، وتعللوا بحجج واهية ، واتبعوا الرؤساء المفسدين فانتقم الله منهم ، وتبين الآيات أن المترفين فى كل الأمم هم قادة الفساد ، وأنهم سبب هلاك أنفسهم وأتباعهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

خبل عقل المشركين

يتعجب العقلاء من فكر الكافرين ، والأساس الذى يتخذون به قرارهم ، ويعبدون غير الله تعالى ... ويرجع ذلك إلى خبلهم ، وسوء تفكيرهم وضلال عقلهم حتى وصلوا إلى إنكار البديهيّات ، وإهمال الأوليات ، ومن وصل إلى

(٤٣٤)

تلك الحال فى التفكير لا أمل فى وصوله إلى صواب ، ولا سبيل ليدرك أمرا على ما هو عليه فى حقيقته .

ودليل خبل فكر المشركين أنهم جعلوا الله جزءا هو ابنه ، وخصوا ابنه بالعبادة ... وهذا هو الخبل .

إنه يستحيل أن ينقسم الإله إلى والد وولد لأن ذلك يؤدى إلى سقوط الألوهية بالكلية لأن وجود الوالد قبل مجئ الولد كان ناقصا ، وبعد وجود الولد يكون الإله مركبا ، وهذا لا يجوز .

ومن خبل عقل المشركين أنهم يزعمون أن البنات الله ، وأن الذكور لهم وهذا كلام يدل على الجهل والضلال ، فمن أين لهم هذا التقسيم ؟ ... ومن أين لهم جعل البنات الله ، والذكور لهم ؟ ... إنه لا دليل على ذلك ، ولكنه الخبل والضلال .

والمستفاد من هذه الحقيقة معرفة أنه لا منطق فى أقوال المشركين عن الإله لأنه سفه بغير علم .

وأیضا عدم التوقف أمام هذه السفاهات ، والاعتماد على الحق وحده فهو أولى وأحق ، وليعلم المؤمنون أنهم الأعلون ، والله معهم .

الركيزة الثالثة

أهمية تربية الرجولة فى الذكور

تشير الآيات إلى قضية هامة وهى تبين خصائص البنات ، وتوضح أنهن ينشأن فى الحلية حيث اللباس الحسن ، والحلى البراقة ، والنعومة فى الطلب والمعاملة ... إن البنت تضطرب فى المواقف المفاجئة ، وتسارع إلى البكاء حين يلم بها مكروه ، وتحتاج إلى ولى من الرجال يتولى أمورها ، وينوب عنها فى قضاياها .

(٤٣٥)

أما الولد فهو ميال إلى الشدة ، ويجادل عند الخصومة ، ويعاند في الخصومة ، ويدفع في الحرب والقتال .
ولذلك وجب الاهتمام بجوانب التربية لكل من الذكر والأنثى ليقوى كل منهما على المهام التي خلقه الله لها .
إن الله خلق الرجل ليتحمل مسؤوليته عن أسرته ، وعن وطنه ، ويكون مستعدا دائما لحماية أسرته ، وولده ، وأمته .
وخلق الله المرأة لتكون أما تربي أولادها ، وزوجة تصون عرضها ، وبيتها وأولادها .
إن التربية تبدأ من الميلاد حيث اختيار الاسم ، وتحديد مكان ، وكيفية التربية .
لا يصح أن نترك عوامل الخنثة والتردى تكون الولد على الميوعة والانحلال ، وينشئ البيت على الحرية والانطلاق بعيدا عن القيم والأخلاق .
لابد أن نستفيد من أساسيات التربية الإسلامية للذكور والبنات ، والله الموفق للحق والصواب .

الركيزة الثالثة

التقليد أساس كل داء

تشير الآيات إلى خطورة التقليد بين الناس ، وبخاصة في قضايا الإيمان والدين لقد أصر مشركو مكة على تقليد آبائهم فيما كانوا فيه من دين فأضروا بذلك آباءهم ، وأضروا أنفسهم فلقد كان أبائهم في جاهلية قبل الإسلام فكان لهم عذرهم في عدم وجود رسالة لهم ... أما أهل مكة فقد جاءتهم رسالة ، وقدمت لهم البراهين والحجج، ولكن التقليد منعهم عن اتباع الحق ، والاستفادة بالبراهين .
إن التقليد داء يضر أصحابه ، ويحرمهم من اتباع سبيل المؤمنين ، ويجعل المقلدين يعيشون في ضلال لا معنى له ، ولا فائدة فيه .

معارضة المشركين لدين الله من عصر "إبراهيم" عليه السلام إلى "محمد" ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦٨﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٦٩﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٠﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٧١﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٧٣﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٧٤﴾ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٧٦﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٧٧﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنَّ كُلَّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٧٨﴾ ۞ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن سبب ضلال الكافرين هو تقليد الآباء والأسلاف وما هم من جحود ، وانكار ، جاءت هذه الآيات لبيان أن إبراهيم عليه السلام ترك دين آبائه ، وبين فساد ما كانوا عليه ، وعرفهم بضرورة اتباع الدليل ، وضرورة الإيمان بالله تعالى ، وإخلاص العبادة له وحده .

(٤٣٧)

وتبين الآيات أن كفار مكة اغتروا بنعم الله لهم ، فاتهموا رسول الله بالسحر والكذب ، وأنكروا نزول القرآن الكريم عليه ، وتمنوا نزوله على رجل غنى منهم ، وهذا ضلال منهم لأن الله هو الذى يقسم المعيشة في الحياة الدنيا ، وتبين الآيات أن الله جعل الدنيا متاعا للجميع ، وجعل المتاع في الآخرة للمؤمنين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات براءة إبراهيم عليه السلام من الآلهة التي كان يعبدها أبوه وقومه ، وتبين عبادته لله الواحد الأحد ، وتؤكد أن الله أبقى في ذريته كلمة التوحيد ليتمسكوا بها ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم ودعا إلى التوحيد كفروا به ، وكذبوه ، وطلبوا نزول القرآن على بعض الرجال الأغنياء ذوى السلطة ، فبين الله لهم أن الله يقسم المعاش بين عباده ، ويختار من يشاء من الناس ، ويكلفهم بالرسالة . وتبين الآيات أن الله جعل الناس درجات ليتعاونوا ، ويتعاشوا ، وتوضح أن متاع الدنيا قليل يعطيه الله للناس جميعا ، ومتاع الآخرين للمتقين وحدهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ أى اذكر يا محمد لقومك ما قاله إبراهيم عليه السلام للمقلدين المكذبين من قومه ، المتمسكين بعبادة الأصنام فقد تبرأ من الآلهة التي كانوا يعبدونها ، وأنكر عبادتها ، وحثهم على الإيمان بالله وحده ، وعبادته سبحانه وتعالى وحده .

﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴾ لما تبرأ إبراهيم عليه السلام من عبادة الأصنام والأوثان ، والكواكب ، والنجوم استثنى منها عبادة الله وحده ، فهو

الذى خلقه ، وأوجده من العدم ، وهو الذى كلفه بالرسالة ، وهدايه للحق ، وأمله الاستمرار على هذه الهداية فقد يسرها الله له ، ومكنه منها .

وقد بدأت الآية بذكر براءة إبراهيم عليه السلام من آلهة قومه ، لأنه عليه السلام لما تبرأ من أبيه وقومه الذين عبدوا الأصنام والأوثان ، والكواكب والنجوم ، والأشخاص قولا ، اتبع البراءة اللفظية بالبراءة العملية فكسر الأوثان ، وهاجر من البلاد إلى حيث أراد الله له ...

وذكرت الآية هذه البراءة حتى يستقيم الناس على منهج إبراهيم في البراءة من الشرك فهو أب معلم للأمتين الكبيرتين ، الموجودتين قبل المبعث وهما العرب وبنو إسرائيل .

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى وجعل الله كلمة التوحيد باقية في ذرية إبراهيم عليه السلام تنتقل من الأصبال إلى الأرحام ليعرفها أهل مكة ، ويرجعوا إليها ، ويؤمنوا بها .

وبقاء هذه الكلمة في ذرية إبراهيم ليست على هيئة دين كامل ، بل يكفى وجود أفراد لا يسجدون للأصنام ، ولا يؤمنون بها ، كالحنفاء والحكماء والحمس ، ويكفى لبقاء كلمة التوحيد وجود فرد واحد .

وفي الآية إشارة إلى وجود أناس كانوا يؤمنون بالله الواحد في سلسلة بدأت بإبراهيم عليه السلام وانتهت ببعثه محمد صلى الله عليه وسلم ، وبذلك بقيت كلمة التوحيد في ذريته عليه السلام من بعده إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وليس المراد ببقاء كلمة التوحيد التصور التام لها ، والعلم بلوازمها ، وتوابعها ، وإنما المراد وجودها عمليا في قلوب ذرية إبراهيم عليه السلام بصورة مجملة تمنعهم من عبادة الأصنام .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾
"بل" للإضراب عن ذكر إبراهيم عليه السلام والانتقال إلى ذكر أهل مكة ، وما كانوا

فيه من نعم ، فقد أطعمهم الله من جوع ، وآمنهم من خوف ، وجعلهم سادة العرب ، وحراس البيت الحرام ، وأرسل فيهم محمدا ﷺ يدعوهم لدين الله تعالى ، ويبلغهم الوحي ، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا ، وفي الآخرة .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أى لما جاءهم الرسول بدين الحق ، وبلغهم الوحي ، وقرأ عليهم القرآن الكريم كذبوا محمدا ، واتهموه بالسحر والكذب ، وأنكروا القرآن الكريم ، وتمسكوا بعبادة الأصنام ، وأشاعوا أن محمدا ساحر ، وأنهم يكفرون به ، ويردون دعوته ، ولا يدخلون في دينه ... وبذلك ضموهم إلى كفرهم معاندة الحق ، والاستخفاف به ، والعدوان عليه .

وفى قولهم هذا إظهار كفرهم من ناحيتين :

أحدهما : قولهم إن القرآن سحر بيان لعقيدتهم فيه ، فهو في نظرهم مختلق ألفه محمد ، وليس كلام الله تعالى .

ثانيهما : أنهم يكفرون بالقرآن الكريم سواء كان سحرا أم لا ، فإن كان سحرا فكذبه واضح ، وإن لم يكن سحرا فهم يتعجبون من إنزاله على محمد اليتيم الفقير ، ولذلك تعجبوا ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ أنهم ذهبوا إلى أن منصب الرسالة شريف ، وكلام الله عظيم وعظمة كلام الله تحتاج إلى اختيار رسول من الناس يتميز بكثرة المال ، وقوة الجاه ... ومحمد ليس بهذا الذى يريدون ، وإنما أرادوا أحد رجلين الوليد بن المغيرة ، أو أخوه عتبة بن ربيعة من مكة ، أو عروة بن مسعود الثقفى ، أو حبيب بن عمرو الثقفى من الطائف .

والقريتان هما مكة والطائف فهما أكبر قريتين على جبل السراة ، أما يثرب
وتيماء فهما من قرى الحجاز .

وقد طلب المشركون تسييد رجل يتميز بكبر قبيلته ، وكثرة ماله ، ونسوا
إن الإنسان بعقله ، وخلقه ، وطهارة ظاهره وباطنه .

لقد كان محمد يتيما فقيرا إلا أنه تميز بحسن الخلق ، وطهارة الروح ،
وقوة الشجاعة ، وعلو الهمة ، ففضلهم ، واختاره الله رسولا بعثه للناس .

﴿ أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ ؟ ... الاستفهام جاء لإنكار طلبهم ،

مع التعجب منه ، فلقد طلبوا نزول القرآن الكريم على رجل من الأغنياء ذوى
جاه وسلطان ، ونسوا إن الله عليم بالإنسان ظاهرا وباطنا ، يختار رسله من
أكرمهم خلقا ، وأظهرهم نفسا ، وأشدهم قربا إلى الله تعالى .

إن النبوة عطاء إلهى محض ... فهو سبحانه ﴿ يَصْطَفِي مِنْ

أَلَمْ تَكُنْ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ ﴾^(١) ، وهو سبحانه : ﴿ وَنَحْنُ نَرَى مَا كَانَ

لَهُمْ الْخَيْرُ ﴾^(٢) وهو سبحانه : ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾^(٣) .

وقد أضافت الآية الرحمة إلى رب محمد ﴿ رَبِّكَ ﴾ لبيان أن معية الله

محيطة به ، ولتأكيد أن الله قسم رحمته بين عباده بقدره وحكمة .

(١) سورة الحج ، الآية ٧٥ .

(٢) سورة القصص ، الآية ٦٨ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤ .

﴿لَخُنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ

بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أى إن الله سبحانه وتعالى

قسم أمور المعاش فى هذه الدنيا على الناس ، فوسع رزق من يشاء ، وقدر الرزق على من يشاء ، وقضى بوجود أغنياء وفقراء ، وبحدوث الصحة للبعض والمرض والضعف لبعض آخر ليتخذ بعضهم بعضا للعمل والخدمة ، وتتكامل الحياة ، ويتحرك الكون ، وتوجد الصناعات ، والزراعات ، والتجارات ... ولو استوى الناس فى العطاء ما احتاج أحد لغيره ، ولتعطلت مصالح العباد .

﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى ورحمة الله وتفضله عليك يا

محمد بالنبوة أعظم وأفضل مما يجمع المشركون من حطام الدنيا ، فكل متاع الدنيا إلى زوال .

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ

لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيَّهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٦﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا

عَلَيَّهَا يَتَكَلَّوْنَ ﴿٣٧﴾ وَزُخْرُفًا﴾ أى ولولا أن يعتقد الجهلة وقصيرو النظر أن

كثرة المال دليل على حب الله ، وصدق الإيمان ، فيعجبون بالكفار لغناهم ويرغبون فى الكفر معهم ، ويكونوا معهم أمة واحدة ، لولا ذلك لأملينا للكافرين ، وأكثرنا لهم متع الدنيا ، ومكناهم من الزينة والزخارف ، وأعطيناهم من الأموال ما يمكنهم من بناء سقف بيوتهم من فضة ، واتخاذ المصاعد من الفضة ، يصعدون بها إلى الطبقات الأعلى وهم فى أبهة الملك والغنى ، ويصنعون الأسرة الغالية ليناموا عليها ، ويؤسسوا الأرائك الوثيرة التى يجلسون عليها ... ويتخذون الأبواب من المعادن ، والذهب ، والفضة ، ويقيمون التحف الجميلة ، والزخارف الحسنة .

﴿ وَلَوْلَا ﴾ حرف امتناع لوجود فقد منع الله إعطاء الكفار هذه المتع المادية فى الدنيا لوجود جهل بين يؤدى بالناس إلى تصور أن الله قد رضى عن الكفر بسبب هذا العطاء فيكفرون .

﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى إن كل ما ذكر من البيوت المزينة ، والزخارف الجميلة ، والرفاهية اللاهية متاع الحياة الدنيا الذى ينتهى ، ويزول ، ولا يخلص الامتاع به .
أما متع الآخرة فهى ثابتة ، مستقرة ، خالية من الآلام ، والعجز تفوق كل متع الدنيا ، ولا انقطاع لها وقد جعلها الله للمتقين .

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء" (١) .

وعن المستورد بن شداد جد بني فهر رضي الله عنه قال : "كنت في الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السخلة الميتة فقال رسول الله ﷺ : أترون هذه هانت على أهلها حين ألقوها ؟ ...
قالوا : من هوانها ألقوها يا رسول الله .

قال ﷺ : فإن الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها" (٢) .

وعن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "إذا أحب الله عبدا حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء" (٣) .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب الزهد . باب ما جاء في هوان الدنيا ج ٤ ص ٥٦٠ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب الزهد . باب ما جاء في هوان الدنيا ج ٤ ص ٥٦٠ .

(٣) سنن الترمذى . كتاب أبواب الطب . باب ما جاء في الحمية ج ٤ ص ٣٨١ .

(٤٤٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" (١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات إن إبراهيم عليه السلام تبرأ من الأصنام التي يعبدونها المشركون ، وأكد أنه قصر عبادته على عبادة الله وحده الذي خلقه وسواه ، وهداة ، وقد أبقي الله كلمة التوحيد في ذرية إبراهيم عليه السلام تنتقل من الأصلاب إلى الأرحام حتى انتهت إلى محمد ﷺ .

وتبين الآيات أن الله أنعم على أهل مكة بالخير العميم ، فجعل مكة مهوى القلوب ، وأطعم أهلها من جوع ، وآمنهم من خوف ، فلما جاءهم الرسول ﷺ بدین الله كفروا به ، وكذبوه ، وأنكروا القرآن الكريم ، وقالوا : لو نزل هذا القرآن على رجل عظيم من مكة أو الطائف لأمنا ... وقد ضلوا في هذا القول لأن النبوة رحمة يختار لها الله تعالى من يشاء من عباده .

لقد قسم الله الدنيا بين العباد ، ووضع الناس في درجات اجتماعية ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ... ويسلئ الله رسوله ، ويعرفه بأن النبوة خير من الدنيا كلها .

وتبين الآيات أن الله يملئ للكافرين ، ولولا وجود أناس يغترون بالمظاهر المادية لاعطى للكفار خيرا كثيرا في الدنيا ، ومكنهم من الذهب والفضة ، وسائر الزخارف ، ومختلف المعادن الكريمة ينشئون بها بيوتهم ، ومجالسهم ومراكبهم ، وسائر مجالات حباتهم .

(١) صحيح مسلم . كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٧٢ .

(٤٤٤)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الولاء والبراء بين المسلمين

المجتمع قوى بوحده ، ضعيف بتفرقه ، وتتناقضه ، وجاء القرآن الكريم ليصنع من البشر أمة ناهضة ، تؤمن بالله تعالى ، وتلتزم بالقيم النبيلة ، والأعمال الصالحة .

وقد قدر الله فى الناس أن يختلفوا فى كل شأن من شئون الدنيا حيث حزب الشيطان الذى يعمل على نشر الفساد ، ويعصى الله تعالى ، ويزين لنفسه السوء والمنكر .

وهناك فريق صالح يؤمن بالله ، ويستقيم على تعاليم دين الله ، ويرجو رحمة الله ، ورضاه .

ونظرا لهذا التنوع كانت ضرورة اتحاد المؤمنين ، وتعاونهم ، وتماسكهم من أجل الانتصار لله تعالى ، يأخذ كل منهم بيد أخيه ، ويساعده ويشد أزره ، ويصنع معه قوة تنصر الدين ، وتمكن له فى حياة الناس .

ولقد تبرأ إبراهيم عليه السلام من الشرك والمشركين ، وأعلن عبادته لله وحده ولقد تعلم المسلمون من دينهم ضرورة انتشار الولاء بينهم ليكون الولاء عقيدة يلتزم بها كل مسلم .

والمراد بالولاء أن يوالى كل مسلم أخاه بالنصح ، والعون ، والمودة ، والمساعدة ، لأن المسلمين فريق واحد آمنوا بالله واحد ، وسلخوا منهجا واحدا ويرجعون فى عقيدتهم إلى دين واحد هو الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ وأبقاه الله فيهم بالمحافظة على القرآن الكريم ، وصيانة السنة المحمدية .

إن الولاء بين المسلمين ينبع من القلب المؤمن طاعة لله تعالى ، وأملا في ثوابه سبحانه وتعالى ، واستقامة على منهج الله تعالى .
يقول الله تعالى :

- ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾^(١) .
- ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾^(٢) .
- ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَّهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾^(٣) .

والولاء الواجب بين المسلمين يؤدي إلى البراءة من خصومهم الذين لا يؤمنون بالله تعالى ، ويعملون على هدم الحق ، واطفاء نور الله تعالى ، وبخاصة أن أعداء الإسلام يبذلون الجهد ، والمال ، والقوة والنفوذ لإضعاف المسلمين ، والقضاء على نور الله في الأرض .
إن على المسلمين أن يعارضوا أنصار الشيطان ، ويرفضوا مساربه وحيله ، ويمنعوا الغاية التي يسعى إليها المشركون .

لقد توحّد أعداء الإسلام ، وصاروا فريقاً واحداً ، وهذا أمر يدفع المسلمين إلى التوحد في إطار الولاء المشروع ، ولا يصح أن يكونوا أقل في تماسكهم من أعداء الله في الأرض ... يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾^(٤) .

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٩٢ .

(٢) سورة التوبة ، الآية ٧١ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية ٧٤ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٧٣ .

ودور الدعاة فى نشر الولاء بين المسلمين كبير ، فهم دعاة توحيد الأمة ونشر قيم الأخلاق بينهم ، ومنع النزاع بينهم ، ورد كافة الأمور إلى حكم الله ورسوله ، والمحافظة على وحدة المسلمين فى مواجهة الباطل ، وكثائب الظلام .

الركيزة الثانية

حلاوة الإيمان تزهق أباطيل المشركين

دعا إبراهيم عليه السلام إلى الحنيفية السمحة ، وأساسها الإيمان بالله الواحد ، والاستقامة على قيم الحق ، وصلاح العمل ، ونبل السلوك والغايات .
وقد تجلت هذه الحنيفية فى الإيمان بالله وحده ، وقصر العبادة له ، والتيقن من صفات الجلال والكمال الواجبة له سبحانه وتعالى ، وقد أبقى الله دعوة إبراهيم عليه السلام فى ذريته حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم رسولا للناس أجمعين .
وعرف الناس بأنهم على دين إبراهيم عليه السلام .
ونادى فى الناس بالإسلام دينا للعالم كله ، وأنزل القرآن الكريم دستورا لدينه ، وأساسا محفوظا لتعاليم الإسلام كله .
ولو واجه المشركون جمال الإيمان ، وعظمته ، ودقته بما لديهم من أكاذيب الباطل ، ومزاعم الكفر والفساد .
لقد اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكذب ، والسحر ، واختلاق الأساطير ، وكذبوا القرآن الكريم وزعموا أنه ليس كلام الله ، وأن محمدا اختلقه من تلقاء نفسه ، ونقله من السابقين ، وأخذوا يهرفون بما لا يعرفون ، ويقولون لو نزل القرآن على رجل من عظماء وأغنياء مكة أو الطائف لآمنا به وصدقناه ، وهذا من أباطيلهم التى لا دليل عليها .
إن الله خلقهم ، ووزع أرزاقه عليهم ، وقسم بينهم الدنيا ، وهو عليم بعباده ، وما كان لهم أن يطلبوا ما يزعمون .

إن الإيمان تسليم لله ، ورضى بقضائه ، واستقامة على منهجه ، وسعادة بهدية الله تعالى .

أما الشرك فهو ضلال فى العقيدة ، وهوى فى السلوك ، وكفر بالنعم ، وجحود لحق الله تعالى .

والفرق بين الإيمان والشرك واضح ... وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

الركيزة الثالثة

ضرورة مخاطبة الناس على قدر عقولهم

يخاطب الله الناس على قدر عقولهم ، ويتعامل مع أمانهم واتجاهاتهم العامة ، ولا يصطدم بهم اصطداما مباشرا ، ومن ذلك ما نراه من قول النبى ﷺ لعائشة رضى الله عنها : "لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم ثم بنيته على قواعد إبراهيم" (١) فهو عليه الصلاة والسلام يعلم قواعد البيت كما بناه إبراهيم ﷺ ، ويعلم أن البيت بنى على غير قواعده التى وضعها إبراهيم ﷺ ، فلم يضم حجر إسماعيل إليها مع أنه منها ، وأدخل الجدر إلى الداخل بمقدار عرض الشاذروان الموجود خارج البيت عند سطح الأرض .

ومن هذا الباب ما وضحته الآيات وهو أن الله عامل الناس على قدر عقولهم ، وخاطبهم بما يفهمون ، لأنهم يحكمون على أن العطاء دليل الرضا ... ولذلك لم يعط الكافرين زخارف الدنيا حتى لا يغتر بمظهرهم غيرهم .

وهذه الركيزة أساس لحسن الخطاب ، وعلى الدعاة أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم ، وعدم مصادقتهم ، والتوجه بالدعوة إلى ما تنشده من اصلاح وخلق كريم .

(١) صحيح مسلم . كتاب الحج . باب نقض الكعبة وبنائها ج ٢ ص ٩٦٩ .

دور الشيطان مع صاحبه فى الدنيا

يقول الله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٦٦﴾
وَأَنَّهُمْ لَيَصْدُوهُمْ فِي السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٦٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ
يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٦٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ
ظَلَمْتُمْ أَنْكُرًا فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٦٩﴾ أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى
وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٠﴾ فَإِنَّمَا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٧١﴾
أَوْ نُزِيلَنَّ الَّذِينَ وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٧٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ
إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ
﴿٧٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا
يُعْبَدُونَ ﴿٧٥﴾ ۖ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن متاع الدنيا قليل ولولا فتنة الناس بغنى الكفار ،
ودخولهم معهم في دينهم ظنا منهم أن عطاء الله لهم دليل صدقهم ... لولا
ذلك لأكثر الله أموال الكفار ، وأعطى لهم من متع الدنيا وزخارفها ما لا حد له
، وجاءت هذه الآيات لبيان دور إبليس في إضلال الناس في الدنيا وتبرئه منهم
يوم القيامة ... وتبين الآيات إن الهداية الحقة هي هداية الله تعالى وتأمرو
الرسول بالتمسك بالوحي المنزل ، وبالقرآن الكريم .

(٤٤٩)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن من يبعده المال عن ذكر الله يسيطر عليه قرينه الشيطاني ويصده عن سبيل الله تعالى ، ويغره بالفحشاء ، ويزين له السوء حتى يتصور نفسه على هدى وتقى ، ويستمر الشيطان على إضلاله في الدنيا ، فإذا جاء يوم القيامة يتبرأ المشركون والشياطين بعضهم من بعض ، ويندمون حيث لا ينفع الندم .

وتوضح الآيات أن المشركين عطلوا عوامل الإدراك التي خلقها الله لهم وسوف يحاسبهم الله ، ويجازيهم في الآخرة بما عملوا في الدنيا ، وتبين الآيات أن القرآن الكريم ذكر لرسول الله ولقومه ، فلا تحزن يا محمد ، واعلم أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد الله تعالى ، وأنهم ووجهوا بما واجهك به قومك .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾

أى ومن يتغافل ويعمى عن ذكر الله ، والعمل بشرعه ، ويعصى الله ، وينهمك في لذات الدنيا وشهواتها ، يسلط الله عليه شياطين الإنس والجن ، يزينون له المنكرات ، ويبسرون أمامه الشهوات ... وتستمر الشياطين في إضلاله بعدما صارت مصاحبة له ... ولذا كانت حاجة المؤمن إلى مداومة ذكر الله ، وأساس ذكر الله قراءة القرآن الكريم .

إن إهمال ذكر الله تعالى ينشأ من قلوب رغبت في المعصية ، ومالت إليها وانفتحت لولوج الشياطين إليها حتى سكنوها فيقعون بذلك في الذنوب والمعاصي ، ولا يهتدون للحق ، ويهجرون الصراط المستقيم .

أما القلوب الطاهرة فإنها تمتلئ بخشية الله ، وحبه ، والتعلق به ، وهى بذلك تتجو من أضاليل الشيطان ، وتعرف عداوته ، وتتجو من مكره ، وخداعه ... يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾^(١) أى إنهم لا يستمرون فى المعصية ، وإذا وقعوا فيها أسرعوا إلى التوبة والرجوع إلى الله ، والمؤمن يقظ بعقله ، قوى بروحه وفطنته .

أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن عثمان المخزومي : أن قريشا قالت قبيصوا لكل رجل من أصحاب محمد رجلا يأخذه ، فقبضوا لأبى بكر طلحة بن عبيد الله ، فأتاه وهو فى القوم .

فقال له أبو بكر ﷺ : إلام تدعونى ؟

قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعزى .

قال أبو بكر : وما اللات ؟

قال : أولاد الله .

قال : وما العزى ؟

قال : بنات الله .

قال أبو بكر : فمن أهمهم ؟

فسكت طلحة فلم يجبه ، وقال لأصحابه : أجبوا الرجل ، فسكت القوم .

فقال طلحة : قم يا أبا بكر أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله^(٢) .

ومن المعلوم فى دين الله تعالى أن كل إنسان له قرين من الشياطين يعمل على إضلاله ، ولا يعجزه إلا ذكر الله تعالى ...

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٠١ .

(٢) تفسير المراغى ج ٢٥ ص ٩٠ .

يقول النبي ﷺ : "ما منكم من أحد ، إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا : واياك ؟ يا رسول الله .

قال : واياي ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير" (١) .
ولذلك كان عون الله لمن يذكره ويخشاه انتصارا على شيطانه وقهره .

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ أى إن

الشياطين حين تسيطر على الغافلين تمنعهم من الحق ، وتجعل بينهم وبين الصواب حاجزا يمنعهم من الوصول إلى الله ، وتزين لهم سوء حسنا ، والضلالة هدى ، وتوسوس لهم بأنهم على الصراط المستقيم ، فيرضون بما هم فيه ، ويتحولون إلى دعاة للباطل ، وجنود له .

وقد أكدت الآية فعل الشياطين بأن ، واسمية الجملة ، واللام الداخلة على الخبر ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ ﴾ ... وجاء الفعل بصيغة المضارع لبيان استمرار الكيد والخداع ، وضرورة الحذر واليقظة لأن الشياطين تلبس ، وتخدع في دأب ونشاط .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ

الْقَرِينُ ﴾ أى يستمر الضالون في غفلتهم ، ويلعب بهم الشياطين حتى يؤثروا للحساب يوم القيامة ، وحينئذ يندم الغافل على ما فعله في الدنيا ، ويتمنى أن لو كان قرينه بعيدا عنه بعد ما بين المشرق والمغرب ... فبئس هذا القرين الذى لا يعرف إلا الفساد والضلال .

﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُرِي أَلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ أى

ولن ينفعكم أيها الضالون ندمكم في يوم القيامة ، فقد ظلمتم أنفسكم في الدنيا

(١) صحيح مسلم . كتاب صفة القيامة والنار . باب تحريش الشيطان ج ٤ ص ٢١٦٧ .

وكفرتهم بالله ، وأطعتم الشياطين ، وعصيتم الله تعالى ، واليوم تشتركون جميعا أنتم والشياطين في العذاب الأليم الذى تستحقونه فلا تلقوا أيها المشركون التبعة على الشياطين فقد رغبتم في الشرك وملتكم إليه ، ورغبتم الاستمرار في الكفر فأنتم والشياطين في عذاب جهنم خالدون .

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ، جئ به لإنكار حرص الرسول على هدايتهم مع أن الله قدر لهم الضلال بوجود أسبابه فيهم . يقول الله تعالى : ﴿ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾^(١) ولما كان حال رسول الله ﷺ معاودة دعوتهم إلى الله كحال من يظن أنه قادر على إيصال التذكير إلى قلوبهم ، ولذلك كان إنكار هذا الحال .

ومعنى الآية لن تتمكن يا محمد من إزالة صمم الذى لا يسمع ، أو تعيد النظر للأعمى ، أو تهدي من أضله الله تعالى ، فقد علم الله ما فى قلوبهم فأصمهم وأعمى أبصارهم ، وختم على قلوبهم وأفهامهم .

ومن المعلوم أن استغراق الإنسان فى خلق أو حال مدة طويلة يثبت قلبه عليه ، ويجعله عادة يألفها ، ويحبها بلا فهم لما يفعل ... إن التخلق يتحول إلى خلق ، والتطبع يؤدي إلى الطبع ، والإلف يؤدي إلى عادة وعرف .

ومنه قول إبراهيم عليه السلام لعبدة الأصنام والأوثان ، وهو ما حكاه الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾^(٢) .

(١) سورة النحل ، الآية ٣٧ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٢٥ .

ومنه قوله ﷺ : "لا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً"^(١) ومن عادة الناس أن الإنسان يكذب ويكذب حتى يصدق نفسه ، ثم يكذب فيصدقته الناس .

﴿ فَإِمَّا تَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾ أى سيجازى الله الظالمين بكفرهم وعدوانهم فى الدنيا ، وسترى يا محمد ذلك قبل أن تموت ، فإن مت قبل نزول العذاب بهم فاعلم أن الله سينتقم منهم ، وإن عشت فسترى نزول العذاب .
وقد رأى النبى ﷺ هزيمتهم يوم بدر والأحزاب ، وشاهد إخراج اليهود من جزيرة العرب ، وفى الآية إشارة إلى الخزى الذى سيراه أعداء الله فى الأرض على طول الزمن ، ووعد الله لا يتخلف .

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾
أى فخذ يا محمد القرآن الذى أنزله الله عليك ، وتمسك به ، والتزم بهديه ، فهو طريق الحق والصواب ، وهو المحقق للهدى ، والخير ، والأمان ، وهو الذى يحقق سعادة الدنيا ، ونعيم الآخرة ، وأنت يا محمد بهذا التمسك على صراط الله المستقيم .

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ أى واعلم يا محمد أن القرآن الكريم شرف ورفعة لك ، ولقومك ، فقد نزل عليك بلغتهم ، وأنت رجل منهم ، وقد جعلهم هداة للحق ، ودعاة لدين الله تعالى فى العالم كله ، وروادا فى حمل الأمانة ، وتبليغ دين الله تعالى .

(١) صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾

يقول عدى بن حاتم : كنت قاعدا عند النبي ﷺ فقال : ألا إن الله تعالى علم ما فى قلبى من حبى لقومى فبشرنى فيهم فقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ فجعل الذكر والشرف لقومى ، فالحمد لله الذي جعل الصديق من قومى ، والشهيد من قومى ، وإن الله قلب العباد ظهرا وبطنا ، فكان خير العرب قريشا ، وهى الشجرة المباركة^(١) .

يقول عدى : ما رأيت رسول الله ذكرت عنده قريش بخير إلا سره ، حتى يتبين ذلك السرور فى وجهه للناس كلهم .

إن العرب الذين أسلموا آمنوا بالقرآن الكريم ، وحملوه إلى العالم كله ، وحققوا بلغاتهم ، واتقنهم اللغة الآخرين تبليغ الإسلام إلى سائر الأقاليم فصار للعرب ذكر بهذا القرآن الكريم ، وصارت اللغة العرب أملا يتمنى غير العرب إتقانها .

﴿ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ أى وسيسألهم الله عن كل أقوالهم ، وأعمالهم ، وموقفهم من القرآن الكريم .

إن القرآن نزل بلغة العرب ، وقد وعد الله بنشر هذا الدين بهذه اللغة ، والعرب هم المسئولون عن نشر هذا الدين للأمم الأخرى ، فمتى قصرُوا فى ذلك أذلهم الله فى الدنيا ، وأدخلهم النار فى الآخرة ، فعسى أن يقرأ هذا أبناء العرب ، ويعلموا أنهم هم المعلمون للأمم ، فينشروا هذا القرآن ، ويكتبوا المصاحف باللغة العربية ، ويضعوا على هوامشها التفاسير بلغات العالم المختلفة ، حتى تعرف الأمم كلها هذا الدين معرفة حقة خالية من الخرافات التي ألصقها به المبتدعون ، ويعود الإسلام بين الناس سيرته الأولى وما ذلك على الله بعزيز .

(١) المعجم الكبير للطبرانى ج ١٧ ص ٨٦ بمعناه .

إن غير العرب من المسلمين أحبوا لغة القرآن الكريم ، ولغة الوحي إلى رسول الله ﷺ فتعلموها ، وأتقنوا العلم بها ، ودونوا مؤلفاتهم الكبرى ككتب التفسير ، والحديث ، واللغة ، والبلاغة ... وفى هذا ذكر للعرب ، وتاريخهم ، ولغتهم .

﴿ وَسَعَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴾ أى واسأل يا محمد جميع الرسل السابقين لتعلم أن الله أمر بعبادة الله وحده ، ولم يجعل آلهة من دونه يعبدوها الناس لتتأكد من ضلال قومك وهم يعبدون الأصنام .

إن الله إله واحد لا شريك له ، وقد جاء الرسل جميعا للدعوة إلى توحيد الله ، والإيمان به وحده ، وتأكيد اتصافه وحده بكافة صفات الجلال والكمال ، والانتهاى من عبادة الأصنام والأوثان ، وغير ذلك من الطواغيت يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّغُوتَ ﴾^(١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الذين يتعاقلون عن دين الله تعالى ، وينسون ذكر الله ، وقراءة القرآن يسلط الله عليهم شياطين الإنسان والجن ليصدوهم عن الحق ، ويغروهم بالسيئات ، ويستمرروا غارقين فى الفحشاء حتى مجئ الساعة ، ووقوع القيامة ، وحينئذ سيندمون على ما فعلوا ، ويتبرأون من شياطينهم ، كما يتبرأ الشياطين منهم ، ولن ينفعهم ذلك لأن وقت الندم يكون قد ولى ، ولن يعود ، وسيلقى الظالمون والشياطين العذاب الأليم فى نار جهنم وهم فيها خالدون .

(١) سورة النحل ، الآية ٣٦ .

(٤٥٦)

وتوضح الآيات أن الهدى هدى الله ، وأن الرسول لا يهدى من أحب ،
وعليه البلاغ والدعوة ، وعليه أن يتمسك بالوحى والدعوة إليه ، ويهتم بالقرآن
الكريم فهو شرف ، ورفعة ، له ولقومه إلى يوم القيامة ، وقد تضمن القرآن
الكريم بيان أن الرسل جميعا دعوا إلى توحيد الله ، وعبادته وحده .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حزب الشيطان هم الخاسرون

خلق الله الخلق ، وعرفهم بالواجب الذى خلقوا له فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ
الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١) وعرفهم أن العبادة تكليف والتزام بطاعة الله
تعالى ، واستقامة على الصراط المستقيم ، وحذر من المعاصى والوقوع فى
حبائل الشيطان الرجيم .

وأنظر الله الشيطان إلى يوم القيامة ، وتركه بين الناس يسعى سعيه
ليظهر الخبيث ، ويتميز من الطيب .

إن الله جعل لكل إنسان قرينا يجرى فى عروقه ، ويوسوس له ، ويعمل
على إضلاله مستغلا لحظات الغفلة عن ذكر الله ، وأوقات الولوج فى المعاصى
ومناسبات اللعب والهوى .

إن الشيطان حين يجد له مجالا يسرع إلى الخوض فيه ، وينشط فى
إغوائه ، وحيله ، ويأخذ فى الإغراء شيئا فشيئا فيزين له الهوى ، ويبسر على
نفسه المعصية ، ويؤمله فى توبة آجله ، ويحبيه فى الفحشاء والمنكر ، ويغرقه

(١) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ .

فى المحرمات ، ويبعده فى النهاية عن طاعة الله تعالى ، ويصبح الدين عنده علما بلا عمل أو رسما بلا واقع وسلوك .

إن الشيطان يعرف طريقه ، وغايته ، وقد حذر الله الناس منه فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَّ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾^(١) ، وفى يوم القيامة يظهر الشيطان على حقيقته فيتبرأ من اتباعه ، ويتبرأ أتباعه منه ويندمون حيث لا ينفع الندم . يقول الله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ فَكَانَ عَقِبَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) .

إن الشيطان لن يتمكن من إنسان ملأ قلبه بالإيمان ، وحافظ على ذكر الله تعالى ، واستقام على طاعته ، ولذلك وجب على المسلم أن يسد على الشيطان الطريق بطاعة الله . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾^(٣) .

والمدعوون فى حاجة إلى تحصين أنفسهم بالعمل الصالح ، والاستقامة على دين الله ، وأخذ الحذر من وساوس الشيطان الرجيم واغراءاته فهو منتظر للغفلات ليتحرك ، ويعمل .

والدعاة هم حراس العقيدة ، ومسئوليتهم محاربة الشيطان الرجيم ، والعلم والعمل وهم مسئولون عن أنفسهم وغيرهم من الناس .

(١) سورة فاطر ، الآية ٦ .

(٢) سورة الحشر ، الآية ١٦ ، ١٧ .

(٣) سورة النحل ، الآية ٩٩ .

الركيزة الثانية

مسئولية الجانى على نفسه

الدعاة هم حماة الإسلام ، وعليهم إيصال الدين واضحا إلى الناس ، ودفع ما يوجه له من مزاعم وأكاذيب ، وعلى الناس الاستماع للعلماء ، وهم يبلغون دين الله تعالى ... وبعد ذلك يتحمل كل إنسان مسئولية عمله فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر .

والآيات توضح أن الإنسان الذى يعمى بصره لن يرى صوابا ... ، ومن أعمى بصيرته لن يصل لهدى ... ، ومن أصم أذنه لا يسمع نداء وبلاغا ... ومن ضل عن الحق لا يرضيه إلا الفسق والفجور .
ولن يفر مجرم من عقاب الله فى الدنيا وفى الآخرة ، وسينتقم الله من المشركين فى الدنيا .

والله قادر على عقابهم ، والحق الأذى بهم ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(١) .

الركيزة الثانية

الاعتزاز بالحق والمسئولية

المسلم مسئول عن دينه فى نفسه ومع الناس ، وأكبر ما يعينه على القيام بواجبه التمسك بحبل الله المتين ، وتطبيق شرع الله ومنهجه على نفسه وتعاملاته مع الآخرين ، واليقين التام بأن الدين عند الله الإسلام ، وبه يكون فخر الدنيا ، وعز الآخرة فى التمسك بالإسلام عقيدة ، وشريعة ، وخلقا .
إن المسلم يعيش فى الدنيا مخلصا لدين الله تعالى ، مؤمنا بربه ، راضيا باستقامته ، عابدا لله وحده ، وهذا يحقق له الخير فى الدنيا ، وفى الآخرة .

(١) سورة النور ، الآية ٦٣ .

قصة "موسى" عليه السلام فى سورة "الزخرف"

تبين الآيات طرفا من قصة موسى عليه السلام وتركز على سفاهة قومه ، وغرور فرعون واستخفافه بقومه ، وانقيادهم لأباطيله وأكاذيبه .
يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٣﴾ وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٥﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفُورِ الْإِنسَ إِلَىٰ مَلِكٍ مُّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١٦﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿١٧﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿١٨﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٢١﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة اتهامات كفار مكة لمحمد ﷺ ، وطلبهم أن ينزل القرآن الكريم على رجل غنى ذى سلطان وطل جاءت هذه الآيات لبيان أن موقف أهل مكة يشبه موقف فرعون وقومه من موسى عليه السلام ودعوته .

(٤٦٠)

وأيضاً فإنه لما قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾^(١) جاءت هذه الآية بطرف من قصة موسى ﷺ لتقديم دليل عملي على أقوال الرسل السابقين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل موسى ﷺ وأيده بالمعجزات ، فلما دعا فرعون وقومه استهزأوا به ، وكذبوا بالمعجزات ، واتهموه بالسحر ، ولما نزل عليهم العذاب طلبوا من موسى ﷺ أن يرفع الله العذاب عنهم ليؤمنوا فلما رفع العذاب عنهم نكثوا ، وعادوا لغيهم وكفرهم .
وتبين الآيات غرور فرعون ، واستهزاءه بموسى ومن معه ، واستخفافه بقومه ، واتباعهم له ، ولذلك استحقوا جميعاً العذاب الأليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى اخترنا موسى ﷺ واصطفيناه للرسالة ، وأمرناه أن يذهب إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الله ، فذهب موسى إلى فرعون ، وقال له : إني مرسل إليك ، وإلى قومك من رب العالمين ... وفى هذا إبطال لربوبية فرعون المزعومة بأسلوب مؤكد قوى ، فطلب فرعون والملا من موسى ﷺ البرهان على صدقه فى دعوى الرسالة ، والمراد بالملا أغنياء القوم ، وأولو الرأى فيهم لأنهم يملأون المجالس ، ويكثررون الحديث ، ويظهرون فى القيادة والريادة.

(١) سورة الإسراء ، الآية ٧٧ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ أى فلما جاءهم

موسى عليه السلام بالمعجزات الخارقة للعادة استهزأوا بها ، وأخذوا يسخرون منها ويضحكون عليها ، وكان موقفهم من الآيات استهزاء برسالة موسى ومعجزاته لأنه وقر فى قلوبهم أن فرعون هو ربهم الأعلى ، وقد تيقنوا ذلك ولم يتوقعوا غيره ، فلما جاءهم موسى عليه السلام لم يسمعوا لقوله ولم يتأثروا بمعجزاته ، وأخذوا يضحكون ويستهزئون .

﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ أى وقد أريناهم

المعجزات المبهرة والبراهين الساطعة المتتابعة التى جاءتهم واحدة بعد الأخرى . ومعنى أن كل آية أكبر من أختها أن الآية اللاحقة أكبر تأثيرا ، وأشد قوة من الآية السابقة ، أو أن الآيات كلها قوية الأثر بلا تفاوت ، وإن اختلف الناس فى تفضيل بعضها على بعض فكلها فاضل ، وكلها له تأثير كبير ... كما تقول رأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض . وكما روى عن الحسناء حين سئلت عن أى نبيها أفضل ؟ ... قالت هم كالحلقة المفرغة لا أدرى أين طرقاتها . ومعنى الآية على هذا ، وما نريهم من آية إلا وهى آية جليلة الدلالة ، شاهدة على صدق رسول الله ﷺ ، وتكاد كل آية أن تنسى غيرها ، وتكفى فى الدلالة على ما دللت عليه جميع الآيات .

﴿ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ ﴾ أى وأصبناهم بألوان من العذاب مثل نقص

الثمرات ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أى عسى أن يرجعوا عن الكفر ، ويؤمنوا

بالله تعالى ، ويطيعوا موسى عليه السلام .

﴿ وَقَالُوا يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ ﴾ أى قال فرعون وقومه لموسى ﷺ ، ونادوه باسم ينادون به العلماء وهو ﴿ يَتَأْتِيهِ السَّاحِرُ ﴾ أى يا أيها العالم الذى تعرف الخفايا والأسرار .

﴿ أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى اسأل لنا إلهك الذى تدعونا إليه ليكشف عنا العذاب الذى حل بنا كما وعدتنا ، فإننا سنؤمن به بعد رفع العذاب عنا .

﴿ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى إننا سنهتدى إلى ما تدعونا إليه إن رفع الله عنا العذاب .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ أى دعا موسى ﷺ ربه ليكشف عنهم العذاب فاستجاب له ، فلما كشف الله عنهم العذاب لم يؤمنوا ونقضوا العهد ، واستمروا على الكفر ، وهذا هو ديدنهم ، وعادتهم .

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومِ الْآيِسُ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِي ﴾ ؟ ... أى أخذ فرعون يجمع المصريين حوله ، ونشط فى تجديد سلطانه عليهم فخاطبهم بقوته ، وناداهم سائلا :

أأست ملككم ؟ ... أليس لى ملك مصر بما احتوت من أنهار وخيرات ؟
وقد أصاب فرعون الغرور بسبب ملكه لمصر ، وتمتعه بما حاز منها من قصور تجرى الأنهار من تحتها ، وبجوارها ، وجمع الله الأنهار مع أن فى مصر نهرا واحدا ، لأن المراد بها الترع المتفرعة من هذا النهر ، وكلها جمال ينساب فيها الماء ، ويسير إلى الأرض يحييها ، وينميها .

﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ؟ ... أى أعميتم فلا ترون الحقيقة التى أنا عليها ...
وهو أسلوب يحثهم على طاعة الله ، والنظر إلى سلطانه وملكه ، وضرورة
المحافظة على هيئته ، والقيام بحق ألوهيته .

﴿ أَمْرٌ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ ﴾ ؟ ... هذا سؤال تقريرى
يعرض إنكار فرعون لدعوة موسى ﷺ ، واتهامه بالذلة والهوان ، والصغار
وهذا إنكار يوجهه فرعون لقومه إثارة لهم ليلتفوا حوله ، ويستمر إيمانهم به ،
ويعلموا أنه أفضل من موسى ﷺ .

﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ أى إن موسى ﷺ لا يبين قضيته بصورة تامة ،
وهذا إشارة إلى الحبسة التى كانت فى لسانه ﷺ ، وهى التى جعلته ﷺ
يطلب من ربه أن يحلها فى قوله تعالى : ﴿ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ۖ
يَفْقَهُوا قَوْلِي ۖ ﴾ (١) .

ومعجزة موسى ﷺ لم تكن الكلام البليغ ، وانما كانت من نوع ما
تفوق فيه علماء فرعون ، وهو السحر ، ولذلك جاءت معجزات موسى ﷺ
لإعجاز السحرة بهذه الآيات ، ولذلك جاز لموسى أن يشرح للناس دعوته
بصورة خالية من الإعجاز ، ولا عيب فى حبسة لسان موسى ﷺ لأن
العيوب الخلقية لا يعاب المرء بها .

﴿ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ ﴾ أى قال فرعون : إن موسى لا
يصلح للنبوّة لأنه لا يلبس لبس الملوك ، ولا يتحلّى بحلى الرؤساء ، ولو
كان رسولا بحق لألقى عليه ربه أسورة من ذهب يلبسها فى يده كما هو شأن
الفراعنة ملوك مصر .

(١) سورة طه ، الآية ٢٧ ، ٢٨ .

﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أى لو كان موسى ﷺ صادقاً

لصاحبه الملائكة ، ونزلت إليه متتابعة لتعينه ، وتمشى معه ، وتشهد له بالصدق كما يفعل الاتباع مع ملوكهم .

وهذه الآراء ضلال وخداع للناس لأنهم يتصورون النبوة ملكا وسلطانا ، وقوة تلهى الناس ، وتمكر بهم ... وليس الأمر كذلك لأن النبوة وحى إلهى يرسم للناس دينهم ، ويرشدهم إلى طريق النصر ، والفلاح ، والفوز .

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ أى انطلت على المصريين مقالة فرعون

، وسحرت ألبابهم ، فتصوروه صادقاً فيما يقول ، فأسلموا أمرهم إليه واستمروا فى طاعته ، وكان عليهم أن يدركوا كذبه ، وسوء خلقه ، فمصر مخلوقة لله ، وما هو إلا ملك ، سيموت كما مات سابقوه ... ويعلموا أن من ساء خلقه ، وتعود السب والشتم لا يصلح للقيادة أبداً .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ أى صدق المصريون فرعون لأنهم كانوا

ضالين ، جهلاء ، لا يعلمون حقاً ، ولا يفرقون بين الملك والنبوة ، ولا يميزون بين الدين والضلال .

إن أهل الضلال يحيطون ضلالهم بالأخبار الواهية ، والأشياء المسخرة ويسيطرون على رأى العام بالكاذيب والأوهام ، والمظاهر المخادعة ، وتلك عادة فى الناس أينما كانوا ومتى كانوا ... وكانت تلك العادة هى سبب ضلال المصريين زمن فرعون الذى دعاه موسى ﷺ .

﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى فلما أغضبونا بطاعتهم لفرعون ، وكفرهم بدعوة موسى ﷺ رغم مجيئه بالآيات المعجزة الباهرة أغرقناهم جميعا بالماء .
وانما أغرقهم الله بالماء الذى اغتروا به ، وجعلوه سببا لادعاء الربوبية والكفر بدعوة موسى ﷺ ، وبذلك كان الجزاء من جنس العمل .

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ أى جعلناهم قدوة لمن يأتى بعدهم ، وعبرة وعظة لمن يخلفهم من الناس ليأخذوا من قصتهم الدروس والعبر .
وفى الآيات تسليية لرسول الله ﷺ وبيان للمسلمين ليعلموا أن الله معهم ، وأنه سينصرهم على الكافرين ، وتوضح لهم النهاية التى هلك فيها فرعون وجنوده ليبقى ذكرى معبرة ، ونصيحة يستفيدون بها .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل موسى ﷺ إلى فرعون والمصريين ، وأيده بالمعجزات المثبتة لصدقه ، فلم يسمعوا له ، واتهموه بالكذب والسحر فعذبهم الله بعذاب معجز ، فطالبوا من موسى أن يرفع الله عنهم العذاب ليؤمنوا به ، فلما رفع الله عنهم العذاب نكثوا بما عاهدوا موسى عليه .
وأخذ فرعون يضلل المصريين ، ويظهر لهم عظمة ملكه ، وقوة سلطانه ويحقر لهم شأن موسى ﷺ ، ويبين لهم أمورا لا تجعل موسى رسولا فى نظره ، وتقديره ، فهو لا يلبس ملابس الملوك ، ولا يتحلى بحليهم ، فانخدع له المصريون ، وأطاعوه ، وكفروا بدعوة موسى ﷺ فغضب الله عليهم ، وانتقم منهم بالغرق بالماء الذى جعلوه سببا لربوبية فرعون ، وحكم مصر .

(٤٦٦)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

الصراع دائم بين الحق والباطل

لن تسلم دعوات الرسل من المعارضة ، ولم نجد تسليما مطلقا لدعوة أى رسول من رسل الله عليهم السلام . يقول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾^(١) .

ولما جاء موسى ﷺ لفرعون وملاه بالبينات كذبوه واستهزأوا به لما قال موسى ﷺ لهم : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) ... استهزأوا به وقالوا : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٣) ؟ ...

ولما أظهر لهم المعجزات قالوا : إنه السحر والشعوذة . وكما قال لهم موسى ﷺ آمنا بالله خالق كل شئ . قال فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾^(٤) ؟ ... ولما قال موسى ﷺ : ﴿ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٥) . قال فرعون : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾^(٦) .

إنه الصراع الدائم بين أهل الحق والإيمان ، وبين الكفار والفجار .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١١٢ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٥١ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية ٢٣ .

(٤) سورة الزخرف ، الآية ٥٢ .

(٥) سورة الأنعام ، الآية ١١٢ .

(٦) سورة الشعراء ، الآية ٢٣ .

(٧) سورة الزخرف ، الآية ٥٦ .

(٤٦٧)

ولذلك وجب أن ينتبه العاقل لكل ما يعرض عليه ، ولا يغتر بالقول المزخرف ، والدعاوى العالية حتى لا يسقط فى مجاهيل الضلال .
وليعلم الدعاة أنهم أهل الحق وأن علا الباطل وساد ، وليؤمنوا بأن الله سينصرهم ، وسيثبت أقدامهم ، ويعلى شأنهم لأنهم جنود الحق ، وناصرو دين الله فى الأرض .

الركيزة الثانية

فرور الضالين وسوء خلقهم

تشير الآيات إلى أن فرعون وقومه ، اغتروا بملكهم ، وتحكمهم فى خزائن الأرض وتصوروا أن القيادة والعظمة تعتمد على فاخر الثبات ، وتمين الحلى ، والإكثار من الزخارف .

وقد أكثر فرعون من هذه الأمور المادية ، وملا أرض مصر بها ، وحول مدائنها إلى ساحات من اللهو واللعب ، وميادين من الزينة ، والجمال ، والسحرة .

وقد اغتر فرعون بما هو فيه ، وتعالى على الناس فأطاعوه ، وخضعوا له ، وتركوا معارضته ، وأخذ فرعون يندد بموسى عليه السلام ويدعى فيه ما ليس فيه ، ويصفه بأن مهين ، ولا يكاديين فأطاعه قومه ، وصاروا من الفاسقين .
إن الظالم يعمل ليسود ، وليس لديه إلا الغرور والتعالى ، وتحقير معارضيه بالكاذيب والبطلان .

أما أهل الحق فإنهم يفكرون ويعقلون ، ويقدرّون الناس ، ويضعون كل أمر فى موضعه ، ويؤمنون بالله رب العالمين .

قصة "عيسى" ﷺ في سورة "الزخرف"

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٥٧) وَقَالُوا
ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (٥٨) إِنَّ
هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا
مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا
وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٦١) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
﴿ ٦٢ ﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ
الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (٦٣) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ ۚ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴾ (٦٤) .

- ١ -

سبب نزول الآيات

ذكر المفسرون سببين لنزول الآيات هما :

السبب الأول : سمع المشركون الذين كانوا يعبدون الملائكة : ﴿ إِنَّ

مَثَلِ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ ^(١) ، وعلموا أن إيجاد عيسى ﷺ من دون

أب ليس بأعجب من خلق آدم الذي وجد بلا أب وأم ... اغتروا ، وقالوا : نحن

(١) سورة آل عمران ، الآية ٥٩ .

أهدى من النصارى ، لأنهم عبدوا آدميا ونحن عبدنا الملائكة وحاولوا بذلك دفع تسفيه النبي بهم إلى تسفيه النصارى لأن سفههم أكبر ، فنزل قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾^(١) أى لما ضرب الله مثلا على قدرته بخلق عيسى من غير أب أخذ المشركون يصدون الناس عن رسول الله بدعوى أن ضلال النصارى أكبر من ضلالهم ، والأولى بمحمد أن يكتفى بإصلاح النصارى ، ولعلمهم قالوا ذلك وهم لا يعلمون ما جاء في القرآن من رد على النصارى .

السبب الثانى : ذهب أكثر المفسرين أن سبب نزولها أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾^(٢) قال عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه للنبي ﷺ : أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم ؟

فقال النبي ﷺ : هو لكم ، ولآلهتكم ، ولجميع الأمم .

قال : خصمتك ورب الكعبة ، ألسنت تزعم أن عيسى بن مريم نبي وقد عبدته النصارى ، فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه .

ففرح بكلامه من حضر من المشركين وضج أهل مكة بذلك فأنزل الله تعالى قوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(٣) في سورة "الأنبياء" ، ونزلت هذه الآية تشير إلى لجاجهم وجدلهم لرسول الله ﷺ .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٥٧ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٩٨ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠١ .

(٤٧٠)

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة طرفا من قصة موسى عليه السلام جاءت هذه الآيات
بطرف من قصة عيسى عليه السلام .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات طرفا من قصة عيسى عليه السلام وموقف النصارى منه واختلافهم
عليه .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ أى ولما

ضرب ابن الزبعرى عيسى بن مريم عليه السلام مثلا ، وجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعبادة النصارى ارتفع صوت أهل مكة فرحا وسرورا ، وازدادوا كفرا ، وصدا عن
الدين الحق لأنهم رأوا فى مقالة ابن الزبعرى سندا لهم ، مع أنه لا يصح أن
يكون الضلال سببا لضلال آخر .

﴿ وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ ؟ ... الاستفهام تقريرى لبيان أن ما

هم عليه أفضل مما عليه النصارى ، لأن النصارى فى نظرهم عبدوا أشخاصا
مثلهم ، وأماهم فقد عبدوا أصناما وأوثانا ليست من البشر ، وعلى رأيهم فإن
آلهتهم أعظم من عيسى الذى اتخذته النصارى إلها .

وهذا ضلال منهم لأن من يتخذ غير الله إلها فهو ضال ، سواء جعل إلهه
صنما ، أو إنسانا ، أو غير ذلك .

﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ أى ما ضرب المشركون مثل عيسى عليه السلام لرسول الله ﷺ إلا للجدل ، والسفسطة ، ومحاولة الغلب لا لإظهار الحق ، والصواب ... لأن قوله تعالى لهم : ﴿ إِنِّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾^(١) ينطبق على الأصنام والأوثان ، ولا يتناول عيسى عليه السلام ولا الملائكة ، ولكنهم انحرفوا بالحوار إلى عيسى والملائكة ليجادلوا بالباطل ويتمسكوا بالكفر .

﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ أى إن كفار مكة خصوم ألداء يجادلون بالباطل ، ويصدون بمزاعمهم عن سبيل الله تعالى .

يقول الزمخشري : إن ابن الزبيري بخبه وخداعه وخبث دخيلته لما رأى كلام الله ورسوله محتملا للعموم مع علمه بأن المراد به أصنامهم لا غير وجد للحيلة مساغا ، فصرف معناه إلى الشمول والإحاطة بكل معبود غير الله على طريقة التمحك والجدال وحب المغالبة والمكابرة وتوقع فى ذلك^(٢) ، فتوفر رسول الله ﷺ حتى أجاب عنه ربه بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾^(٣) فدل به على أن الآية خاصة فى الأصنام وليست عامة فى سائر المعبودات .

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ أى إن عيسى عليه السلام عبد من عباد الله ، أنعم الله عليه بالنبوة ، وأيده بالمعجزات ورفع قدره ، ومنزلته ، وجعله آية للناس ، فقد ولدته أمه بلا أب ، وأنطقه الله فى

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٩٨ .

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٦٠ .

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠١ .

(٤٧٢)

المهد ، وبرهن بآياته لبنى إسرائيل على ضرورة الإيمان بالله تعالى ، والتمسك بما جاء فى التوراة والإنجيل ، ورد على من جعله إلها ، فهو مولود من بطن أمه بلا أب ...

وقد ضعف إيمان بنى إسرائيل بالغيب ، وسيطرت عليهم المادة ، فأوجد الله عيسى عليه السلام على نحو عجيب بعيد عن التوالد الطبيعى ، وأرسله إليهم يدعوهم إلى الإيمان ، ويجدد فيهم العبودية لله الواحد الأحد ، ويعرفهم أن الأمر كله لله تعالى ، وأنه العليم بالغيب ، وأنه على كل شئ قدير .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ تَحْلِفُونَ ﴾ أى إن الذى

أوجد عيسى بلا أب قادر على أن ينزل الملائكة الذين يسكنون السماء إلى الأرض ، يخلفونكم فيها بعد القضاء عليكم بسبب كفركم وضلالكم ... ولكن الله لم يشأ ذلك وأرسل إلى الناس رسله لعلهم يهتدون .

إن الله قادر على كل شئ ، وباب تغيير العجائب ، والسنن لم يغلق ، والأمر بيد الله .

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلْسَّاعَةِ ﴾ الضمير فى "إنه" يحتمل عوده إلى محمد ﷺ

والى القرآن الكريم ، والى عيسى عليه السلام ، والى الشأن والحال .

ومعنى ذلك أن محمد علم للساعة ، أو أن القرآن الكريم جاء علما على قرب الساعة ، محذرا الناس من عذابها ، ومعلما بما سيكون فيها ... أو أن عيسى عليه السلام سبب للعلم بالساعة ... أو أن الشأن والحال يؤكد الساعة ، ويعرف الناس بها .

﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ أى فلا تشكوا فى وقوعها ، واتبعوا هدى الله الذى

ينجيكم من عذابها .

(٤٧٣)

﴿وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أى واستقيموا على أمر الله ،
واتبعوا رسول الله ، وكونوا معه على دين الله فهو الصراط المستقيم .
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "والذي نفسي بيده ليوشكن
أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عادلا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع
الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد" (١) .

وفي رواية أبي داود أن رسول الله ﷺ قال : "ليس بيني وبين عيسى نبي
وانه نازل فيكم فإذا رأيتموه فاعرفوه ، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل
بين مصرتين كأن رأسه يقطر ، وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام
، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله تعالى في زمانه
الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك الدجال ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم
يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه" (٢) .

﴿وَلَا يَصُدَّنْكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أى ولا تجعلوا
الشیطان يوسوس لكم ، ويغركم ، ويمنعكم عن الإيمان الصحيح ، واعلموا أن
الشیطان عدو لكم ، ظاهر العداوة ، يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء .

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ ولما جاء عيسى عليه السلام
قومه بالمعجزات الواضحة ، المثبتة لصدقه قال لهم : قد جئتكم بدين الله ،
وبالشريعة التي تصلح أمور الدنيا والآخرة ، وأبين لكم الصواب في القضايا التي
اختلف فيها بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام .

(١) صحيح البخارى . كتاب البيوع . باب قتل الخنزير ج ٣ ص ٨٢ .

(٢) مسند أبى داود الطيالسى ج ٤ ص ٣٠١ .

وقال لهم عيسى عليه السلام اتقوا الله ، واخشوه ، واستقيموا على أمره ، وابتعدوا عن نهيه ، فأطيعوني فيما أمركم به. فما أمركم به هو ما جاءني من الوحي. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إن الله واحد لا شريك له ، وهو ربي ، وربكم ، ورب العالمين ، والخلق جميعا عبيده ، وعليهم أن يعبدوه وحده .

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أى اختلف بنو إسرائيل فى عيسى عليه السلام وانقسموا إلى فرق ، وجماعات تتجادل فى نبوته ، ورسالته ، واستمر الخلاف حتى وصل إلى الاعتقاد ، والتشريع ، وما يعرف بأسرار الكنيسة ، ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعا ونحلا كثيرة ، ومذاهب متعددة ... أهمها : طائفة الصدوقيين نسبة إلى "صدوق" واليه ، والى أسرته كانت ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان عليهما السلام ، واللذين يرجع نسبهما إلى هارون أخي موسى عليهما السلام . فقد كانت ذريته هي القائمة على الهيكل ، وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم متشددين فى شكليات العبادة وطقوسها ، منكرين لـ "البدع" فى الوقت الذى يترخصون فى حياتهم الشخصية ، ويستمتعون بما لذ الحياة ، ولا يعترفون باليوم الآخر ، وينكرون البعث والحساب والعقاب .

وطائفة الفريسيين الذى كانوا على شقاق مع الصدوقيين ، فهم ينكرون عليهم التشدد فى الطقوس والشكليات ، وجددهم للبعث والحساب . والسمة الغالبة على الفريسيين هي الزهد ، والتصوف ، وإن كان فى بعضهم اعتزاز وتعال بالعلم والمعرفة .

وطائفة السامريين ، وكانوا خليطا من اليهود والأشوريين ، ويرون أن الكتب الخمسة هى العهد القديم لأنها عبارة عن أسفار تاريخية تصور تاريخ

بنى إسرائيل إلى أن جاءهم عيسى عليه السلام ، وتنفي ما عداها مما أضيف إلى هذه الكتب في العهود المتأخرة ، مما يعتقد غيرهم بقداستها .

وطائفة الآسين أو الأسينيين ، وكانوا متأثرين ببعض المذاهب الفلسفية ويعيشون في عزلة عن بقية طوائف اليهود ، ويأخذون أنفسهم بالشدة والتشفي . وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية ، وبليلة في الاعتقاد والتقاليد بين بني إسرائيل ، الراضخين لضغط الإمبراطورية الرومانية المستذلين المكبوتين ، الذين ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع .

فلما أن جاء المسيح عليه السلام بالتوحيد أعلنه لهم ، وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أى عرفهم بفضل الله عليه وعليهم ، فهو سبحانه الخالق المعطى الزراق ، وهو الذى جاءهم بشريعة التسامح ، والتهذيب الروحي ، والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس ، وقد حاربه المحرفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ أى فهلاك لبنى إسرائيل الذين اختلفوا فى أمر عيسى عليه السلام وظلموا أنفسهم ، وكفروا بالله وألخوا عيسى عليهم فأولئك لهم عذاب أليم .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أى هل ينتظر هؤلاء المختلفون فى عيسى مجئ الساعة التى لا يؤمنون بها ، فسوف تأتيهم بغتة فى وقت لا يتوقعونه ولا يشعرون به .

(٤٧٦)

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن ابن الزبعرى ضرب مثلاً بعبسى ، فأخذ المشركون من هذا المثل حجة لكفرهم ، وزعموا أن آلهتهم خير من تأليه عيسى عليه السلام ، وكذبوا وضلوا فإن عيسى عليه السلام ليس إلهاً ، وإنما هو عبد أنعم الله عليه بالنبوة وجعل حياته مثلاً يدل على قدرة الله تعالى ، ولو شاء الله لقضى على المشركين ، وملاً الأرض بالملائكة .

إن عيسى عليه السلام آية من آيات الله تعالى ، ومجيئه يدل على قرب قيام الساعة كما أن بعث محمد ﷺ ، ونزول القرآن دليل على قرب الساعة فأطيعوا رسول الله ، ولا تجعلوا الشيطان يصدكم عن سبيل الله تعالى ، فهو لكم عدو مبين .

ولقد جاء عيسى عليه السلام قومه ومعه المعجزات البينات ، وعرفهم أن معه النبوة والشرعة التي تصلح الدنيا والآخرة ، ودعاهم إلى تقوى الله وطاعته فلا تختلفوا فيه ... وكما اختلف النصارى ، فقد تحولوا إلى فرق متناحرة يكفر بعضها بعضاً ، والواجب تجنب الاختلاف والشرك تجنباً لعذاب الله الأليم فى الآخرة .

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عدداً من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

فساد جدل أهل مكة

تبين الآيات أن كفار مكة كانوا يكثر من الجدل ، ويحاولون صد الناس عن دين الله تعالى ، ويعتمدون على باطل ليثبتوا باطلاً آخر ، وهذا منطق لا يصح ، وكل ما يفيد هو محاولة كفار مكة صد الناس عن دين الله تعالى .

(٤٧٧)

فقول النصارى إن عيسى عليه السلام ابن الله يشارك أباه فى الألوهية كفر رده الله تعالى فى قوله : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ ۖ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۚ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ۝ ^(١)﴾ إلا أن أهل مكة أخذوا قول النصارى وزعموا أنهم أفضل من النصارى فى تأليه الحجر التآليه لزعمهم أن الحجر أفضل من البشر . وهذا حوار باطل لا يجوز ، وهو يوضح فساد جدل الخصوم ، ومنهجهم فى الهدم ، وإيقاف المسار الصحيح للحياة .

الركيزة الثانية

مقام "عيسى" عليه السلام

تبين الآيات مقام عيسى عند الله تعالى فهو عبد من عباد الله أنعم عليه بالنبوة ، وأحاطه بالمعجزات منذ الحمل به ، وقد أوجده الله على نحو قدره له ليبقى مثلاً ، وعبرة لبنى إسرائيل .
إنه علامة على قرب قيام الساعة ، ولقد كفر الإسرائيليون بعيسى عليه السلام واختلفوا حوله ، وضلوا عن رسالته ودعوته ... واللائق بالإنسان العاقل أن يزن الأمور بميزان العقل ، ويتدبر فيها ، ويحلل الآراء حولها ، ليصل إلى الصواب المدعم بالبرهان العقلى والشرعى .

(١) سورة المائدة ، الآية ٧٢ .

ترابط المؤمنين فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٧) يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِقَايَتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿١٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۗ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٣﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الذين اختلفوا فى عيسى لهم عذاب أليم جاءت هذه الآيات لبيان أحوال المؤمنين الطيبة فى الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الأخلاء فى الدنيا يتحولون إلى أعداء فى الآخرة ما لم يكونوا متقين ، لأن المتقين عباد الله ، الذين آمنوا بالله تعالى ، ودخلوا فى الإسلام ، ولذلك يدخلهم الله الجنة مع آبائهم وأزواجهم ، ويمتعهم بالحسن وعلو المقام ، ويورثهم الجنة بسبب إيمانهم ، وعملهم الصالح .

(٤٧٩)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ الأخلاء

جمع خليل وهو الصديق الحميم المرتبط بصاحبه بقوة ، وفى الآية خبر عن أن الأخلاء فى الدنيا يتحولون إلى أعداء فى الآخرة ما عدا المتقين ، فهم يحافظون على صداقتهم وحبهم ... وسبب ذلك أن الصداقة مع الكفر تؤدى بالأصدقاء إلى العداوة ، لأن كل كافر يتهم صاحبه بأنه هو السبب فى كفره الذى أدخله جهنم .

أما المتقون فإن ترابطهم فى الدنيا يستمر فى الآخرة لأنهم تعاونوا فى الدنيا على البر والتقوى ، وحث بعضهم بعضا على الإيمان والإحسان .

يقول علي بن أبى طالب عليه السلام خليلان مؤمنان ، وخليلان كافران ، مات أحد المؤمنين فقال : يارب إن فلانا كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك ﷺ ويأمرني بالخير ، وينهاني عن الشر ، ويخبرني أني ملائيك ، يارب فلا تضله بعدي ، واهده كما هديتني ، وأكرمه كما أكرمتني ، فإذا مات خليله المؤمن جمع بينهما فيقول ليثن كل منكما على صاحبه فيقول : نعم الأخ ، ونعم الخليل ونعم الصاحب .

ويموت أحد الكافرين فيقول : رب إن فلانا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك ويأمرني بالشر وينهاني عن الخير ، ويخبرني أني غير ملائيك

فيقول ليثن كل منكما على صاحبه فيقول : بئس الأخ وبئس الخليل وبئس
الصاحب^(١) .

﴿ يَعْبادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ أى ويقول الله

للمتقين يوم القيامة : يا عبادى ، ويكرمهم بجعلهم عباده ، وهو يقول لهم : لا
تخافوا من عقابى فإنى قد أمنتكم منه برضاى عنكم ، ولا تحزنوا على فراق الدنيا
فإن الذين تقدمون عليه خير لكم مما تفارقوته .

﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِقَايَتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ أى يخص الله بالنداء

الذين آمنوا بالله تعالى ، وأسلموا أمرهم له ، واستمروا فى عمل الصالحات ،
ولذلك تقول لهم الملائكة : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ أى
ادخلوا أيها المؤمنون الجنة ومعكم أزواجكم مغبوطين بكرامة الله ، فرحين بما
يجدونه من نعيم .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى إن المؤمنين

يدخلون الجنة ، ويسعدون بها ، ويفرحون لها ، ويطوف عليهم ولدان بجفان من
الذهب ، ممتلئة بألوان من الأطعمة والحلوى ، وأكواب فيها أصناف الشراب
اللذيذ المقبول .

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ^ط وَأَنْتُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ ﴾ أى يجد المؤمنون فى الجنة ما تشتهيه أنفسهم ، وتتلذذ به
أعينهم ، وقيمون فى الجنة خالدين فيها لا يخرجون منها .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ١٤٠ .

عن عبد الرحمن بن سابط رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله هل في الجنة خيل ، فإني أحب الخيل ؟

قال ﷺ : إن يدخلك الله الجنة ، فلا تشاء أن تتركب فرسا من ياقوتة حمراء ، فتطير بك في أي الجنة شئت إلا فعلت .

وسأله آخر فقال : يا رسول الله هل في الجنة من إبل فإني أحب الإبل ؟ قال ﷺ : فلم يقل ما قال لصاحبه وإنما قال له : إن يدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك ، ولذت عينك ^(١) .

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى ويقال للمؤمنين : اسكنوا الجنة التى أعدت لكم ، وصارت لكم كأنها إرث ورثتموه بسبب عملكم فى الدنيا . يقول النبى ﷺ : " ما منكم من أحد إلا له منزلان : منزل في الجنة ، ومنزل في النار ، فإذا مات ، فدخل النار ، ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قوله تعالى : ﴿ أُورِثِكُمْ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ " ^(٢) .

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى لكم أيها المؤمنون فى الجنة صنوف الفواكه ، ولذائذ الطعام وعذب الماء ، منها تأكلون وتشربون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن التقوى جامعة للقلوب والعقول ، وبها يعيش المؤمنون فى الدنيا ، وتدوم صداقتهم فى الجنة كما كانت فى الدنيا ، ويطمئنهم الله تعالى ويعرفهم أنه لا خوف عندهم من عذاب ، ولا هم يحزنون من شئ فاتهم ، لأنهم آمنوا وعلموا الصالحات ، وتقول الملائكة لهم بأمر الله ادخلوا الجنة أنتم

(١) شرح السنة للبخارى . كتاب الفتن . باب صفة الجنة وأهلها ج ١٥ ص ٢٢٢ .

(٢) سنن ابن ماجه . كتاب الزهد . باب صفة الجنة ج ٢ ص ١٤٥٣ .

(٤٨٢)

وأزواجكم مسرورين فرحين ، ويطوف عليهم غلمان ومعهم جفان من ذهب ، وأكواب من فضة ... ويجعل الله لهم فيها ما تشتهيهِ نفوسهم ، وتتلذذ به ألسنتهم ، ويعيشون فى الجنة التى جعلها الله لهم كأنهم ورثوها يأكلون طعامها ويتلذذون بثمراتها .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

مصير المؤمنين الكريم

يتميز المؤمنون فى الدنيا بطاعتهم لله تعالى ، واستقامتهم على دينه ، وإخلاصهم فى التعبّد التام لخالقهم العظيم .

لقد أثار الله بصائر المؤمنين فعلموا واجبهِم فى الدنيا ، فقاموا به ، وحافظوا عليه وجعلوا عقيدتهم إيماناً بالله الواحد الأحد ، وطاعة لرسوله ﷺ ، والعمل الشرعى المستقيم للفوز فى يوم الدين ... وعلموا واجبهِم مع الناس ، فأحبوا المؤمنين وصاحبوهم على البر ، والخير ، والأمان ، وكانوا لهم ناصرين . وعلموا واجبهِم فى حياتهم الدنيا فطبقوا تعاليم الإسلام فى حياتهم قولا وعملا ، وخلقا ، وسلوكا ، وأحوالا ... وبكل هذا كانوا ربانيين صادقين ، عاشوا فى الدنيا لله تعالى ، وماتوا على ما عاهدوا الله عليه .

إن الله لا يخلف وعده ، ويوفيهِم بما وعدهم ، ويجعل آخرتهم خيرا من دنياهم ، ويحقق لهم فيها النعيم المقيم ، والفضل الكبير .

إن الله يمتنعهم باستمرار حب من أحبوا ، حيث المؤمن مع إخوانه المؤمنين ، ويرى أنهم أعانوه على الخير ، وكانوا سببا لما هو فيه من النعيم ولذلك يحبهم ... فى الوقت الذى يعادى فيه الكافر صاحبه الذى أضله فى

(٤٨٣)

الدنيا ، وقدم له الفسوق والعصيان ، وشجعه على الكفر ... وذلك أول النعيم ثم يكرمهم الله بندائهم ، وجعلهم عباده المخلصين ، ويطمئنهم بسعادة لا يشوبهم فيه خوف من ضياع شئ أو حزن على قوت شئ فقد التزموا بدين الله وكانوا صادقين ، وحق لهم فى الآخرة أن يتمتعوا بنعيم لم تره عين ، ولم يخطر على قلب بشر .

فى يوم القيامة يجمعهم الله بأزواجهم وذرياتهم وآبائهم فى فرح وسرور ... ويحيط بهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، يحملون أوانى الذهب ، وأكواب الفضة ، وجفان اللؤلؤ ، لتحقيق ما يشاءون والاستجابة لما يطلبون من حسن وجمال يسر النفس ، ويبهج الروح .

ويأكلون من طعام وثمار تشبع البطن وتنشط الجسد ، ويشربون من ماء عذب يتلذذون بمذاقه وحلاوته .

ويعيشون فى الجنة التى جعلها الله لهم بلا خوف لو حزن فقد ورثها الله لهم ، وخصصهم بها جزاء استقامتهم فى الدنيا .

وحاجة المؤمنين فى الدنيا إلى معرفة هذا الجزاء الآخرون ضرورة لينشطوا فى الطاعة ، ويتيقنوا من الجزاء الذى يقابله ، وليتقنوا به على عوامل الضلال فى الأرض .

ومهمة الدعاة ربط الدنيا بالآخرة ، وتقديم نعيم الآخرة فى صورته الواردة فى القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، ودعوة الناس أن يصلحوا عملهم ليستفيدوا به فى الدنيا وفى الآخرة .

ومن المهم فى الدعوة ربط أعمال الدنيا بجزاء الآخرة ، وتصوير الموت على حقيقته فهو انتقال من دار إلى أخرى كما قدر الله تعالى .

مصير المجرمين في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ٧٦ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٧ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ٧٨ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ٧٩ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ٨٠ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ٨١ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ٨٢ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ٨٣ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ٨٤ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مصير المؤمنين في الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان مصير المجرمين في الآخرة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المجرمين ماكثون في عذاب جهنم ، لا ينقطع عنهم العذاب ولا يقل فيهم ، ولا يبتعدون عنه بسبب كفرهم وشركهم في الدنيا ، ولا يستجيب الله لهم حين يستغيثون ، وينادون خازن النار ليعينهم ، ويساعدهم ، وإنما يرد عليهم بأنهم مقيمون في جهنم ، فلقد جاءهم الحق في الدنيا ، وكذبوا به ، وأكثرهم كان كارها للحق ، وكان يتصور عدم وجود رقباء عليهم ، وليس الأمر كما تصوروا ، فرسل الله وملائكته عند الناس يكتبون كل قول وكل فعل .

(٤٨٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ يؤكد الله تعالى أن الذين كفروا وأجرموا في حق أنفسهم ، وحق الله تعالى يجزون بالعذاب الأليم في جهنم التى يستمرون فيها .

﴿ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ أى لا يخفف العذاب عنهم في جهنم ، وهم فيه ساكتون سكوت يأس وقنوط .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ ﴾ أى وما ظلمنا هؤلاء المجرمين ، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر ، وتكذيب الرسل وعدم الإيمان بالله تعالى فاستحقوا المصير المؤلم الذى هم فيه .

﴿ وَنَادَوْا يَنْمَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ أى ينادى المجرمون مالكا رئيس خزنة النار لينفذهم من عذاب جهنم الشديد ، ويطلبون منه أن يقضى الله أرواحهم ليموتوا ، وينتهى عذابهم ، ويرتاحون .

﴿ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْشُوتَ ﴾ أى يقول لهم مالك ردا على طلبهم لن يتحقق طلبكم فأنتم مقيمون في جهنم التى تستحقونها بعملكم .

﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴾ أى لقد بينا لكم الحق ، وأرسلنا إليكم رسلا ، ووضحنا لكم الصواب ، وبرهنا لكم على ذلك ، ولكنكم كرهتم الحق ، وأعرضتم عنه ، ولذلك كانت النار مأواكم ومصيركم .

﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ ؟ ... "أم" للإضراب عن مجاورة المجرمين ، والانتقال إلى الحيل التى بذلوها ليفروا من الحق ، فلقد احتالوا

وكادوا لرد الحق ، واثبات الباطل ، واتحدوا في الكفر والضلال ، وتمسكوا بذلك ، فرد الله كيدهم ، وأبطل عملهم ، ومكر بهم ، فلم يصلوا لغاياتهم ، وأدخلهم في جهنم عقوبة لهم .

ومعنى الآية : هل اتفقوا على مكيدة لرسول الله ، وتصوروا نجاحا لكيدهم ؟ كلا لن ينجح كيدهم ، فإن الله يكيد لهم ويجزيهم .

﴿ أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتقرير لبيان أنهم يظنون أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم ، ولا يسمع كلامهم ، ولا يحيط بأحوالهم ، وحديث أنفسهم ... وهذا من ضلالاتهم .

﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ أى ليس الأمر كما يتصورون لأن الملائكة عندهم يكتبون ما يصدر عنهم . يقول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۖ ﴾^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾^(٢) .

قال يحيى بن معاذ : من ستر من الناس ذنوبه ، وأبداها لمن لا تخفى عليه خافية . فقد جعله أهون الناظرين إليه ، وهو من أمارات النفاق^(٣) .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال : بينا ثلاثة نفر بين الكعبة وأستارها ، قرشيان وثقفى ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا .

وقال الثاني : إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع .

وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم^(٤) .

(١) سورة الانفطار ، الآية ١٠ ، ١١ .

(٢) سورة ق ، الآية ١٨ .

(٣) تفسير المراعى ج ٢٥ ص ١١٢ .

(٤) المرجع السابق .

(٤٨٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يعذب المجرمين في جهنم خالدين فيها بلا تخفيف أو انقطاع لأنهم يستحقون ذلك ... وحين يستغيثون بمالك خازن النار لينقذهم ويطلبون منه أن يقضى الله عليهم ليموتوا ، ويتخلصوا من العذاب الأليم ، يرد عليهم بأنهم ماكثون في جهنم ، لأنهم كذبوا بالحق ، وكرهوا دين الله تعالى ، وكادوا فكاد الله عليهم ، وكانوا يظنون أن الله لا يعلم سرهم ونجواهم وهذا ضلال منهم لأن الله عليم خبير بكافة أحوالهم وشئونهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

نتيجة السوء سوء مثله

نهاية الدنيا ، ومجئ الآخرة قضية حتمية قرب أوانها . يقول الله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾^(٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾^(٣) وفي الآخرة يوفى الله الناس أجورهم ، ولن يجد أصحاب الأعمال السيئة إلا نتائج سيئة ، ولهذا يلقي الله المجرمين في جهنم ليعيشوا فيها ويعذبون بنار لا تخمد ، ولا تضعف ، ولا تنتهي فلقد عاشوا الدنيا ضالين ، كافرين ، معرضين عن عبادة الله ، وطاعة رسول الله ﷺ .

(١) سورة النحل ، الآية ١ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١ .

(٣) سورة القمر ، الآية ١ .

لقد دعاهم الرسول لدين الله فاعرضوا عنه ، وصدوا الناس عن سبيله ،
ولذلك يعرض الله عنهم ، ولا يسمع لندائهم فهم ينادون مالكا ، ويستغيثون به
ليموتوا حتى لا يعيشوا فى العذاب الأليم ... فيعرفهم الله بأنهم لن يموتوا ،
وسيستمر عذابهم فى جهنم ، وسيمكثون فيها معذبين مقيمين ، بلا تخفيف
أو انقطاع .

إن هذا جزاء الظالمين الذين كفروا بالله فى الدنيا ، وكرهوا ما أنزل الله
عليهم ، ومكروا ودبروا ، فضيع الله مكرهم ، وأبطل عملهم ، وأخزاهم ، وجعل
جهنم مثواهم ، ومأواهم ... ولن يفلتوا من ذنب ارتكبوه ، فقد سجل عليهم كل
همسة أو لمسة .

إن جزاء الله عدل كله ، فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها
وما ريك بظلام للعبيد .

ومن هذه الحقيقة على الناس أن يؤمنوا بقضية عامة ، وهى إن عدل الله
مطلق ، وكل امرئ بما كسب رهين .

ومادامت أعمال مدونة معلوم ، والحساب والجزاء قائم عليها وجب على
العاقل أن يحسن عمله ، وأن يستقيم على منهج الله الذى جاءه ، وليتدبر منفعته
فى الدنيا والآخرة ، ولا يمكن الشيطان منه ، ويطهر قلبه فى لحظة .

عظمة الله ثابتة رغم أنف المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ ﴿٨٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩٠﴾ فَذَرَهُمْ مَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٩١﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ وَهُوَ
الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٩٢﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٩٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ
لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾
فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مصير الكافرين في الآخرة جاءت هذه
الآيات لبيان عظمة الله الواحد الأحد ، وترد على الكافرين أقوالهم ، ومزاعمهم ،
وعملهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات مخالفة رسول الله لما يقوله المشركون عن الله تعالى ،
ويعرفهم أنه أول من يعبد الله تعالى ، فهو رب العرش المنزه عن كل نقص ،
وهو رب السموات والأرض ، وهو الله في السموات والأرض ، وهو العليم بما

(٤٩٠)

كان ، وبما هو كائن ، وبما سيكون إلى يوم القيامة واليه المرجع والمآب ،
وعنده علم الغيب ، وموعد قيام الساعة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ ﴾ أى قل لهم يا محمد

إن ثبت ببرهان صحيح أن الله ولدا ، فأنت أول من يعبد له ولده إن ثبت صدق ما
تقولون ... إلا أن ذلك لم يحدث لعدم وجود ولد لله تعالى ، لأن وجود ولد بعد
أن لم يكن نفى للألوهية ، والعبادة معا ...

وهذا أبلغ أسلوب في نفى الولد يقوم على مجازاة الخصم ، واطهار عدم
صواب رأيه بهذه المجازاة ومثلها مجازاة إبراهيم عليه السلام لعبدة الكواكب لأنه لما
راها قال : ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ فلما أفلت قال : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى

نقدس الله ، ونعظمه ، وننزهه عن أوصافهم المادية فهو رب السموات والأرض
، وهو رب الكون كله ، ورب كل مخلوق ، آمن به أو لم يؤمن به وهو كما
تقول لمن يجادلك : إن ثبت حَقُّكَ فأنا أول من يعترف به ، وهو سبحانه منزّه
عن الولد : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾^(١) .

﴿ فَذَرَهُمْ مَخُوضًا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ أى

اتركهم يا محمد يخوضون فى اللهو ، ويلعبون بالكاذيب حتى يأتى يوم القيامة
الذى لا محيص عنه لينالوا عاقبتهم ، ويذوقوا العذاب الأليم .

(١) سورة الشورى ، الآية ١١ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾ وهو الله الذى نعبده ونقدسّه فى الأرض ، كما يعبدّه أهل السماء ... فهو فى السماء إله ، وفى الأرض إله .

﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أى والله هو الدقيق فى حكمه وشرعه ، العليم بكل خلقه .

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ أى وتقّس الله تعالى فهو خالق السموات والأرض وما بينهما وهو المالك لكل مخلوق ... وعنده العلم بوقت الساعة .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أى والى الله يرجع الخلق كله للحساب والجزاء .

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أى ولا تملك الأصنام والأوثان التى يعبدونها الشفاعة لهم كما زعموا ، لأن الشفاعة لا تكون إلا لمن أذن له الله .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ أى ولئن سألت المشركين عن خلق السموات والأرض فإنهم يعترفون بالحق ، ويؤكدون أن الخالق هو الله .

﴿ فَأَنِّي يُؤْفَكُونَ ﴾ أى فكيف يكذبون على أنفسهم ويعبدون غير الله الذى خلقهم .

﴿ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى يقول الرسول لربه : إن هؤلاء الذى أمرتني بدعوتهم من أهل مكة قوم لا يؤمنون جهلا وعنادا وكفرا .

(٤٩٢)

﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ أى يقول الله لرسول

الله ﷺ بعد إن شكّا قومه : اعرض عنهم ، واصفح عنهم ، وسل الله لهم الهداية ، فسوف يعلمون مصيرهم الذى سيكون في الآخرة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أمر رسوله أن لا يلتفت إلى أقوال المشركين وأن يكون أول العابدين ، وأن ينزه الله تعالى فهو رب العالمين ، وأن يدعهم وأفكهم فسوف يعاقبهم الله في يوم لا مرد له من الله .

وهو سبحانه إله في الأرض ، واله في السماء ، وهو مالك السموات والأرض ، وهو الحكيم العليم ، وهو مالك السموات والأرض وعنده علم الساعة ، واليه المرجع والمآب .

إن المشركين ضلوا باتخاذهم الأصنام شفعاء ، وعبادتهم غير الله مع أنهم يقرون بأن الله هو خالق السموات والأرض وما بينهما .

وقد قال رسول الله ﷺ إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ... وقد أمره الله أن يصفح عنهم ، ويدعو لهم ، وسوف يرون نتيجة عملهم في الآخرة .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

منهج المجارة في الدعوة إلى الله تعالى

من طرق الدعوة إلى الله تعالى مجارة المعارض ، ومعناه إظهار موافقة الخصم فيما يدعى ، وتشكيكه فيه بعد ذلك ، لأن إظهار الموافقة يفتح باب

(٤٩٣)

الحوار والتلاقى ، ويعد هذا يكون النقد من داخل ما يراه الخصم ، ومنه ما تعرضه الآية وهى تتأقش من يقول بأن لله ولدا ، وتوافقه في عقيدته ظاهرا ، وتأمر الرسول ﷺ أن يقول : أنا أول من يعبد ولدا لله إن كان حقا ... وبعد ذلك يأتى بما ينفى وجود ولد لله تعالى ، ويذهب إلى ما لله من قداسة وعظمة ، وتمجيد ، وعلو سبحانه عما يقول به الكافرون .

وتأمر رسول الله ﷺ بعد هذه المجارة بترك المشركين وافكهم ، ولعنهم حين يأتى يوم القيامة حيث الحساب والعقاب ، ويجدوا أمامهم العذاب الذى خوفهم الله منه .

إن المجارة ليس تسليما للخصم ، ولا تصديقا بقوله ، وانما هو مبهج لهدم الباطل من داخله .

وهو منهج يمكن للمربين والدعاة الاستفادة منه ، وذلك بمعايشة المعارضين وابهامهم بالرضى عما هم فيه ، ومناقشتهم بعد ذلك فيما آمنوا به لإظهار ما هم فيه من عوار وفساد ، وإثبات الحق الذى إليه يدعون .

الركيزة الثانية

بيان عظمة الله في خلقه وقدرته

تختم سورة "الزخرف" آياتها ببيان عظمة الله ، وإثبات وحدانيته وقدرته وألوهيته في السماء وفى الأرض ، وعند كل خلقه ، فهو المالك لكل موجود ، الخالق لكل مخلوق ، العليم الخبير .

إن المشركين يقرون بأن الله هو الخالق ومع ذلك يكفرون ، ويكذبون ، ويعبدون أصناما لا تقدر على شئ .

وتأمر الآيات رسول الله ﷺ بالصفح والعفو وترك الأمر لله فإليه المرجع ، وعنده الصبر ، وعند الجزاء العادل الدقيق .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الزخرف" بتوفيق الله تعالى .

سورة "الدخان"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٤٩٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٩٦)

- أولا -

التعريف بسورة "الدخان"

سورة "الدخان" سورة مكية بإجماع المفسرين ، وتسمى بسورة "الدخان" وهو اسمها المشهور ، وتسمى أيضا بسورة "حم الدخان" وسبب هذه التسمية وردود لفظ الدخان فيها .

وقد نزلت سورة "الدخان" بعد سورة "الزخرف" .

وعدد آياتها ست وخمسون آية عند أهل المدينة ، ومكة ، والشام ، وعند أهل البصرة سبع وخمسون آية ، وتسع وخمسون آية عند أهل الكوفة .

وترتبط سورة "الدخان" بسورة "الزخرف" من عدة أوجه هي :

(١) إنه تعالى ختم ما قبلها بالوعيد والتهديد ، وافتتح هذه بالإندار الشديد .

(٢) إنه تعالى حكى في سورة "الزخرف" قوله ﷺ وهو ينادى ربه : ﴿ يَرْبِّ إِنِّ

هَتُوْلَآءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(١) ، وحكى في سورة "الدخان" قول موسى

عليه السلام أخيه موسى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُوْلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾^(٢) .

(٣) إنه قال في سورة "الزخرف" : ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ﴾^(٣) ، وحكى

في سورة "الدخان" عن موسى عليه السلام : ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ

تَرْجُمُونِ ﴿ وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُونِ ﴾^(٤) ، وهو قريب مما جاء

في سورة "الزخرف" .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٨٨ .

(٢) سورة الدخان ، الآية ٢٢ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية ٨٩ .

(٤) سورة الدخان ، الآية ٢٠ ، ٢١ .

(٤) ذكر في أواخر سورة "الزخرف" قوله تعالى ما قبلها : ﴿ فَذَرَهُمْ مَخُوضًا

وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾^(١) ، فذكر لهم يوما غير

معين ، ولا موصوفا . وبين في أوائل سورة "الدخان" ذلك اليوم ، بوصفه

فقال : ﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾^(٢) ، وأن العذاب

يأتيهم من قبلك ، ويحل بهم من الجذب والقحط ، ويكون العذاب في

الدنيا ... أما إن كان العذاب في الآخرة ، فيكون يومهم الذي يوعدون به

هو يوم القيامة .

وقد دارت السورة مع قضايا العقيدة كحال السور المكية كلها ، وذلك

بأسلوب بديع تتحدد فيه الواصل ، وتقتصر الآيات ، وقد جاءت السورة رغم

قصرها بقضايا العقيدة .

فعن الإيمان بالله وتوحيده ... يقول الله تعالى :

- ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾^(٣) .

وعن الكتب ... يقول الله تعالى :

- ﴿ حَمْدٌ ۝ وَلَکِ تَبَ الْأُمِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا

مُنذِرِينَ ۝ ﴾^(٤) .

- ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَلٌ مُّبِينٌ ﴾^(٥) .

(١) سورة الزخرف ، الآية ٨٣ .

(٢) سورة الدخان ، الآية ١٠ .

(٣) سورة الدخان ، الآية ٨ .

(٤) سورة الدخان ، الآيات ١-٣ .

(٥) سورة الدخان ، الآية ٣٣ .

وعن الرسل ... يقول الله تعالى :

- ﴿أَنِّي لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ﴾^(١) .

- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾^(٢) .

وعن اليوم الآخر ... يقول الله تعالى :

- ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ﴾^(٣) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا

عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣) .

- ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٤) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى

شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٤) .

وهكذا تتضمن سورة "الدخان" أركان العقيدة في آيات قصار ، وسور قصيرة .

(١) سورة الدخان ، الآية ١٣ .

(٢) سورة الدخان ، الآية ١٧ .

(٣) سورة الدخان ، الآية ١٠ ، ١١ .

(٤) سورة الدخان ، الآية ٤٠ ، ٤١ .

- ثانيا -**- التفسير -****إنزال القرآن الكريم من عند الله تعالى**

يقول الله تعالى :

﴿ حَمِّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

يقسم الله تعالى جلّت قدرته بأنه أنزل القرآن الكريم في ليلة القدر التي يفصل الله فيها في كل أمر حكيم رحمة من الله رب الخلق ، أجمعين ، فهو المحيى المميت ، وهو رب العالمين .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ حَمِّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ ﴾ بدأت السورة بحرفين هما (الحاء والميم) يقرءان مقطعين للدلالة على ما دلت عليه سائر الحروف المقطعة ، مثل إثبات أن القرآن منزل من عند الله ، وأنه معجز بلفظه ومعناه ، وللتنبية على أهمية ما يأتى بعده مثل تعظيم القرآن الكريم أو غيره من قضايا الإيمان .

و "ال" في الكتاب للعهد ، والمراد به القرآن الكريم فهو الكتاب المهيمن على سائر الكتب قبله ، ولا كتاب بعده ، وهو الكتاب الواضح الميسر ، والمبين لدين الله تعالى ، الموضح للصرائط المستقيم .

وأقسم الله بالكتاب المبين إظهاراً لعظمته ، وعظمة محتواه ونصائحه ، وبيانه ، لأن العظيم لا يقسم إلا بأمر عظيم على شئ عظيم يحتاج إلى جميع هذه العظمة لإثباته .

والمقسم عليه هو بيان إنزال القرآن الكريم ، وهو :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ أى ابتدأنا إنزاله من السماء الدنيا إلى رسول الله ﷺ في ليلة مباركة هي ليلة القدر التي تكون في شهر رمضان لقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾^(١) ، ولقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾^(٢) .

وتكررت ﴿ لَيْلَةٍ ﴾ لإظهار عظمتها ، وكثرة خيرها ، وبركتها ، فهي ليلة خير من ألف شهر ، وقد وصفها الله بأنها ﴿ مُبَارَكَةٍ ﴾ لبيان كثرة خيرها وفضلها ليعرف ذلك الناس ، ويبادروا إلى العمل الخير خلالها عسى أن تسرى بركتها إلى نفوسهم وحياتهم .

واختلف في الليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن على النبي ﷺ من ليالي رمضان .

ف قيل : هي ليلة السابع عشر من رمضان أخذاً من قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .

(٢) سورة القدر ، الآية ١ .

الْجَمْعَانِ ﴿١﴾ فَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ التَّقَى هُوَ وَالْمَشْرُكُونَ بِبَدْرِ يَوْمِ الْجُمُعَةِ صَبِيحَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ لَيْلَةً مِنْ رَمَضَانَ .

وقيل بدأ نزول القرآن الكريم في ليلة القدر أحد الليالي الوتر في العشر الأواخر من رمضان كما هو مشهور في السنة النبوية ، وكما سيأتى في تفسير سورة "القدر" .

وانها لليلة مباركة حقا حيث تم خلالها الفتح الحسن على البشرية ، واتصل فيها الناس بالنواميس الإلهية ، مقروءة ، ميسرة لتستجيب للفطرة ، في إطار تناسقها لحركة الحياة .

ولقد عاش الجيل الأول الذين أنزل القرآن عليهم أول مرة فترة عظيمة في كنف الله تعالى ، موصولين مباشرة بالله ، يطلعهم أولا بأول على ما في نفوسهم ، ويشعرهم أولا بأول بأن عينه عليهم ، وهم يقدرّون هذه الرقابة في كل حركة ، وكل هاجسة تخطر في ضمائرهم ، ويلجأون إلى الله أول ما يلجأون ، واثقين أنه قريب مجيب .

وقد مضى الجيل الأول ، وبقي بعده القرآن كتابا مفتوحا موصولا بالقلب البشري ، يصنع به حين يتفتح له الكثير ، ويحول مشاعره إلى حب دائم لله ورسوله ، وإلى طاعة مطلقة لما جاء من عند الله تعالى .

لقد مضى الجيل الأول ، وبقي هذا القرآن منهاجا واضحا كاملا صالحا لإنشاء حياة إنسانية نموذجية في كل بيئة وفي كل زمان . حياة إنسانية تعيش في بيئتها وزمانها في نطاق ذلك المنهج الإلهي المتميز الطابع ، بكل خصائصه دون تحريف ، وهذه سمة المنهج الإلهي وحده ، وهي سمة كل ما يخرج من يد القدرة الإلهية .

(١) سورة الأنفال ، الآية ٤١ .

إن البشر يصنعون ما يفيدهم ، وما يصلح لفترة من الزمان ، ولظرف خاص من الحياة . فأما صنعة الله فتحمل طابع الدوام والكمال ، والصلاحية المستمرة وتلبية الحاجات في كل ظرف وفي كل حين جامعة بين ثبات الحقيقة وتلاقيها مع نشاط الناس في هذه الحياة .

﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ أى إنا أنزلنا القرآن الكريم على محمد لينذر به ويبشر لأن مشركى مكة أنكروا رسالة محمد ﷺ ولم يصدقوا بالقرآن الكريم ، وعدوه سحرا وأساطير فأكد الله لهم بأنه قد أنذرهم بالقرآن الكريم ، واكتفت الآية بذكر الإنذار مع أن القرآن الكريم منذر ومبشر مراعاة لمقام نزول الآية فقد نزلت لإنذار المشركين .

﴿ فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ أى في ليلة القدر يفصل الله ما قضى به وبينه ، ولذلك سمى القرآن الكريم فرقانا لأنه يفصل كل حكم ، ويحدده ليطيّر عن غيره ، وهو أيضا يظهر الأحداث الكبرى مثل بدء بعثته محمد ﷺ ، ونزول القرآن إليه .

والأمر الحكيم هو أمر الله المحكم المشتمل على حكمة الله تعالى ودقته في دينه وشرعه ، وأحكامه .

﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ أى إن دين الله المحكم بعقيدته وشريعته وخلقه نزل من عند الله العظيم حيث اختار الله رسله ، واصطفاه ، وأرسله للعالمين يدعوهم إلى الله ، ويعرفهم صراط الله المستقيم .

﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى أنزل القرآن الكريم على محمد ﷺ ، وأرسله للناس رحمة بهم ، وهداية لهم ، فهو الرب الذى اصطفاك واختارك لتعليمهم وارشادهم ، وهو سبحانه السميع لأقوالهم ، العليم بأحوالهم وما يصلح أمورهم في الدنيا وفى الآخرة .

(٥٠٣)

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾

وهو تعريف المشركين بالله ليتركوا تأليه الأصنام وعبادتها لأنها لا تعي ، ولا تقدر أما الله الذي يدعوهم محمد لعبادته فهو رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذي خلق وملك ، وهو المتصرف في كونه المخلوق ، وحقه أن يعبد وحده .

وجملة ﴿ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ جملة شرطية جوابها محذوف تقديره إن كنتم موقنين فاعبدوا الله وحده .

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى أن الله الذى يدعو محمد إلى الإيمان به هو الإله الواحد الأحد الذى يوحد الخلائق من العدم ويحييها ، ويميت من حان أجله وفق تقدير الله له .

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ أى إن الله الذى ادعوكم إلى توحيد عبادته هو ما لكم ، وما لك آبائكم ، أو هو المتصرف في كل مخلوق منذ الأزل إلى الأبد فاعبدوه وحده ، ولا تشركوا معه آلهة أخرى .

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ "بل" للإضراب والانتقال إلى بيان حالهم الذى دفعهم إلى الشرك ، ومنعهم من الاستفادة بالآيات وهو أنهم اشتغلوا بالهوى ، والهزء ، والشهوات ، واستمروا في ذلك يلعبون .

والآيات تعرض بهوان الأصنام ، وعدم صلاحها للألوهية ، فهى أصنام جامدة لا تتكلم ، ولا تقدر على شئ ، ولا تشرع لأمر ، ولا تنفع في شفاعة ، أو ولاء ... وعبادتها عبث ولعب ، وعدم قصر العبادة على الله ضلال وكفر .

(٥٠٤)

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل القرآن الكريم إلى السماء الدنيا ، وبدأ نزوله في ليلة القدر ليفصل فيه أمور الدين بأمر الله تعالى ، وأنه سبحانه أرسل الرسل لتعبيد الناس لربهم الذى خلق كل شئ ، وملكه ، وتوضح الآيات أن المشركين غافلون عن البراهين ، وأنهم لاهون في شكهم ، عابثون في مكرمهم وعملهم .

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

دور القرآن الكريم مع الناس

يقسم الله بالقرآن الكريم على إنزاله في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ، وبدء إنزاله على رسول ﷺ في هذه الليلة ، ليبقى بين الناس هاديا للحق مبشرا للمطيعين ، ونذيرا للعصاة والمذنبين .

لقد نزل القرآن الكريم من عند الله تعالى ، محوطا ببركة الله ، في ليلة باركها الله وجعلها خيرا من ألف شهر ، وفرق فيه بين الحق والباطل ، وفصل كافة أحكامه وأوامره .

إن الله أنزل القرآن الكريم رحمة بالعباد ، وتعريفا بالحقوق والواجبات وبيان لألوهيته التى خلق بها كل شئ ، واستحق بها أن يعبد وحده .

إن القرآن الكريم هو الشاهد على الناس ، وهو دعوة الله الدائمة على الزمن كله .

(٥٠٥)

الركيزة الثانية

ضرورة الإيمان بالله تعالى

تتوالى نداءات الله للناس ليستقيموا على الصراط المستقيم ، ويطيعوا الله ورسوله ، ويعبدوا الله وحده ليفوزوا في الدنيا وفي الآخرة ، فإله هو رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو المتصف بصفات الجلال والكمال التي تليق به سبحانه وتعالى ، وهو الرحيم بعباده ، الذي يسمع قولهم ، ويعلم كل شئ عنهم ، وهو الذي يحيى ، ويميت واليه المصير ، وفي يوم القيامة يجازى الله كل نفس بما كسبت ، وهو على كل شئ قدير .

انتظار مجئ يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ يَغْشى النَّاسَ ۚ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ أَتَى لَهُمُ الْدُّرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿٥﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۖ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿٦﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿٧﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة إنزال القرآن الكريم في ليلة القدر لإنذار المشركين والعصاة ، وتبشير المؤمنين برضوان الله جاءت هذه الآيات لبيان أحوال المشركين يوم القيامة ، وتأمير رسول الله ﷺ بانتظار هول هذا اليوم ، وتذكير الناس به وحذرهم من اللعب ، والهوى والهذيان في المواقف الجادة .

(٥٠٦)

- ٢ -

موضوع الآيات

تأمر الآيات رسول الله ﷺ بانتظار يوم القيامة فقد ظهرت أماراته ، وبانت أدلته ، وتخوف المشركين من عذابه الأليم الذى سيلحق بهم لأنهم كفروا بالله ، وكذبوا برسول الله ﷺ ، وقالوا عنه ساحر ، ومجنون ، ويعلمه بشر ، وسوف يلقون جزاءهم في الآخرة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى انتظر يا محمد مجئ يوم القيامة فقد قرب مواعده فارتقبه ، ومن علاماته أن المجاعة تسيطر على الناس حتى تؤثر في الجوارح ، وقوى الإنسان ، وتفقد التركيز ، ويرى الجائع كان دخانا منتشرا أمامه جهة السماء وهذا الدخان أكبر علامات قرب الساعة والبعث .

عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال : اطلعنا رسول الله ﷺ ونحن نتذكر الساعة فقال : "إن الساعة لا تقوم حتى تكون عشر : الدخان ، والدجال ، وطلوع الشمس من مغربها ، والدابة ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف في جزيرة العرب ، ونزول عيسى ابن مريم ، وفتح يأجوج ومأجوج ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر"^(١) .

﴿ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى يحيط هذا الدخان بهم من كل جانب ، ويعرفون منه أنه عذاب شديد المضاجع .

﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ أى إن مشركى مكة

(١) السنن الكبرى للنسائي . كتاب التفسير . باب فاتحة الكتاب ج ١٠ ص ٢٥٣ .

وغيرهم يطلبون من الله أن يؤجل عذابهم ، ويرفع هذا الدخان ليؤمنوا ، ويستقيموا ، ويدخلوا في الإسلام ، وينجوا من هذا العذاب الذى حاق بهم .

﴿ اِنِّى لَهُمُ الذِّكْرٰى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُوْلٌ مُّبِيْنٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوْا مُعَلَّمٌ مَّجْنُوْنٌ ۝ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتعجب والإنكار أى كيف يتذكرون ويتعظون ، ويوفون بما عاهدوا عليه رسول الله بعدما هاموا بعد في ضلال كبير . فقد كذبوه واستهزأوا به يوم أن بعث فيهم وبين لهم الدين ، وقالوا عنه : إن غلاما يعلمه أساطير الأولين ، وانه مجنون وكذاب وساحر .

والآية تبين إن التوبة تكون بما ينال الناس من النوائب ، وبما يتضح لهم من الحقائق ، وهؤلاء قد جاءهم رسول كريم الطبع والخلق والسلوك ، وعرفهم بالحق والصواب ، فلم يفقهوا ولم يؤمنوا وقالوا ما قالوا ... وتبين أن الناس لا يوفون بعهودهم كما هو شأنهم ، وأن المجرمين يفرعون من علامات الساعة ، ويحاولون التوبة إلا أن الشيطان سيطر عليهم وأملى لهم .

﴿ اِنَّا كَاشِفُوْا الْعَذَابِ قَلِيْلًاۙ اِنْكُمْ عَايِدُوْنَ ۝ اٰى اِنَّا رَافِعُوْا هٰذَا الضَّرَّ الَّذِى سَاحَلَ بِهِمْ عَنْهُمْ زَمٰنًا يَسِيْرًا كَمَا طَلَبُوْا ، لنرى اِيفاءهم للوعد ... والله يعلم كذبهم ، وخياناتهم ، وأنهم راجعون إلى الكفر مستمرون في المعاصى .

﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرٰىۙ اِنَّا مُنْتَقِمُوْنَ ۝ اٰى اَنَّهُمْ سِيرَجِعُوْنَ لَضَلَالِهِمْ وَكَفْرِهِمْ ، وسننتقم منهم يوم القيامة ، ونأخذهم بشدة وقوة ، وقد أخذناهم في الدنيا يوم "بدر" .

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآيات رسول الله ﷺ أن ينتظر مجئ علامات الساعة ، ومنها دخان يأتى من ناحية السماء ، ففي هذا اليوم يسيطر على الناس عذاب أليم ، وحين

(٥٠٨)

يرى المشركون العذاب ينادون ربهم ليكشفه عنهم حتى يؤمنوا فيرد الله عليهم بأن إيمانهم الآن لا يجوز فقد جاءكم رسول كريم فكذبتموه وسخرتم منه .
إن الله سيكشف عنهم العذاب قليلا لإظهار خياناتهم ، وسينتقم منهم يوم القيامة كما انتقم منهم يوم "بدر" .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

بيان حسرة المشركين يوم القيامة

جاء الإسلام بينا واضحا ، وعرف الناس بدورهم في الدنيا ، ودعاهم إلى طاعة الله تعالى ، والاستعداد للقاء يوم القيامة .
وبين رسول الله ﷺ بعض علامات الساعة ، ومنها ظهور دخان كثيف جهة السماء يفرع القلوب ، ويخيف العقول ، ويحرم الإنسان من التركيز ويكون نذيرا للعذاب الأليم المعد للضالين المكذبين .
وللإنسان طبيعته الحائرة بين عقله الناصح الأمين ، وبين نفسه الأمانة بالسوء ، ولهذا يعيش مذبذبا بين الحق والباطل ، وفي يوم القيامة ينقطع رجاء المشركين ، ويعذبهم الله وينتقم منهم ، ويعاقبهم أشد العقاب .
إن الله يمهّل ولا يمهّل ، وعلى العاقل أن يقدر لنفسه قدرها ، ويتبع سبيل المؤمنين في طاعة الله ، ويعمل على الفوز بجنات النعيم .
إن يوم الحساب عسير ، والوزن دقيق ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(١) .

(١) سورة المدثر ، الآية ٣٨ .

قصة "موسى" ﷺ مع فرعون وقومه

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ أَنْ أَذُودًا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ ^ط إِنِّي لَكُم رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ^ط إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ وَإِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٤﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ ﴿٥﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُولَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٦﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٧﴾ وَاتْرِكِ الْبَحَرَ رَهْوًا ^ط إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٨﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٩﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ ^ط وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ ﴿١٢﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ ^ط الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ ^ع إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتُوهُ مُبِينٌ ﴿١٧﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة إصرار كفار مكة على الكفر وانكارهم الحقائق التي جاءهم بها رسول الله ﷺ جاءت هذه الآيات لبيان أن أهل مكة ليسوا بدعا في الكفر ، فقد سبقهم آل فرعون إلى الكفر والضلال ، وايداء موسى ﷺ .

(٥١٠)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قصة موسى عليه السلام وفرعون وتركز على شدة ضلالهم ،
وتكذيبهم لموسى عليه السلام ، وتوضح ما حل بهم من عذاب الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ أى

ولقد اخترنا المصريين قوم فرعون قبل مشركى مكة ، فأرسلنا إليهم رسولا هو
موسى عليه السلام كريم في حسبه ورسالته يدعوهم بالحسنى واللين ، ويطلب منهم
إطلاق سراح بنى إسرائيل .

﴿ أَنْ أَدُّوْا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ أى أطلقوا سراح بنى

إسرائيل ، واتركوا استعبادهم ، ودعوهم أحرارا فهم عباد الله ، وأنا رسول من الله
إليكم أدعوكم لدينه ، وأنصح لكم ، وأرشدكم إلى الإصلاح والاستقامة بصدق
وأمانة .

﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴾ أى لا تفسدوا

في الأرض ، ولا تطغوا ، ولا تعلوا على الله فتكفرون به ، وتخالفون أمره ،
واطيعونى فأنا أدعوكم إلى الحق ، وأقدم لكم الحجج الواهنة والبراهين الساطعة
على ما أدعوكم إليه .

﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾ أى وانى التجئ إلى الله تعالى

الذى خلقنى وخلفكم ليجنبنى من الايذاء الذى تقومون به ضدى قولا وعملا .

﴿ وَإِنْ لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزِلُونِ ﴾ أى إن لم تصدقونى فيما ادعوكم إليه وبما جئكم به فخلوا سبيلى ، وابتعدوا عني ، ولا تؤذونى بأقبح الألفاظ ، وأسوأ الأعمال ... واتركوا الفصل بينى وبينكم الله تعالى .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ أى اتجه موسى عليه السلام إلى الله بعد أن يؤس من إيمان فرعون وقومه ، وقال : يارب إن هؤلاء قوم سيطرت الجريمة عليهم ، فأصبحوا مجرمين قولاً وفعلاً وسلوكاً وعادة .
ولا تتحدث القصة عن الأحداث الكثيرة التى وقعت ، وتأتى للنهاية وعنها يقول الله تعالى :

﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ ﴾ أى أمر الله موسى عليه السلام أن يترك مصر ، ويسير بقومه ليلاً ، لأن فرعون وجنوده سيتبعونهم للفتك بهم ، وإنما أمرهم الله بالسير ليلاً ليكون سيرهم خفية ، وحتى لا يلحق بهم فرعون وجنوده حين يسيرون خلفهم لإدراكهم بالنهار .
والإسراء هو التنقل في الليل ، وقد أكدّه الله تعالى بقوله : ﴿ لَيْلًا ﴾ لبيان ضرورته في النجاة بأمر الله تعالى .

﴿ وَاتْرِكِ الْبَحَرَ زَهَوًا ﴾ أخبر الله موسى عليه السلام قبل وصوله إلى البحر ، أو عند وصوله إليه بأن يضرب البحر بعصاه لينفلق عن قعره اليابس حتى يعبر منه الإسرائيليون إلى الشاطئ الآخر ، وطمأنه بعد ذلك ، وأمره أن لا يخاف من بقاء البحر بعد نجاتهم منفلقاً أمام فرعون وجنوده لأن الله قدر عليهم الغرق فيه .

والبحر هو خليج السويس الممتد من البحر الأحمر ، وقد أمر الله موسى عليه السلام بأن يتركه مفتوحاً أمام فرعون وجنوده .

﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أى إن فرعون وجنوده سيغرقون فيه وقدتم هذا الغرق بأن سلكوا الطريق الذى انفلق لموسى عليه السلام في البحر ، فلما كانوا في وسطه انغلق البحر عليهم وأغرقهم .

﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَيَكْفُرِينَ ﴿٢٧﴾﴾ "كم" للتكثير إشارة إلى ما تركه الفرعانة في مصر ، فقد خلفوا وراءهم بساتين فيحاء ، وحدائق غناء ، وزروعا ناضرة وقصورا شاهقة ، وبنائات عجيبة عالية .

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخِرِينَ﴾ أى ومثل ذلك العذاب نجعله لكل من يكفر بالله ورسله ، حيث نذهب ملكهم ، ونقضى عليهم ، ونورث سلطانهم لقوم آخرين يأتون بعدهم ... وهذا إنذار لأهل مكة حتى لا يتمادوا في الكفر والضلال .

وقد أورث الله ملك مصر لقوم آخرين استعمروها ، وملكوها .

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أى أهلك الله فرعون وجنوده فما تألم لفراقهم أهل السماء وأهل الأرض لظلمهم وكفرهم وعدوانهم وكانوا يظنون لأنفسهم ذكرا ومنزلة .

﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أى وما أمهلهم الله عند الغرق ، ولم يمكنهم من توبة بعدما تمادوا من الضلال والكبر .

﴿وَلَقَدْ خَجَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٨﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ ؕ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٢٩﴾﴾ أى خلصنا بنى إسرائيل من الاستعباد ، وقتل الأبناء ، وتكليفهم بالأعمال الشاقة ، وغير ذلك من أعمال الإهانة والذل

التي كان يمارسها فرعون معهم ، بجبروته ، وكبريائه ، واسرافه في الظلم والطغيان ، وقد ظهرت نجاتهم بخروجهم من مصر .

﴿ وَلَقَدْ آخَرْتَنَّهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴾ أى وقد اخترنا بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلنا وفضلناهم على عالمى زمانهم ، وهو سبحانه العليم بكل خلقه يقدر لهم ما يريد ، وهو الذى اختار محمدا ﷺ رسولا للناس كافة ، وأمره أن يبدأ بدعوة قومه الذين نزل القرآن الكريم بلغتهم .

﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴾ أى واعطينا بنى إسرائيل من الأمور ذوات الخطر ، وكرمناهم ، ليعتبروا بها بعد نجاتهم من الظلم ، والطغيان ، فقد أهلكنا فرعون وجنوده ، وظللنا عليهم الغمام ، ونزلنا عليهم المن والسلوى ، وجعلنا لهم الأرض المقدسة ، وواجب على من يعطيه الله النعم أن يشكره ، ويقر بقدرة الله ، ووحدانيته ، ويعلم أن من أهلك فرعون وجنده قادر على أن يهلك غيره من الظالمين والطغاة ... وأن من أفاض عليهم بنعمه قادر على نشر نعمه لمن يستحقها من الناس .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات طرفا من قصة موسى ﷺ مع فرعون وقومه ، وتبين المصير الذى آل إليه أمر فرعون وجنده بسبب كفرهم ، وعنادهم ، وطغيانهم فلقد جاءهم موسى ﷺ وأمرهم أن يؤمنوا بالله تعالى ، ويتركوا الاستعلاء والكبر ، واستعاذ بالله منهم ، وحثهم على أن يعتزلوه ، ويبتعدوا عنه إن لم يؤمنوا ... فكفر فرعون ، واستمر في طغيانه ، فأمر الله موسى أن يرحل ببني إسرائيل ليلا حتى لا يدركه فرعون حين يتبعه وجنوده .

(٥١٤)

وقد أمر الله موسى عليه السلام بأن يضرب بعصاه البحر لينفلق عن طريق يابس يعبر منه الإسرائيليون إلى سيناء ، وأمره أن يتركه ليمر فيه فرعون وجنوده لينطبق على الماء وهم فيه فيغرقون ، وقد غرقوا جميعا ، ولم يتألم لهلاكهم أحد.

وقد نجى الله بنى إسرائيل من عذاب فرعون وكبريائه ، وفضلهم بالآيات والنعم ليؤمنوا بالله رب العالمين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

عاقبة الظالمين البوار

من الحقائق التي قدرها الله تعالى إثابة المتقين ، وإحسان مصيرهم وتعذيب الظالمين ، وسوء عاقبتهم .

ولذلك حسن للعقلاء أن يستقيموا على صراط الله المستقيم ، ويتبتعدوا من سبل الضلال ، والفجور ، والكبر ، والاستعلاء .

فلقد جاء موسى عليه السلام إلى فرعون ودعاه إلى الله تعالى وطلب منه تحرير الإسرائيليين ، وعدم تسخيرهم للذل والصغار فأبى واستكبر حتى أهلكه الله وقومه بالغرق ، ونجى الله موسى وقومه ، وصارت قصة فرعون عبرة لأولى الألباب .

رد أقوال أهل مكة في البعث وآيات الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۖ إِنَّمَا هِيَ إِلاَّ مَوْتُنَاُ أَلَّوَلَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۚ ﴿١٦﴾ فَأْتُوا بِآيَاتِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ ﴿١٧﴾ أَهْمُ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ۚ ﴿١٨﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعَيْبٍ ۚ ﴿١٩﴾ مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴿٢٠﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۚ ﴿٢١﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۚ ﴿٢٢﴾ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ ﴿٢٣﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ما حل بفرعون وجنوده جاءت هذه الآيات لبيان موقف أهل مكة من البعث وآيات الله وحذرتهم من الكفر والعدوان حتى لا يحيق بهم ما نزل بفرعون وجنوده .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات إنكار أهل مكة للبعث ، وترد حججهم الواهية ، وتعرفهم بقدرته الله على إحياء الموتى ، ومحاسبة الناس ، وتظهر الأدلة الكونية الدالة على ذلك .

(٥١٦)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴾ "هؤلاء" اسم إشارة لمشركى مكة لإظهار

إنكارهم للبعث ، ورد لمزاعمهم فلقد قالوا :

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ أى ما هى إلا موتة

واحدة نلقاها جميعا ، ولا بعث بعدها ، ولا نشر ، ولا حشر ، ولا حساب .

وقد بنوا إنكارهم للبعث على أمرين :

أولاهما : إن إحياء الموتى مرة أخرى أمر محال بعدما رمت وبليت

وتناثرت فى تراب الأرض .

ثانيهما : تباعد الأماكن والقبور ، وتوزعها على أرجاء العالم الأمر الذى

يجعل حشرها فى مكان واحد أمرا مستحيلا ، ولذلك قالوا : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ

﴾ لاستحالة ذلك .

وقالوا : ﴿ فَأَتُوا بِغَابِئِنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى إن كان البعث حقا

كما تقولون ، فأحيوا آبائنا ، وأعيدوهم إلى الحياة معنا لنعلم إمكانية البعث ،

ونصدق بقولكم .

وانكارهم للبعث باطل ، وأدلتهم واهية لإعادة إحياء الموتى أيسر من

إيجادهم أول مرة .

إن حشر الخلائق بعد خروجهم من قبورهم يقع بقدرة الله التى

لا تخضع لعادة الناس كما حدث فى الإسراء ، وكما تدل عليه معجزات الله

لرسله عليهم السلام .

وأما الإحياء بعد الموت فهو أول مشاهد قيام الساعة ، ولن يكون فى

الدنيا .

وقد رد الله على منكري البعث من كفار مكة بما يلي :

(١) تخويفهم من الهلاك : يقول الله تعالى : ﴿ أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ ؟ ... الاستفهام لإنكار موقف مكة ، وعدم استفادتهم بالإنذار الذى ذكره الرسول لهم ، وخوفهم من أن يلحق بهم الهلاك بسبب كفرهم ، وظلمهم ، ولذلك ذكرهم بهلاك قوم ﴿ تُبْعِ ﴾ (١) الذين أنكروا البعث ، وأبوا الإيمان بالله تعالى فأهلكهم الله تعالى بجرمهم .

والمعنى أنهم ليسوا خيرا من قوم تبع ، ولا خيرا من الأمم الذين استأصلهم الله تعالى .

إن الظلم والكفر هما سبب هلاك الأمم السابقة وسبب هلاك الأمم بعد ذلك .

(٢) دقة خلق السموات والأرض : يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴾ أى لم نخلق السموات والأرض

(١) وقوم "تبع" : وتبع بضم الميم وتشديد الموحدة لقب لمن يملك جميع بلاد اليمن حميرا وسبأ وحضرموت ، فلا يطلق على الملك لقب "تبع" إلا إذا ملك هذه المواطن الثلاثة . قيل سموه تبعا باسم الظل لأنه يتبع الشمس كما يتبع الظل الشمس ، ومعنى ذلك : أنه يسير بغزواته إلى كل مكان تطلع عليه الشمس ، وقيل لأنه تتبعه ملوك مخاليف اليمن ، وتخضع له جميع الأقبال والأدواء ، فلذلك لقب تبعا لأنه تتبعه الملوك .

وتبع المراد هنا المسمى أسعد والمكنى أبا كرب ، كان قد عظم سلطانه ، وغزا بلاد العرب ودخل مكة ويثرب ، وبلغ العراق .

ويقال : إنه الذى بنى مدينة الحيرة في العراق ، وكانت دولة تبع قبل بعثة النبى ﷺ بزمان طويل .

وما فيهما عابثين لاهين ، وانما جعلنا الخلق على حكمة عالية ، وتقدير دقيق ولكل شئ غاية ومستقر ، ومن ذلك أن من ظلم يعاقب بظلمه ، ويجزى به فى الدنيا والآخرة .

﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى ما أوجدنا السموات والأرض وما فيهما إلا لغايات عليا ، وأهداف سامية ، مثليسة بالحق والصدق إلا أن أكثر المشركين لا يدركون ذلك .

(٣) تحديد وعد الله بالحساب والجزاء : يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ يَوْمَ

الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يؤكد الله أن يوم القيامة آت لا ريب فيه ليفصل الله بين الخلائق فيحق الحق ، ويبطل الباطل ، ويجازى كل إنسان بما يستحق .

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ فى يوم القيامة لا ينفع الإنسان إلا عمله وصدقه مع الله ، وبهذا لا ينتفع بقريب ولا بشفاعه شفيع ، ولا بنصر نصير .

﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أى أن الذى يفوز فى الآخرة هو من رحمه الله ، وقبل عمله الصالح فى الدنيا ، والله غالب قادر وهو الحكيم الخبير .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن مشركى مكة ينكرون البعث، ويرون استحالتها، وهذا ضلال منهم، لأن الله قادر على كل شئ فقد خلق السموات والأرض وما بينهما، وبين أن يوم الفصل لا ريب فيه ليفصل بين العباد، ويجازى كل نفس بما عملت

(٥١٩)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

إنكار البعث جحود لا برهان معه

علم الله محيط ، وقدرته شاملة ، والخلق جميعا يرون مشاهدة قدرة الله فى هذا الوجود الذى أوجده الله من عدم .

إلا أن الكافر جاحد للحق كالأعمى الذى ينكر طلوع الشمس فى وضوح النهار ... والجاحد منكر للحقيقة العقلية المجردة التى تؤكد السبب والمسبب ، والأثر والمؤثر ، والفاعل والمفعول ، ولو بحث عن الخالق الموجد لهذا الكون لعلم إنه الله رب العالمين .

إن كل حادث لابد له من محدث ، ولا مجال للصدفة فى الإيجاد ، ولن يجد الشئ نفسه ، ولا يستطيع إنسان ما أن يحيى خلية ميتة ، ولا مجال للتلقائية فى الإيجاد ... ولا سبب للخلق إلا الله رب العالمين .

وقد أنكر كفار مكة البعث ، وأحياء الموتى من قبورهم بعد أن صاروا رميما وترابا ، ونسوا قدرة الله البادية فى خلق السماء والأرض وما بينهما ، ولم يتأملوا قدرة الله حين أهلك المشركين قبلهم ، وعلى رأسهم قوم تبع لشركهم وفسوقهم .

إن يوم القيامة ضرورى لتحقيق العدل بين الناس ، والفصل بين المؤمنين والكافرين .

إن كثيرا من الناس يتركون الدنيا ، وكانوا فيها ظالمون معتدون وكان لابد من الاقتصاص منهم لينال كل إنسان آثار عمله .

مشاهد الخزى للمشركين يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿١٢﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿١٣﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿١٤﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿١٥﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿١٧﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿١٩﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات مصير المشركين الذين ينكرون البعث جاءت هذه الآيات لبيان مشاهد الخزى والهوان التى يعيشها الكافرون فى نار جهنم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن أصحاب الجحيم يأكلون من شجر الزقوم ، وهى نار مشتعلة تدخل فى بطونهم مع نيران أخرى تحيط بهم من كل جانب .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿١٢﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿١٣﴾ ﴾ أى إن هؤلاء المشركين المنكرين لليوم الآخر يأكلون فى الآخرة من ثمر شجرة الزقوم المعلومة لهم ف ﴿ طَلَعَهَا كَأَنَّهٗ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ ^(١) .

(١) سورة الصافات ، الآية ٦٥ .

﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴾ ﴿ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴾ أي ثمر

الزقوم يشبه دردى الزيت الأسود يغلى فى بطون الكفار كغلى الماء الحار إذا اشتد غليانه .

﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴾ أي يقال لخزنة النار : خذوا هذا

المجرم فادفعوه دفعا إلى وسط جهنم ، لينال نصيبه من العذاب .

﴿ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴾ أي يقال لخزنة النار

بعد أن يدخل المجرم جهنم صبوا فوق رأسه الماء المغلى الساخن ثم يقال لهم سخرية منهم : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ أي يقال للمجرم استهزاء به : ذق الذل ، والعذاب ، والهوان اليوم فقد كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم ، واليوم ثبت أنك أنت الدليل المهان .

﴿ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾ أي إن هذا العذاب كنتم تنكرونه

وتشككون فى وقوعه ... واليوم هو حقيقة واقعة ترونها ، وتعيشون فيها .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المشركين الذين كانوا ينكرون البعث سيأكلون من شجر الزقوم حيث تمتلئ بطونهم بنار جهنم ، ويجدون نارا تحيط بهم من كل جانب ويصب الماء المغلى فوق رؤوسهم ، ويستهزئ الله بهم وهم يعذبون ، ويذكرهم بأن يوم القيامة حق ترونها اليوم ، وكنتم تشكون فيه قبل ذلك .

(٥٢٢)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

سوء مصير الكافرين

خسر الكافرون دنياهم وأخراهم ، فهم فى الدنيا كفروا بالله الذى خلقهم ، وغفلوا عن الآيات والبراهين .

وفى الآخرة سينالون العذاب الأليم الذى أعده الله لهم فهم يأكلون من شجر الزقوم طعام الأثيم ، ويملأون بطونهم بنار الجحيم ، ويصب عليهم العذاب صبا ، ولا يجدون لهم معينا ولا نصيرا ، والله ولى الصالحين .

علو مقام المتقين فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ تَحْتِهِ سُنْدُسًا وَإِسْتَبْرَقًا مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٩﴾ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٦٠﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا أَلَمَ مَوْتٍ إِلَّا أَلَمَ مَوْتِ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَّعْنَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٦١﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٦٤﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة سوء مصير المشركين فى الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان علو مقام المتقين فيها .

(٥٢٣)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات المقام العالى الذى يلقاه المؤمنون فى جنات النعيم حيث المسكن الكريم ، واللباس الطيب ، والزواج بالحرور العين ، والطعام والشراب الطيب ، وعيشتهم الدائمة فى هذا النعيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أى إن المتقين الذين عاشوا فى الدنيا عبادا لله مخلصين له الدين يكونون فى الآخرة فى مقام عظيم ظاهر ، أنعم الله عليهم به ... ومنه :

- سكنهم الجنة فهم يقيمون فى ﴿ مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ فى جَنَّتٍ

وَعُيُونٍ ﴿ وذلك نعيم مقامهم ومسكنهم حيث جمال المكان ، تحيط به الخضرة ومياه العيون الجارية .

- ونعيم أجسادهم عظيم فهم ﴿ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ وهو مكون من السندس وهو الحرير الرقيق الناعم ، ومن الاستبرق وهو الديباج الغليظ من الثياب الذى يظهر به صاحبه .

- ونعيم الصحبة فهم يصاحبون المؤمنين ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أى يجلس المتقون مع المؤمنين يتحدثون .

- ونعيم الزوجة فهم يتزوجون من الحرور العين . يقول الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أى مع النعم السابقة يزوجهم الله بالحرور العين بما يتميزون به من جمال وخلق ، ودين .

– ومن نعيم الآخرة حسن المطعم . يقول الله تعالى : ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا

بِكُلِّ فَيْكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ أى إن أى فاكهة يريدونها تأتيهم بأمن ،

وهدوء واستقرار .

– ومن نعيم الآخرة الثقة فى استمرار فضل الله عليهم بالحياة الدائمة فى

الجنة ، فهو لا يموت مرة ثانية ، ولن يخرج الله من الجنة . يقول الله

تعالى : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ .

يقول النبى ﷺ : "يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة

والنار ثم يذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، يا أهل النار

خلود فلا موت" (١) .

وعن أبى هريرة ؓ عن النبى ﷺ قال : "ينادي مناد : إن لكم أن تصحوا

فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تحيو فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا

تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تتعموا فلا تبأسوا أبدا" فذلك قوله عز وجل :

﴿ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى يقى الله المتقين عذاب جهنم ،

ويعطيهم ما يريدون .

﴿ فَضَلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى ذلك الذى يعطيه

الله للمتقين فى الآخرة هو فوز عظيم يتفضل الله عليهم به .

(١) المعجم الصغير للطبرانى ج ١ ص ١٤٠ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب الجنة وصفة نعيمها . باب فى دوام نعيم أهل الجنة ج ٤ ص ٢١٨٢ .

(٥٢٥)

﴿ فَإِنَّمَا يَسِّرْنَاهُ لِبَلْسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أى إنا أنزلنا القرآن الكريم
بلسان عربى لتفهمه ، ويفهمه قومك عسى أن يعلموا ، ويتذكروا ويؤمنوا .
﴿ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴾ أى فانتظر نصر الله لك فإنهم منتظرون
هزيمتك ، والله غالب على أمره .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المتقين ينعمون فى الآخرة مقاما ، وملبسا ، وزواجا ، وصحبه ،
ويأتيتهم ما يشاءون من شراب وطعام ، ويخلدهم الله فى النعيم ويحيطهم برحمته
وفضله ... وقد أنزل الله القرآن الكريم ميسرا ليدوم أثره فى الناس .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عظمة القرآن الكريم

أكرم الله الناس بالقرآن الكريم ، فأنزله وحيا إليهم ، وجعله مصدر الهدى ،
ودستور النجاح والفلاح .

وخصه بالإعجاز فى لفظه ومعناه ليعلم الناس أنه كلام الله تعالى .
ومن رحمة الله بالناس أن يسر القرآن الكريم على قلوب الناس ، فسهل
حفظه ، وعظم قراءته ، وأبقى نظمه سامية راقية فى إسعاد الناس فى الدنيا وفى
الآخرة .

(٥٢٦)

الركيزة الثانية

حسن عاقبة المؤمنين

تبين الآيات حسن جزاء المؤمنين بمقامهم فى جنات النعيم ، ولباسهم من سندس واستبرق ، وأزواجهم حور عین ، وأمنهم دائم ، وسعادتهم كاملة بسبب إيمانهم ، واستقامتهم وأعمالهم فى الدنيا ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون

❖ ❖ ❖

إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الدخان" بتوفيق الله تعالى .

سورة "الجاثية"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٥٢٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٢٩)

- أولا -

التعريف بسورة "الجاثية"

أجمع المفسرون على أن سورة "الجاثية" مكية .

وتسمى السورة بـ "حم الجاثية" لوقوع لفظ "الجاثية" فيها ، وتسمى سورة "الجاثية" بعد حذف "حم" .

وتسمى السورة "شريعة" لوقوع لفظ شريعة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ ﴾^(١) .

وتسمى سورة "الدهر" لقوله تعالى فيها : ﴿ وَمَا يُمْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۖ ﴾^(٢) .
وقد نزلت السورة بعد سورة "الدخان" .

والسورة وثيقة الصلة بسورة "الدخان" فهما معا من "آل حم" .

وقد بدأت سورة "الدخان" ، وختمت بذكر القرآن الكريم ، وبدأت سورة "الجاثية" بذكر القرآن الكريم وبيان عظمتة ، ففي سورة "الدخان" يقول الله تعالى : ﴿ حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۖ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ ﴾^(٣) ، ويقول : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ۝ ﴾^(٤) .

وفى سورة "الجاثية" يقول الله تعالى : ﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ ﴾^(٥) .

(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٤ .

(٤) سورة الدخان ، الآية ٥٨ ، ٥٩ .

(١) سورة الجاثية ، الآية ١٨ .

(٣) سورة الدخان ، الآيات ١ ، ٣ .

(٥) سورة الجاثية ، الآية ١ ، ٢ .

(٥٣٠)

وموضوعات سورة "الجاثية" هى موضوعات السور المكية فعن التوحيد يقول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾^(١) .

وعن الرسل ... يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنَى إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) .
وعن اليوم الآخر ... يقول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴾^(٣) .

وعن الكتب ... يقول الله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾^(٤)
وتتضمن هذه الحقائق الإيمانية الإيمان بالملائكة فهم جنود الله إلى الناس وهم حاملوا الوحي ، وهم الحفظة الكرام الكاتبون .
وقدمت السورة موضوعها فى أسلوب بديع واضح .

(١) سورة الجاثية ، الآية ٢٧ .

(٢) سورة الجاثية ، الآية ١٦ .

(٣) سورة الجاثية ، الآية ٢٧ .

(٤) سورة الجاثية ، الآية ٢ .

(٥٣١)

- ثانيا -

- التفسير -

آيات الله فى الكون والحياة

يقول الله تعالى :

﴿ حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٩﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم لإصلاح شئون عباده ، ويسر لهم المعاش فى كونه الذى خلقه لهم ، وجعله برهانا أمامهم يدل على ألوهيته ليعبدوه وحده .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ بدأت السورة كأخواتها من "آل حم" بالحرفين المقطعين (الحاء والميم) لتدل على ما دلت عليه سائر الحروف المقطعة التى نزلت فى أوائل السور ، وأساس ما تدل عليه هذه الحروف إثبات إعجاز القرآن الكريم ، وتأکید أنه كلام الله ، وتوجيه الدعاة والمربون إلى ضرورة تنبيه المخاطبين والمستمعين ، وإيقاظ مداركهم ومشاعرهم

ليعوا ما يقال لهم ، واطهار عجز البشر جميعا أمام قدرة الله جميعا ولو اجتمعوا .

وتدل الحروف المقطعة على فائدة التكرار فى الدعوة ، لأن التكرار يبين المعنى ، ويثبت فى الأذهان ، ويوضح صدق القضية ، وأهميتها ، والإلحاح فى عرضها ، والاقناع بها ... ولهذا تكرر مجئ الحروف المقطعة فى عديد من السور القصيرة ، والمتوسطة ، والطويلة ... وتكرر معها ذكر عظمة القرآن الكريم المنزل من عند الله رب العالمين .

إن الإلحاح فى الطلب ، والإصرار على الحق يؤدى إلى الحصول عليه وطارق الباب المحتاج يستمر فى دقه حتى يفتح له .

إن على المؤمنين أن يتيقنوا أن الله أنزل عليهم فيصل الأمر فى كتابه المنزل ، وجعل له الهيمنة ، والحكم ، والقيادة ، وحفظه لقيادة الدنيا ، وأخذ الناس لله رب العالمين .

وعلى المسلمين أن يعلموا منزلة القرآن الكريم ، فهو كلام الله تعالى نزل به الروح الأمين على رسول الله المصطفى ﷺ ، وقد أبقاء الله أمانة عند المسلمين ليحافظوا عليه ، ويؤدوا له حقه ، ويستقيموا على منهج الله تعالى ، فهو سبحانه الغالب ، ليس كمثل شئ ، الحكيم الذى ينزل للناس ما فيه مصلحتهم فى الدنيا وفى الآخرة .

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى خلق الله لعباده

ما يفيدهم ، وينفعهم فى الكون الذى خلقه ، فها هى السموات وما فيها من أفلاك ونجوم ، وها هى الأرض وما فيها من بحار وسهول ، ووديان وجبال قد امتلأت بالآيات والعلامات الدالة على قدرة الله تعالى ، يستفيد بها المؤمنون

(٥٣٣)

لأنها توصلهم إلى الله تعالى ، وتعرفهم بالواجب عليهم لمن خلقهم ، وهم أولو الألباب الذين يسمعون ، ويعقلون ، ويصدقون .
أما غير المؤمنين فإنهم يمرون بالآيات ، ولا يستفيدون بها .

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أى جعل الله لكم أيها المؤمنون آيات فى أنفسكم ، وفى خلق كل ما يدب ، ونشرها فى الأرض لتعرفوا الله ، وتؤمنوا به ، وتكونوا من الموقنين الذين ينظرون إلى الحقائق ، ويميزونها عن الباطل ، ويؤمنون بخالق الإنسان والدواب وكل شئ .

﴿ وَأَخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى وفى اختلاف الليل والنهار ، وتعاقبهما ، وفى نزول المطر لإحياء الأرض ، وإخراج النبات ، وفى توزيع الأرزاق للعباد والدواب ، وفى تصريف الرياح وتنوعها ، واتجاهاتها آيات وبراهين تشهد على قدرة الله تعالى ، وتكون برهاناً أمام العقل للإيمان بالله العظيم .

إن آيات الله عديدة ، فمنها الآيات التنزيلية التى أوحى الله بها لرسوله ﷺ ليقرأها على الناس محكمة مفصلة لتكون دليلهم إلى الله تعالى .
ومنها الآيات الإنسانية البادية فى خلق الإنسان نفسه فى أطوار شتى لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

ومنها الآيات المحيطة بالإنسان فالماء ، والدواب ، والزرع ، والنبات مخلوقات لله تحيط بالناس ، ولولاها ما وجدت حياة .
ومنها الآيات فى الكون البعيد كالسموات والأرض ، وهبوب الرياح ، وهى مع بعدها ضرورة لحياة الإنسان .

(٥٣٤)

إن الله أعطى للإنسان وسائل الإدراك ، ومكنه من التصور والحكم وعرفه بالطريق إلى الله تعالى .

إن طاقات الإنسان الإدراكية توصله إلى الفهم والتعقل ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وبعد الفهم والتصور ، والتحليل يصل الإنسان إلى اليقين ولذلك كانت الآيات ﴿ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

وبعد الوصول لليقين يكون الإيمان ، ولذلك كانت الآيات فى النهاية ﴿ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى هذه آيات القرآن الكريم يتلوها جبريل عليك يا محمد بالحق والصدق ، وهى علامة وحجج ، وبراهين على وجود الله ، وعلى وحدانيته ، وعلى إثبات كافة صفاته سبحانه وتعالى ، وهذه الآيات المتلوة توجه إلى كافة الآيات الإنسانية والكونية .

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى يتعجب الله فيه من عدم إيمان المشركين ، وقد نزل فيهم القرآن الكريم ، وهو كلام الله إليهم ، كما عرفهم بآياته الإنسانية والكونية التى توصل إلى الإيمان واليقين ، ولذلك كان التعجب والسؤال من عدم الإيمان بعد ظهور هذه الآيات .
إن كفر المشركين موقف عجيب حقا لأن العلم بهذه الآيات المشاهدة فى واقع كل إنسان يوصل إلى الإيمان ... ولذلك كان التعجب الشديد من عدم إيمان المشركين .

(٥٣٥)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل الكتاب مشتملا على الآيات والبراهين الدالة عليه سبحانه وتعالى ، وخلق الإنسان والكون وأودع فيها آيات تدعو إلى الإيمان ، وقد خلق الله هذه الآيات للناس جميعا إلا أن الذى يستفيد بها قوم يعقلون ، ويفهمون ، وتتعجب الآيات من قوم لا يؤمنون بالله بعد ظهور الآيات .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بيان عظمة القرآن الكريم

الحروف المقطعة فى أوائل السور التى بدأت بها شاهدة على عظمة القرآن الكريم ، وإثبات أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وهذا الواقع يبين عظمة القرآن الكريم من نواح عدة :

(١) إنه كلام الله الذى بلغه جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ بلفظه ومعناه ، فمن أراد أن يسمع كلام الله فليسمع كلمات القرآن ، ومن أراد أن يتصل بالله فليقرأ القرآن الكريم ليعود إلى مراد الله منه ، ويرى نفسه فى إطار القرب أو البعد عن الله تعالى .

(٢) إنه الكتاب المعتمد به بين سائر الكتب المنزلة ، وإذا أطلق اسم الكتاب ينصرف إليه ، وقد جعله الله مهيمنا على سائر الكتب .

(٣) إنه الكتاب الذى ينشر فى الناس آثار صفات فائله فאלله عزيز ، حكيم ، عدل ، رحيم ... إلى آخر صفات الله تعالى ، ولذلك يدعو القرآن الكريم إلى عزة المؤمنين ، ويحث على الالتزام بالحكمة ، وينادى بالعدل ،

(٥٣٦)

وينشر الرحمة بين الناس ، وهكذا يتحول المجتمع المؤمن إلى صورة ربانية فى القول والعمل والخلق .

(٤) إنه الكتاب المصاحب للحق والصواب فقد نطق بكل كمال يليق بالله تعالى ، وبرسله جميعا ، وهو الذى ينشئ الفرد بالحق ، ويؤسس المجتمع على صواب .

هذه بعض عظمة القرآن الكريم ، ومسئولية الأمة أن تهتم به ، حفظا وفهما وعملا ، وأن يقيموا حياتهم العامة والخاصة على تعاليمه ، ليسعدوا فى الدنيا وفى الآخرة .

الركيزة الثانية

الآيات شواهد على الإيمان

تعرض الآيات عددا من آيات الله للدلالة على الإيمان بالله تعالى التى يقر بها العقلاء والموقنون ، وقد دارت الآيات حول جوانب رئيسية هى :

الجانب الأول : آيات الله فى النفس حيث الدلالات على قدرة الله تعالى فى كل نفس بشرية ، نرى هذه الآيات فى كل جزئية ظاهرة أو خفية تدل على الخلق المعجز فى النفس البشرية .

الجانب الثانى : المخلوقات الكبيرة مثل السماء والأرض وما فىهما وكل ما فى هذه المخلوقات شاهد على قدرة الله تعالى .

الجانب الثالث : الآيات الفلكية المتصلة بالكواكب والنجوم ، والليل والنهار ، والمطر والهواء ... ولها دلالتها على قدرة الله تعالى .

وهذه الجوانب تعد عدة الدعاة لنشر الإيمان لما لها من تأثير كبير فى القلوب والعقول .

(٥٣٧)

إن الإنسان يتأثر من أى عجيب مدهش ، وما أدهش عجائب المخلوقات
حين تصل إلى العقول بأسرارها ، وقوتها ، ودورها فى المجال الذى
وجدت فيه .

الركيزة الثالثة **معونة الله للدعاة**

الدعوة إلى الله واجبة على الأمة ، وعلى العلماء والدعاة ، وهذا الواجب
عمل شاق يحتاج إلى الجهد ، والعمل ، والصبر .
إن الدعوة إلى الله تعنى صناعة إنسان على الخير ، وتصفية القلوب من
غيش الظلم والظلمات ... ومن المعلوم أن صناعة الإنسان هو أصعب
الصناعات وأشقها ، وأكثرها حاجة إلى الإقناع والبيان للوصول إلى القلوب
والعقول .

وعلى الدعاة :

أن يستمروا وينشطوا فى مهمتهم الشاقة طاعة لله تعالى ، وامتنالا للواجب
، والله معهم .

الهلاك للمشركين

يقول الله تعالى :

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابُ مُّهِينٍ ﴿٩﴾ مِّنْ وَرَائِهِم جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۚ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِءَايَاتِ رَبِّهِمْ هُمُ عَذَابُ مِّنْ رَّجَزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المشركين كفروا بآيات الله التي بثها في النفس والكون والحياة جاءت هذه الآيات لبيان العذاب الأليم الذي سيناله المشركون فقد جحدوا الآيات وكفروا بالله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات العذاب الذي يستحقه كل كذاب ، معتد ، متكبر ، متصرف عن سماع الحق ، والوصول إليه ، وسوف يحاسبهم الله على كفرهم وظلمهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أى هلاك شديد متنوع يناله كل كذاب ، شديد الكذب معتد ظالم فى عمله وسلوكه .

﴿ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾

أى إن هذا المتكبر يصر على الكفر ، ولا يفكر فى الآيات الكونية ، ولا يتدبر فى القرآن الكريم فهو يسمع آيات القرآن الكريم حين تتلى عليه ، إلا إنه ينصرف عن تدبر معناها ، وفهم دلالتها كأنه لم يسمعها ، ويصر على تعنته ، وكبريائه .

﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى فبشر يا محمد هؤلاء المستكبرين بالعذاب

الأليم الذى يهينهم ويذلهم ... والآية تتهم بالمشركين فتسمى العذاب بشرى .

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أى إن المشرك كان إذا

علم خبرا عن الآيات القرآنية ، أو سمع عنها استهزأ بها ، وسخر منها .

ومن هذه السخرية ما فعله أبو جهل حين سمع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ

شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ ^(١) فإنه دعا بتمر وزيد ، وقال

لأصحابه : تزقموا من هذا ، ما يعدكم محمد إلا شهدا ...

وحين سمع أبو جهل قوله تعالى عن خزنة النار : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ^(٢)

قال : إن كانوا تسعة عشر فأنا القاهم وحدى ...

إن الضالين يتعمدون الاستهزاء بآيات القرآن الكريم مع أنهم يصدقون به

ويقرون بأنه كلام الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿ وَلَيْكِنَّ الظَّالِمِينَ بِءَايَاتِ اللَّهِ

يَجْحَدُونَ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة الدخان ، الآية ٤٣ ، ٤٤ .

(٢) سورة المدثر ، الآية ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٣٣ .

(٥٤٠)

﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى إن هؤلاء المتكبرين الكافرين قد أعد الله لهم عذابا أليما يهينهم ، ويذلهم ، وهو جزاء من نوع جرمهم فقد استهزأوا بآيات الله ، وتكبروا ، فأذلهم الله وأهانهم .

﴿ مِّنْ وَرَائِهِم جَهَنَّمُ ﴾ أى ومن وراء عذابهم المعد لهم جهنم بما فيها من سعير وجحيم .

﴿ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا ﴾ أى ولن ينفعهم ما كسبوه فى الدنيا من مال وولد .

﴿ وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ أى ولن ينفعهم يوم القيامة الأصنام والأوثان التى عبدوها من دون الله تعالى .

﴿ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى وقد أعد الله للمكذبين عذابا عظيما مؤلما جزاء كفرهم وسفهم .

﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾ أى هذا القرآن الكريم الذى أنزلناه للناس هاديا إلى الحق ، ومرشدا إلى الصراط المستقيم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أى والذين جحدوا آيات الله وكفروا بالله تعالى لهم عذاب أليم يذلهم ، ويخزيهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أعد للكافرين الذين يسمعون آيات الله وينكرونها ، ويستهزئون بها ، ويعملون السيئات عذابا أليما يعادل ضلالهم وكفرهم .

(٥٤١)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

تمرد المشركين على طاعة الله

طريق الحق مستقيم ، وضوؤه منير ، وبراهينه بيّنة ، يعرفه أصحاب النهى ، ويسير فيه كل من رضى بالصلاح والهدى ... إلا أن المشركين يغمضون أبصارهم ، ويصمون أسماعهم ، ويسعون إلى السوء وهم بما فيه يعلمون .

يحبون الكذب والاختلاق ، ويجرون خلف أصنامهم لينصروهم ، وهم على ضلال مبين .

إن آيات القرآن الكريم تتلى عليه ، ويسمعا ، ويفهما المشرك ، ثم ينصرف عنها كأنه لم يسمع شيئاً ويتمسك بكبريائه ، وإذا علم شيئاً من آيات الله فى نفسه ، أو فى خلق آخر يستهزئ بها ، ويسخر منها .

إن المشركين يعملون ضد دين الله تعالى فى كبرياء وغلو ومعهم شياطين الإنس والجن ، ولا يستحقون إلا العذاب المؤلم ، المهين العظيم الذى يستحقونه ، فويل للذين كفروا من عذاب جهنم ، وبئس المصير .

دلائل القدرة فى المخلوقات

يقول الله تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿٥﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

عن ابن عباس قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال يهودى بالمدينة يسمى فنحاصا : احتاج رب محمد . فلما سمع عمر بذلك اشتغل على سيفه ، وخرج فى طلبه . فجاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : إن ربك يقول لك : ﴿ قُلِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ فبعث رسول الله ﷺ فى طلب عمر .

فلما جاءه عمر قال ﷺ : يا عمر ضع سيفك . قال عمر : يا رسول الله صدقت . أشهد إنك أرسلت بالحق ، ثم تلا رسول الله ﷺ الآية .

فقال عمر : لا جرم والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب فى وجهى (١) .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ١٥١ .

(٥٤٣)

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة العذاب الذى أعده الله للمستكبرين المكذبين جاءت هذه الآيات لبيان البراهين الكونية التى خلقها الله وسخرها للناس ، وأحاطهم بها ليتفكروا فيها ، ويؤمنوا بها ...
وتأمر الآيات المؤمنين بالعفو والصفح عن الكافرين ، ويعلموا أن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات بعض الله التى أكرم بها عباده وسخرها لهم ، ومنها البحر وكل ما فى السموات والأرض ، وقد جعلها الله أدلة للإيمان به سبحانه وتعالى ليفكروا فيها ، ويعتبروا بها .
وتأمر الآيات المؤمنين أن يعفوا عن المشركين ، ويعلموا أن من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وأن الجميع سيرجع إلى الله تعالى للحساب والجزاء .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ أى إن الله هو الذى هو يستحق العبادة وحده فقد خلق البحر ، وأجرى السفن فوقه حامله الأتقال والمتاع لنقلها من مكان إلى مكان ، لتستفيدوا بما تستخرجون منها من لآلى ، وجواهر ، وبما تصطادون

(٥٤٤)

من السمك ، وبما تستخرجون من أملاح ومعادن ، عسى أن تعرفوا من هذا فضل الله تعالى وتعبدوه ، وتشكروه بالقول والعمل .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى وذل الله لكم كل خلقه فى السموات

وفى الأرض لتكون آيات وبراهين للعقلاء يتفكرون فيها ، ويقفون على دلالاتها الهادية إلى صراط الله المستقيم ، وقد استفاد المؤمنون بهذا التوجيه .

عن طاوس رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه

فسأله : مم خلق الله الخلق ؟

فقال : من الماء ، والنور ، والظلمة ، والهواء ، والتراب .

قال : فمم خلق هؤلاء ؟

قال : لا أدرى .

ثم أتى الرجل عبد الله بن الزبير رضي الله عنه فسأله ، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو .

فأتى ابن عباس فسأله : مم خلق الخلق ؟ فقال : من الماء ، والنور ، والظلمة

والريح والتراب ، قال : مم خلق هؤلاء ؟

فقرأ ابن عباس : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

مِّنْهُ ۚ ﴾ .

فقال الرجل : ما كان ليأتى بهذا إلا رجل من أهل بيت النبوة^(١) .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ أى قل

يا محمد للذين آمنوا بالله ، وصدقوا برسوله ، وتمسكوا بما جاء من عند الله تعالى

(١) تفسير المراغى ج ٢٥ ص ١٤٧ .

(٥٤٥)

، قل لهم أن يسكنوا عن الكافرين الذين ينكرون اليوم الآخر ويدعون أمرهم إلى الله تعالى .

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى قل للمؤمنين يغفروا للكافرين الذين ينكرون اليوم الآخر لأن الله سيجازى كل إنسان بعمله ، فاصبروا أيها المؤمنون على الأذى ، واعفوا عن ظلمكم ، ولا تردوا العدوان بمثله . يقول الله تعالى : ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١) .

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ^ط وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أى إن الله يجازى كل إنسان بعمله ، فمن عمل صالحا فثواب عمله لصاحبه ، ومن عمل سيئة فعقوبة سيئته يعود على فاعلها .
﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أى أنكم جميعا راجعون لله للحساب والعقاب .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله سخر البحر لتسير فوقه السفن تحمل أثقالكم وتنتقلون بها من مكان إلى مكان ، وسخر لكم ما فى السموات ، وما فى الأرض لتفكروا ، وتعقلوا ، وتؤمنوا ... وتكلف الآيات رسول الله أن يأمر المؤمنين ليغفروا ، ويسامحوا المتكبرين المنكرين للبعث ، ويصبروا على أذاهم ليفوزوا فى الآخرة يصبرهم وعملهم الصالحات ، لأن الجزاء فى الآخرة تابعا للعمل الدنيوى .

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٤ .

(٥٤٦)

- ٦ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

بيان فضل الله على الناس

أكرم الله الإنسان ، وفضله على كثير من خلقه ، وسخر له كافة المخلوقات ، فجعل الملائكة تحفظه بأمر الله تعالى ، ... وسخر الماء والهواء والشمس والقمر ، والليل والنهار لخدمته ، وتحقيق مصالحه .

لم يكن الإنسان ليعيش فى الدنيا لولا المخلوقات التى أوجدها الله تعالى ونزلها للناس ، وأبقاها فى عملها الذى هداها له بلا توقف أو قصور .

والعاقل من الناس من يتأمل فى خلق الله ، ويصل إلى ضرورتها له ، ويعرف فضل الله عليه ، ويؤدى ما وجب عليه الله رب العالمين .

إن الله ينصر عباده المؤمنين ، ويرفع شأنهم ، ويضاعف حسناتهم ، ويدعوهم إلى التسامح مع خصومهم ، ويدعوا الفضل لله ، يحكم بينهم بالعدل وما ريك بظلام للعبيد .

عبرة لرسول الله من قصة بنى إسرائيل

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦١﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مَن بَعْدَ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦٣﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٦٤﴾ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٦٥﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ما سخره الله للناس في السماء ، والأرض ، والبحر جاءت هذه الآيات لبيان ما أنعم الله به على بنى إسرائيل ، ومدى جودهم لهذه النعم ، وفسادهم أمور الحياة تسلياً لرسول الله ﷺ .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أنعم على بنى إسرائيل بالكتاب ، والنبوة ، والحكم ، وسعة الرزق ، والتفضل على العالمين ، والفصل في الأحكام ، إلا أنهم لم يشكروا الله على ذلك ، وكفروا بالنعم وجحدوا حق الله تعالى ، واختلفوا في دين الله تعالى بعدما جاءهم الوحي ، وعلموا منه دين الله تعالى .

(٥٤٨)

وتبين الآيات أن الله يقضى فيهم يوم القيامة بالعدل ، وتسلى رسول الله ﷺ وتأمره باتباع ما شرع الله له ، وعدم اتباع الهوى ، وعدم طاعة الجاحدين ، واتباع طريق الاستقامة على منهج الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

امتن الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل بما أنعم عليهم من فضله عليهم ، وذكر من هذه النعم ما يلي :

(١) إنزال التوراة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴾ أى آتينا موسى ﷺ التوراة ، ونزلناه عليه نورا وهدى لهم ، وذلك نعمة كبرى لأن نزول كتاب من الله لأمة ما يشير إلى عناية الله بهذه الأمة ، كما يوضح أن اتباع هداية الله هى طريق نجاح هذه الأمة لأن الله عالم الغيب ، وهو اللطيف الخبير .

(٢) التكليف بالحكم والسلطان :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالْحُكْمَ ﴾ أى مكنا لبنى إسرائيل معالم الهدى ، وعلمناهم أصول الشريعة ، وجعلناهم سادة الناس .

(٣) اختيارهم للرسالة :

يقول الله تعالى : ﴿ وَالنُّبُوَّةَ ﴾ أى جعلنا فى بنى إسرائيل الأنبياء يدعونهم إلى الدين الذى جاء به موسى ﷺ ، ... فقد كثر أنبياءهم ، وتتابعوا بعد موسى ﷺ .

(٤) تيسير الرزق الطيب لهم :

يقول الله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى أعطينا بنى إسرائيل الرزق الطيب ، والموطن المقدس ، ويسرنا لهم العيش الرغيد ، وأنزلنا عليهم المن والسلوى ، وأكثرنا لهم الخيرات .

(٥) تفضيلهم على الناس :

يقول الله تعالى : ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أى أكرمنا بنى إسرائيل بالرسالة ، ومكنا لهم فى الأرض ، ورفعنا شأنهم ، وجعلناهم أفضل عالم زمانهم .

(٦) إمدادهم بالآيات البينات :

يقول الله تعالى : ﴿ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ﴾ أى آتيناهم الآيات الدالة على الحق ، الناطقة بالصدق التى تؤكد لهم أن طريق الفوز والنجاح فى الدنيا ، وفى الآخرة هو التمسك بالمواعظ والنصائح التى أنزلها الله تعالى .

وحين ننظر فى هذه المزايا ندرك ضرورة تمسك بنى إسرائيل بما أنزل الله عليهم ، وضرورة أن يكونوا جمعا واحدا ، لا يختلفون على حكم الله الذى أنزله لهم ... إلا أنهم أهملوا ما أعطاه الله لهم ، وعارضوا أنبياءهم . يقول الله تعالى : ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أى إن بنى إسرائيل بعد أن جاءهم الوحي ، وصار معهم كتاب اختلفوا فى دين الله ، وتفرقوا إلى شيع وأحزاب ، وانقسموا فى رسلهم وأنبيائهم ، والكتاب الذى نزل فيهم ... وذلك بسبب الحقد والحسد الذى اتصفوا به ، وقد أدى الحق الذى كانوا فيه إلى البغى ، والظلم ، والانقسام .

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ سَخْتَلِفُونَ﴾

أى إن الله يجمع الخلق يوم القيامة ليحكم بينهم ، ويعطى لكل إنسان ما يستحقه كل فرد ، وحينئذ ينتفع الصادقون بصدقهم ، ويعذب الضالون بمصيبتهم ... فلا ينبغي التماذى فى الباطل ، ومعاداة الحق ، وترك اللعب والهوى ... وهذه توجيهات ومواعظ تتطلق من واقع حياة بنى إسرائيل يسوقها الله إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ، واتباعه ، وسائر الناس ليستقيموا على منهج الله تعالى ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ

أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى أرسلناك يا محمد بعد بنى إسرائيل إلى الناس كافة بدين جمع أركان العقيدة ، وأصول التشريع والأحكام وحسن الخلق والسلوك ، فالتزم يا محمد بالشرعية التى أنزلها الله إليك ، واحكم بين الناس بالعدل والحق ، ولا تتبع هوى الناس ، لأن الهوى يضل عن سبيل الله .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هم الجهلة الذين ينشرون المنكر ، ويجهلون المعروف ، وهم عاجزون عن أن يدفعوا إثما ، أو يردوا عدوانا ، ولا يستطيعون أن يحققوا نفعا وفائدة لك أو لأنفسهم .

﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أى لا تتبع يا محمد هوى الناس الذين لا يعلمون لأن الجهل يعمى ويصم ، والهوى فساد يقوم على الحقد والفحشاء ، ولا يعتمد على صواب وإصلاح .

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أى إن المشركين يوحدهم الشرك ، ويجمعهم العدوان ، ويوالى بعضهم بعضا ، وينصر بعضهم بعضا على الظلم والفساد .

﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى يتولى الله المتقين الذين يخشونه وحده ،
 ويعبدونه حق العبادة فيعينهم ، ويؤيدهم ، وينصرهم ، وكلما امتد عطاء الله
 ازداد الخير ، والرزق ، والبركة .

﴿ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ ﴾ أى إن هذا القرآن الكريم نور وهداية ، يهدى
 العقل بآياته ، ويبصر الروح بالخير وحب الله ، ويضع المؤمنين فى مسالك
 الطاعة ، وطرق الدين الحنيف .

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ أى إن الله تعالى أنزل القرآن
 الكريم هداية للناس ، ورحمة لقوم يؤمنون بالله تعالى ، ويصدقون بفضل الله
 ونعمه .

وانما خصت الآية الموقنين بالذكر مع أنها رحمة للناس أجمعين لأنهم هم
 الذين يستفيدون ويعقلون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنعم على بنى إسرائيل بالكتاب والحكم والنبوة ،
 ورزقهم من الطيبات ، وفضلهم على العالمين ، وآتاهم بينات من الحكم
 والتشريع إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم حقدا وحسدا ، وتمردوا على حكم الله تعالى
 بعد أن علموا الحق والصواب ، وسوف يحكم الله بينهم يوم القيامة .
 وتتوجه الآيات بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ ، وتأمره باتباع العقيدة المنزلة
 وتطبيق الشريعة المقررة ، والحكم بما أنزل الله ، وعدم اتباع هوى الناس حتى
 لا يبتعد عن دين الله تعالى ، ولأن هوى الناس لن يفيد عند الله ، ولا يحقق
 نصرا .

(٥٥٢)

إن المشركين يوالى بعضهم بعضا ، والله ولى المتقين ، وقد أنزل الله القرآن الكريم هداية ورحمة للمؤمنين ، وللناس أجمعين .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

طبيعة بنى إسرائيل

فى إنكار حقوق الله والناس

كثرت نعم الله على بنى إسرائيل فقد فضلهم الله على عالم زمانهم ، وأرسل فيهم رسله وأنزل عليهم كتبه ، وملكهم بيت المقدس ، ورزقهم بالطيبات والثمرات ، وكل هذه الفضائل تستحق الاخلاص فى العبودية ، وطاعة الله ، واتباع منهجه ، إلا أن الإسرائيليين لما عهد فيهم من جود الخير ، والميل المادى ، والغرور بالذات غفلوا عن عطاء الله ، واختلفوا فى الدين ، وتحولوا إلى مذاهب وفرق بعدما علموا وعرفوا .

لقد دفعهم إلى الاختلاف استكبارهم ، وتعاليمهم ، والكراهية الموجودة بينهم ، والبغى المنتشر فيهم .

ودفعهم إلى ظلم الغير أنانيتهم ، والحق على الآخرين ، ووصل بهم الحقد والغرور إلى أخذ أملاك الآخرين ، وادعاء أنها لهم دون الناس .

وعلى المسلمين أن يعرفوا طبائع بنى إسرائيل ، ويأخذون الحذر منهم ، فهم يرون أنفسهم شعب الله المختار ، ويقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ، ويرون أن البشر جميعا خلقوا لخدمتهم ، وهذا ضلال كبير .

إن خير الناس هم المؤمنون بالله ورسوله ، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم .

(٥٥٣)

لقد كتب الله على المسلمين أن يستمروا فى صراع مع اليهود على طول الزمن والى ان تقوم الساعة ... ولذلك حسنت معرفة طبائعهم ، وطرق التعامل معهم .

الركيزة الثانية **الاستقامة على منهج الله** **خير طريق للفوز**

لم يترك الله الناس سدى ، وانما دعاهم إلى الحق ، وعرفوا الصراط المستقيم ، وأبقى بينهم دينه ، وحدد لهم نظمه وشريعته ، وأمرهم بالاستقامة على منهج الله تعالى ، والالتزام بأحكام الله تعالى ... والبعد التام عن هوى العقل ، ورغبات الشياطين .

إن الإسلام جاء من عند الله تعالى ليصنع الناس بهدى الله تعالى متحدين تحت ولاء الله تعالى ، ولن ينتصر المسلمون فى دنياهم إلا بالتطبيق الدقيق لتعاليم الله ، فهو العليم بخلقه ، البصير بالناس ، وهو الغفور الرحيم .

سوء تصورات المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ ﴾ ١ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَشَجَرَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢﴾ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

روى الكلبي أن عتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة قالوا لعلي وجمع من المؤمنين : والله ما أنتم على شيء ، ولو كان ما تقولونه حقا لكان حالنا أفضل من حالكم في الآخرة كما هو أفضل في الدنيا فنزلت الآيات (١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة اختلاق بنى إسرائيل للكذب ، ومعارضتهم الحق لما جاءهم جاءت هذه الآيات لبيان مناهج ضلال الظالمين وتصوراتهم عن الآخرة ، وترد حساباتهم النجاة من النار كالمؤمنين .

(١) تفسير الخازن ج ٢٥ ص ١٥٢ .

(٥٥٥)

- ٣ -

موضوع الآيات

تتكرر الآيات على المجرمين حسابان أنهم متساوون مع المؤمنين الصالحين في الدنيا وفي الآخرة ، لأن هذا التصور سيئ لا يتفق مع العدل ، والحق ، فقد خلق الله السموات والأرض بالحق ، وجعل الموت والحياة لتجزى كل نفس بما كسبت ، وتنال كل أمة مصيرها .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ "أم" للإضراب والانتقال ، وفيه دلالة على استفهام إنكارى بعد "أم" تقديره أظن المشركون أن يسوى الله بينهم وبين المؤمنين في الحياة والممات ؟ ...
إن هذا فهم مردود فكما خالف الله بين حالهم في الدنيا فجعل فريقا كفرة مسيئين ، وفريقا مؤمنين محسنين فكذلك سيخالف الله بينهم في الممات فيموت المشركون على اليأس من رحمة الله تعالى ، ويلاقون بعد الممات هول ما توعدهم الله به ، وكانوا له منكرين ، ويموت المؤمنون رجاء رحمة والفوز بالجنة التى وعدوا بها .

ومعنى ﴿ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أنهم اكتسبوا الأعمال السيئات الكثيرة عامدين ، قاصدين .

والمحيا والممات مصدران ميميان معناهما الموت والحياة ...
وقد ضل المشركون ، واستغرقوا حياتهم بعمل السوء الذى تعمدوه ، وجعلوه نشاطهم ، ولذلك سماهم الله به بيانا لما كانوا فيه من سوء وظلم .

والآية إظهار لفساد المشركين المتعمد ، لأنهم كانوا يظنون ظنا باطلا حين تصوروا أنفسهم متساويين مع المؤمنين فى الدنيا ، وفى الآخرة .
 إنهم فى هذا القول كاذبون بعيدون عن الواقع حيث تختلف عقيدتهم وأعمالهم وأخلاقهم عن عقيدة وأخلاق وأعمال المؤمنين .
 ومن المعلوم المحقق أن أحوال القبر واليوم الآخر نتيجة أعمال الدنيا ...
 فمن أين لهم القول بالمساواة ؟

﴿ سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ ﴾ أى بنس حكم المشركين وقولهم بهذه المساواة وقد كان لهذه الآية أثر كبير فى نفوس المؤمنين المخلصين فسعدوا بما أنزله الله تعالى ، وتمنوا أن يكونوا من المؤمنين .

عن أبى الضحى عليه السلام أن تميم الداري قرأ سورة "الجاثية" فلما أتى على قوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ جَعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ ﴾ لم يزل يكررها ويبكى حتى أصبح وهو عند المقام .

وأخرج ابن أبى شيبه عن بشير مولى الربيع بن خيثم أن الربيع كان يصلى فمر بهذه الآية : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ﴾ فلم يزل يرددّها حتى أصبح .
 وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها : ليت شعرى من أي الفريقين أنت يا فضيل^(١) ؟

وقد سمى بعض المفسرين هذه الآية بـ "مبكاة العابدين" لما لها من تأثير كبير ، يبكى الخاشعين لله تعالى .

(١) قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي ج ١ ص ١٤٨ بتصرف .

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى وخلق الله السموات والأرض وما فيهما بالحق بعيدا عن الجور ، والظلم ، والعدوان ، ومن العدل والحق أن المتعارضين لا يتساويان كما يزعم المجرمون .

﴿ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ أى خلق الله كل مخلوق بالحق والعدل ، وأمرهم جميعا بدين واحد هو دين الحق والعدل ، واختار كل إنسان ما رضى به من دين ومذهب ...

ومن الحق والعدل أن تجزى كل نفس بما كسبت من غير ظلم أو إهمال .
﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ ؟ ... والاستفهام تقرير موجه لرسول الله ﷺ والمؤمنين معه ومن بعده ... أو هو خطاب لكل ذى عقل حيث عموم المسئول عنه ، واهتمام الناس به .

والاستفهام للتعجب ، والمعنى انظر وتعجب من حال من ركب رأسه ، وغرته أمانيه ، فترك الهدى ، وأطاع الهوى ، واتخذ إلها يطيعه من دون الله تعالى ، فلا يرغب إلا ما تمليه عليه شهوته ، ولا يعمل إلا بما عليه الهوى والشيطان ، ولا يطيع ربه ، ولا يخشاه .

وفى هذا إيماء إلى ذم اتباع هوى النفس ، ومن ثم قال وهب بن منبه : إذا شككت فى خير أمرين فانظر أبعدهما من هواك فأته .

وقال سهل التستري رحمه الله تعالى : هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك .
وقال الإشبيلي الزاهد رحمه الله تعالى :

فخالف هواها واعصها إن من يطع .: هوى نفسه ينزع به شر منزع
ومن يطع النفس اللجوجة ترده .: وترم به فى مصرع أى مصرع
وقال البوصيرى رحمه الله تعالى فى برده:

وخالف النفس والشيطان واعصهما .: وان هما محضاك النصح فاتهم

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما ذكر الله هوى فى القرآن إلا ذمه
قال تعالى : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ ﴾ ، وقال : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ
وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ ، وقال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ
الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : " لا
يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به " (١) .

وروى شداد بن أوس ؓ عن النبى ﷺ أنه قال : " الكيس من دان
نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله
الأمانى " (٢) .

وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا
، ودنيا مؤثرة ، واعجاب كل ذى رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك
أمر العوام " (٣) .

وعنه ﷺ قال : " ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات ، فالمهلكات شح مطاع
وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه ، والمنجيات خشية الله فى السر والعلن ،
والقصد فى الغنى والفقر ، والعدل فى الرضا والغضب " (٤) .

(١) شرح السنة للبغوى . كتاب الإيمان . باب رد البدع والأهواء ج ١ ص ٢١٣ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع ج ٤ ص ٦٣٨ .

(٣) سنن أبى داود . كتاب الملاحم . باب الأمر والنهى ج ٤ ص ١٢٣ .

(٤) المعجم الأوسط ج ٦ ص ٤٧ .

وحسبك ذما لاتتباع الهوى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝ ﴾ .

﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ أى من اتبع هواه قد أضله الله تعالى عمدا

بعد ما علم الحق والصواب ، وسبب ذلك أن الله عليم به ، وعلم أن جوهره يميل إلى ارتكاب الجريمة ، وعمل القبائح ، ولذلك كان ضلاله .

﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ﴾ أى وقد طبع الله على سمعه فلا يسمع

خييرا ، ولا يعى حقا ، ولا يتدبر صوابا ... فقد عطل قوى الإدراك لديه .

﴿ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِمْ عِشْوَةً ﴾ أى ووضع الله على بصره غشاوة

تمنعه من النظر ، والتأمل .

وقدمت الآية السمع على القلب بخلاف آية سورة "البقرة" حيث أشرت

السمع وقدمت القلب وذلك فى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ

سَمْعِهِمْ ﴾^(١) لأنه لما أخبر عنهم هنا بين أنهم اتخذوا إلههم هواهم ، فقرر أنهم

عقدوا قلوبهم على الهوى ، وصرفوا السمع عن تلقي الآيات فقدم السمع لإفادة

أنهم كالمختوم على سمعهم ، ثم عطف عليه ﴿ وَقُلُوبِهِمْ ﴾ تكميلا وتذكيرا بذلك

العقد الصارف للسمع ثم ذكر ما على بصره من شبه الغشاوة لأن ما عقد عليه

قلبه بصره عن النظر في أدلة الكائنات .

أما فى سورة "البقرة" فإنها لم تقطع باتتباع الهوى ، وانما تخبر ببعض ما

قدر الله عليهم .

(١) سورة البقرة ، الآية ٧ .

(٥٦٠)

وهذا حال كل ضال فى عصر رسول الله ، وفى كل عصر ، وكان أبو جهل على رأس الضالين ذلك أنه طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد ابن المغيرة ، فتحدثا فى شأن النبي ﷺ .

فقال أبو جهل : والله إنى لأعلم إنه صادق .

فقال له الوليد : مه ، وما ذلك على ذلك ؟

قال : يا أبا عبد شمس كنا نسميه فى صباه الصادق الأمين ، فلما تم عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن ، والله إنى لأعلم أنه صادق .

قال الوليد : فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به ؟

قال : نتحدث عنى بنات قريش أنى اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسرة خبز واللات والعزى لن اتبعته أبدا^(١) .

﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ﴾ ؟ ... أى إن هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم لن

يعملوا خيرا ، ولن يثبتوا على صواب لأن الله قد أضلهم ، ولذلك يسأل الله متعجبا ومنكرا عن من يهديهم إلى الحق بعد الله تعالى ، لأن الهدى هدى الله وحده .

﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ؟ ... الاستفهام لإنكار عدم إيمان المشركين ،

ورضاهم بالكفر ، وعباده الأصنام .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن ظن المشركين تساويهم مع المؤمنين باطل ، لأن الاختلاف بينهم واضح ، وهذا ظن سئ فقد أقام الله الدنيا على الحق ، وخلق

(١) تفسير المراغى ج ٢٥ ص ١٥٧ .

(٥٦١)

خلقه كله بالحق ، وتوضح الآيات أن الضالين قد ختم الله على مداركهم لميلهم إلى الضلال ، وعدم اهتدائهم بالحقائق التي قدرها الله تعالى .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

لا يستوى الخبيث والطيب

المتعارضان لا يلتقيان في خط واحد ، سواء كان ذلك في الأقوال ، أو الأعمال ، أو الخلق ، أو السلوك .

ومن هذا المنطلق أخطأ المشركون حين تصوروا أنفسهم مساوين للمؤمنين في الحياة والممات ، لأن ذلك يناقض الواقع ، ولا يصح القول به ، فهو ظن سيئ مردود .

إن من يعبد الله وحده يختلف عن يعبد أصناما وعددا ... ومن ينقى الله ويخشاه ، ويستقيم على أمر ليس كمن يكفر بالله ، ويتبع الهوى .
لقد قضى الله بالاختلاف بين الناس ... وجعل الجزاء على قدر العمل ليعمل كل إنسان للغاية التي يرجوها .

الركيزة الثانية

الأمر كله لله تعالى

خلق الله السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات عديدة متنوعة في أطر معلومة أساسها الحق ، والعدل ، وعدم الظلم ، وتكريم الإنسان ، وتقدير العقل ، والمحافظة على حرية الإنسان وعزته .

يجب أن يستسلم الإنسان لقدرة الله فهو صانع كل شئ ، وليس فى المخلوقات من يقدر على شئ مثل قدرة الخالق سبحانه وتعالى .
 إن الله يملك فى الإنسان نفسه ، وروحه ، وجوارحه ، وطاقاته ، وملكاته ، ولذا وجب اللجوء إليه ، والطلب منه لياتى كل نفس هداها ، ويوفق الإنسان للحق والصواب .
 والله يهذى إلى سواء السبيل .

الرد على منكرى البعث

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥﴾ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧﴾ وَتَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلال المشركين فى ظنونهم وتصوراتهم جاءت هذه الآيات لرد إنكارهم ومزاعمهم ، وبيان سفاهتهم فى المناقشات والجدل الذى يقيمونه مع غيرهم من المؤمنين .

(٥٦٣)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قول المشركين عن البعث ، وإنكارهم له ، وترد عليهم ،
وتبين أنهم يتحدثون بلا حجة ولا برهان ... وتبين الآيات أن الله هو الذى يحيى
ويميت ، وهو جامع الناس يوم القيامة للحساب والجزاء ، وله الملك كله وفى
يوم القيامة تظهر الحقائق ، وينال كل إنسان جزاءه .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا

الدَّهْرُ ﴾ أى أنكر المشركون اليوم الآخر ، واستبعدوا وقوعه ، وقالوا :
لا حياة للناس بعد هذه الدنيا ، ولا حياة بعدها ، ففيها نعمل ، ونمرح ، ونتمتع
وما يهلكنا إلا الدهر ، فعبروا بمقاتلهم هذه عن إنكارهم للبعث ، والحشر ، ويوم
القيامة ، وبينوا كفرهم بالله تعالى ، وعدم إقرارهم بقدرته سبحانه وتعالى وأسندوا
الفعل للدهر .

وكان العرب فى الجاهلية إذا أصيبوا بشدة أو بلاء قالوا : يا خيبة الدهر
فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وفاعلها فى الحقيقة هو الله ، فكأنهم
سبوا الله عز وجل ، فلذا نهى الله عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى
هو الدهر الذى يعنونه ، ويسندون إليه تلك الأفعال .

﴿ وَمَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ أى إن مقاتلهم عن

البعث والهلاك كلام لا دليل عليه ، ولا حجة معه ، وهو ضرب من الكلام
المرسل الذى لا يفيد .

﴿وَإِذَا تُلِيْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتُّتُوا

بِعَابَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى واذا اثبتنا لهم حقيقة البعث ، وأكدنا لهم

بالدليل أن الله سيعيد الخلق يوم القيامة ، وينشئهم نشأة أخرى هربوا من الحوار ، وطلبوا إحياء آبائهم ، واعادتهم إلى الدنيا لإثبات أن البعث حق .

﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ أى قل

يا محمد لهؤلاء المشركين ولجميع الناس إن الله يحييكم بالولادة ، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم ، ثم يبعثكم من قبوركم وقتما يشاء ، ويجمعكم للحساب والجزاء .

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أى لا شك فى وقوعه لينال كل جزاء عمله ، ويأخذ كل

صاحب الحق حقه ممن ظلمه ، ويعاقب كل مجرم بجرمه الذى قام به .

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أى إن أكثر الناس لا يعلمون شيئاً

وينكرون البعث والحساب وهم جاهلون .

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى إن الله هو المالك لكل شئ فهو

خالقه وهو المتصرف فى الكائنات كلها .

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْصِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ أى يوم تقوم

الساعة ويتم الحساب سيظهر خسران المشركين الذين كفروا بالله ، وأنكروا البعث ، وأبطلوا الحق ، وصدوا غيرهم عن سبيل الله .

ومظهر خسارة المشركين أنهم بذلوا عقولهم ، وعملهم ، وجهدهم فى إنكار

البعث واليوم الآخر ، ولم يحصدوا إلا الهلاك والوبار .

﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً ﴾ أى وترى فى يوم القيامة الجماعات الكثيفة الكثيرة تجثوا على ركبها لهول الموقف ، ولا تقدر على الوقوف من شدة الخوف والهلع .

﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ﴾ أى تدعى كل أمة لتحاسب بكتابها الذى يجمع كل أقوالهم وأعمالهم ، وأحوالهم ففيه كل حياتهم الدنيوية .

﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى اليوم تجزون بأعمالكم وأقوالكم التى عشتُم بها فى حياتكم الدنيا .

﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ أى هذا كتابنا الذى كتبه الحفظة بأمرنا يشهد عليكم ، ويسجل واقعكم الذى قمتم به على حقيقته .

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إنا كنا ندون فى الكتاب كل عملكم ، ونسجلها بصورتها ، ونفصلها بحقيقتها بلا زيادة أو نقص .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات إن المشركين ينكرون البعث ، ولا يؤمنون بالله تعالى ، ويجادلون بغير الحق ، ولا ينظرون فى دليل ، وتبين الآيات أن الله هو الذى يحيى ويميت ، وهو مالك السموات والأرض وما فيهما ، وفى يوم القيامة سيخسر المبطلون ، وتجثوا الجماعات على الركب هلعاً وخوفاً ، ويجازى الله الناس على عملهم بعدل وانصاف .

(٥٦٦)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

رد مزاعم المشركين عن البعث

البعث ركن من أركان الدين من أنكره فقد كفر ، ولأهميته جاء الأمر بالإيمان به مع الأمر بتوحيد الله وإثبات قدرته ، وتأكيد كافة صفاته .
وقد كفر المشركون بالله ، واتخذوا أصناما آلهة ، وأنكروا البعث ، ولم يصدقوا باليوم الآخر ، وذكروا شبهات تصورها أدلة لهم .
قالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت ، ولا عودة بعدها ...
وتصوروا أن الأجساد بعدما ترم وتبلى لا تعود مرة أخرى ، ويزعمون أن ذلك أمر مستحيل .

وهم يبنون رأيهم فى البعث على الظن والتخمين ، وهذا شأن لا يجوز فى الاعتقاد ... ولما أخبرهم النبى ﷺ بالبعث ، وقيام الناس من قبورهم طلبوا رجوع آبائهم إليهم فى الدنيا ليروا قدرة الله فى الإعادة .

إنهم فى موقفهم من البعث على ضلال وبهتان لأن الإيمان بالله والرسول يقتضى الإيمان بالبعث فقد أخبر الله ورسوله به، وخبرهما هو الصدق والحقيقة.
وأیضا ففكرة الله التى أوجدت الحياة الدنيا ، وخلقت كل ما فيها تدل على قدرة الله تعالى على البعث والجزاء ، بل إن البعث أيسر وأهون .

وتأمر الآيات رسول الله ﷺ أن يقول لمنكرى البعث : إن الله قد أحياكم وأوجدكم وهو الذى يميئتم عند انقضاء آجالكم ، وهو سبحانه يعيد إحياءكم عند البعث ويجمعكم فى أرض المحشر ليحاسبكم ، ويجازيكم فى يوم لا يشك فيه إلا الجاحدون الظالمون .

إن العقيدة الإسلامية تقوم على الأدلة والبراهين والحجج ، وتؤكد أن البعث حق ... والجزاء ضرورة لتتال كل نفس جزاء ما قدمت .

الركيزة الثانية خزي الكافرين في الآخرة

الله هو الخالق ، وهو المحيى والمميت ، والكل راجع إليه حيث يكون البعث والحشر والحساب ، وينال كل إنسان جزاء عمله ، ويأخذ كتابه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾^(١) يسر ، ويسعد ، ويتمنى أن تراه الخلائق كلها ، وينادى ﴿ هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيَةَ ۖ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيَةَ ۖ ﴾^(٢) ويدخل الجنة جزاء استقامته على دين الله ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾^(٣) ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴾^(٤) لكفره وعصيانه فإنه يصاب بالحسرة والندامة يقول : ﴿ يَلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَةَ ۖ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَةَ ۖ يَلَيْتُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ۖ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ۖ ﴾^(٥) .

إن العدل فى يوم الحساب مطلق ، والوزن دقيق ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾^(٦) فهو فى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾^(٧) فأُمُّهُرَ هَآوِيَةً ﴿ وَمَا أُدْرِكُ مَا هِيَ ﴾^(٨) نَارُ حَامِيَةٍ ﴿^(٩) .

(١) سورة الحاقة ، الآية ١٩ .

(٢) سورة الحاقة ، الآية ١٩ ، ٢٠ .

(٣) سورة الحاقة ، الآية ٢١ .

(٤) سورة الحاقة ، الآية ٢٥ .

(٥) سورة الحاقة ، الآيات ٢٥ . ٢٩ .

(٦) سورة القارعة ، الآيات ٦ . ١١ .

إن الكافرين يرون خسارتهم فى الآخرة ، ويعيشون حياة الهلع والفرع والندامة وهم يشاهدون كل ما عملوا فى كتاب لا يغادر أمرا أدوه ، ولا يترك عملا قاموا به ، والله من ورائهم محيط .

المؤمنون والكافرون فى مستقرهم الموعود

يقول الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ؕ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاَسْتَكْبَرُوا وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ ﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَا وَلَّيْكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴾ ذَٰلِكُمْ بِأَنكُمۡ أَخَذْتُمۡ ءَايَتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ۖ فَالْيَوْمَ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَّاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن المشركين لا يتدبرون فى آيات الله ، ويجادلون بالباطل جاءت هذه الآيات لبيان أحوال المشركين فى الآخرة ،

(٥٦٩)

وتذكيرهم بما كذبوا به ، وقد بدأت الآيات بأحوال المؤمنين فى الآخرة تتوبها بشأنهم ، وابرزا للخيرات التى جعلها الله لهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المؤمنين يفوزون بجنات النعيم فى الآخرة لإيمانهم بالله تعالى ، واستقامتهم على الأعمال الصالحة التى أمر الله بها ، وأن المشركين يساقون إلى جهنم لأنهم أجرموا ، وكفروا بالله ، وأنكروا آياته كلها ولم يصدقوا بالبعث ، ويوم القيامة ...

وتبين الآيات أن الله يستهزئ بهم عند الحساب ، ويذكرهم بإنكارهم واستهزائهم باليوم الآخر الذى يروونه اليوم حقيقة .

وبعاقب الله المشركين يوم القيامة ، ويجازيهم على أعمالهم ، ويدخلهم جهنم ، ويؤس المصير ، ويسعدوا المؤمنين بجنات النعيم .
فالحمد لله رب السموات والأرض ، رب العالمين ، مالك الملك صاحب الطول والحول ، وهو العزيز الحكيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ﴾

أى يكرم الله الذين آمنوا بالله ورسله ، وبكل ما أمر به ، والتزموا بطاعته ، وعملوا الصالحات ، وأحسنوا الأخلاق هؤلاء المؤمنون يدخلهم الله الجنة ويمتعهم بما فيها من نعيم دائم ، ومقام كريم .

﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾

الفوز الكبير جزاء ما قدموا فى الدنيا .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاَسْتَكْبَرُوا وَكَنتُمْ

قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أى ويجازى الله الذين كفروا بنار جهنم ، ويذكرهم بما عملوا فى الدنيا استهزاء بهم ، واذلالا لكبريائهم ، ويقول لهم : أنسيتم أنكم كنتم فى الدنيا تسخرون من آيات القرآن الكريم التى كانت تتلى عليكم ، وكفرتم بها ، وكنتم من المشركين الذين أجرموا ، وصاروا من أصحاب الجحيم .

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي

مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ أى وكنتم أيها المشركون لعنوكم ، وغروركم بأنفسكم إذا قيل لكم : إن وعد الله حق ، والساعة آتية لا ريب فيها كنتم تستهزئون بهذا القول ، وتتساعلون ساخرين عن موعد الساعة ، وتقولون : نحن لم نعلم شيئا ، وما نظن وقوعها ، ولسنا على يقين من وقوعها ... وهذا ضلال كبير .

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

أى وقد ظهر عملهم السيئ ، كما سجلته الملائكة ، واستنسخته فى الكتب بأمر الله تعالى ، ليقر الكافر بما يستحقه من العذاب الذى لم يصدقوه ، وكانوا به يستهزئون .

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ

وَمَا لَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أى يقول الله لهم بلسان الملائكة : اليوم نلقيكم فى جهنم ، ولا يعفو عنكم ، ونهملكم جزاء تفريطكم ، وكفركم ، فلقد أنكرتم القيامة التى ترونها اليوم ، وها أنتم أيها المشركون تعذبون فى نار جهنم بلا معين يعينكم ، أو ناصر ينصركم ، أو شفيع يشفع لكم .

إن الله يجازى المشركين بنوع جرمهم ، فلقد ألقاهم فى جهنم وتركهم فيها لأنهم تركوا الإيمان ، ورضوا بالكفر والشرك ، واستهزأ بهم كما استهزأوا بالدعوة ، وبرسول الله ﷺ ، وقضى لهم بالخلود فى نار جهنم ، كما استمروا على الكفر فى الدنيا .

﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾

أى يجزيهم الله ، ويعرفهم أن العذاب الذى ساقهم الله إليه بسبب أنهم استهزأوا بآيات الله ، وغرتهم الدنيا ، واتبعوا شياطينهم ، وشهواتهم فمالوا إلى الكفر ، وعاشوا فى ضلال كبير .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى إن المشركين

بعد إدخالهم نار جهنم لا يخرجون منها ، ولن يعودوا إلى الدنيا ، ليتوبوا ، ولن يقبل منهم عتاب .

﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى

فله وحده الحمد والثناء فهو سبحانه محمود بذاته ، وبأفعاله ، وفى السراء والضراء .

وهو سبحانه معتن بخلقه ، وناصرهم بالحق فهو رب السموات ، ورب الأرض ، ورب الإنس والجن ، ورب الخلق كله .

وكررت الآية ﴿ رَبِّ ﴾ للتتويه بشأن الربونية فمنها يكون كل ما يوجد ويخلق .

﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى وله سبحانه العلو الحق

الذى هو كمال الصفات ، وكمال الوجود .

(٥٧٢)

﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى وهو سبحانه المريد القادر الذى لا يغلب
وهو سبحانه الذى يقدر لكل أمر قدره ويهديه له .
وقد بدأت الآيتان بحرف الجر ﴿ فَلِلَّهِ ﴾ ، ﴿ وَلَهُ ﴾ لبيان اختصاص الله
بهذه الصفات التى لا يصح أن يتصف بها أحد من الناس .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المؤمنين يجزون بجنات النعيم ، ويفوزون فى الآخرة
بالرضوان وهم عند الله تعالى ، وأما الذين كفروا فيعاقبهم الله بنار جهنم ،
ويسخر منهم ، ويبكتهم ، ويبين استكبارهم ، وموقفهم من الدعوة ، وإنكارهم
للآخرة ، ويعاقبهم بما يستحقون من عذاب أليم .
فالحمد كله لله ، وله صفات الكمال والجلال ، وهو العزيز الحكيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

مقام السعداء عند الله تعالى

الناس فى الدنيا فريقان . فمنهم مؤمن ، ومنهم كافر ، ويحشرهم الله
يوم القيامة فريقين كذلك فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، أما فريق الجنة
فهم المؤمنون الذين أنار الله بصيرتهم فى الدنيا ، وسدد عقلهم ، وقرارهم فأمنوا
بالله تعالى ، وعملوا الصالحات ، واستقاموا على هدى الله فاخترهم الله من حزبه

(٥٧٣)

، وكانوا من السعداء . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فِى الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ
فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾^(١) .

والعاقل من تيقن من حلاوة الإيمان ، وحرص على التلذذ به ، وعاش فى
الدنيا يعمل لها ، ويرجوها ، فأولئك كان سعيهم مشكورا .

الركيزة الثانية الكافرون هم الأشقياء

يعيش الكافرون يوم الحساب فى خزى وندامة ، ويعرض الله عليهم
ليزدادوا بها حسرة وذلا ... ويعرفهم الله سبب ما هم فيه ... فلقد كفروا بآيات
الله تعالى ، واستكبروا عنها ، وضلوا عن اتباعها ، والاهتداء بهديها ، وكذبوا
بالساعة ، ولم يتأملوا فى علاماتها ، وأشراطها ، واستهزأوا برسول الله وهو
يدعوهم إلى الإيمان بها ، ويعرفهم الله وهم فى أرض الحشر ، حيث وضع
الميزان ، وظهر الأعمال ، وسقوط الألقعة ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا
أَسْلَفَتْ ۗ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ۖ وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾^(٢) .

إنهم فى يوم الحساب ينالون جزاءهم ، لا يقبل الله لهم عذرا ، ولا تصلح لهم
توبة، ولا ينفعهم عقاب فلقد ساروا فى طريق الشقاوة إلى مداه يقول الله تعالى :

(١) سورة هود ، الآية ١٠٨ .

(٢) سورة يونس ، الآية ٣٠ .

(٥٧٤)

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا
دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٧﴾^(١)
إلا لعنة الله على الظالمين .

الركيزة الثالثة الحمد لله رب العالمين

إن الله مستحق للحمد كله ، فهو محمود فى ذاته ، محمود بعبائه ورزقه ،
محمود بصفاته وعظمته ، محمود من الخلق أجمعين ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾^(٢) .
إن حمد الله تعالى فسحة القلب ، وراحة الضمير ، ونور الأبصار
والبصائر ، وصيحة المؤمنين الصادقين .
إن حمد الله تقدير له ، وإقرار بالحاجة إليه ، وتثبيت للإيمان فى العقل
والضمير ، والظاهر والباطن .
فالحمد لله أولا ، وآخر أبدأ أبدا ، له الحكم واليه ترجعون .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الجاثية" بتوفيق الله تعالى .

(١) سورة هود ، الآية ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية ٤٤ .



سورة "الأحقاف"
وهي أول الجزء السادس والعشرين

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أولا -**التعريف بسورة "الأحقاف"**

سورة "الأحقاف" سورة مكية ، وما ورد من أن قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِءَ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَمَأْمَنَ وَاسْتَكَبَرْتُمْ ^ط إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ^ط حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ^ط وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ^ط حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ^ط إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ^ط كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ^ط بَلِّغْ ^ط فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(٣) آيات نزلت بالمدينة لا ينافي نزولها قبل ذلك في مكة ، لأن المعانى التى دلت عليها نزلت فى مكة ، واستفاد بها المسلمون قبل الهجرة ، فالحديث عن بنى إسرائيل والاستشهاد بأرائهم وعلمهم كان عملا مشهودا عند المكيين أمر الله بها رسول الله ﷺ والمؤمنين معه ، وهم فيه .

وقد روى القرطبي الإجماع على أن السورة مكية ^(٤) .

(١) سورة الأحقاف ، الآية ١٠ .

(٢) سورة الأحقاف ، الآية ١٥ .

(٣) سورة الأحقاف ، الآية ٣٥ .

(٤) تفسير القرطبي ج ١٦ ص ١٨٨ .

وللسورة اسم واحد هو "الأحقاف" لذكر هذا اللفظ فيها وحدها ، والأحقاف مكان يوجد في شرق بلاد العرب ، وكان في القديم بلاد هود قوم عاد عليه السلام .
وتتصل سورة "الأحقاف" بسورة "الجاثية" بعدة جوانب أهمها :

(١) في آخر سورة "الجاثية" جاء قوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمْ

ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا تَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا

هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ ^(١) ليبين موقف المشركين من آيات الله ، واستهزاءهم

بها وجاء في سورة "الأحقاف" ما يثبت أن الله خلق كل شيء بالحق ردا

على مزاعم الكافرين فقال تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ﴾ ^(٢) .

(٢) تشابهت الآيتان الأوليان في السورتين ، وهو قوله تعالى : ﴿ حَمَّ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ^(٣) .

(٣) تحدثت السورتان عن مصير المؤمنين في الآخرة ، ففي سورة "الجاثية"

يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ

رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ ^(٤) ... وفي سورة "الأحقاف"

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ

(١) سورة الجاثية ، الآية ٣٥ .

(٢) سورة الأحقاف ، الآية ٣ .

(٣) سورة الأحقاف والجاثية ، الآية ١ ، ٢ فيهما .

(٤) سورة الجاثية ، الآية ٣٠ .

عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٧٩﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٨٠﴾ (١)

وسورة "الأحقاف" آخر سور "آل حم" نزولا ، وعدد آياتها عند جمهور
الأمصار أربع وثلاثون آية ، وعند أهل الكوفة خمس وثلاثون آية ،
وسبب هذا الاختلاف يدور حول اعتبار "حم" آية مستقلة فى هذه السورة
وفى سور "آل حم" السبعة أم أنها وما بعدها مسمى السورة .

(٤) تتضمن السورتان عرض كثير من آيات الله فى النفس ، والكون ، والحياة
، وإبرازها أمام العقل البشرى لتكون دلالة الإيمان ، وبراهين الصدق التى
يعيشها الناس ويرونها جليلة أمامهم فى الحياة الدنيا .

وموضوعات سورة "الأحقاف" هى الموضوعات التى تضمنتها السور
المكية تعرضها السورة مصاحبة للعديد من الآيات والحجج والبراهين بهيئتها
التي جاءت بها السور المكية .

وتتضمن سورة "الأحقاف" قصة الجن الذين آمنوا برسول الله ﷺ ودخلوا
فى الإسلام ، وصاروا دعاة لأقوامهم ، وتعرف بالمنهج الذى اتبعوه فى الدعوة
إلى الله تعالى .

(٥٨٠)

- ثانيا -

- التفسير -

ثبوت الإيمان أمام عناد المشركين

يقول الله تعالى :

﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُتَوْنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تنبت الآيات إعجاز القرآن الكريم المنزل من الله تعالى الخالق العظيم لينذر ، ويبشر ، وتوضح مدى جحود المشركين ، وسفه عبادتهم للأصنام وخلوهم من أدنى العلم ، فقد ضلوا وكفروا وأعرضوا ، وجادلوا بالباطل ، ولن تنفعهم توبتهم عند الحساب ، حيث لا ينفع ندم ، ولا تقبل توبة .

(٥٨١)

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ ﴾ بدأت السورة

بالحرفين (الحاء والميم) وهما ينطقان حرفا حرفا للدلالة على أنها من حروف كلام العرب ، ولإثبات أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وتدعو إلى ضرورة الاهتمام به ، والتمسك بمنهجه .

وقد أنزل الله وحيه إلى محمد ﷺ ، وقرأه جبريل على رسول الله ﷺ ليقراه كما قرأه عليه جبريل ﷺ ، وليقرئ بهذه القراءة أصحابه ، وبذلك تلقاه رسول الله بلفظه ومعناه من ربه ، ونقله إلى أصحابه كما سمعه ، واستمر القرآن ينتقل من جيل إلى جيل وسيستمر على ذلك إلى يوم القيامة .

ومصدر القرآن الكريم هو الله سبحانه وتعالى ، وحامله هو جبريل ﷺ ومتلقيه الأول هو رسول الله ﷺ ، والمكلفون بحفظه ، وفهمه ، والعمل به هم المسلمون أجمعون .

ومن خلال هذا المنهج يصل القرآن الكريم إلى الناس ، ليبذلوا كافة الوسائل لحفظه وصيانتة ، وفهمه ، والعمل به ، وقد مكن الله للمسلمين فसानوه بالحفظ ، والكتابة ، والاستفادة بمخترعات العصر .

وقد وضع الله في كتابه ما يحقق للمؤمنين العزة ، والحكمة انطلاقا من صفات الله تعالى فهو العزيز الحكيم .

﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى ما خلقنا

السموات والأرض إلا خلقا متلبسا بالعدل ، والمصلحة .

﴿ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أى قدرنا لكل مخلوق فى السموات والأرض موعدا

معلوما عند الله تعالى ، وعند هذا الأجل ينتهى بقاؤه فى الحياة الدنيا .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أى إن الذين كفروا أعرضوا

إعراضا تاما عن دعوة رسول الله ﷺ وعن سماع القرآن الكريم ، ولم يلتفتوا إلى الآيات التى بينها الرسول لهم ، ولم يصدقوا بالمعجزات ، ولم يتعظوا بمن سبقهم من الأمم ، وجحدوا كل نعم الله ، ولم يخافوا عذاب الله وغضبه عليهم ، وأعرضوا عن النذر إعراضا تاما .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ

الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ ؟ ... أى ادعهم يا محمد ، وحاورهم فى اعتقادهم ، وقل لهم : أخبرونى عن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله تعالى وهل خلقت الآلهة المزعومة شيئا فى الأرض ؟ أو اشتركت مع الله فى خلق السماء ؟ حتى تعبدوها من دون الله ، وتخصوها وحدها بالعبادة والطلب .

وآثرت الآيات السؤال عن الشراكة فى السماوات ، وآثرت السؤال عن انتفاء الخلق بالنسبة إلى الأرض لأن مخلوقات الأرض مشاهدة للناس ، وتطورها وحوادثها ظاهر ، ولم يدع أحد أدنى عمل فى إيجادها فكان سؤالهم فى القضية المسلمة لتكون برهانا موجودا أمامهم يمكنهم الاستشهاد به .

أما الموجودات السماوية فهي محجوبة عن العيون ، لا عهد للناس بظهور وجودها ، ولا تطورها ، فلا يحسن الاستدلال بعدم تأثير الأصنام فى إيجاد شئ منها ، ولكن لما لم يدع المشركون تصرفا للأصنام إلا فى أحوال الناس فى الأرض من جلب نفع أو دفع ضرر اقتصر فى نفى تصرفهم فى السماوات على الاستدلال بنفى أن يكون للأصنام شراكة فى أمور السماوات لأن انتفاء ذلك لا ينازعون فيه ، ولذلك كان سؤالهم فى الجانب الذى يسلمون به ليكون دليلا لهم .

والاستفهام ينكر على المشركين اتخاذ غير الله إلها يعبدونه من دون الله ، ويعرفهم بأن هذا الكون البديع المتقن يدل على أن خالقه إله واحد ، ولو وجد إله غير الله لحدث التضارب والاختلاف ، ولفسد الكون كله .

﴿ أَتُؤْنِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أى قل لهم يا محمد : إن كان ما تؤمنون به من أوثان وأصنام حقا فأتوني بدليل من النقل أو العقل يثبت ذلك إن كنتم صادقين فى زعمكم .

وليكن ما تأتون به ، إن كان كتابا يكون قد أتاكم قبل القرآن الكريم ، مثل التوراة والإنجيل ... وإن كان عقلا فليعتمد على أسس عقلية سليمة .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى إن كنتم صادقين فى زعمكم فاثبتوه بالدليل السليم بلا تعصب ، وبعيذا عن الجهل .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ أى ليس هناك أشد ضلالا وجهلا من أناس يعبدون أصناما لا تقدر على شئ ، ولا تسمع ، ولا تعى ، وهى أمامهم جماد لا يتحرك ، وستستمر فى جمودها إلى يوم القيامة .

﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴾ أى وهذه الأصنام غافلة عن دعاء المشركين ، لأنها لا تسمع ، ولا تبصر ، ولا تقدر على شئ أبدا فهى لا تجيب لهم دعاء ، ولا ترد لهم حاجة .

﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا هُمُ أَعْدَاءُ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ أى إن هذه الأصنام يحضرها الله فى المحشر يوم القيامة وينطقها ، فتتبرأ من هؤلاء المشركين ، وتوضح أنها لم تدع أحدا لعبادتها ، وتقع العداوة بين المشركين وآلهتهم فيندمون على ما فعلوا حيث لا ينفع الندم .

(٥٨٤)

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم ، هاديا للحق ، بشيرا ونذيرا ، وأودع فيه الآيات الهادية إلى الحق والمرشدة إلى الصراط المستقيم ، فقد بينت الآيات أن الله خلق السموات والأرض ، وجعلهما دليلين للإيمان ، إلا أن الجاحدين كفروا بالله ، وعبدوا الأصنام من دونه ، فتحداهم الرسول ﷺ وطلب منهم أن يثبتوا صدق زعمهم ، وسألهم عن الأمور التي خلقتها الأصنام في السماء أو في الأرض ، أو إحضار شهادة من العلم تؤيدهم . إن كفرهم بالله جحود ، وإيمانهم بالأصنام جهل ، وفي يوم القيامة سوف تتبرأ الأصنام منهم ، ويعلمون الحقيقة حين تنقطع التوبة ، ولا ينفع الندم .

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عظمة القرآن الكريم

عظم شأن القرآن من كافة جوانبه .

فهو كلام الله تعالى يستحضره المسلم في قلبه وعقله ، ويملاً باطنه بنور الله تعالى .

وهو الإسلام مدونا في نظم وكلام .

وهو محمد ﷺ في عمله وسلوكه ، وخلق ، فقد تقرأ القرآن ﷻ وصار قرآنا يتحرك ويظهر ، ويرى .

وعظم مقام القرآن الكريم ، في تيسير القراءة ، وسهولة الفهم مع عجز الجن والإنس أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه .

وعظم أثر القرآن الكريم فى عباد الله ، وهو يدعوهم إلى الله ، ويرشدهم إلى صراط الله المستقيم ، ويصلح الحياة بمنهج الله تعالى .

وعظم أثر القرآن الكريم ، وهو ينشر فى المؤمنين معرفة صفات الله تعالى لتنعكس فى حياتهم رحمة ، وعلما ، وعزا وحكمه .

وعظم القرآن الكريم وهو يشفع لأصحابه عند الله ، ويقودهم إلى الفردوس الأعلى .

وعظم القرآن الكريم بمن قاله ، وبمن حمّله ، وبمن تلقاه ، وبمن اهتم به إلى يوم الدين .

إن القرآن الكريم هدى للمتقين ، وصلاح للعالمين ، ونور ساطع للناس إلى يوم الدين .

الركيزة الثانية

ضلال المشركين

يغفل المشركون عن الحقيقة ، وينساقون وراء الهوى ، والفحشاء ، ويتحولون إلى أقوام لا يفهمون ولا يعقلون ... والآيات تبين ضلالهم ، وتقدم منهمج مخاطبتهم ، ودعوتهم لله تعالى .

وأول ملامح هذا المنهج بيان قدرة الله تعالى فى خلال إبداعه فى خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات عديدة ، فقد أبدع الله فى توجيه الخلق لغايات مقصودة ، وهداية كل مخلوق لما خلق له ، وقد خلا الكون من العبث والهوى ، وقد قدر الله غايته ، وحدد لكل مخلوق أجله .

وأیضا إنذار الناس بمسار الحياة فهى فى الدنيا عمل ينتهى بالموت ، وهى فى الآخرة حساب ينتهى بالجنة أو بالنار .

وأيضاً رد شبههم ، ومزاعمهم عن طريق سؤالهم عن آلهتهم التى يعبدونها من دون الله تعالى ، وعن سبب تأليهها وعبادتها :

- فهل سبب ذلك أنهم خلقوا مخلوقات خاصة بهم فى الأرض ؟
- أو هل شاركوا الله فى خلق شئ من السموات ؟
- وهل تملكون دليلاً وبرهاناً من العمل ، أو من الدين يثبت صدق هذه الآلهة ؟

إنهم لن يجدوا لهذه الأسئلة إجابة ، فهم فى ضلال كبير فقد عبدوا أصناماً ، واتخذوها آلهة ، واتجهوا إليها بالطلب ، والرجاء مع أنها لن تسمعهم إلى يوم القيامة ، وفى الآخرة ستتبرأ منهم وتشهد عليهم ، ومن المهم للدعاة الوقوف على صفات أعداء الله ، والتصدى لهم بمنهج يتضمن رد مزاعمهم ، وإثبات الحق ، والإرشاد إلى طريق الله المستقيم .

إن إيجاد المخلوقات من عدم ، وتهيئتها لما خلقت له دعائم براهين إثبات قدرة الله تعالى ، ولهذا وجب على الدعاة الإحاطة بأحوال ، واهتمامات وخصائص المدعويين ، وتخير الدليل المناسب لهم ، ومخاطبتهم على قدر عقولهم .

إن القرآن الكريم كتاب الدعوة ، وهو سند الدعاة وسلاحهم فى نشر الدين ، وتبليغه للناس أجمعين .

رد مزاعم الكفار عن القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۚ إِنِ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِن عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَّ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُشَرِّى لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة جحود المشركين لعبادتهم غير الله تعالى وتركهم مواعظ القرآن الكريم جاءت هذه الآيات لرد مزاعمهم ومعارضاتهم للقرآن الكريم ، ولرسول الله ﷺ .

(٥٨٨)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات موقف المشركين من القرآن الكريم ومن رسول الله ﷺ ،
وترد عليهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بِيِّنَتٍ قَالِ الْذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ
هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى إذا قرأت يا محمد آيات القرآن الكريم على هؤلاء
المشركين لتدعوهم بها ، فإنهم لا يسمعونها ، ويقولون عنها : إنها سحر وخداع
يموه عليهم ، ويبعدهم عن الصواب ، ويزعمون إنها سحر واضح ظاهر .
﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ "أم" للإضراب والانتقال لأنهم ينتقلون من اتهام
القرآن بالسحر إلى اتهام رسول الله ﷺ بأنه ألفه من قبل نفسه ، وزعم متعمدا أنه
كلام الله تعالى .
لقد زعموا أن القرآن الكريم سحر لأنه فرقهم ، وخدعهم بمعناه ، واتهموا
محمد بتأليفه ، وهم فى دعواهم كاذبون ، فالسحر لا ثبات له ، ولا معنى فيه .
بينما القرآن الكريم كلام محكم ، بليغ ، دقيق يبنى الأفراد والأمم على منهج
الله ، ولو كان سحرا ما أفاد شيئا ، ولظهر إبهارا ولهوا .
وأيضا فهو معجز بلفظه ومعناه ، وقد تحداهم محمد ﷺ فى أن يأتوا بمثل
أقصر سورة منه فعجزوا ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة ، ولو كان من تأليف
محمد لأتوا بمثله ، وأحسن منه لأن محمدا كان أميا لم يخالط أهل البيان من
العرب ، وهم سدنة البلاغة ، ورجال البلاغة .

﴿ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أى قل لهم

يا محمد إني صادق فيما ادعوكم إليه ، والقرآن كلام الله تعالى ، لأنى لو ألفتة من نفسى ، وكذبت على الله تعالى فإن الله سيعاقبنى أشد العقاب ، ولن يقدر أحد من أهل الأرض ولا منكم أن ينقذنى من عذاب الله تعالى .

– فكيف أقدم على الكذب على الله تعالى ؟

– وكيف أقول ما عجزتم عن القول بمثله ؟

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أى إن الله أعلم من كل أحد ، وهو

أعلم بكنزكم وخوضكم بالإفك عن القرآن الكريم ، وعنى .

﴿ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أى يكفينى الله شاهدا على وعليكم ،

وهو العليم الخبير ، يشهد لى بالصدق والأمانة فى البلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والافتراء .

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أى والله سبحانه وتعالى غفور لذنوبكم إن

دخلتم فى دين الله ، وصدقتم بالقرآن الكريم ، وعملتكم بما جاء فيه ، فهو الرحيم بعباده ، يحب إيمانهم ، وعبوديتهم القانئة .

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ أى قل لهم يا محمد : إنك لست

أول رسول إلى الناس حتى يتهموك بالكذب على الله ، وينكروا رسالتك لأنك بشر مثلهم ، وانما سبقك رسل عديدون كلهم من البشر الذين اصطفاهم الله ، وأوحى إليهم ، وأيدهم بالمعجزات ، وأرسلهم لدعوة الناس إلى دين الله تعالى .

﴿ وَمَا أَدْرِى مَا يُفَعْلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ أى ولا أعلم ما يفعل الله بى ،

ولا ما سيفعل بكم ، فأمر ذلك إلى الله وحده .

(٥٩٠)

عن أم العلاء رضي الله عنها أنها قالت : "لما مات عثمان ابن مظعون رضي الله عنه قلت عند رسول الله ﷺ : رحمة الله عليك يا أبا السائب ، لقد أكرمك الله تعالى . فقال رسول الله ﷺ : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ ... أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، واني لأرجو له الخير ، والله ما أدري ، وأنا رسول الله ، ما يفعل بي ولا بكم .

قالت أم العلاء : فو الله ما أركى بعده أبدا" (١) .

وعن ابن عباس رضي الله عنه "أنه لما مات عثمان بن مظعون رضي الله عنه قالت امرأته رضى الله عنها : هنيئا لك ابن مظعون الجنة .

فنظر إليها رسول الله ﷺ نظر مغضب وقال : وما يدريك ؟ والله إنى لرسول الله ، وما أدري ما يفعل الله بي .

فقالت : يا رسول الله صاحبك وفارسك .

فقال ﷺ : ما أدري ما يفعل بى ولا بكم" (٢) .

﴿ إِنِ اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى إنى اتبع أمر الله ، وتوجيهاته لى

وليس لى أن ابتدع شيئا من تلقاء نفسى .

﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى ولست فى الناس إلا ناصحا آمينا ، ومبشرا

بالحق ، ومنذرا من العذاب ، فى بيان ووضوح يصل إلى العقول والأرواح .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ أى قل لهم يا محمد

أخبرونى عن موقفكم وأحوالكم إن ثبت لكم أن القرآن الكريم كلام الله تعالى وليس سحرا ، وليس من عندى كما تزعمون ... لو ثبت لكم ذلك ماذا تفعلون وقد كذبتُم به ؟

(١) صحيح البخارى . كتاب الشهادات . باب القرعة فى المشكلات ج ٣ ص ١٨١ .

(٢) مسند أبى داود الطيالسى . باب يوسف بن مهران ج ٤ ص ٤١١ .

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَمِمَّنْ وَأَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أى ماذا

أنتم فاعلون وقد كذبتكم بالقرآن الكريم ... وقد شهد على صدق القرآن الكريم رجل من بنى إسرائيل هو عبد الله سلام ﷺ أعلم علماء بنى إسرائيل ... ثم قال لهم رسول الله ﷺ : أنتشعرون حينئذ بالخزى والضلال ، وتعلمون أنكم أضل الناس فقد كفرتم بالحق ، وظهر ضلالكم ، وفساد طوبيتكم ؟

عن عبد الله بن سلام ﷺ قال : نزلت فى آيات من القرآن الكريم ، نزل فى قوله تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ ، ونزل فى قوله تعالى : ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ .

يروى البخارى سبب شهادة عبد الله بن سلام بما رواه أنس بن مالك ﷺ قال : بلغ عبد الله بن سلام مقدم النبي ﷺ المدينة ، فأثاه وقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي ، ما أول أشرط الساعة ؟ ... وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ... ومن أي شئ ينزع الولد إلى أبيه ؟ ... ومن أي شئ ينزع إلى أخواله ؟ ...

فقال رسول الله ﷺ : أخبرني بهن أنفا جبريل ﷺ .

فقال عبد الله : ذاك عدو اليهود من الملائكة فقراً هذه الآية : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ .

فقال رسول الله ﷺ : أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت .

وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبقت كان الشبه لها .

قال عبد الله : أشهد أنك رسول الله^(١) .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أى إن الله لا يوفق المعتدين

على الحق ، الجاحدين لنعم الله تعالى .

عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : "انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى

دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلا منكم يشهدون

أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، يحط الله عن كل يهودى تحت أديم السماء الغضب الذي عليه .

فسكتوا فما أجابه منهم أحد .

ثم رد عليهم فلم يجبه أحد ثلاثا .

فقال ﷺ : أبيتم ، فوالله لأنا الحاشر ، وأنا العاقب ، وأنا المقفى ، آمنتم أو كذبتم .

ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا نخرج ، فإذا رجل من خلفه .

فقال : كما أنت يا محمد فأقبل .

فقال ذلك الرجل : أى رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود ؟

فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلا أعلم بكتاب الله منك ، ولا أفقه منك ، ولا من أملك ولا من جدك .

فقال : فإننى أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه مكتوبا فى التوراة والإنجيل .

(١) صحيح البخارى . كتاب أحاديث الأنبياء . باب خلق آدم ﷺ ج ٤ ص ١٣٢ .

قالوا : كذبت .

ثم ردوا عليه وقالوا : شرا .

فقال رسول الله ﷺ : كذبتُم لن يقبل الله منكم قولكم .

فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله ، وأنا ، وعبد الله بن سلام ^(١) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾

أى قال المشركون من أهل مكة للمؤمنين : لو كان ما يدعوننا إليه محمد خيرا لبادرنا إلى اتباعه ، وما سبقنا الأراذل إليه كعمار ، وصهيب ومن لف لفهم من الفقراء ...

وانما قالوا ذلك لأنهم يرون أن معالى الأمور ، وعظائم الأشياء لا ينالها الأراذل ، وسقاط الناس ، ورعاة الإبل والشاة ، وظنوا فى أنفسهم أنهم المستحقون للسبق فى كل مكرمة ، والفوز بكل منزلة عالية ، وآمنوا بأن الرياسة الدينية تأتى تبعا للأسباب الدنيوية ... عن قتادة أن ناسا من المشركين قالوا : نحن أعز ، ونحن ، ونحن ، لو كان خيرا ما سبقنا إليه الضعفاء ^(٢) .

ولما أسلمت جهنة ، ومزينة ، وأسلم ، وغفار قالت بنو عامر ، وغطفان ، وأشجع ، وأسد ، لو كان هذا خيرا ما سبقنا رعاة الإبل والشاة ^(٣) .

وغاب عنهم أن الإيمان مرتبط بكمال النفس ، وصفاء الروح ، والزهد فى شهوات الدنيا ، وزخارفها ولا صلة للصفات المادية العارضة للكمال الإنسانى ، والرقى الأخلاقى ، والصفاء الذهنى ، فرب ضعيف بين الناس يكون أفضلهم ،

(١) مسند الإمام أحمد . مسند عوف بن مالك ج ٣٩ ص ٤٠٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد ط . الرسالة ج ٣٩ ص ٤١٠ .

(٣) تفسير الخازن ج ٦ ص ١٥٩ .

والمرء بأصغريه قلبه ولسانه . يقول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾^(١) ... ولذلك يقول القائل :

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها .: فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ أى قد ظهر
عنادهم وكفرهم وبان خطأ قولهم ، وإذا لم يؤمنوا بالإسلام ، ويهتدوا بهدى الله
فسيستمررون على إفكهم ، وسيقولون دائما عن الحق حين يأتيهم : هذا كذب
مأثور عن الأوائل ، وما هم إلا متكبرون يحتقرون الضعفاء ، وينكرون حق
الله تعالى .

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ أى يرد الله زعمهم ،
وضلالهم ، ويعرفهم بأن موسى عليه السلام جاء لقومه قبل محمد ﷺ بكتاب منزل
عليه من الله تعالى يؤم قومه للخير ، ويهديهم للصواب ، ويبشر بمحمد ﷺ ،
ولذلك فنزول الوحي حق ثابت من العصور الخوالى ، ومجيئه لمحمد ﷺ ليس
ببعيد ولا غريب ...

إن مجئ القرآن الكريم مصدقا لكتاب سبقه برهان على أنه لا إفك فيه
وأنه كتاب منزل من عند الله تعالى .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَنُشَرِّى
لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ أى وأنزل الله القرآن الكريم ، وجعله مصدقا للكتب السابقة ،
ومهيما عليها ، وجعل لغته العربية ليفهم العرب دلالاته ، وليكون فيهم منذر
للمجرمين ، ومبشر للمحسنين المطيعين .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ ﴾ أى إن هؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بالله تعالى ، ودخلوا فى

الإسلام ، واستقاموا على صراطه المستقيم يجازيهم الله بالأمن ، والطمأنينة فهم

لا يخافون حين يخاف غيرهم ، ولا يحزنون على شئ فاتهم .

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى

أعد الله لهؤلاء المؤمنين الصادقين المستقيمين جنات يدخلونها ، لتكون لهم

مقاما دائما جزاء عملهم الطيب فى الحياة الدنيا .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الذين كفروا لا يؤمنون بالله ، ولا يسمعون كلامه ، ولا

يصدقون به ، ويتهمون القرآن الكريم بالسحر ، وبالاختلاق البشرى ، وتظهر

الآيات قول النبى ﷺ لهم بأنهم لا يملكون شيئا مع الله الذى أرسلنى ولو

كذبت عليه لعاقبنى ، ويكفينى أنه سبحانه وتعالى شهيد بينى وبينكم ، ولست

أول الرسل ، فقد سبقنى رسل غيرى قابلهم قومهم بمثل ما قابلتمونى به وأنا

متبع لربى ادعوكم وأنذركم .

وتوضح الآيات أن الخزى سينال المشركين بعد شهادة عبد الله بن سلام ﷺ

على توحيد الله تعالى ، واسلامه وايمانه ، وظهور كذبهم وظلمهم .

وقد زعم المشركون أنهم على الحق ، ولو كان محمد صادقا لسارعوا إلى

الإيمان به ، وما تركوا الضعفاء يسبقونهم .

وقد ثبت كذب المشركين لأن القرآن الكريم مصدق للتوراة، ومهيمن عليه .

فما لهم لا يؤمنون به ؟

(٥٩٦)

وتواصل الآيات حمل البشرى للمؤمنين المستقيمين على دين الله تعالى
فهم أصحاب الجنة ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

رد مزاعم المشركين عن القرآن الكريم

القرآن الكريم أساس الدين كله ، وفيه تعاليم الإسلام ، ومنهج الدعوة إليه
والتصديق به إيمان بالدين كله لأنه ينادى بالتوحيد ، ويؤكد الرسالة ، ويشهد
للملائكة ولرسل الله السابقين ، ويعرض كثيرا من مشاهد اليوم الآخر .
وقد اهتم المشركون والمعارضون لدين الله تعالى قديما وحديثا إلى اتهام
القرآن الكريم بما ليس فيه ، وهم فى اتهاماتهم كاذبون ... وقد تناولت الآيات
بعض هذه المزاعم ، وردتها .

لقد قالوا حين نزلت عليهم آيات القرآن الكريم بينة مفصلة قالوا عنها سحر
مبين .

ولجأوا إلى هذه التهمة لأنهم رأوا أن أهل مكة وهم أهل البلاغة والفصاحة
عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر سورة قرآنية ، وكان هذا العجز دليل صدق
القرآن الكريم ، وأنه كلام الله تعالى ... لما رأوا ذلك زعموا أن القرآن سحر
العرب فأفقدتهم ملكة البيان ، ومنعهم عن الرد على التحدى ، وكذبوا فى ذلك
لأن السحر لو حدث لأطبق على ملكات الإنسان كلها، ولم يحدث ذلك مع أهل
مكة ، وأيضا فإن السحر يذهب بعد وقت محدد ، وأعجاز القرآن غير منقطع
فمالهم لا يأتون بمثله ؟

إن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، وقد اشتمل مع الفصاحة والبلاغة على الحكم ، والنظم ، والتشريع ، ومنهج بناء الفرد ، واصلاح المجتمع ، وصناعة خير أمة للناس فى صور بلاغية عديدة مثل التشبيه ، والأمثال ، وألوان البديع فى فصاحة واضحة .

قالوا : إن محمدا ألف القرآن الكريم من قبل نفسه ، وغفلوا عن كل ما يعرفونه عن محمد ﷺ فقد نشأ بينهم ، وبقي على أميته ، وشب فيهم وهم يعلمون كل شئ عنه ، فقد شاركهم فى حياتهم ، فرعى الغنم لهم ، وشاهد حلف الفضول ، واشترك فى حرب الفجار ، وتاجر بمال خديجة ، وشهدوا له بالصدق والأمانة ... فمن أين أتته القدرة ، وآتاه العلم ليؤلف القرآن الكريم ؟ وأيضا فهم يجهلون قدرة الله تعالى ، ويتصورون إنسانا يفترى على الله تعالى ، وينجح فى أكاذيبه على الله .

ولذلك عرفهم رسول الله أنه رسول الله القوى القادر ، وأنه على يقين من أنه لو كذب على الله تعالى لقضى عليه ، وعاقبه ... غير أنه ﷺ لم يكذب ولذلك بواليه الله بالوحى ، ونزول القرآن ... وهذا تكذيب لهم .

وقالوا : لو كنا نعلم صدق القرآن الكريم ما سبقنا أحد إلى الإيمان به ... وكذبوا لأن خيرا كثيرا فاتهم ، وضللا كبيرا يعيشون فيه ... ودلائل ذلك عبادة الأصنام واتخاذها آلهة من دون الله ... لأن الأصنام حجر مصنوع بأيديهم لا يعى ، ولا يسمع ، ولا يبصر شأن الحجر الموجود فى الجبال ، ومع ذلك يجعلونه إلها ، ويعبدونه ، ويطلبون منه ، ويستغيثون إليه ... أبعد ذلك خيبة وضلال !؟

إن سبب موقف المشركين هو الجحود ، والحقد ، وظلام الباطل ، وجهالة العقول ... ولن يتخلصوا من هذا الإفك إلا بالهداية والتوفيق .

(٥٩٨)

ولذلك كذبوا رسول الله ﷺ ، وقد رد عليهم كذبهم بأوجه عدة :

قال لهم ﷺ : إن الأمر كله لله فهو ربى وربكم ، وهو يكفينى فى الفصل بينى وبينكم وهو أعلم بى وبكم .

وقال لهم : لم تكذبون بى فلست أنا الرسول الأول ، وانما سبقنى رسل آخرون . فكيف تصدقونهم ، وتكذبوننى ؟! مع أن الله واحد ، وهو الذى أرسل الرسل جميعا ، وأوحى إليهم بدين واحد هو الذى ادعوكم إليه .

وقال لهم ﷺ : إن القرآن والإسلام يشهد بصدقها كثير من الناس العقلاء فكيف تصدقونهم وتكذبوننى ؟!

إن دافع المشركين هو الكبر ، والاستعلاء ، وحب السبق والغلب ، وسيستمرون على ضلالهم مادام اسوداد قلوبهم وعقولهم موجودا .
إن رسول الله هو الرحمة المهداة ، وهو قدوة المسلمين أجمعين ، وتعليم سيرته ﷺ تعليم للخلق الحسن ، والسلوك القويم .

والواجب :

تقدير رسول الله ﷺ والمحافظة على صورته الكريمة فى العقول ، والنفوس ليبقى رمزا هاديا إلى الله ، ومنازة على صراط الله المستقيم .

الوصية بالآباء والنهي عن العقوق

يقول الله تعالى :

﴿ وَوصيناك بالآبائِ إِذْ نَسَنَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَنًا ۚ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۚ وَحَمَلُهُ وَفَصَّلُهَا ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۚ إِنَّي تَبَتُّ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۝ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلُهُمْ وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبْتُمْ طِبَاقَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلال المشركين ومزاعمهم عن دين الله تعالى وكفرهم بالله ، جاءت هذه الآيات بالوصية للوالدين لأنهم أصحاب حق على الأبناء ، ولبيان أن بعض الناس يعقون آباءهم كما أن من الناس من يكفر بالله تعالى .

(٦٠٠)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات الوصية للآباء لما لهم على أبنائهم من حقوق ، وتعرض كذلك لبعض الأبناء العاقين لأبائهم ، وتبين منازل البررة والعاقين فى الآخرة وما يقال للمكذبين يوم القيامة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ أى أمرنا الأبناء ، وألزمناهم بالإحسان إلى الآباء والأمهات ، والحنو عليهما ، واحسان معاملتهما ، والبر بهما فى حياتهما ، وبعد مماتهما ، وتجنب العقوق بهما ، أو إلحاق أى إساءة لهما ، وأسندت الآية الوصية لله لبيان أهميتها ، وإبراز ما للوالدين من حقوق على الأبناء .

و "ال" فى الإنسان للاستغراق لتعم جميع الناس ، وبخاصة من يؤمن بالله تعالى ، ويطيع مواعظه ونصائحه فى إحسان المعاملة ، والتخلق بالخلق الكريم .

﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ أى إن الأم حملت ولدها فى بطنها متعبة صابرة على مشقة تجعلها كارهة لأحوال ذلك الحمل ... ووضعتة بآلام ومتاعب جعلتها كارهة لوضع ما فى بطنها .

ومع متاعب الحمل والوضع تتمنى الأم للولد أن يكون صالحا سعيدا .

﴿ وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ أى مكثت الأم فى حملها ،

وارضاعها ولدها ثلاثين شهرا تحملت فيها المتاعب والأذى .

وقد وضحت الآية مدة الحمل مع مدة الفصال وبينت أنهما معا ثلاثون شهرا لاختلاف مدد الحمل إذ قد يكون الحمل ستة أشهر ، أو سبعة أشهر ، أو ثمانية أشهر ، أو تسعة أشهر ، فإذا كان حمل المرأة تسعة أشهر وهو الغالب ، أرضعت المولود واحدا وعشرين شهرا ، وإذا كان الحمل ثمانية أشهر أرضعته اثنين وعشرين شهرا ، وإذا كان الحمل سبعة أشهر أرضعت الأم ولدها ثلاثة وعشرين شهرا ، وإذا كان الحمل ستة أشهر أرضعت وليدها أربعة وعشرين شهرا ، وذلك أقصى أمد الإرضاع فعوضوا عن نقص كل شهر من مدة الحمل شهرا زائدا في الإرضاع لأن نقصان مدة الحمل يؤثر في الطفل هزلا .

ومن بديع النظم في الآية دلالتها على احتمال أن تكون مدة الحمل أقل من تسعة أشهر ، لأنها لم تحدده بتسعة أشهر ، والغرض هو إظهار حق الأم في البر بما تحملته من مشقة الحمل ، فمشقة الحمل أشد من مشقة الإرضاع فلولا قصد الإيحاء إلى هذه الدلالة لكان التحديد بتسعة أشهر أجدر بالمقام .

وقد عد بعض الصحابة أقل مدة الحمل ستة أشهر بالنظر إلى قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ ^(١) لأن مدة الإرضاع عامين وما بقى من الأشهر الثلاثين ستة أشهر ، هي أقل مدة الحمل .

عن معمر بن عبد الله الجهني رضي الله عنه قال : تزوج منا رجل من امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان رضي الله عنه فذكر ذلك له فبعث إليها .

فلما قامت لتلبس ثيابها بكت أختها .

فقالت لها : وما يبكيك ؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط فيقضى الله في ما شاء ، فلما أتى بها عثمان رضي الله عنه أمر برجمها . فبلغ ذلك عليا رضي الله عنه فأتاه فقال : ما تصنع ؟

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ .

(٦٠٢)

قال : ولدت لتمام ستة أشهر وهل يكون ذلك ؟

فقال له على : أما تقرأ القرآن ؟

قال : بلى .

قال : أما سمعت الله عز وجل يقول : ﴿ وَحَمَلُهُ وَفَصَلُّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ .

ويقول : ﴿ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ فلم تجده أبقي من الثلاثين إلا ستة أشهر صالحة للحمل .

فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا ، على المرأة ، فوجدها قد فرغ منها .

قال معمر : فو الله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبهه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : ابني والله لا أشك فيه^(١) .

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ أى ويعيش الوليد بعد

مولده بأمر الله حتى يبلغ مرحلة الرجولة ، والقوة ، والعقل .

وعند بلوغه سن الأربعين يكتمل عقله ، وتتم قوته ، وهو السن الذى بعث

الله عنده جميع الأنبياء ما عدا عيسى ويحيى عليهما السلام .

﴿ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾

أى يقول الإنسان المسلم حين بلوغ الأربعين مؤمنا داعيا ربه بأمر هو :

(١) ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ أى

وفقنى يا الله لشكر نعمتك التى غمرتني بها فى ديني ودنياي بما أتمتع به

من سعة العيش ، وصحة الجسم ، وأمنى فى الحياة وأكرمنى ياربى

بالإخلاص لك ، واتباع أمرك ، وترك نواهيك ، واعنى على شكر نعمك

(١) تفسير المراغى ج ٢٦ ص ١٨ .

(٦٠٣)

التي أنعمت بها على وعلى والدائ فقد أكرمانى ، وتحملا المشاق من
أجلى ، وكان اهتمامهما بى أكبر من اهتمامهما بأنفسهما .

(٢) ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ﴾ أى اجعلنى يا ربى أعمل صالحا ترضاه
لأنال مثوبتك ، وعونك .

(٣) ﴿ وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ أى اجعل ياربى الصلاح ممتدا إلى ذريتى ،
متجذرا فى قلوبهم ، وأعمالهم .

قال علي بن أبي طالب عليه السلام تحقق هذا الدعاء فى أبى بكر عليه السلام فقد أسلم
أبواه جميعا ، ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أن أسلم أبواه غيره ، فأوصاه الله
بهما^(١) .

وقال ابن عباس : اعتق أبو بكر عليه السلام تسعة من المؤمنين يعذبون فى الله
منهم بلال ، ولم يرد شيئا من الخير إلا أعانه الله عليه ، ودعا أيضا فقال :
﴿ وَأَصْلَحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ﴾ فأجابه الله تعالى فلم يكن له ولد إلا آمن ، فاجتمع
لأبى بكر إسلام أبويه : أبوه قحافة عثمان بن عمرو ، وأمه أم الخير بنت
صخر بن عمرو ، وابنه عبد الرحمن ، وابن عبد الرحمن أبى عتيق محمد ،
فهؤلاء أربعة أبو بكر وأبوه وابنه عبد الرحمن وابن ابنه محمد كلهم أدركوا النبى
ﷺ وأسلموا ولم يجتمع ذلك لأحد من الصحابة غير أبى بكر^(٢) .

﴿ إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى إنى تبت إليك ياربى وأقلعت
عن ذنوبى التى وقعت فيها ، وانى من المستسلمين لأمرك ، الخاضعين لك ،
المطيعين لكل ما جاء به رسولك ﷺ .

(١) المرجع السابق .

(٢) انظر كتب السيرة والتاريخ .

روى أبو داود فى سننه أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم أن يقولوا فى التشهد:
 اللهم ألف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، واخرجنا من
 الظلمات إلى النور ، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا فى
 أسماعنا ، وأبصارنا ، وقلوبنا ، وأزواجنا ، وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب
 الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها عليك ، وأتمها علينا^(١) .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ
 فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ الإشارة إلى
 المذكورين المتصفين بالصالح ، والتقوى ، والانقياد لله تعالى للإخبار بما أعد
 الله لهم من جزاء حسن طيب .

حيث يقبل الله عملهم الصالح ، ويجزيهم على أعمالهم كلها بمثل جزاء
 أحسنها ، ويتجاوز عن سيئاتهم التى وقعوا فيها ، وتابوا عنها ، ويغفرها لهم ،
 ويجعلهم فى عداد أصحاب الجنة خالدين فيها .

﴿ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ أى وعد الله المؤمنين وعدا
 صادقا لا يتخلف ، وسيحقق لهم الوعد بالمغفرة ، ومضاعفة الحسنات ،
 وادخالهم جنات النعيم .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفِ لَكُمْ مَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ
 الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ أى وهذه قضية عامة تقع من الأبناء حين يعقون آباءهم ،
 ويكفرون بدين الله تعالى .

(١) سنن أبى داود . كتاب الصلاة . باب التشهد ج ١ ص ٢٥٤ .

وصيغ هذا في أسلوب جدل بين والدين مؤمنين وولد كافر ، لأن لذلك الأسلوب وقعا في أنفس السامعين .

يقول الولد العاق لأبويه المؤمنين : إني متضرر من دعوتكم لى ، وتخويفى من عذاب الله تعالى ، وانذارى بعذاب ألقاه يوم القيامة ، وانى لا أصدق بما تدعوانى إليه ، ولا أؤمن به ، فقد هلكت أمم عدة ، وفنيت ، وذهب أثرها ولم يبق لها ذكر إلا فى أسفار التاريخ ، وأحافير الصحارى .

﴿ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ ﴾ أى يرد الآباء على هذا العاق ويقولان له : إنك هالك معذب إن لم تؤمن ، ويسألان الله له الهداية ، ويستغيثان ربهم لينقذه من هلاك محقق ، ويطلبان من الله أن يوفقه للتوبة ، ويقبلها منه .
﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى يقول الأبوان لولدهما : آمن بالله حتى يتحقق وعده لك ، فوعده حق لا ريب فيه .

﴿ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى يرد الولد العاق متمسكا بكفره وجحوده على والديه ويقول : ما تقولانه لى عن البعث واليوم الآخر خيالات منقولة من تصورات كاذبة سطرها السابقون ، وجاءت إليكم فصدقتم بها ، وتصورتهم تحول الأكاذيب القديمة إلى صدق وحق .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾ "أولئك" اسم إشارة يشير إلى الهالكين فى الأمم السابقة الذين وجب عليهم العذاب ، وحلت بهم العقوبة بسبب ضلالهم ، وكفرهم بآيات الله ، وانكارهم لليوم الآخر بكل ما فيه من مشاهد وأركان سواء كانوا من الجن ، أو من الإنس .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أى أنهم خسروا الدنيا فقد ضيعوا فطرتهم ، وملأوها بالإنكار والكفر ، ولم يؤمنوا بالله رب العالمين ... وخسروا الآخرة تبعا لخسارتهم الدنيا فقد استحقوا عذاب جهنم ، والإقامة الدائمة فى نار السعير مع إخوانهم الضالين والمكذبيين .

وفى يوم القيامة تجزى كل نفس بما كسبت . يقول الله تعالى : ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا^ط وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أى فى يوم القيامة يجازى الله الأبرار والفجار من الجن والإنس ، ويوضع كل فرد فى درجته ، ومنزلته فى الجنة أو فى النار ، ويجد كل إنسان ما عمله فى الدنيا مصاحبا له فى الآخرة ، حيث توفى كل نفس بما كسبت ، بلا ظلم أبدا .

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أى فى يوم القيامة تتجلى الحقائق ، وينال كل فرد جزاء عمله ، فيأتى الله بالكافرين ، ويريهن مصيرهم فى جهنم التى يمتنون الخلاص منها ، ويسألهم موبخا لهم ، ومستهنئا بهم .

- ألم تعرفوا مشاهد الآخرة ؟ ...
- ألم يبلغكم الرسول بهذا المصير ؟ ...
- ألم يحذركم الرسول من عذاب جهنم ؟ ...
- ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾^(١) ؟

(١) سورة المؤمنون ، الآية ١٠٥ .

لقد غرتكم الحياة الدنيا ، وعثتم فى طياتها ، وزين الشيطان لكم أعمالكم فاستمتعتم بها ، وفى يوم الحساب تعاقبون بعذاب يهينكم ويخزيكم بما اقترفتموه فى الدنيا من كفر ، وجحود ، وانصراف عن دين الله تعالى .

وفى الآية دعوة إلى الزهد فى متع الدنيا لأن النفس إذا ألفت التمتع تعتاد عليه ، وتكثر منه ، ويصعب عليها تركه ، وربما أوقعها ذلك فى المعاصى كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه ... ومن تعود الزهد ألفه ، ورغب فيه ، وتمنى ما عند الله ومن ذاق حلاوة الإيمان رغب فى نعيم الجنة ، وذل نفسه ونقصه ، وقلل من طمعها فى الدنيا .

يقول البوصيرى :

والنفس كالطفل أن تهمله شب على

حب الرضاع وأن تطفمه ينفطم

لما وبخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات آثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون اجتتاب اللذات فى الدنيا رجاء ثواب الآخرة .

عن عمر بن الخطاب ؓ قال : دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال حصير قد أثر فى جنبه ، فقلت : أستأنس يا رسول الله ؟

قال : نعم .

فجلست ، فرفعت رأسي فى البيت ، فو الله ما رأيت فيه شيئاً يرد البصر إلا أهبة ثلاثة ، فقلت : ادع الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم ، وقد اعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله .

فاستوى رسول الله ﷺ جالسا ثم قال : أو فى هذا يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا .

فقلت : استغفر لي يا رسول الله^(١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب موعظة الرجل ابنته ج ٧ ص ٢٨ .

وعن عائشة قالت : ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ إنا كنا لننظر إلى الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين ، وما يوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار . قلت : يا خالة فما كان يعيشكم ؟

قالت : الأسودان التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينها^(١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير^(٢) .

وعن أبي هريرة ؓ قال : لقد رأيت ، إما إزار ، وأما كساء ، قد ربطوا في أعناقهم فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته^(٣) .

وعن إبراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما فقال : قتل مصعب بن عمير وهو خير مني فكفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه بدا رأسه .

وقال : قتل حمزة وهو خير مني ، فلم يوجد ما يكفن فيه إلا برده . ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط ، وقد خشيت أن تكون عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام^(٤) .

وقال جابر بن عبد الله ؓ : رأى عمر بن الخطاب ؓ لحما معلقا في يدي فقال : ما هذا يا جابر ؟

(١) صحيح البخارى . كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها ج ٣ ص ١٥٣ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب الزهد . باب ما جاء فى معيشة النبى ﷺ ج ٤ ص ٥٨٠ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب الصلاة . باب نوم الرجال فى المسجد ج ١ ص ٩٦ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب الجنائز . باب إذا لم يوجد إلا ثوب واحد ج ٢ ص ٧٧ .

قلت : اشتهيت لحما فاشتريته ، فقال عمر : كلما اشتهيت يا جابر اشتريت ، أما تخاف هذه الآية : ﴿ أَذْهَبَتْكُمْ طَبِيبَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ ؟

وروى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لأننا أعلم بخفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكبادا وصلاء وصنابا ولكني أستبقى حسناتي ، فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال : ﴿ أَذْهَبَتْكُمْ طَبِيبَتُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ .

وعن ثوبان رضي الله عنه أنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سافر كان آخر عهده من أهله فاطمة رضي الله عنها ، وأول من يدخل عليه منهم فاطمة رضي الله عنها فقدم من غزاة فأثاها فإذا بمسح على بابها ، ورأى على الحسن والحسين رضي الله عنهما قلبين (سوارين) من فضة فرجع ولم يدخل عليهما ، فلما رأت ذلك فاطمة رضي الله عنها ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى ، فهتكت الستر ، ونزعت القلبين من الصبيين وقطعتهما ، وقسمته بينهما فبكيا ، وانطلقا إلى رسول الله ﷺ وهما يبكيان ، فأخذ ذلك رسول الله منهما السوارين المقطعين ، وقال : يا ثوبان اذهب بهذا إلى بني فلان (أهل بيت بالمدينة) واشتر لفاطمة قلادة من عصب (خرز أبيض) وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتي : ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم في حياتهم الدنيا^(١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تدعو الآيات إلى الوصية بالوالدين لما بذلاه من عطاء ، ونفقة ، وبما تحملا من مشقة وعناء ، وتعرض صورا للبر وللعقوق ، وتوضح المصير الأخرى للطائعين والمكذابين .

(١) مسند أحمد . كتاب تنمة مسند الأنصار . باب ومن حديث ثوبان ج ٣٧ ص ٤٦ .

(٦١٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى **وصية الله للوالدين**

قدر الله للوجود أن يتحقق بالتزاوج بين الذكر والأنثى . يقول الله تعالى :
﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(١) .

وقدر الله وجود الناس من أب وأم جعلهما سببا لمجئ الإنسان .
وقضى الله بأن يتحمل الآباء والأمهات العنت والمشقة فكم نفقة تبذل ؟
وكم زوجية تقام ؟

ويضع الله في الوالدين حنينا إلى الولد ، فيتمنيان أن يرزقهما الله الولد
والذرية .

ويتحمل الوالد مشقة السعى والإنفاق ، وتحمل الأم مشقة الحمل والولادة
والإرضاع ليتمتعاً بهية الله لهما .

ولذلك وصى الله الولد بأبويه فقد ربياه صغيرا ، وأكرماه ضعيفا ، وسعدا
بوجوده سليما ، وتمنيا له المجد ، والتوفيق والسعادة .
إن الوالدين سبب وجود الولد ، ولولاهما ما أوجده الله ، ولولا سعيهما
ما قدر الله له التربية الصحيحة .

وعلى الإنسان أن يهتم بوالديه وفاء لحقهما ، وطاعة لله تعالى . يقول
سبحانه : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ
عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَهَرَّهُمَا وَقُلْ لَهُمَا

(١) سورة الذاريات ، الآية ٤٩ .

(٦١١)

قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا
كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٣٤﴾^(١) .

لقد قرن الله وصيته بالآباء بعبادته ، وأمر بالحسن لهما بلا تحديد ليعم
الحسن كله فى الأقوال ، والأفعال ، والأحوال .
وليعلم الأبناء أن بر الآباء مهمة ضرورية لأن الآباء يعتبرون الأبناء
امتدادا لهم ، وأى تقصير من الجزء يعد هدمًا للكل ، ولذلك كانت طعنه الابن
دامية ، وعقوبه هلاك وتدمير .

وليعلم الآباء أن البر والعقوق ينتقل إلى الذرية فليحذروا عقوق أبنائهم ،
ويتلمسوا رضا آبائهم فهو خلق إنسانى ، وطاعة لله ، وتجارة رابحة فى
الحياة الدنيا ، وجزاء حسن فى جنات النعيم .

الركيزة الثانية

بيان صورتين متقابلتين للبر والعقوق

تعرض الآيات صورتين متقابلتين لمعاملة الأبناء مع آبائهم :

أحدهما : صور إنسان بار ، عارف لفضل أبويه ، ومصدق بأمر الله
تعالى تجد هذا البار يحرص على إرضاء والديه ، وطاعة الله فيهما ، ويتجه
إلى الله داعيا لهما ، وأن يرزقه الذرية الصالحة ، وأن يقبل منه عمله وتوبته
وأن يتقبله فى الصالحين .

وأصحاب هذه الصورة يتقبل الله عملهم ، ويجزيهم بالجزاء الحسن الجميل
، ويرفع الله كافة أعمالهم الحسنة إلى مستوى أرقاها وأعلاها ، ويغفر لهم ذنوبهم
، ويمتعهم فى الآخرة بجنات النعيم .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٢٣ ، ٢٤ .

(٦١٢)

ثانى هاتين الصورتين : إنسان عقى والديه ، وعصى الله تعالى ، وكفر بالبعث والحساب ، واشفق والده عليه ، وأخذاً يدعوانه ليتوب ويغفر الله له ، وهو يصصر على عناده وكفره .

أصحاب هذه الصورة يستحقون الطرد من رحمة الله ، ويجعل الله مصيرهم فى جهنم .

إن هاتين الصورتين المتقابلتين فى البر والعقوق عنوان على الكفر والإيمان ، وبرهان على مصير كل من أصحابهما فى الآخرة .
وقد عرض الله هاتين الصورتين ليكون عبرة وعظة للعقلاء

الركيزة الثالثة

الجزاء الحق فى الآخرة

يعمل المؤمنون فى الدنيا ليفوزوا فى الآخرة فسيقومون على أمر الله تعالى ، ويطيعون رسول الله ﷺ ويلتزمون بما جاء فى دين الله من بر ، وحسن معاملة ، ومحافظة على حقوق الله ، وحقوق الناس ، وهؤلاء يتقبل الله عملهم ، ويجزيهم أحسن الجزاء ، ويغفر لهم ، ويدخلهم فى جنات النعيم ، ويضعه فى صحبة النبيين والشهداء والصالحين .

أما الكافرون الذين لم يؤمنوا بالله تعالى ، ولم يصدقوا برسول الله ﷺ وأنكروا البعث والحساب فهم الخاسرون للحياة الدنيا ، وهم فى الآخرة هم الأخسرون لما يلحق بهم من عذاب الهوان والذل .

إن العاقل هو من عمل للآخرة وسعى لها سعيها ، وعاش مؤمناً ومات على الإيمان .

قصة "عاد" عليه السلام مع قوم عاد

يقول الله تعالى :

﴿ وَادُّكَّرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِأَلْحَقَافٍ وَقَدْ خَلَّتِ الْنُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١١٠ ﴾
 قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ ءَاهِتِنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ١١١ ﴾
 قَالَ إِنَّمَا أَلْعَلُّمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ١١٢ ﴾
 فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ١١٣ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١٤ ﴾
 تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِطُهُمْ ١١٥ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ١١٦ ﴾
 وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا تَجْحَدُونَ بِءَايَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ١١٧ ﴾
 وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١١٨ ﴾
 فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلَٰهَةً ١١٩ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ١٢٠ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ١٢١ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة صور البر والعقوق ، وألوانا من الكفر والإيمان جاءت هذه الآيات بقصة "عاد" وما حدث منهم مع رسول الله "هود" عليه السلام . فقد كفروا بالله الذي خلقهم وسواهم ، ومكن لهم في الأرض ، وأكرمهم بسعة الرزق

(٦١٤)

، وطيب العيش ، وقوة السلطة ، وهذا أكبر العقوق الذى يقع فيه المشركون فهم ينكرون الواقع ، ويجحدون النعيم ، ويدعون لأنفسهم القدرة والعلم ، وهم كاذبون .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قصة "هود" عليه السلام مع قومه ، فلقد سكنوا بالأحقاف ، وأنكروا البعث ، ولم يتعظوا بأخبار الأمم التى سبقتهم ، واستهزأوا برسولهم ودعوته فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ أى اذكر يا محمد

لقومك هودا عليه السلام ، فقد اختاره الله من قومه "عاد" وبعثه رسولا إليهم ، يدعوهم لعبادة الله وحده .

وموطن عاد يسمى بـ "الأحقاف" وهو واد صحراوى طويل مكون من كثبان الرمال ، فيه ارتفاع وانخفاض سميت به المنطقة الواقعة بين عمان وعدن ، أعلى حضر موت ، وقد اشتغلت عاد بالرعى فى الصحارى ، فكانوا يرحلون فى أماكن عديدة فى هذه المنطقة الواسعة ...

و "عاد" فرع من "ارم" التى قال الله فيها : ﴿إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ٧ أَلَّتِى لَمْ

تُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ٨ ﴿^(١) .

وذكرت الآية هودا عليه السلام بأنه أخ لعاد لتبين مدى حرصه عليهم ، وصدقه فى نصيحهم ودعوتهم .

(١) سورة الفجر ، الآية ٧ ، ٨ .

واكتفت الآية بالإنداز لمناسبة المقام لأن عادا كفروا بالله ، وعبدوا الأصنام ، وجحدوا النعم التي جعلها الله لهم فاستحقوا هذا الإنذار .

واكتفت السورة بذكر قصة عاد دون غيرها لأنها أمة كبيرة ظهرت بعد نوح ﷺ ولها آثارها الباقية التي يراها العرب في جزيرتهم ، وهذا يبين أن الناس عادوا إلى الشرك والجحود بعد نوح ﷺ وهى صورة وجدت مع جميع الرسل بعدهم ، وتبين كذلك محاسن الاستشهاد بالواقع فى خطاب الدعوة .

﴿ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾

أى وقد مضت رسل من قبل هود ﷺ ، ومن بعده جاءوا لأقوامهم ، ودعوههم إلى الإيمان بالله ، وترك عبادة الأصنام ، وضرورة قصر العبادة لله وحده .

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى قال كل رسول لأمتة :

اعبدوا الله وحده فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، إن دمتم تعبدون الأصنام من دونه ، وعذاب الله عظيم يقع عليكم إن لم تؤمنوا ، إنى أخاف وقوعه عليكم ، فأمنوا بالله ، وتوبوا إليه ، واستغفروه حتى لا تقعوا فيه ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ

مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾^(١) ، و ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾^(٢) .

رد عاد على هود ﷺ و ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ ءَاهِتِنَا ﴾ أى

جئتنا ، وزعمت أنك رسول الله إلينا ، وكل جهدك صرفنا عن آلهتنا التي نعبدها ، وتجعلنا نعبد إلها واحدا ، إن هذا لشيء عجاب .

(١) سورة الشعراء ، الآية ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) سورة الدخان ، الآية ٤١ .

﴿ فَأَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴾ أى إن كنت صادقاً فى أنك

رسول الله فهلهم إلى ما تعدنا به ، واجعل إلهك ينزل العذاب الذى تخوفنا منه .

رد عليهم هود عليه السلام و ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أى إن علم وقت

وقوع العذاب عند الله الذى أدعوكم لعبادته ، وهو الحق ، وهو رب العالمين .

﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ أى ورسالتى التى أمرنى الله بها أن أبلغكم

الدين الحق ، وأعرفكم بالله تعالى ، وأوضح لكم فساد ما تعبدون .

﴿ وَلَيْكِنِّي أُرْىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أى إني ادعوكم إلى الحق ، وأراكم

تعارضوننى بسبب ما أنتم فيه من جهل ، أعميت بصائرهم وأبصارهم ، فانصرفتم

عن الحق ، وتركتم الصراط المستقيم ... وحبب الشيطان إليكم الكفر ، والفسوق

، والعصيان ، والجحود ... فلما ظهرت بوادر العذاب ظنوه خيراً لهم .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾

أى لما جاءهم عذاب الله الذى خوفهم منه هود عليه السلام فى هيئة سحب يعرض

أمامهم فى أفق السماء ظنوه مطراً سينزل عليهم لحاجتهم الشديدة إليه ، ولذلك

قالوا : هذا مطر عارض فى جو السماء سينزل لرى زروعنا ، وسقيا أنعامنا

وارواء عطشانا .

رد الله عليهم ، وقال لهم : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ أى ليس هو

المطر الذى تتصورونه رحمة بكم ، بل هو العذاب الذى طلبتم نزوله ،

واستعجلتم وقوعه ، فلقد استهزأتم بهود عليه السلام واليوم يصدق وعد الله فيكم ، وينزل

العذاب الأليم عليكم .

إن هذا السحاب العارض ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴿ أى هذا السحاب العارض ريح عاتية طاغية تدمر كل شئ تمر به بأمر الله تعالى ، وسوف تهلككم ، وتحولكم إلى أثر بعد عين .

وهبت الريح فدمرتهم ، وأموالهم ، وأملاكهم ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾ أى دمرت الريح كل شئ ، ولم تبق إلا المساكن شاهدة على جحودهم وعنتهم ، وعبرة لمن يأتى بعدهم ليروا عاقبة القوم الكافرين .

إن قوم هود عليه السلام لما رأوا الريح دخلوا بيوتهم ، وأغلقوا أبوابهم ، فجاءت الريح فقلعت الأبواب وصرعتهم . وأمر الله الريح ، فأهالت عليهم الرمال فكانوا تحت الرمل سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ، ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل ، واحتملتهم فرمت بهم في البحر .

وقيل : إن هودا عليه السلام لما أحس بالريح ، خط على نفسه وعلى من معه من المؤمنين خطا فكانت الريح تمر بهم لينة باردة طيبة ، والريح التي كانت تصيب قومه شديدة عاصفة مهلكة وهذه معجزة عظيمة لهود عليه السلام .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، وانما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيما وريحا عرف ذلك فى وجهه ، قلت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية .

قال : يا عائشة وما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، عذب الله قوم هود بالريح ، قالوا حين رأوه : هذا عارض ممطرنا^(١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ ج ٦ ص ١٣٣ .

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور^(١) .

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أى ويمثل ما جازينا عادا على كفرها وضلالها نجازى كل مجرم ظالم لنفسه والله رب العالمين ، وهذا تخويف شديد لأهل مكة ولكل ظالم طاغ .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّكُمْ فِيهِ ﴾ أى مكنا عادا فى الأرض ، ورزقناهم الطيبات ، ورفعنا شأنهم على الناس فبنوا القلاع والحصون ، وأقاموا المساكن والبيوت ، وأعطيناهم الأموال الكثيرة ، والأبدان القوية ، والسلطة القاهرة إلا أنهم كفروا بنعم الله ، وعبدوا الأصنام ، ولم يؤمنوا بدعوة هود عليه السلام حين جاءهم رسولا من الله تعالى .

﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى كما مكنا لهم فى الأرض ، واحطناهم بالنعم أكرمناهم فى أنفسهم فخلقنا لهم سمعا ، وبصرا ، وعقلا ، فلم يستفيدوا بها ، ولم يسمعوا نصائح هود عليه السلام ودعوته ، ولم يروا آيات الله ومعجزات هود عليه السلام ولم يتدبروا فى خلق الله ، وبذلك عطلوا عوامل الإدراك ومفاهيم العقل ، واستولى عليهم الشيطان ، وأغرقهم فى الشهوات والهوى فكانوا من الضالين ، ولم ينتفعوا بما أعطاهم الله تعالى .

﴿ إِذْ كَانُوا تَجْحَدُونَ بِغَايَةِ اللَّهِ ﴾ أى لم يستفيدوا بعطاء الله لهم ،

إنهم جاحدون منكرون لآيات الله التنزيلية والتكوينية والإنسانية .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجمعة . باب قول النبي ﷺ نصرت ج ٢ ص ٣٣

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى نزل العذاب الذى استعجلوه

وهم به كانوا يستهزئون ، وأحاط بهم من كل جانب فدمرهم وأهلكهم .

وايراد قصة عاد عليه السلام مع قومه هود عليه السلام إنذار لأهل مكة فهم يعرفون "عادا" ويرونها ، ويعلمون ما كان لها من قوة وشأن ... وعليهم أن يفهموا ويعقلوا أن الذى قدر على إهلاك هود بالريح قادر على يهلكهم بما يشاء ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ أى قد أهلكنا يا أهل مكة القرى الكافرة التى تحيط بمكة بسبب كفرها وعنتها فلا تكونوا مثلهم يا أهل مكة حتى لا تروا ما حل بأمم عديدة قبلكم ، ... فأنتم :

– ترون ما حل بعاد وهم بالأحقاف ، وتشاهدون مساكنهم عند حضر موت بين عدن وعمان .

– وترون مدائن ثمود التى تقع بين المدينة والشام .

– وترون ما حل بسد مأرب فى اليمن .

– وترون ما حل بقوم شعيب "مدين" .

ألا يبصركم ما ترون بالحق ، ويخوفكم من عذاب الله ، ويدفعكم إلى الإيمان بالله تعالى ؟!

﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى بينا الآيات ، وفصلناها داعية

إلى أن الله هو الخالق ، وهو رب العالمين عسى أن يرجعوا عن ضلالهم ، ويعودوا إلى الحق والإيمان ، ويتركوا التقليد والتبعية للقوم المشركين .

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أى

لو أن الأصنام التى اتخذوها آلهة من دون الله وعبدوها تنصرهم من العذاب

(٦٢٠)

حين يأتيهم لكان لهم سبب فى عبادتهم ... إلا أن هذه الأصنام لا تسمع ، ولا تعقل ، ولا تفعل شيئاً ، ولذلك فهم ضالون إذا عبدوها وطلبوا منها نفعا .

﴿ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى إن عبادتهم للأصنام ،

واتخاذها آلهة كذب واختلاق من المشركين عاشوا فيه وهم غافلون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات قصة هود قوم عاد عليه السلام ، وتحدد مساكنهم ، وتوضح نعم

الله لهم ، وتمسكهم بالكفر حتى حل العذاب بهم وأهلكهم .

وتبين الآيات أن ما حدث لهود ليس ببعيد أن يحدث لأهل مكة إن

استمروا على الكفر والضلال .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تبين الآيات عددا من الركائز ... أهمها

الركيزة الأولى

قصة الكفر فى الأمم واحدة

فى قصص القرآن الكريم كله ينحو الكافرون منحى واحدا ، فهم يعبدون

غير الله تعالى ، ويتخذون آلهة من الحجر ، أو الشجر ، أو غير ذلك .

ويأتيهم رسول الله الذى يختاره الله منهم لدعوتهم إلى دين الله تعالى ،

ويشرع لهم مزاياه ، ويبين لهم نعم الله ومعجزاته ... إلا أن الكبر يسيطر عليهم ،

وتغرهم أمانيتهم ، ويتلاعب الشيطان بهم فيصرون على الكفر ، ويستهزئون

بالرسل وبدعوته ، وإنذاراته ، وفى النهاية ينزل العذاب بهم .

هذه الصورة هى صورة الكفر فى كل الأمم ، وقد تكررت لتحقيق

فوائد عديدة ... منها :

(٦٢١)

- (١) توضيح عناد المكذبين ، وتبين أنهم فى ضلال يعميهم عن الحق .
- (٢) تبين أن أصحاب الهوى يجعلون الشبه الكاذبة براهين ، وخداع النفس خطأ مستقيماً .
- (٣) بيان أن مسئولية الرسل والدعاة هى الإخلاص فى الدعوة ، وحسن البيان واطهار تعاليم الله تعالى ، وبعد ذلك فكل إنسان مسئول عن نفسه .

الركيزة الثانية

العقل مناط الإدراك والحكم

ميز الله الإنسان بالعقل ، وبسبب عقله كلفه بالدين ، وحمله الأمانة ، وسخر له الكون كله .

وجاء الرسل يوحى الله وخاطبوا فى الإنسان عقله ، وعرضوا عليه آيات الله فى النفس ، والكون ، والحياة ليؤمن بالله ، ويعبده وحده .

وقد استفاد المسلمون بآيات الله ، واتبعوا الرسول ، وكانوا من المؤمنين أما الكافرون فقد جحدوا نعم الله ، وأعملوا عقولهم ، وقلدوا المشركين قبلهم ، ولم يتأثروا بالبراهين والحجج ، واتبعوا الشيطان الرجيم .

وعلى الدعاة :

إيقاظ العقول النائمة، وعرض الآيات عليهم ليدخلوا فى الإسلام وهم راضون .

إيمان الجن

بعد سماع القرآن الكريم

يقول الله تعالى :

(٦٢٢)

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ
قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٦٢٣﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا
كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٢٤﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ
وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٦٢٥﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٢٦﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة عاد عليه السلام مع قومه هود جاءت الآيات
بقصة إيمان الجن بعد سماعهم للقرآن الكريم رجاء أن يؤمن أهل مكة مثل الجن
الذين تأثروا بالقرآن الكريم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات قصة إسلام الجن ، ودعوة قومهم إلى الإسلام ليهتدوا إلى
الحق ، وإلى صراط الله المستقيم ، ليغفر الله ذنوبهم ، ويخرجهم من عذاب أليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ أى اذكر يا محمد لقومك قصة
إيمان الجن ، ودخلوهم فى الإسلام عساهم ينتهوا عن غيهم ، ويتركوا عبادة

(٦٢٣)

الأصنام ، ويؤمنوا بالقرآن المنزل من عند الله تعالى ، فها هم الجن قد آمنوا بسماع القرآن الكريم ، والأولى بأهل مكة أن يؤمنوا لأنهم أهل الفصاحة والبلاغة ، وقد نزل القرآن بلغتهم ، وثبت عجزهم أمامه ، ومع ذلك لم يؤمنوا به .

والجن عالم غيبى ثابت بإخبار الله عنه ، وأمره قائم على ما جاء الوحي به ، والآية هنا تثبت وجود الجن ، وتخبر عنه ، وتوضح استماع بعض الجن للقرآن الكريم ، ودخلوهم في دين الله ، وقيامهم بالدعوة إلى الله تعالى .

وقصة إسلامهم ثابتة في سنة النبي ﷺ لأنه ﷺ لما انصرف من الطائف راجعا إلى مكة ، وكان ببطن نخلة ، قام من جوف الليل يصلي ، فمر به نفر من جن نصيبين ، كانوا قاصدين اليمن ، وذلك حين منعوا من استراق السمع من السماء ، ورموا بالشهب فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين ، وقد آمنوا به ، وأجابوا لما سمعوا القرآن الكريم فقص الله خبرهم فقال تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ .

وفي هذا بيان أن الجن استمعوا القرآن الكريم وتأثروا به ، وآمنوا ، ولم يقصد الرسول ﷺ دعوتهم ابتداء .

والصحيح أن الله أمر رسوله أن ينذر الجن ، ويدعوهم إلى الله ، ويقرأ عليهم القرآن ، وقد صرف الله إليه نفرا من الجن ، وهم من أهل نينوى ، وجمعهم له .

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : إني أمرت أن أقرأ على الجن الليلة ، فأيكم يتبعني فأطرقوا ، ثم استتبعهم فأطرقوا ، ثم استتبعهم الثالثة فتبعه عبد الله بن مسعود ﷺ وحده .

(٦٢٤)

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة ، دخل نبي الله صلى الله عليه وسلم شعبا يقال له شعب الحجون ، وخط لي خطا ، ثم أمرني أن أجلس فيه .

وقال صلى الله عليه وسلم : لا تخرج منه حتى أعود إليك فانطلق حتى قام عليهم ، فافتتح القرآن فجعلت أرى مثال النور تهوي ، وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى لا أسمع صوته ، ثم طفقوا ينقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين .

ففرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مع الفجر فانطلق إلي وقال لي : نمت ؟ فقلت : لا والله يا رسول الله لقد هممت مرارا أن أستغيث بالناس حتى سمعتك تقرعهم بعصاك وتقول لهم اجلسوا فقال : لو خرجت لم آمن عليك أن يتخطفك بعضهم ثم قال : هل رأيت شيئا ؟ قلت : نعم رأيت رجالا سودا عليهم ثياب بيض . قال : أولئك جن نصيبين سألوني المتاع والزاد فمتعتهم بكل عظم حائل ، وروثه ، وبعره .

فقالوا : يا رسول الله يقذرها الناس علينا . فنهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستجي أحد بالعظم والروث . فقلت : يا رسول الله وما يعني ذلك عنهم ؟ فقال : إنهم لا يجدون عظما إلا وجدوا عليه لحمه يوم أكل ، ولا روثة إلا وجدوا فيها حبها يوم أكلت . فقلت : يا رسول الله سمعت لغطا شديدا .

فقال : إن الجن تدارأت في قتيل قتل بينهم فتحاكموا إلي فقضيت بينهم بالحق ثم أتاني فقال : معك ماء ؟

قلت : يا رسول الله معي إداة فيها شئ من نبيذ التمر ، فاستدعاه ، فصبيت على يديه فتوضأ وقال : تمرة طيبة وماء طهور^(١) .

﴿ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ^ط فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ أى إن الجن حضروا إلى رسول الله فلما استمعوا للقرآن الكريم آمنوا به ، وصدقوا بهديه ، فلما انتهى رسول الله ﷺ عادوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان والإسلام .

﴿ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ أى قال الذين حضروا مجلس النبى ، واستمعوا القرآن الكريم لقومهم بعد رجوعهم إليهم : إنا سمعنا كتابا منزلا من عند الله ، أنزل بعد كتاب موسى ﷺ على محمد ﷺ يظهر الحق ، ويهدى للصواب ، ويرسم الصراط المستقيم .

وانما ذكر الجن كتاب موسى ﷺ دون كتاب عيسى ﷺ ، لأن كتاب عيسى ﷺ جاء لبنى إسرائيل مكملًا لكتاب موسى ﷺ .

﴿ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى قال الجن لقومهم : يا قومنا أجبوا دعوة الإسلام ، وادخلوا فى دين الله الذى بعث به محمد ﷺ للإنس والجن ، ليغفر الله ذنوبكم ، ويجركم من العذاب الأليم يوم القيامة .

(١) مسند الإمام أحمد ط . الرسالة ج ٧ ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .

﴿ وَمَنْ لَا يُحِبَّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ

دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ﴾ أى من لم يؤمن بمحمد ، ويدخل فى دين الله تعالى ، فليس بهارب من عذاب الله ، ولن يفلت من العقوبة ، فلا مهرب للهارب مكان فى الأرض لأن الأرض كلها لله ، وليس له نصير دونه ، ولن يجد وليا يساعده ، أو نصيرا ينصره من دون الله تعالى .

﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى ومن لا يستجيب لدعوة رسول الله ، ولا يؤمن بالله تعالى فهو فى ضلال واضح ، وخسران كبير .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآية قصة إيمان الجن حين استمعوا للقرآن الكريم ، وأسلموا ، وقاموا بدعوة قومهم إلى الله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تبين الآيات ركيزة هامة ... هى :

الإحاطة بعالم الجن

الجن عالم مخلوق ، أوجدهم الله تعالى ، وغيبهم عن النار ، وحذر من وساوسهم ، واغراءاتهم ... وهم عالم يعيش مع الناس ولهم حياتهم ، ونشاطهم ، وأهدافهم .

والإيمان بوجود الجن ركن من أركان الإسلام ، وقد نزلت سورة فى القرآن الكريم تتحدث عنهم هى سورة "الجن" .

والجن عالم عاقل مكلف بالإسلام ، منهم من آمن ومنهم من كفر . يقول الله تعالى عن الجن : ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا آهْدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ۖ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ كَخَسًا وَلَا رَهَقًا ۖ ﴾ (١) وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۖ ﴾ (٢) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۖ ﴾ (٣) .

لقد اتبع الجن فى دعوتهم للإسلام منهاجاً حسناً بين فهمهم وعقلهم ، ومن هذا المنهج أنهم استمعوا وانصتوا ، وفهموا وقرروا وآمنوا فلما آمنوا ذهبوا إلى قومهم ، ودعوههم إلى الإسلام ، وإلى الإيمان بالقرآن الكريم ، فهو كلام الله المنزل بعد كتاب موسى عليه السلام المصدق له الهادى إلى الصراط المستقيم .

وطلبوا منهم الإيمان بالإسلام ليقبل الله منهم ، ويغفر لهم ذنوبهم وينقدهم من عذاب أليم يوم القيامة يناله الكافرون .

وقالوا لهم : إن الذى لا يؤمن بالإسلام فقد رضى لنفسه بالعذاب الذى أعده الله للكافرين ، ولا مهرب منه لا بالغلب ولا بالهرب ، ولا بالأعوان والأولياء ، ولا نجاة إلا بالعمل الصالح .

إثبات البعث وتسليّة رسول الله ﷺ

(١) سورة الجن ، الآيات ١٣ . ١٥ .

يقول الله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ يَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِمْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَٰئِكَ الْعَزَمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ۚ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة دعوة مسلمى الجن إخوانهم إلى الإيمان بالله وطاعة رسول الله ، والدخول فى الإسلام جاءت هذه الآيات لتثبت البعث وتؤكد الحساب والعقاب ، وتسلى رسول الله ﷺ .

- ٢ -

موضوع الآيات

تنعى الآيات موقف المشركين لأنهم لم يتدبروا فى آيات الله الكونية والإنسانية ، وتوضح أن الله سيجزيهم ، ويستهنئ بهم ، ويعذبهم العذاب الأليم . وتسلى الآيات رسول الله وتأمره بالصبر والتحمل كما صبر أولو العزم وتعرفه أن الله سيعذبهم بنار جهنم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ
يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ، ومعناه أى
أعمى أهل مكة ولم يروا إبداع الله للسموات والأرض ، وما بينهما بلا تعب ولا
لغوب حتى يقولوا باستحالة البعث والنشور والحساب .
إن الله الذى خلق الكون كله قادر على بعث الخلائق وحشرهم ،
ومحاسبتهم ، وإيقاع الجزاء عليهم .

﴿ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى ليس الأمر كما يزعمون ، والحق
أن الله قادر على أن يحيى الموتى ، وهو كل شئ قدير .
ووقعت ﴿ بَلَى ﴾ فى صدر الجملة لإثبات الإجابة لأن السؤال جاء مصدرا
بالنفي .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ ؟ ...
السؤال للتقرير بوجهه الله للكافرين حين يعرضون على النار ، ويلمسونها ،
ويرون سعيها ، وهو :

— أليس البعث حقيقة واقعة ؟

— أو ليس الحساب واقعا بدقة ؟

— أو ليست النار قد أعدت للمكذبين الضالين ، وقد كنتم تتكرونها ؟

فيجيبون بالواقع الذى هم فيه و ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾ أى يقول الكافرون

نعم فكل ذلك حق نؤمن به ونصدقه الآن .

﴿ قَالَ ﴾ الله لهم : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أى

فذوقوا العذاب الذى تستحقونه بسبب كفركم وعدم إيمانكم .

ويحث الله رسوله ﷺ على التحمل ويقول له : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا

الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ أى تحمل يا محمد أذى المشركين ، واصبر على عدوانهم ، وكن كإخوانك من أولى العزم من الرسل الذين سبقوا ، واستقم على أمر الله لك .

عن عائشة قالت : ظل رسول الله ﷺ صائماً ثم طوى ، ثم ظل صائماً ثم طوى ، ثم ظل صائماً فقال يا عائشة : إن الدنيا لا تنبغى لمحمد ، ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم من الرسل إلا بالصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى بما كلفهم به فقال : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ وانى والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله^(١) .

﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ ولا تطلب لهم العذاب العاجل فإنه نازل بهم لا

محالة .

﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ ﴾

أى إنهم حين يرون العذاب ينسون الدنيا ، وكأنهم لم يعيشوا فيها إلا ساعة واحدة من النهار .

وسبب هذا الشعور أنهم يرون فى عذاب الآخرة أهوالاً لم تدر بخلدهم تنسيهم الدنيا ، وتحقر كل متاعها .

(١) شرح السنة للبغوى . كتاب الرقاق . باب القناعة بالقليل من الدنيا ج ١٤ ص ٢٤٨ .

﴿ بَلِّغْ ﴾ أى هذا القرآن الكريم بلاغ للناس ، وارشاد ومواعظ ينذر ويحذر ، ويدعو ويرشد ، ويصحح ويحكم .

﴿ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى وما يهلك الله إلا القوم الفاسقين ، المخالفين لأمر الله تعالى ، الناكثين العهد والميثاق .
عن قتادة رضي الله عنه قال : لا يهلك على الله إلا هالك مشرك ، وهذه الآية أقوى آية فى الرجاء .

ومن ثم قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون ، وهذا تطميع فى سعة فضل الله سبحانه وتعالى .
عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو : "اللهم إني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، اللهم لا تدع لى ذنبا إلا غفرته ، ولا هما إلا فرجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين" (١) .

وبهذا المصير يتأكد البعث ، ويجازى الله المؤمنين بالجنة ، ويعاقب الكفار بنار الجحيم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن منكرى البعث لا يقدر الله حق قدره ، لأن من خلق الكون كله قادر على إحياء الموتى ، وحشرهم ، ومحاسبتهم ، فاصبر يا محمد وتحمل كإخوانك أولى العزم ، ولا تستعجل عذابهم فإنه آت لا ريب فيه ،

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب الوتر . باب ما جاء فى صلاة الحاجة ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٦٣٢)

وسينسيهم العذاب متع الدنيا ، وتوضح الآيات أن هذا القرآن بلاغ لقوم يعقلون
أما الظالمون فلهم عذاب أليم ، وهلاك مدمر .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

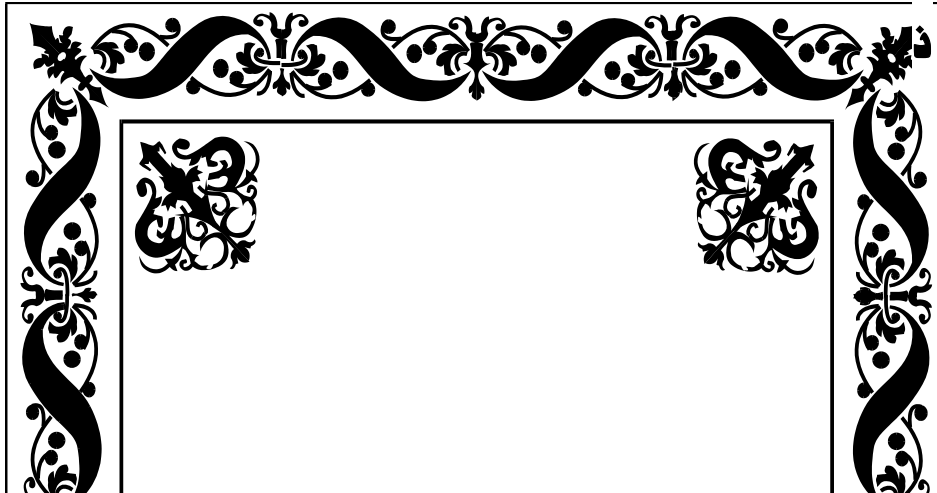
تتضمن الآيات ركيزة واحدة ... هى :

أهمية الاستعداد ليوم القيامة

تتادى الآيات بضرورة أخذ العبرة فى قصص السابقين والاستعداد ليوم
القيامة ، لأن الغفلة عن ذلك أمر لا يقوم به عاقل .
إن فضيحة الدنيا خطيرة ، وهلاك الفاسقين مؤكد ولا منجاة من العذاب إلا
بطاعة الله ، والاستقامة فى الدنيا على هديه العظيم .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الأحقاف" بتوفيق الله تعالى .



(٦٣٣)

سورة "محمد"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٦٣٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أولا -

التعريف بسورة "محمد"

سورة "محمد" سورة مدنية ، وما قيل من أن قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلِكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾^(١) آية مكية لنزولها أثناء الهجرة ليس بمسلم لأنها نزلت بعد الهجرة من مكة إلى المدينة ، ويمكن تكرار نزولها .

وتسمى السورة بـ "سورة محمد" وهو أشهر الأسماء بين المفسرين لذكر اسم محمد ﷺ في الآية الثانية من السورة .

كما تسمى بسورة "الذين كفروا" لتصدرها بذلك .

وتسمى بسورة "القتال" لورود مشروعية القتال فيها، وورود لفظ "القتال" فيها. وأوجه صلة سورة "محمد" بسورة "الأحقاف" عديدة منها :

(١) أن سورة "الأحقاف" ختمت ببيان عذاب الكافرين فقال تعالى : ﴿ وَلَا

تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن

نَّهَارٍ ۚ بَلِّغْ ۚ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾^(٢) ، وبدأت سورة "محمد"

بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾^(٣) .

(٢) سورة "الأحقاف" بينت ما للمؤمنين من جزاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾

أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾^(٤)

(١) سورة محمد ، الآية ١٣ .

(٢) سورة الأحقاف ، الآية ٣٥ .

(٣) سورة محمد ، الآية ١ .

(٤) سورة الأحقاف ، الآية ١٣ ، ١٤ .

وجاءت سورة "محمد" لإثبات مثل هذا الجزاء فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ
كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾^(١) .

(٣) تبين سورة "الأحقاف" هلاك الأمم السابقة الكافرة ، وذلك فى قوله تعالى :
﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢)
وجاءت سورة "محمد" بمثل ذلك فقال تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّكَفِيرِينَ أَمْثَلُهَا﴾^(٣) .

وقد نزلت سورة "محمد" بعد سورة "الحديد" ، وعدد آياتها تسع وثلاثون آية
عند علماء مكة والمدينة والكوفة ، وأربعون آية عند علماء البصرة .
وموضوع السورة يحافظ على قضايا العقيدة ، ويدور حول الجهاد فى
سبيل الله ، وضرورة الاستعداد له لحماية الدين والعباد ، وتحقيق وعد الله فى
النصر والتمكين .

- ثانيا -

- التفسير -

(١) سورة محمد ، الآية ٢ .

(٢) سورة الأحقاف ، الآية ٢٧ .

(٣) سورة محمد ، الآية ١٠ .

تقدير الله العادل للمؤمنين والكافرين

يقول الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات حقيقة المؤمنين والكافرين ، وتوضح آثار عمل كل منهما وسبب ذلك .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى إن الذين كفروا بالله تعالى ولم يصدقوا برسول الله من أهل مكة ابتداء ، ومن غيرهم بعد ذلك ، وانصرفوا عن الإسلام ، وأخذوا فى صد الناس عن الإيمان أحبط الله أعمالهم الطيبة ، وجعلها هباء منثورا ، وأبطل مكرهم وكيدهم الذى يقومون به ضد الإسلام والمسلمين .

وقد بدأت السورة بالحديث عن الكافرين تحريضا للمؤمنين على الحذر منهم ، وعدم تقليدهم ، والاهتمام بقتالهم ، وهذا سر بدء السورة بالصلة والموصول ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لبيان تمكن الكفر منهم حتى صار اسما لهم ، وأصبح أساس العداوة للمؤمنين .

(٦٣٨)

وصد الكفار عن دين الله يبدأ بهم فهم فى هذا الصد قادة ورواد ، وهم يصدون عن سبيل الله بكل طاقاتهم وفى أى جانب يمكنهم العمل فيه .
فهم ينشرون الأكاذيب والمزاعم المفتراه على الرسول ، وعلى القرآن وعلى الإسلام .

وهم يؤذون رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه بكل ما أمكنهم من أذى مادية أو معنوية .

وهم يمنعون الغرباء من الاتصال بمحمد ، ويتلقفونهم عند المجئ إليها ويخوفونهم من الاستماع لمحمد .

وهم يحاربون المسلمين بكل سبيل ، فلقد قاطعوهم ، وحبسوهم فى الشعب ، وضيقوا عليهم ، ومنعوا التعامل معهم حتى أكلوا ورق الشجر وأوقفوا الزواج منهم ولهم .

وقد أطعموا الفقراء ليكونوا معهم يوم "بدر" حتى عرفوا بالمطعمين ، وعلى رأسهم أبو جهل ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبي بن خلف وأممية ابن خلف ، ونبيه بن الحجاج ، ومنبه بن الحجاج ، وأبو البخترى بن هشام والحارث ابن هشام ، وزمعة بن الأسود ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وحكيم بن حزام .
﴿ أَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ أى أبطل الله أعمالهم ، وأحبطها ، ولم يترك لها أثرا

فى الآخرة ، والمقصود بهذه الأعمال الأعمال الصالحة التى يقوم بها الكافرون مثل بناء المستشفى ، أو إنشاء مدرسة ، أو إعانة الفقراء ، أو مساعدة ضعيف ... يقول الله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً

مَنْثُورًا ﴿١﴾ ودل ضلال أعمالهم الصالحة على إضلال أعمالهم السيئة من باب أولى وعلى رأسها الصد عن سبيل الله .
والآية تتحدث عن مشركى مكة إلا أن حكمها يعم جميع المشركين والكافرين فى كل وقت ، وفى كل مكان .

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أى إن الذين صدقوا بالله ، واستقاموا على دينه ، واتبعوا أمره ونهيه ، وصدقوا بالكتاب المنزل على محمد ﷺ ، وهو الكتاب الحق الناطق بكلمات الله تعالى يوفقهم الله تعالى .
فإن قيل : لم ذكرت الآية الإيمان بما نزل على محمد ﷺ مع الإيمان والعمل الصالح وهما شئ واحد ؟

أقول : الإيمان بما أنزل على محمد أعم من الإيمان والعمل الصالح لأنه يشمل القرآن الكريم بقصصه ، وأمثاله وتفصيلاته وشرحه للآيات ، ويقدم المودة والحب بين المسلمين ويضم كل أمر يتصل بالعقيدة والشرعية والأخلاق .
وأيضا فإن الله ذكر من أوصاف الكافرين ثلاث صفات فجاء مع المؤمنين بصفات ثلاث مقابلة ، وهذا احتاج إلى ذكر ﴿وَأَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ (٢) .

حيث جاء الإيمان مقابل الكفر ، والإيمان بما نزل على محمد ﷺ مقابل الصد عن سبيل الله ، وعمل الصالحات مقابل بعض ما تضمنه ﴿أَضَلَّ

(١) سورة الفرقان ، الآية ٢٣ .

(٢) سورة محمد ، الآية ٢ .

أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ ، وكفر عنهم سيئاتهم مقابل بعض آخر مما تضمنه أضل أعمالهم وأصلح بالهم مقابل بقية ما تضمنه أضل أعمالهم .

﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ محا الله ذنوبهم ، وقبل توبتهم ، ويسر لهم شئون الدنيا والآخرة، ورزقهم الطمأنينة وراحة البال، وعدم الخوف والحزن . ويطلق "البال" على العقل ، وما يطرأ عليه من التفكير ، والخيال ، وإصلاح البال يجمع إصلاح الأمور كلها ، لأن تصرفات الإنسان تأتي على حسب صلاح رأيه وباله ، فالتوحيد أصل صلاح بال المؤمن ، ومنه تنبعث القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها أهل الشرك ، وحكاها عنهم القرآن في مواضع كثيرة .

والمعنى : أن الله أقام أنظارهم على الحق ، وثبت عقولهم على الصواب فلا يفكرون إلا صالحا ولا يتدبرون إلا في نجاح وفلاح .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا

الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أى سبب هذا الجزاء للفريقين أن الذين كفروا قد أضل الله أعمالهم بسبب أنهم اتبعوا الباطل من الأقوال والأفعال ، وتركوا الحق المنزل ورغبوا فى الشهوات ، وساروا مع رغائب الشيطان ... وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق الذى جاءهم من الله تعالى ، وبلغهم به رسول الله ﷺ .

﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴾ أى يجازى الله كل فريق من

الكافرين والمؤمنين إجمالا وتفصيلا ، ويجعل ذلك مثلا أمام الناس ليختاروا لأنفسهم ما يريدون بعدما يروا أمامهم مثلا للكافرين ، ومثلا للمؤمنين .

(٦٤١)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الناس فريقان ، فريق كافر بالله صاد غيره عن سبيل الله وفريق مؤمن آمن بالله وعمل الصالحات ، وصدق بالقرآن الكريم ... وتوضح الآيات أن الله يحبط عمل الكفار لتركهم الحق ... أما المؤمنون فإن الله يكفر سيئاتهم ، ويصلح حالهم بسبب اتباعهم للحق ، وقد ضرب الله للناس هذين المثالين ليختاروا لأنفسهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

نظرات في أعمال الكافرين والمؤمنين

وما حل بهم

تعرض الآيات شأن فريقين من الناس ، وتصور أحوالهم وأعمالهم ، وتوضع ما قدر الله لهم بسبب أعمالهم ودينهم .

إن الفريق الأول كفر بالله ، وعبد غيره ، وأخذ يمنع الناس عن الدين ، ويصددهم بطرق عديدة عن الإسلام ، واتبعوا الباطل في القول ، والعمل ، والسلوك ، والتدين فعاقبهم الله في الدنيا فأبطل أعمالهم الطيبة وأحبطها ، ولم يترك لها أثرا ، وزاد أعمالهم الضالة خسرانا وسوءا فوجدوا أنفسهم قد خسروا كل شئ ، فلا نفعوا أنفسهم ، ولم يضلوا غيرهم وهم في الآخرة أشد خسارة وبؤسا جزاء ما عملوا في الدنيا .

وأما الفريق الثاني فهو فريق المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بكل ما نزل على محمد من الوحي ، وقد آمنوا بأنه الحق الذي نزل من الله تعالى

وقد بين الله حال الفريقين للناس ليروا حياتهم من خلالها ، وليختاروا لأنفسهم ما يريدون ، ويعلموا نتائج ما يعملون ... وفى الآيات إيماء بالحركة شديدة حيث تمايز الفريقان ، وظهر لكل عاقل الطريق الذى يختاره ، ويمكن للدعاة وصف كل فريق بعمله ، والجزاء الذى يستحقه ليؤمنوا بالله وهم راضون .

توجيهات عملية للمسلمين فى القتال والجهاد

يقول الله تعالى :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَتُمْهُمْ فَشُدُّوا
الْوَتَاكَ فَإِمَّا مِمَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ
لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ
أَعْمَلُهُمْ ۗ سَيَجْزِيهِمْ وَبِصْلَاحٍ بِأَنَّهُمْ ۖ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۖ ﴿١﴾ يَتَأَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۖ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ
وَأَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ۖ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ۖ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حالة المشركين وصددهم الناس عن سبيل الله ،
وصرفهم غيرهم عن سماع القرآن الكريم ، وحال المؤمنين الذين صدقوا برسول
الله ، ودخلوا فى الإسلام جاءت هذه الآيات تأمر المسلمين بالجهاد انتصارا
لدين الله ، وتعرفهم بعدد من قواعده وطرقه .

(٦٤٣)

- ٢ -

موضوع الآيات

توجه هذه الآيات المؤمنين إلى ضرورة محاربة أعداء الله تعالى ، وعدم التهاون معهم ، وتطمئن المؤمنين إلى نصر الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴾ أى إذا واجهتم المشركين

فى ساحة القتال ، فلا تتهاونوا معهم ، واحصدوهم حصدا بأسلحتكم .

وضرب الرقاب كناية مشهورة يراد بها شدة القتل ، وتنوع الضرب بالأسلحة مع الغلظة والقوة ، وهذه الكناية تدل على الشدة بصورة أوضح وأقوى من الأمر بالقتل لأن ضرب الرقاب يشير إلى الانتقام ، والقوة ، وعدم التردد ، وهذه حال تجعل الكافر يعود لرشده ويرضى بالسلام . يقول الله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾^(١) .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخْنَتُمْهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاكِ ﴾ أى حتى إذا غلبتموهم فأسروهم

وقيدوهم حتى لا يفروا ، ويرجعوا لأقوامهم ، ويقاقلوكم مرة أخرى .

﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ أى إذا أسرتم بعض أعدائكم فلكم الخيار

بعد انتهاء القتال فى أن تطلقوا أسراهم ، أو تأخذوا فداء على إخلافهم .

﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أى إلى أن تنتهى الحرب ، ويمتتع

المشركون من قتالكم ، وتعيشوا آمنين .

(١) سورة التوبة ، الآية ٧٣ .

إن الاستعداد للحرب ، واطهار القوة للخصوم وسيلة من وسائل عدم الحرب . يقول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾^(١) .

واعلم أن الإصلاح الدينى يجد له أعداء من الكافرين والمنافقين فهم لا يرضون به ، ويعملون على منعه وإيقافه ، ويبدلون كل طاقاتهم للغلب والفوز ، و يجد أعداء الدين لحربهم أنصارا من شياطين الإنس والجن ، وأصحاب الشهوات ، والراغبين فى المنكرات .

إن هذا الفريق المعادى لا يكسل فى حربه ، ولا يقصر فى سعيه ، ولن يمنعه إلا قوة أهل الحق وصلابتهم .

إن الحرب آلام وعذاب ، ولا يصح اللجوء إليها إلا لدفع الباطل ونصرة الدين . يقول النبى ﷺ : "جاهدوا المشركين بأيديكم ، وأموالكم ، وألسنتكم"^(٢) .
يقول ابن عباس رضى الله عنهما : لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الأسارى ﴿ فَإِمَّا مَثًّا بِعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ وكان على ذلك عمل رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده ، وهو شريعة الله فى الأسرى .

وعن أبى هريرة ؓ قال : "بعث النبى ﷺ خيلا قبل نجد ، فجاءت برجل من بنى حنيفة ، يقال له ثمامة ابن أثال ، فربطوه فى سارية من سواري المسجد ، فخرج إليه رسول الله ﷺ ، فقال : ما عندك يا ثمامة ؟
فقال : عندى خير ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكِر ، وإن كنت تريد المال فسل ما شئت .

حتى كان الغد ، فقال له ﷺ : ما عندك يا ثمامة ؟

(١) سورة الأنفال ، الآية ٦٠ .

(٢) الأحاديث المختارة ج ٥ ص ٢٧١ .

قال : عندي ما قلت لك .

قال ﷺ : أطلقوا ثمامة .

فانطلق ثمامة إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى .
وان خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟

فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ، قال : لا ولكن أسلمت مع محمد ﷺ^(١) .

وعن عمران بن حصين قال : أسر أصحاب رسول الله ﷺ رجلاً من عقيل فأوثقوه ، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي ﷺ ففداه رسول الله ﷺ بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف^(٢) .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أى هذا الذى أمرتكم به من قتل المشركين وحربهم هو الحق وهو السنة الذى جرى عليها الإصلاح ، وستستمر إلى يوم القيامة .

﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أى ولو أراد الله أن ينتصر لكم من المشركين بلا قتال لكان ... لكنه سبحانه أراد إن يبلو الناس ببعضهم ليظهر الصادق من الكاذب ، ويبين المؤمن من المنافق .
﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ أى وهؤلاء المؤمنون الذين يجاهدون فى سبيل الله تعالى ، ويقتلون فى الحرب سيوفهم الله

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب وفد بنى حنيفة ج ٥ ص ١٧٠ .

(٢) مسند الشافعى ج ١ ص ١٥٨ .

أجورهم ، ويثبت أعمالهم الصالحة ، ويجعل ثوابها معهم ، ويقبلهم عنده ، ويرزقهم حياة الشهداء فى فرح وبشرى .

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٦٤٦﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾ ﴿٦٤٧﴾ أى

إن الله تعالى سيوفقهم فى الدنيا للخير ، ويطمئنهم ، ويريح أحوالهم ، ويهديهم فى الآخرة إلى جنات النعيم فيدخلونها ، وهم عارفون كافة ما فيها أكثر من معرفتهم ببيوتهم فى الدنيا ، فقد عرفهم الله بها ، وبينها لهم .

روى أحمد أن رسول الله ﷺ قال : "يعطى الشهيد ست خصال عند أول قطرة من دمه ، تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان" (١) .

وعن قتادة قال : "إن هذه الآية نزلت يوم أحد ، ورسول الله ﷺ فى الشعب ، وقد فشلت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : أعل هبل (أكبر أصنامهم) ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل .

وقال المشركون : يوم بيوم بدر والحرب سجال . فقال النبى ﷺ : قولوا لاسواء . قتلنا أحياء عند ربهم يرزقون ، وقتلكم فى النار يعذبون .

فقال المشركون : إن لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم (٢) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

أى ينادى الله المؤمنين ، ويعرفهم أنهم إن نصرُوا الله بالعمل ، والاستقامة ،

(١) مسند أحمد ط . الرسالة ج ٢٩ ص ٣٢٢ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب غزوة أحد ج ٦ ص ٢٨٧ .

(٦٤٧)

والطاعة ، والجهد فسوف ينصرهم الله تعالى على أعدائهم ، ويثبت أقدامهم ، ويوقفهم فى كل ما ينوون عمله .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أى وأما الذين كفروا بالله ، وصدوا الناس عن دين الله فلهم فى الآخرة خزي وضلال ، ولأعمالهم بوار وخسران .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ ﴾ هذا الذى أنزل بالكافرين من الشقاء والضلال بسبب أنهم كرهوا القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله ﷺ فبطل عملهم ، وخاب أملهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات الطريقة المثلى للقتال فى سبيل الله تعالى ، وهو الضرب الشديد فى الحرب ، وأسر من يقع فى أيدي المسلمين ، وبعد الحرب يكون الفداء أو المن حتى لا تقع الحرب مرة أخرى ... وقد أجرى الله النصر على سنن الخلق ... ولو أراد سبحانه إهلاك الكفار بلا سبب لأهلكهم ... لكن الله كتب على عباده البلاء ليظهر الصادق من الكاذب .

إن الذين يقتلون فى سبيل الله شهداء أحياء عند بهم ، ولن يضيع الله أجرا لهم ، وسيهديهم ، ويصلح بالهم فى الدنيا ، وفى الآخرة يدخلهم الجنة وقد عرفها لهم ، وقد بين الله أن الانتصار يحقق النصر ، ويقوى الجناح ، وهذا لن يناله الكافرون لأنهم كرهوا القرآن الكريم فأضاع الله أعمالهم الطيبة .

- ٥ -

(٦٤٨)

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

أهمية ربط الأسباب بمسبباتها

قضى الله فى عباده أن يعيشوا متفرقين ، وأن لا يتفقوا على حكم واحد ولذلك كثر النزاع ، وتتوع الصراع بين أهل الحق ، وأهل الباطل ، واتخذ صورا عدة .

ولله فى هذا حكم وأحكام فقد بين للمؤمنين ضرورة القيام بكل أسباب الفوز والغلب من استقامة على منهج الله تعالى ، والتزام بأوامر الله تعالى ، واعداد العدة بكل صورها لمواجهة أعداء الله فى الأرض ، والاستفادة من كافة الطاقات البشرية ، والأخذ بالأسباب العادية فى كل قضية .

لم يقض الله أمرا قعد عنه الناس ، ولن تمطر السماء ذهبا أو فضة ، وإنما تأتى المسببات بعد وجود أسبابها ، ولن يتحقق نصر إلا بعد بذل الجهد والنفس وطاعة الله تعالى .

لو أراد الله أن ينصر المسلمين وهم نائمون لفعل ، ولكنه سبحانه وتعالى قضى ببذل الجهد ، والسعى ، والعمل ، والاستعداد للقاء العدو ، ... وأرشد المسلمين إلى كيفية القتال والمواجهة ، والعمل الجاد أثناء الحرب .

إن الحرب كر وفر ، ونصر وهزيمة ، وهذا يحتاج من المسلمين أن يجتهدوا فى الإعداد والاستعداد ، فى صدق وإخلاص ليكون الله معهم فى الدنيا والآخرة ، وينصرهم نصرا مؤزرا .

المؤمنون والكافرون بين النظر والاعتقاد

يقول الله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ۚ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكَنَّهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۚ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ۚ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة الشدة فى الجهاد ، ونظمت جوانب الحرب ، وبشرت المؤمنين بنصر الله تعالى جاءت هذه الآيات لتبين عاقبة المؤمنين والكافرين ، وتوضح حسن عقل المؤمنين ، وخيبة فكر الكافرين وضلالهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الكافرين لم ينظروا فى أخبار الأمم الماضية ، ولذلك يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فزادوا عتوا وضلالا ... وأما المؤمنون فهم يطيعون الله ، وسيتولى الله أمرهم ، وسيدخلهم جنات النعيم لما كانوا فيه من إيمان وعمل صالح .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام إنكارى ينكر الله على المشركين عدم

اعتبارهم بما حدث للأمم السابقة ، والمعنى أقعد المشركون وعميت أبصارهم وبصائرهم فلم يسيروا بأرجلهم وعقولهم لينظروا عاقبة الأمم السابقة التى أهلكها الله ، ودمر قوتها ، وسلطانها بسبب شركهم وفسادهم أملا فى أن يتجنبوا ما كانوا فيه من كفر ، وعصيان ، ومعارضة لرسولهم .

﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ أى وللکافرين بدين الله تعالى الذين يعبدون غير

الله هلاك ودمار يماثل ما حدث للأمم السابقة .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾

أى إن الله مولى الذين آمنوا يؤيدهم بالمعونة والتوفيق ، وينصرهم فى الدنيا وفى الآخرة ... أما المشركون فإنهم يعيشون ضنك الحياة ، وعذاب الآخرة لأنه لا مولى لهم .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى إن الله ذو الجلال والإكرام يدخل المؤمنين الذين عملوا الصالحات فى جنات النعيم بما فيها من بساتين ، وأنهار ، وقصور ، ومقام كريم .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ

مَثْوًى لَهُمْ ﴾ أى والذين كفروا بالله ، وصدوا عن دينه ، وعصوا الرسول ، وأنكروا القرآن الكريم فقدوا الإدراك السليم وعميت عقولهم عن الفهم فحياتهم

الدنيوية كلها تمتع وتلذذ يأكلون ، ويشربون كما تأكل الأنعام ، ويعيشون بشهواتهم ومنكراتهم في الدنيا لا يبحثون عن حق ، ولا يؤمنون بدين الله تعالى ، وفي يوم القيامة يسكنون النار فقد جعلها الله مثواهم ، ومستقرهم .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتَكَ

أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ أى وكثير من الأمم السابقة كانت أقوى ، وأشد من أهل مكة التى أخرجوك منها ... فلقد أهلكنا هذه الأمم الظالمة ولم يجدوا من ينصرهم ويعينهم ، وفى هذا إنذار شديد لأهل مكة .

عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما خرج من مكة إلى الغار التقت إلى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله إلى ، ولولا أن أهلك أخرجونى لم أخرج منك^(١) .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ ﴾ ؟ ...

أى إن الفرق كبير بين المؤمنين الذين رأوا آيات الله بينة واضحة في الوحي والكون فآمنوا بالله ، وصدقوا رسول الله ﷺ فاستقاموا على منهج الله ، وعملوا الصالحات ، وبين آخرين جحدوا نعم الله ، وأنكروا آياته ، وعصوا الرسول وغرهم الشيطان الرجيم ، وحسن لهم القبح والسوء ، وأوقعهم في الشهوات والمنكر ، فصاروا إتباعا للهوى والشيطان ، يعيشون بعيدا عن هدى الله ، مستغرقين في ضلال الكفر والإجرام ...

والاستفهام ينكر المماثلة بين الفريقين ، ويبين الفرق الكبير بينهم ، ففريق المؤمنين فائز ، لأن الله يسر لهم أسبابه ، فإن قاتلوا كانوا على ثقة بأنهم على الحق ، وأنهم صائرون إلى إحدى الحسنين إما الغنيمة واما الشهادة وهذا يقوى شجاعتهم في مواجهة الباطل ، وفى مواجهة الأعداء ، وإن سالموا عنوا بتدبير

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ٢ ص ١٥٥ .

شئونهم بمنهج الله وما فيه نفع الأمة والدين ، فلم يألوا جهدا في حسن أعمالهم ، وذلك من آثار أن الله أصلح بالهم وهداهم .

والفريق الذين زين له سوء عمله هم المشركون ، فإنهم تمتعوا بالسوء ، وعشقوا عبادة الأصنام ، واستمرأوا الظلم ، والعدوان ، وارتكاب الفواحش ، فلما نبههم الله لفساد أعمالهم ، وأرسل إليهم رسولا بين لهم صالح الأعمال ، وسيئاتها لم يدركوا ذلك ، ورأوا فسادهم صلاحا فتزينت أعمالهم في أنظارهم ولم يستطيعوا الإقلاع عنها ، وغلب هواهم على رأيهم فلم يعبأوا باتباع ما فيه صلاحهم في العاجل والآجل ، وأتاهم الشيطان فغره بما هم فيه من عصيان وجرم .

وبينت الآية أن الفريق المؤمن على برهان ، ظاهر ، ثابت لأنه جاءهم من الله ﴿ مِّن رَّبِّهِ ﴾ متصفا بالصدق ، والدقة ، ومخاطبة العقل والروح ، ومصالح الناس .

وبينت الآية ﴿ زُيِّنَ ﴾ للمجهول ليشمل سائر قوى التزيين مثل النفس الإمارة بالسوء ، والخضوع للتقليد ، واتباع العادات السيئة ، وطاعة الوسواس الشيطانية ، والخضوع لقادة الكفر والفساد ، والإعجاب بآراء المستشرقين ، ومزاعم المبشرين ... إلى آخر هذه الحشود المتنوعة التي تدعو الناس إلى الكفر والفسوق والعصيان في صور كلمات إذاعية ، أو رسائل وبرامج مصورة ، أو أفلام هابطة ، أو في الدعوة لعري الجسد ، وعهر الكلمات وهجر دين الله تعالى .

﴿ وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى إن المزيينات تكاثرت عليهم حتى صار

الهوى إلفا ، وعادة ، ومذهبا فاتبعوه وهم به راضون ، فكانوا من المجرمين .

- ٤ -

معنى الآيات

(٦٥٣)

تبين الآيات عدم اعتبار المشركين بحوادث الأمم السابقة ، فهم لم يتدبروا فيها ، ولم يستفيدوا بها ، وستكون عاقبتهم مثلهم ، لأنهم حرموا من ولاية الله التي جعلها للمؤمنين الصادقين .

إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنته ، لينعموا بأنهارها وخيراتها ، أما الكافرون فهم يعيشون في الضلال ، ويغرقون في الفساد ، ولذلك جعل الله مأواهم الجحيم ، فلقد أهلك الله أمما اغترت بقوتها ، ونسيت عطاء الله لها ، وعبدوا أصناما لم يجدوا منها نصيرا أو معينا .

إن العقل والشرع لا يساوى فريق المؤمنين بفريق الكافرين ، ففريق المؤمنين أخلص في العبادة ، وآمن بالله تعالى . أما المشركون فقد أطاعوا دعاة الكفر والسوء ، وزين لهم الشيطان الهوى فاتبعوه ، وكانوا من الضالين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

أهمية الاستفادة من تجارب السابقين

الإنسان هو الإنسان بجسده وعقله وعواطفه منذ أن خلقه الله ونشره في الأرض ، لم تتغير حقيقته ، وإن تطورت ظواهره ، ولذلك كانت الحياة الإنسانية في جملتها سلسلة متشابهة يأخذ الحاضر من الماضي ، ويمهد للمستقبل القريب والبعيد .

وحين ننظر في تاريخ العمران البشرى نجد التشابه الكبير بين أقوام الرسل في جدلهم ، وحوارهم مع الرسل ، وكأنهم فرد واحد واجه جميع الرسل .

وهذه الحقيقة تفيد الدعاة والمربين في علمهم ، وغاياتهم ، وتقدم لهم كثيرا من العوامل التي تساعد في مهامهم .

وأول هذه العوامل بيان التشابه بين الحاضر والماضي وبين المدعوين في الأمم الماضية ، والمدعوين الذين دعاهم محمد ﷺ ، والتذكير بما حدث للأمم السابقة بسبب ما كانوا فيه .

وهذا يعرف الدعاة بحقيقة الإنسان ، ومدى ميله إلى الأنانية وحب الذات وعشقه لمنكرات الدنيا ، وفواحشها ، وتوضح للدعاة طرق الخطاب حين دعوة المتكبرين .

ومنها يعرف الدعاة صعوبة الدعوة ، وحاجتها إلى الاستعداد لها ، علما وجهدا ، وعرفا ، وإخلاصا .

ومنها بيان القوة التي كان فيها السابقون فلقد كانوا في قوة أكبر من قوة مشركي مكة ، ومع ذلك أخذهم الله تعالى ، وعاقبهم على كفرهم .
ومنها التحذير من انتقام الله تعالى الذي يأتي للظالمين من حيث لا يتوقعون وفي الوقت كانوا فيه آمنين .

ومنها توضيح ان النصر في النهاية بيد الله سبحانه وتعالى ، وهذا يؤدي إلى ضرورة ملازمة طاعة الله تعالى ، والاعتماد عليه ، وعدم مخالفته والاستعداد المادي والمعنوي للنصر بقدر الطاقة ، والعمل الجاد لنشر دين الله تعالى بين الناس ، وتقديم طاعة الله ، والعمل له فوق أى رغبة ... فقد ترك المهاجرون مكة وفيها الأهل ، ولاد والأموال فعوضهم الله خيرا في هجرتهم لإخلاصهم وصدقهم مع الله ورسوله .

الركيزة الثانية

بيان رفعة المؤمنين ، وسفالة الضالين

(٦٥٥)

يشد الصراع في الدنيا بين المؤمنين والكافرين ، وينصر الله عباده ، فهو مولاهم ، والكافرون لا مولى لهم .

ويتجلى عطاء الله الكبير للمؤمنين في الآخرة فيدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويمتعهم بخيراتها ونعيمها جزاء استقامتهم في الدنيا فقد عرفوا الحق ، واتبعوه .

أما الكافر فإنه عاش الدنيا بعيدا عن الحق ، كافرا به ، يأكل ويتمتع كما تأكل البهائم ويتمتع ، لا يعبدون الله ، ولا يؤمنون بدين ، أشبعوا شهواتهم ، وتمتعوا بالمنكرات ، وفرحوا بالظلم والعدوان ، وعاشوا الدنيا تابعين للهوى ، فرحين بنزغات الشيطان لم يتأملوا في آيات الله ، ولم يسمعوا دعوة الله تعالى وكانوا هملا في حياتهم الدنيا ... وفي يوم القيامة سوف يلقون غتا ، ويساقون إلى جهنم وبئس المصير .

لقد صور القرآن الكريم للناس الجنة في صورة حسية ليتناها من يحبها ويسعى لها ، ويضع دنياه في الطريق إليها .

وصور الكافرين ، وتمتعهم وجريهم وراء الشهوات ، ومصيرهم في الآخرة ليتجنبها من يخافها ، ويتمنى أن لا يقع فيها .

إن منازل الناس في يوم القيامة ترغيب للمطيعين ، وتخويف للضالين ... عسى أن يتذكر أولو الألباب .

عظمة الجنة ورفعها

يقول الله تعالى :

(٦٥٦)

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ۖ ﴾

- ١ -

صلة الآية بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة نعيم الجنة ، ووضحت أنهارها المتنوعة ، ووجود هذه الأنهار تحتهم ويجوارهم جاءت هذه الآية لبيان تنوع الأنهار ، وأنها مختلفة عن أنهار الدنيا .

- ٢ -

موضوع الآية

تبين الآية ما في الجنة من نعيم وخيرات ، فقد تعددت أنهارها ، وكثر ثمرها ، أما المشركون فهم يشربون الماء الحار المغلى الذى يقطع أمعاءهم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ۖ ﴾ أى صفة الجنة وأحوالها التى وعد الله بها المتقين عجيبة ، وعظيمة جمعت جمال الشكل ، وحلو المقام ، وسعادة الرضى ، وروعة الصحبة والحياة ، ورؤية الله تعالى .

﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ ۖ ﴾ أى فى الجنة التى أعدها الله للمتقين أنهار عديدة ، منها أنهار جارية ، وأنهار ساكنة لا يتغير ماؤها ، ولا يفسد لطول مكثها فى مسارها .

وهى أنهار عديدة تنتشر في الجنة على سعتها ، ليشعر كل من يدخل الجنة أنها تجري بجواره لا يغيض ماؤها ، ولا ينتهى بل يبقى في جريانه لينشر البهجة والسرور في قلوب المؤمنين .

والأنهار جمع نهر ، ويراد به الماء الكثير الجارى في شق معد له ، وتأخذ الآية في تعداد الأنهار، وتصويرها لبيان ما فيها من حسن عظيم وجمال أسر .
فمنها أنهار ﴿ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ أى فيها أنهار مليئة بالماء الدائم الذى لا يتغير ، ولا يفسد بل يبقى على صفائه وعذوبته .

﴿ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أى وتوجد أنهار أخرى من لبن لا يتغير طعمه ، ولا يحمض مذاقه ، ولا يحرز كلبن الدنيا .

﴿ وَأَنْهَرٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى وفى الجنة أنهار مكونة من خمر لذىذ الطعم لم تلمسها يد ، ولم تدنسها رجل ، وليس فيها كراهة طعم خمر الدنيا ، أو رائحته ، ولا يؤدى إلى سكر وهذيان ، وهرف .

﴿ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ أى ويوجد في الجنة أنهار من عسل خلت من الشوائب التى تكون في العسل قبل تصفيته كما هو الحال في الدنيا .
عن معاوية بن جندة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : "في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر" (١) .

وقد ذكرت الآية هنا أربعة أشربة هي أجناس أشربة الناس في الدنيا ليروا ما أعد الله لهم بعدما يعلمون أن أنهار الآخرة لا تفسد كأنهار الدنيا ، لأنهم كانوا يطلبون الماء الصافي الذى لا يجدونه فى مياههم من الغدران والأحواض بالبادية ، تمتلئ من ماء المطر ، أو من مرور السيول فإذا استقرت أياما أخذت

(١) مسند أحمد . مسند معاوية بن جندة رضي الله عنه ج ٣٣ ص ٢٤٦ .

تتغير بالطحالب ، وبما يدخل فيها من الأيدي ، والدلاء ، وشرب الوحوش ، وقليلة هي البلاد التي تكون مجاورة للأنهار الجارية .

وكذلك اللبن كانوا إذا حلبوا وشربوا أبقوا ما استفضلوه إلى وقت آخر لأنهم لا يخلبون إلا حلبة واحدة ، أو حلبتين في اليوم فيقع في طعم اللبن تغيير وفساد .

وأما الخمر فكانت قليلة عزيزة عندهم لقلة الأعناب في الحجاز إلا قليلا في الطائف ، فكانت الخمر تجتلب من بلاد الشام ومن بلاد اليمن ، وكانت غالية الثمن ، وقد ينقطع جلبها زمانا في فصل الشتاء لعسر السير في الطرق وفي أوقات الحروب أيضا ، وقد حرمها الإسلام فتركوها إلا أن الله عوضهم عنها خمرا مباحا في أنهار ممثلة به في جنات النعيم .

والعسل هو أيضا كان من أشربتهم ، قال تعالى : ﴿ تَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ ^(١) وكان العسل مرغوبا فيه ، يجتلب من بلاد الجبال ذات النباتات المستمر .

وقد ذكرت الآية أنهارا خمسة ، تجرى فيها سوايل معينة ، هي أفضل ما تنافس عليه العرب ، وأندر ما يجدونه معهم في الدنيا ، وفي بلادهم ، وكانوا يستفيدون حين صلاحها ، ومجيئها ... فإذا بهم يجدونها أنهارا جارية في جنات النعيم لا تفسد ، ولا تنتهي ، ولا تنقطع ، ولا يعز وجودها .

وبدأت الآية بذكر أنهار الماء لأن الماء لا يستغنى عنه مخلوق في الدنيا ثم باللبن لأنه يجرى مجرى المطعوم لكثير من العرب في غالب أوقاتهم ، وقد اشتد إلفهم به لكثرة إبلهم وأنعامهم ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الرى والشبع

(١) سورة النحل ، الآية ٦٩ .

تشوفت النفس لما يستلذ به وبخاصة إذا كان حلالا مباحا ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء كما كان في الدنيا .

وبحسن هنا بيان أن ما في الجنة من أنهار وشراب ليس هو ما في الدنيا ولا يأخذ خصائص ما في الدنيا وحكمه ، وقد سماه الله بأسماء البشر تقريبا لأفهامهم ، وارضاء لرغباتهم وميولهم .

﴿ وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أى جعل الله للمتقين في الجنة كل الثمرات على اختلافها وتنوعها لونا ، وحجما ، وطعما بلا انقطاع أو تقصير .
﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أى غفر الله للمتقين ذنوبهم ، وستر سيئاتهم ، وقدر لهم جزاء حسنا على أعمالهم .

﴿ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ ﴾ ؟ ...
أى هل يستوى هؤلاء المتقون المنعمون بجنات الله بهؤلاء الذين خلدوا في جهنم ، ووضعوا في العذاب الأليم ؟
إنهما لا يستويان أبدا فالمتقون يعيشون بين الأنهار المذكورة ، والثمار الكثيرة أما المشركون فشرابهم الماء المغلى الذى يقطع أمعاءهم ، ويشوى وجوههم .

- ٤ -

معنى الآية

تبين الآية ما في الجنة من خيرات ونعيم ، ففيها أنهار الماء ، واللبن ، والخمر ، والعسل ، تجرى في كل جوانب الجنة ليتمتع بها كل من استحقها ، ودخلها ، وأقام بها متمتعا بخيرات الله ونعمه التى تحيط به من كل جانب ... وفيها كل أنواع وأشكال الثمرات .

(٦٦٠)

وهذا فضل من الله كبير يحرم منه أصحاب النار الذين يشربون الماء الحار المغلى الذى يقطع أمعاءهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآية

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

حسن عاقبة المتقين

سعادة الإنسان بين يديه إلا أنه يضيعها ، ويتحسر عليها بعد ضياعها .
لقد أنزل الله الإسلام للناس لإصلاح الدنيا والآخرة ، وتوضيح مناهج السعادة والرقى ، والتقدم .

جاء الإسلام وأمر بالاستقامة ، والعدل ، والإصلاح ، والإحسان ، ووضع طريقة تنشئة الفرد ، وبناء الجماعة ، وإقامة الأمة على صورة قويمه قائمة على الخير والأمن والاستقرار .

شرع الإسلام رعاية الوليد ، وتربيته على القيم والخلق ، والقيام بالواجب ، والحرص على الحق ، ودعاه ليكون عضوا إيجابيا مع الناس ، ببر والديه ، ويحب إخوانه ، ويكرم الضعيف والمسكين وذا الحاجة ... وشرع الإسلام للجماعة التعاون على البر ، والعطاء ، وحسن الخلق ، وحسن المعاملة وأن يحب كل مسلم أخاه بنفسه ، ويسعى في ذمته ، ويكون معه جماعة مؤمنة تبنى وتشيد ، وتعلم وتقيد ... وشرع الإسلام العمل لإيجاد أمة مؤمنة تؤمن بالله تعالى ، وتلتزم بشرعه ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .
هذا شرع الله في الدنيا ، وهو خير كله .

أما في الآخرة فإن المؤمن يأتون الجنة وقد تزينت ، وتزخرفت ، واستعدت للقاء أصحابها ، وينادى خزنتها المؤمنين عند مجيئهم بما حكاه الله عنهم في

قوله تعالى : ﴿ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبَّتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾^(١) ويتمتع المؤمنون بجمال الجنة العظيم حيث المسكن المشيد من الذهب ، والفضة والزوجات المقصورات في الخيام ، اللاتي لم تطمثن إنس قبلهم ولا جان ، والأنهار المتنوعة بشربها ، ومذاقها ، وكثرتها ، ومساراتها التي تتلوى بين الرياض والغرف ... ولهم فيها ما يشاءون ، وتعظم متعهم حين تستمر في تجدد دائم ، فلا يعيشون مالا ، ولا يرون ضجرا ، ولا يلحق بهم مرض ويتجلى الله عليهم بعظمته فيروونه في جلاله وكماله ، ويجزيهم أحسن الجزاء .

إن المؤمن في الدنيا يعمل وأمله في الآخرة ، ولذلك يلتزم بما اعتقده ، وآمن به ، ويجعل حياته وخلقه وفق شرع الله تعالى .

ويعيش المؤمنون في الدنيا في مودة ، وتعاون ، وعمل دائم لنصر دين الله تعالى ، ونشر بين الناس أجمعين .

يا ليت قومي يعلمون هذه الحقائق ويتيقنون منها ليعيشوا لها ، ويعلموا من أجلها .

حقيقة المؤمنين والمنافقين في الدنيا

يقول الله تعالى :

(١) سورة الزمر ، الآية ٧٣ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا
 الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ ﴿٦٦﴾
 وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴿٦٧﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ
 أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ۖ ﴿٦٨﴾ فَاعْلَمُوا
 أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 مُتَقَلِّبِكُمْ وَمُتَوَلِّكُمْ ۖ ﴿٦٩﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۚ فَإِذَا أُنزِلَتْ
 سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۖ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ
 الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۚ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ
 فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ ﴿٧٠﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي
 الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ ۖ ﴿٧١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى
 أَبْصَرَهُمْ ۖ ﴿٧٢﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ ۚ أَلْقُرْءَانَ ۖ أَمْرٌ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۖ ﴿٧٣﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآية السابقة صفة الجنة التي ينعم فيها المتقون ، والمياه الحارة
 التي تقطع أمعاء المكذبين جاءت هذه الآيات لبيان حقيقة المؤمنين والمنافقين
 في الدنيا ، وتوضح تمسك المؤمنين بالهداية ، ونشاط المنافقين في مسالك
 السوء والهوى ، فقد غرتهم شياطين الإنس والجن ، ومالوا إلى الفسق فصاروا لا
 يعقلون ما يسمعون ، وأخذوا يتبعون أهواءهم ، وقد طبع الله على قلوبهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تتحدث الآيات عن المنافقين ، وتبين انصرافهم عن فهم ما يسمعون من رسول الله ﷺ فقد اتبعوا الهوى ، وطبع الله على قلوبهم ، وسوف تأتى الساعة فقد ظهرت علاماتها ، إنهم يكرهون ما يسمعون ويحقدون على المسلمين ، ويعملون لهزيمتهم ، ويقطعون الأرحام ، ولذلك لعنهم الله فأصم سمعهم ، وأعمى أبصارهم ، وأقفل قلوبهم فلا يفهمون شيئاً من القرآن الكريم، ولا يطيعون الله ، ويتبعون الشيطان الرجيم .

أما المؤمنون فهم يفهمون ما يسمعون ، ويعرفون ، ويعملون ، ويزدادون هدى وتقى ، ويعملون لما بعد الموت فلقد هداهم الله للحق ، وزادهم تقى وطاعة .

وتأمر الآيات رسول الله ﷺ أن يدعو للمتقين ، ويستغفر لهم كما يستغفر لنفسه ، وتبين أن المؤمنين يدعون غيرهم إلى دين الله تعالى ، والتدبر في آيات القرآن الكريم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ أى ومن الكفار منافقون يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، وهؤلاء لا يعون ما يسمعون ، ويتغافلون عما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ ، فلقد كانوا يجلسون مع النبي ﷺ والمؤمنين ، ويسمعون ما يقوله ﷺ فإذا انتهى المجلس وخرجوا منه يسألون المؤمنين : ماذا قال محمد الآن ؟ إنا لم نفهم لكلامه معنى .

يريدون بذلك الاستهزاء برسول الله ، والإيهام بأن حديثه ﷺ ليس له معنى ولا فائدة فيه ، وأن دعوته الناس إلى الإسلام دعوة قاصرة .

روى مقاتل أن النبي ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله ابن مسعود ، استهزاء : ماذا قال محمد أنفا ؟ يقول ابن عباس : وقد سئلت فيمن سئل (١) .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى هؤلاء المنافقون ، الموغلون في الضلال قد ختم الله على قلوبهم ، وأعمى بصائرهم وأفسد عقولهم فاتبعوا أهواءهم ، وأطاعوا شياطينهم ولم يستفيدوا بما يسمعون من رسول الله ، ولم يعقلوا من القرآن الكريم شيئا ، لأن القرآن نور ونور الله لا يصل لقلوب المجرمين .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ أى إن المؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فإن الله يزيدهم هدى ، ويزدادون بالقرآن الكريم طاعة وإيمانا ، وتأتيهم التقوى التى كتبها لهم ، وقدرها فيهم .

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ ؟ ... أى ماذا ينتظر المنافقون ؟ ... وليس أمامهم إلا الساعة التى ستقع فجأة بلا توقع ، فقد ظهرت علاماتها ووقعت شروطها الصغرى .

إن هؤلاء المنافقين قد بلغوا الغاية في العناد ، والتعسف ، فقد بان الحجب لهم ، وثبتت الأدلة عندهم ، واتضحت الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته ، وعلى صدق رسول الله ، وعلى أن القرآن كلام الله ، وظهرت العلامات الدالة على وقوع البعث والحشر والحساب ، وظهرت أشرط الساعة ... ومع كل هذه البراهين استمر المنافقون على سفاهتهم ، وكفرهم الباطنى فلم يؤمنوا بإيماننا حقيقيا ، ولم يفكروا في المصير الذى ينتظرهم في الآخرة .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ١٧٨ .

﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ أى فماذا هم فاعلون حين تأنيهم

الساعة التى ينكرونها ؟

إنهم لن ينتفعوا حينئذ بالتذكر ولن ينفعهم الإيمان ولن تقبل منهم التوبة
فقد ذهب وقت ذلك ، ولم يبق إلا الحساب والجزاء .

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدَنِّكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ

وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أى إذا علمت يا محمد السعادة التى يعيشها المؤمنون ، ورأيت

الشقاء الذى سيحل بالكافرين والمنافقين فاستمسك بالذى أنت عليه ، فهو منهج
الله تعالى ، وهو طريق تحقيق سعادة الدنيا والآخرة ، واستمر على إيمانك
المطلق بالله ، واطلب من الله أن يغفر لذنبك ، وأن يغفر للمؤمنين والمؤمنات
معك فقد أطاعوا ، واستقاموا ، وقبل الله توبتهم ، وأعد لهم جنات النعيم .

ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه ﷺ كان كثير الدعاء والاستغفار لنفسه
وللمؤمنين والمؤمنات ... ومن ذلك :

– اللهم اغفر لى خطيئتي وجهلى ، واسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به
منى ، اللهم اغفر لى هزلى وجدى ، وخطأى وعمدى ، وكل ذلك
عندى^(١) .

– وثبت أنه كان يقول فى آخر الصلاة : اللهم اغفر لى ما قدمت وما
أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ،
أنت إلهى لا إله إلا أنت^(٢) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الدعوات . باب قول النبى ﷺ اللهم اغفر لى ج ٨ ص ٨٥ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب صلاة المسافرين . باب الدعاء فى صلاة الليلية ج ١ ص ٥٣٤ .

- وجاء أيضا أنه ﷺ قال : أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة^(١) .

- وعن أبى بكر الصديق ؓ عن النبي ﷺ أنه قال : عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثرُوا منهما ، فإن إبليس قال : إنما أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون^(٢) .

- وفى الأثر إن إبليس اللعين قال لله تعالى : وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم .

فقال الله عز وجل : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى^(٣) .
ومن دلالات الآية البديعة أن الله أمر رسوله ﷺ بالعلم قبل الأمر بالعمل ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ ﴾ ، وذلك لأن العمل بلا علم خواء لا يعرف طريقا ، ولا يقصد غاية .

سئل ابن عينية عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قول الله تعالى : ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ ﴾ فقدم الله العلم على العمل .

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ أى والله عليم بأحوالكم وأعمالكم ،
واليه مرجع الناس جميعا وسوف يحاسبهم على تنوع أعمالهم التى تقلبوا فيها فى الدنيا ، ويجازيكم عليها فى الآخرة .

(١) مسند أحمد ط . الرسالة . مسند الشاميين . حديث الأغر ج ٢٩ ص ٣٩٠ .

(٢) المقصد المعلى فى زوائد أبى يعلى الموصلى . كتاب التوبة . باب قبول التوبة ج ٤ ص ٣٦٨ .

(٣) المستدرک على الصحيحين . كتاب التوبة والإنابة ج ٤ ص ٢٩٠ .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۚ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۖ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ

الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۙ ﴾ أى إن المؤمنين المخلصين في إيمانهم يشناقون للوحى ، ويرجون نزول آيات القتال والجهاد ، ويقولون هلا أنزلت سورة تأمرنا بالجهاد ، وتحدد لنا دواعيه ، وتضع نظمه وأثاره ... فإذا نزلت سورة تلبى أملمهم ، فرحوا بها ، وسعدوا بالاستقامة عليها ... وطبقوه .

أما المنافقون فإنهم يقابلون الآيات الداعية إلى الجهاد والقتال بالهلع ، والفرع كمن أقبل عليه الموت فجأة ، وقطعه عن أمانيه وشهواته ومعاصيه بسبب ما في قلوبهم من مرض زادهم الله منه ، ومكنه من قلوبهم وحياتهم .

﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُم ۖ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ أى الأولى والأفضل للمنافقين

أن يطيعوا الله ورسوله ، ويسارعوا إلى الجهاد ، ويقولوا قولاً سديداً ... وأنى لهم ذلك ؟ فقد رغبوا عنه ، وصدوا غيرهم عن سبيل الله .

وقيل عن قوله تعالى : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ إنه كلام مستأنف ، وعلى

هذا يكون المعنى أولى لهم أن يموتوا أى الهلاك والدمار لهم أمر مستحق .

﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أى إذا حضر

القتال ، وتلاقت السيوف وجد المنافقون أنفسهم أمامه فيكرهونه ، ويفرون منه ويتعللون للهرب والتخلف فزعا ، وهلعا ... ولو أنهم صدقوا الله ، وأقدموا على الجهاد ، وأخلصوا النية لله لكان خيراً لهم عند ربهم ، ولنالون به الثواب الجزيل في جنات النعيم .

ولو أنهم آمنوا بالله وصدوا بكل ما أمروا به ما أصابهم الهلع والهرب ، لأن الصدق يؤكد لهم أن أمور الحياة والموت بيد الله ، ولكل أجل كتاب .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا

أَرْحَامَكُمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام لإنكار ما عليه المشركون ، والمعنى أنكم لحبكم
للدنيا تتركون الجهاد حين تدعون إليه ، وتفضلون عليه الفساد في الأرض ،
وتقطع الأرحام ، وأنتم بذلك تتركون طريق الفوز والفلاح ، وتعملون للخسران
والبوار ، وتستحقون بعلمكم لعنة الله تعالى .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ أى هؤلاء

المنافقون هم الذين غضب الله عليهم ، ولعنهم ، وطردهم من رحمته ، فأصمهم
وصرفهم عن الاستماع ، وأعمى أبصارهم فلا يرون صواباً أو حقاً ، وأغلق
عقولهم عن الحق والصواب .

إن المنافقين يجمعون بين الفساد ، وقطع الأرحام ، وبذلك يضررون أنفسهم
وأقرباءهم ، ومجتمعهم وهذا فساد كبير .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الله تعالى خلق الخلق
حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال : مه .
قالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة .
قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟
قالت : بلى .
قال : فذلك لك ^(١) .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ؟ ... الاستفهام

إنكارى ينكر الله فيه على المنافقين غفلتهم عن القرآن الكريم ، وبعدهم عن هدى
الله . والمعنى أغابت عقولهم عن فهم آيات القرآن الكريم ؟ والنظر فيه

(١) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة . باب صلة الرحم ج ٤ ص ١٩٨٠ .

(٦٦٩)

والاهتداء بهديه ، أم أن قلوبكم قد أغلقت ، وسكرت بالأفقال فصارت لا تفهم أمرا ، ولا تعرف شيئا ، ولا تسمع قولاً ، وصرتم بذلك لا تهتدون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن المنافقين يستمعون لرسول الله ﷺ ولا يعون من حديثه شيئا ، فقد طبع الله على قلوبهم ، واتبعوا أهواءهم ، وأما المؤمنون فيزيدهم الله هدى ، ويأتيهم التقوى .

وتتساءل الآية عن ماذا يفعل المنافقون عند قيام الساعة ؟ وما مدى ندمهم وحسرتهم ؟ ... فقد قرب مجيئها ، وظهرت أماراتها ، وتأمر الآيات رسول الله أن يستغفر لذنبه ، ولذنوب المؤمنين والمؤمنات فإلى الله الرجوع ، وعنده الحساب والجزاء .

ويتمنى المؤمنون نزول آيات تأمرهم بالجهاد والاستعداد له ليفرحوا بها ويسعدوا ، فإذا نزلت الآيات زادتهم إيمانا ، وسعدوا بها ، أما المنافقون فإنهم يصابون بالهلع والخوف من هذه الآيات ، ولذلك فالويل والهلاك لهم ، والأفضل لهم أن يطيعوا الله ورسوله ، فلو أقبلوا على الجهاد ، والقتال لكان خيرا لهم .
إن المنافقين يهلعون من الأمر بالقتال ، ويتولون عنه ، ويفسدون في الأرض ، ويقطعون الأرحام ، وقد لعنهم الله ، وطردهم من رحمته ، وأغلق قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، وأصم سمعهم .
ولو تدبروا القرآن الكريم واعتبروا به لكان خيرا لهم ، وكان سببا لنجاتهم من النار .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

(٦٧٠)

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

النفاق مرض يؤذى صاحبه

الأمراض التي يصاب بها الإنسان عديدة ، منها ما يصب البدن ، ومنها ما يصيب القلوب ، وأخطرها أمراض القلوب لما لها من تأثير على العقيدة ، والخلق ، والدين ، ولامتداد أثرها على الجسد والبدن .

وأخطر أمراض القلوب مرض النفاق لأنه مرض يختفى عن الناس ، ولا يظهره صاحبه ، ويسعى به بين الناس وهم لا يشعرون .

يبدو لك المنافق إنسانا سويا ، إن تكلم يغر بحسن حديثه ، وإن ظهر يرى الناس حسن مظهره ... يخفى ما في قلبه من حقد وكراهية ، ويحارب الإسلام والمسلمين بصورة المصلح الأمين .

إن المنافق كافر في الحقيقة إلا أنه لا يظهر الكفر ، إلا مع الكافرين ... ومع المؤمنين يبدوا لهم حليفا وناصرا .

لقد بينت الآيات بعض الملامح التي تعرف بهم .

فهم يدعون عدم المعرفة ، وإن علموا حتى لا يدينهم أحد .

وهم يحبون الهوى ، ويجرون وراء الشهوات ويحسبون أنهم مهتدون .

وهم جبناؤ يخشون المواجهة ، ويتذرعون بالصمت ، ويتصنعون الهدوء

حتى يتخيل من يراهم حسن أخلاقهم ، وطمأنينة نفوسهم .

وهم يقطعون الأرحام ، ويميلون إلى الفساد ، ولا وجود لهم في مجالات

الخير والصلاح .

(٦٧١)

وهم ينفرون من القرآن الكريم ، ولا يهتمون لسماعه ، ويلهيهم عنه أصوات الخنا ، ومعاذف الشيطان ، وحياة الترف والمجون .
هذه هي ملامح المنافقين .

والواجب :

أن يبتعد الدعاة عنها ، ويحذر منها ، ويدعوا الناس إلى العمل بدين الله تعالى والاستقامة على منهجه المستقيم .

الركيزة الثانية **اتباع منهج المتقين**

المتقون هم عباد الله المكرمون ، فقد آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا بما جاءهم من الوحي ، واستقاموا على صراط الله المستقيم .
هؤلاء المتقون يزيدهم الله إيماناً وهداية ، ويسعدون بعبوديتهم لله تعالى الواحد الأحد ، ويستغفرون لأنفسهم وآخوانهم ، مقتدين برسول الله ﷺ .
إن المتقين يفرحون بكلام الله تعالى ، وإن احتاجوا لحكم لجأوا إليه ، واعتمدوا عليه ، وأطاعوه في أمره ونهيه .
إن المتقين يعلمون أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، ولذلك فهو دستورهم ، وأساس دينهم وحياتهم ، يقبلون عليه بقلوبهم ، وحفظهم ، وعقلهم وفهمهم ، وعملهم ، ودنياهم ، وآخرهم .

والواجب :

الاهتمام بتوضيح منهج المتقين في الحياة ليكون منهجاً لكل مسلم يعمل للأخرة ويرجو رحمة الله تعالى .
وتوضيح هذا المنهج هو رسالة الدعاة ، وأمل الناس في الوصول لله رب العالمين .

أحوال المنافقين

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ
 الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا
 نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۚ ﴿٦٧٢﴾ فَكَيْفَ إِذَا
 تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا
 أَصْحَبَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ۖ فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ ۚ ﴿٦٧٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي
 قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ نُخْرِجَ اللَّهَ أَضْغَنَهُمْ ۚ ﴿٦٧٤﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ
 بِسِيمَانِهِمْ ۖ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۚ ﴿٦٧٥﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ
 نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمُ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُواْ أَخْبَارَكُمْ ۚ ﴿٦٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا
 عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرِّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ
 شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ ۚ ﴿٦٧٧﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات ضلال المنافقين في الدنيا جاءت هذه الآيات بأحوال
 المشركين في الدنيا ، وعقوبتهم في الآخرة ، فقد أبطل الله أعمالهم بسبب نفاقهم
 ، وكراهية ما أنزل الله لهم ، واتباعهم أهواءهم .

- ٢ -

(٦٧٣)

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الشيطان سيطر على الذين نكصوا على أعقابهم ، فكفروا بالله تعالى ، وكرهوا ما أنزل الله وصدوا عن سبيل الله تعالى فاحبط أعمالهم .
وتبين الآيات أن الله يبتلى الخلائق ليظهر المفسد من المصلح .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ

الْشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أى إن الذين ارتدوا على أدبارهم ، ورجعوا القهقرى ، وكفروا بدين الله تعالى بعدما تبين الهدى أمامهم ، وجاءتهم الآيات من ربهم ليؤمنوا ويصدقوا ، هؤلاء الضالون لن يضرروا إلا أنفسهم ، فقد زين لهم الشيطان الكفر ، وبسر لهم طريقه ، وأملهم في خيريته خداعا وكذبا وضلالا .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ

فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أى هذا الضلال الذى اتبعه المنافقون يرجع إلى أنهم مالأوا اليهود في المدينة ، وعاهدوهم على النصرة والمعونة في سرية وخفاء كطبعهم ظنا منهم أن المؤمنين لن يعلموا خبرهم ، وأن الله لن يحيط بهم ... والحقيقة أن الله يعلم أسرارهم ، وسيفضح خباياهم .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾

أى فكيف يفعلون إذا جاءتهم الملائكة ، لقبض أرواحهم على أقبح الوجوه منظرا ، وأعظمها سوءا وألما ، فتضرب وجوههم من أمامهم ، وتضرب أديارهم من خلفهم ، ولذلك كانت إهانتهم بالضرب والأذى الذى كانوا يحذرونه في الدنيا .

والضرب يشمل أجساد المنافقين كلها إلا أن الآية ذكرت الوجه والدبر خزيا لهم ، لأن الوجه تكون به المواجهة ، وضربه ذل لصاحبه ، والدبر مكان الستر والعورة ، وضربه كناية عن الهوان والصغار ، والإهانة .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَصْحَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ أى سبب إلحاق الأذى بهم على هذه الصورة المهينة ، وضربهم عند قبض أرواحهم على الوجود والأدبار اتباعهم للشيطان ، وانهماكم في المعاصي ، وكراهيتهم لما يرضى الله تعالى ، ولذلك أحبط الله أعمالهم الطيبة ، وأبطل أثرها ، والحق الأذى بهم عند قبض أرواحهم ، ولهم في الآخرة عذاب أليم .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَن لَّنْ نُخْرِجَ اللَّهَ أَضْغَنَهُمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام ينكر ظن المنافقين أن أسرارهم لن تظهر ، والمعنى هل ظن المنافقون الحاقدون أن ما في قلوبهم من حقد ، وكراهية للحق لن يظهر ، وسيبقى سرا ؟ ... وهذا الظن مردود لأن الله يعلم السر والأخفى ، وهو عليم بذات الصدور .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَانِهِمْ ۖ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى ولو نشاء لأريناك أيها الرسول أسرار هؤلاء المنافقين ، وعرفناك بهم ، وجعلنا فيهم علامات تدل على نفاقهم وفسادهم ... ولكن الله لم يشأ ذلك للستر عليهم، عسى أن يتوبوا ويرجعوا، وحتى لا تقع فتنة بين الناس حين يظهرون على حقيقتهم ... وعلم الله شامل لكل ما يقع من المخلوقات مهما استتر وخفى ، فيظهر ما يشاء، ويخفى ما يشاء وهو الحكيم الخبير .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾

أَخْبَارُكُمْ ﴾ أى يقسم الله تعالى ، ويؤكد أنه سيختبر الناس جميعا بالتكاليف الشرعية ، وبالجهد ، وبأعمال الخير ، والبعد عن الشر حتى يتميز المجاهد الصابر عن غيره ، ويظهر الصادق من الكذاب . يقول الله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الذين ارتدوا على أدبارهم ، وكفروا بالله تعالى ، واتبعوا وساوس الشيطان ، وناقضوا اليهود لن يضرروا إلا أنفسهم . وتتساءل الآيات عن موقفهم يوم مجئ الملائكة لقبض أرواحهم لأنهم يضربون وجوههم وأدبارهم ، فلقد أحبط الله أعمال المنافقين بسبب كراهيتهم للحق ، وعداوتهم للإسلام ... وتتساءل الآيات عن ظن المنافقين أن الله لا يعلم أسرارهم ولو أراد الله أن يريك يا محمد حقيقتهم وباطنهم ، لميزهم بعلامات تدل عليهم ، إلا أن الله لم يشأ ذلك ، وجعل قولهم يدل عليهم ... ويقسم الله أنه سيختبر الناس ليظهر الصادق من الكاذب .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات توضيح ركيزة هامة ... هي :

بيان أحوال المنافقين

خطورة المنافقين في المجتمع أنهم مجهولون للناس بحسبهم ، المؤمنون منهم ، وهم ليسوا كذلك ، ويتعامل المسلمون معهم على أساس أنهم

(١) سورة الملك ، الآية ٢ .

مسلمون ، والواقع أنهم كافرون ... ولذلك يبين الله أحوالهم للناس ليكونوا على حذر منهم ، ومن كل من تشابه حاله مع أحوالهم .

وحين نتأمل في الآيات نجد أحوال المنافقين مع غيرهم كما يلي :

أولا : حالتهم من الشياطين : نجد صلتهم بالشياطين وثيقة ، فقد علم الشيطان كفرهم فرحب بهم ، ورضى بهم في حربه ، وأخذ يغريهم ، ويسول لهم المعاصي والكفر .

ثانيا : صلتهم من الكافرين : يصارحون الكافرين بنفاقهم ، ويطلبون منهم المعونة ، ويتعهدون لهم بالطاعة ، والاستمرار في الفسوق والمعاصي ، وكراهية الإسلام والمسلمين ، وعدم الإيمان بالقرآن الكريم .

ثالثا : حالتهم مع الله تعالى : إن المنافقين يعملون لخدمة الشيطان في الأرض ، ولذلك فهم يكفرون بالله تعالى ، ويصدون عن سبيل الله ويعارضونه رسول الله ﷺ ، ويلجأون إلى الضلال بعد أن جاءهم الهدى .

رابعا : حالتهم مع المسلمين : يعيشون معهم في حذر ، ويخافون منهم ويتآمرون عليهم .

خامسا : حالتهم عند الموت : يفاجئ الأجل المنافقين ، ويأتي ملائكة قبض الأرواح فينزعون أرواحهم نزعا شديدا ، ويضربونهم على صدورهم وأدبارهم وأجسادهم .

سادسا : حالتهم في الآخرة : يجازى الله المنافقين على كل أعمالهم كلها ويلقون سوء المصير .

هؤلاء هم المنافقون وأحوالهم نعرضها ، ونبسطها لتبقى ظاهرة أمام الناس ليحذر المؤمن أن يكون مثلهم ، ويخاف المنافق من مآله ، ومصيره .

معارضة الكافرين واهية

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَهْدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ١٧
 ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ ١٨ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ ١٩ فَلَا تَهْنُوا
 وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ٢٠ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلال المنافقين وسوء أعمالهم ضد الإسلام وهم يظنون أن ما في قلوبهم لا يعلمه أحد جاءت هذه الآيات لبيان أن الكافرين لن يضرروا إلا أنفسهم ، ولن يضرروا الله شيئاً ، وتأمّر المؤمنين أن يطيعوا الله ورسوله ، ويتركوا طريق الضالين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن ما يقوم به الكافرون ليصدوا عن سبيل الله لا أثر له وأنهم لن يضرروا الله شيئاً ، ولن يضرروا إلا أنفسهم ، وتؤكد الآيات أن الله لن يغفر للكافرين ، وتوضح الآيات أمر الله للمؤمنين ليطيعوا الله والرسول ، ويستقيموا على دين الله تعالى حتى لا يخسروا أعمالهم ، فهم الأعلون ، والله معهم ، ولن يضيع عملهم .

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أى إن الذين جحدوا آيات الله ، وأشركوا مع الله آلهة أخرى ، وصدوا عن دينه ، وكفروا بالإسلام لن يضرروا الله شيئاً لأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومؤيد أنصاره ، واتباعه ، وسيبطل مكائدهم التى نصبوها لإطفاء نور الله بين الناس ، والقضاء على الإسلام والمسلمين .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ينادى الله المؤمنين الذين يستجيبون ، ويطيعون أن لا يكونوا مثل الكفار الجاحدين المنكرين لدين الله تعالى ، المستغرقين فى معصية الله ، وبأمرهم بأن يستمروا على شريعته وأخلاقه .

﴿ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى لا تضيعوا حسناتكم بالمعاصى ، وقيدوا الطاعة بمثلها ، وسارعوا إلى الرجوع إلى الله إذا وقعتم فى معصية ، واعلموا أن الحسنات يذهبن السيئات .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا معشر أصحاب رسول الله ﷺ نرى أنه ليس شئ من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ .

وكنا إذا رأينا من أصاب شيئا ، قلنا : قد هلك حتى نزل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ فكففنا عن القول فى ذلك .

وكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها رجونا له^(١)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ أى إن الذين جحدوا حق الله ، وعبدوا الأصنام ، وأخذوا يصدون غيرهم عن دين الله تعالى ، ويمنعونهم عن طاعة الله تعالى ... وماتوا على ذلك لن يغفر الله ذنوبهم ، وسيعاقبهم على كفرهم وجحودهم وقيدت الآية موتهم على الكفر لجواز توبتهم قبل الموت ، فإذا جاء الموت انقطعت التوبة وثبت عقاب الإنسان على ما مات عليه .

﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْآعِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى فلا تضعفوا وتقعّدوا عن الجهاد ، وتلجأوا إلى المهادنة وتتجنبوا قتال المشركين خوفاً ، وجبنا ، وعجزا ، لا تفعلوا ذلك لأنكم الأعلى والله معكم ، ولن يقطع ثواب عملكم ، ولن ينقصكم أجوركم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن كل مكائد الذين كفروا واهية لا أثر لها ، وسيحاسبهم الله عليها ، ولن يغفر لهم ماداموا قد ماتوا على الكفر والجحود .
وتأمر الآيات المؤمنين بطاعة الله ورسوله ، والاستقامة على دين الله تعالى ، وعدم إبطال الأعمال الصالحة ، فهم الأعلون ، والله معهم ، ولن ينقص الله لهم عملاً صالحاً ، ويأمر المؤمنين أن يعتزوا بعهدة دينهم ، ولا يضعفوا أمام المشركين والكافرين ولا يتركوا الجهاد ليبقى الإسلام عزيزاً قوياً .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ١٨٤ .

(٦٨٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تبين الآيات ركيزة هامة ... هي :

الاستعلاء بالإيمان

المؤمن عبد مكرم عظيم ، يضعه سيده في المقام العالى في الدنيا والآخرة ، ويأمره أن يتمسك بالإيمان ، ويطيع الله والرسول ، ويتجنب مزلق الشيطان ، وضلال المضلين .

ويوجه إلى النظر لأعداء الله نظرة واقعية فقد اتخذوا الكفر لهم مبدأ ، وأخذوا في العمل ضد دين الله ، فصدوا الناس عنه ، واستمروا على ضلالهم ومشاقة رسول الله ﷺ بعد أن دعاهم ، وبين لهم . هؤلاء الكافرون لن يضرروا الله شيئاً وسيبطل الله أعمالهم ، وكيدهم ، ومكرهم .

إن المؤمن عبد لله ، وهو حامل أمانة الدين ، وعليه أن يلتزم بعزة الله تعالى في نفسه ، ويعلو بدينه على سفاسف الآخرين .

(٦٨١)

دعوة المؤمنين إلى الاستقامة على دين الله تعالى

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٦٨١﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُجِرَ أَصْغَنَكُمْ ﴿٦٨٢﴾ هَآتَتْهُمْ هَتُولَاءٌ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٦٨٣﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة عزة المؤمنين وعلوهم جاءت هذه الآيات لتبين للمؤمنين أن الدنيا لهو ، ولعب ، قصيرة الأجل ، قليلة المتع ، وتأمرهم بالإنفاق في سبيل الله تعالى على قدر الوسع والطاقة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الدنيا زائلة ، ومتاعها قليل ، وزخرفها زائل ، والأولى بالمؤمنين أن يستمروا على الإيمان والتقوى لينالوا ثواب الله ، وتأمر الآيات بالإنفاق ، وترك البخل ، وتحذره من معصية الله تعالى فالله غنى عنهم ، وحتى لا يستبدل بهم قوما غيرهم .

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ تعرف الآية المؤمنين بقيمة الحياة

الدنيا حتى لا يغتروا بزخرفها ، ويتركوا الجهاد ، واعلاء كلمة الله تعالى ، فما الحياة الدنيا إلا عبث يملأه الهوى ، ولعب يبعد الناس عن الجهاد ، وينسيهم دين الله تعالى ، ويأخذهم إلى الفحشاء والمنكر وما زخارف الدنيا إلا مراتع للشيطان ينفذ من خلالها إلى القلوب الضعيفة فيغريها ويؤذيها .

﴿ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أى إن

تجنبتم لهو الدنيا وألأعبيها ، وبقيتم على الحق تؤمنون بالله تعالى ، وتتمسكون بدينه ، وتخشون معاصيه وتتفقون المال في سبيله يؤتكم ثواب أعمالكم ، ويجازيكم عنها خيرا كثيرا ، وهو سبحانه لا يأمركم بإخراج جميع أموالكم ، وانما يأمركم بإخراج جزء قليل منها إذا بلغ نصابا لفقرائكم ، والمحتاجين من بينكم .

﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَخُذُوا ﴾ إن سألكم

الله النفقة ، وأمركم بإنفاق جميع أموالكم فهو إجهاد لكم ، وسيلجئكم إلى البخل والشح ، وعدم الطاعة ، وبذلك يظهر الله معاصيكم ، ويلجئكم إلى المخالفة ، ويغري الشيطان بكم .

﴿ هَتَأْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى ها أنتم

هؤلاء تدعون للنفقة المالية في سبيل الله تعالى على قدر استطاعتكم ، وبرضى نفوسكم ، وحبكم للعطاء .

(٦٨٣)

﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ۖ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَحِلُّ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أى

إن منكم أيها المؤمنون من يبخل عن النفقة ، ومن يفعل ذلك فقد حرم نفسه من ثواب النفقة في سبيل الله تعالى .

﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ أى واعلموا أيها المؤمنون أن الله غنى

عن عباده وعن نفقتكم ، وانما حثكم على النفقة لتنالوا ثوابها ، وتكونوا من الصالحين .

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ أى

وان تعرضوا عن دين الله تعالى ، وتعصوا ربه ، وتشغلكم الدنيا ، وترتدوا عن الدين فإن الله يهلككم ، ويأتى بقوم آخرين غيركم ، ولا يكونوا مثلكم في الجود والعناد ، وهذا إنذار شديد لأهل المعاصي لأنهم لن يفلتوا من حساب الله تعالى ، وقد أمهلهم ليلوهم ، ويظهر أصحاب المعاصي ، ويميز المؤمنين عنهم .

وفى الآيات إشارة إلى ما في النفوس من شح وبخل لا ينجو منه إلا المؤمنون الصالحون .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الدنيا لهو ولعب ، وهى زائلة ، ومتاعها قليل ، وعلى المؤمن أن يستمر على إيمانه وتقواه لينال ثواب عمله ، ويكون من الصالحين .

إن الله لا يطلب منكم إنفاق جميع أموالكم فلو سألها لبخلتم ، واجتهدتم في عدم الإنفاق ، وظهر فيكم حب المال ، وكراهية الإنفاق .

إن الله يدعوكم للنفقة فممنكم من يبخل ، وسيعود جزاء البخل على صاحبه ... إن الله ليس بحاجة للنفقة ، فهو الغنى ، والناس في حاجة إليه ... فإن

(٦٨٤)

جحدوا وعصوا الله يهلكهم ، ويستبدل بهم أناسا أفضل منهم ، يطيعون الله تعالى ، ويسارعون إلى الطاعات ، ولن يكونوا مثل الجاحدين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

تحذير المؤمن من فتنة الدنيا والمال

الدنيا عمرها قصير ، والاخرة خير وأبقى ، ولذلك دعا الله المؤمنين إلى تجنب أهم الفتن ، وأساسها الاقتتان بالدنيا ، وبالمال ، لأن من عزته الدنيا واستهوته سيطرت عليه ، وعاش عبدا لها في بحثه عن المادة وجريه وراء الشهوات ، ونسيان القيم والأخلاق ، وتنتهى إلى لا شئ ، ويتركها الإنسان ولا ينال منها شيئا ، وينجو منها بتقواه ، وأن لا هلك بمعاصيه .

وحب المال فرع من فتنة الدنيا ، وهو يطغى ، ويدفع بصاحبه إلى الظلم مع أن المال مال الله استخلف الإنسان فيه .

والعاقل من استعد للقاء الله ... وتعالى بدينه عن ماديات الدنيا ، والشح بالمال ... وليستقم مع الدنيا ومع المال كما أمر الله تعالى .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "محمد" بتوفيق الله تعالى .

سورة "الفتح"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٦٨٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦٨٧)

- أولا -

التعريف بسورة "الفتح"

سورة "الفتح" سورة مدنية ، وان لم يكن نزولها بالمدينة ، لأنها نزلت بـ "كراع الغميم" وهو موضع بين مكة والمدينة بعد الهجرة ، حين رجوع المسلمين من "الحديبية" .

وللسورة اسم واحد هو "الفتح" .

وعدد آياتها تسع وعشرون آية نزلت بعد سورة "الصف" .

وقد نزلت السورة عقب انصراف المسلمين من الحديبية راجعين إلى المدينة في ذى القعدة سنة ست من الهجرة بعدما منع المشركون المسلمين عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وحالوا بينهم وبين أداء عمرتهم ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، على أن يرجع المسلمون عامهم هذا ثم يأتون من قابل . فأجابهم ﷺ إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة كعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما نحر رسول الله ﷺ هديه حيث أحصر ، وقفل راجعا إلى المدينة أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل هذا الصلح فتحا لما فيه من المصلحة ، ولما آل إليه أمره .

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية^(١) .

وروى البخاري أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره وعمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك يا عمر ، كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك .

(١) المعجم الكبير للطبراني ج ١٩ ص ٤٤٥ .

يقول عمر : فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في قرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخا يصرخ بي .
فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه .

فقال : لقد أنزلت على سورة لهى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ .

وعن قتادة ؓ أن أنس بن مالك ؓ حدثهم قال : لما نزلت ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَوْرًا عَظِيمًا ﴾ بعد الرجوع من الحديبية ، قال النبي ﷺ : لقد أنزلت على آية هى أحب إلى من الدنيا جميعها^(١) .
ووجه ارتباط سورة "الفتح بسورة "محمد" أن سورة "الفتح" يراد بها النصر ولا يتم الفتح إلا بالقتال المذكور في سورة "محمد" .
وان في كل منهما بيان للمؤمنين والمخلصين ، والكافرين والمنافقين والمشركين .
وان سورة "محمد" فيها أمر بالاستغفار ، وفى سورة "الفتح" ذكر وقوع المغفرة .

قصة "صلح الحديبية" الواردة في السورة

تتحدث سورة "الفتح" عن قصة الحديبية ، وملخصها أن رسول الله ﷺ خرج من المدينة عام الحديبية في بضع عشرة مائة من أصحابه ، يريد زيارة البيت ، وأداء العمرة ، ولا يريد قتالا ، وساق معه سبعين بدنة ، لكل عشرين رجلا بدنة ، فلما أتى ذا الحليفة قلد الهدى ، وأشعره ، وأحرم منها بعمرة ، وبعث

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى . باب غزوة الحديبية ج ٦ ص ٣٦٣ .

(٦٨٩)

عينا له من خزاعة ، يخبره عن قريش . وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بغدير الأشطاط قريبا من عسفان أتاه عتبة الخزاعي ، وقال له : إن قريشا قد جمعوا لك جموعا ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .

فقال النبي ﷺ : أشيروا علي أيها الناس ، أترون أن أميل على ذراري هؤلاء الذين عاونوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا قعدوا موتورين ، وإن نجوا تكن عنقا قطعها الله ؟ ... أو ترون أن نؤم البيت ، لا نريد قتال أحد ، ولا حربا فمن صدنا عنه قاتلناه ؟

فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله إنما جئت عامدا لهذا البيت لا تريد قتال أحد ولا حربا ، فتوجه له فمن صدنا عنه قاتلناه .

قال ﷺ : امضوا على اسم الله ... فنفذوا ومضوا .

وقال النبي ﷺ : إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين ، فوالله ما شعر بهم خالد ، حتى إذا هو بقترة الجيش فانطلق يركض نذيرا لقريش .

وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها ، بركت راحلته فقال الناس : حل حل . فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء .

فقال النبي ﷺ : ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل .

ثم قال : والذي نفسي بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمان الله ، وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

ثم زجرها فوثبت ، فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتربضه الناس تربضا فلم يلبث الناس أن نزحوه .

(٦٩٠)

وشكا الناس إلى النبي ﷺ العطش ، فنزع سهما من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه يقال له "تاجية بن عمير" وهو سائق بدن النبي ﷺ فنزل في البئر فغرز في جوفه . فو الله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه .

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه ، وكانت خزاعة عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا على أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلون ، وصادوك عن البيت

فقال النبي ﷺ : إنا لم نجئ لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم ، فإن شأؤوا ماددتهم ، ويخلوا بيني وبين الناس .
وإن شأؤوا أن يدخلوا فيما دخل الناس فيه فعلوا ، وإن هم أبوا فو الذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي ، ولينفذن الله أمره .
فقال بديل : سأبلغهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشا ، فقال : إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولا ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا ؟
فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن نخبرنا عنه بشئ .
وقال ذوو الرأي منهم : هات ما سمعته .

قال : سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبي ﷺ فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال : أي قوم ، أستم بالولد ؟
قالوا : بلى .

قال : أو لست بالوالد ؟

قالوا : بلى .

قال : فهل تتهموني ؟

قالوا : لا .

(٦٩١)

قال : فإن هذا الرجل قد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها ، ودعوني آتية .

قالوا : ائته ، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ .

فقال النبي ﷺ نحوا من قوله لبديل .

فقال عروة عند ذلك : يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك ، فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ، وإن تكن الأخرى فإنني والله لأرى وجوها ، وأنني لأرى أشوبا من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك .

فقال له أبو بكر ﷺ : امصص بظر اللات أنحن نفر عنه وندعه ؟

فقال : من ذا ؟

قالوا : أبو بكر .

قال : أما والذي نفسي بيده لولا يد لك عندي ولم أجرك بها لأجبتك ، وجعل يكلم النبي ﷺ .

فكلما كلمه أخذ بلحيته والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية رسول الله ﷺ ضرب المغيرة يده بنصل السيف ، وقال له : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ . فرفع عروة رأسه ، فقال : من هذا .

قالوا : المغيرة بن شعبة فقال : أي غدر ألتست أسعى في غدرك ؟

وكان المغيرة قد صحب قوما في الجاهلية فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ : أما الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينه فرأى منهم حبههم لرسول الله وتعلقهم به ، فلما رجع إلى أصحابه قال لهم : أي قوم . والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي . والله ما رأيت ملكا يعظمه أصحابه كما يعظم أصحاب محمد محمدا .

وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ، وقد عرض عليكم خطة رشد فأقبلوها .

فقال رجل من كنانة : دعوني آتة .

فقالوا : آتته . فلما أشرف على النبي ﷺ : وأصحابه قال رسول الله ﷺ هذا فلان من قوم يعظمون البدن فابعثوها له .
فبعث أمامه الهدى واستقبله الناس يلبنون .

فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت .
فلما رجع إلى أصحابه قال : رأيت البدن قد قلدت ، وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت .

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله ﷺ قال : إن هذا من قوم يتألهون ، فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل إليه من عرض الوادي ، في قلاته قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى .
فقال : يا معشر قريش إني قد رأيت ما لا يحل صد الهدى في قلاته ، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله قالوا له : اجلس فإنما أنت رجل أعرابي لا علم لك . فغضب الحليس عند ذلك وقال : يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ، ولا على هذا عاقدناكم ، أئصد عن بيت الله من جاءه معظماً له ؟ والذي نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له ، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

فقالوا : مه كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص فقال : دعوني آتة .

فقال : آتته فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : هذا مكرز وهو رجل فاجر فجعل يكلم النبي ﷺ فبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو قال معمر فأخبرني

أيوب عن عكرمة أنه لما جاء سهيل قال النبي ﷺ : قد سهل الله لكم من أمركم .

فجاء سهيل بن عمرو فقال هات أكتب بيننا وبينكم كتابا فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم .
فقال سهيل : أما الرحمن فو الله ما أدري ما هو ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب .

فقال المسلمون : والله ما نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم فقال النبي ﷺ لعلي : اكتب باسمك اللهم ، واكتب هذا ما قضى عليه محمد رسول الله ﷺ .
فقال سهيل لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن هذا البيت ، ولا قاتلناك ولكن اكتب محمد بن عبد الله .

فقال رسول الله ﷺ : والله إني لرسول الله ، وإن كذبتُموني ، اكتب يا علي محمد بن عبد الله .

فكتب علي ﷺ هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلاحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض .

فقال النبي ﷺ : وعلي أن يخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به .
فقال سهيل : والله لأتحدث العرب ، أنا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل فكتب .

فقال سهيل : وعلي أن لا يأتيك منا رجلا وإن كان على دينك إلا رددته إلينا .
فقال المسلمون : سبحان الله كيف يرد إلى المشركين من جاء مسلما .
وبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد انفلت ، وخرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين .
فقال سهيل : هذا يا محمد أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي .

(٦٩٤)

فقال النبي ﷺ : إنا لم نقض الكتاب بعد .

قال فو الله إذا لا أصالحك على شئ أبدا .

قال النبي ﷺ : فأجره لي .

قال : ما أنا بمجبره لك .

قال النبي ﷺ : بلى . فافعل .

قال سهيل : ما أنا بفاعل .

ثم جعل سهيل يجره ليرده إلى قريش . فقال أبو جندل : أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين وقد جئت مسلما ألا ترون ما لقيت ، وكان قد عذب في الله عذابا شديدا ، فقال له : إن رسول الله ﷺ : يا أبا جندل احتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك في المستضعفين فرجا ومخرجا^(١) .

وقد بينت الأحداث أن شروط الصلح كانت فتحا ونصرا ، فقد أتاحت للمسلمين دخول مكة في العام القادم بعد أن خرج المشركون منها ، وهذا اعتراف ظاهر بوجود القوة الإسلامية ، وتحديد السلام بمدة أدى إلى انتشار الدعوة في الجزيرة العربية ، وأخذت الوفود تغد من القبائل إلى المدينة ، وأرسل الرسول رسائله إلى رؤساء القبائل والملوك للدخول في الإسلام ، وبقاء من يسلم في مكة أدى إلى ظهور عيون للمسلمين في مكة ، وعدم قبول من يسلم في المدينة أدى إلى ظهور جماعات مسلحة في الطريق بين مكة والمدينة قطعت على مشركي مكة طرق التجارة ... وهنا أظهر الواقع أن الحديبية كانت فتحا مبينا ... وقد نقض المشركون الصلح بعد ثلاثة أعوام فكان فتح مكة .

(١) انظر كتب الحديث ، والسيرة والتاريخ في صلح الحديبية .

(٦٩٥)

- ثانيا -

- التفسير -

الفتح الكبير

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن صلح الحديبية هو النصر الواضح للإسلام والمسلمين ، وقد حقق الله بهذا النصر أهم غايات رسول الله ﷺ ... وهي :

- (١) مغفرة ما فرط من ذنبه مما يعد ذنبا بالنظر إلى مقامه الشريف .
- (٢) تمام النعمة باجتماع الملك والنبوة بعد أن كانت له النبوة وحدها .
- (٣) الهداية إلى الصراط المستقيم فى تبليغ الرسالة ، واقامة مراسم الرياسة .
- (٤) المنعة والعزة ، ونفاذ الكلمة ، ورهبة الجانب ، وحمى الذمار .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ أى إِنَّا حَقَّقْنَا لَكَ يَا مُحَمَّدُ نَصْرًا كَبِيرًا واضحا . فقد بلغت الرسالة ، وأدبت الأمانة ، وقمت بالواجب ، وجاهدت في الله حق الجهاد بلسانك وسيفك ، وصالحت أهل مكة في الحديبية كما أمرك الله

تعالى ، وتحقق بذلك النصر الكبير لأن الفتح يشمل النصر ومقدماته وآثاره ،
 واذ لم يمض وقت طويل بعده حتى دخل الناس في دين الله أفواجا .
 وعبرت الآية عن النصر بالفتح لبيان أن ما تم في صلح الحديبية هو
 أعظم من مجرد النصر ، وهو غايته الكبرى ، لأنه كان الطريق الذي انتشر به
 الإسلام عمليا ، وجاءت الوفود بسببه إلى المدينة ، وأرسل الرسول ﷺ دعاته
 إلى ملوك العالم ، وشيوخ القبائل ... وأيضا فإن صلح الحديبية هو السلم الذي
 صعد عليه المسلمون ، وأوصلهم إلى فتح مكة ، ودخول أهلها جميعا في
 دين الله تعالى .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالفتح فتح مكة ، أو فتح خيبر لما
 رأوه في الحديبية حيث لم يقع فيها قتال ، أو فتح ، وإنما هو الصلح بشروطه
 المعروفة ، والأولى القول بأنه صلح الحديبية ، وهو ما ذهب إليه الجمهور .
 ومما يؤيد أن الفتح هو صلح الحديبية ما يلي :
 أولا : أن الله جعله نصرا مبينا على رعوس الناس ، وهذا ما كان يوم
 الحديبية .

ثانيا : أن الله جعل الفتح علة للنصر ، وهذا يعني أن الحديبية كانت علة
 لفتح مكة ، والعلة والمعلول في الأحداث التاريخية لا يقعان في وقت واحد غالبا
 ثالثا : يقول الله تعالى : ﴿ وَأَثْبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ^(١) أى أنابكم فتحا قريبا
 بعد بيعة الرضوان ، وكان هو فتح خيبر الذي وقع بعد الحديبية مباشرة ،
 وبرجالها وحدهم .

(١) سورة الفتح ، الآية ١٨ .

(٦٩٧)

يقول الزهري : لقد كان يوم الحديبية أعظم الفتوح ذلك أن النبي ﷺ جاء إليها في ألف وأربعمائة ، فلما وقع صلح مشى الناس بعضهم في بعض ، أي تفرقوا في البلاد ، فدخل بعضهم أرض بعض من أجل الأمن بينهم ، وعلموا وسمعوا عن الله فما أراد أحد الإسلام إلا تمكن منه ، فما مضت السنتان إلا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكة في عشرة آلاف^(١) .

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما نزلت ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾

قال : أو فتح هو يا رسول الله ؟

قال : نعم والذي نفسي بيده إنه الفتح^(٢) .

وروى البيهقي عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعا فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : والله ما هذا بفتح صدنا عن البيت ، وصد هدينا .

فبلغ ذلك رسول الله فقال : بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ، ويسألوكم القضية ، ويرغبون إليكم الأمان ، وقد كرهوا منكم ما كرهوا ، ولقد أظفركم الله عليهم وردكم سالمين ، غانمين ، مأجورين ، فهذا أعظم الفتح .

أنسيتم يوم أحد ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ﴾^(٣) وأنا أدعوكم

في أخراكم ؟

أنسيتم يوم الأحزاب ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ

زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾^(٤) ؟

(١) صحيح البخارى . كتاب المغازى ج ٦ ص ٣٦٤ .

(٢) إمتاع الاسماع ج ١ ص ٢٩٩ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٣ .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ١٠ .

فقال المسلمون : صدق الله ورسوله وهو أعظم الفتوح والله يا رسول الله ما فكرنا فيما ذكرت ، ولأنت أعلم بالله وبالأمر منا^(١) .

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أى إن الله جعل

لك صلح الحديبية غفرانا لجميع ما قد يؤخذ الله على مثله رسله ، لبلوغ رسول الله ﷺ غاية الفضل ومنتهاه ، حتى لا يخاف من أى قصور يظنه ، فلقد كان ﷺ من شدة تقواه يخشى أى تقصير يعده الأبرار حسنا ، وهو عند المقربين سيئة .

يقول ابن عطية : إن المقصود هو التشريف بهذا الحكم ، والمعنى ليخليك الله من أى ذنب ولو لم تذنّب .

وهذا يفيد رفعة قدر النبى ﷺ فقد طهره الله ، وعصمه ، واختاره للرسالة .

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ أى ويعطيك الله من النعم ما لم يعطه من قبل

أحد من الرسل مثل إسلام قريش ودخولها في دين الله أفواجا ، وخلص بلاد الحجاز للإسلام وحده ، وإيمان الكثير ممن عانده وكفر به ، ووصول الإسلام إلى العالم كله .

﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويرشدك الله إلى شريعة الإسلام التى

تحقق الاستقامة والعدل .

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أى ويؤيدك الله ، وينصرك على عدوك

نصرا قويا في كل مواقفك ، وغزواتك .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٦٩٩)

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله سبحانه وتعالى فتح لرسول الله ﷺ فتحا عظيما بينا بصلح "الحديبية" لإعلاء قدره ﷺ ، وتطهيره من أى ذنب ، واثمام النعمة عليه ونصره نصرا قويا .

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

إعلاء شأن السلام في الإسلام

يدعو الإسلام إلى نشر السلام ، وتحقيق الطمأنينة للجميع ، ومنع الظلم والطغيان والجبروت ، حتى يعيش الناس أحرارا في اختياراتهم ، وأقوالهم ، وحركاتهم ، وأعمالهم ، ولذلك عد صلح الحديبية فتحا واضحا .

إن صلح الحديبية أدى إلى رجوع المسلمين عن أداء العمرة بعد أن منعوا من دخول مكة ، واضطروا إلى ذبح الهدى بعيدا عن محله ، ولم يتحقق لهم ما جاءوا من المدينة للقيام به ، وهو أداء العمرة ... ومع ذلك كان هذا الصلح هو الفتح البين الكبير ... ولما سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول الله ﷺ عن الصلح وقال : أو هو فتح يا رسول الله ؟ أجابه الرسول وقال له : نعم والذي نفسى بيده إنه الفتح .

إن صلح الحديبية أوقف القتال بين المسلمين وقريش ، ونشر السلام في جزيرة العرب ، ومكن الدعاة من الحركة في ربوع بلاد العرب ، وأرسل الرسول ﷺ الرسائل إلى الملوك ، وشيوخ القبائل ، ورؤساء الناس يدعوهم إلى الله

(٧٠٠)

واستقبل الوفود ، ووصل الإسلام في إطار هذا السلام إلى العالم كله نظريا وعمليا .

إن الإسلام دعوة للعقل ، وخطاب للضمير في الإنسان لينكر ، ويتأمل ، ويختار ، ولذلك كان السلام مرتكزه إلى الناس في كل مكان .
إنه لا إكراه في الدين ، ولن يجبر أحد على اعتقاد .
وكل حركة الدعوة إقناع بالحق ، وبيان للبراهين والحجج ، وجدل قائم على الحكمة والموعظة .

ولم يشرع الله الجهاد إلا لصيانة قنوات الحرية إلى الناس فلقد سيطر الطغاة على مقدرات البشر ، وحرموهم من حقوقهم ، وصدوهم عن سبيل الله ووقفوا ضد حركة الدعاة ، وحرية الدعوة للإسلام فشرع الله الجهاد لفتح القنوات المغلقة ، وتحقيق الحرية للدعاة والمدعوين .
إن القهر لا يكون عقيدة ، ولكنه يوجد منافقا كذوبا ، وهذا ما يأباه الإسلام .
إن صلح الحديبية رمز للسلام في الإسلام ، وهو الفتح المبين .

الركيزة الثانية

بيان قدر رسول الله ﷺ

تصور بعض الصحابة ضعفا في صلح الحديبية ، وظنوه دنية ما كان لرسول الله أن يوافق عليها ، وعلى رأس هؤلاء الصحابة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولذلك نزلت الآيات توضح للمؤمنين أن موافقة رسول الله ﷺ على صلح الحديبية خير للإسلام والمسلمين ، هداه الله إليه ، فلقد اعترفت مكة بقوة المسلمين ودولتهم الجديدة ، وتعهدوا لهم بأداء العمرة في العام القادم ، ورأى العرب القادمون لموسم الحج في مكة المسلمين وهم دعاة سلام ، يعظمون البيت ويسوقون الهدى ، ويصونون حرمة الأشهر الحرم ، ولو أخذ المسلمون ينشرون هذه الحقائق وهم بالمدينة لأخذوا وقتا طويلا ليتحقق .

(٧٠١)

إن صلح الحديبية بين للمسلمين منزلة رسول الله عند ربه ، فقد أتم عليه نعمته ، وحقق له النصر بالسلام ... ورأى العالم حسن قيادة الرسول ﷺ للمسلمين معه .

وصدقت قولة أبي بكر ﷺ لعمر ﷺ : يا عمر إلزم غرزك إنه رسول الله ﷺ .

هداية المؤمنين وعذاب المنافقين والمشركين

يقول الله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَيَرْدَأُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۚ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوْءِ ۖ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله سينصر رسله جاءت هذه الآيات لبيان سبل النصر ، وتحديد مصير المؤمنين والمنافقين والكافرين في الآخرة .

(٧٠٢)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله مكن المسلمين من النصر ، وبث الطمأنينة في قلوبهم ، وزاد إيمانهم ليدخلهم الجنة ، ويكفر عنهم سيئاتهم ، وتوضح الآيات عذاب المنافقين والمشركين الذين يظنون بالله ظن السوء فقد غضب الله عليهم ولعنهم ، وأعد لهم عذابا أليما .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى هو الله الذى أدخل الطمأنينة في قلوب المؤمنين ، وثبتهم على الحق ، وألهمهم الهدوء والثبات في وقت كانوا يحتاجون فيه إلى هذه الطمأنينة ، فقد تألمت نفوسهم بعد صلح الحديبية ، وانصرفوا بعده مرغمين راجعين إلى المدينة ، ولم يتمكنوا من أداء العمرة ، وكانوا على أبواب مكة حتى قال بعضهم : علام نعطي الدنية في ديننا ... فلما بين لهم رسول الله أن الصلح خير ، وهو فتح مبين اطمأنت نفوسهم ، وتلك هى السكينة التى أنزلها الله في قلوبهم فرضوا بالصلح ، وتيقنوا من عون الله ، ورحمته ، ونصره للمؤمنين .

﴿ لِيَزِدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ أى طمأن الله قلوبهم فازدادوا أملا في

نصر الإسلام ، وقويت عقيدتهم في الرضا بالقضاء والقدر ، وكانوا كلما جاءهم أمر أو نهى أسرعوا إلى العمل به فزاد بذلك إيمانهم ، ولم يتوقفوا أو يترددوا في العمل بأمر جاءهم من عند الله تعالى .

(٧٠٣)

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والله جنود في السماء وفي الأرض والكون كله من جنود الله يسخرها كما يشاء ، ويجعلها قوة نصر أو هزيمة كما يشاء .

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أى إن الله عليم بكل شئ ، محيط بأحوال خلقه كله .

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿
أى قدر الله الصلح وأمر به ، ورضى به المؤمنون بعد لأى كما أراد الله ليدخل المؤمنون والمؤمنات جنات بسبب إيمانهم ورضاهم ، وطاعتهم لله ورسوله ، ولذلك يمتعهم الله بالرياض النضرة ، والأنهار الجارية ، والمقام الكريم في الفردوس الأعلى ، ويستتر عيوبهم ، ويغفر ذنوبهم ، ليفوزوا فوزا عظيما .

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظُنُّ السَّوْءِ﴾ أى ويعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في الدنيا بضنك المعاش ، والهم والحزن الذى ينتابهم عند رؤيتهم علو الإسلام والمسلمين ، وقد كانوا قبل حدوث النصر يتمنون هزيمة المسلمين ، وانتصار المشركين ، فلما انتصر المسلمون أصيبوا بالحسرة والألم .

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ أى سيدور الأمر عليهم ، وينقلب حالهم ، وتلحق بهم الهزيمة والخذلان .

(٧٠٤)

﴿وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ أى زاد الله عذابهم وأهلكهم ، وطردهم من رحمته ، وجهز لهم جهنم يقيمون فيها خالدين .
﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أى وساء مصير المجرمين في الآخرة ، لأن جهنم كلها سوء ، ولا خير فيها .

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولله جنود السموات والأرض ينصر بهم عباده المؤمنين ، وهذه الجنود هو عناصر الكائنات المخلوقة ، تطبعه حين يأمرها ، وتفعل ما يريد .
﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ وكان الله غالبا ، قادرا ، حكيما في قضائه وقدره .

فإن قيل : لم قدمت الآيات ذكر المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات ؟

أقول : قدم الله ذكر المنافقين والمنافقات على المشركين والمشركات لأن المنافقين أشد خطرا على المؤمنين من المشركين ، لأن المشرك عدو ظاهر يمكن الاحتراز عنه ، أما المنافق فهو عدو مداح خفى لا يمكن الاحتراز منه فقدم الله ذكره للتحذير منه ، وضرورة التنبه لمكره .

وان قيل : لم كررت الآيات قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مرتين ؟

أقول : كرر الله هذه الآية مرتين لتأكيد أن الله جنودا عديدين تصاحب الإنسان في كل أعماله وحالاته ، وتفعل ما يأمرها الله به خيرا أو شرا ، فهى في المرة الأولى تنصر المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ، وفى المرة الثانية تنصر الكافرين والمنافقين فقد غضب الله عليهم .

(٧٠٥)

وان قيل : لم قدم ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ مع المؤمنين

والمؤمنات ، وأخره مع المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ؟

أقول : جنود السموات والأرض منهم من هو للعذاب ، ومنهم من هو للرحمة ، فقدم ذكر جنود السموات والأرض قبل إدخال المؤمنين ، والمؤمنات الجنة ليكونوا جنود الرحمة مع المؤمنين والمؤمنات ابتداء ، فيثبتوهم على الصراط ، وعند الميزان فإذا دخلوا الجنة أفضوا إلى جوار الله ، ورحمته ، والقرب منه فلا حاجة لهم إلى الملائكة بعد ذلك .

وأخر ذكر جنود السموات والأرض بعد تعذيب الكافرين والمنافقين لبيان أن جنود السخط والعذاب لا يفارقونهم أبداً ، وسيستمررون معهم في جهنم لإلحاق العذاب بهم .

وان قيل : ما سر قول الله تعالى في الآية الأولى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا ﴾ وقال في الآية الثانية : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ حيث خص

المؤمنين بالعلم ، وذكر صفة العزة مع المشركين ؟

أقول : لما علم الله ضعف المؤمنين ناسب أن تكون خاتمة الآية الأولى

﴿ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ فبشرهم بعلمه بحالهم ، وحكمته في تقدير الخير لهم ، ولما

بالغ في وصف عذاب المنافقين والمشركين ناسب أن تكون ختامها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ

عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ليعلموا أن الله عزيز غالب ، ينفذ فيهم ما قدره عليهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أنزل الطمأنينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع

إيمانهم ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها ، ويغفر لهم ذنوبهم ، ويعذب

(٧٠٦)

المنافقين والمشركين الذين كانوا يظنون أنهم منتصرون ، وتبين الآيات أن الله جنود السموات والأرض ، وهو على كل شيء قدير .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

المؤمنون في روضات الله

المؤمنون يعيشون في رحمة الله تعالى فقد أطلع سبحانه عليهم وعلم ما في قلوبهم فوقهم للخيرات ، وهداهم للصراط المستقيم ، وأنزل السكينة عليهم ، وأصلح بالهم ، ونصرهم في الدنيا ، وأكرمهم بالأمن والسلام ، أما في الآخرة فإن الله يدخلهم جنات النعيم ، ويغفر لهم ذنوبهم ، ويتجلى عليهم فيسعدون برويته .

لقد عاش المسلمون حياتهم لله ، وكان كل أملهم أن يكونوا عبيدا لله تعالى ، محفوفين برضاه ، فائزين برضونه في جنات النعيم .

الركيزة الثانية

المنافقون والكافرون في عرصات الجحيم

يعيش المنافقون والمشركون في الدنيا بعيدين عن الحق ، فهم لا يؤمنون بالله تعالى ، ولم يصدقوا برسول الله ، ولم يستسلموا لشرع أو دين ، وكانوا يتمنون إطفاء نور الله ، والقضاء على المسلمين ، وقد جعل الله دنياهم ضنكا وهوانا ، وذلا ، فقد غضب الله عليهم ، وحرهم من رحمته ، وأعد لهم في الآخرة عذابا أليما .

(٧٠٧)

إن أعداء الله سيرون مهلكم في الدنيا ، وستدور الدائرة عليهم ، ولن يتحقق له ما يتمنونه ، وما يعملون له .

وأكبر الخزي هو خزي يوم القيامة حيث ظهور بطلانهم ، وضلالهم ، وانزال العذاب بهم ، ويقول الله لخزنة النار عند حساب كل منافق وضال ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿ ٣٠ ﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿ ٣١ ﴾ .^(١)

الركيزة الثالثة

الترغيب والترهيب

تقدم الآيات صورة المؤمن والكافر في الدنيا ، وتوضح حالتها يوم الحساب ليستفيد بذلك من يفهم بعقله ، ومن يستفيد من تجارب غيره .
إن تقديم حسنات الجنة ، وعذابات النار أمام الناس في الدنيا جاء لترغيب الناس في الإيمان ، وتخويفهم من الكفر والعصيان ، ومن عادة البشر أن يستفيدوا من أحداث الآخرين ، والعاقل من اتعظ بغيره ... ولذلك كان حديث القرآن عن المؤمنين وغيرهم .

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٣٠ . ٣٢ .

منزلة الرسول في أمته

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۗ وَمَنْ
أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَنَّا أَغْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾ ۝ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ما أعدّه الله للمؤمنين من نصر ، وهداية ،
وغفران ، ودخول الجنة ، وما أعدّه للمنافقين من عذاب وخسران في نار جهنم
جاءت هذه الآيات لبيان دور الرسول ﷺ في أمته .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل رسوله ﷺ مبشرا ونذيرا وداعيا للإيمان بالله ،
والاستسلام لرب العالمين ، وتشيد ببيعة المسلمين لرسول الله ﷺ ، في يوم
الحديبية ، وتحث على ضرورة التمسك بطاعة الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ أى إنا اخترناك يا محمد ،
وأوحينا إليك ، وأرسلناك للناس جميعا لتشهد على أعمالهم ، وتبشرهم بالخير

(٧٠٩)

وتنذره من المعاصي ، وتتنير لهم الصراط المستقيم حتى يؤمن المؤمنون بالله تعالى .

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

أى إنا أرسلناك يا محمد إلى الناس ليؤمنوا بالله ، ويصدقوا برسوله ﷺ ، ويقفوا صف رسول الله والمؤمنين ، ويعظموا الله ، وينزهوه طوال الوقت في البكور وحين العشاء .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أى إن الذين

يعاهدونك يا محمد إنما يبايعون الله تعالى .

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى إن اليد التى يتعاهدون بها تلتقى بيد الله

العليم الخبير ، يؤيدها ، ويعينها وينصرها .

وقد تمت هذه البيعة في الحديبية ، وسببها أن رسول الله ﷺ حين نزل الحديبية ، بعث خراش بن أمية ﷺ على جمل رسول الله ﷺ إلى قريش بمكة ليلبلغ أشرافهم ما جاء له المسلمون ، فعقروا جمل رسول الله ﷺ ، وأرادوا قتله ، فمنعهم الأحابيش فخلوا سبيله .

أتى خراش رسول الله ﷺ واخبره ، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ ليبعته ، فقال : إني أخافهم على نفسى ، لما أعرف من عداوتى إياهم ، وما بمكة من بنى عدى أحد ، ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب إليهم عثمان بن عفان ﷺ .

بعث رسول الله ﷺ عثمان ﷺ إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمة .

(٧١٠)

فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فجعله في جواره ،
فلما فرغ عثمان رضي الله عنه من رسالته احتبسوه عندهم فشاع بين المسلمين أن عثمان
قد قتل .

فقال رسول الله ﷺ : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة
فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وبايعه القوم على ألا يفروا أبدا ، فخاف
المشركون وأرسلوا داعين إلى المودة والصلح ، وعلم رسول الله أن عثمان لم
يقتل ، فتم الصلح ، ومشى بعضهم إلى بعض على أن يحج رسول الله ﷺ في
العام القابل ، ويدخل مكة .

يقول قتادة قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟
قال : خمس عشرة مائة ، والمشهور الذي رواه غير واحد أنهم كانوا أربع
عشرة مائة .

﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ أى ومن خالف العهد الذى
بايع الرسول عليه ، ونقضه فأثر نقضه عائد عليه وحده .
﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهُ فَمِىٔ ذِكْرٍ لِّعِبَادِهِ ٱللَّهُ فَسِوْءِ تِجَارَةٍ عَظِيمًا ﴾ أى ومن
أتم ما عاهد الله عليه وقام به فسوف يجازيه الله بالثواب الجميل .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أرسل رسوله شاهدا على الناس ، ومبشرا ، ونذيرا
ليؤمنوا بالله ورسوله ، ويقوموا رسول الله ، ويعظموا الله ويسبحوه بالعشى والأبكار
وتوضح الآيات أن الذين يبايعون رسول الله في الحديبية يبايعون الله
تعالى فيد الله فوق أيديهم ، ومن وفى عهده مع الله سينال أجرا عظيما .

(٧١١)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

مهمة الرسول ﷺ مع الناس

تبين الآيات مهمة رسول الله ﷺ من الناس ، فلقد اختاره الله ، وأرسله وأيده بالمعجزات ، وأنزل عليه الوحي ، وأمره بالبلاغ المبين .
وحدد الله لرسوله مهمته ، وجعله للناس مبشرا بالخير ، واصلاح الدنيا وتنظيم حياة الأفراد والجماعات ، ومبيناً الجزاء الحسن الذي يناله المؤمنون في جنات النعيم ، كما جعله الله مخوفا لأهل العصيان ، والذنوب من ضنك الدنيا ، وعذاب الآخرة .

ومسئولية الدعاة هي مسئولية الرسول ﷺ فعليهم يقوم تبليغ الإسلام وتعريف الناس به ، وشدهم إلى الإيمان ، وابعادهم عن الكفر .

الركيزة الثانية

معية الله للمؤمنين

يعيش المؤمنون عبيدا مستسلمين لله تعالى ، لا ينفكون عن طاعته لحظه ما لا تلهيهم تجارة أو لهو عن ذكر الله تعالى .
هؤلاء القوم يعيشون في معية الله ، يعينهم ، ويوفقهم ، وينصرهم وهو معهم أينما كانوا ... وهو وليهم في الدنيا والآخرة ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾^(١) .

وما أعظم أن يكون الإنسان مسلما ... وما أعظم أن يكون الله معه .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٧ .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِآلِسِنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَعْطِي مَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُوا ذُرُوعًا وَنَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ۚ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ۚ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سِتْرُوعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ بِأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۚ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۚ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٧﴾ ۝ ﴾

(٧١٣)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مهمة الرسول في الناس ، وقيامه بالنصح والإرشاد ، وبيعة المسلمين له في الحديبية جاءت هذه الآيات تتحدث عن الذين تخلفوا عن الحديبية ، وتبين الأعذار التي تعللوا بها ، ورغبتهم في الحصول على الغنائم ، واخبارهم بأنهم سيدعون إلى قتال شديد اختبارا لهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تتناول الآيات ثلاث قضايا تتعلق بالذين تخلفوا عن الذهاب للحديبية ... وهي :

- (١) الاعتذار الواهي الذي ذكره الذين تخلفوا عن الحديبية .
- (٢) طمعهم ، ورغبتهم في مشاركة المسلمين في الغنائم التي لم يشتركوا في حربها وقتالها كما حدث يوم خيبر .
- (٣) بيان اختبارهم مرة أخرى بقتال شديد .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا

فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ لإخباره بأن المخلفين الذين تخلفوا عن الذهاب إلى مكة حين دعوتهم إلى أداء العمرة معك كاذبون ، وكان ﷺ دعا أصحابه في المدينة وعرب البوادي والأفاق والأحابيش ليصحبوه في رحلة العمرة ، إلا أن الأعراب تخلفوا ، واعتذروا بحجة أنهم مشغولون بأمور المعاش ، وإدارة الأموال ، وحراسة الأهل والأبناء ، وتدبير شئونهم وحمايتهم ... وطلبوا من الرسل أن يستغفر الله لهم لأن أعذارا قاهرة منعتهم عن أداء العمرة معه ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ يرغب في مشاركة الأعراب ، والأحباش ليعلم أهل مكة أنه ﷺ جاء ومن معه إلى مكة قاصدين أداء العمرة في سلام واضح فقد علم الهدى، وساقه أمامه، واصطحب معه الأعراب ممن يرغبون في العمرة .

والآية تدل على أن الله أخبر رسوله بخبر المخلفين قبل أن يعتذروا وهذه من معجزات القرآن الكريم .

﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أى أنهم لم يكونوا في أذارهم صادقين ... وإنما كان تخلفهم لظنهم أن رسول الله ﷺ سيقتله أهل مكة ويقضون على من معه من المسلمين فقد حاصروا المدينة ، ووقفوا على بابها يوم الأحزاب .

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ ؟ ... أى قل لهم يا محمد إنكم بتخلفكم عن مصاحبة رسول الله إلى العمرة ترجون السلامة ، وتخافون من الضر ، وقد أنكر الله عليهم ذلك الظن ، وسألهم ليخبروه عن مخلوق يمكنه أن يرد قضاء الله تعالى ، ولو أراد الله بكم نفعاً أو ضراً فلن يرده مخلوق أبداً ، ولذلك كان اعتذارهم عن الاشتراك في رحلة العمرة خطأ لا سبب له في الحقيقة .

﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ "بل" للانتقال من إبطال مزاعمهم إلى إثبات أن الله عليم بكل ما يسرون وما يعلنون .

﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا
وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوِيًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾

أى إن سبب تخلفكم ليس هو ما قلتموه ، وذكرتموه ، وانما السبب الحقيقى أنكم اعتقدتم أن في هذه الرحلة الهلاك لرسول الله والمؤمنين ، وتوقعتم أن الرسول والمؤمنين لن يرجعوا مرة أخرى إلى المدينة ، وزين الشيطان ذلك لكم حتى قعدتم عن صحبة رسول الله ﷺ ، وظننتم أن الله لن ينصر دينه ورسوله ، وهذا تصور باطل وضال ، ضيع سعيكم ، وأفسد عملكم ، وخسرتم بسببه الدنيا والآخرة ، وصرتم قوما لا يعلمون إلا الفساد ، ولا يرون إلا البوار والخسران .

﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ أى ومن

لم يتب ، ويرجع إلى الله ، ويؤمن بدينه ، ويخلص لله في العبادة ، ويستقيم على منهج الله فهو كافر ، وقد أعد الله للكافرين نارا حامية ، وعذابا أليما ...

وفى هذا إرشاد للأعراب ليتوبوا ، ويرجعوا عن إفكهم وظنهم ، ويعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وظاهرهم وباطنهم .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى والله التصرف المطلق في خلقه

والملكية التامة لكل ما في السموات وما فى الأرض ، وما فى كل موجود أوجده الله تعالى .

﴿ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى إنه سبحانه وتعالى يقضى

في الناس بعلمه وإرادته ، فيعفو لمن يشاء ، وهو المستحق للمغفرة ، ويعذب من يشاء ، وهو المستحق للعذاب .

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أى إنه سبحانه وتعالى كثير المغفرة

، عظيم الرحمة ، غافر الذنب ، وقابل التوب .

وفى هذا فتح باب الأمل أمام المذنبين ليرجعوا إلى الله ، ويتوبوا عن المعاصى لينالوا غفران الله ، ويعيشوا في سعة رحمته وهم في الدنيا قبل أن تنتهى الدنيا ، ويغلق باب التوبة .

وبعد أن بينت الآيات خطأ المخلفين في القعود والاعتذار أخذت تبين طبيعتهم المادية ، وحبهم للمال ، ورغبتهم في الحصول عليه ولو بالكذب والخداع ، فقال تعالى : ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمَ

لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية مكث في المدينة المنورة شهر ذى الحجة وستة أيام من المحرم سنة ست من الهجرة ثم خرج إلى خيبر ، وفيها الغنائم الوفيرة .

لما علم المخلفون عن الحديبية بالخروج إلى خيبر راموا الخروج مع رسول الله ﷺ وقالوا لرسول الله ﷺ ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أى دعونا نكن معكم ، ونشارككم في قتال خيبر .

وقد سمت الآية الأعراب بالمخلفين لأن التخلف صار رمزا عليهم ، وليعلم الناس أن ردهم عن خيبر كان بسبب تخلفهم عن الحديبية .

وجعل الله الانطلاق إلى خيبر انطلاقا إلى المغامم إشارة إلى ما كانت تملكه خيبر من مال وفير ، واطهارا للغاية التى أرادها المخلفون حين طلبوا الاشتراك مع المسلمين ...

وقد غزا النبي ﷺ خيبر بمن كان معه في الحديبية ، وغنم أموالا كثيرة وزعها عليهم ولم يأخذ منها هؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية شيئا لأنهم قعدوا عن نصره دين الله تعالى حين الحاجة إليهم .

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ ﴾ أى يحاول المخلفون بطلبهم الخروج مع المسلمين إلى خيبر أن يغيروا كلام الله ، ويبدلوا وعده . فقد وعد الله الذين شاركوا في الحديبية أن يعوضهم بمغانم خيبر ، وذلك في قوله تعالى :
﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾^(١) .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد للمخلفين ﴿ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ أى لن نأذن لكم فى الخروج معنا إلى خيبر عقابا على تخلفهم ، لتكون عقوبتهم من جنس عملهم ، فلقد رغبوا عن الحديبية حرصا على الدنيا ، واليوم يحرمون من الغنائم وهى دنياهم التى يريدونها .

﴿ كَذَّبِكُمْ قَالَهُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قال الله لنا هذا قبل يوم خيبر حيث جعل سبحانه غنائم خيبر لمن شهد الحديبية ، وأنتم أيها الأعراب لم تشاهدوها .
﴿ فَسَيَقُولُونَ بَلْ لَحَسَدُونَنَا ﴾ أى سيبادر المخلفون ، ويزعمون أن حرمانهم من الاشتراك في خيبر حقد عليهم ، وحسد من الرسول والصحابة لهم وهم في اتهامهم هذا ظالمون ، لأنهم يكذبون ويعلمون أن الوعد الذى ذكره الرسول لهم هو قول الله من قبل .

﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى إن هؤلاء الأعراب لا يفهمون من أمر الدين إلا قليلا ، ولو فقهوه ما قالوا ما قالوه .

ثم أخذت الآيات تبين للمخلفين إن باب الأمل لم يغلق ، فقال الله تعالى :
﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾
أى قل يا محمد للذين تخلفوا عن الحديبية : إن باب الاشتراك في الغزو

(١) سورة الفتح ، الآية ٢٠ .

لم يخلق ، وأنكم ستدعون إلى قتال قوم أصحاب قوة وبأس ، وهم هوازن وغطفان من ثقيف بالطائف .

وقد ذهب المفسرون مذاهب عديدة في تعريف الداعي إلى هذا القتال الذي سيدعون إليه ، وفي تعيين المحاربين المتصفين بالبأس الشديد . فقال البعض إن الداعي هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأصحاب البأس الشديد هم المرتدون ، وأهل فارس ، والروم .

إلا أن الأولى والأظهر أن الداعي هو رسول الله ﷺ ، وأن أهل البأس هم هوازن وغطفان من ثقيف ... ذلك أن العرب كان قد ظهر أمرهم في آخر الأمر على عهد النبي ﷺ فلم يبق إلا مؤمن تقي طاهر ، أو كافر مجاهر .

وأما المنافقون ، فقد ظهر حالهم لامتناع النبي ﷺ عن الصلاة عليهم ، وكان الداعي هو رسول الله ﷺ إلى حرب من خالفه من الكفار ، وكانت هوازن وغطفان من أشد العرب بأسا فاستنفر النبي ﷺ العرب لغزوة حنين وبني المصطلق بعد فتح مكة مباشرة ، فصح بهذا البيان أن الداعي هو النبي ﷺ .

وأیضا فإن الآية تأمر رسول الله بأن يقول للأعراب ، وهذا يؤكد وقوع القول من رسول الله ﷺ .

فإن قيل : كيف نقول إن الداعي هو النبي ﷺ ، وهو الذي قال ما حكاه الله عنه : ﴿ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ وقال : ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ ؟

أقول : إن قوله ﷺ مقيد بقيد استمرارهم على النفاق والمخالفة ، ويكون المعنى لن تتبعونا مادمت على النفاق والمخالفة ... ولن تخرجوا معي في غزوة ، ولن تقاتلوا معي عدوا مادمت على النفاق ، والمعصية ، والعداوة ، أو يكون منع النبي ﷺ المخلفين من الاشتراك معه كان في غزوة خيبر فقط دون غيرها.

وهذا التأويل لا بد منه لأن من أسلم وحسن إسلامه وجب عليه الجهاد ، ولا يصح منعه من الجهاد مع رسول الله ﷺ أو مع غيره من المسلمين .
وان قيل : إن رسول الله لم يبق له عدو من العرب بعد الحديبية متصف بأنه أولو بأس شديد ، فكيف تقول : إن هوازن وغطفان من ثقيف أولى بأس شديد ؟

أقول : هذا القول غير مسلم لأن العرب كانت لهم قوة ، وبقيت قوتهم حتى فتح مكة ، وكانت لهم هذه القوة في غزوة "حنين" .
﴿ تَقْتُلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ أى استدعون إلى قتال هؤلاء الناس ، فإما أن يسلموا أو يقتلوا ، ولا وجود للجزية مع هؤلاء الناس ، وهذا حكم خاص بالمرتدين ، والعرب حيث لا دين في جزيرة العرب إلا الإسلام .
﴿ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ أى فإن أطعتم رسول الله ، وجاهدتم معه يثبكم الله ، ويؤتكم أجرا طيبا .

﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ وان عصيتم الرسول ، وتوليتهم عن القتال كما توليتهم يوم الحديبية يعذبكم الله عذابا أليما في الآخرة .

ولما سمع أهل الزمانة والأعدار هذه الآية تساءلوا عن حالهم ، ومغفرة الله لهم فقال تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ أى لا حرج عليهم في التخلف عن الجهاد فهم أصحاب أعدار قاهرة تجيز لهم ترك الجهاد ، لأن الأعمى لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب ، ولا يمكنه الاحتراز من الضرب والهرب ، وكذلك الأعرج ، والمريض .

وفي معنى ﴿الْأَعْمَى﴾ : الزمن المقعد والأقطع .

وفي معنى ﴿الْمَرِيضِ﴾ : صاحب السعال الشديد ، والطحال الكبير .

والذين لا يقدرّون على الكر والفر : لأنها أَعذار مانعة من الجهاد .

ومن وراء ذلك أَعذار آخر دون ما ذكر وهي : الفقر الذي لا يمكن صاحبه أن يستصحب معه ما يحتاج إليه من مصالح الجهاد ، والاشغال التي تعوق عن الجهاد كتمريض المريض الذي ليس له من يقوم عليه ونحو ذلك .

وانما قدم الأعمى على الأعرج ، لأن عذر الأعمى مستمر لا يمكن الانتفاع به في حرس ، ولا غيره ، بخلاف الأعرج لأنه يمكن الانتفاع به في الحراسة ونحوها وقدم الأعرج على المريض لأن عذره أشد من عذر المريض لإمكان زوال المرض عن قريب .

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ^ط

وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى ومن يطع الله ورسوله فيجيب الداعى إلى الجهاد والقتال ، واعلاء كلمة الله تعالى يجزه الله عن طاعته ، ويدخله يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومن يتولى عن الحرب ، ويخالف رسول الله ﷺ يعذبه عذابا أليما في الآخرة .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات ما حدث من المخلفين ، وتوضح ميلهم إلى الدنيا وشهواتها وتجدد أمامهم الأمل فى التوبة وقتال أعداء الله تعالى .

فقد وضحت أنهم اختلفوا أَعذارا حتى لا يخرجوا مع الرسول معتمرين إلى الحديبية ، وقد عرفهم الله أن السبب اعتقادهم أن أهل مكة سيقضون على

رسول الله وأصحابه معه ... فلما رجع رسول الله إلى المدينة ، وعزم على الخروج إلى خيبر جاء المخلفون ليشتركوا مع رسول الله ﷺ رغبة منهم في غنائم خيبر ، فعرفهم الرسول ﷺ أن الخروج في خيبر لمن خرج إلى الحديبية كما وعد الله من قبل ، وأمر المخلفين بالرجوع ، ومنعهم من الخروج معه إلا أن الله تعالى فتح لهم باب الأمل مرة أخرى فعرفهم الرسول بأنهم سيدعون إلى قتال قوم أشداء فإن أطعتم يثبكم الله ، ويحسن إليكم ، وإن فررتم من قتالهم ، وتوليتهم يعذبكم الله عذابا أليما ... وتبين الآيات أنه لا حرج على أصحاب الأعذار إن تخلفوا عن القتال لعذرهم ، وتوضح أن من يطع الله ينل خيرا ، ومن يعص الله يعذبه عذابا أليما .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

الخداع والانتهازية

بعض صفات المنافقين

تستعرض الآيات موقف الأعراب من الخروج مع رسول الله إلى الحديبية ، وتوضح الحيل التي اعتدروا بها في عدم الخروج إلى الحديبية ، وتشير إلى أهم الصفات التي يتميز بها المنافقون ... وهي :

(١) عدم تطابق أقوالهم بما في قلوبهم ، وذلك كذب منهم على رسول الله ﷺ فلقد تخلفوا عن الذهاب مع رسول الله لأداء العمرة يوم الحديبية ، ولما رجع الرسول إلى المدينة أخذوا يعتذرون بأنهم شغلوا بأموالهم وأهليهم وأعمالهم ... فبين الله تعالى أن هذا غير صحيح ، فقد توقعوا أن يحدث قتال مع أهل مكة يقضى فيه القرشيون على محمد ومن معه ، وهذا هو الذي خلفهم عن رسول الله ﷺ .

(٢) ضعف إيمانهم بقدرة الله تعالى ، لأنهم توقعوا انكسار المسلمين وهزيمتهم أمام القرشيين ، وتمنوا ذلك في أنفسهم ، وغفلوا عن نصر الله للمؤمنين يوم بدر والأحزاب بجنود من عنده ، ونسوا أن ما يريد الله يتحقق بلا راد أو مانع ، فالكون خلقه ، والمخلوقات تحت أمره ، والله جنود السموات والأرض .

(٣) حبههم للانتهازية ، لأنهم علموا بخروج المسلمين لخيبر بعد رجوعهم من مكة ، وفي خيبر الأموال الوفيرة ، والكنوز الكثيرة فطلبوا الخروج مع المسلمين إلى "خيبر" مع أن الرسول وضح أن لن يخرج إلى خيبر إلا من كان في الحديبية عوضا لهم ، وقد غضبوا لمنعهم ، واتهموا المسلمين بحسدهم والحقدهم عليهم ، وهذا اتهام مردود لأن الله وعد المسلمين بالخروج إلى خيبر وحدهم قبل هذا الحديث .

والآيات توضح للمخلفين أن باب التوبة لم يغلق ، وسيدعون إلى قتال قوم أولى بأس شديد ، تقاتلوتهم أو يسلمون وعليهم أن يستعدوا لذلك ، ويظهروا به إيمانهم ، ولا يتخلفوا عنه كما تخلفوا من قبل فإن تابوا غفر الله لهم ، وإن كذبوا فعذاب الله شديد .

إن حيل المنافقين لا تخدع الله ورسوله ، والحذر منهم واجب وازهارهم للناس ضرورة دينية مشروعة .

الركيزة الثانية

لا حرج على أصحاب الأعدار

الله بصير بعباده ، عليم بأحوالهم وكافة شئونهم ، يقبل عذر من له عذر حقيقي ، ولذلك بينت الآيات أنه لا حرج على أصحاب الأعدار إن تخلفوا عن

(٧٢٣)

الجهاد ، سواء كان السبب ظاهرا ، أو خافيا لأن من القواعد الشرعية أنه ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾^(١) ولذلك بينت الآية أنه لا حرج على الأعمى ، والأعرج ، والمرضى ، ومن له عذر مثلهم إن لم يشتركوا في الجهاد .
إن شريعة الإسلام قائمة على التيسير ورفع الحرج في كافة جوانبها وأحكام الله في العبادات والمعاملات توضح هذه الحقيقة بجلاء .
وقد فرض الله الجهاد على المسلمين حماية للدين ، وصيانة للدنيا ، وحبب القتال في سبيل ليتحقق للمسلمين عزهم وتبقى قوتهم ، ولذلك وجب حين يتعين الجهاد أن لا يتخلف أحد عن هذا الواجب العظيم .
وقد تعددت صور الجهاد ، فمن عجز عن الجهاد بالسيف عليه أن يجاهد بكلمته ، وماله .
وقد عد العلماء من الجهاد الإعداد له بكافة صور الإعداد من تربية ، وعدة ، وعتاد ... والله هو المعين .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦ .

نعم الله والآؤه على أصحاب بيعة الرضوان

يقول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ۚ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلُّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْغَوْهُمْ فِتْنَتُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ ۖ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ۙ

(٧٢٥)

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة قصة المخلفين عن الحديبية ، ووضحت أَعذارهم الكاذبة ، وسوء طبيعتهم ، وابتلاء الله لهم جاءت هذه لبيان رضى الله عن الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة ، وهى البيعة المعروفة ببيعة الرضوان ، وبيان نعم الله وآلائه عليهم .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله رضى على من بايعوا رسول الله تحت الشجرة لصفاء قلوبهم ، وحسن نياتهم ، وصدق عزائمهم ، ولذلك أثابهم وعوضهم بفتح قريب ، وهو فتح خيبر لينالوا منها مغنم كثيرة ، وقد وعد الله المؤمنين بمغنم كثيرة فعجل لهم مغنم خيبر ، ومنع أيدى اليهود عن المدينة حين تركها المجاهدون لتكون برهانا على نصر الله تعالى ، وتوضح الآيات أن نصر المؤمنين قدر ثابت ، ولولا وجود مؤمنين ومؤمنات في مكة مستترين لا يعلمونهم لأمرهم بالقتال ، وقد أنزل الله سكينته على رسول الله وعلى المؤمنين ، وأكرمهم بالتقوى ، والعمل الصالح لإخلاصهم وحبهم لله ورسوله والله بكل شئ عليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾

أى قد تحقق رضى الله تعالى عن أصحابك الذين كانوا معك في الحديبية ، الذين بايعوك تحت الشجرة . فقد علم الله صدق إيمانهم ، وإخلاصهم في بيعتهم .

وقد سميت هذه البيعة بـ "ببيعة الرضوان" لرضى الله عنهم... كما تسمى "بيعة الشجرة" لأن رسول الله ﷺ بايع المسلمين وهو تحت الشجرة المعهودة في الحديبية .

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : "بيننا نحن قائلون ، إذ نادى منادى رسول الله ﷺ أيها الناس : البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، فثرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئاً لابن عفان ، يطوف بالبيت ونحن هنا ، فقال رسول الله ﷺ لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف" (١) .

وعن سلمة أيضاً قال : "بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، فلما سئل عن أى شئ كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت" (٢) .
وعن جابر أن النبي ﷺ قال : "لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة" (٣) .

وكان عدد المسلمين في الحديبية ألفاً وأربعمائة بايعوا رسول الله ﷺ جميعاً إلا واحداً منهم الجد بن قيس الأنصاري الذي اختفى تحت بطن بعيه وقال : بايعنا رسول الله على أن لا نفر ، ولم نبايعه على الموت (٤) .
وقد نسي المسلمون مكان الشجرة ، وأمر عمر رضي الله عنه في خلافته بقطعها حتى لا يعظمها الناس ، وحتى لا تكون كـ "ذات أنواط" التي كان يعبدها الناس في الجاهلية ، وقد أسس الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور رضي الله عنه مسجداً في

(١) مصنف ابن أبي شيبة . كتاب المغازي . باب غزوة الحديبية ج ٧ ص ٣٨٦ .

(٢) صحيح البخاري . كتاب الجهاد والسير . باب البيعة في الحرب ج ٤ ص ٥٠ .

(٣) سنن الترمذي . كتاب أبواب المناقب . باب فضل من بايع تحت الشجرة ج ٥ ص ٦٩٥ .

(٤) مسند أحمد ط . الرسالة ج ٢٣ ص ٤٠٨ .

مكان البيعة ، وأسماه "مسجد البيعة" ، وثم تجديده في عصر المستنصر بالله العباسي عام ٦٢٩ هـ ... ثم جدد بعد ذلك محمود خان العثماني عام ١٢٥٤ هـ .
 والمسجد موجود إلى اليوم ... وهو مسجد صغير يؤدي فيه المسلمون الجمعة والجماعات ، ويعدونه واحدا من المساجد العديدة لا يفضلها بشئ .
 يقول بكير بن الأشج : بايع المسلمون رسول الله ﷺ على الموت ، فقال رسول الله ﷺ : بل على ما استطعتم^(١) .
 فلما تم الصلح أصابتهم كآبة ، وغضبوا لأنهم رأوا في الصلح ضعفا أمام طغیان قريش .

﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾
 أى علم الله منذ الأزل صدق هؤلاء الصحابة ، وسلامة نيتهم ، وحبهم له ، وعلم أنهم حزنوا بعد الصلح لصدقهم وإخلاصهم ، فأنزل السكينة ، والطمأنينة على قلوبهم ، فسكنوا ، وهادأوا ، وعوضهم الله عن غنائم مكة فتح خيبر لينالوا غنائمها الوفيرة بعد شهر وستة أيام من رجوعهم من الحديبية وقد جعل الله فتح خيبر لمن كانوا في الحديبية وحدهم .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ أى وعوضهم الله عن الحديبية بمغانم كثيرة يأخذونها في الفتح القريب الذى قدره الله لهم .
 ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أى وكان الله عزيزا في انتقامه ، حكيما في تدبير أمور العباد .

(١) إمتاع الأسماع ج ١ ص ٢٩٠ .

(٧٢٨)

﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ أى وعدكم الله مغانم كثيرة

تأخذونها في الفتوح التى ستقومون بها إلى يوم القيامة .

﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ أى وعجل لكم غنائم خيبر ليأخذها من بايع

في الحديبية عوضا لهم عن عدم دخول مكة .

روى إياس بن سلمة قال : حدثنى أبى قال : خرجنا إلى خيبر مع رسول

الله ﷺ فجعل عمى عامر ﷺ يرتجز بالقوم ويقول :

تالله لولا الله ما اهتدينا .: ولا تصدقنا ولا صلينا

ونحن عن فضلك ما استغينا .: فثبت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينه علينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا ؟

قال : أنا عامر .

قال : غفر لك ربك (وما استغفر لأحد إلا استشهد) .

قال : فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له ، يا نبي الله لو أمتعتنا بعامر

فلما قدمنا خيبر خرج قائدهم مرحب يخطر بسيفه ويقول :

قد علمت خيبر أنى مرحب .: شاكى السلاح بطل مجرب

إذا الحرب أقبلت تلتهب

فيرز له عامر بن عثمان ﷺ فقال :

قد علمت خيبر أنى عامر .: شاكى السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوق سيف مرحب فى ترس عامر ، فرجع سيف عامر على

نفسه ، فقطع أكله (الأكل : عرق فى اليد) فكانت فيها نفسه .

فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكى فقلت : يا رسول الله بطل عمل عامر .

فقال ﷺ : من قال ذلك ؟

قلت : ناس من أصحابك .

قال ﷺ : بل له أجره مرتين .

ثم أرسلنى إلى على وهو أرمذ وقال : لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فأنتيت عليا فجئت به أقوده ، وهو أرمذ حتى أتيت به رسول الله ﷺ فقتل فى عينيه فبرئ ، وأعطاه الراية فخرج مرحب ، وقال :

أنا الذي سمتنى أمي مرحب .: . شاكى السلاح بطل مجرب

فقال على كرم الله وجهه :

أنا الذي سمتنى أمي حيدرة .: . كليث غابات كرية المنطرة

أكيلكم بالسيف كيل السندره^(١)

قال : فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه .

﴿ وَكَفَّ أَيْدَى النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ أى وكف أيدى اليهود عن المدينة حين

تركها رسول الله إلى العمرة وخيبر ، وكانت خالية وقتها من الرجال والمجاهدين إلا أن الله أعماهم عن مقاتلة المسلمين وقتها .

﴿ وَلَتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ أى ليكون

ما حدث لكم آية من آيات الله شاهدة على معونة الله ، حتى يعلم الناس منها أن الله معكم يوفقكم للصراط المستقيم .

﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ أى وعدكم الله فتح

بلاد أخرى لم تقدرؤا عليها يوم صلح الحديبية ، وسيأتى بعدكم خلف لكم يمكنهم الله من فتحها وقد حفظها الله لهم حتى يتمكنوا من فتحها .

(١) السندرة : مكيال واسع ، وكيلهم بها : قتلهم قتلا واسعا ذريعا .

(٧٣٠)

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ وكان الله قادرا على كل شيء يفعل ما يريد ، وله الأمر كله .

﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يبشر الله عباده المؤمنين أنه ناصرهم ومعينهم ، ولو قاتلهم المشركون لانهزموا ، وولوا الأدبار ، ولا يجدون وليا يعينهم ، أو ناصرنا ينصرهم .

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أى جرت سنة الله في الناس أنه ما تقابل مؤمن وكافر إلا وانهزم الكافر ، وولى الأدبار ، وانتصر المؤمنون ، ولن تتبدل هذه السنة الإلهية في حياة الناس .

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أى هو الله الذى كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم بالحديبية ، وهى بطن مجاورة لمكة ، من بعد أن أظفركم عليهم ، وذلك أن رسول الله ﷺ وأصحابه أقاموا بالحديبية ، وأطلقوا الهدى معلمة أمامهم ، وأعلنوا لأهل مكة ، وللحجيج أنهم جاءوا للعمرة مسالمين ، لا يقصدون القتال في الأشهر الحرم ، ويرغبون في السلام فأرسل لهم أهل مكة من يفاضهم .

وقد مكن الله للمسلمين منهم خلال المفاوضات وظهرت معونة الله ، لأنهم فوجئوا بمجموعة من القرشيين هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم مسلحين ، يريدون غدر النبي ﷺ وأصحابه فأخذهم المسلمون سبايا بلا قتال ، واستحياهم رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ .

يقول عبد الله بن مغفل المزني : كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية عند الشجرة ، وعلي بن أبي طالب يكتب كتاب الصلح ، فخرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح ، فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم نبي الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : هل جعل لكم أحد أمانا ؟
قالوا : اللهم لا ... فخلى سبيلهم ولم يحدث قتال^(١) .

﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ أي وكان الله شاهدا على كل أعمالكم وأقوالكم .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ ﴾ أي هم أهل مكة الذين كفروا بالله تعالى ، وصدوكم عن دخول مكة ، وصدوا الهدى المعلم أن يذبح في الحرم ، ومنعوه أن يبلغ محله الذي يعرفه الناس في منى .

﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْغَوْهُمْ فِتْصِيْبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي منعناكم من قتال أهل مكة لوجود مؤمنين رجالا ونساء ، في مكة لا تعلمونهم على وجه التحديد ، فلو قاتلتم أهل مكة لأصبتم المؤمنين ، وفي ذلك العار والخيبة حين يقال مسلم قتل مسلما .

﴿ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي منعكم الله من قتال أهل مكة لوجود مسلمين في مكة من الرجال والنساء لا يعلمهم أحد ، وحتى يجد بعض أهل مكة وقتا يفكرون خلاله في دين الله تعالى عسى أن يؤمن بعضهم ، ويدخلوا في رحمة الله تعالى .

(١) السنن الكبرى للنسائي . كتاب التفسير . باب وهو الذي كف أيديهم عنكم ج ١٠ ص ٢٦٥ .

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى لو اتخذ

المسلمون في مكة مكانا خاصا بهم ، وتفرقوا فيه ، وبعدوا عن غيرهم لساق الله المسلمين للجهاد ، ولنصرهم ، وأخزى عدوهم ، وألحق بأعدائهم الخزى والهوان ، ونجى المسلمين المستترين .

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ

اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى

وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ أى إن الذين كفروا يتعصبون لتقاليدهم وينفعلون

غضبا وحماسا لآلهتهم ، وقد ظهر ذلك منهم حين جعلوا الحمية في قلوبهم

للتعصب ، وحب الذات ، وذلك حين أصر سهيل بن عمر على حذف "بسم

الله الرحمن الرحيم" ، و "محمد رسول الله" ... وأنزل الله السكينة على قلوب

رسول الله والمؤمنين فقبلوا ما طلبه سهيل لإيمانهم المطلق بما وافقوا على حذفه

، لأن هذا الحذف لا يقلل من إيمانهم شيئا ، ولا يلحق بصفات الله أو برسول

الله نقصا أو اتهاما ، ونزلوا على تقوى الله وطاعته فهم الأحق بذلك وهم أهل

التقوى وأهل المغفرة .

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أى إن الله عليم بكل شئ من الأزل

إلى الأبد لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أطلع على صفاء قلوب المؤمنين ، وهم يبائعون رسول

الله تحت الشجرة فرزقهم الهدوء والطمأنينة ، وعوضهم بفتح قريب في خير ،

حيث الغنائم الكثيرة ، وعرفهم بالنصر الدائم المستمر ، والغنائم العديدة الوفيرة

(٧٣٣)

فعجل غنائم خيبر ، وكتب لهم سائر الغنائم بعد ، وقد صرف الله أعداءكم عنكم ، وصرفكم عنهم لإظهار سماحة الإسلام ، وعدم القتال في الأشهر الحرم ، وحماية للمسلمين المستترين في مكة ، وتحقيق الأمن والسلام للناس أجمعين .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

تحقيق معية الله للمؤمنين

- لقد بينت الآيات عددا من المعونات الإلهية التي قدرها لصحابة النبي ﷺ الذين خرجوا معه للعمرة ، وأشركوا في صلح الحديبية ... وأهمها :
- (١) رضى الله عنهم فقد علم صفاء قلوبهم ، وصدق حبهم وسعيهم لنصر دين الله تعالى حين بايعوا رسول الله تحت الشجرة .
 - (٢) أنزل الله عليهم السكينة بعد أن شق عليهم منعهم من دخول مكة ، وعدم أداء العمرة التي جاءوا لها ، وساقوا هديها أمامهم .
 - (٣) عوضهم عن دخولهم مكة فتحا آخر ، وهو إخراج اليهود من خيبر والحصول على غنائمهم الوفيرة .
 - (٤) صانهم الله من إلحاق أى أذى بالمسلمين داخل مكة الذين لا يعلمون عنهم شيئا .
 - (٥) نجاهم من حمية الجاهلية ، وألزمهم تعاليم الإسلام والتقوى التي أهلهم لها .
 - (٦) كتب الله لهم النصر الدائم على أعداء الله كما كتبه للرسل السابقين .
- تلك هي بعض الهبات الإلهية التي قدرها الله لصحابة النبي ﷺ الذين صدقوا مع رسول الله ، وأخلصوا نواياهم وأعمالهم لله رب العالمين .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحِلِّينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرِعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ ۖ فَعَازَرَهُ ۖ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۚ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۖ ﴾ ﴿٢٩﴾

سبب نزول الآيات

وقال المنافقون : أين رؤيا الرسول التي رآها ؟

(٧٣٥)

فأنزل الله هذه الآية ليؤكد لهم صدق الرؤيا ، ويعرفهم أن رؤيا الرسول لم تحدد عاما معيناً ... فعادوا إلى المدينة ، ودخلوا مكة في العام المقبل^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أحداث الحديبية جاءت هذه الآيات تؤكد للمسلمين صدق رسول الله في رؤياه التي ذكرها لهم لأنه ﷺ لم يحدد لهم عاما معيناً ، وأكد لهم أنهم سيدخلون مكة معتمرين بمشيئة الله تعالى .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن رؤيا النبي ﷺ صادقة ، وأن المسلمين سيدخلون مكة معتمرين آمنين ، وقد علم الله ما لم يعلموا ، ففضى بما فيه المصلحة ، وجعل لهم فتح خبير ، وقد أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على غيره من الأديان ، وجعله دين المسلمين الذين يتميزون بالخلق ، والرفعة ، والكرامة ، والعزة ، وهو خاتم الأديان كلها .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ۖ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ ﴾
أى صدقت رؤيا رسول الله ﷺ ، وتحقق للمسلمين ما وعدهم به ﷺ ...
وملخص هذه الرؤيا يؤكد دخول المسلمين المسجد الحرام معتمرين آمنين ، وبعد العمرة يحلقون رءوسهم ، ويقصرون .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٢١٣ .

(٧٣٦)

وكانت رؤيا رسول الله ﷺ قبل الخروج للحديبية ، ولذلك أمل المسلمون في العمرة حين خروجهم إلى الحديبية ، ولم ينتبهوا إلى أن دخول مكة لم يتحدد زمنه في الرؤيا ، ولذلك جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه وسأله : أليس هذا نبي الله حقا ؟

قال أبو بكر : بلى .

قال عمر : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟

قال أبو بكر : بلى .

قال عمر : فلم نعط الدنيا في ديننا ؟

قال أبو بكر : أيها الرجل إنه رسول الله ، وليس يعصى ربه ، وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه (سر على نهجه) فو الله إنه لعلى الحق .

قال عمر : أليس كان يحدثنا أنه سيأتي البيت ويطوف به ؟

قال أبو بكر : بلى ... فأخبرك أنه آتية العام ؟

قال عمر : لا .

قال أبو بكر : فإنك تأتية وتطوف به^(١) .

﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ أي علم الله تعالى أن بمكة رجالا مؤمنين

ونساء مؤمنات لم تعلموهم أيها المسلمون ، ولو دخلتم مكة عنوة لو طأتموهم بالخيول والرجال ، وقتلتموهم وبذلك يكون العار وأنتم لا تعلمون .

﴿ فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ أي علم الله غضبكم

فعوضكم خيرا ، وجعل لكم فتحا قريبا هو فتح خيبر ، وبه غنائم كثيرة .

(١) زاد المعاد ج ٣ ص ٣٩٥ .

(٧٣٧)

وقصة القتال في خيبر أن رسول الله ﷺ ألم به عذر منعه من الخروج للناس ، فأخذ أبو بكر راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالا شديدا ، ثم رجع فأخذها عمر فقاتل قتالا شديدا هو أشد من القتال الأول ، ثم رجع فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، ويفتح الله على يديه .

فدعا عليا فأعطاه الراية وقال له : امش ، ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك .
فأتى علي رضي الله عنه خيبر فخرج مرحب صاحب الحصن ، وعلى رأسه مغفر من حجر قد نقبه مثل البيضة ، وهو يرتجز .
فخرج إليه علي بن أبي طالب ، فضربه فقد الحجر ، والمغفر ، وفلق رأسه حتى أخذ السيف في الأضراس .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يرتجز .
فخرج إليه الزبير بن العوام فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها :
يقتل ابني يا رسول الله ؟
قال : ابنك يقتله إن شاء الله .
ثم التقيا ، فقتله الزبير .

ثم كان الفتح ثم لم يزل رسول الله ﷺ يفتح الحصون ، ويقتل المقاتلة ويسبي الذرية ، ويحوز الأموال^(١) .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أي هو الله الذي أرسل محمدا ﷺ بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ويختم به سائر الرسالات والأديان .

(١) السنن الكبرى للبيهقي . كتاب السير . باب المبارزة ج ٩ ص ٢٢١ .

﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ أى يكفى أن الله وعد بذلك ، ووعد الله

لا يتخلف .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

أى محمد هو رسول الله الذى أرسله الله للناس جميعا ، وأيده بالمعجزات ، وأصحابه الذين آمنوا به وكانوا معه ، يحب بعضهم بعضا ، ويلين بعضهم مع بعض ، فهم رحماء بينهم ، أشداء على الكفار الذين يخاصمونهم ، وينكرون دينهم .

يقول النبى ﷺ : "إن المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضا" (١) ، ويقول ﷺ : "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر" (٢) .

﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ أى تراهم

دائبين على الصلاة ، مخلصين محتسبين الأجر من الله تعالى ، راجين الفوز برضوان الله .

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ أى علامة صلاحهم

بادية في وجوههم من أثر كثرة السجود .

﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ أى هذه الصورة هى صورة المسلمين في

التوراة .

(١) صحيح البخارى . كتاب الصلاة . باب تشبيك الأصابع فى المسجد ج ١ ص ١٠٣ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة والآداب . باب تراحم المؤمنين ج ٤ ص ١٩٩٩ .

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ أُخْرِجَ شَطَعُهُ فَأَزْرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ

فَأَسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجَبُ الزُّرَّاعَ ﴾ أى ومثل الصحابة في الإنجيل مثل زرع يبدأ صغيرا ثم يكبر شيئا فشيئا ، حتى تخرج فروعه من جوانبه ، ويتقوى بعد ضعف ، ويعجب الزراع لقوته ، وكثافته ، وكثرة ثمره ، وضخامة سيقانه ، وهكذا المسلمون يبدأون عددا قليلا ثم يصيرون عددا كبيرا وتقوى شوكتهم ، ويشتد عزمهم ، ويظهر خيرهم ، ويكون لهم النصر والحكم ويسر بهم المؤمنون .

﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ أى إن الله نَمَى المسلمين ، وقواهم ليتم نوره ،

ويغيب الكفار .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

عَظِيمًا ﴾ أى وعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، ويطبقون الإسلام أن يغفر ذنوبهم ، ويثيبهم أجرا عظيما .

إن المثل يظهر المؤمنين الذين كانوا مع النبى ﷺ ويجعلهم مثلا للمسلمين في كل وقت ، ويصفهم بعدة أوصاف :

– فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم ، يكونون مجتمعا إسلاميا موحدا يسوده التعاون والحب والمودة .

– وهم يحافظون على عبادة الله لا تراهم إلا عابدا خاشعين لله خاضعين له .

– وهم يرجون رحمة الله ، ويسألونه الفضل والعطاء ليقينهم أن كل شئ بيد الله تعالى .

– وهم رمز عملى على الإسلام عقيدة ، وشريعة ، وخالقا .

- وهم دائما يزدادون قوة باستقامتهم وحبهم لدين الله .
 - وهم قوة مبهرة تسر كل مؤمن ، وتغيظ كل كافر ضال .
 - وهم في الآخرة فائزون بجنت الله وغفران الذنوب .
- يقول النبي ﷺ عن هذه الجماعة المؤمنة : "خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم" (١) .
- ويقول ﷺ : أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر وأشدهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبي بن كعب ، ولكل قوم أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر أشبه عيسى في ورعه .
- قال عمر : فنعرف له ذلك يا رسول الله ؟
- قال ﷺ : نعم (٢) .
- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صعد أحدا ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف الجبل بهم فقال ﷺ : أثبت أحد ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان (٣) .
- وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : اقتدوا بالذين بعدي من أصحابي أبي بكر ، وعمر واهتدوا بهدي عثمان ، وتمسكوا بعهد عبد الله بن مسعود .
- وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه في جيش ذات السلاسل فأتيته فقلت : أي الناس أحب إليك ؟

(١) صحيح البخارى . كتاب الشهادات . باب لا يشهد على شهادة جور ج ٣ ص ١٧١ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب المناقب . باب مناقب معاذ بن جبل ج ٥ ص ٦٦٥ .

(٣) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب قول النبي ﷺ : لو كنت متخذا خليلا ج ٥ ص ٩ .

قال ﷺ : عائشة .

فقلت : من الرجال ؟

قال : أبوها .

قلت : ثم من ؟

قال : ثم عمر بن الخطاب فعد رجالاً^(١) .

وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "رحم الله أبا بكر زوجني ابنته ، وحملني إلى دار الهجرة ، وصحبني في الغار ، وأعتق بلالا من ماله .

رحم الله عمرا ليقولن الحق ، وإن كان مرا ، تركه الحق وما له من صديق .

رحم الله عثمان تستحي منه الملائكة .

رحم الله عليا ، اللهم أدر الحق معه حيث دار"^(٢) .

وعن زر بن حبيش ﷺ قال : سمعت عليا يقول : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إنه لعهد النبي الأمي إلي ، أنه لا يحبني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق^(٣) .

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : "ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلا بعثه الله قائدا ونورا لهم يوم القيامة"^(٤) .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : "لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه"^(٥) .

(١) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب قول النبي ﷺ : لو كنت متخذاً خليلاً ج ٥ ص ٥ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب المناقب . باب مناقب علي بن أبي طالب ج ٥ ص ٦٣٣ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب الإيمان . باب الدليل على أن حب الأنصار ج ١ ص ٨٦ .

(٤) سنن الترمذى . كتاب أبواب المناقب . باب فيمن سب الصحابة ج ٥ ص ٦٩٧ .

(٥) صحيح البخارى . كتاب المناقب . باب قول النبي ﷺ : لو كنت متخذاً خليلاً ج ٥ ص ٨ .

(٧٤٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضا من بعدي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه"^(١) .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن رؤيا الرسول صادقة ولذلك سيدخل المسلمون مكة معتمرين آمنين ، يذبحون هديهم ، ويقصرون ويحلقون ، وقد أحر الله عمرتهم عاما حتى لا يدخلوا مكة عنوة ويقتلوا مؤمنين لا يعلمونهم ، ويقعوا في العار وهم لا يشعرون .

وتبين الآيات أن محمدا هو رسول الله ﷺ الذي بعثه الله بالإسلام ليظهره على الدين كله ، وأن محمدا وأصحابه أشداء على الكفار رحماء بينهم وأنهم دائمون في العبادة ، راغبون في فضل الله وعطاءه ، وهم رمز متحرك للإسلام ... وللمؤمنين مثل في الإنجيل ، فهم مكثرون بعد قلة ، أقوياء بعد ضعف ، مصدر فرح واعجاب للمؤمنين ، وسبب غيظ الكفار ، وقد أعد الله لهم في الآخرة جنات النعيم .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب المناقب . باب فيمن سب الصحابة ج ٥ ص ٦٩٦ .

(٧٤٣)

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

بيان صورة المجتمع الإسلامي

في عهده الزاهر

المجتمع الإسلامي في عصر رسول الله ﷺ هو المجتمع القدوة الذي يجب أن يسير عليه المسلمون في زمان ومكان .

لأنهم آمنوا بالله مخلصين ، وطبقوا ما جاءهم به رسول الله ﷺ متيقنين من صدقه ، وقد أكرمهم الله تعالى فحقق لهم ما يرجون .

إن هذا المجتمع تميز بالحب والتعاون والتماسك ، والتراحم ، والاتحاد أمام الأعداء ، يعبدون الله دائما ، وقد بارك الله لهم ، وزادهم يقينا وقوة ، ووعدهم مغفرة الذنوب والثواب الجزيل في جنات النعيم .

❖ ❖ ❖

إلى هنا ينتهي تفسير سورة "الفتح" بتوفيق الله تعالى .

سورة "الحجرات" وهي أول سور المفصل

أولا : التعريف بالسورة .
ثانيا : تفسير السورة .

(٧٤٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٤٦)

- أولا -

التعريف بسورة "الحجرات"

تنقسم سور القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام هي :

- (١) السور الطوال .
- (٢) سور المفصل بفتح الصاد وتشديدها .
- (٣) السور القصار .

والجمهور على أن السور الطوال تبدأ بسورة "البقرة" وتنتهى بسورة "الفتح" ، وتبدأ سور المفصل بسورة "الحجرات" ، وتنتهى بسورة "الليل" ، وتبدأ السور القصيرة بسورة "الضحى" وتنتهى بسورة "الناس" ... ولم يشذ عن ذلك إلا عدد قليل من العلماء^(١) .

وسورة "الحجرات" سورة مدنية بالاتفاق ، وقد نزل قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾^(٢) يوم فتح مكة ، ولم يعارض هذا النزول مدنيته لأنها نزلت بعد الهجرة .

وللسورة اسم واحد هو "الحجرات" لورود هذا الاسم فيها .
وقد نزلت سورة "الحجرات" بعد سورة "المجادلة" .

ووجه اتصال سورة "الحجرات" بسورة "الفتح" أن سورة "الفتح" تكلمت عن قتال الكفار ، وتكلمت سورة "الحجرات" عن قتال البغاة .
وأيضا فإن سورة "الفتح" ختمت بالحديث عن المؤمنين وأوصافهم وابتدأت سورة "الحجرات" بالحديث عنهم كذلك .

(١) انظر التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ٢١٤ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣ .

وأيضاً فإن السورتين يتضمنان ذكراً وتشريفاً لرسول الله ﷺ وبخاصة في الآيات الأولى منهما .

وأيضاً فقد تضمنت سورة "الفتح" غضب المسلمين من عدم دخول مكة ورجوعهم إلى المدينة ومعارضتهم للصلح في بدايته ، ولما هدأت نفوسهم ، وأدوا عمرتهم في العام القابل نزلت سورة "الحجرات" تعلم في بدايتها الأدب الأخلاقي الذي يجب أن يلتزم به المسلمون في مخاطبة رسول الله ﷺ .

وتدور أغراض السورة حول توجيه المسلمين إلى حسن التعامل مع الله ورسوله ، ومع الناس أجمعين .

وأولها تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي ﷺ في معاملته ، وخطابه ، وندائه ، وقد دعا الله إلى تعليمهم هذه الآداب ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاة الأعراب حينما نادوا الرسول ﷺ باسمه المجرد من خلف بيوته بصوت جهير .

ومنها التثبت في نقل الخبر مطلقاً ليكون ذلك من خلق المؤمنين ، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاستقين .

وفى هذه السورة إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، التي تكون مع الله تعالى ، أو مع الرسول ﷺ ، أو مع غيرهم من الناس .

وهم في أخلاقهم على صنفين ، لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، أو على طريق الضالين ، فهذه خمسة أقسام للأخلاق تتعلق بجوانب مختلفة هي :

أحدها : يتعلق بجانب الله .

وثانيها : يتعلق بجانب الرسول .

وثالثها : يتعلق بجانب الفساق .

ورابعها : يتعلق بالمؤمن الحاضر .

وخامسها : يتعلق بالمؤمن الغائب .

وقد ذكر الله تعالى المؤمنين في هذه السورة ، وناداهم خمس مرات بقوله : ﴿ يَتَّيِبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وأرشدتهم في كل مرة إلى مكرمة أخلاقية متصلة بهذه الجوانب الخمسة فقال تعالى :

أولا : ﴿ يَتَّيِبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ لبيان طاعة الله لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله ﷺ ، وهذه تتعلق بجانب الله .

وقال ثانيا : ﴿ يَتَّيِبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ لبيان وجوب احترام النبي ﷺ والسكون أمامه ، والاستماع له ، وهذه تتعلق بجانب رسول الله .

وقال ثالثا : ﴿ يَتَّيِبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوال الفساق ، فإنهم يريدون إلقاء الفتنة بينكم ، وهذه تتعلق بجانب الفاسقين .

وقال رابعا : ﴿ يَتَّيِبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا قَوْمٍ مِّنْ قَوْمٍ ﴾ لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم والازدراء بحالهم ومنصبهم ، وهذه تتعلق بجانب المؤمنين الحاضرين .

وقال خامسا : ﴿ يَتَّيِبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضرا لتأذى ، وهذا يتعلق بجانب المؤمنين الغائبين .
وأجمع المفسرون على أن عدد آيات السورة ثمانى عشرة آية .

(٧٤٩)

- ثانيا -

- التفسير -

ضرورة التأدب القولي والعملی

يقول الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۖ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ۖ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ .

- ١ -

موضوع الآيات

توجه الآيات المؤمنين ، وأولهم أصحاب النبي ﷺ إلى ضرورة التأدب مع رسول الله ﷺ قولا ، وفعلًا ، وحالا ، لأن هذا الأدب جزء من الإيمان والخلق الكريم .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ تبدأ السورة بنداء المؤمنين ، إيقاظا للصفة التي تربطهم بالله تعالى وتدفعهم إلى الطاعة والاستسلام ، فهم المصدقون بالله ، المستسلمون له ، المطيعون لأمره .

﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى لا تقترحوا على الله

ورسوله اقتراحا ، لا في خاصة أنفسكم ، ولا في أمور الحياة من حولكم ، ولا تقضوا في حكم بعيدا عن حكم الله ، إذ ربما تقضون بغير قضاء الله ورسوله ، وراقبوا الله في كل شأن وحال ، فهو سبحانه يعلم الغيب ، ويحيط بكل أمر ، وتتجلى عنده الأزمنة والأمكنة ، وكل خلقه ، ولذلك فحكمة العدل ، وقضاؤه الفصل ، وقدره المحكم ، فاتبعوه لعلمكم تفلحون .

ومن هذا الباب أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أخر رأيه عن قول الله ورسوله ، وذلك حين سأله رسول الله ﷺ حين بعثه إلى اليمن .

وقال له : بم تحكم يا معاذ إن عرض لك قضاء ؟

قال معاذ : أقضى بما في كتاب الله .

قال ﷺ : فإن لم تجد في كتاب الله ؟

قال معاذ : أقضى بما في سنة رسول الله .

قال ﷺ : فإن لم تجد في سنة رسول الله ؟

قال معاذ : اجتهد رأيي ولا آلو ^(١) .

فنجده ﷺ يؤخر رأيه ، ويجعله بعد حكم رسول الله ﷺ .

إن عدم تقديم الرأي على رأى الله ورسوله أدب نفسى يشير إلى تعظيم الله ورسوله في القلوب ، والوجدان ، وتوضيح منهج التلقى والأخذ من الله ورسوله في العقائد والأحكام .

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة أن يقدم رأيه على رأى الله ورسوله ، ولا يسلم بأمر أو حكم يخالف حكم الله ورسوله .

(١) سنن أبى داود . كتاب الأقضية . باب اجتهد الرأي فى القضاء ج ٣ ص ٣٠٣ .

ولقد وصل الأمر بالصحابه أنهم كانوا ينتظرون رأى رسول الله ﷺ في الأمور المعلومة الثابتة لديهم المسلمة من سائر العقول ، ثقة في رأى رسول الله ، ورغبة في معرفته حتى لو تطابق مع ما في أنفسهم ، وخير لهم أن يقولوا : هذا رأى رسول الله ﷺ من أن يقولوا : هذا رأينا .

سأل النبي ﷺ أصحابه في حجة الوداع : أى شهر هذا ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم .

فسكت ﷺ حتى ظن الصحابة أنه سيسميه بغير اسمه . فقال ﷺ : أليس ذى الحجة ؟ ...

فقالوا : بلى .

قال ﷺ : أى بلد هذا ؟

قالوا : الله ورسوله اعلم .

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس البلدة الحرام ؟ قالوا : نعم .

ثم قالوا : فأى يوم هذا ؟

قالوا : الله ورسوله اعلم .

فسكت ﷺ حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس يوم النحر ؟ قالوا : بلى^(١) ... الخ الحديث .

فهذه صورة من الأدب الذى سلكه الصحابة مع رسول الله ﷺ فقد توقفوا عن قول ما يعلمون حتى لا يتقدم قولهم على قول رسول الله ﷺ .

﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى وأطيعوا الله فيما ينهاكم عنه ، ولا تقدموا رأيا

على رأيه ، ولا حكما على حكمه ، حبا وتوقيرا له ، وطمعا في رضوانه ورضاه وطلبا لمعية الله وعونه .

(١) صحيح البخارى . كتاب العلم . باب قول النبي ﷺ رب مبلغ أوعى من سامع ج ١ ص ٢٤ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أى إن الله سميع لأقوالكم ، عليم بقلوبكم
واخلاصكم وأحوالكم .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ أى
لا تعلوا أيها المؤمنون أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تبلغوا بأصواتكم الحد
الذى يبلغه صوت النبى ﷺ .

عن ابن مليكة رحمه الله قال : كاد الخيران أن يهلكا ... أبو بكر وعمر
رضي الله عنهما ... رفعا أصواتهما عند النبى ﷺ حين قدم عليه ركب بني
تميم في السنة التاسعة من الهجرة فأشار أبو بكر ﷺ بالأقرع بن حابس ﷺ أخى
بني مجاشع أي ليؤمره عليهم ، وأشار عمر ﷺ بالقعقاع بن معبد .
فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي .

قال عمر : ما أردت خلافك .

فارتفعت أصواتهما في ذلك . فأنزل الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا
أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ .

قال ابن الزبير رحمه الله : فما كان عمر ﷺ يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى
يستفهمه ! ...

وروي عن أبي بكر ﷺ أنه قال لما نزلت هذه الآية : قلت : يا رسول الله ، والله
لا أكلمك إلا كأخي السرار (يعني كالهمس) ^(١) !

واستمرت الأمة كلها على نمط الخيرين ، فلم يرفعوا أصواتهم على صوت
رسول الله ﷺ في حياته ، ولم يقدموا حكما أو رأيا على سنته ولم يرفعوا
أصواتهم فوق صوت النبى ﷺ .

(١) مسند البزار . مسند أبي بكر الصديق رحمه الله . باب طارق بن شهاب ج ١ ص ١٢٧ .

ولما نزلت هذه الآية قال أنس بن مالك رضي الله عنه : أنا الذي كنت أرفع صوتي على رسول الله ﷺ فدعاه إليه ﷺ فقال : يا رسول الله لقد أنزلت هذه الآية ، واني رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون عملي قد حبط ، فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، إنك تعيش بخير ، وتموت بخير ، وإنك في أهل الجنة ، فقال : رضيت ببشرى رسول الله ﷺ ، لا أرفع صوتي على رسول الله ﷺ أبدا^(١) .

والجهر المنهى عنه هو الجهر في غير الحالات التي يؤمر فيها المسلم بالجهر كالآذان ، وتكبيرات العيد ، والنداء بالثبات في الجهاد والقتال .

﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أى لا ترفعوا

أصواتكم فوق صوته ﷺ ، ولا تتنادونه بإسمه كما ينادى الناس بعضهم بعضا يا فلان بصوت جهير ، ولكن نادوه ﷺ بإسمه الدال على صفاته ومهمته مثل يا أيها الرسول ، يا أيها النبي ، بصوت خفيض ، وهدوء يناسب مقام رسول الله في قلوبكم ، وبذلك يقبل المسلمون على رسول الله وهم هادئون مطمئنون فتفتح عقولهم ، وتزكو نفوسهم بسماع رسول الله ﷺ ، وفهم توجيهات وتعاليمه .

﴿ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أى إن رفعت أصواتكم على

صوت رسول الله تبطل أعمالكم ، وتضيع أجوركم ، وأنتم لا تشعرون بضياها.

وقد أخذ العلماء المعاصرون من مفهوم الآيات إن الحكم بغير حكم رسول

الله في قضايا الناس رفع للحكم على حكم رسول الله ، وهذا لا يجوز .

(١) موطأ مالك . باب فضائل الصحابة ج ١ ص ٣٣٣ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۖ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أى إن الذين يخفضون حديثهم أمامه هم المؤمنون حقا الذين أهلهم الله لطاعته ، وهداهم إلى صراطه المستقيم ، وحببهم في تقوى الله تعالى .

إنهم يحرصون على خفض الصوت في مجلس رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته ﷺ يكرهون رفع الصوت عند قبره ومسكنه ، ويلتزمون بالوحي الذى تركه بينهم ، ووصاهم بطاعته ، والاستقامة عليه .

رأى عمر ابن الخطاب ؓ رجلين ، وقد ارتفعت أصواتهما في مسجد رسول الله ﷺ فأتاهما ، وقال لهم : أتدريان أين أنتما ؟

ثم قال : من أين أتيتما ؟

قالا : من الطائف .

قال عمر : لو كنتما من أهل المدينة لأوجتكما ضربا^(١) .

ومعنى ذلك أن التقوى تعنى قهر الشهوة وضبط السلوك ، والالتزام بطاعة الله ورسوله ، والإصرار على قهر الشيطان ووساوسه .

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۖ لِلتَّقْوَىٰ ۚ﴾ أى أولئك الذين يلتزمون بطاعة الله ورسوله ، ويعظمانهما بقلوبهم وجوارحهم ، هم الذين ثبتوا على التقوى بعد أن ابتلاهم الله تعالى .

إن توقير الله ورسوله خلق قولى وعملى يصدر من تقوى القلوب يأتيها الإنسان رغبة في الأمل ، وخوفا من الألم ، وخضوعا للعبودية التى رضى بها ، وعاش لها .

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٣٤٠ .

والمسلم الذى رضى بالله ربا ، وبمحمد ﷺ رسولا عليه أن ينزل ما جاءه منهما منزلته الواجبة ، فحكم الله هو الحكم الذى يجب أن يسود حياة المسلمين ، وشخصية رسول الله هى المثال ، وهى القدوة التى لا تساويها ، أو تقرب منها شخصية أخرى على الزمن كله ، وقد قدم رسول الله ﷺ دين الله تعالى الذى ندين الله به . يقول الله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾^(١) ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾^(٢) .

﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ إن هؤلاء المؤمنون بعد أن ثبتوا على الطاعة ، وظهرت تقواهم في النوايا والأعمال لهم عند الله أجر عظيم ، وثواب كبير ، فسوف يستر عيوبهم ، ويمحو ذنوبهم ، ويثيبهم بالفردوس الأعلى ويتجلى عليهم برؤيته سبحانه وتعالى .

- ٣ -

معنى الآيات

تتأدى الآيات المؤمنين ، وتأمرهم بتوقير رسول الله ﷺ ، وتنهاهم أن يقدموا قولا أوامرا على قول الله ورسوله ، وتتأديهم بعدم مناداته ﷺ باسمه المجرد كما ينادى بعضهم بعضا حتى لا تبطل أعمالهم ، وتعرفهم أن التأدب مع رسول الله ﷺ دليل على الصلاح والتقوى .

(١) سورة النساء ، الآية ٨٠ .

(٢) سورة الحشر ، الآية ٧ .

(٧٥٦)

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

رعاية الآداب العامة بين المؤمنين

ترك رسول الله ﷺ لأمته تراثا كبيرا من الخلق الكريم في كافة جوانب الحياة وعلى المسلمين أن ينهلوا من أخلاق رسول الله ﷺ لأنفسهم ، ولحياتهم كلها .
ويجب على المسلمين الاقتداء برسول الله ﷺ ، فقد جعله الله صورة بشرية طبقت وحى الله ، وصيرته مثالا متحركا في الأعمال والسلوك فمحمد ﷺ إنسان من البشر يجمع خصائص الإنسان وطبيعته ، أوحى الله إليه فجلى روحه وارتقى ببشريته إلى مراد الله منها ، ولذلك صدقت عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله ، إذ قالت : كان خلقه القرآن^(١) .

لقد كان رسول الله هينا ، لينا ، سهلا ، بعيدا عن القهر والعنف مائلا إلى الصلاح ، والخير ، والمصلحة ، وصيره مثالا وقدوة للمؤمنين . يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾^(٢) .

وجاءت الآيات تعلم المسلمين الأدب العملى مع رسول الله ، فطلبت من الأعراب ، ومن غيرهم أن لا يرفعوا أصواتهم على صوت رسول الله ، ولا ينادونه باسمه المجرد ، وانما ينادونه بالنبوة والرسالة، وبهدوء وأدب يليق به ﷺ.

(١) مسند أحمد ط . الرسالة ج ١ ص ٤٨ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٢١ .

(٧٥٧)

وبعد انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى صار من الضروري ملازمة هذا الأدب مع الوحي الذي تركه الرسول في الأمة ، والأخذ به ، وتقديم أحكامه على غيره من الأحكام ... والتأدب التام حين سماعه ، وتعلمه ، وتفهيمة .
إن المسلمين عليهم أن يملأوا حياتهم بالطاعة ، وحسن الخلق كما تعلموه من رسول الله ﷺ ليضيعوا أعمالهم ، وأخلاقهم ، وأحوالهم بصبغة دين الله ، وما أحسنها من صيغة ... والله خير الشاهدين .

الركيزة الثانية

شواهد التقوى بين المسلمين

أدت المخترعات الحديث إلى سعة التواصل بين الناس ، حتى صار الكون كله مثل قرية صغيرة ، يظهر كل شئ فيها ، ويتأثر الجميع بأحداثها وحوادثها ... وتحاول كل أمة ، وكل جماعة أن تكون لذاتها شخصية خاصة تتميز بها ، وتسود غيرها ، وتعمل على إقناع الآخرين بها .

والأمة الإسلامية هي خير الأمم التي خلقها الله تعالى ، ورسالتها نزلت للعالم كله ، وهذه الأمة تتميز بما يلي :

(١) هي الأمة الوحيدة التي بقي رصيدها المنزل محفوظا كما نزل ليحكم مسيرتها ، وحركتها إلى الله تعالى .

(٢) هي الأمة الوحيدة التي صنعت تجربة بشرية رائعة حفظ التاريخ ملامحها وأخبارها .

(٣) هي الأمة الوحيدة التي تؤمن بدستور الله الذي حدد لها أركان العقيدة ، ومبادئ الشريعة ، ومكارم الأخلاق ، ولم يترك مجالا للعقل البشري أن يخترع عقيدة ، أو يضع أحكاما ، أو يرسم أخلاقا بعد أن ظهر فساد ما وضعه العقل قبل الإسلام وبعده .

ولذلك :

دعا الإسلام إلى ضرورة تميز المجتمع الإسلامي بما ميزه الله به ، ليعلو الإيمان فوق هاماته ، ويجعل الشريعة ونظمها سمة حياته ، ويحافظ بأخلاق الإسلام على حقوق أفراده .

إن التطبيق الصحيح للإسلام سيزيل كثيرا من الغيش الذي أقامه خصوم الإسلام في الحياة الإسلامية ، وسترى الدنيا كلها الإسلام في روعته ، وعظمته ، وجلاله .

التأديب في نداء النبي ﷺ

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

وردت أسباب عدة في نزول هذه الآيات ... أهمها :

(١) عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : اجتمع ناس من العرب فقالوا : انطلقوا بنا إلى

هذا الرجل ، يعنون محمدا ، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك

ملكا نعش بجناحه ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا .

فجاءوا إلى حجرة النبي ﷺ وجعلوا ينادونه ، وهو في حجرته : يا محمد يا

محمد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

فأخذ رسول الله ﷺ بأذنى فمدها ، وجعل يقول : لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد . لقد صدق الله قولك يا زيد^(١) .

(٢) وقال قتادة : نزلت في وفد بنى تميم ، وكانوا سبعين رجلا منهم الزيرقان

بن بدر ، وعطار بن حاجب ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم ، جاءوا إلى النبي ﷺ للمفاخرة ، فنادوا على الباب : اخرج إلينا يا محمد ، فإن مدحنا لزين ، وإن ذمنا لشين ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ وهو يقول : إنما ذلكم الله الذي مدحه زين ، وذمه شين .

فقالوا : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا ، وخطيبنا ، نشاعرك ، ونفاخرك ، فقال رسول الله : ما بالشعر بعثت ، ولا بالفخار أمرت ، ولكن هاتوا ، فقام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه .

فقال ﷺ لثابت بن قيس بن شماس ، وكان خطيب النبي ﷺ .

قم فأجبه فأجابه ، وقام الزيرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا .: منا الملوك وفينا تنصب البيع

إلى أن قال :

فلا ترانا إلى حى يفاخرهم .: إلا استفادوا فكانوا الرأس يقطع

فمن يفاخرنا فى ذاك نعرفه .: فيرجع القوم والأخبار تستمع

فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت أجبه فقال :

إن الذوائب من فخر واخوتهم .: قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريره .: تقوى الإله وكل الخير يصطنع

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم .: أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعا

سجية تلك منهم غير محدثة .: إن الخلائق فاعلم شرها البدع

(١) المعجم الكبير للطبرانى ج ٥ ص ٢١٠ .

(٧٦٠)

فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا .

ثم دنا من رسول الله ﷺ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله فقال رسول الله ﷺ : ما يضرك ما كان من قبل هذا ، ثم أجازهم فأحسن جوائزهم^(١) .

(٣) وقال ابن عباس : بعث رسول الله ﷺ سرية إلى بني العنبر ، وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزاري ، فلما علموا أنه توجه نحوهم ، هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة وقدم بهم على رسول الله ﷺ ، فجاءه بعد ذلك رجالهم ، يفدون الذراري ، فقدموا وقت الظهيرة ، ووافقوا رسول الله ﷺ قائما في أهله ، فلما رأته الذراري أجهشوا إلى آبائهم ، يبكون وكان لكل امرأة من نساء رسول الله ﷺ حجرة فعجلوا قبل أن يخرج إليهم رسول الله ﷺ فجعلوا ينادون : يا محمد اخرج إلينا . حتى أيقظوه من نومه فخرج إليهم . فقالوا : يا محمد فادنا عيالنا .

فنزل جبريل عليه السلام فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تجعل بينك وبينهم رجلا . فقال لهم رسول الله ﷺ : أترضون أن يكون بيني وبينكم سبرة بن عمرو وهو على دينكم ؟ قالوا : نعم .

قال سبرة : أنا لا أحكم إلا وعمي شاهد ، وهو الأعور بن بشامة ، فرضوا به .

(١) تفسير المراغي ج ٢٦ ص ١٢٥ .

(٧٦١)

فقال الأعور : أرى أن تقادي نصفهم وتعتق نصفهم .
فقال رسول الله ﷺ : قد رضيت . ففادى نصفهم ، وأعتق نصفهم فأنزل
الله عز وجل الآية^(١) .

- ٢ -

صلة الآيتين بما قبلها

لما نهت الآيات السابقة المؤمنين أن يقدموا أمرا على أمر الله ورسوله ولا
يرفعوا أصواتهم فوق صوت رسول الله ﷺ جاءت هذه الآيات لبيان الأدب في
مناداة رسول الله ﷺ ، وعدم مناداته باسمه المجرد بصوت عال من وراء
الحجرات .

- ٣ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان الأدب مع النبي ﷺ حين النداء عليه ، وتبين الطريقة المثلى
للتعامل مع رسول الله ﷺ .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

أى إن الذين ينادونك بصوت جهير ، وباسمك المجرد من خلف حجرات أمهات
المؤمنين أكثرهم جاهل بما يجب لك من أدب ، قد غلبتهم البداوة ، وعدم اللياقة
في النداء .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾

هؤلاء الأعراب صبروا ، وانتظروا خروجك إليهم ، ولم ينادوك وأنت بعيد عنهم
لكان ذلك خيرا لهم .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٢٢٠ .

(٧٦٢)

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى إن الله ذو مغفرة ، وعفو عمن ناداك من وراء الحجاب وهو لا يعلم خطأ ذلك .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الذين نادوا رسول الله من وراء الحجرات أكثرهم جاهل لا يعرف أدب مخاطبة رسول الله ﷺ ، ولو أنهم صبروا ولم ينادوك ، وانتظروك حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم ، والله غفور عمن ناداك من بعيد لأنه لا يعرف حكم ذلك ، والله رحيم بعباده أجمعين .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

ضرورة العلم قبل العمل

الإنسان أخلاق وآداب ، وقد شرع الله التعلم ، وجعله طريقا هاديا للحق وكلف الكبار والأولياء بتعليم الصغار والضعفاء ، وتدريب الأعراب الأدب اللائق ، والسلوك الجميل .

إن الإسلام يهيئ النفس لمعاملة الغير بالأنس والأمان ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾^(١) تحية من عند الله مباركة طيبة ، وكان رسول الله ﷺ يحسن استقبال الوفد ووداعه ، وكان ﷺ يوصي الدعاة وحاملى رسائله بحسن الخلق مع الناس ، ولذلك حسن أن يكون التعليم قبل العمل ليقوم العمل على وجهه الصحيح ، ويؤدى إلى غايته المقصودة .

(١) سورة النور ، الآية ٢٧ .

(٧٦٣)

ولو تعلم الأعراب أداب المدنية ما نادوا رسول الله كما فعلوا ، ولصبروا
فى المسجد حتى يخرج الرسول إليهم ، ولما كان هذا العتاب لهم .
إن مجتمع المسلمين يجب أن يسود فيه الأدب داخل الأسرة بين الأزواج
ومع الأبناء ، ومع الأقارب فى حدود شرع الله ، ومع كل الناس فى إطار قيم
الإسلام وأوامر الله تعالى .

ضرورة التثبت من الأخبار

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا
بِجَهْلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦١﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ
يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي
قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٦٢﴾
فَضَلَّٰ مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ ٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

نزلت الآيات فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط حين بعثه رسول الله ﷺ
إلى بني المصطلق ، وكان بينه وبينهم عداوة فى الجاهلية .
فلما سمع به القوم تلقوه تعظيما لأمر رسول الله ﷺ فحدثه الشيطان أنهم
يريدون قتله ، فهابهم ، فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ .
وقال : إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم ، وأرادوا قتلي .
فغضب رسول الله ﷺ وهم أن يغزوهم فبلغ القوم رجوع الوليد .

(٧٦٤)

فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نلتقاه ونكرمه ، ونؤدي له ما قبلناه من حق الله ، فبدا له الرجوع ، فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاءه منك لغضب غضبته علينا ، وانا نعوذ بالله من غضب الله ، وغضب رسوله .

فاتهمهم رسول الله ﷺ وبعث خالد بن الوليد رضي الله عنه خفية في عسكر ، وأمره أن يخفي عليهم قدومه وقال له : انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم ، فخذ منهم زكاة أموالهم وان لم تر ذلك ، فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار .
ففعل ذلك خالد ، فوافاهم فسمع منهم أذان المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ، ولم ير منهم إلا الطاعة والخير ، فانصرف إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر فأنزل الله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ ﴾ يعني الوليد بن عقبة^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة الأدب في مناداة النبي ﷺ جاءت هذه الآيات لبيان ضرورة التثبت من الخبر وعدم الاعتماد على قول الفاسق إلا بعد التأكد من صدقه حتى لا يؤدي تصديق الكاذب إلى فساد بين الناس .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات ضرورة التثبت في نقل الخبر ، وأهمية التحري والدقة عند سماع الأخبار ، والتدقيق في كافة القضايا حتى لا يرتكب المسلمون الوقوع في الخطأ معها .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٢٢٢ .

(٧٦٥)

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ هذا نداء للمؤمنين ليحذروا قبول الخبر بلا تثبت ، ولا يعتمدوا على قول الفاسق إلا بعد التحرى والتدقيق ، والتوقف عند قبول الخبر إلا بعد بيان الأمر ، وانكشاف الحقيقة . وقد سمت الآية صاحب الأنباء المنقولة بالفاسق مع أنه قد يكون صادقا ليحذر المسلمون من تقبل أى خبر إلا بعد التثبت ، فما أفسد الأخبار إلا روايتها وليمحص المستمعون في ناقل الخبر ، ولا يصدقوه إلا بعد العلم بأنه من الثقات الصالحين .

﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ﴾ حتى لا تخطئوا في حق أناس لا تعرفونهم وأنتم جاهلون حقيقة الخبر .
﴿فَتُصَبِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ فتصيرون نادمين لإصابة أبرياء بلا سبب .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أى واعلموا أن معكم رسول الله ﷺ يبلغكم الوحي ، ويرشدكم إلى الحق ، والأولى بكم أيها المؤمنون أن تطيعوه ، وتهتدوا بهديه ، وأن تخبروه الخبر الموثق بالبرهان والدليل .

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أى لو سارع رسول الله ﷺ إلى تصديقكم ، وقبول أخباركم بلا تثبت لوقعتم في عنت واثم ، ولا نقلب سعيكم إلى سوء ، ولأصبتم أبرياء وأنتم لا تشعرون ، والأولى بكم أن تتثبتوا من صدق أى خبر يصل إليكم .

﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى إعلموا أن

الله نهاكم عن اتباع الإشاعات ، وأمركم بالتثبت من أى خبر ونبا لأن فيكم رسول الله ﷺ ، والوحى ينزل عليكم ، والرسول يدعوكم فتمسكوا بما يأمركم به وبما يطلبه منكم ، واجعلوا الإيمان يتجلى في أقوالكم ، وأعمالكم .

والآية توضح قضية الرسالة ، وهى الدعوة إلى الإيمان ، وتقديم البراهين التى تحسن الإيمان ، وتظهر مزاياه ، وتزرعه في القلوب والعقول ، وتحبب الناس فيه .

﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ أى وبين لكم ما في الكفر

والفسوق والعصيان من سوء جعلكم تكرهونها .

والكفر إنكار ما لله من حقوق ، والفسوق هو الكذب والإفك على الله

تعالى ، والعصيان هو مخالفة أمر الله بالأفعال والجوارح .

وقد تضمنت الآية بيان أن الله حبيب لعباده أموراً ثلاثة ، وكرههم في أمور ثلاثة مقابلة لأن الإيمان الكامل هو ما اجتمع فيه ثلاثة أمور هى : تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان .

فقوله : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ ﴾ الكفر في مقابلة التصديق بالجنان .

وجعل "الفسوق" وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان ، والإقرار بشهادة

الحق والصدق وهى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وجعل "العصيان" في مقابلة العمل بالأركان .

وبذلك حبيب الله المؤمنين التصديق اليقيني ، والإقرار بالشهادة ، والعمل

بالجوارح ، وكرههم في الكفر والفسوق والعصيان ففازوا بالخير ، ونجوا من

الجحود ، وأطاعوا رسول الله ﷺ .

(٧٦٧)

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشْدُونَ ﴾ أى إن المؤمنين هم المهتدون بهدى الله
المتمسكون بالحق والرشاد .

﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أى هذا العطاء الذى أمدكم الله به ، وحبكم
فيه ، وكرهه إليكم بسببه الكفر ، والفسوق ، والعصيان نعم من الله لكم وتفضل
منه سبحانه عليكم .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى إن الله عليم بكل خلقه ، حكيم في عطائه
وتكرمه ، يعلم ميل النفس وهواها فيحقق لها ما تميل إليه بدقة وحكمة .

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآيات المؤمنين بضرورة التثبت من الأخبار ، وعدم تصديق
ما يقال إلا بالبرهان ، حتى لا نضر أناسا ، ونحن لا نشعر ، وتبين الآيات أن
المسلمين هم أولى الناس باتباع أمر الله تعالى ، ففيهم رسول الله يبلغ دين الله
تعالى ، ويرشدهم إلى الصراط المستقيم ، وعليهم اتباع هديه ، والتمسك بحكمه
في كافة الحوادث ، ويتمتعوا بفضل الله وآلائه في إطار ما شرع الله لهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ضرورة التثبت قبل الحكم للقضاء

على الإشاعات

أخطر ما يفتت المجتمع ويمزقه الإشاعات، لأنها تقصد هز أركان المجتمع،

(٧٦٨)

والإساءة لثوابته ، ونشر السموم والأمراض بين ربوعه .

والهادمون للحضارات يعتمدون على الإشاعات لتشويه الحقائق ، ونشر
الفرع والهلع بين الناس .

إن الإشاعة تأخذ صورة خبر مرسل يهم الناس ، يثير مشاعرهم ،
لا يعرف مصدره ، ويتنشر انتشار سريعا بين الناس .

ولذلك أمرت الآية بضرورة التدقيق في الخبر ، والبحث عن مصدره ،
ومناقشة إمكان حدوثه ، ومعرفة الغايات المقصودة من إذاعة هذا الخبر .

لقد حاول المشركون واليهود زلزلة المجتمع الإسلامى بعد غزوة
بنى المصطلق ، وقبل غزوة الأحزاب بإشاعة الإفك عن السيدة عائشة
رضى الله عنها ليضربوا المجتمع من رأسه ، ويشككوا الناس في القيادة ليضيع
المجتمع كله ، وقد رد الله كيد هؤلاء الكاذبين ، وعلم المسلمين طريق مواجهة
الأكاذيب على نحو ما جاء في سورة "النور" عند آيات حادث الإفك .

واليوم تكثر الإشاعات حول النظام الإسلامى الحديث لتحقيق نفس
الغايات القديمة ودائما نسمع عن أخبار ، ويظهر كذبها إلا أنها تبقى في نفوس
الضعفاء شيئا .

يجب أن يهتم المجتمع بحماية نفسه من ضربات المارقين ، وإشاعات
الأفاكين ، وهجوم الضالين المكذبين .

إن المجتمع الإسلامى اليوم مهدد من داخله فقد تمكن أعداؤه من إيجاد
من يناصرهم من داخل المجتمع ، ولذا أرى وجوب تتبع الإشاعات بمنهج
متكامل يفند الإشاعة ، ويعرف بأصحابها ، ويبين الحقيقة للمجتمع كله .

الركيزة الثانية

ضرورة تقوية دعائم الخير في المجتمع

المجتمع الإسلامي مجتمع متكامل ، فيه الخاصة والعامة ، وفيه الجمهور والعلماء ، ولذلك وجب تقوية هذا المجتمع بتنشيط أولى الرؤى فيه ، وتمكين المخلصين من قنوات التوجيه ، وأماكن السلطة والنظام .

لقد كان رسول الله ﷺ يحبيبهم في الإيمان ، ويكرههم في الكفر ، والفسوق والعصيان ، فرشدوا بذلك ، وأقاموا خير أمة للناس .

إن المجتمع المعاصر يحتاج إلى قيادات من المخلصين تقضى على الإشاعات والفساد ، وتنتشر العدل والحق والصواب .

وجوب توحيد المسلمين

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيتين بما قبلهما

لما بينت الآيات السابقة فضل الله على المسلمين ، ودعوتهم إلى التثبيت في الأخبار ، وضرورة التأكد من صحة ما يشاع جاءت هاتان الآيتان تدعوان لأدب هام ، وهو ضرورة اتحاد المسلمين ، والقيام بالصلح إذا حدث بينهم نزاع ، أو وقعت خصومه .

(٧٧٠)

- ٢ -

موضوع الآيتين

تبين الآيتان منهج اصلاح المسلمين إذا وقع بينهم نزاع ، ومقاتلة أهل البغى والبغاة لمنعهم من الظلم ، والتصدي لهم حتى يرجعوا إلى حكم الله تعالى .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ أى إذا حدث نزاع ، ووقع خلاف بين طائفتين من المسلمين فاعملوا على فض أسباب النزاع ، وتحقيق الصلح بينهما ليعودا إلى رشدتهما ، ويمتنع الخلاف بينهما ، ويأخذ كل منهما حقه ، ويستقيما على شرع الله تعالى .

﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى إن رفضت إحدى الطائفتين الانصياع لحكم الله فهى ظالمة باغية ، ويجب على ولى أمر الناس قتال البغاة منعا لعدوانهم ، ورجاء إعادتهم إلى الحق ، وأملا في تعاونهم مع إخوانهم المسلمين ، حتى يكونوا قوة على أعداء الله تعالى .

ويتم الصلح بين الطائفتين بمنع الظلم ، واجراء الحكم العادل بينهما حتى لا يطغى ظالم بقوته ، أو يضيع حق بسبب ضعف صاحبه ، وبإقامة حكومة للصلح يظهر النافع من الضار ، ويقف كل طرف على حقه ، وتشير الآية إلى ضرورة رجوع الطائفتين عن هواهم ، والتزامهم بحكم الله تعالى ، ووجوب قتال الطائفة الظالمة التى لا تريد الصلح ، وتلجأ إلى قوتها .

والطائفة هي الجماعة الكثيفة ، وعددها يكون أقل من الفرقة لقوله تعالى :
﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾^(١) .

﴿ فَإِنِ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ﴾ أى فإن رجعت
الطائفة الظالمة عن بغيتها وعدوانها فاحكموا بينهم بالإنصاف والعدل ، ليأخذ
كل ذى حق حقه ، ويهدأ خاطره ، وينتهى غضبه ، ويسلم شئونه للقضاء العادل
النزيه .

وفى الآية إرشاد لضرورة إيجاد مجتمع إسلامى منظم ، فيه قوة رادعة
تفصل بين الخصوم ، وقضاء عادل يحكم بالقسط بين الناس ، وبدون هذا
يتحول الأمر إلى فوضى .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أى اعدلوا أيها المسلمون في كل ما
تفعلونه ، أو تتركونه لأن العدل أساس الملك ، والله يأمر به ، ويحب العادلين
الأمناء ، والمسلم ينصر أخاه بالحق والانصاف ، والقسطاس المستقيم بلا جور
على أحد ، أو إلحاق ضرر بأحد ...

يقول النبى ﷺ : "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما .

فقلنا : يا رسول الله هذا ننصره مظلوما فكيف تنصره ظالما ؟

قال ﷺ : نمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه^(٢) .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أى إن المؤمنين يشتركون في جوانب واحدة

عديدة ، فهم من أصل واحد هو آدم ﷺ ... وهم على دين واحد هو الإسلام
... وهم مكلفون بعمل واحد وهو عبادة الله وحده ... وهم مأمورون باليقين ،

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٢ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب الفتن . باب ج ٤ ص ٥٢٣ .

وتسليم الأمر كله لله ، وغايتهم وأمانهم أن ينتصروا بالإسلام في الدنيا ، ويسعدوا به في الآخرة .

يقول النبي ﷺ : "المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يعيبه ، ولا يخذله ولا يتناول عليه في البنیان ، فيستر عليه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له غرفة ، ولا يشتري لبنیه الفاكهة فيخرجوا بها إلى صبيان جاره ، ولا يطعموهم منها" (١) .

ويقول النبي ﷺ : "إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب يقول الملك : آمين ولك بمثله" (٢) .

﴿ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ أى جوانب الوحدة موجودة فيكم فأنتم إخوة ومقتضى الإخوة أن تتحابوا ، وتتوادوا ، ويسعى كل مسلم في مصلحة أخيه والواجب إزالة أسباب الخلاف ليسهل الإصلاح بين المتخاصمين .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى وخافوا الله وراقبوه في كل أعمالكم وأقوالكم ، والتزموا بكل ما أمركم به رجاء أن يغفر لكم ، ويعينكم ، ويهديكم سبيل الرشاد .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات ضرورة انتشار السلام في المجتمع الإسلامى فإن تشاجرت طائفتان من المسلمين واقتتلتا فواجب المسلمين الإصلاح بينهما ، وقتال الطائفة الظالمة التى ترفض الصلح حتى ترجع إلى حكم الله ، فإن رجعت فاصلحوا

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب الحدود . باب ما جاء فى الستر على المسلم ج ٤ ص ٣٤ .

(٢) مسند البزار . مسند أبى ذر الغفارى . مسند أبى حمزة أنس بن مالك ج ١٣ ص ٦١ .

(٧٧٣)

بينهما بالحق ، والعدل ، والقسط ، ... ففي ذلك قوة الجميع ، والله يحب العادلين .

إن المسلمين جميعا إخوة ، وقضيتهم واحدة ، ويجب أن يعيشوا أمة واحدة في إطار منهج الله تعالى .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هي :

المحافظة على وحدة المسلمين

جاء الإسلام والبشر أشتات متفرقون ، لا يجدون جامعة تجمعهم وتوحد قلوبهم ، فوحدهم بدين الله تعالى ، وجمعهم بشريعته ، وأوجد منهم خير أمة للناس تسير في طريقها الواحد الذي يوصلها إلى الله تعالى ، وسارت الأيام والأمة واحدة إلى أن ظهر الأعداء مرة أخرى ، فقسموا الأوطان إلى أقاليم عدة وقسموا الوطن إلى شبع وأحزاب ، وعملوا على تصوير الإسلام بصورة مشوهة ، وأخرجوا من بين المسلمين جماعات منافقة تعارضه وتهدمه تحت مسميات ظاهرها الخير ، وباطنها الضرر والأذى واختاروا لأنفسهم مسميات براقية مثل التنوير ، والعلمانية ، والحرية والعولمة ... وتحت هذه المسميات وضعوا السموم والمرض ، وساروا على خطى المخربين حين سمو خرابهم استعمارا وتقدما وسموا التفكير تبشيرا .

يجب المحافظة على وحدة المسلمين لتعود الأمة إلى مجدها التليد ، ولا تتم هذه الوحدة إلا بعدة عوامل :

- (١) شعور كل مسلم بأخوته لغيره من المسلمين ، وطاعة الله فيهم بالمحافظة على حقوقهم ، والتعاون معهم .
- (٢) خضوع المجتمع لحكم الله تعالى .
- (٣) التغلب على قضايا ومشكلات المجتمع بتطبيق شرع الله تعالى .
- (٤) نشر القيم الإسلامية بين الناس جميعا .

ضرورة الأخلاق الحسنة

يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۚ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۚ بِئْسَ الْآسَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَنُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ۝ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ١٠ ۝ ١١ ۝ ١٢ ۝ ١٣ ۝ ١٤ ۝ ١٥ ۝ ١٦ ۝ ١٧ ۝ ١٨ ۝ ١٩ ۝ ٢٠ ۝ ٢١ ۝ ٢٢ ۝ ٢٣ ۝ ٢٤ ۝ ٢٥ ۝ ٢٦ ۝ ٢٧ ۝ ٢٨ ۝ ٢٩ ۝ ٣٠ ۝ ٣١ ۝ ٣٢ ۝ ٣٣ ۝ ٣٤ ۝ ٣٥ ۝ ٣٦ ۝ ٣٧ ۝ ٣٨ ۝ ٣٩ ۝ ٤٠ ۝ ٤١ ۝ ٤٢ ۝ ٤٣ ۝ ٤٤ ۝ ٤٥ ۝ ٤٦ ۝ ٤٧ ۝ ٤٨ ۝ ٤٩ ۝ ٥٠ ۝ ٥١ ۝ ٥٢ ۝ ٥٣ ۝ ٥٤ ۝ ٥٥ ۝ ٥٦ ۝ ٥٧ ۝ ٥٨ ۝ ٥٩ ۝ ٦٠ ۝ ٦١ ۝ ٦٢ ۝ ٦٣ ۝ ٦٤ ۝ ٦٥ ۝ ٦٦ ۝ ٦٧ ۝ ٦٨ ۝ ٦٩ ۝ ٧٠ ۝ ٧١ ۝ ٧٢ ۝ ٧٣ ۝ ٧٤ ۝ ٧٥ ۝ ٧٦ ۝ ٧٧ ۝ ٧٨ ۝ ٧٩ ۝ ٨٠ ۝ ٨١ ۝ ٨٢ ۝ ٨٣ ۝ ٨٤ ۝ ٨٥ ۝ ٨٦ ۝ ٨٧ ۝ ٨٨ ۝ ٨٩ ۝ ٩٠ ۝ ٩١ ۝ ٩٢ ۝ ٩٣ ۝ ٩٤ ۝ ٩٥ ۝ ٩٦ ۝ ٩٧ ۝ ٩٨ ۝ ٩٩ ۝ ١٠٠ ۝ ١٠١ ۝ ١٠٢ ۝ ١٠٣ ۝ ١٠٤ ۝ ١٠٥ ۝ ١٠٦ ۝ ١٠٧ ۝ ١٠٨ ۝ ١٠٩ ۝ ١١٠ ۝ ١١١ ۝ ١١٢ ۝ ١١٣ ۝ ١١٤ ۝ ١١٥ ۝ ١١٦ ۝ ١١٧ ۝ ١١٨ ۝ ١١٩ ۝ ١٢٠ ۝ ١٢١ ۝ ١٢٢ ۝ ١٢٣ ۝ ١٢٤ ۝ ١٢٥ ۝ ١٢٦ ۝ ١٢٧ ۝ ١٢٨ ۝ ١٢٩ ۝ ١٣٠ ۝ ١٣١ ۝ ١٣٢ ۝ ١٣٣ ۝ ١٣٤ ۝ ١٣٥ ۝ ١٣٦ ۝ ١٣٧ ۝ ١٣٨ ۝ ١٣٩ ۝ ١٤٠ ۝ ١٤١ ۝ ١٤٢ ۝ ١٤٣ ۝ ١٤٤ ۝ ١٤٥ ۝ ١٤٦ ۝ ١٤٧ ۝ ١٤٨ ۝ ١٤٩ ۝ ١٥٠ ۝ ١٥١ ۝ ١٥٢ ۝ ١٥٣ ۝ ١٥٤ ۝ ١٥٥ ۝ ١٥٦ ۝ ١٥٧ ۝ ١٥٨ ۝ ١٥٩ ۝ ١٦٠ ۝ ١٦١ ۝ ١٦٢ ۝ ١٦٣ ۝ ١٦٤ ۝ ١٦٥ ۝ ١٦٦ ۝ ١٦٧ ۝ ١٦٨ ۝ ١٦٩ ۝ ١٧٠ ۝ ١٧١ ۝ ١٧٢ ۝ ١٧٣ ۝ ١٧٤ ۝ ١٧٥ ۝ ١٧٦ ۝ ١٧٧ ۝ ١٧٨ ۝ ١٧٩ ۝ ١٨٠ ۝ ١٨١ ۝ ١٨٢ ۝ ١٨٣ ۝ ١٨٤ ۝ ١٨٥ ۝ ١٨٦ ۝ ١٨٧ ۝ ١٨٨ ۝ ١٨٩ ۝ ١٩٠ ۝ ١٩١ ۝ ١٩٢ ۝ ١٩٣ ۝ ١٩٤ ۝ ١٩٥ ۝ ١٩٦ ۝ ١٩٧ ۝ ١٩٨ ۝ ١٩٩ ۝ ٢٠٠ ۝ ٢٠١ ۝ ٢٠٢ ۝ ٢٠٣ ۝ ٢٠٤ ۝ ٢٠٥ ۝ ٢٠٦ ۝ ٢٠٧ ۝ ٢٠٨ ۝ ٢٠٩ ۝ ٢١٠ ۝ ٢١١ ۝ ٢١٢ ۝ ٢١٣ ۝ ٢١٤ ۝ ٢١٥ ۝ ٢١٦ ۝ ٢١٧ ۝ ٢١٨ ۝ ٢١٩ ۝ ٢٢٠ ۝ ٢٢١ ۝ ٢٢٢ ۝ ٢٢٣ ۝ ٢٢٤ ۝ ٢٢٥ ۝ ٢٢٦ ۝ ٢٢٧ ۝ ٢٢٨ ۝ ٢٢٩ ۝ ٢٣٠ ۝ ٢٣١ ۝ ٢٣٢ ۝ ٢٣٣ ۝ ٢٣٤ ۝ ٢٣٥ ۝ ٢٣٦ ۝ ٢٣٧ ۝ ٢٣٨ ۝ ٢٣٩ ۝ ٢٤٠ ۝ ٢٤١ ۝ ٢٤٢ ۝ ٢٤٣ ۝ ٢٤٤ ۝ ٢٤٥ ۝ ٢٤٦ ۝ ٢٤٧ ۝ ٢٤٨ ۝ ٢٤٩ ۝ ٢٥٠ ۝ ٢٥١ ۝ ٢٥٢ ۝ ٢٥٣ ۝ ٢٥٤ ۝ ٢٥٥ ۝ ٢٥٦ ۝ ٢٥٧ ۝ ٢٥٨ ۝ ٢٥٩ ۝ ٢٦٠ ۝ ٢٦١ ۝ ٢٦٢ ۝ ٢٦٣ ۝ ٢٦٤ ۝ ٢٦٥ ۝ ٢٦٦ ۝ ٢٦٧ ۝ ٢٦٨ ۝ ٢٦٩ ۝ ٢٧٠ ۝ ٢٧١ ۝ ٢٧٢ ۝ ٢٧٣ ۝ ٢٧٤ ۝ ٢٧٥ ۝ ٢٧٦ ۝ ٢٧٧ ۝ ٢٧٨ ۝ ٢٧٩ ۝ ٢٨٠ ۝ ٢٨١ ۝ ٢٨٢ ۝ ٢٨٣ ۝ ٢٨٤ ۝ ٢٨٥ ۝ ٢٨٦ ۝ ٢٨٧ ۝ ٢٨٨ ۝ ٢٨٩ ۝ ٢٩٠ ۝ ٢٩١ ۝ ٢٩٢ ۝ ٢٩٣ ۝ ٢٩٤ ۝ ٢٩٥ ۝ ٢٩٦ ۝ ٢٩٧ ۝ ٢٩٨ ۝ ٢٩٩ ۝ ٣٠٠ ۝ ٣٠١ ۝ ٣٠٢ ۝ ٣٠٣ ۝ ٣٠٤ ۝ ٣٠٥ ۝ ٣٠٦ ۝ ٣٠٧ ۝ ٣٠٨ ۝ ٣٠٩ ۝ ٣١٠ ۝ ٣١١ ۝ ٣١٢ ۝ ٣١٣ ۝ ٣١٤ ۝ ٣١٥ ۝ ٣١٦ ۝ ٣١٧ ۝ ٣١٨ ۝ ٣١٩ ۝ ٣٢٠ ۝ ٣٢١ ۝ ٣٢٢ ۝ ٣٢٣ ۝ ٣٢٤ ۝ ٣٢٥ ۝ ٣٢٦ ۝ ٣٢٧ ۝ ٣٢٨ ۝ ٣٢٩ ۝ ٣٣٠ ۝ ٣٣١ ۝ ٣٣٢ ۝ ٣٣٣ ۝ ٣٣٤ ۝ ٣٣٥ ۝ ٣٣٦ ۝ ٣٣٧ ۝ ٣٣٨ ۝ ٣٣٩ ۝ ٣٤٠ ۝ ٣٤١ ۝ ٣٤٢ ۝ ٣٤٣ ۝ ٣٤٤ ۝ ٣٤٥ ۝ ٣٤٦ ۝ ٣٤٧ ۝ ٣٤٨ ۝ ٣٤٩ ۝ ٣٥٠ ۝ ٣٥١ ۝ ٣٥٢ ۝ ٣٥٣ ۝ ٣٥٤ ۝ ٣٥٥ ۝ ٣٥٦ ۝ ٣٥٧ ۝ ٣٥٨ ۝ ٣٥٩ ۝ ٣٦٠ ۝ ٣٦١ ۝ ٣٦٢ ۝ ٣٦٣ ۝ ٣٦٤ ۝ ٣٦٥ ۝ ٣٦٦ ۝ ٣٦٧ ۝ ٣٦٨ ۝ ٣٦٩ ۝ ٣٧٠ ۝ ٣٧١ ۝ ٣٧٢ ۝ ٣٧٣ ۝ ٣٧٤ ۝ ٣٧٥ ۝ ٣٧٦ ۝ ٣٧٧ ۝ ٣٧٨ ۝ ٣٧٩ ۝ ٣٨٠ ۝ ٣٨١ ۝ ٣٨٢ ۝ ٣٨٣ ۝ ٣٨٤ ۝ ٣٨٥ ۝ ٣٨٦ ۝ ٣٨٧ ۝ ٣٨٨ ۝ ٣٨٩ ۝ ٣٩٠ ۝ ٣٩١ ۝ ٣٩٢ ۝ ٣٩٣ ۝ ٣٩٤ ۝ ٣٩٥ ۝ ٣٩٦ ۝ ٣٩٧ ۝ ٣٩٨ ۝ ٣٩٩ ۝ ٤٠٠ ۝ ٤٠١ ۝ ٤٠٢ ۝ ٤٠٣ ۝ ٤٠٤ ۝ ٤٠٥ ۝ ٤٠٦ ۝ ٤٠٧ ۝ ٤٠٨ ۝ ٤٠٩ ۝ ٤١٠ ۝ ٤١١ ۝ ٤١٢ ۝ ٤١٣ ۝ ٤١٤ ۝ ٤١٥ ۝ ٤١٦ ۝ ٤١٧ ۝ ٤١٨ ۝ ٤١٩ ۝ ٤٢٠ ۝ ٤٢١ ۝ ٤٢٢ ۝ ٤٢٣ ۝ ٤٢٤ ۝ ٤٢٥ ۝ ٤٢٦ ۝ ٤٢٧ ۝ ٤٢٨ ۝ ٤٢٩ ۝ ٤٣٠ ۝ ٤٣١ ۝ ٤٣٢ ۝ ٤٣٣ ۝ ٤٣٤ ۝ ٤٣٥ ۝ ٤٣٦ ۝ ٤٣٧ ۝ ٤٣٨ ۝ ٤٣٩ ۝ ٤٤٠ ۝ ٤٤١ ۝ ٤٤٢ ۝ ٤٤٣ ۝ ٤٤٤ ۝ ٤٤٥ ۝ ٤٤٦ ۝ ٤٤٧ ۝ ٤٤٨ ۝ ٤٤٩ ۝ ٤٥٠ ۝ ٤٥١ ۝ ٤٥٢ ۝ ٤٥٣ ۝ ٤٥٤ ۝ ٤٥٥ ۝ ٤٥٦ ۝ ٤٥٧ ۝ ٤٥٨ ۝ ٤٥٩ ۝ ٤٦٠ ۝ ٤٦١ ۝ ٤٦٢ ۝ ٤٦٣ ۝ ٤٦٤ ۝ ٤٦٥ ۝ ٤٦٦ ۝ ٤٦٧ ۝ ٤٦٨ ۝ ٤٦٩ ۝ ٤٧٠ ۝ ٤٧١ ۝ ٤٧٢ ۝ ٤٧٣ ۝ ٤٧٤ ۝ ٤٧٥ ۝ ٤٧٦ ۝ ٤٧٧ ۝ ٤٧٨ ۝ ٤٧٩ ۝ ٤٨٠ ۝ ٤٨١ ۝ ٤٨٢ ۝ ٤٨٣ ۝ ٤٨٤ ۝ ٤٨٥ ۝ ٤٨٦ ۝ ٤٨٧ ۝ ٤٨٨ ۝ ٤٨٩ ۝ ٤٩٠ ۝ ٤٩١ ۝ ٤٩٢ ۝ ٤٩٣ ۝ ٤٩٤ ۝ ٤٩٥ ۝ ٤٩٦ ۝ ٤٩٧ ۝ ٤٩٨ ۝ ٤٩٩ ۝ ٥٠٠ ۝ ٥٠١ ۝ ٥٠٢ ۝ ٥٠٣ ۝ ٥٠٤ ۝ ٥٠٥ ۝ ٥٠٦ ۝ ٥٠٧ ۝ ٥٠٨ ۝ ٥٠٩ ۝ ٥١٠ ۝ ٥١١ ۝ ٥١٢ ۝ ٥١٣ ۝ ٥١٤ ۝ ٥١٥ ۝ ٥١٦ ۝ ٥١٧ ۝ ٥١٨ ۝ ٥١٩ ۝ ٥٢٠ ۝ ٥٢١ ۝ ٥٢٢ ۝ ٥٢٣ ۝ ٥٢٤ ۝ ٥٢٥ ۝ ٥٢٦ ۝ ٥٢٧ ۝ ٥٢٨ ۝ ٥٢٩ ۝ ٥٣٠ ۝ ٥٣١ ۝ ٥٣٢ ۝ ٥٣٣ ۝ ٥٣٤ ۝ ٥٣٥ ۝ ٥٣٦ ۝ ٥٣٧ ۝ ٥٣٨ ۝ ٥٣٩ ۝ ٥٤٠ ۝ ٥٤١ ۝ ٥٤٢ ۝ ٥٤٣ ۝ ٥٤٤ ۝ ٥٤٥ ۝ ٥٤٦ ۝ ٥٤٧ ۝ ٥٤٨ ۝ ٥٤٩ ۝ ٥٥٠ ۝ ٥٥١ ۝ ٥٥٢ ۝ ٥٥٣ ۝ ٥٥٤ ۝ ٥٥٥ ۝ ٥٥٦ ۝ ٥٥٧ ۝ ٥٥٨ ۝ ٥٥٩ ۝ ٥٦٠ ۝ ٥٦١ ۝ ٥٦٢ ۝ ٥٦٣ ۝ ٥٦٤ ۝ ٥٦٥ ۝ ٥٦٦ ۝ ٥٦٧ ۝ ٥٦٨ ۝ ٥٦٩ ۝ ٥٧٠ ۝ ٥٧١ ۝ ٥٧٢ ۝ ٥٧٣ ۝ ٥٧٤ ۝ ٥٧٥ ۝ ٥٧٦ ۝ ٥٧٧ ۝ ٥٧٨ ۝ ٥٧٩ ۝ ٥٨٠ ۝ ٥٨١ ۝ ٥٨٢ ۝ ٥٨٣ ۝ ٥٨٤ ۝ ٥٨٥ ۝ ٥٨٦ ۝ ٥٨٧ ۝ ٥٨٨ ۝ ٥٨٩ ۝ ٥٩٠ ۝ ٥٩١ ۝ ٥٩٢ ۝ ٥٩٣ ۝ ٥٩٤ ۝ ٥٩٥ ۝ ٥٩٦ ۝ ٥٩٧ ۝ ٥٩٨ ۝ ٥٩٩ ۝ ٦٠٠ ۝ ٦٠١ ۝ ٦٠٢ ۝ ٦٠٣ ۝ ٦٠٤ ۝ ٦٠٥ ۝ ٦٠٦ ۝ ٦٠٧ ۝ ٦٠٨ ۝ ٦٠٩ ۝ ٦١٠ ۝ ٦١١ ۝ ٦١٢ ۝ ٦١٣ ۝ ٦١٤ ۝ ٦١٥ ۝ ٦١٦ ۝ ٦١٧ ۝ ٦١٨ ۝ ٦١٩ ۝ ٦٢٠ ۝ ٦٢١ ۝ ٦٢٢ ۝ ٦٢٣ ۝ ٦٢٤ ۝ ٦٢٥ ۝ ٦٢٦ ۝ ٦٢٧ ۝ ٦٢٨ ۝ ٦٢٩ ۝ ٦٣٠ ۝ ٦٣١ ۝ ٦٣٢ ۝ ٦٣٣ ۝ ٦٣٤ ۝ ٦٣٥ ۝ ٦٣٦ ۝ ٦٣٧ ۝ ٦٣٨ ۝ ٦٣٩ ۝ ٦٤٠ ۝ ٦٤١ ۝ ٦٤٢ ۝ ٦٤٣ ۝ ٦٤٤ ۝ ٦٤٥ ۝ ٦٤٦ ۝ ٦٤٧ ۝ ٦٤٨ ۝ ٦٤٩ ۝ ٦٥٠ ۝ ٦٥١ ۝ ٦٥٢ ۝ ٦٥٣ ۝ ٦٥٤ ۝ ٦٥٥ ۝ ٦٥٦ ۝ ٦٥٧ ۝ ٦٥٨ ۝ ٦٥٩ ۝ ٦٦٠ ۝ ٦٦١ ۝ ٦٦٢ ۝ ٦٦٣ ۝ ٦٦٤ ۝ ٦٦٥ ۝ ٦٦٦ ۝ ٦٦٧ ۝ ٦٦٨ ۝ ٦٦٩ ۝ ٦٧٠ ۝ ٦٧١ ۝ ٦٧٢ ۝ ٦٧٣ ۝ ٦٧٤ ۝ ٦٧٥ ۝ ٦٧٦ ۝ ٦٧٧ ۝ ٦٧٨ ۝ ٦٧٩ ۝ ٦٨٠ ۝ ٦٨١ ۝ ٦٨٢ ۝ ٦٨٣ ۝ ٦٨٤ ۝ ٦٨٥ ۝ ٦٨٦ ۝ ٦٨٧ ۝ ٦٨٨ ۝ ٦٨٩ ۝ ٦٩٠ ۝ ٦٩١ ۝ ٦٩٢ ۝ ٦٩٣ ۝ ٦٩٤ ۝ ٦٩٥ ۝ ٦٩٦ ۝ ٦٩٧ ۝ ٦٩٨ ۝ ٦٩٩ ۝ ٧٠٠ ۝ ٧٠١ ۝ ٧٠٢ ۝ ٧٠٣ ۝ ٧٠٤ ۝ ٧٠٥ ۝ ٧٠٦ ۝ ٧٠٧ ۝ ٧٠٨ ۝ ٧٠٩ ۝ ٧١٠ ۝ ٧١١ ۝ ٧١٢ ۝ ٧١٣ ۝ ٧١٤ ۝ ٧١٥ ۝ ٧١٦ ۝ ٧١٧ ۝ ٧١٨ ۝ ٧١٩ ۝ ٧٢٠ ۝ ٧٢١ ۝ ٧٢٢ ۝ ٧٢٣ ۝ ٧٢٤ ۝ ٧٢٥ ۝ ٧٢٦ ۝ ٧٢٧ ۝ ٧٢٨ ۝ ٧٢٩ ۝ ٧٣٠ ۝ ٧٣١ ۝ ٧٣٢ ۝ ٧٣٣ ۝ ٧٣٤ ۝ ٧٣٥ ۝ ٧٣٦ ۝ ٧٣٧ ۝ ٧٣٨ ۝ ٧٣٩ ۝ ٧٤٠ ۝ ٧٤١ ۝ ٧٤٢ ۝ ٧٤٣ ۝ ٧٤٤ ۝ ٧٤٥ ۝ ٧٤٦ ۝ ٧٤٧ ۝ ٧٤٨ ۝ ٧٤٩ ۝ ٧٥٠ ۝ ٧٥١ ۝ ٧٥٢ ۝ ٧٥٣ ۝ ٧٥٤ ۝ ٧٥٥ ۝ ٧٥٦ ۝ ٧٥٧ ۝ ٧٥٨ ۝ ٧٥٩ ۝ ٧٦٠ ۝ ٧٦١ ۝ ٧٦٢ ۝ ٧٦٣ ۝ ٧٦٤ ۝ ٧٦٥ ۝ ٧٦٦ ۝ ٧٦٧ ۝ ٧٦٨ ۝ ٧٦٩ ۝ ٧٧٠ ۝ ٧٧١ ۝ ٧٧٢ ۝ ٧٧٣ ۝ ٧٧٤ ۝ ٧٧٥ ۝ ٧٧٦ ۝ ٧٧٧ ۝ ٧٧٨ ۝ ٧٧٩ ۝ ٧٨٠ ۝ ٧٨١ ۝ ٧٨٢ ۝ ٧٨٣ ۝ ٧٨٤ ۝ ٧٨٥ ۝ ٧٨٦ ۝ ٧٨٧ ۝ ٧٨٨ ۝ ٧٨٩ ۝ ٧٩٠ ۝ ٧٩١ ۝ ٧٩٢ ۝ ٧٩٣ ۝ ٧٩٤ ۝ ٧٩٥ ۝ ٧٩٦ ۝ ٧٩٧ ۝ ٧٩٨ ۝ ٧٩٩ ۝ ٨٠٠ ۝ ٨٠١ ۝ ٨٠٢ ۝ ٨٠٣ ۝ ٨٠٤ ۝ ٨٠٥ ۝ ٨٠٦ ۝ ٨٠٧ ۝ ٨٠٨ ۝ ٨٠٩ ۝ ٨١٠ ۝ ٨١١ ۝ ٨١٢ ۝ ٨١٣ ۝ ٨١٤ ۝ ٨١٥ ۝ ٨١٦ ۝ ٨١٧ ۝ ٨١٨ ۝ ٨١٩ ۝ ٨٢٠ ۝ ٨٢١ ۝ ٨٢٢ ۝ ٨٢٣ ۝ ٨٢٤ ۝ ٨٢٥ ۝ ٨٢٦ ۝ ٨٢٧ ۝ ٨٢٨ ۝ ٨٢٩ ۝ ٨٣٠ ۝ ٨٣١ ۝ ٨٣٢ ۝ ٨٣٣ ۝ ٨٣٤ ۝ ٨٣٥ ۝ ٨٣٦ ۝ ٨٣٧ ۝ ٨٣٨ ۝ ٨٣٩ ۝ ٨٤٠ ۝ ٨٤١ ۝ ٨٤٢ ۝ ٨٤٣ ۝ ٨٤٤ ۝ ٨٤٥ ۝ ٨٤٦ ۝ ٨٤٧ ۝ ٨٤٨ ۝ ٨٤٩ ۝ ٨٥٠ ۝ ٨٥١ ۝ ٨٥٢ ۝ ٨٥٣ ۝ ٨٥٤ ۝ ٨٥٥ ۝ ٨٥٦ ۝ ٨٥٧ ۝ ٨٥٨ ۝ ٨٥٩ ۝ ٨٦٠ ۝ ٨٦١ ۝ ٨٦٢ ۝ ٨٦٣ ۝ ٨٦٤ ۝ ٨٦٥ ۝ ٨٦٦ ۝ ٨٦٧ ۝ ٨٦٨ ۝ ٨٦٩ ۝ ٨٧٠ ۝ ٨٧١ ۝ ٨٧٢ ۝ ٨٧٣ ۝ ٨٧٤ ۝ ٨٧٥ ۝ ٨٧٦ ۝ ٨٧٧ ۝ ٨٧٨ ۝ ٨٧٩ ۝ ٨٨٠ ۝ ٨٨١ ۝ ٨٨٢ ۝ ٨٨٣ ۝ ٨٨٤ ۝ ٨٨٥ ۝ ٨٨٦ ۝ ٨٨٧ ۝ ٨٨٨ ۝ ٨٨٩ ۝ ٨٩٠ ۝ ٨٩١ ۝ ٨٩٢ ۝ ٨٩٣ ۝ ٨٩٤ ۝ ٨٩٥ ۝ ٨٩٦ ۝ ٨٩٧ ۝ ٨٩٨ ۝ ٨٩٩ ۝ ٩٠٠ ۝ ٩٠١ ۝ ٩٠٢ ۝ ٩٠٣ ۝ ٩٠٤ ۝ ٩٠٥ ۝ ٩٠٦ ۝ ٩٠٧ ۝ ٩٠٨ ۝ ٩٠٩ ۝ ٩١٠ ۝ ٩١١ ۝ ٩١٢ ۝ ٩١٣ ۝ ٩١٤ ۝ ٩١٥ ۝ ٩١٦ ۝ ٩١٧ ۝ ٩١٨ ۝ ٩١٩ ۝ ٩٢٠ ۝ ٩٢١ ۝ ٩٢٢ ۝ ٩٢٣ ۝ ٩٢٤ ۝ ٩٢٥ ۝ ٩٢٦ ۝ ٩٢٧ ۝ ٩٢٨ ۝ ٩٢٩ ۝ ٩٣٠ ۝ ٩٣١ ۝ ٩٣٢ ۝ ٩٣٣ ۝ ٩٣٤ ۝ ٩٣٥ ۝ ٩٣٦ ۝ ٩٣٧ ۝ ٩٣٨ ۝ ٩٣٩ ۝ ٩٤٠ ۝ ٩٤١ ۝ ٩٤٢ ۝ ٩٤٣ ۝ ٩٤٤ ۝ ٩٤٥ ۝ ٩٤٦ ۝ ٩٤٧ ۝ ٩٤٨ ۝ ٩٤٩ ۝ ٩٥٠ ۝ ٩٥١ ۝ ٩٥٢ ۝ ٩٥٣ ۝ ٩٥٤ ۝ ٩٥٥ ۝ ٩٥٦ ۝ ٩٥٧ ۝ ٩٥٨ ۝ ٩٥٩ ۝ ٩٦٠ ۝ ٩٦١ ۝ ٩٦٢ ۝ ٩٦٣ ۝ ٩٦٤ ۝ ٩٦٥ ۝ ٩٦٦ ۝ ٩٦٧ ۝ ٩٦٨ ۝ ٩٦٩ ۝ ٩٧٠ ۝ ٩٧١ ۝ ٩٧٢ ۝ ٩٧٣ ۝ ٩٧٤ ۝ ٩٧٥ ۝ ٩٧٦ ۝ ٩٧٧ ۝ ٩٧٨ ۝ ٩٧٩ ۝ ٩٨٠ ۝ ٩٨١ ۝ ٩٨٢ ۝ ٩٨٣ ۝ ٩٨٤ ۝ ٩٨٥ ۝ ٩٨٦ ۝ ٩٨٧ ۝ ٩٨٨ ۝ ٩٨٩ ۝ ٩٩٠ ۝ ٩٩١ ۝ ٩٩٢ ۝ ٩٩٣ ۝ ٩٩٤ ۝ ٩٩٥ ۝ ٩٩٦ ۝ ٩٩٧ ۝ ٩٩٨ ۝ ٩٩٩ ۝ ١٠٠٠ ۝ ١٠٠١ ۝ ١٠٠٢ ۝ ١٠٠٣ ۝ ١٠٠٤ ۝ ١٠٠٥ ۝ ١٠٠٦ ۝ ١٠٠٧ ۝ ١٠٠٨ ۝ ١٠٠٩ ۝ ١٠١٠ ۝ ١٠١١ ۝ ١٠١٢ ۝ ١٠١٣ ۝ ١٠١٤ ۝ ١٠١٥ ۝ ١٠١٦ ۝ ١٠١٧ ۝ ١٠١٨ ۝ ١٠١٩ ۝ ١٠٢٠ ۝ ١٠٢١ ۝ ١٠٢٢ ۝ ١٠٢٣ ۝ ١٠٢٤ ۝ ١٠٢٥ ۝ ١٠٢٦ ۝ ١٠٢٧ ۝ ١٠٢٨ ۝ ١٠٢٩ ۝ ١٠٣٠ ۝ ١٠٣١ ۝ ١٠٣٢ ۝ ١٠٣٣ ۝ ١٠٣٤ ۝ ١٠٣٥ ۝ ١٠٣٦ ۝ ١٠٣٧ ۝ ١٠٣٨ ۝ ١٠٣٩ ۝ ١٠٤٠ ۝ ١٠٤١ ۝ ١٠٤٢ ۝ ١٠٤٣ ۝ ١٠٤٤ ۝ ١٠٤٥ ۝ ١٠٤٦ ۝ ١٠٤٧ ۝ ١٠٤٨ ۝ ١٠٤٩ ۝ ١٠٥٠ ۝ ١٠٥١ ۝ ١٠٥٢ ۝ ١٠٥٣ ۝ ١٠٥٤ ۝ ١٠٥٥ ۝ ١٠٥٦ ۝ ١٠٥٧ ۝ ١٠٥٨ ۝ ١٠٥٩ ۝ ١٠٦٠ ۝ ١٠٦١ ۝ ١٠٦٢ ۝ ١٠٦٣ ۝ ١٠٦٤ ۝ ١٠٦٥ ۝ ١٠٦٦ ۝ ١٠٦٧ ۝ ١٠٦٨ ۝ ١٠٦٩ ۝ ١٠٧٠ ۝ ١٠٧١ ۝ ١٠٧٢ ۝ ١٠٧٣ ۝ ١٠٧٤ ۝ ١٠٧٥ ۝ ١٠٧٦ ۝ ١٠٧٧ ۝ ١٠٧٨ ۝ ١٠٧٩ ۝ ١٠٨٠ ۝ ١٠٨١ ۝ ١٠٨٢ ۝ ١٠٨٣ ۝ ١٠٨٤ ۝ ١٠٨٥ ۝ ١٠٨٦ ۝ ١٠٨٧ ۝ ١٠٨٨ ۝ ١٠٨٩ ۝ ١٠٩٠ ۝ ١٠٩١ ۝ ١٠٩٢ ۝ ١٠٩٣ ۝ ١٠٩٤ ۝ ١٠٩٥ ۝ ١٠٩٦ ۝ ١٠٩٧ ۝ ١٠٩٨ ۝ ١٠٩٩ ۝ ١١٠٠ ۝ ١١٠١ ۝ ١١٠٢ ۝ ١١٠٣ ۝ ١١٠٤ ۝ ١١٠٥ ۝ ١١٠٦ ۝ ١١٠٧ ۝ ١١٠٨ ۝ ١١٠٩ ۝ ١١١٠ ۝ ١١١١ ۝ ١١١٢ ۝ ١١١٣ ۝ ١١١٤ ۝ ١١١٥ ۝ ١١١٦ ۝ ١١١٧ ۝ ١١١٨ ۝ ١١١٩ ۝ ١١٢٠ ۝ ١١٢١ ۝ ١١٢٢ ۝ ١١٢٣ ۝ ١١٢٤ ۝ ١١٢٥ ۝ ١١٢٦ ۝ ١١٢٧ ۝ ١١٢٨ ۝ ١١٢٩ ۝ ١١٣٠ ۝ ١١٣١ ۝ ١١٣٢ ۝ ١١٣٣ ۝ ١١٣٤ ۝ ١١٣٥ ۝ ١١٣٦ ۝ ١١٣٧ ۝ ١١٣٨ ۝ ١١٣٩ ۝ ١١٤٠ ۝ ١١٤١ ۝ ١١٤٢ ۝ ١١٤٣ ۝ ١١٤٤ ۝ ١١٤٥ ۝ ١١٤٦ ۝ ١١٤٧ ۝ ١١٤٨ ۝ ١١٤٩ ۝ ١١٥٠ ۝ ١١٥١ ۝ ١١٥٢ ۝ ١١٥٣ ۝ ١١٥٤ ۝ ١١٥٥ ۝ ١١٥٦ ۝ ١١٥٧ ۝ ١١٥٨ ۝ ١١٥٩ ۝ ١١٦٠ ۝ ١١٦١ ۝ ١١٦٢ ۝ ١١٦٣ ۝ ١١٦٤ ۝ ١١٦٥

أوسعوا له حتى يجلس إلى جنبه فيسمع ما يقول ، فأقبل ذات يوم وقد فانتته ركعة من صلاة الفجر فلما انصرف النبي ﷺ من الصلاة ، أخذ أصحابه مجالسهم فظل كل رجل بمجلسه ، فلا يكاد يوسع أحد لأحد ، وكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلسا قام قائما كما هو ، فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله ﷺ يتخطى رقاب الناس .

ثم يقول : تفسحوا تفسحوا . فجعلوا يتفسحون له حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ وبينه وبينه رجل فقال : تفسح .

فقال له الرجل : أصبت مجلسا فاجلس . فجلس ثابت خلفه مغضبا ، فلما انجلت الظلمة غمز ثابت الرجل فقال : من هذا ؟ قال : أنا فلان .

قال له ثابت : ابن فلانة وذكر أما له كان يعير بها في الجاهلية . فنكس الرجل رأسه واستحيا فأنزل الله هذه الآية^(١) .

وقال الضحاك رحمه الله : نزلت في وفد بني تميم الذين ذكرناهم وكانوا يستهزئون بفقراء أصحاب رسول الله ﷺ مثل عمار وخباب وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولى أبي حذيفة لما رأوه من رثاثة حالهم فأنزل الله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ ﴾ أي لا يستهزئ غني بفقر ، ولا مستور عليه ذنبه بمن لم يستتر ، ولا ذو حسب بلئيم ، وأشباه ذلك مما ينتقصه به ولعله عند الله خير منه وهو قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ ﴾ أي لا يستهزئ نساء من نساء ﴿ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٢٢٥ .

روي عن أنس رضي الله عنه أنها نزلت في نساء رسول الله ﷺ عيرن أم سلمة رضي الله عنها بالقصر .

وعن ابن عباس رضي الله عنه : أنها نزلت في صفية بنت حيي رضي الله عنها قال لها بعض نساء النبي ﷺ : يهودية بنت يهوديين .

عن أنس رضي الله عنه : بلغ صفية أن حفصة رضي الله عنها قالت : بنت يهودي فبكت ، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال : ما يبكيك ؟

قالت : قالت لي حفصة إني بنت يهودي ، فقال النبي ﷺ إنك لابنة نبي وعمك لنبي ، وإنك لتحت نبي ، ففيم تقتخر عليك ... ثم قال : اتقي الله يا حفصة^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾

عن أبي جبيرة بن الضحاك وهو أخو ثابت بن الضحاك الأنصاري قال : فينا نزلت هذه الآية في بني سلمة : قدم علينا رسول الله ﷺ وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة .

فجعل رسول الله ﷺ يقول : يا فلان .

فيقولون : مه يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم فأنزل الله هذه الآية : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ .

وفي الترمذي قال : كان الرجل منا يكون له اسمان وثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أن يكره قال فنزلت هذه الآية^(٢) ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ .

(١) سنن الترمذي . كتاب أبواب المناقب . باب في فضل أزواج النبي ﷺ ج ٥ ص ٧٠٩ .

(٢) سنن أبي داود . كتاب الأدب . باب في الألقاب ج ٤ ص ٢٩٠ .

(٧٧٧)

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة وجوب الصلح بين المتخاصمين ، والمحافظة على وحدة المسلمين جاءت هذه الآيات تدعو إلى عدم السخرية بالآخر ، وعدم التنازع بالألقاب ، وعدم سوء الظن إلا بدليل ، وترك الغيبة ، والظلم ، فالجميع إخوة ، والأكرم عند الله هو التقى .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات ضرورة حسن الأخلاق في الحياة الإسلامية ، وذلك بتجنب السخرية والهمز ، واللمز ، والغيبة لأن الجميع أبناء أب واحد ، والواجب المحافظة على هذه الأخوة مهما انقسموا إلى شعوب وقبائل .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا

مِّنْهُمْ ﴾ ينادى الله المؤمنين لأنهم الأسرع إلى الاستجابة والطاعة ، وبيناهم عن أن يستهزئ بعضهم ببعض ، ويحتقروا بعضهم بعضا ، ويتنازوا بالعيوب والنقائص لأن هذ ليس خلقا للمؤمن ، ولا يصح لمؤمن أن يسخر من إخوانه .

﴿ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا ﴾ فعسى أن يكون المستهزأ به أفضل عند الله

وفى الحقيقة من المستهزئ .

يقول النبي ﷺ : "كم من أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره" (١) .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب المناقب . باب مناقب البراء بن مالك ج ٥ ص ٦٩٢ .

والواجب أن لا يستهزئ مسلم بغيره مهما كان فيه ، فقد خلق الله الناس ووزع عليهم نعمه وأفضاله ، ولا ينبغي لمسلم أن يتباهى ببعضها على غيره ، فعطاء الله وسيلة للتقوى ، وليست سببا للسخرية بالناس .

﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّمَّنَّ ﴾ أى كما نهى الله الرجال من السخرية بالرجال نهى النساء عن السخرية بغيرهن فعسى أن يكن خيرا منهن ، وجاء النهى للجماعة رجالا، ونساء لأن السخرية تكون غالبا في جماعة عن عائشة رضى الله عنها قالت : حكيت للنبي ﷺ رجلا فقال : ما يسرنى أنى حكيت رجلا وأن لى كذا وكذا .

فقلت : يا رسول الله إن صفية امرأة ، وقالت بيدها هكذا تعنى أنها قصيرة . فقال ﷺ : لقد مزحت بكلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته^(١) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"^(٢) .

وفى هذا إيماء إلى أن المرء لا يقطع بمدح أحد أو عيبه لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة ، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموما لا تصح معه تلك الأعمال ، ولعل من رأينا منه تفريطا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محمودا يغفر له بسببه ، فالأعمال أمارات ظنية ، لا أدلة قطعية .

﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أى لا يعيب أحدكم على أخيه فهو كنفسه ، ولا يصح أن يعيب المسلم نفسه ، ولا يصح أن ينشغل المسلم بعيوب غيره ، ويترك عيوب نفسه .

(١) سنن الترمذى . كتاب أبواب صفة القيامة والرقائق والورع . باب ج ٤ ص ٦٦٠ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة والآداب . باب تحريم ظلم المسلم ج ٤ ص ١٩٨٧ .

﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أى لا يتعالى بعضكم بنسبه وحسبه ، وعلمه وغناه على الناس ، ويجاهر غيره بما يسيئ إليه ، وبما فيه ذم له .

﴿ بِئْسَ الْآسَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ أى بئس العمل السيئ الذى يضع صاحبه في الفسق بعد أن كان مؤمنا ، أو يجعل المؤمن ينادى أخاه بما ليس فيه ، ويقول له : يا فاسق ، فيخرجه بذلك عن الإيمان إلى الفسق ، وهو ليس كذلك .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى ومن لا يرجع عن السخرية والهمز واللمز فقد ظلم نفسه ، ولن يفلت من عقاب الله تعالى .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ﴾ أى يا أيها المؤمنون لا تظنوا بأخواتكم من أهل الخير سوءا ، وابتعدوا عن توقع السوء منهم ، لأن بعض الظن قد يكون إثما محضا ، والأولى بالمؤمن أن يكون لبيبا يقظا ، لا يتهم أهل الصلاح ، والتقوى ، والأمانة بمجرد التخمين والتوقع ... وإنما له أن يظن بأهل السوء سوءا ، ويفحص أحوالهم وأعمالهم ، ويبقى حذرا منهم .

يقول سعيد بن المسيب رضي الله عنه : كتب إلى بعض إخواني من أصحاب رسول ﷺ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا ، وأنت تجد لها في الخير محملا ، ومن عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة في يده ، وما كافأت من عصي الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق فكن في اكتسابهم ، فإنهم زينة في الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فيهيئك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ، ولا تضع حديثك إلا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق وإن قتلك ، واعتزل عدوك ، واحذر

صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله ، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب^(١) .

﴿ إِنِّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ أى إن بعض ظن المؤمن بأخيه شرا من

الإثم ، وقد نهى الله عنه لأنه قائم على خطأ ، ووهم ، وخيال .

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ أى لا تبحثوا عن عيوب الناس بطرق غير مشروعة

ولا تتبعوا عورات الآخرين .

والتجسس طلب الأخبار الخفية ، والبحث عنها وهى مستورة ، ...

والتحسس البحث العملى عن الأمور المستورة ...

والتدابير ترك المسلم أخاه واعطاه ظهره له .

يقول النبى ﷺ : "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ،

ولا تحسسوا ، ولا تنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا

عباد الله إخوانا كما أمركم الله ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ،

ولا يحقره ، التقوى هاهنا التقوى هاهنا ، التقوى هاهنا ، وأشار إلى صدره ،

بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ،

دمه ، وعرضه ، وماله ، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ، ولا إلى صوركم ،

ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"^(٢) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر فنادى

بصوت رفيع : يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا

المسلمين ، ولا تعيروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه المسلم

تتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله^(٣) .

(١) شعب الإيمان للبيهقى . كتاب حسن الخلق . فصل فى ترك الغضب ج ١٠ ص ٥٥٩ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة والآداب . باب تحريم ظلم المسلم ج ٤ ص ١٩٨٦ .

(٣) سنن الترمذى . كتاب أبواب البر والصلة . باب ما جاء فى تعظيم المؤمن ج ٤ ص ٣٧٨ .

يقول نافع رضي الله عنه : ونظر ابن عمر رضي الله عنهما يوما إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك . والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك ^(١) .

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في عقر بيته ^(٢) وعن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "ثلاث لازمات لأمتي : الطيرة ، والحسد ، وسوء الظن .

فقال رجل : وما يذهبن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال ﷺ : إذا حسدت فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض ^(٣) .

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : حرست ليلة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالمدينة ، إذ تبين لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة ولغط .

فقال عمر رضي الله عنه : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب ، فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد أتينا ما نهى الله عنه قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقد تجسسنا ، فانصرف عمر وتركهم ^(٤) .

وقال أبو قلابة : حدث عمر بن الخطاب أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته ، فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده

(١) المرجع السابق .

(٢) سنن أبي داود . كتاب الأدب . باب في الغيبة ج ٤ ص ٢٧٠ .

(٣) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم . كتاب الرجال . حارثة بن النعمان ج ٤ ص ١٧ .

(٤) المستدرک على الصحيحين للحاكم . كتاب الحدود ج ٤ ص ٤١٩ .

إلا رجل ، فقال أبو محجن : إن هذا لا يحل لك ، قد نهاك الله عن التجسس .
فخرج عمر وتركه^(١) .

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ أى لا يذكر بعضكم بعضا بما يسئ إليه
وان كان فيه .

يقول الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله : الغيبة ، والإفك ،
والبهتان .

(١) فأما الغيبة : فهى أن تقول فى أخيك ما هو فيه وبسيئه .

(٢) وأما الإفك : فأن تقول فيه ما بلغك عنه وأنت لا تدري أهو صدق
أو كذب ؟

(٣) وأما البهتان : فأن تقول فيه سوءا ليس فيه .

ولا خلاف بين العلماء فى أن الغيبة من الكبائر ، وأن على من اغتاب
أحدا التوبة إلى الله ، أو الاستغفار لمن اغتابه ، أو الاستحلال منه .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "أتدرون ما الغيبة ؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : ذكرك أخاك بما يكره .

قلت : وإن كان فى أخى ما أقول .

قال ﷺ : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه قد بهته"^(٢) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : "قلت للنبي ﷺ حسبك من صفية كذا

وكذا .

(١) تفسير المراعى ج ٢٦ ص ١٣٩ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب البر والصلة والآداب . باب تحريم الغيبة ج ٤ ص ٢٠٠١ .

قال بعض الرواة تعني قصيرة فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته .

قالت : وحكى له إنسانا فقال ما أحب أني حكيت إنسانا وإن لي كذا وكذا^(١) .

﴿ أَتُحِبُّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾

أى يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد موته ، وهذا أمر مكروه لا تقل عنه الغيبة إثما ، وهى عبارة عن أكل لحم المغتاب ، وتشير الآية إلى خطورة الغيبة فهى تشبه من يأكل لحم أخيه بعد موته .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ أى واتقوا الله ، واطيعوه فى أمره

وتجنبوا ما نهى عنه ، وارجعوا إليه سبحانه وتعالى عسى أن يتوب عليكم ، ويغفر لكم ، ويرحمكم .

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ

لِتَعَارَفُوا ﴾ ينادى الله الناس جميعا ، ويعرفهم بأن الله خلقهم من أب واحد هو آدم عليه السلام ، ومن أم واحدة هى حواء عليها السلام ، والمعنى أنكم أيها الناس متساوون فى النسب ، فلا مجال للمفاخرة والتعالى .

وقد قدر الله كثرة الذرية ، وتفرقها إلى شعوب ، وقبائل ، وبطون ، وأفخاذ ليعرف بعضكم بعضا ، ويتعاونوا على طاعة الله ، والإخلاص فى عبادته ، والإقرار بوحدة النسب بين جميع الناس .

(١) سنن أبى داود . كتاب الأدب . باب فى الغيبة ج ٤ ص ٢٦٩ .

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ أى أن أكرمكم وأعلاكم منزلة عند الله تعالى المتقون فاجعلوا التقوى فخركم ، واعلموا أن أكثركم تقوى أقربكم عند الله تعالى .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أى إن الله عليم بكم ، خبير بعلمكم وسركم ، فاستعدوا للقاءه ، وقد علم الله عنكم كل شئ .

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة وهو على راحلته ، فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو له أهل ، ثم قال : أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ، وتعظمها بآبائها ، فالناس رجالان : رجل بر تقى كريم على الله ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى^(١) .

- ٥ -

معنى الآيات

تنادى الآيات المؤمنين حتى لا يستهزئ بعضهم ببعض عسى أن يكون المستهزأ به أفضل ، وأحسن عند الله تعالى من المستهزئ ، وتنتهى عن التنازع بالألقاب ، وعن الظن السيئ بالصالحين ، وعدم التجسس والتحسس ، وعدم الغيبة والنميمة ، وتأمّر الناس جميعا بعدم الكبر والتعالى لأنهم من أب واحد وأم واحدة ، وأكرمهم عند الله هم المتقون ، وتطلب الآية من الناس أن يتعاونوا ، ويتعارفوا ، ويكونوا عبيدا لله رب العالمين .

(١) مصنف ابن أبى شيبة . كتاب المغازى . حديث فتح مكة ج ٧ ص ٤٠٥ .

(٧٨٥)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

تحديد الآداب الإسلامية

الواجبة لتحقيق الحريات العامة للناس

تقدم الآيات جملة من الآداب الرئيسية التي تحقق الحريات للمجتمع كلها والتي تفخر بها المجتمعات الحديثة ، ونحن نذكرها بيانا لسبق الإسلام في آدابه وتشريعاته ... وهذه الآداب هي :

- (١) تقدير كرامة الإنسان ، وعدم السخرية منه ، وترك الاستهزاء به فمن حق الإنسان أن نصوته عن السخرية والعدوان عليه رجلا كان امرأة .
- (٢) ترك الهمز واللمز بالإنسان لأن ذلك يمثل عدوانا على كرامته بأمر لا دخل له فيه .
- (٣) ترك الاستعلاء بأعراض الحياة الدنيا فهي إلى زوال .
- (٤) عدم اتهام الآخر بلا دليل وتجنب الظن والتخمين .
- (٥) احترام الحياة الخاصة بالإنسان ، ولا يجوز التجسس عليه .
- (٦) عدم الحديث السيئ بالغيبة أو النميمة أو البهتان .
- (٧) الاهتمام بوحدة المجتمع وتماسكه .

إن الإسلام يعمل على إنشاء مجتمع نظيف المشاعر ، مكفول الحرمات مصون الغيبة والحضرة ، لا يؤخذ فيه أحد بظن ، ولا تتبع فيه العورات .
إنه مجتمع الإسلام الذي تصان فيه الحقوق ، وتؤدى فيها الواجبات ، ويخضع فيه الجميع لله رب العالمين .

الإيمان فضل من الله للمؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ
الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٨٦﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ
يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ
﴿٧٨٧﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨٨﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمُ
بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٨٩﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٩٠﴾ ۝

- ١ -

سبب نزول الآيات

نزلت الآيات في نفر من بني أسد بن خزيمة قدموا على رسول الله ﷺ في
سنة مجدية فأظهروا الإسلام ، ولم يكونوا مؤمنين في السر ، فأفسدوا طرق
المدينة بالقاذورات ، وأغلوا أسعارها ، وكانوا يغدون ويروحون إلى رسول الله ﷺ .
ويقولون : أتتكَ العرب أنفسهم على ظهور رواحلها ، وجئناك بالأتقال
والعيال ، والذاري ، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان ، يمنون على
رسول الله ﷺ بذلك ، ويريدون الصدقة .

ويقولون : أعطنا فأنزل الله فيهم هذه الآية .

وقيل : نزلت في الأعراب الذين ذكرهم الله في أول سورة "الفتح" وهم جهينة ، ومزينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغفار ، كانوا يقولون آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم فلما استنفروا للحديبية تخلفوا عنها فأنزل الله عز وجل : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ ﴾^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضرورة حسن الخلق في التعامل بين الناس ، ونهت عن الأخلاق السيئة مثل الاستهزاء ، والهمز ، واللمز ، وتجنب الظن ، وعدم التجسس ، والتحسس ، والتدابير جاءت هذه الآيات لبيان حقيقة الإيمان ، وبيان مقام المؤمنين عند الله تعالى .

- ٣ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الإيمان تصديق بالقلب ، وإعلان باللسان ، وعمل بالجوارح ، ولذلك لما قال الأعراب أهل البوادي : إنهم آمنوا ، ... قال لهم الله : لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ ﴾ أى قال الأعراب الرجل ، سكان البوادي المحيطة بمكة : صدقنا بقلوبنا ، وتيقنا بأن الله واحد لا شريك له ، فأمر الله

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

رسوله بقوله له : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد ﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ أى لم تصدقوا مخلصين بقلوبكم .

﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أى قل لهم يا محمد ، وعلمهم ان يعبروا عن حالتهم بدقة ، وهى أن يقولوا : استسلمنا لله ، وانقدنا لرسول الله مخافة القتل والسبى ، والتشريد في الأرض .

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى إن الإيمان يبدأ بتصديق القلب التام ، وبشهادة له اللسان ، وتؤكد الجوارح بعد ذلك ، والإسلام يكون باستسلام الظاهر ، والانقياد في العمل والسلوك كما فعل هؤلاء فقد أسلموا قولا وعملا ، ولم يستقر باطنهم على هذا اليقين .

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : " أعطى رسول الله ﷺ رهطا ، وأنا جالس ، فترك رسول الله ﷺ رجلا منهم ، هو أعجبهم إلي . فقلت : ما لك عن فلان ، والله إنني لأراه مؤمنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : أو مسلما ذكر ذلك سعد ثلاثا .

وأجابه رسول الله ﷺ بمثل ذلك ثم قال ﷺ : إنني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكبه الله في النار على وجهه^(١) .

يقول الحميدي : أعلم أن الإسلام هو الدخول في السلم ، وهو الانقياد والطاعة .

فمن الإسلام ما هو طاعة على الحقيقة باللسان ، والأبدان ، والجنان لقول الله لإبراهيم عليه السلام : ﴿ أَسْلِمْتُ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ويكون المراد به الإيمان .

(١) صحيح البخارى . كتاب الإيمان . باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة ج ١ ص ١٤ .

ومنه ما هو انقياد باللسان والجوارح وذلك قوله : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ .

فإن قلت : المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة فكيف يفهم ذلك مع هذا القول ؟

أقول : بين العام والخاص فرق ، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب ، والانقياد قد يحصل بالقلب ، وقد يحصل باللسان ، فالإسلام أعم ، والإيمان أخص ، لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ، ولا يكون أمرا غيره فالعام والخاص مختلفان في العموم والخصوص متحدان في الوجود ، فذلك المؤمن والمسلم .

﴿ وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ أى إن تطيعوا الله ورسوله ظاهرا وباطنا ، وتكونوا مؤمنين مخلصين يثيبكم الله ثوابا حسنا ، ولا ينقصكم شيئا من أعمالكم الظاهرة والباطنة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى إن الله ستار للعيوب ، وغفار للذنوب ، ورزاق لكل عطاء يحقق الرضى ، والسرور ، لعباده المؤمنين .
وهنا يتساءل الإنسان عن حقيقة الإيمان ليؤمن ، ويصل إلى أقصى الدرجات فيجيبه الله ، ويقول :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى إن المؤمن الحق هو الذى يصدق بقلبه ، متيقنا في تصديقه بالله ، ورسوله ، بلا شك ولا تردد ، وأتبع تصديقه بالعمل الجاد ، وبذل ماله ونفسه في سبيل الله تعالى ، وعمل قدر طاقته لتكون كلمة الله هي العليا .

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أى هؤلاء المؤمنون هم الصادقون مع أنفسهم ومع الله تعالى .

ولما نزلت هذه الآية جاء الأعراب إلى رسول الله ﷺ يؤكدون له أنهم مؤمنون صادقون ... وهم على غير هذا التأكيد .

فقال الله لهم : ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ ؟ ... الاستفهام لإنكار ما يقوله الأعراب ، ... أى قل لهم يا محمد إن الله عليم بحقيقة إيمانكم ، ومهما تكلمتم ، فالحقيقة يعلمها الله تعالى وحده .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أى إن الله عليم بحقيقة خلقه كله علما يشمل الدقائق والخفايا في السموات والأرض ، وما بينهما .

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى إن علم الله شامل لكل شئ ، لا تقبل عنده الأكاذيب ، ولا تنتفع فيه الشكوك والظنون .

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ أى كان الأعراب يأتون إلى رسول الله ﷺ ويقولون له : آمنا بك وصدقناك ، ولم نكذبك ، ولم نحاربك ، وتجعلون ذلك تفضيلا منهم على رسول الله ﷺ .

﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمْتُكُمْ﴾ أى قل لهم يا محمد : لا تعتدوا على بإسلامكم لأن الإسلام يعود أثره على صاحبه ، وهو الذى يستفيد به حيث يستقيم على الحق ، ويسعد في الدنيا وفى الآخرة .

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أى إن الله يمن عليكم فهو الذى هداكم للإسلام ، ووفقكم للدخول فيه ، وأفادكم بصلاح الدنيا ، والفوز في الآخرة ، وصرف عنكم وساوس الشيطان ، وجعل رسوله ﷺ ، والمؤمنين معه دعاة صدق ، وهداة للرشاد .

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى إن كنتم صادقين في إيمانكم فسوف تدركون فضل الله عليكم ، فقد كنتم ضالين فهداكم الله ، وكنتم أفرادا متعادين فوحدكم وقواكم ، وكنتم عالة على الناس فصرتم خير أمة أخرجها الله للناس . وكنتم تعمهون في ظلام الجهل والسوء فأخرجكم الله إلى نور الإيمان ، وصدق الحياة .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾
أى إن الله عليم خبير لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وهو . سبحانه . محيط بأسلافكم ، وإيمانكم ، وأحوالكم ، وأقوالكم ، وأعمالكم فأخلصوا لله لتروا إخلاصكم في جنات النعيم .

- ٥ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الأعراب جاءوا لرسول الله ﷺ يقولون له : قد آمننا فأمره الله أن يقول لهم : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا أسلمنا ، لأن الإيمان لن يسكن قلوبكم بعد ، ويبين لهم أن طاعة الله ، والاستقامة على هديه خير لهم فلن يضيع الله لهم عملا .

وعرفتكم الآيات أن الإيمان تصديق وقول وعمل ، واستسلام وانقياد ، وجهاد في سبيل الله بالنفس والمال ، والمؤمن يعلم فضل الله عليه فيحبه ، ويستقيم على أمره ليفوز في الدنيا وفى الآخرة .

(٧٩٢)

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

بيان حقيقة الإيمان والإسلام

سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام ، فأجابه ، وبين أن الإيمان والإسلام بينهما عموم وخصوص ، لأن الإسلام يعنى الانقياد الظاهري ، والاستسلام لأوامر الله تعالى ويكون بدافع يقينى أو بدافع خارجى أما الإيمان فهو اليقين القلبى الثابت على حب الله وطاعته والامتثال لأمره ، ولذلك كان بينهما عموم وقد خصوص .

وقد قال العلماء : إن الإيمان والإسلام إذا اجتمعا في كلام واحد افترق معناه ، وإن افترقا كانا بمعنى واحد ... وذلك لأن الدين الإسلامى لا يرى افتراق الظاهر عن الباطن ، ويدى ضرورة اتحادهما في إطار واحد .
إن الإسلام فضل من الله على الناس ، ولما اعتدت الأعراب بإسلامهم قال الرسول لهم لا تمنوا على بإسلامكم بل الله يمن عليكم أن أنقذكم من النار وجعلكم من المسلمين .

إن العبد المسلم يرتقى بإسلامه ، ويعلو عن سوءات الدنيا ، ويعيش في الدنيا مع الصالحين وفي الآخرة في جنات النعيم ، وذلك فضل من الله يوفق له من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الحجرات" بتوفيق الله تعالى .

سورة "ق"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٧٩٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧٩٥)

- أولا -

التعريف بسورة "ق"

سورة "ق" سورة مكية بالإجماع ، وما قيل من أن قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ

خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾^(١)

نزل في المدينة حين جادل رسول الله ﷺ اليهود في المدينة غير مسلم ، لجواز أن يعرف الله رسوله وهو في مكة طرق مجادلة الناس قبل أن يلتقى بهم في المدينة ، وأيضا فإن أحاديث اليهود كانت عند القرشيين في مكة ، وليس ما يمنع أن يتناول القرآن الكريم أحاديث اليهود في مكة .

واسم السورة المشهور هو (ق) حرف واحد تعرف به السورة مثل سور (ص ، ن) ... وللسورة اسم آخر هو "الباسقات" وهو وصف في السورة لموصوف محذوف تقديره ﴿وَالنَّحْلَ بَاسِقَاتٍ﴾^(٢) .

وقد نزلت السورة بعد سورة "المرسلات" .

وعدد آياتها عند جميع المفسرين خمس وأربعون آية .

ويدور موضوع السورة حول رد مزاعم أهل مكة ، وتقنيد ضلالهم ، وتوضيح أدلة صدق رسول الله ، وصدق ما دعا إليه من بعث ، وحساب وعقاب ، وتسلية النبي ﷺ والثناء على المؤمنين ، وتبشيرهم بجنت النعيم .

وهذه السورة تتصل بسورة "الحجرات" بأوجه متعددة فقد بينت سورة "الحجرات" حقيقة الإيمان ، وبينت موقف الأعراب منه ، وجاءت سورة "ق" لبيان حقيقة الإيمان ، والرد على المكذبين به .

(١) سورة ق ، الآية ٣٨ .

(٢) سورة ق ، الآية ١٠ .

وقد اهتم رسول الله ﷺ بموضوع السورة لنصح الناس ، وتذكيرهم بما يجب عليهم .

عن قطبة بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ في صلاة الصبح سورة ﴿ ق ^ع وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ وربما قال : يعني في الركعة الأولى .

وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنها : ما أخذت ق والقرآن المجيد إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرأها كل يوم على المنبر إذ خطب الناس .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ ﴿ ق ^ع وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ ، وقوله : في الفجر يعني به صلاة الصبح لأنها التي ﷺ كان يصليها في المسجد في الجماعة ، فأما نافلة الفجر فكان يصليها في بيته . وقد سأل أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبا واقد الليثي : ما كان يقرأ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر ؟

فقال : كان يقرأ فيهما بـ "قاف" هكذا رسم "قاف" ثلاثة أحرف مثل ما رسم حديث جابر بن سمرة والقرآن المجيد واقتربت الساعة ، وانشق القمر ^(١) .

(١) صحيح مسلم . كتاب الصلاة . باب القراءة في صلاة الفجر ج ١ ص ٣٣٧ . ٣٣٨ اشتمل الباب على الأحاديث الأربعة .

(٧٩٧)

- ثانيا -

- التفسير -

إثبات قضايا الإيمان الأساسية

يقول الله تعالى :

﴿ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيطٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴿٥﴾ ۝

- ١ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المشركين لم يؤمنوا بالمعجزات ، ولم يصدقوا بالقرآن الكريم بعد أن عجزوا عن الإتيان بمثل أقصر منه مع أنه مركب من حروف كلامهم ، وأنهم عاشوا في شك كبير .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ قَ ﴾ بدأت السورة بحرف واحد هو "القاف" لإثبات إعجاز القرآن الكريم ، وتأکید أنه كلام الله تعالى ، وتنبيه المستمعين إلى ما بعد هذا الحرف لأهميته ، وبيان أن ما بعده هو المقصود الأظهر لإيراد هذا الحرف .

﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ الواو حرف قسم حيث أقسم الله بالقرآن المنزل إثباتا لعظمته ، لأن شأن العظيم أن يرسل كلامه إرسالا ، ولا يقسم إلا بأمر

عظيم ليثبت أمرا عظيما ، ولذلك جاء القسم بالقرآن إظهارا لعظمته لأن التعظيم ملازم لأركان القسم كلها .

ووصفت الآية القرآن الكريم بـ ﴿ أَلْمَجِيدِ ﴾ لبيان اشتماله على الشرف والرفعة ، والمجد فى كافة جوانبه .

فهو **يفوق** كل ما بلغه الله للناس وحيا على رسله جميعا للدلالة على مراده سبحانه وتعالى ، إذ خصه بـتنزل ألفاظه ، وتراكيبه ، ونظمه ، ومعانيه وأمر جبريل عليه السلام أن يوصل القرآن الكريم لرسول الله ﷺ بهذه الخصائص ويعرفه بها . يقول الله عنها : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ١ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ٢ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ٣ ١ ولذلك بقى القرآن محفوظا بلفظه ومعناه كما نزل بلا تغيير .

وهو . أى القرآن الكريم . يفوق كل كلام نزل من عند الله تعالى فهو يفوق الحديث القدسى ، والحديث النبوى ، وكلام الله للرسل السابقين . وهو يفوق أى كلام لله سبقه لأنه يخاطب الناس جميعا ، ويصنع منهم أمة رائدة ، ويدوم فى الناس إلى يوم القيامة فلا كتاب بعده . وهو يفوق كل كتب الله التى نزلت على الرسل السابقين ، بحفظه ، وتهيئة العوامل التى تؤكد هذا الحفظ ، وتظهره للناس .

إن مجد القرآن الكريم ممتد واسع تؤكد الحقائق العلمية التى يصل إليها العلماء ، ويشهد له اليقين الذى يلزمه عند العلماء وأولى الألباب . وقد تضافرت جهود العلماء حول القرآن الكريم فوضعوا علوما لرسمه ونقطه ، واملائه ، وتقسيماته ، وقراءاته ، وبيان معانيه على أوجهها المتعددة فأبقوا بذلك مجد القرآن حيا فى بيوت العلم ، وقلوب المؤمنين .

(١) سورة القيامة ، الآيات ١٧ . ١٩ .

وجواب القسم محذوف لتذهب النفس فى الوقوف عليه كل مذهب ، وكلها تدور حول القرآن الكريم ، ويمكن أن يكون معنى الجواب ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْأَعْلَامِينَ ﴾^(١) أو ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾^(٢) أو ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾^(٣) أو غير ذلك مما جاء صريحا فى الآيات الأخرى .

﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴾ "بل" للإضراب والانتقال إلى معنى آخر . والمعنى دع عنك مجد القرآن ، وانظر دهشة الناس ، وتعجبهم من مجئ منذر منهم ، وقد أدى بهم التعجب إلى إنكاره ، وعدم تصديق رسالته . ومصدر العجب عندهم أن جاءهم رجل منهم يخوفهم من عذاب الله فى الآخرة فهم ينكرون فى رسالته أمرين :

أولاهما : أن يكون الرسول بشرا عاديا .

ثانيهما : أن يخوفهم من عذاب يوم القيامة الذى لا يؤمنون به أصلا . وهم فى تعجبهم ضالون لأن الرسول يجب أن يكون واحدا من الناس يماثلهم فى الإلف ، والعادة ، واللغة ، ولا بد أن يعرفهم بحقيقة الدنيا ، وحقيقة الآخرة ، ويدعوهم ، ويبرهن لهم على ما لم يؤمنوا به ، وهو ما جاءه من عند الله تعالى .

﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أى عجب المشركين من دعوة رسول الله ﷺ لهم ، وقد أوردت الآية قولهم وتعجبهم لتسهيل الرد عليهم ، وبيان

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٩٢ .

(٢) سورة يس ، الآية ٣ .

(٣) سورة يوسف ، الآية ٢ .

بطلان كلامهم ، وأظهرت الآية اسمهم الدال على صفاتهم وهو أنهم ﴿الْكَافِرُونَ﴾ لبيان أن علة خطيئهم هو كفرهم وضلالهم .

﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ ؟ ... السؤال للإنكار يوضح الله به إنكار المشركين للبعث والحشر ، فلقد تساءلوا منكرين هل سنبعث ؟ وهل سنرجع أحياء بعد أن متنا وصرنا ترابا وعظاما ، ولبيت أجسادنا ، وتناثرت وتداخلت ؟ ﴿ذَلِكَ رَجَعُ بَعِيدٌ﴾ أى هذا البعث الذى يذكره محمد لنا رجوع مستحيل لا يمكن لعاقل أن يتصوره .

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى قد علمنا منذ الأزل تفتت الأجساد وتفرقها ، وما تأكل الأرض منها ؟ وأين هى ؟ وما صورتها الحالية ؟ ولذلك نجعلها ، ونعيد لها مرة أخرى .

﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أى وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل حركة الأجساد بعد الموت ، فلا تغيب عنا جزئية ضئيلة ، وإن تفتتت وجرت مع الريح .

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ "بل" للإضراب والانتقال إلى جريمة أخرى أكبر من الجريمة السابقة ، فلئن كانت الجريمة الأولى إنكار البعث فإن هذه الجريمة أنهم كذبوا محمدا ﷺ ، ولم يؤمنوا بدعوته ، وكذبوا بالقرآن الكريم الذى يفصل لهم الدين ، ويعرفهم بالحقيقة .

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ﴾ أى إنهم بسبب هذا التكذيب قد اختلط الأمر عليهم ، وتضاربت آراؤهم ، وتعارضت أحوالهم ، فهم تارة يقولون عن محمد : إنه ساحر ... وتارة أخرى يقولون : إنه مجنون ... وتارة ثالثة يقولون : إنه ناقل لأساطير الأولين ... ويفعلون مثل ذلك مع القرآن الكريم فيقولون : إنه سحر ،

(٨٠١)

وانه من أساطير الأولين ... وانه إفك افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون ... وهذا من قلقهم واضطرابهم حينما جاءهم محمد ﷺ منذرا ، ومخوفا .

- ٣ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم ، وبين عظمته ، ومجده ، وتعالیه ، وتوضح إنكار المشركين وتعجبهم من مجئ رسول منهم ، يخوفهم ، وينذرهم ... وتؤكد الآيات وقوع البعث واليوم الآخر ، وتبين أن الله قادر على البعث والإعادة فهو أيسر من الخلق الأول .

وتبين الآيات سبب إنكار المشركين للبعث وهو أنهم كذبوا رسول الله ، ولم يؤمنوا به ، وكذبوا بالقرآن الكريم ولم يصدقوا بما جاء فيه ، فوقعوا في القلق والاضطراب ، وضل أمرهم ، وفسدت عقيدتهم .

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآية عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

محمد رسول الله وإن كره المبطلون

سار أهل مكة على خطى سابقهم من المشركين ، فأنكروا نبوة محمد ﷺ وتعجبوا من ذلك ، وعدوا رسالة البشر أمرا مستحيلا لا يقرون بها ، وقال الكافرون : ﴿ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ومصدر العجب عندهم أن يختار الله رسولا من الناس لاستحاله اتصالهم بالله الخالق القادر ، وهو في نظرهم الإله الأكبر وتعجبوا من اختيار محمد ﷺ بسبب فقره وبيته ، وتمنوا لو كان الرسول من أغنيائهم ، وكبرائهم ... وهم في ذلك واهمون ، وضالون ، وجاهلون .

(٨٠٢)

أما الوهم فلأنهم يعبدون الأصنام وهى الأحجار المصنوعة بأيديهم ، وهى لا تسمع، ولا تبصر ، ولا تفهم شيئا . فكيف لهم يجعلون لها صلة بالله تعالى ؟ ... وكيف يرون للملك أن يتصل بها ؟

وأما الضلال فإنهم يطلبون أن يكون الرسول من الملائكة ، ولم يبينوا دوره معهم ، لأنه لو بقى على ملكيته فلن يتحدث معهم ، ولن يتحملوا مجيئه ولو تشكل رجلا فإنهم سينكرونه ، وهذا هو ضلالهم .

وأما جهلهم فإنهم جعلوا المظاهر المادية أساس المجد الدينى ، وهذا كلام مردود ... فكم من سارق صار غنيا ؟ ... وكم من قاتل سيطر على الضعفاء ؟ ... وكم من جبار اتخذ من الناس عبيدا ؟ ...

إن الرسالة منصب شريف يقوم على صفاء الروح ، وطهارة السلوك ، ونظافة العقل ، وبذلك يتمكن الرسول من الاتصال بالله ، والتواصل مع الناس . إن تعجب كفار مكة من رسالة الرسول مردود لا حقيقة له ، ومحمد ﷺ هو رسول الله ﷺ بالدين الذى جاء به ، وبالمعجزات التى أيده الله بها ...

الركيزة الثانية

البعث حق لا ريب فيه

بذل الكافرون جهدهم فى إبطال ما جاء الإسلام به ، وحاولوا إثارة الشبهة وما يتصورونه دليلا لهم ، وكما تعجبوا من إرسال محمد ﷺ تعجبوا من البعث وأنكروه ، وقالوا : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ إنهم يقصدون بإنكار البعث إنكار الرسالة كلها ، وهذا هو قصدهم وغايتهم وخاب أملهم ... لأن البعث حق ، وإعادة الحياة عند البعث أمر ثابت لا ريب فيه ، وإنكارهم قائم على الجحود والجهل لأنهم لو علموا قدرة الله التى أوجدت كل مخلوق ، وأنشأته

(٨٠٣)

من العدم . فقد خلق السماء وما فيها ، والأرض وما عليها وكل موجود هو موجد ... لو تيقنوا ذلك لسلموا بأن البعث أمر يسير على القدرة الإلهية ... إن الله يعلم كل جزئيات أعمال خلقه ، ودونتها الملائكة فى كتاب ثابت ... ولذلك فالبعث حق لا ريب فيه .

الركيزة الثالثة

حياة المشركين اضطراب وقلق

الصراط المستقيم يوصل إلى الله تعالى كما أن الطرق المعوجة تبعد عن الله تعالى ، ولذلك نجد المشرك يصاب بالقلق والاضطراب والحيرة بسبب تتبعه لمسالك الشياطين ، وذلك بسبب بعده عن الحق ، وقد أدى به ذلك إلى قلق فى الضمير ، وحيرة فى رأى ، وتضارب فى الأقوال لا يثبتون على قرار ولا يهتدون لحق .

دلالة الآيات الكونية على قدرة الله

يقول الله تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٦٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٦٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٦٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿٧٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿٧١﴾ ۞ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة اضطراب المشركين وقلقهم بسبب إنكارهم للبعث جاءت هذه الآيات بأدلة قدرة الله تعالى الماثلة في الكون الكبير الذى يراه المشركون ، ويتمتعون به ليرد إنكارهم ، ويعرفهم أن من قدر وأوجد هذا الكون كله قادر على أن يحيى الموتى .

- ٢ -

موضوع الآيات

توجه الآيات إلى ضرورة النظر إلى السماء ، فقد خلقها الله ، ورفعها بلا عمد ، ونظمها ، وتأمل ما فى المخلوقات من حسن ، وجمال ، وكمال .
وتحث على النظر إلى مد الأرض ، وإيجاد الجبال ، وانزال المطر ، وإخراج الزرع ، والنبات ، والشجر ، والنخل ، وتقدير الأرزاق ، وإحياء الأرض بعد موتها .

وتشير الآيات إلى أن فاعل ذلك كله قادر على أن يحيى الموتى .

(٨٠٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ ؟ ... الاستفهام للإنكار والتعجب

من عدم استفادة المشركين بمخلوقات الله تعالى التي يرونها ولا يتأملونها ، ولا يعتبرون بها ... والمعنى أصيبوا بالعمى فلم يروا السماء الموجودة فوقهم فى كل لحظة ؟ ... لأنهم لو تأملوا فى خلقها لعلموا قدرة الله تعالى ، ولصدقوا بكل ما دعا إليه رسول ﷺ .

﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هَآ مِنْ فُرُوجٍ ﴾ أى على المشركين أن يتأملوا كيف أقام الله السموات بناء كاملا ؟ ... وزينها بالكواكب ، والنجوم ، وأتم خلقها بلا ظهور شق أو نتوء .

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ أى وخلقنا الأرض ، وبسطناها ، ومددناها ، وخلقنا الجبال فوقها ، وجعلناها تثبت الأرض ، وتصونها من السقوط ، وأنبتنا فيها زروعا يانعة من ذكر وأنثى فى جمال رائع ، وحسن كبير .

﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ أى خلقنا السماء ورفعناها ، وخلقنا الأرض ومددناها ليبصرها العقلاء ، ويؤمن بها الأوابون الصالحون من عباد الله تعالى .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ أى إننا ربطنا السماء بالأرض لتحقيق ما ينفع الناس ، حيث نزلنا من السماء مطرا طيبا محققا للبركة والنماء على الأرض التى استقبلت الماء بالبذور فأنبتت

(٨٠٦)

الحقائق الغناء ، والرياض النضرة ، وزروع الحب والثمر الذى يحصده الناس كالشعير والقمح والبقول ... الخ .

﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ أى وأنبت الله فى الأرض النخلة

العالية الطويلة التى تخرج ثمرها فى طلع ، متراكم ، متراص بعضه فوق بعض .

﴿ رَزَقًا لِلْعِبَادِ ﴾ أى يأتى الطلع الكثير من ثمر النخل رزقا للعباد .

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا ﴾ أى وأحيينا بالمطر النازل الأرض الميتة

التي لا نبات فيها فتربو ، وتنبت من كل زوج بهيج .

﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أى مثل ذلك الخلق البديع فوق الأرض يكون البعث

من القبور .

إن هذه الآيات توضح قدرة الله تعالى التى يراها كل إنسان فى طعامه وشرابه ، وخلال راحته ، وأثناء عمله ، وحين يقظته ونومه ... لأنه فى كل حالاته يلمس جزءا من هذه الآيات التى لو تأملها لعلم أن الله على كل شئ قدير ، وأن الرسول ﷺ صادق فى دعوته ، وبلاغه عن ربه .

- ٤ -

معنى الآيات

تتعى الآيات على المشركين عدم تأملهم فى آيات الله تعالى التى يرونها ويتمتعون بها ، فهم يرون السماء فوقهم مزينة بالنجوم ، ومرفوعة بلا عمد ، وخالية من أى شق ، ويرون الأرض ممدودة ، والجبال رواسى وأوتادا ، ويستفيدون بالمطر ينزل من السماء فيحى به الله الأرض بعد موتها فتخرج

(٨٠٧)

الزراع والنبات والشجر والنخيل ، وكل ذلك فضل من الله تعالى لو تأمل الناس
فى هذا الوجود لآمنوا بالله رب العالمين .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

غفلة الضالين أنستهم آيات الله

تتعى الآيات على الكافرين والمشركين غفلتهم عن آيات الله رغم تنوعها
وضخامتها ، وقد أعماهم الله ، وضع عقولهم بسبب جحودهم ، وميلهم
إلى الكفر ، وحبهم للفساد ، ومن هذه الآيات التى أعماهم الله عنها ما يلى :

- (١) السماء التى خلقها الله ، ورفعها بلا عمد ، وزينها ، وزخرفها بالكواكب
والنجوم ، وقدر لها أفلاكها ، ومساراتها بلا قصور ، أو تناقض .
- (٢) الأرض وقد أمدّها الله ، وبسطها ، وجعل الجبال أوتادا لها ، وسير
الأنهار والبحار فوقها ، ووضع فيها المعادن والركاز .
- (٣) المطر النازل من السماء لرى الأرض وسقى الإنسان ، والحيوان ، والنباتات
لتحويل الطين والرمل إلى زرع بهيج ، ورياض خضراء .
- (٤) الشجر الضخم ، وقد أخرجته الأرض شجرا عاليا ، أو نخلا باسقا لإخراج
الفواكه والثمار .

لقد رزق الله عباده بما أخرجهم من نبات الأرض وشجرها ، وأحيائها بعد
موتها .

وفى كل هذا آيات تدعو إلى الإيمان بالله تعالى القادر على كل شئ ،
وبمثل خلق الموجودات يبعث الله الموتى ويخرجهم من القبور .

ضلال المشركين فى كافة الأمم

يقول الله تعالى :

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٧﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ
وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٨﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴿١٩﴾ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿٢٠﴾
أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴿٢١﴾ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٢٢﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة عدم تأمل المشركين فى خلق الله ، وعدم استفادتهم بالآيات المبنوثة فى الأرض والسماء ، واستمرارهم فى الكفر والضلال جاءت هذه الآيات لبيان ضلال المشركين فى الأمم السابقة ، وعدم استفادتهم بآيات الله ، فأهلكهم الله ودمرهم عسى أن يستفيد بهذا الإنذار أهل مكة .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الأمم السابقة كذبت رسلها ، وأنكرت البعث فنزل العذاب عليهم كما وعدهم الله تعالى ، ويتعجب الله من إنكار أهل مكة للبعث ، ويسأل عن سبب إنكارهم ، فلقد خلق الله الكون كله ابتداء بلا تعب ولا لغوب .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٧﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ
وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٨﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴿١٩﴾ ۝ أَى كَذَّبَتِ الْأُمَمُ السَّابِقَةُ
رُسُلَهُمْ فَحَلَّ بِهِمْ عَذَابُ اللَّهِ الَّذِى أَهْلَكَهُمْ ، وَقَضَى عَلَيْهِمْ ، وَهَذَا نَذِيرٌ
لِّأَهْلِ مَكَّةَ حَتَّى لَا يَصِيبَهُمْ مَا أَصَابَ الْأُمَمَ السَّابِقَةَ .

والقرآن فصل فى قصص بعض هذه الأمم فقوم نوح ورد ذكرهم كثيرا وأصحاب الرس هم قوم بقرية تعرف بقرية "الرس" وسط جزيرة العرب ، وأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام ، وقوم تبع هم أهل سبأ وعاد وثمود وقوم لوط مشهورون .

﴿ كُلُّ كَذِّبَ الرُّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أى كل هذه الأمم كذبت رسلها ، فوجب نزول العذاب بهم جميعا .

﴿ أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؟ ... السؤال للإنكار لرد علة كفر المشركين بالبعث ، وإنكار إنكارهم له . والمعنى هل أصابنا التعب والإعياء بعد الخلق الأول حتى تقولوا ما تقولون ؟ ... وحتى تنكروا قدرة المنشىء على البعث والإعادة ؟

إن هذا لم يحدث ، ولم يقل به أحد ، ولا يتصوره عاقل ، لأن الخلق الأول دليل على إمكانية الإعادة ... والحق أنهم فى شك فى البعث بلا حجة ، ولا دليل .

وقد أنكر الله كفرهم بأسلوب الاستفهام ردا عليهم لأنهم قالوا عن البعث ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ فجاء الاستفهام ردا عليهم ليبينوا سبب قولهم وإنكارهم .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أهلك الأمم السابقة لكفرها وعدم استجابتها لدعوة الرسل الذين أرسلهم الله إليهم ، وتبين الآيات أن الله خلق الخلق أول مرة بلا تعب ولا لغوب ولا سبب لكفر المشركين بالبعث ، وإنكارهم لليوم الآخر .

(٨١٠)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

الكفر واحد فى الأمم كلها

التاريخ يعيد نفسه ، ويظهر الكافرون فى الأمم كلها فى إطار واحد يعتمد الإنكار والجحود ، وكأنهم تواصلوا بالضلال ، وحرصوا على تواجده على مدار التاريخ ، فلقد كذبت الأمم رسلها بدءاً بأمة نوح ، وأصحاب الرسل واثمود ، وعاد ، وفرعون ، واخوان لوط ، وأصحاب الأيكة ، وقوم تبع ، وغيرهم . فقد كذبوا الرسل ، ولم يؤمنوا بالله ، وأنكروا البعث بلا حجة تدعم كفرهم ، أو برهان يساعدهم مع أن خلقهم دليل على البعث ، لأن من خلق أولاً قادر على إعادة الخلق مرة ثانية لأن الإعادة أيسر من الإنشاء .

وفى اتحاد الكفار فى إنكار البعث عامل أمام الدعاة ليجمعوا آيات القرآن الكريم التى خاطبت المكذبين ، وردت كفرهم ، وبينت هلاكهم وديارهم وصيرتهم مثلاً وأقاصيص لمن يأتى بعدهم .

عمل الإنسان فى الدنيا معلوم

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوْسُ بِهِ ۖ نَفْسُهُ ۖ وَخُنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٢﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٣﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٤﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٥﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَاقِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٦﴾ لَّقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٧﴾ ۝ ﴾

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة حتمية وقوع البعث جاءت هذه الآيات بدليل آخر على وقوع البعث يقوم على تصوير حياة الإنسان ، وتسجيل عمله بدقة وملازمة الملائكة له ، وأحواله عند قبض روحه ، وعند بعثه ، والآية تؤكد أن الله عليم بعباده ، وأنه سبحانه سيبعثهم ، ويحاسبهم ويعاقبهم على ما عملوا وسيربهم كل ما قاموا به .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله خلق الإنسان ، وهو محيط بخواطره وعمله ، وقد جعل الله لكل إنسان رقيباً وعتيداً لتسجيل كل ما يتلفظ به ، حتى يأتيه أجله ، الذى لم يكن يتوقعه ... وفى يوم القيامة يأمر بنفخ فى الصور فيبعث من فى القبور ، ويسوقهم إلى الحشر للحساب والجزاء ، وعند الحساب يذكرهم الله بما كانوا عليه فى الدنيا ، من غفلة عن الحق ، ونسيان لدين الله الذى جاءهم .

الدلالات اللغوية

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أى خلق

الله الكون ، وخلق الإنسان ، وهو عالم بجميع أموره ما ظهر منها وما خفى ، وما جل وما عظم ، لأن الصانع يحيط بدقائق وأسرار مصنوعاته ، وهو على شئ قدير .

﴿ وَخَنُّ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ أى ونحن أعلم به وبخفائيه ،

وأقرب إليه أكثر من حبل الوريد الذى هو جزء منه يمدّه بالحياة فهو سبحانه أقرب إليه من هذا الحبل .

وضرب القرب من حبل الوريد كناية عن منتهى القرب الذى لا قرب بعده . وقد بينت الآيات والأحاديث أن الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ... فهو يحول بين المرء وقلبه ... وهو آخذ بناصية كل دابة ... وهم معهم أينام كانوا .

والوريد هو الذى يجرى فيه الدم ، ويصل إلى جزء من أجزاء البدن ، ويقع بين الحلقوم والبلعوم ، وفى هذا دلالة إلى أن أجزاء الإنسان متباعدة إلا أن الله قريب منها يعلم عنها كل شئ .

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ أى نحن

أعلم بالإنسان من نفسه ، وأحطنا به ، ووكلنا به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله ، ويكتبان كل ما يتلفظ به ، وكل حركة يقوم بها ... مع أننا على علم منذ الأزل بما سيقع منه .

والمتلقيان ملكان يريان العمل ويدونانه ، أحدهما قاعد على يمينه ، والثاني قاعد على شماله ، يترصدون كل ما يصدر منه قولا ، أو عملا ، أو حالا لكتابته .

﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أى لا يلفظ الإنسان بكلمة واحدة إلا ويتلقفها الملك ، ويكتبها فهو مراقب قوى المراقبة لا تفلت منه كلمة أو همسة .

يقول الحسن البصري رحمه الله بعد أن تلا هذه الآية : ﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ : يا بن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك ، وجعلتها فى عنقك معك فى قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴾ ﴿١﴾ أقرأ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿٢﴾ ثم قال : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك (٣) .

وروى أبو أسامة رحمه الله أن رسول الله ﷺ قال : "كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرة ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر" (٣) .
والحكمة فى هذا أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، بل خلقهم لتربيتهم وتهذيبهم ، فكل ألم يقع فهو لرقى النفس وتجليتها كالنار تذهب صدا الحديد ،

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٣ ، ١٤ .

(٢) تفسير الخازن ج ٦ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

(٣) مسند الرويانى ج ٢ ص ٢٨٦ بمعناه .

ولذلك حسن للإنسان أن يصبر عند البلاء ، ويزداد به إيمانا وقربا من الله تعالى .

ونفع العالم المادي أكثر من ضرره ، والله تعالى خلقنا لغاية شريفة لنا ، وجعل الحسنات هي الأصل والسيئات عارضة .

إن الله خلق الكائنات المادية لنفع الإنسان ، وجعل ضررها عارضا ... فالنار ، والماء ، والهواء مخلوقات مادية لمنفعة الإنسان ، وقد يعرض لها عارض فتضر ، وتؤذى ... إلا أن هذا الضرر ينتهى ، وتعود الماديات لما خلقها الله لها ، وهكذا خلق الله الإنسان للخير والحسنات فإن عرض له شر وسوء فليصبر ، ويذكر الله ليزداد تقى حتى يتحول الألم إلى أمل ، والنقص إلى كمال ، والشر عارض ، ولفعل الحسنات ، والسيئات عارضة .

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أى وعند

انتهاء الأجل تأتي سكرة الموت ويجئ الأجل ، وتحل لحظة الفراق ، وهى الحق الذى كنت تكذبه ، وتفر منه ، وتبتعد عنه ، وهى لحظات شدة ، وألم ، وسكرة ، وذ هول .

لما ثقل أبوبكر جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بقول حاتم :

لعمرك ما يغنى الشراء عن الفتى .: إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف ﷺ عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ

الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (١) .

وفى الصحيح أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه

ويقول : سبحان الله ، إن للموت لسكرات (١) .

(١) القول الدقيق في عصر وسيرة الصديق ص ١٢٥ .

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ أى وعند قيام الساعة ينفخ

الملك فى الصور نفخة البعث ، فتقوم كل النفوس من قبورها ، وتستعد للحشر والحساب ورؤية الأهوال المفزعة ويأتى اليوم المحتوم الذى وعد الله به ، وهو قريب غير بعيد .

يقول النبى ﷺ : "كيف أنعم وصاحب القرن قد النقم القرن ، وأحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له ؟

قالوا : يا رسول الله ماذا نقول ؟

قال ﷺ : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا^(١) .

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَاقٍ وَشَهِيدٌ ﴾ أى وفى يوم القيامة يأتى

الناس إلى أرض الحشر للقاء الله والحساب ، ومعها سائق يسوقها ، وشاهد يشهد عليها .

﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ

الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ أى لقد كنت أيها الإنسان فى الدنيا تتكر هذا اليوم ، وتتغافل

عن وقوع البعث ، وتتكر الأدلة ، وتجادل بالباطل ... أما اليوم فإن الغطاء ينكشف عنك لترى ما لم تكن ترى ، وتعقل ما كنت تتكر ، ... فانظر ماذا ترى؟ ... فبصرك اليوم قوى يرى كل شئ ، ويبصر كل حال ، ومثل البصر سائر الجوارح حتى لا يغيب عنه شئ من عمله .

(١) المعجم الكبير للطبرانى ج ٢٣ ص ٣١ .

(٢) سنن الترمذى . كتاب أبواب صفة القيامة . باب ما جاء فى شأن الصور ج ٤ ص ٦٢٠ .

(٨١٦)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله خلق الإنسان وهو عليم به وبداخله ، وهو قريب إليه من نفسه ، وقد جعل له ملكين عن يمينه وشماله يسجلان له كل لفظه وحركة وهم قعود لا يتركونه لحظة ... وحين الموت الذى يكرهه الإنسان يسكن القبر إلى يوم القيامة على صورة جزائه فى الجنة ، وعند نفخة البعث يحيى الله الخلائق ، ويسوقهم إلى الحشر ، ومع كل نفس سائق يدفعها ، وشهيد يشهد عليها .

ويذكر الله الناس فى الآخرة بغفلتهم التى كانوا عليها فى الدنيا ، ويؤكد لهم الحق الذى يرونه اليوم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

علم الله محيط بخلقه

الإنسان فى الدنيا لا يعيش وحده ، إلا أن أهل الكفر والضلال يغفلون عن ذلك ، ويتصورون أنفسهم فرادى ، لا يدركون بظلمهم أحد ، ولن يعرفهم أحد ، وهم لهذا يكفرون ، ويظلمون ، ولا يخافون ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾^(١) .

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٤ .

إن تصور الغافلين بعيد عن الحقيقة فإله معهم فى كل جلوة أو خلوة ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾^(١) ومع معيته أشهد عليهم الأرض والرسل والجوارح ، وجعل فيهم ملائكة ، ملازمين لهم لا يعارفونهم ليكتبوا لهم كتابا يسجل كل عملهم وأقوالهم لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . تلك هى الحقيقة ، فالإنسان لا يعيش وحده ، وإنما يعايشه الملائكة والقرناء ، وتصاحبه معية الله تعالى ، ولو آمن الإنسان بهذه الحقيقة . وهى حقيقة . لحافظ على الطاعات ، ولتجنب السيئات ، وعاش عبدا لله ، مستقيما على منهجه ، مستمرا فى سلوك الطريق إليه . والآيات تؤكد أن الإنسان لا يعيش وحده ، فإله أقرب إليه من روحه ، وهو مطلع على سره ، وعلمه ، وما يخفيه صدره . ومعه الملائكة عن اليمين وعن الشمال جلوس للتدوين والكتابة لا تغيب عنهم همسة ، ولا تختفى لمسة . ويستمر الإنسان يعمل فى الحياة حتى يأتية أجله الذى لم يكن يتوقعه ، وتخرج روحه من جسده إلى ميعاد تعود إليه مرة أخرى . إن رحلة الدنيا تدل على ضعف الإنسان ، ومدى حاجته إلى معين ونصير ، فلقد خلق ضعيفا ، ونشأ محتاجا ، وشب بقدرات ورغبات متعارضة وصار مسئولا عن عمله ، مكلفا بطاعة الله تعالى . وعليه أن يلجأ إلى قوة الله تعالى الذى خلقه ، وسواه ، ومكنه من الأرض وسخر له كل كونه ، واسكن فيه ومعه القرناء والملائكة ... لا ينبغي لإنسان عاقل أن يغفل عن حقيقته وينسى ربه ، ويتلهى بالدنيا عن اليوم الآخر .

(١) سورة المجادلة ، الآية ٧ .

ودور الدعاة إيقاظ الناس على هذه الحقائق ، وتفهمهم قيمة الدنيا ،
 وضرورة العمل للآخرة ، ومعهم أحداث الزمان ، وأسرار الواقع ، ولهم فى كون
 الله دروس وعبر .

إن الاعتراف بالغير طريق لإثبات الذات ، والإقرار بالخلق دليل وجود
 الخالق ... وما فى الكون من نظام ، ودقة ، وجمال يدل على حكمة الخالق
 العظيم ، وهو الله رب العالمين .

الركيزة الثانية

مشاهد الناس فى يوم البعث

تقدم الآيات أخبارها فى صورة متحركة تشد الحس والعقل ، وتخطب
 الوجدان والضمير ، وتعرف الإنسان يقرب الله منه ، ومجئ المتلقين إليه للرقابة
 اللصيقة ، والقوة الدقيقة ، وعند الموت يجئ الملك ، ويخرج الروح ، ويشدها عن
 الجسد ، وتنزل بالإنسان سكرة الموت التى كان يخشاها ، ويبتعد عنها ،
 وينطلق بنفخات تهلك الناس جميعا ، وتحييهم من مماتهم ، وتنتشرهم فى
 الأرض ، ويساقون إلى أرض المحشر فى صورة منظورة ، تسوفهم ملائكة ،
 ويصاحبهم شهود ، وعند الحساب يرون عملهم بجوارحهم ، ويحملون كتابهم
 معهم من قبورهم ، ولا يجدون مقرا من الإقرار بما كانوا فيه .

إنها صورة مزعجة مخيفة يمكن للإنسان أن يجعلها أوقات سعادة ، وفرح
 ، وبشر ، وذلك بطاعة الله ، والاستقامة على منهج الله ، والعمل لما بعد الموت
 . يقول النبى ﷺ : "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت" (١) .

(١) سنن ابن ماجه . كتاب الزهد . باب ذكر الموت ج ٢ ص ١٤٢٣ .

تخاصم أهل النار مع قرنائهم

يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٣١﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٣٢﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٣٣﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٣٤﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣٥﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٣٦﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٣٧﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٣٨﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الله يبعث من فى القبور ، ويحاسبهم على أعمالهم ، جاءت هذه الآيات تبين الخصومة والجدل الذى يقع بين المشرك وبين قرنائهم من الملائكة والجن .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن قرين المشرك الضال يأتى مع صاحبه فى الآخرة ليشهد عليه عند الله تعالى ، ويأمر الله السائق والشهيد بإلقاء المشرك فى نار جهنم فقد كفر بالله ، وأشرك معه آلهة أخرى وتبين الآيات الجدل الذى يحدث بين المشرك وقرينه البرئ من ضلاله ، فيقول الله لهم لا تختصموا عندى فقد وضحت لكم المصير وأنتم فى الدنيا ، والآن أقضى فيكم بحكمة عادلة خالية من الظلم والجور .

(٨٢٠)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴾ أى ويقول الملك الموكل لله فى يوم الحساب : هذا الإنسان الذى وكلتني به قد أحضرته ، وأحضرت معه ديوان أعماله ... وهذا كل ما عندى له ، وقد سجلته عليه .

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٦﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿١٧﴾ ﴾ أى يقول الله للسائق والشهيد ... ألقيا فى جهنم كل من كفر بالله وأشرك معه معبودا آخر ، وعاند الحق ، وتمسك بالباطل ، ومنع الخير ، واعتدى على غيره بلسانه ويده ، وعاش شاكاً فى وحدانية الله ، ومجئ اليوم الآخر .

﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أى ألقيا فى جهنم كل من كفر بالله ولم يؤمن فلقد عبد غير الله ، واتخذ لنفسه إلهاً آخر مع الله تعالى .
إن الله يأمر القراء برمى من هذه صفاته فى الجحيم ، لأنه عشق البطلان فى عقيدته ، ونظامه ، واعتدى على الآخرين ، وشك فى دين الله تعالى .
﴿ فَالْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾ أى اقدفا به فى النار بسبب ما كان عليه فى الدنيا من جحود وعناد وكفر .

يخادع الكافر عند الحساب ، ويتهم قرينه من الشياطين بأنه هو الذى أطغاه فى الدنيا ، فيرد عليه قرينة الشيطاني ، وينفى هذا الاتهام .

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى قال قرينه الشيطاني : ربنا ما أطغيته ، وما أضلته ، ولكن طبيعته ، ودينه بعدت

عن الحق ، ومالت إلى المعصية ، والضلال ، فسار على المنهج الذى يوافق خلقه السئ .

﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أى قال عز وجل للإنسان وقرينه الشيطانى : لا تختصموا عندى فقد أعذرت لكم ، وأرسلت رسلى ، وأنزلت كتبى ووعدتكم ، وخوفتكم ، وعرفتكم بحتمية الجزاء فى الآخرة .

﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ أى ويقول الله تعالى : لا يتغير القضاء الذى قضيت به فى الدنيا ، ولن يتخلف الوعيد الذى وعدتكم به .
﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أى ولن أعذب أحدا بغير جرم ، ولن أجعل المسلمين كالمجرمين .

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ أى لا يتبدل القضاء فى يوم القيامة ، ويسوق الله المجرمين إلى جهنم فلا تضيق بهم رغم كثرة الظالمين ، ويسأل الله جهنم هل امتلأت بمن دخلك من المشركين ؟ فتزد وتقول : هل هناك مزيد عليهم اتسع لهم بعد أن امتلأت .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات ما يقوم به القرناء من الملائكة والشياطين حيث تحضر الملائكة صاحبهم إلى الله ، وتحضر معه عمله ، فيأمرهم الله بالقاءه فى جهنم وكفر ، وعاند ، وظلم ، وهنا يحاول المجرم أن يلقي سبب كفره على قرينه الشيطانى ، فتزد الشياطين وتؤكد أنه عاش فى ضلال كبير ، وأنه أضل نفسه فقد مال عن الحق ، وكفر بالله ، وأشرك معه آلهة أخرى ، وعبدها .

(٨٢٢)

فيأمر الله الإنسان وقرناه يترك الخصومة بين يديه فقد مضى العهد ،
وقضى الأمر بالعدل ، ولا ظلم فى هذا اليوم لأحد ، وسوف تمتلئ
جهنم بمستحقها .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

تخاصم أهل النار فى الآخرة

تقدم الآيات صورة الخزى والضياع التى يعيشها المحرمون فى الآخرة
حيث يدفعهم قرناؤهم إلى جهنم ، ومعه كتبهم ، ويقول القرين لله هذا هو المجرم
، وهذا كتابه ، وهو كل ما عندى له فقد أدبت رسالتى ، وسجلت عليه كل فعله
... فيأمر الله السائق والشهيد ، ويقول لهما : ادفعا كل كافر إلى جهنم فقد
عاند ، وعصى ، وكفر ، وجعل مع الله إلها آخر فهو لا يستحق اليوم
إلا العقوبة الأليمة .

ويحاول المجرم أن يتخلص من العقاب ، ويلقى الملام على قوينه ، فيرد
عليه القرين ، ويقول : ربنا لم أضله ، ولم أدعه إلى طغيان ، ولكنه عشق الكفر
وأحبه ... فيأمر الله بعدم التنازع والرضا بالقضاء فقد وعد به واليوم هو يوم
الجزاء ، ولن يخلف الله وعده .

هذه الحالة من التخاصم يعيشها الظالمون يوم القيامة ، ولن يجد بهم
دفاع ولن يفيدهم تراجع .

ولهذا وجب على العقلاء أن يعملوا ليوم الحساب فهو آت لا ريب فيه .

جزاء المتقين فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۖ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ۖ مَن خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۖ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۚ هُمْ مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۚ ۝﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مصير المشركين فى الآخرة جاءت هذه الآيات لبيان مصير المؤمنين عند الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن المتقين يفوزون بجنات النعيم التى تقترب منهم ، وتظهر لهم عند الحساب ، ويعرفهم الله بمقعدهم فيها ، حيث المتعة والأمن والرضا ، وتحقيق ما يشاءون .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۖ ﴾ أى وقربت الجنة للذين عبدوا الله ، وخافوا عقابه ، وعملوا لثوابه ورضوانه ، يجدونها أمامهم عند الحساب فيفرحون ويطمئنون لمصيرهم ، ومكانتهم فى الآخرة .

﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ۖ ﴾ أى إن الجنة يقربها الله من أصحابها فتبدو أمامهم فيفرحون بها ، وهى بجوارهم .

﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ ﴾ أى وتقول لهم الملائكة : هذا هو الوعد الذى وعدكم الله به ، وها أنتم تشاهدونه ، وترونه .

﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٍ ﴾ مِّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مَُّنِيبٍ ﴿١٨٣﴾ أى قد أعد الله الجنة لكل إنسان رجع إلى الله تعالى ، وآب إليه وحفظ حقوقه ، وحافظ على دين الله تعالى ، وخاف ربه وهو بعيد عنه ، ولقيه بقلب طاهر خاشع ذليل .

وتقول لهم الملائكة : ﴿ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ أى تقول لهم الملائكة تكملة لهم : ادخلوا الجنة سالمين من الهموم ، والأكدار ، والعذاب فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أى اطمئنوا ، واسكنوا ، وقروا عينا فأنتم فى دار البقاء والخلود الذى لا موت بعده ، ولا ظعن ، ولا رحيل .
وقد ثبت أنه بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ينادى مناد من قبل الله تعالى : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت^(١) .

﴿ هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ أى يتحقق للمتقين كل ما يريدون ويشتهون ، وعند الله لهم مزيد من العطاء لم يروه ، ولم يتوقعوه ، وهو رؤية الله تعالى .

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج ٨ ص ١٨٣ .

(٨٢٥)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يقرب الجنة من أصحابها ، ويضعها بجوارهم ، يرونها ، ويسعدون بمقعدهم فيها ، ويعرفهم هذا ما وعدهم الله به فقد قاموا بما وجب عليهم من طاعة ، وعبادة ، وتقوى ، واستقامة ، ولذلك يناديهم الله ويأمرهم أن يدخلوها بسلام آمنين خالدين فيها ، ويعرفهم أن لهم فيها ما يشاءون ، ويكرمهم الله بالنظر إلى وجهه الكريم .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هى :

نعم أجر العاملين

يسعد المؤمنون فى الآخرة برضوان الله ، ويفرحون بما أعد الله لهم من نعيم مقيم ، ويريههم الله الجنة قريبة منهم بحسنها ، وعظمتها ويضعها الله تحت أيديهم تنساب أنهارها رفراقة نقية تحت ناظرهم ، ويتحقق لهم ما وعدهم الله به .

لقد استحق المؤمنون هذا الفضل العظيم بعملهم ، واعتمادهم على الله ، ورجوعهم الدائم إليه ، ومحافظتهم على دين الله تعالى ، والاتباع الدقيق لما أمر الله به ، وخشيتهم له .

إن الله يجازى المتقين بالجنة ، ويدخلهم فيها بين السلام والترحيب ، ويتجلى عليهم سبحانه وتعالى ، ولهم فى الجنة المقام المكين .

أهمية التذكير بالقصص والآيات

يقول الله تعالى :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٨﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة مصير الكافرين ، وأحوال المؤمنين فى الآخرة جاءت هذه الآيات تتصح بالاستفادة من قصص الماضى ، والنظر فى آيات الله الكونية .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أن الله أهلك الأمم الكافرة فى الماضى بسبب كفرها ، وأوجد السموات والأرض فى ستة أيام بلا تعب ليتذكر كل من له عقل ، ويعرف الخالق ، ويؤمن بالله تعالى ، ويستقيم على منهجه ليفوز بجنات النعيم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾ أى قد أهلكنا كثيرا من الأمم السابقة بسبب تمسكهم بالكفر ، واستمرارهم عليه ، وما أغنت عنهم قوتهم ، ولم يتمكنوا من الهرب

والإفلات ، وكانوا أشد من مشركى مكة قوة ، وأكثر سلطانا وغنى ، وأكبر حركة فى الأرض ... وفى هذا تحذير لأهل مكة حتى لا يكونوا مثلهم .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ

شَهِيدٌ ﴾ أى فى هذه الدلائل والبراهين المذكورة تأثير كبير فى كل من له عقل واع ، يحركه ، ويستفيد به ، ويسمع النصح ويتبعه ، ويرى ما فى الكون من آيات ويهتدى ، ويعتبر بما فى القصص من عبر ودروس .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا

مَسْنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ أى خلق الله الكون السماوى والأرضى وما بينهما فى مدة وجيزة بلا نصب ولا تعب ، وسخره الله للناس ليكون دليلهم إلى الإيمان ، ويجعلهم يعرفون بفضل الله تعالى .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله ترك فى الناس دلائل قدرته ، وبراهين وحدانيته ليستفيدوا بها إيماناً وتقى ، فقد أنعم على الأمم السابقة وآتاهم قوة وبطشا فلما كفروا أهلكتهم ودمرهم ، وهو سبحانه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام بلا تعب ولا نصب .

إن الذى يستفيد بهذه الحقائق هم المتقون أصحاب القلوب الطاهرة ، والعقول الفطنة ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ويرون الكون ويتعظون به .

(٨٢٨)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآية ركيزة هامة ... هى :

العاقل من انعط بغيره

جعل الله تعالى الماضى عبرة للحاضر ، ودرسا للمستقبل ، وعرف الناس بقصص السابقين ، وبينها على حقيقتها لتكون الطريق الموصل لله تعالى .

فلقد أهلك الله قبل مشركى أمما عديدة بصور من المهلكات عديدة ، ولم يستطيعوا الإفلات منها ، أو النصر عليها .

إن كل صاحب عقل يأخذ لنفسه عبرة وهو يرى قدرة الله تعالى فى الماضى والحاضر فأحداث التاريخ تشهد على الماضى وتقدمه لأولى النهى آيات بينات على قدرة الله تعالى .

والكون الموجود بسمائه ، وأرضه ، وما فيهما ، وما بينهما آيات تشهد على قدرة الله تعالى ... ومسار الدنيا إلى مسيرتها ، ونهايتها ، وانتقال الناس منها إلى الآخرة تطبيقات لقدرة الله التى بينها للعالمين .

إن الله مالك الملك ، ومصرف الخلق ، وهو المحيى والمميت ، وهو الذى يبعث الناس ويحاسبهم ، ويجازيهم ف سبحانه الله رب العالمين .

نصائح إلهية لرسول الله ﷺ والمؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ۝ وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۝ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ۝ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۚ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ۚ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ۝ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة آيات الله ودلائله في الكون على قدرته ووحدانيته جاءت هذه الآيات تأمر رسول الله ﷺ بالصبر والتحمل ، والاستمرار في التقوى والعبادة فإن يوم القيامة آت لا ريب فيه وإلى الله المصير .

- ٢ -

موضوع الآيات

تأمر الآيات رسول الله ﷺ بالصبر على أكاذيب المشركين ، وبالاستمرار في عبادة الله تعالى في كل وقت ، والاستعداد للبعث والحشر الذي يحدث عند الصيحة الثانية ، حيث يقوم الناس من مرقدتهم ، ويخرجون من قبورهم إلى أرض المحشر للحساب ... فدع الأمر لله ، ودم في تذكير الناس بالقرآن الكريم.

(٨٣٠)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أى اصبر يا محمد على إنكار المشركين للبعث ، وقولهم باستحالتهم ، واستمرارهم على عبادة الأصنام والأوثان .
﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ونزه الله من كل نقص ، وعظمه كما ينبغي لجلال وجهه ، وكمال سلطانه .

﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ أى حافظ على إقامة الصلاة فى أوقاتها الخمسة حيث صلاة الصبح قبل طلوع الشمس ، وصلاة الظهر بعدها صلاة العصر قبل الغروب ، وصلاة المغرب والعشاء أثناء الليل .

وذكر طلوع الشمس وغروبها ، ونزول الليل مع الأمر بتسبيح الله دليل على رحمة الله الذى وزع العبادات على الأوقات ، وجعل لخلقه الليل والنهار .
﴿ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبِرَ السُّجُودِ ﴾ أى سبح الله تعالى فى الأوقات كلها وعقب ركعتي المغرب والفجر لما لهما من تأثير ينير للقلوب ظلام الليل ، ويحيى الروح فى غفلة الليل البهيم ، وكأنهما يصنعان حراسا للإنسان فى ليلة ونهاره .
عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : لم يكن النبي ﷺ على شئ من النوافل أشد تعاهدا منه على ركعتي الفجر^(١) .

وعنها رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها"^(٢) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجمعة . باب تعاهد ركعتي الفجر ج ٢ ص ٥٧ .

(٢) صحيح مسلم . كتاب صلاة المسافرين . باب استحباب ركعتي سنة الفجر ج ١ ص ٥٠١ .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : "ما أحصى ما سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في الركعتين بعد المغرب والركعتين قبل صلاة الفجر يقل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد" (١) .

وعن ابن عباس قال : أمر رسول الله ﷺ أن يسبح في أدبار الصلوات كلها يعني قوله وأدبار السجود (٢) .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وحمد الله ثلاثا وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، فذلك تسعة وتسعون ثم قال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، غفرت ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر" (٣) .

وعنه رضي الله عنه : "أن فقراء المسلمين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات والنعيم المقيم فقال : وما ذاك ؟ قالوا : صلوا كما صلينا ، وجاهدوا كما جاهدنا ، وأنفقوا من فضول أموالهم وليست لنا أموال .

قال ﷺ : أفلا أخبركم بأمر تدركون به من كان قبلكم ، وتسبقون من جاء بعدكم ، ولا يأتي أحد بمثل ما جئتم به ، إلا من جاء بمثله ، تسبحون في دبر كل صلاة عشرا وتحمدون عشرا ، وتكبرون عشرا" (٤) .

﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أى استمع يا محمد نداء المنادى حين البعث فسوف يسمعه كل الخلق بوضوح ، وكأنه يناديهم من

(١) شعب الإيمان . كتاب تعظيم القرآن . باب ذكر ألهاكم التكاثر ج ٤ ص ١٣٣ .

(٢) صحيح البخارى . كتاب تفسير القرآن . باب قوله : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ ج ٦ ص ١٣٩ .

(٣) صحيح مسلم . كتاب المساجد . باب استحباب الذكر بعد الصلاة ج ١ ص ٤١٨ .

(٤) صحيح البخارى . كتاب الدعوات . باب الدعاء بعد الصلاة ج ٨ ص ٧٢ .

مكان قريب منهم ، ويقول لهم : هلموا إلى الحساب فيقومون من قبورهم ،
ويقبلون إلى الحشر كأنهم جراد منتشر فى الأرض .

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ﴾ فى يوم القيامة يسمع الجميع
صيحة البعث على حقيقتها فتعود أرواحهم إلى أجسادهم ، ويقومون استجابة لله
رب العالمين .

﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ أى هذا هو يوم الخروج من القبور ، والانتشار
فى الأرض والتحرك من كل فج للوصول إلى أرض المحشر ، حيث تجتمع
الخلائق كلها للحساب والجزاء .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِىْ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ أى إنا نحى الخلاق فى الدنيا
ونميتهم عند انقضاء أجالهم ، والينا رجوعهم بالبعث والحشر والجزاء .

﴿ يَوْمَ تَشْهَقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ﴾ أى فى يوم القيامة تتشقق
الأرض عنهم ، ويخرجون منها أحياء بأرواحهم وأجسادهم ، مسرعين إلى أرض
المحشر .

﴿ ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ أى وهذا الحشر هين سهل نجتمع فيه
جميعا مقبلين من كافة أرجاء الدنيا أينما كانوا للحساب والجزاء .

﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أى نحن أعلم بكل ما قالوه عن البعث وعن
الله وعن جميع أنشطتهم التى قاموا بها فى الدنيا ، وسوف نحاسبهم عليه .

﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ﴾ أى ولست عليهم يا محمد جبارا مسيطرا فى
الدنيا حتى تقهرهم على الإيمان بالله وبالبعث ، وإنما أنت منذر ، ولست عليهم
بمسيطر .

(٨٣٣)

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ أى فذكر يا محمد الناس بالقرآن الذى أنزلته عليك ، وأقرأه عليهم ، ولن يستفيد به إلا من خضع قلبه ، وعمل لما بعد الموت ، واجتهد فى الطاعة ليفوز بالجنة ورؤية الله تعالى ، وخاف عذاب السعير .

هذا :

ومازال وقع هذه السورة فى قلبى شديدا ، اذكر بها جلال الموقف ، واتصور قسوة الموت ، ووقوع البعث ، ونصب الميزان ، ونشر الصحف على ملا من الرسل والناس أجمعين .

إنى أذكر بهذه السورة حادثة خالدة فى ضميرى وعقلى ، ووجدانى ، فلقد سألت ابنى/ عبد الله قبل وفاته بثلاثة أيام عن حفظه للقرآن الكريم ، فأجابنى بأنه حريص على حفظه ، فطلبت منه أن يقرأ علي سورة "ق" من حفظه ، بصوته الجميل الذى أعده منه ... فقرأها علي بتلاوة مجودة فباركت له ، وسألت الله له التوفيق .

واشهد أنه لم يخطئ فى حرف منها فسررت به ودعوت له ... وبعد هذا الموقف بثلاثة أيام لقى ربه محترقا بعد أداء صلاة العشاء والتراويح معنا فى مسجد الأرقم بن أبى الأرقم .

اللهم ارحمه برحمتك ، وادخله الجنة بعفوك ، وأنزله منازل الصديقين والشهداء والصالحين .

اللهم أبدله دار خيرا من داره ، وأهلا خيرا من أهله ، وتجاوز عن سيئاته ، وضاعف حسناته ، وأجزل له العطاء .

اللهم اجعل قبره روضة من رياض الجنة ، واملأه عليه نورا وسلاما ورحمة .

اللهم ارزقه الحور العين تؤنسه ، وتسعده ، وترضيه .

(٨٣٤)

اللهم متعة بصحبة الحبيب المصطفى ﷺ ، واجعله من الأبرار المنعمين .

اللهم اجمعنا به في الآخرة ، واجعل جنتك مأوانا معه ، في صحبة أمه واخوته وأحبابه .

اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده ، واغفر لنا وله ، إنك أنت الغفور الرحيم ، وأنت على كل شيء قدير .

- ٤ -

معنى الآيات

تأمر الآيات النبي ﷺ أن يصبر ، ويستمر في عبادة الله تعالى ، ويحافظ على الصلوات ، وأن يستمع نداء المنادى للبعث حيث تتطلق الصيحة الثانية ويقوم الناس لرب العالمين ، ويخرجون من قبورهم إلى أرض المحشر للحساب والجزاء .

ويأمر الله رسوله ﷺ أن الناس تركهم الله ، فعليه البلاغ والتذكير بالقرآن الكريم وعلى الله الحساب والجزاء .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

توجيهات عالية للدعاة إلى الله تعالى

تختتم سورة "ق" مواظها بتوجيه رسول الله والمؤمنين معه بعدد من النصائح تريحه في الدعوة ، وتسعده في الآخرة ... وهي :

(١) تأمر بالصبر وتحمل الأذى ، والاستمرار في الدعوة لأن الضال

كالمريض ينفر من الدواء الذي يسفى به .

(٨٣٥)

- (٢) توجه إلى ضرورة عبادة الله في جميع الأوقات .
- (٣) توجه إلى الاستعداد الدائم للقاء الله تعالى حيث يبعث الله من في القبور ويحاسب على الأعمال كلها .
- (٤) تأمر بتذكير الناس بالقرآن الكريم فهو يأمر بالعدل والإحسان ، ويحذر من الحساب والعقاب .
- وقد جاءت هذه الآيات ختاماً لسورة "ق" لتتطابق ، وتؤكد ما جاء في السورة كلها .



إلى هنا ينتهي تفسير سورة "ق" بتوفيق الله تعالى .

سورة "الذاريات"

في أثنائها يبدأ الجزء (٢٧)

عند قوله تعالى :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ .

سورة "الذاريات" آية [٣١]

(٨٣٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨٣٨)

- أولا -

التعريف بسورة "الذاريات"

سورة "الذاريات" سورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها عند جميع المفسرين ستون آية .

ولها اسم واحد هو "الذاريات" وهو الاسم المذكور في أول كلماتها ، والبعض يسميها بـ "والذاريات" مصدرة بواو القسم كما هي في السورة .
ووجه صلة سورة "الذاريات" بسورة "ق" :

- (١) إنه قد ذكر في سورة "ق" البعث ، والجزاء ، والجنة ، والنار ، وافتتح سورة "الذاريات" بأن ما وعد الله من ذلك صدق ، وأن الجزاء واقع .
- (٢) إنه ذكر في سورة "ق" إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال ، وفي سورة "الذاريات" ذكر ذلك على وجه التفصيل .

وقد احتوت سورة "الذاريات" على وقوع البعث والجزاء ، وابطال مزاعم المكذبين به وبرسالة محمد ﷺ ورميهم بأنهم يقولون بغير تثبت ، ويعددهم بعذاب يفتنهم .

كما احتوت على وعد المؤمنين بنعيم الخلد وذكر السبب الذي استحقوا به تلك الدرجة من الإيمان والإحسان .

واستدلّت السورة على وحدانية الله وعلى إمكان البعث ببعض المخلوقات التي يشاهدونها ، ويحسون بها لأنها تدل على سعة قدرة الله تعالى وحكمته على ما هو أعظم من إعادة خلق الإنسان بعد فناءه .

وتنذر السورة أهل مكة وغيرهم بما حاق بالأمم التي كذبت رسل الله ، وتبين الشبه التام بينهم وبين أولئك السابقين ، وتلقن هؤلاء المكذبين الرجوع إلى الله وتصديق النبي ﷺ ونبذ الشرك . ومعدرة الرسول ﷺ من تبعة إعراضهم والتسجيل عليهم بكفران نعمة الخلق والرزق ، ووعيدهم على ذلك بمثل ما حل بأمثالهم .

(٨٣٩)

- ثانيا -

- التفسير -

عذاب الله واقع بالظالمين

يقول الله تعالى :

﴿ وَالذَّرِيَّتِ ذُرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقْسِمَتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الْدِّينَ لَوْ فُتِحَ ﴿٦﴾ ۝ .

- ١ -

موضوع الآيات

يقسم الله تعالى بالرياح وهى تحرك التراب والبخار ، وتحمل السحاب ،
وتجرى في مسارها ، وتقسم الأمطار وتوزعها على الأرض على أن البعث
حق ، والجزاء واقع .

- ٢ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالذَّرِيَّتِ ذُرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا ﴿٣﴾
فَالْمُقْسِمَتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ۝ هذه أوصاف أربعة للرياح وأحوالها أقسم الله بها
لأهميتها وصلة بالناس .

والذاريات هى الرياح التى تنتشر التراب ، وبخار الماء في الجو ، وتصنع
منه سحابا ثقيلًا يتكون فى طبقات الجو العليا ، وتحرك به من مكان إلى مكان
بسهولة ويسر ، وتقسمه للناس ، وتنزله مطرا على الأماكن التى يقدرها الله
تعالى .

(٨٤٠)

والله فاعل ذلك كله ، وانما أسنده الله إلى الذاريات من قبيل المجاز المرسل بعلاقة المشابهة .

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن المقسم به ليست أوصافا للرياح ، وانما هي مخلوقات متعددة جعل الله لكل منها وظيفة خاصة بها ، وان جاءت مترابطة ، فالذاريات هي الرياح التي تذرو التراب وذرات الماء ، والحاملات هي السحاب تحمل المطر الثقيل ، والجاريات هي السفن تسير على سطح الماء في يسر ، والمقسمات هم الملائكة الذين يقسمون أرزاق الناس بأمر الله تعالى .

والأولى أن تكون وصفا للرياح تقدم صورة متكاملة لها ، وتقدير والفوائد التي جعلها الله للرياح التي خلقها ، وأوجدها وسيرها في الكون كله ... وبخاصة أن العطف في هذه الصفات جاء بالفاء ، وهذا يفيد ترابطها في كائن واحد وتقاربها في الظهور .

وقد أقسم الله بالرياح لبيان عظمتها ، ودورها في حياة سائر الكائنات وحين يتأمل الإنسان الرياح يعرف قدرة الله تعالى .

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أى إن البعث الذى وعدكم الله به حق فاستعدوا له .

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أى إن الجزاء على الأعمال أمر محقق .

وصلة المقسم به بالمقسم عليه واضحة ، ونقاط الالتقاء بين الرياح والبعث موجودة ... فمبدأ الرياح نفخ ، فتكوين ، فإحياء ، وكذلك البعث مبدؤه : نفخ في الصور ، فالتثام أجساد الناس التي كانت معدومة أو متفرقة ، فبث الأرواح فيها فإذا هم قيام ينظرون .

وفى هذا إشارة إلى أن الذى قدر الرياح ، وحدد لها مهامها قادر على إعادة الحياة إلى الأجساد بعد فنائها .

(٨٤١)

- ٣ -

معنى الآيات

يقسم الله تعالى بالرياح التي تثبت التراب وذرات الماء في الهواء ، وتحمله بخارا إلى العلا ، وتسيره سحابا في طبقات الجو العليا ليسقط مطرا يفيد الناس ... يقسم الله بذلك لإثبات قدرته على وقوع البعث والحساب والجزاء .

- ٤ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

حسن البيان في أقسام القرآن

تقدم الآيات منهاجا حسنا في الدعوة إلى الله تعالى في إطار صورة بيانية هي القسم ، وفيها نرى أن الله اختار من خلقه موجودات أقسم بها على إثبات أمر آخر هو المقسم عليه .

وحين نتأمل في أسلوب القسم القرآني نستفيد ما يلي :

أولا : يأتي القسم القرآني لإثبات أمور هامة اتخذ منها المعارضون موقف الإنكار والرد ، وهذا يفيد أن القسم أحد وسائل إثبات ما جاء في المقسم عليه لتضمنه عدة مؤكدات لفظية ومعنوية .

وقد درج العرب على تضمين القسم عددا من المؤكدات اللفظية مثل حرف القسم ، والمقسم به ، واللام الواقعة في جواب القسم إلى غير ذلك من المؤكدات اللفظية .

(٨٤٢)

ومن مؤكدات القسم المعنوية إشارته إلى كراهية المقسم للمعارضين وأهمية القضية التي يقسم على وقوعها ... وان لا ما لجأ الحالف إلى هذا الأسلوب .

ثانيا : يؤكد القسم القرآنى بكل أركانه القضية التي يثبتها ، فحرف القسم والمقسم به يعد براهين ، وأدلة للمقسم عليه ، والمقسم عليه قضية إيمانية ثابتة ، وما جاءت جملة القسم إلا لتأكيدهما ، وبيان أهميتها .

ثالثا : يتميز القسم في القرآن الكريم بأن الله يقسم ببعض مخلوقاته لتكون آيات ، وبراهين على المقسم عليه ، لأن المقسم به في القرآن يكون من مخلوقات الله الدالة على وحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وسائر صفائه ليعلم من يقرأ أو يسمع أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات قادر على إيجاد المقسم عليه .

رابعا : يتطابق المقسم به مع المقسم عليه ، وتتشابه جزئياتهما ، فالمقسم به في الآيات ريح يحمل غبارا وبخارا ، ويصعد به إلى العلا ليكون سحابا يتحرك بالماء حتى ينزله الله مطرا ليحيى به الأرض بعد موتها ... والمقسم عليه بشر تموج بهم الدنيا ، ويتقلبون فيها ، وعند أجلهم يدفنون في القبور ، ويستمرون فيها إلى يوم البعث حيث يقومون من موتهم ، وينتشرون في الأرض كحبات المطر ، ويجتمعون في أرض المحشر ليتم الحصاد ، ويتحقق المستقر إما في الجنة وإما في النمر .

خامسا : يختار الله من مخلوقاته ما هو قريب من الناس ، وما هو معلوم لهم ، ويقسم به تقريبا للمقسم عليه ، وبذلك يتعامل النظم القرآنى مع طاقة العقل البشرى ليصل به إلى الإيمان باليوم الآخر .

إن القسم القرآنى وسيلة للدعوة إلى الله تعالى ، وتأكيد لرحمة الله بالناس وحبه لإيمانهم وصدقهم .

وللدعاة درس في القسم القرآنى ، وهو ضرورة سهولة الدليل ، وسوقه ليصل للجواب وحده ، ولابد من محاوره الناس بآيات الله ليعودوا إلى الله ... إنما يتذكر أولو الألباب .

الركيزة الثانية البعث حق

تؤكد الآيات وقوع البعث ، وترد على الجاحدين المنكرين له .
إنهم يبنون إنكارهم على استحالة عودة الحياة بعد الفناء ، ويذهبون إلى استحالة إحياء الموتى بعدما رمت ، وبليت ، وصارت ترابا ، وبعد تناثر التراب في أماكن شتى ، وتداخل الأجساد في بعضها ، ولذلك ضرب الله للناس أدلة يرونها ، ولا يعرفون سببها ، أو غايتها ، فالريح تجرى في كل اتجاهات الأرض ، ولن يصل عالم إلى كيفية تكونها ، وسبب هبوبها ، وتقلبها في مساراتها وعصيتها ، وقوتها ... إنها تفيد وتضر ، وتسرع وتبطئ ، والعلماء لا يقدرّون على تغيير اتجاهاتها ، ولا التصدى لأضرارها ... وكذلك السحاب ، والمطر ، والأرض ، والسفن في حركتها ومسارها تخضع لقدرة الله تعالى .
وكل ذلك حجج بيّنة على وقوع البعث ففقدرة الله شاملة ، وعلمه محيط ، وبعث الخلائق من مكنون قدرته سبحانه وتعالى . يقول الله تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ ^(١) ، ويقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ

(١) سورة يونس ، الآية ٥٣ .

(٨٤٤)

وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ
فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿٦﴾ ﴿١﴾ .

والمؤمن الكيس هو من يضع حقيقة البعث في نفسه ، ويخلص في دنياه
ويستقيم على صراط الله المستقيم لينجو من عذاب هذا اليوم الشديد .

مواجهة منكرى البعث بآيات الله

يقول الله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ ﴿٩﴾ قَتَلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَقٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ
الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارٍ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَتَنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة وقوع البعث بالقسم عليه جاءت هذه الآيات لبيان
اختلاف المشركين في الجوانب الدينية ، وتباينهم في أسباب الكفر ، واتحادهم
في الغايات الضالة ، وتوضح الآيات إنذار المكذبين الضالين .

- ٢ -

موضوع الآيات

يقسم الله بالسماء ، وجمالها ، وتنسيقها على اختلاف المشركين في الكفر
والضلال ، وتدعو عليهم بالفناء والهلاك .

(١) سورة الحاقة ، الآيات ١٣ . ١٦ .

(٨٤٥)

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوبِ﴾ يقسم الله بالسماء وما فيها من حسن ، وجمال ، واتقان ، وكمال .

﴿إِنْكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هذا جواب القسم ، ومعناه إنكم تختلفون في مظاهر كفركم ، وعمله فتذهبون في إنكار القرآن الكريم ومحمد ﷺ مذاهب شتى ، فمنكم من يراها كذبا ، وآخرون يرونهما سحرا وكهانة ، ومنكم من يذهب إلى أن القرآن الكريم من أساطير الأولين التي نقلها محمد ﷺ من تاريخ السابقين ، وزعم أنها كلام الله تعالى .
وقيل : إن المعنى إنكم تختلفون في القرآن الكريم ، ومحمد ﷺ بين مصدق ومكذب ، ومؤمن وكافر .

﴿يُؤْفِكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أى يصرف الله عن الإيمان بالقرآن وبمحمد ﷺ من يستحق ذلك من أصحاب القلوب الحاقدة ، والنوايا السوداء ، فهو سبحانه عليم بما في الصدور ، ولذلك كان ميل الإنسان لأمر ما سببا لإيقاع هذا الأمر بقدرة الله تعالى ، فيكذب بالوحي من كرهه ، ويصير ضالا من عشق الكفر والضلال .

﴿قَتَلَ الْخَرَّصُونَ﴾ أى يهلك الله الكذابين الذين يفترون الكذب على رسول الله وعلى اليوم الآخر ولا يطيعون منهج الدين ، ويضلون عن الحق ضلالا بعيدا .

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍ سَاهُونَ﴾ أى قتل الله الكذابين الذى يعيشون في غفلة عن الحق بعد بيانه وظهوره ، وقد أحاطهم الله بجهالة تنسيهم الحق ، وتعميهم عن الصراط المستقيم .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾ ؟ ... أى يسأل أهل مكة المكذبون عن

ميعاد يوم الحساب مستهزئين به ، فلا يناقشون أدلته ، ولا ينظرون براهينه ،
وانما يسألون عن مواعده ، وهم يعلمون أن الله غيبه عن الناس ليفاجأوا به ،
ويستعدوا له إن كانوا عقلاء ، ويعلمون أن كل نفس تتال جزاء ما قدمت ، وهم
لا يصدقون بذلك ، ويسألون عنه مستهزئين بأخباره ، وانكار وقوعه .

إن المشركين يستهزئون ، ويسألون ، ويجهلون ما به يتعاملون ،
ولو نظروا لأنفسهم لوجدوا أن السيد يرعى عبده ، ويسأل عنهم ، ويكرمهم ،
ويساعدهم في الوصول للخير والصواب . فما لهم يكذبون بيوم الدين ؟

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أى يجيب الله عليهم ، ويعرفهم إن

يوم القيامة سيقع ، وسيرونه في يوم عرضهم على جهنم ، ورؤيتهم المصير
البيئس ، ووقوعهم في العذاب الأليم جزاء على كفرهم ، وعقوبة على جرائمهم
القولية والعملية .

﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ ﴾ أى وتقول الملائكة لهؤلاء الضالين المكذبين تمتعوا

بالنار التى تحفكم ، وتؤلمكم ، ويقول الله مستهزئاً بهم ﴿ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ

تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى هذا هو يوم الجزاء الذى استهزأتم به ، وسخرتم بمحمد ﷺ

بسببه وها هو اليوم واقع بكم ، وفيه عذابكم ، فالיום ﴿ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ

بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ^(١) .

(٨٤٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله أقسم بالسماء وما فيها من مخلوقات حسنة جميلة ومتنوعة على اختلاف المشركين في شأن محمد والقرآن الكريم ، ويظهر اختلافهم في سبب الكفر ومظاهره ، وقد دعا الله عليهم بالهلاك بسبب غفلتهم ولهوهم ، وهم من جحودهم يستهزئون بمحمد ﷺ وبالיום الآخر ، ويقولون متى هذا الوعد ؟

يدعو الله على هؤلاء الناس بالهلاك ، بسبب غفلتهم عن الحق ، واستهزائهم به ، وينذرهم بعذاب أليم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات ركيزة هامة ... هي :

ويل للمكذابين

يتمادى الضالون في ضلالهم ، ويتصورون أن الحق معهم ، ويذهبون في الكفر مذاهب شتى ، وهم في كل عقيدتهم كاذبون .
إنهم يعيشون في نعم الله وينكرونها ، ويتجلى كذبهم في أقوالهم ، فيكثرون التهم ، ويستهزئون برسول الله ، وبما جاءهم به .
وتبين الآيات أن الله تعالى سيهلك هؤلاء الكاذبين لأنهم غفلوا عن رؤية الحق ، واتبعوا أهواءهم ، واستهزأوا بأخبار مجئ اليوم الآخر ، وسوف يعاقبهم الله على ضلالهم ، ويسخر منهم ، ويقول لهم : ذوقوا ما كنتم تعملون .
إن نار جهنم تحيط بهؤلاء المكذابين من كل جانب جزاء كفرهم الذي عارضوا به رسول الله ، والقرآن الكريم ، وعاشوا بكفرهم تيها وكبرا على المؤمنين في الدنيا .

إن مصير المكذبين واضح ، وخزيهم عند الحساب كبير ، وقد بينه الله للناس ليتذكروا أولو الألباب .

مواقف المتقين وجزاؤهم في الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ ءِإِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿٢﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٣﴾ وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٤﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٥﴾ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٦﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٨﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة عاقبة المكذبين الذين غفلوا عن الحق ، وعصوا الرسول ، واستهزأوا باليوم الآخر جاءت هذه الآيات ببيان حال المتقين في الآخرة ، وتوضيح أهم ما تميزوا به في الدنيا من أعمال وأقوال ، وكيفية استفادتهم بآيات الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات النعيم الحسن الذى سيقم فيه المتقون في جنات النعيم جزاء إيمانهم ، واحسانهم في طاعة الله تعالى ، وقيامهم بأداء الصلاة ، والاستغفار

وانفاق المال ... وحسن اعتبارهم بآيات الله في أنفسهم ، وفى السماء والأرض
وتيقنهم التام من وقوع يوم القيامة .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى إن الله يجازى الذين خشعوا له
وخافوا منه ، ورغبوا فيما عنده ، وتعلقت قلوبهم بحبه ، وهم المتقون الذين
يجازيهم الله بجنات النعيم بما فيها من خضرة يانعة ، وأنهار جارية ، ورضوان
دائم .

﴿ عَاخِذِينَ مَّا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى إن المتقين يأخذون عطاء الله لهم
في الآخرة ، وهم سعداء به ، مسرورون لما فيه ، وقد أكرمهم الله تعالى
لأعمالهم التى التزموا بها في الدنيا ... وأهمها :

(١) ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ أى أنهم كانوا في الدنيا يتقنون
عملهم ، ويراقبون ربهم في كل قول وعمل ، وقد جعلوا كل حياتهم لله رب
العالمين .

(٢) ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أى كانوا ينامون قليلا من الليل
ويقومون أكثره .

قال ابن عباس : ما تأتى عليهم ليلة إلا يصلون فيها شيئا إما من أولها
أو من وسطها .

وقال الحسن البصري : كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله
وربما نشطوا فجدوا إلى السحر^(١) .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٢٤٢ .

(٣) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أى أنهم يستغفرون الله ، ويذكرونه

ويمجدونه في وقت السحر ، والسحر هو ما بعد منتصف الليل .
ومعنى ذلك أنهم يبذلون جهدهم وحياتهم في حب الله تعالى ، فهم يقضون
ليلهم قائمين ، فإذا جاء وقت السحر أخذوا في الدعاء والاستغفار ليمحو
الله ذنوبهم ، ويستر عيوبهم ، ويكرمهم بجنات النعيم فهم مع شدة
طاعتهم لله يشند خوفهم من العذاب الأليم .

وتخصيص الاستغفار بالثلث الأخير من الليل ، لأنه وقت التهجد ،
والدعاء ، وغفلة أكثر الناس عن التعرض لنفحات الله تعالى ، وفي ذلك
الوقت تكون النية خالصة ، والرغبة إلى الله تعالى متوفرة فهو مظنة لقبول
الإجابة .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي ﷺ إذا قام من الليل
يتهجد يقول : اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ولك
الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت نور
السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ،
ولقاؤك الحق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق
ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ،
وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ، فاغفر
لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به
مني ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١) .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجمعة . باب التهجد بالليل ج ٢ ص ٤٨ .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : من تعار من الليل فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، الحمد لله ، وسبحان الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قال اللهم اغفر لي إلا أستجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته ^(١) .

(٤) ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ أى ويجعل المتقون من

أموالهم جزءا يجعلونه للمحتاجين من الفقراء والمساكين الذين يسألون ، والذين يتعففون ولا يسألون .

(٥) ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أى إن هؤلاء المتقين فتح الله أبصارهم

وبصائرهم ، فنظروا إلى ما في الأرض من آيات تدل على قدرة الله تعالى فزاد إيمانهم ، وقوى يقينهم بربهم فعبدوه مخلصين صادقين .

(٦) ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ أى ونظروا إلى أنفسهم ، ورأوا آيات الله فيها فزاد

إيمانهم ، وتوجه الآية نظر العقلاء للاستفادة بآيات الله في النفس بأسلوب الاستفهام فيقول الله تعالى : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ؟ ... أى أعميتم ولم تروا في أنفسكم عجائب الخلق ، ودلالات القدرة ؟ ...

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ أى وعند الله مقاليد الأمور كلها

فقد قدر الله من الأزل رزقكم ، وما وعدكم به من خير أو شر ، وقد قدر سبحانه وتعالى أن ينزل المطر من السماء على الأرض فينبت الزرع والنبات ويخرج الحب والثمر رزقا للعباد والأحياء .

(١) صحيح البخارى . كتاب الجمعة . باب فضل من تعار من الليل فصلى ج ٢ ص ٥٤ .

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ يقسم الله بعزته ، وجلاله ، ومعالم

قدرته في السماء والأرض أن البعث حق ، وأن يوم القيامة آت لا ريب فيه .

﴿مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ أى لا تشكوا في وقوع البعث ومجئ يوم

القيامة مثل عدم شككم في الألفاظ التى تتلفظون بها ، وتحدثون بها .

وفى هذا القسم من خصائص القسم القرآنى كثير منها ... ففيه إبراز

حرف القسم والمقسم به ، وما يتصف به من قدرة تامة ، وعناية فائقة بكل خلقه

في السماء والأرض .

وفى المقسم به أدلة عديدة شاهدة على البعث والحساب والجزاء ، وفى

المقسم عليه مؤكدات على أن البعث حق لا ريب فيه .

عن الحسن أنه قال فيها : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : "قاتل الله قوما

أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا" (١) .

وعن الأصمعى قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود

فقال : ممن الرجل ؟

قلت : من بنى أصمع .

قال : من أين أقبلت ؟

قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن .

قال : اتل على فتلوت والذاريات فلما بلغت : وفى السماء رزقكم .

قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما

وولى ، فلما حجبت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت

(١) تفسير المراغى ج ٢٦ ص ١٨١ .

(٨٥٣)

رقيق فالتفت فإذا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم على واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا .
ثم قال : وهل غير هذا ؟

فقرأت : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ ﴾ . فصاح وقال : يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقوه حتى حلف (قالها ثلاثا) وخرجت معها نفسه^(١) .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله يجازي المتقين بجنات النعيم ، وبالرضوان الأعلى بسبب أعمالهم في الدنيا فلقد عبدوا الله حق العباد ، وأطاعوه ، وخشعوا له ليلا ونهارا ، وأعانوا غيرهم بالنصح والمال فأعطاهم الله ما يستحقون ، وتوضح الآيات أن المتقين يستفيدون بآيات الله الماثلة في النفس والكون ، ويؤمنون بالبعث والحساب والجزاء إيمانا يقينيا كما يقرون بوجودهم وألفاظهم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

جزاء الله للصالحين

يحسب بعض الناس أن حياتهم في الدنيا تمضي بلا حساب ولا عقاب ، وهذا

(١) تفسير المراغي ج ٢٦ ص ١٨١ .

ظن باطل لأن الله كلف الناس بدينه ، واستعبدهم بشريعته ، وقدر للناس حياة في الدنيا للعمل والسلوك ، وحياة ثانية في الآخرة للحساب والجزاء .

وفى يوم القيامة يفرح المؤمنون بعطاء الله تعالى حيث يرون مقامهم الدائم في جنات النعيم وسط عيون الماء ، وخضرة الأرض ، وحسن الصحبة والاقتران بالحرور العين جزاء لهم على ما قدموا في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح .

الركيزة الثانية

صفات عباد الله الصالحين

توضح الآيات أهم الصفات التي يتميز بها عباد الله الصالحون التي استحقوا بها ما أعد الله لهم في جنات النعيم .

إنهم يؤمنون بالله إيماناً يقينياً ، ناشئاً من تأملهم في آياته في خلقه فهم ينظرون في أنفسهم ويرون قدرة الله في تكوين النفس البشرية بأجهزة عدة ، وطاقات وقدرات من لا شئ ... ويرون قدرة الله في الأرض والسماء ، وكل ما فيهما من دقة ونظام وعناية وفائدة .

وهم يعبدون الله تعالى وحده فيقيمون الصلاة ، وينفقون في سبيل الله ، ويقضون نهارهم صائمين وليلهم متهجدين ومستغفرين وعلى منهج الله مستقيمين .

وهم ينظرون إلى المخلوقات ، وما فيها من عجائب ليؤمنوا بالله العزيز الحكيم .

(٨٥٥)

إن المؤمن يستفيد بعقله ، ويتأمل في الوجود كله ، ويعلم قدره في إطار هذا الوجود المخلوق ، ويستقيم على منهج الله سبحانه وتعالى .

الركيزة الثالثة

يوم القيامة حق لا ريب فيه

حدد الله الأجل ، وقدر الموت ، وجعل الآخرة لإصلاح الحياة الدنيا ، لأن من علم أن الدنيا ليست هي النهاية ، وأن هناك بعد الموت حسابا وجزاء سيحسن عمله في الدنيا لينال جزاء حسنا في الآخرة عند الله تعالى .

وقد أظهرت الآيات قدرة الله تعالى في النفس ، وفي السماء ، وفي الأرض ، وفي كل مخلوق لبيان قدرته على البعث واليوم الآخر لأن الإعادة أسهل ، ومن كانت هذه أفعاله فقد تثبتت قدرته على فعل ما يريد .

ولذلك يقسم الله سبحانه وتعالى بأن البعث حق ثابت يماثل سماعكم للكلام الذين تتطقون به ، فمن أراد الآخرة ، وسعى لها سعيها كان سعيهم مشكورا .

مع قصص سورة "الذاريات"

تناولت الآيات من الآية رقم (٢٤) إلى الآية رقم (٤٦) قصص الأنبياء مكتفية بالعقوبات التي دمر الله بها المكذبين ، ولذلك جاء القصص قصيرا ، وما طالت قصة إبراهيم عليه السلام إلا لأنها تناولت حديث الملائكة مع إبراهيم عليه السلام وطمأنته على أخيه هارون بعد أن أخبروه بأنهم جاءوا لإهلاك قرية "سدوم" وفيها قوم لوط عليه السلام .

وانى هنا أورد هذا القصص مفسرا لآياته ، مكتفيا ببيان معنى كل قصة على أن أورد الركائز المستفادة عقب تفسير آيات القصص المذكورة .

طرف من قصتي إبراهيم ولوط عليهما السلام

يقول الله تعالى :

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ۝

(٨٥٧)

- ١ -

تفاصيل القصتين من خلال دلالة الآيات

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ ؟ ... السؤال

تقريرى لإخبار محمد ﷺ بقصة إبراهيم عليه السلام مع ضيوفه ... والمعنى هل أتاك يا محمد ما حدث بين إبراهيم عليه السلام وبين ضيوفه من الملائكة ، حين مروا عليه قبل أن يذهبوا لإهلاك قوم لوط عليه السلام ؟

وهو حديث هام ملئ بالعبر والعظات ، فهو يوضح صلة إبراهيم بلوط عليهما السلام ومدى الترابط والحب بينهما ، ويبين تمثل الملائكة فى صورة بشر نزلوا ضيوفا على إبراهيم عليه السلام فأراد أن يكرمهم ، ويحسن وفادتهم . وبدأت القصة بالسؤال اهتماما بموضوعها ، وتفخيما لشأنها .

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى اذكر

يا محمد مجئ الملائكة لإبراهيم عليه السلام فقد سلموا عليه عند دخولهم ، فرد عليهم السلام وقال لهم : أنتم ضيوفنا لم نركم قبل ذلك ، ولم نعرفكم ... فمن أنتم ؟

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ أى ذهب إبراهيم عليه السلام إلى زوجته مسرعا ، وجاءهم بعجل سمين بعد أن شواه ، وأعدده للطعام .

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى جهز العجل لهم ، وقدمه لطعامهم ، فلم يأكلوا ،

فدعاهم إلى الطعام متلطفًا ، وقال لهم :

﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ أى لم لا تأكلوا من العجل ، وقد أعددت لكم ؟

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ أى عندما أبى الملائكة أن يأكلوا أضمر

إبراهيم عليه السلام الخوف منهم ، لظنه أنهم بشر يريدون به شرا .

فطمأنوه وقالوا : ﴿ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشِّرْهُ بِغُلَامٍ عَليمٍ ﴾ أى لا تخف منا
فنحن ملائكة الله جننا إليك لنبشرك بغلام يتميز بالعلم ، ونبشر زوجتك بالولد
بعد عقمها ، ويأسها من الحمل .

﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَقٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ أى
أقبلت امرأته إليهم حين سمعت البشرى فرحة بما سمعت وكانت تسمع حديثهم
وتتستر وراءهم ، وسألتهم متعجبة من البشرى : ﴿ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي
شَيْخًا ﴾ (١) ؟

﴿ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾ أى ردوا قائلين :
هذه البشرى هى أمر الله تعالى وقضاؤه ، وهو عليم بعباده ، حكيم في تقديره
وفعله .

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ (٢) أى سألهم إبراهيم عليه السلام عن
الشأن الذى جاءوا من أجله .

﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾ ﴿ ١٦ ﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ
طِينٍ ﴿ ١٧ ﴾ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿ ١٨ ﴾ أى إن الله أرسلنا لنهلك أهل
سدوم (قوم لوط عليه السلام) فقد أجرموا وعبدوا غير الله ، وسلخوا الظلم ، واخترعوا
الشهوات ، وسنلقى عليهم حجارة صغيرة مدببة ، حيث عين الله كل حجر لقتل
واحد منهم فقد سومها الله ، وعين كل حجر لمن سيقنتله .

(١) سورة هود ، الآية ٧٢ .

(٢) يبدأ الجزء السابع والعشرون من أول هذه الآية .

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى أخرجنا من القرية من آمن بالله تعالى ، وصدق بلوط عليه السلام حتى لا يصيبهم ما سيصيب القوم المجرمين .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى لم نجد في القرية غير بيت واحد يقيم به المسلمون ، وهم لوط وبناته وغيرهم ، فخرجوا من القرية ، ونجاهم الله من الحجارة التى دمرت القرية ومن فيها .

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ تَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ أى وأبقينا في القرية بعد هلاكها أثارا تشهد على ما حل بها لتكون نذيرا لمن يأتى بعدهم من الأمم ولأهل مكة وهم يمرون عليها حين سفرهم إلى الشام حتى لا يحل بهم ما حل بهؤلاء الضالين .

- ٢ -

معنى ما ورد في قصتى إبراهيم ولوط "عليهما السلام"

تبين الآيات أن الملائكة جاءوا لإبراهيم عليه السلام في صورة بشرية ، فسلموا عليه ، وسلم عليهم ، وبعدها ذهب إلى زوجته وأحضر لهم عجلا مشويا ليأكلوا ، فلما أبوا الأكل خاف إبراهيم عليه السلام منهم لظنه أنهم يريدون الشر به فسألهم عن سبب عدم أكلهم ، فأخبروه إنهم ملائكة ، فسألهم عن سبب مجيئهم فأخبروه أنهم جاءوا لإهلاك قوم لوط عليه السلام ، وأنهم يبشرونه وزوجته بولد عليم ، فلما سمعت زوجته بالبشرى وكانت قريبة منهم تعجبت وقالت : كيف ألد وأنا عجوز لا ألد ، وقد كنت عقيما في شبابى وزوجى شيخ كبير ، فأخبروها بأن ذلك هو حكم الله ، وهو الحكيم العليم .

(٨٦٠)

وذهبت الملائكة إلى قرية لوط فأخرجوا من كان فيها مؤمنا ، ولم يجدوا إلا بيتا واحدا هو بيت لوط عليه السلام .
وقد أهلك الله القرية بالأحجار الصغيرة التي نزلت ، وأهلك جميع المجرمين وأبقت من آثارها بقايا لمن يخاف الله ، ويخاف عذابه .

طرف من قصة "موسى" عليه السلام

يقول الله تعالى :

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٦٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٦٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٧٠﴾ ۝ ﴾ .

- ١ -

تفاصيل ما ورد في الآيات

﴿ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أى وفى قصة موسى عليه السلام عبرة لأولى الألباب فقد أرسلناه بالحق ، ودين الله ، وأيدناه بالمعجزات ، والآيات الواضحة البينة .
﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ أى أعرض فرعون عن الإيمان ، وكفر بالله تعالى ، واعتز بجيشه وملكه واتهم موسى عليه السلام بالسحر والجنون .

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أى فأهلكناه وجنوده بإغراقهم في البحر عقابا لهم في الدنيا ، وأبقينا على جسده ، وأخرجناه إلى الشاطئ لتكون آية للناس ، وهو ملوم بجرمه وكفره .

(٨٦١)

- ٢ -

معنى الآيات

تبين الآيات ما في قصة موسى عليه السلام من عبرة لأولى الألباب ، فلقد جاء موسى عليه السلام إلى فرعون بالحق ، وأيده الله بالمعجزات البينة فكفر به فرعون ، فانقم الله منه ، وأغرقه في البحر ومعه جنوده ، وأبقى أجسادهم في الشاطئ شاهدة على جرمهم وضلالهم .

أطراف من قصص عاد وثمود وقوم نوح

يقول الله تعالى :

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿١١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ ﴿١٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٤﴾ فَمَا أَصْبَرُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿١٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٦﴾ ۝ ﴾

- ١ -

تفاصيل ما ورد في الآيات

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿١١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ ﴿١٢﴾ ۝ ﴾ أى أهلكنا عاداً بعد أن أصروا على الكفر والضلال بأن أرسلنا عليهم ريحاً أهلكتهم ودمرتهم ، ولم تدع منهم أحداً إلا جعلته هامداً ساكناً يشبه الأموات والرمم البالية .

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٤﴾ فَمَا أَصْبَرُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿١٥﴾ ۝ ﴾

(٨٦٢)

كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٨٦٢﴾ أى تؤخذ العبر أيضا من مصير ثمود فقد انظرهم الله ثلاثة أيام يتمتعون فيها ، وبعدها تأتيهم الصاعقة وهم ينظرون إليها ، ويسمعون صوتها وتقضى عليهم وهم جلوس عاجزون عن القيام ، ولم يجدوا لهم نصيرا . ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ ﴾ وفى قوم نوح عبرة وعظة فقد أهلكهم الله تعالى قبل عاد وثمود بسبب ما كانوا فيه من فساد وضلال .

- ٢ -

معنى الآيات السابقة

تناولت الآيات أطرافا من قصص عاد وثمود وقوم نوح لبيان ما نزل بهم من عذاب أليم .



ركائز الدعوة في القصص المذكورة

يشير القصص المذكور إلى ركيزة واحدة ... هى :

هلاك المكذبين الضالين

يركز القصص المذكور في الآيات على العقوبات التى أنزلها الله بالمكذبين الضالين لتكون إنذارا وتحذيرا لأهل مكة الذين أشركوا بالله ، وأصرروا على الكفر ، وغفلوا عن مدلولات ما يشاهدون من أحداث الماضى القريب والبعيد ، وآيات الله في النفس والكون والحياة .

وقد جعل الله هذا القصص خطابا لرسول الله ﷺ فقال الله له : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ يا محمد ﴿ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ وعطف على حديث ضيف إبراهيم عليه السلام سائر القصص المذكور مكتفيا بالعقوبات التي أنزلها الله بالمكذابين الضالين ... ويستفاد من هذا القصص ما يلي :

أولا : إن الله لم ينزل عقوبته على أقوام الرسل إلا بعد أن جاءهم رسولهم ، وأيده بالمعجزات ، وقدم البراهين والآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته ، وضرورة خلوص الطاعة والعبادة له سبحانه وتعالى حتى لا يدعوا أنهم لم يعلموا ما وجب عليهم ، ولم يبلغهم أحد دين الله تعالى .

ثانيا : بيان أن قدرة الله شاملة ، وقضائه ماض ، فلقد أندر الله المشركين وخوفهم من الكفر والفسوق والعصيان ، فلما أصروا على الكفر جاءهم عذاب الله الأليم .

ثالثا : لم يمنع قدر الله ما كان الناس فيه من قوة وجاه ، وآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، فقد أهلك الله قوم لوط بحجارة من سجيل ، وأهلك عادا بالعواصف ، وأهلك ثمود بالصيحة ، وأهلك فرعون وقومه ومن قبله قوم نوح غرقا بالماء .

إن لله جنود السموات والأرض تطيع أمره ، وتنفذ قضاءه ، يأمر الله الماء فيملاً الأرض فيضا ، ويأمره بالغياب فتبلمه الأرض ويغيب .

رابعا : التكليف أساس نزول الأديان كلها ، ويعقبه الحساب والجزاء ، إلا أن الله قضى في الأمم السابقة بعقوبة الاستئصال ، وبه بادت أمم ، وظهر غيرها ... إلا أن الله أمر بمنع عذاب الاستئصال في الأمم الكتابية لأنها شملت العالم كله ، وجعل الله عقوبتهم كائنة في الآخرة ، وجعل عقوبات الدنيا لا تقضى عليهم .

خامسا : بيان أن دين الله واحد ، ومسار الحركة بالدعوة إلى الله تعالى واحد ، حتى أنه يمكن تصور هيكل واحد لسائر القصص القرآني ... وملخص هذا القصص اختيار الله لرسول ، يأتي لجماعة من الناس ، يدعوهم لتوحيد الله وطاعته فيؤمن به البعض ، ويكفر به آخرون ، وتستمر الدعوة ، ويدوم الصراع إلى أن ينصر الله المؤمنين ، ويهزم ويقضى على المشركين .

بهذا الهيكل العام يخاطب الله العقلاء ، والمنكرين ليختاروا لأنفسهم ، وليقوموا بما هم به مؤمنون .

والإنسان في هذا العصر مسئول عن الإيمان بالله ، والدخول في الإسلام بعدما علم تجارب الأمم ، ووقف على أخبار التاريخ ، وصار على إدراك وخبر بما يعملون .

آيات الله دعوة للإيمان

يقول الله تعالى :

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة هلاك الأمم السابقة جاءت هذه الآيات لبیان آيات الله ، وبراهينه في خلقه ، وتنعى على المشركين سفههم ، وعتوهم .

(٨٦٥)

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات خلق الله في السموات ، والأرض ، والدواب ، وتدعو الخلق إلى الإيمان بالله ، والتحذير من المخالفة ، وتجنب الشرك الذى كان عليه السابقون حتى ينجيهم الله من العذاب الأليم .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ أى بنينا السماء ، ورفعناها بلا عمد ، وحفظناها ، وذلّلناها للناس أجمعين بقدرتنا وأمرنا ، وانا لقادرون على ذلك .

﴿ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَسْهُودُونَ ﴾ أى وبسطنا الأرض ، ووسعناها ، وهبناها ليعيش الناس فوقها ، وثبتناها بالجبال ، وزيناها للناظرين ونعم ما فعلنا قد أصلحنا بهذا التمهيد الأرض للزراعة ، وجريان الأنهار ، ورعاية الحيوان والطير والهوام ، وجعلنا فيها أماكن للمعادن والحديد والغازات فعاش الإنسان فيها ، وسهلت له الحياة .

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ أى وأوجدنا الخلق كله من ذكر وأنثى أحدهما يغاير الآخر ، ويحتاج إليه ، ويتعاون معه لإيجاد الخلق عسى أن تتذكروا ، وتعتبروا بهذه الآيات .

﴿ فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾ أى الجأوا إلى الله ، واعتمدوا عليه في جميع أموركم ، واتبعوا أمره ، واستمروا في طاعته .

﴿ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى أطيعوا الله فقد أرسلنى إليكم داعيا إليه ومبشرا ، ونذيرا ، ومبيناً لدين الله تعالى .

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ أى اعبدوا الله وحده ، ولا تتخذوا معه آلهة أخرى فهى بهت وضلال وخسران .

﴿ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ أى إني مرسل لكم من الله تعالى لأبلغكم رسالته ، وأوضح دينه ، وأخوفكم من المخالفة والجحود .

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُونٌ ﴾ أى إن تكذيب قومك يا محمد أمر قديم فبمثل قولهم قال المشركون قبلهم ، فما جاءهم رسول إلا وقالوا عنه إنه ساحر مجنون .

﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ؕ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُوتٌ ﴾ ؟ ... الاستفهام للتنكير والتعجب . يتعجب الله فيه من تشابه مواقف المشركين مع جميع الرسل واجتماعهم على اتهام واحد ، وهل وصى بعضهم بعضا به أم أنهم جميعا تجاوزوا الحد في الضلال مع كل رسول ، ووصلوا إلى قرار واحد ؟!

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أن الله تعالى بنى السماء ورفعها بغير عمد ، وبسط الأرض ودحاها ، وفرشها بالخيرات ، وخلق كل الأشياء من ذكر وأنثى ، وظهرت قدرة الله في كل جوانب الحياة فاعتمدوا عليه وحده أيها المؤمنون، والجأوا إليه في كل ما ترجون وتريدون ، ولا تعبدوا غيره ، ولا تتخذوا إلها سواه ، ولا تكونوا من المشركين الذين عبدوا الأصنام في كل الأمم ، وكأن كل منهم وصى ما

(٨٦٧)

بعده ، أو وصلوا في البغى إلى منتهاه ، فعبدوا أصناما وأوثانا ، وأفسدوا في الأرض فسادا كبيرا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

بدائع قدرة الله تعالى

تبين الآيات عددا من دلائل القدرة ، وتبرزها في روعتها وجلالها .
ومنها خلق السماء ، ورفعها بلا عمد ، وجعلها طباقا منسقة متناسقة ،
وأوحى في كل سماء أمرها ، وزين السماء الدنيا بالكواكب والنجوم .
وخلق الأرض ، وبسطها ، وأمدّها ، وسواها وأجرى فوقها الماء ، وأخرج
منها النبات ، وجعلها مأوى لسائر الأحياء ، وجعل فيها أوتادا من الرواسي
والصخور حتى لا تهتز ولا تنهار .
وجعل الله خلقه على سنة واحدة ، فأوجد كل شئ من زوجين ذكرا وأنثى
لتعلموا حكمة الله ، وتؤمنوا به ، فهو على كل شئ قدير .

الركيزة الثانية

ضرورة اللجوء إلى الله تعالى

الله رب كل شئ ، وملكه ، والقادر عليه ، وله الأمر في الأولى ، وفي
الآخرة ، وله الحكم واليه ترجعون .
إن الإنسان مخلوق ضعيف تهرة نسمة هواء ، وترديه حادثة طارئة ،
ويزعجه مرض وهم ، ويشغله قلق وخيال .
وهو في نشاطه محدود لا يدري شيئا عن مكانه وزمانه .

وهو عاجز لا يصنع لنفسه شيئاً ، وكثيرا ما ضاعت أمانى ، وضاعت آمال وأحلام .

وخير للإنسان أن يؤمن بالله تعالى ، ويسلم الأمر كله له ، ويسعى على قدر طاقته وجهده ، ويرضى بالقضاء والقدر المكتوب في اللوح المحفوظ منذ الأزل فلقد أحاط علم الله بكل أمر ، وقدر الأشياء وفق علمه وارادته .

الركيزة الثالثة

الكفر ملة واحدة

تدل حركة الدعوة إلى دين الله تعالى في الأمم كلها إلى أن الكفار جميعا واجهوا الرسل بخطة واحدة .

فهم جميعا رفضوا أن يكون الله إلها واحدا ، وقالوا : ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾^(١) .

وكلهم أنكروا أن يكون الرسول بشرا منهم ، وقالوا : ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَلٍ وَسُعْرٍ ﴾^(٢) .

وهم جميعا اتهموا الوحي والرسالة بالسحر ، والكذب ، والجنون ولم يتأثروا بالمعجزات وآيات الله .

وهم واجهوا الرسول بالعدوان والأذى وأجبروه على الهجرة وترك الديار ، وقتلوا بعض المؤمنين .

هذا التشابه الكبير في سلوك المشركين يؤكد أن الكفر ملة واحدة ، وأن المؤمنين في حاجة إلى التوحد ، والتمسك بحبل الله حتى لا يغلبهم الظالمون .

(١) سورة ص ، الآية ٥ .

(٢) سورة القمر ، الآية ٢٤ .

وصايا خالدة لرسول الله والمؤمنين

يقول الله تعالى :

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ
 ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا
 أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ
 ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
 يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿ .

- ١ -

سبب نزول الآيات

عن على كرم الله وجهه قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا
 أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهلكة ، إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنا
 فنزلت ﴿ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فطابت أنفسنا^(١) .

- ٢ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة أن الكفر ملة واحدة ، وأن الكافرين لا يعتبرون
 بالآيات جاءت هذه الآيات توصي رسول الله ﷺ بالاستقامة على دين الله ،
 وتذكير المؤمنين به ليقوموا بما خلقوا له من عبادة الله وحده ، ويتركوا أمر
 الرزق لله ، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٢٤٧ .

(٨٧٠)

- ٣ -

موضوع الآيات

تأمر الآيات رسول الله ﷺ أن يدع المشركين على ما هم فيه ، ولا لوم عليه فقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وعليه أن يستمر في تذكير المؤمنين فهم الذين يستفيدون بالذكرى ، ويعبدون الله حق العباداة ، ويوقنون أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، وأنه سيجازى الناس على عملهم في الدنيا .

- ٤ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴾ الخطاب لمحمد ﷺ حيث يأمره الله بالإعراض عن المشركين والكافرين بلا لوم عليه فقد أدى ما أمره الله به .

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى واستمر في دعوة المؤمنين للحق ، وذكرهم بدين الله تعالى فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ أى إن الله خلق الجن والإنس لمعرفة الله وعبادته ، والخضوع لقضاء الله وقدره .

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴾ أى خلقت الجن والإنس لعبادتي ، وأداء حقي عليهم ، ولا احتاج منهم شيئا ، ولا أطلب منهم أن يطعموا أحدا من عبادي .

وانما أسندت الآية الإطعام إلى الله لأن الخلق كلهم عيال الله ، ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه ، ولما صح من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : "إن الله عز وجل يقول يوم القيامة يا ابن آدم مرضت فلم تعدني . يقول العبد : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

يقول الله : أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني .
يقول العبد : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين .
يقول الله : أما علمت أن عبدي فلانا استطعمتك فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ... يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني .
يقول العبد : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين .
يقول الله : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي^(١) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ أى أنه سبحانه وتعالى غير محتاج للناس ، فهم الفقراء إليه ، والله غنى عنهم ، وهو العزيز الحكيم .
﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ أى إن المشركين قد ظلموا أنفسهم ، وكفروا بالله ، وارتكبوا آثاما وذنوبا مثل نظرائهم من المشركين في الأمم الأخرى .
﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى فلا تستعجلوا العذاب الذى وعدكم به ، فله وقته المقدر عند الله تعالى .

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ أى فهلاك ومقام سيئ لهؤلاء الكافرين من العذاب الذى سيلحق بهم في الوقت المقدر في علم الله تعالى .

(١) مكارم الأخلاق للطبرانى . باب فضل إطعام الطعام ج ١ ص ٣٧٤ .

(٨٧٢)

- ٥ -

معنى الآيات

تأمر الآيات رسول الله أن يدع المشركين ويتركهم بلا لوم عليه ، فقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وتأمره أن يداوم الذكرى فهي تنفع المؤمنين وحدهم .
ونخبره بالحقيقة الثانية وهي أن الله هو الرزاق ، وأنه غنى عن عباده ،
فما خلقهم لعبادته ، وهو لا يحتاج منهم عطاء ، ولا يطلب منهم عطاء لأحد
من عباده فالله هو الرزاق ، القوى ، وليعلم الظالمون أن ذنوبهم عليهم ،
وستكون عليهم حسرة وندامة يوم القيامة .

- ٦ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

ما على الرسول إلا البلاغ المبين

أمر الله رسوله أن يخلص في دعوة الناس ، ويستمر في عمله وسعيه ،
ولذلك كان يجد في العمل ويدعو الناس ، وكان رسول الله ﷺ ينصح ، ويرشد
ويدعو ، وكان يحزن لانصراف المشركين عن طاعة الله ، وعبادته وحده .
ولذلك خفف الله عن رسول الله ﷺ ، وأمره أن يدع الناس بعد دعوتهم ،
فلا لوم عليه بكفرهم ، وعنتهم ، وقال له : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ
اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾^(١) .

وواجب الدعوة أن يخلصوا ، ويبينوا ، ويدعوا ، وليس عليهم بعد ذلك حال
الناس ، فمن آمن فلنفسه ، ومن كفر فعليها ، وما ريك بظلام للعبيد .

(١) سورة القصص ، الآية ٥٦ .

(٨٧٣)

الركيزة الثانية

مهمة المؤمن عبادة الله وحده

قضى الله كل أمر ، ونظم شئون البلاد والعباد منذ الأزل ، ولذلك كلف الله المؤمنين بعبادته وحده ، وجعل عبادته سعيهم ، وعملهم وحياتهم ، فالله هو الخالق ، وهو الرزاق ، وعلى الإنسان أن يخلص في عبادته لله تعالى .
وليس معنى ذلك القعود عن طلب المعاش ، وترك السعى في الأرض ، وإنما المعنى أن يتحول المسلم في كل أعماله ، وأقواله ، وأحواله إلى عبادة الله وحده ، فيحافظ على العبادات المحددة كالصلاة وغيرها ... ويجعل سائر العمل لله تعالى ، وينوى بها التقرب إليه ، وبذلك يعيش الدنيا كلها وهو يسعى ويعمل ، ويجتهد عابدا لله تعالى .

إن استحضار النية في كل عمل يجعل العمل عبادة . يقول النبي ﷺ :
"إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل ما نوى"^(١) .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الذاريات" بتوفيق الله تعالى .

(١) صحيح البخارى . باب بدء الوحي ج ١ ص ٦ .

سورة "الطور"

أولا : التعريف بالسورة .

ثانيا : تفسير السورة .

(٨٧٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- أولا -**التعريف بسورة "الطور"**

سورة "الطور" سورة مكية بالإجماع ، عرفت باسم واحد هو "الطور" ، ويسميتها البعض بنفس بعد إدخال حرف القسم عليها "والطور" .
 وعدد آياتها تسع وأربعون آية نزلت بعد سورة "ألم السجدة" .
 ومناسبة سورة "الطور" لسورة "الذاريات" كثيرة منها :

- (١) فى ابتداء كل منهما وصف حال المتقين.
 - (٢) فى نهاية كل منهما وعيد للكافرين.
 - (٣) كلا منهما بدأت بقسم يقسم الله فيه بآية من آياته تعالى الكونية التي تتعلق بالمعاش أو المعاد ، ففي سورة "الذاريات" أقسم الله بالرياح الذاريات التي تنفع الإنسان فى معاشه ، وفى سورة "الطور" أقسم بالطور الذي أنزل الله فيه التوراة النافعة للناس فى معادهم .
 - (٤) فى كل منهما أمر النبي بالذكير والإعراض عما يقول الجاحدون من قول مختلف .
 - (٥) تضمنت كلتاها الحجاج على التوحيد والبعث، إلى نحو ذلك من المعاني المتشابهة فى السورتين .
- وموضوع سورة "الطور" هو موضوع السور المكية الذى يقدم أركان العقيدة ، ويقدم الآيات الدالة على صدقها ، وتهتم بإيراد مشاهد اليوم الآخر للمؤمنين والمشركين .

- ثانيا -**- التفسير -****تأكيد وقوع البعث والحساب**

يقول الله تعالى :

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾
وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ
مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ
دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا
تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا
كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ۞ .

- ١ -**موضوع الآيات**

يقسم الله بعدد من الآيات الكونية لإثبات البعث ، والحساب والعقاب الذى
يقع في يوم تضطرب فيه السماء ، وترتج ، ويلحق العذاب الأليم بالمجرمين
الذين كانوا يخوضون بالباطل لاهين ، في هذا اليوم يساق المجرمون ، ويدعون
إلى جهنم التى كذبوا بها في الدنيا ، ويسخر الله منهم ، ويسألهم عن حقيقة
الآخرة وهم يرونها ويعيشون فيها ليظهر كذبهم فلقد أنكروها في الدنيا .

الدلالات اللغوية

﴿ وَالطُّورِ ﴾ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ وَالْبَيْتِ
 الْمَعْمُورِ ﴿ وَالسَّقْفَ الْمَرْفُوعِ ﴾ وَالْبَحْرَ الْمَسْجُورِ ﴿ أَقسم الله بهذه
 المخلوقات الكونية ليثبت أمرا يناسبها وهو إثبات نزول العذاب في الآخرة للذين
 يخوضون في الباطل ، ويتخذون دين الله هزوا ، وينكرون الوحي الذي جاءهم
 من الله تعالى ، ويدعون كذب محمد ﷺ .

وقد أقسمت السورة بهذه المخلوقات العظيمة ، الدالة على كمال قدرة الله
 وبديع صنعته ، وقد عدت الآية أماكن ثلاثة لها صلة بثلاثة من رسل الله
 تعالى.

فالطور جبل بسيناء انتقل إليه موسى عليه السلام وهو يبحث عن نار تتدفأ بها
 زوجته فرأى النور ، وكلمة ربه ، وقال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ
 إِلَيْكَ ﴾^(١) .

فتجلى الله للجبل و ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾^(٢) ومما يتصل
 بموسى عليه السلام في القسم نزول التوراة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبَ مَسْطُورٍ
 ﴿ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ﴾ والمراد بالكتاب التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام
 وكتبت في جلد كبير يقرأه بنو إسرائيل ، ويأخذون منه الحكم والأحكام .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٤٣ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٤٣ .

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ والبيت المعمور هو الكعبة التي يعمرها آلاف الناس من كل فج يقدون إليها منه ، وقد عاش النبي ﷺ بجوار البيت المعمور قبل الهجرة ، وكان يقول وهو عند البيت : سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ أى وأقسم الله بالسقف المرفوع بعد البيت المعروف إشارة إلى العالم العلوى وما حوى من شمس وأقمار ، ورسل وملائكة ، وعوالم لا يحصيها إلا الله تعالى .
والقسم بالبيت المعمور ، والسقف المرفوع متصل بمحمد ﷺ فلقد بعثه الله بجوار البيت ، وعرج به إلى السماوات العلا بعد أن أسرى به من الكعبة إلى بيت المقدس .

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أى البحر المحبوس أن يفيض مأؤه فيغرق الأرض ويهلك ما عليها من حياة .
وقيل معنى البحر المسجور البحر المملوء ماء الذى لا يفيض مأؤه فقد أوجده الله مملوء ، وذكر البحر يعرف بـ "يونس" عليه السلام فقد ألتقمه الحوت وأسكنه بطنه ، وبقي فى بطنه حيا يسبح الله تعالى .

وجواب القسم قوله تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أى إن عذاب يوم القيامة نازل بالمكذبين الذى عارضوك يا محمد ، ونزول العذاب يعنى وقوع البعث ، لأن هذا العذاب يلحق بهم بعد الحشر والحساب .

﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ أى ليس للعذاب النازل يوم القيامة بالمكذبين دافع يرده ، أو يمنع وقوعه ، وليس لدى المكذبين مهرب منه .

﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴾ أى يقع هذا العذاب يوم القيامة حيث تضطرب السماء ، وترتج وتهتز هذا شديدا .

﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾ أى وتحرك الجبال من أماكنها ، وتسير بالزلازل بعيدا عن مواضعها ، وتعلو وتهبط حتى تصبح رملا مفتتا .
وتأكيد فعلى ﴿ تَمُورُ ﴾ ، ﴿ وَتَسِيرُ ﴾ بمصدريهما ﴿ مَوْرًا ﴾ ، ﴿ سَيْرًا ﴾ لإثبات أن تقلب السماء ، وذهاب السماء حقيقة لا مجاز فيها .

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى هلاك شديد ، وحال سيئ يوم القيامة للذين يكذبون بما جاءهم به رسول الله ﷺ من توحيد الله ، وعبادته وحده ، ووقوع البعث والحساب والجزاء .

﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أى إن المكذبين الهالكين كانوا يندفعون فى الباطل ، ويكذبون رسول الله ﷺ ، ولا يصدقون بيوم البعث والحساب ، وكانوا إذا سمعوا رسول الله ﷺ أعرضوا ، وأخذوا يستهزئون ويلعبون .

﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَا ﴾ أى الهلاك يوم القيامة للمكذبين حيث يسوقهم خزنة النار ، ويدفعونهم بقسوة إلى جهنم .

﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ أى يقول لهم الملائكة وهم يدفعونهم إلى النار هذه هى النار التى كذبت بها ، واستهزأتم برسول الله ﷺ حين خوفكم منها .

﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ ؟ ... السؤال إنكارى يستهزئ به رسول الله ﷺ من المكذبين ، وهو يسألهم : هل هذا العذاب الذى

(٨٨١)

يصيبكم سحر أم حقيقة ؟ ... إنه حق لا شك فيه يحيط بهم ، ويحرقهم ، ويحرق أجسادهم ، ويعذبهم بعذاب أليم .

﴿ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى ادخلوا جهنم ،

واصطلوا بنارها ، وذوقوا عذابها وآلامها ، سواء صبرتم عليها أم لم تصبروا .

﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى إنما تجزون بأعمالكم التى قمتم بها

فى الدنيا بلا ظلم ولا قصور .

- ٤ -

معنى الآيات

يقسم الله تعالى بطور سيناء ، والتوراة المدونة ، والبحر الممتلئ بالماء ، والسماء المرفوعة على أن عذاب الله تعالى واقع لا يرده راد ، ولا يمنعه مانع .

وقد بينت الآيات أن هذا العذاب سيقع فى يوم تضطرب السماء ، وتهتز وتتحرك الجبال وتسير حتى تتفتت ، والعذاب الشديد يومئذ للمكذبين الذين لم يصدقوا باليوم الآخر ، وكذبوا رسول الله ﷺ .

إن هؤلاء المكذبين كانوا يخوضون ، ويلعبون ، ويعبثون ، واليوم هم يعذبون بنار جهنم التى كذبوا بها .

وتقول الملائكة لهم : هل ما ترونه من العذاب اليوم سحر أم حقيقة ؟ ذوقوا جزاء عملكم السئ الذى قمتم به فى الدنيا .

(٨٨٢)

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

القسم وسيلة للدعوة

القسم هو الحلف ، وهو أحد وسائل الإثبات لابد منه إذا لم يقر الإنسان بما دعى له أو عليه .

وقد اشتمل القرآن الكريم على أقسام عدة ، حيث أقسم الله بمخلوقات ليثبت بها أمورا عظيمة لمن يسمع أو يقرأ .

وأركان القسم كلها تساهم فى تأكيد ما جاء القسم له .

وقد عد العلماء القسم أحد وسائل الدعوة إلى الله تعالى ، ويختلف قسم الله عن قسم الناس ، فله سبحانه وتعالى أن يقسم بما شاء على ما يشاء أما الإنسان فليس له أن يقسم إلا بالله وصفاته على ما يريد ، ولذلك كان من حسن القسم أن يختار المقسم من صفات الله ، وأسمائه ما يناسب المقسم عليه فلو دعا إلى العلم والمعرفة فليقسم بالله العليم ... وأنذر خوف وأنذر فليقسم بالله الواحد القهار .

والقسم فن فى الدعوة كبير ، وعلى الدعاة أن يتخيروا لأقسامهم ما يناسب دعوتهم ، ولا يلجأوا إلى القسم إلا عند الضرورة ، وعند من يؤمن بثبوت صفات الكمال لله تعالى .

ومن الممكن الاستفادة بأقسام القرآن الكريم نتلوها على الناس ، ونبين مراميها ، وغايتها ، وطرق تأثيرها ... وكيف أنها تناولت آيات كونية وجعلتها دليلا على ما جاء الحديث له .

(٨٨٣)

ومن المفيد أن يأخذ الدعاة من أقسام القرآن منهجا للدعوة لأننا نرى أن القرآن الكريم فى الموضوع الواحد يقسم بعدة آيات بينها صلة وترابط لما لها فى تعدد الآيات وتكرارها من تأثير .

الركيزة الثانية

السعيد من نجا من الفرع الأكبر

فى يوم القيامة تتجلى الحقائق ، وتوفى كل نفس ما كسبت ، وينقسم الناس إلى أشقياء وسعداء .

فى يوم القيامة يشتد الهول ، ويكثر الفرع حيث تبدل الأرض غير الأرض ، وتضطرب ، ويهتز كل كائن عليها ، وتجتمع الخلائق فى أرض المحشر ، وتدنو الشمس من الرعوس ، ويحشر الناس حفاة عراة غرلا كما ولدتهم أمهاتهم ، لكل امرئ يومئذ شأن يعينه .

وينصب الميزان ، وينقسم الناس إلى فريقين ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

فمن دخل الجنة فقد نال الخير ، ونجا من الهول والفرع ، وذلك هو الفوز العظيم الذى يناله المخلصون الصادقون .

إن الكيس الفطن هو من يتنبه لهذا اليوم ، ويعمل له ، ليعيش حياته الأخروية فى جنات النعيم .

إن أصحاب الجنة يتمتعون فى رياض خضراء ، وأنهار تجرى من تحتها ، وغرف من ذهب وفضة ، وصحبة كريمة من النبيين والشهداء والصديقين ، ويجلسون على فرش وثيرة ، وأرائك من فضة ، ومعهم الحور العين تؤنسهم ، وتحادثهم ، ولهم فيها ما يشاءون .

هذا الفوز الكبير يلقاه المؤمنون فى الآخرة كما وعدهم الله تعالى ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

جزاء المتقين فى الآخرة

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿٧﴾ فَيَكْهِنُونَ بِمَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ مُتَكِينِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿١١﴾ وَأَمَدَدْنَاهُمْ فِيهَا زَاجِرًا ۖ وَلَحْمٌ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿١٢﴾ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴿١٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ زُلْفًا مِّنْ كَأْسِهِمْ لَوْلَوْ مَكُونٌ ﴿١٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿١٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ الِاسْمُومِ ﴿١٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ ۝

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما أقسم الله فى الآيات السابقة على وقوع العذاب على المكذبين جاءت هذه الآيات لتبين الجزاء الحسن الذى أعده الله للمتقين .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات ما يتمتع به المؤمنون عند الله من صنوف اللذائذ فى المأكول والمشرب والفرش والأزواج ، واجتماعهم بأهلبيهم وذوبهم ومحبيهم فى جنات النعيم جزاء لهم على إيمانهم ، وعمل الصالحات فى الدنيا .

الدلالات اللغوية

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ ﴿٧﴾ فَيَكْهِنُونَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٨﴾ أى إن الذين خافوا ربهم ، واخلصوا له فى العبادة ، واستسلموا لأوامره ونواهيه يجازيهم ربهم جزاء طيبا مشتملا على ما يلي :

(١) ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ أى يدخلهم ربهم جنات خضراء تجرى من تحتها الأنهار ، وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

(٢) ﴿ فَيَكْهِنُونَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى يحقق لهم الفرح ، والتمتع والتلذذ بما جعله لهم في الجنة ، وبالطمأنينة التامة التى جعلهم الله فيها .

(٣) ﴿ وَوَقَّعَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ أى ونجاهم الله من عذاب الجحيم ، بأن هداهم للحق ، وأنار بصيرتهم ، ومكن عقولهم من الفهم والهداية ، وطاعة رسول الله ﷺ .

(٤) ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى يحقق الله لهم العيشة الهينة من طعام لذيذ ، وشراب صاف ، ولباس رقيق ، جزاء عملهم الصالح الذى قاموا به في الدنيا فكما أخلصوا عملهم جعل الله طعامهم وشرابهم سالما من كدر المذاق ، وفساد الطعام .

(٥) ﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ﴾ أى يحقق الله لهم الجلوس المريح مع جلسائهم المؤمنين بعيدا عن التكلف فهم يجلسون متكئين على

سرر وأرائك متراصة بعضها بجوار بعض بلا تعب أو مشقة، وبلا تكلف ، أو تصنع .

(٦) ﴿ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾ أى ورزقناهم في الجنة زوجات صالحات جميلات حسان ، ولهن أعين واسعة أخاذة .

(٧) ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أى يكرم الله المؤمنين وهم في الجنة بأن يجمعهم بأبنائهم إذا اتبعوهم بإيمان بأن يجمع الله بينهم ، ويرفع منزلة الأبناء إلى منزلة الآباء في الدرجات الأعلى ، وبذلك يكرم الله الأبناء برفع درجاتهم إلى مستوى الآباء ، ويبقى الآباء على مستواهم العالى بلا نقص منهم .

إن الأبناء وإن قل إيمانهم يلحقهم الله بالآباء مهما عظم إيمانهم ، وهذا فضل من الله ، يجمع الله به الذرية كلها معا في جنات النعيم .
عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : "إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه ، وزوجته ، وولده ، فيقال له : إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك ، فيقول : ربى قد عملت لى ولهم ، فيأمر الله بإلحاقهم به" (١) .

﴿ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ ﴾ أى ما انقصنا الآباء شيئا من عملهم الصالح .

﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِيمًا كَسَبَ رَهِيْنٌ ﴾ أى يجازى الله كل نفس بما عملت ، فهى مرهونة به ، لا تنفك عنه أبا أو ابنا ، وما رفع الأبناء إلى مستوى الآباء إلا لأن الأبناء آمنوا فضاعف الله لهم الجزاء الحسن ، أما لو كانوا قد عصوا قلن يغفر الله لهم .

(١) المعجم الصغير للطبرانى ج ١ ص ٣٨٢ .

(٨) ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى زدناهم وأعطيناهم

ما يشتهون من طعام وشراب ، وأمَدَدناهم بفاكهة لذیذة كثيرة ، ولحم طير مما يشتهون ويرغبون .

(٩) ﴿يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أى يتحدثون فيما بينهم

حديث مرح وأنس ، ويتجاذبون الكؤوس المليئة بالشراب ، بمودة بعيدة عن زوال العقل ، وفحش القول ، وسوء المذاق .

(١٠) ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أى يطوف عليهم

بالكؤوس مملوكون لهم ، يدورون عليهم بالكؤوس طائعين ، مستسلمين يتميزون ببياض الوجوه ، وحسن الصورة ، كأنهم لؤلؤ مخبأ في العلب .
عن قتادة رضي الله عنه قال : بلغني أنه قيل يا رسول الله هذا الخادم مثل اللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟

فقال عليه الصلاة والسلام : والذي نفسى بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب^(١) .

إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى خادما من خدامه فيجئ ألف ببابه لبيك لبيك يطيعونه . فقد أطاع الله .

(١١) ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ أى أقبل بعض المؤمنين على

بعض وهم جلوس على الأرائك والسرر في الجنة يسأل بعضهم بعضا عما كانوا فيه في الدنيا ، ويحمدون الله على ما هم فيه في الآخرة .

(١) سنن أبى داود . كتاب العلم . باب الحث على طلب العلم ج ٣ ص ٣١٧ بمعناه .

عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : "إذا دخل أهل الجنة الجنة ، اشتاقوا إلى الإخوان ، فيجئ سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا ، فيتحدثان فيتكئ ذا ، ويتكئ ذا ، فيتحدثان بما كانوا فى الدنيا .
فيقول أحدهما لصاحبه : يا فلان أتدرى أى يوم غفر الله لنا ؟ اليوم الذي كنا فى موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا" (١) .

وأخذت الآيات تبين أسباب نوالهم رضى الله تعالى ونعمه فقال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أى يقول المتقون بعضهم لبعض إنا كنا فى الدنيا خائفين من عذاب الله تعالى ، وكنا نعمل لنفوز برضوان الله تعالى ، وقد حقق الله أملنا ، وأعطانا سؤلنا .

﴿ فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِ وَأَوْقَلْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ أى إن الله أكرمنا ، وتفضل علينا ، وأدخلنا الجنة ، ونجانا من عذاب السموم ، وهو هواء حار يهب من جهة حارة تهلك من يستشقها .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ أى كنا ونحن فى الدنيا متصلين بالله دائما ، وكنا ندعوه ، ونطلب منه أن يمن علينا بالمغفرة والحرمة فاستجاب لنا ، وأحسن إلينا ، فله الحمد والشكر على إنعامه وتفضله ، إنه المعطى فى رفق ، المحسن فى كرم ورحمة وبر .

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات النعم والعطايا التى يحققها الله للمتقين فى الآخرة ، حيث جنات النعيم يسعدون فيها ، ويفرحون بها ، وينجيهم من عذاب جهنم ، ويمدهم

(١) مسند البزار ج ١٣ ص ٢٠٢ .

بطعام طيب ، وفاكهة لذیذة ، ويجلسون معا على سرر مرصوصة متقابلة ، ويمرحون ، ويجمع الله الذرية ، ويرفع درجة الأبناء إن آمنوا إلى درجة الآباء في رقيها من غير أن ينقصهم شيئا ، ويعيش المؤمنون في الجنة منعمين ، ويتحدثون عما كانوا فيه في الدنيا ، ويتذكرون أنهم كانوا خائفين من عذاب الله تعالى ، ويعترفون بفضل الله عليهم أن اكرمهم ، وجعلهم في نعيم الجنة يتمتعون برضوان ربهم الرحيم .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

عظمة عطاء الله للمخلصين

تتحدث الآيات عن عطاء الله للمؤمنين في الآخرة ، حيث يحييهم في الجنة بنفس راضية ، وعيشة طيبة ، ومقام كريم ، وأنس كبير مع أهلهم وذرائعهم ، وزوجاتهم وأحبابهم .

وتوضيح عظمة هذا العطاء يؤدي إلى تحقيق أمور أهمها :

(١) المسارعة إلى الإخلاص في الإيمان ، وطاعة الله تعالى لأن هذا الفضل

كبير ، والوصول إليه متوقف على تقوى الله وخشيته ، والعمل بتعاليم الله

تعالى ، فمن رغب في شيء عمل له ، واستعد لشرائه ، وقدم له الثمن ،

ومن تمنى العروس ، فعليه المهر والنفقة .

(٢) توضيح مسئولية الإنسان عن عمله لأنه مجزى به ، والله مطلع على

عباده جميعا ... فمن شاء فليؤمن ، وما شاء فليكفر .

(٨٩٠)

- (٣) السعادة التامة تعتمد على الرضى العقلى ، والأنس النفسى ، والاتباع المادى ، وتحقيق هذه الجوانب هى أساس تحقيق السعادة فى الآخرة ... وهى أساس السعادة فى الدنيا إلا أن الوصول إلى سعادة الدنيا يحتاج إلى البذل ، والعمل ، والمثابرة ... أما الوصول إليها فى الآخرة فهو نتيجة عمل الدنيا ، والإنسان فى الدنيا تاجر يشتري ويبيع ، ويعطى ويأخذ . أما فى الآخرة فهو يأخذ ، ويتسلم فقط فقد دفع ما عليه فى الدنيا .
- (٤) التربية فى الدنيا تحقق غايتها بمثل ما يحدث فى الآخرة ، ولذلك وجب فى التربية أن تشبع العقل بالمعارف ، وترضى الخلق بالسلوك الحسن ، والقيم النبيلة ، وترضى العواطف بالمؤانسة والتعاون ، وتتمى الجسد بالعتاء المادى .

وعلى الدعاة :

- أن يقيموا دعوتهم على تحقيق هذه الجوانب للناس ، وإقامتها على شرع الله تعالى ، واتباع صراط الله المستقيم .
- إن بذل الجهد فى الدنيا لا يضيع ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

الركيزة الثانية

سهولة الطريق إلى الجنة

- عرف الله الإنسان منهج تحقيق السعادة ، والوصول إلى رضوان الله فى الآخرة ، وهو منهج ميسر ، وسهل لكل من رغبة فيه .
- إنه منهج يقوم على الخلق ، ويصون الحقوق ، ويحدد الواجبات ، ويصلح الدنيا بصورة طيبة .

(٨٩١)

إن الإسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ويحض على المحافظة على الضرورات التي يحتاجها الإنسان ، ويحدد النظم ، ويضمن العدل ، وينادى بالتعاون ... ويشرع الجهاد لرد الظلم ، وتحقيق الحرية لسائر الناس ، وبذلك تصلح الدنيا ، وبمقدار صلاح الإنسان فى أمور الدنيا تصلح الآخرة .

إن هذه رحمة من الله تعالى للناس أن يرسم لهم طريق الإصلاح فى الدنيا ، ويعرفهم بأنه هو الطريق الموصل للآخرة ... وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ومن رحمة الله تعالى أن أعمال الفوز فى الآخرة هى نفسها أعمال صلاح الإنسان فى الدنيا . يقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا

يَشْقَى ﴾^(١) .

(١) سورة طه ، الآية ١٢٣ .

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ ﴿٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ
شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴾ ﴿٧﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ
﴿٨﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلِمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ﴿٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿١٠﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ ﴿١١﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ
غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخُلِقُونَ ﴾ ﴿١٢﴾ أَمْ خُلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ بَلْ لَا
يُوقِنُونَ ﴾ ﴿١٣﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيِّطُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ أَمْ هُمْ سُلَّمٌ
يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ﴿١٥﴾ أَمْ لَهُ الْآبِنَتْ وَلَكُمْ الْآبُنُونَ
﴿١٦﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ ﴿١٧﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ أَمْ هُمْ إِلَهٌ غَيْرُ
اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۖ ﴿٢٠﴾

صلة الآيات بما قبلها

لما ذكرت الآيات السابقة ما أعده الله للمؤمنين المخلصين في المأكل ،
والمشرب ، والمقام ، والأزواج جاءت هذه الآيات لرد أقوال المشركين في محمد
ﷺ ، وفي القرآن الكريم ، وفي الإسلام كله .

(٨٩٣)

- ٢ -

موضوع الآيات

تأمر الآيات رسول الله ﷺ بالثبات على تذكير الناس ودعوتهم إلى الحق وتبين تناقض أقوالهم ، وفساد آرائهم ، وتحللها ، وتنقضها .

- ٣ -

الدلالات اللغوية

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ أى قدم

يا محمد على دعوتهم إلى الله ، وتذكيرهم بآياته ، وعظمهم بالقرآن الكريم ، ولا تتأثر بما يقولونه عنك من أكاذيب فلست بكاهن تدعى معرفة الغيب ، وكشف الخفاء ، ولست بالمجنون الذى يتكلم بما لا يفيد ، ويخوض فيما لا يعلمه ... ولقد خاب زعم المشركين ، فلقد عاش بينهم محمد ﷺ أربعين عاما قبل البعثة شهدوا له فيها بالصدق ، والأمانة ، والحكمة ، وحسن الخلق فما بالهم يخالفون ما يعرفونه عن محمد ﷺ ؟

ومن علامة خيبتهم أنهم يتهمون محمدا بالكهانة والجنون ، وهما أمران متناقضان فالكاهن يدعى معرفة الغيب ، ويسوق كلامه مرتبا هادفا . أما المجنون فهو يهرف بما لا يعرف ، ويتكلم بكلام لا يفيد ... ورسول الله ﷺ عبد أكرمه الله بالنبوة ، ورزقه الذكاء والفطنة وأبعده عن التهم التى ينطقون بها ، ويكذبون فيها .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرْتِصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴾ "أم" للإضراب لأنهم

ينتقلون إلى ذم أخرى ، ويقولون : محمد شاعر لن يخلصنا منه إلا موت يأتيه من حوادث الزمان ، وهم متريصون منتظرون ذلك .

روى أن قريشا اجتمعت فى دار الندوة وذهبت مذاهب شتى فى صد دعوته ﷺ ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم ، وماذا يفعلون فى الخلاص منه ، فقال قائل من بنى عبد الدار : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر ، وسيهلك كما هلك زهير ، والنابغة ، والأعشى ، ثم افترقوا على هذه المقالة .

﴿ قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّى مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ أى قل لهم يا محمد انتظروا وتمهلوا وتأملوا فى أحداث الزمان وصروفه فإنى انتظره معكم ، وسنعلم جميعا عاقبة كل فريق منا .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلِمُهُمْ بِهَذَا ﴾ أى هل ترشدكم عقولهم إلى هذا التناقض وتوقعهم فى هذا الاضطراب ، فالشاعر ، غير الكاهن ، غير المجنون .

﴿ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ أى إن الطغيان والعناد والظلم هو الذى دفعهم إلى قول ما يقولون .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى بل يقولون : إن محمدا ألف القرآن ، وقاله من نفسه وزعم أنه كلام الله ، وسبب ذلك أنهم لا يؤمنون بالله تعالى .

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ أى إن صدق المشركون فى قولهم إن محمدا ألف القرآن الكريم فليؤلفوا مثله ، أو مثل أقصر سورة منه ، فهم جمعوا كل ما يقولونه عن محمد ، فمنهم الكاهن ، ومنهم الشاعر ، ومنهم الخطيب ، وهم أهل الفصاحة والبلاغة .

إن المشركين لن يقدرُوا على شئ من هذا ، وهذا يؤكد كذبهم وضلالهم ، وعنادهم .

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ؟ ... أى هل كيف يكذبون محمداً ، ويكفرون بالله تعالى ، ولم يفكروا فيمن خلقهم وخلق الكون كله . فهل هم الذين خلقوا أنفسهم والكون الموجود ؟

أم الخالق هو الصدقة ؟ أم الكون أوجد نفسه ؟
إن ذلك كله وهم كاذب ، والخالق هو الله تعالى .

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾ أى هل هم الذين خلقوا السموات والأرض ، إنهم لا يدعون ذلك وهم لا يتيقنون من كلامهم ، وهم يقولون بأن الله خالق كل شيء ... فما لهم لا يؤمنون .

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴾ ؟ ... أى هل عندهم خزائن رحمة الله يتصرفون فيها ، أم هم الغالبون على شئون الدنيا ... والاستفهام بنكر ما عليه المشركون ، وما ينطق به حالهم .

﴿ أَمْ هُمْ سُلَّامٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۚ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ ؟ ...
أى ألهم مرتقى إلى السماء يسلكونه إليها ليسمعوا الوحي ، وأخبار الملائكة والإحاطة بالغيب ، إن كان الأمر كذلك فليأت مستمعهم بحجة بيّنة توضح أنهم على الحق كما أتى محمد ﷺ .

﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْأَبْنُونَ ﴾ ؟ ... أى أصدقتم في تقسيم الأولاد وجعلكم البنات لله والذكور لكم ، فإن هذه القسمة تضل رأيكم ، وتفسد ادعاءكم .

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴾ ؟ ... أى هل تسألهم يا محمد أجرا على الدعوة لا يستطيعونه ، ويشعرون بثقله عليهم .

﴿ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ؟ ... أى هل وقفوا على الغيب وأتاهم علم خاص بهم ، فهم يكتبونه ويبينونه للناس ، وهذا غير صحيح لأن الغيب كله لله تعالى .

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴾ ؟ ... أى هل يريد المشركون بأقوالهم ومزاعمهم الكيد لرسول الله ﷺ والمكر به ومحاولة النيل منه ، ولن يتحقق لهم كيدهم ، وسيكيد الله بهم ، ويفسد مكرهم وخداعهم .
وقد جاء ضمير الفصل ﴿ هُمْ ﴾ لبيان أن الكيد سيقع عليهم وحدهم .

﴿ أَمْ هُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ ؟ ... أم هل لهم إله غير الله يعبدونه من دون الله زينه الشيطان لهم ، وحسنه فى نظرهم ... ولذلك فهم ضالون فى أقوالهم وأفعالهم ، وأحوالهم .

﴿ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزه الله ونقدس وعلا عما يقولون علوا كبيرا فهو واحد لا شريك له .

وقد تصدرت الآيات السابقة بـ "أم" الدالة عن الإضراب والانتقال ، وذلك أن الله فى الآيات ينكر عليهم موقفا ، ويتركه لينتقل إلى ما هو أكبر منه حتى تنتهى الآيات إلى نفى شركهم ، وهو أكبر الكبائر .

وليس معنى الإضراب عن حال للمشركين إلغاؤه ، وانما التوقف عنه حتى يضم إليه غيره من ضلال المشركين ليجمع كفرهم كل ألوان الشرك و "أم" كما تفيد الإضراب تفيد الاستفهام ، وتبرزه لإيراده فى إطار حركة ذهنية سريعة أساسها الانتقال من محرم إلى محرم أكبر ... وبهذا يبطل كيد المجرمين ، ويحق الله الحق بكلماته ، ولو كره المجرمون .

(٨٩٧)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات أهم جوانب الضلال التي كفر بها المشركون ، وتكرها عليهم ، وتنتقل من واحدة لأخرى لبيان عننتهم وسفاهتهم ، وثبتت في النهاية إن الله واحد لا شريك سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

- ٥ -

ركائز الدعوة في الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

منهجية الاستفهام في الدعوة إلى الله تعالى

الاستفهام أحد وسائل الدعوة والتوجيه لأنه يقوم على تقدير المستمع ، وتوجيهه إلى ما قد يكون خافيا عنه ، لأن السؤال يحتاج إلى جواب ، والجواب يدفع المسئول عن البحث عن هذا الجواب ، فإن كان السؤال تقريريا فهو يشير إلى البحث ، والنظر ، ومعرفة المطلوب ، وإن كان إنكاريا فإنه يظهر سبب الإنكار ، ويوضح الحقيقة .

إن الأسلوب يشد المستمع إلى معايشة المتكلم ليشاركه في بيان الحقيقة كما أنه يشعر المستمع إلى أهميته في الخطاب .

ولذلك لم يكن عجيبا أن تورد الآيات هذه الاستفهامات الكثيرة وتضعها أمام القارئ ، والمستمع ليعلموا منها تفاهات المشركين ، وسقوط دعاواهم ... واثبات ما دعا إليه رسول الله ﷺ .

إن الاستفهام فن في الدعوة إلى الله تعالى يحتاج من الدعاة إلى العلم ، والدقة ، وحسن الاختيار ، وحسن الاستفهام يعنى مجئ السؤال محوطا

(٨٩٨)

بالخلق الكريم ، والتقدير الحسن ، وأن يكون فى جزئية صغيرة توصل إلى ما بعدها ... وأن يكون غير واضح فى الدلالة على المراد منه ليقبل المستمع إليه شغوفاً به محباً له .

وقد اهتم علماء التربية والاتصال بفن الاستفهام ، وأوصوا بتنبيه الطلاب من غفلتهم بالسؤال غير المباشر فى بداية الدرس ... وأن يتساءل رجل الأعلام مع نفسه عن موضوعات هدته إلى موضوعه .

والدعاة هو أولى الناس باتباع هذا الأسلوب لأهميته فى التوجيه .
إن عقد مسابقات تقوم على أسئلة يكون لمن يجتازها مكافأة عمل تروى ودعوى ينشر الفكرة ، ويدفع الناس إلى البحث والعلم .

الركيزة الثانية

جوانب ضلال المشركين

تتحدث الآيات عن ضلال المشركين ، وتشير إلى جوانبه المختلفة ... وأهمها :

أولاً : فساد عقولهم وتصوراتهم عن رسول الله ﷺ فهم يتهمونهم ﷺ بأنه شاعر ومجنون ، وبأنه ألف القرآن من عند نفسه .

ثانياً : فساد اعتقادهم ، فهم ينكرون أن الله هو الخالق ، ويعبدون الأصنام من دونه سبحانه وتعالى .

ثالثاً : يفضلون أنفسهم عند الله فيجعلون له البنات ولهم البنون .

رابعاً : اعتمادهم على الكيد والافتراء والكذب على الله ورسوله والمؤمنين .
إن الكفر داء خطير يحتاج إلى متابعتة بالنقض ، وهدم دعائمه وأنصاره وأفكاره ... والله لا يهدى القوم الظالمين .

عذاب الكافرين يوم القيامة

يقول الله تعالى :

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۖ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۖ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۚ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ۚ ۝﴾ .

- ١ -

صلة الآيات بما قبلها

لما بينت الآيات السابقة ضلال المشركين وأكاذيبهم عن الله ورسوله جاءت هذه الآيات لبيان المصير المخزى الذى سيناله المشركون فى يوم القيامة ، وتوصى رسول الله ﷺ بالصبر ، ومداومة التسبيح وذكر الله تعالى .

- ٢ -

موضوع الآيات

تبين الآيات أحوال المشركين هى الإنكار للحقائق بعد ظهورها ، وأن كفرهم سيلقون عقوبته يوم القيامة ، فدعهم وكفرهم فقد بلغت الرسالة على وجهها الصحيح وسيلاقون عذابهم يوم القيامة حيث لا يجدون ناصرا ولا معينا وتأمر الآية رسول الله ﷺ بالصبر ، والتحمل، ومداومة العبادة ، والذكر ، وطاعة الله.

الدلالات اللغوية

﴿ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴾ أى

إن ديدن الكافرين العناد ، والمكابرة ، وانكار الحقيقة فإنهم إن رأوا فى السماء سحبا كثيفة مليئة بالمطر ينكرونها ، ويقولون إنها سحب متراصه بعضها فوق بعض لا مطر فيها .

﴿ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ أى دعم

يا محمد وشأنهم ولا تكثر بهم حتى يأتى اليوم الذى يعاقبون فيه بأعمالهم وسيئاتهم .

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أى يخزيهم الله

يوم القيامة حين ينزل عليهم العذاب ، لا ينفعهم كيدهم ، ولا يأتىهم نصير ينصرهم .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

أى وإن للذين ظلموا وكفروا عذابا يلقونه فى الدنيا ، ولكنهم يجهلون ذلك ، وينكرونه .

﴿ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ أى اصبر على أذاهم ،

ولا تتأثر بهم ، واستمر فى الدعوة إلى الإيمان ، وبلغ ما أرسلت به فإننا نراك ونحفظك ، ونعصمك من الناس .

﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۖ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ

النُّجُومِ ۖ ﴾ أى ونزه ربك عن كل نقص ، واعبد بالتلاوة والذكر ، وداوم

على الصلاة فى الليل ، وأثناء النهار .

(٩٠١)

- ٤ -

معنى الآيات

تبين الآيات عادة المنكرين فضل الله تعالى وتأمّر رسول بعدم الاكتراث بهم ، ومداومة طاعة ، وتوضح له أنهم ستلقون العذاب فى وقت لا يتوقعونه ، وسينزل عليهم فى الدنيا .
وتأمّر الآيات رسول الله بمداومة الذكر والدعاء ، والصلاة أثناء الليل وخلال النهار .

- ٥ -

ركائز الدعوة فى الآيات

تتضمن الآيات عددا من الركائز ... أهمها :

الركيزة الأولى

سوء التصور عند الضالين

المشرك بالله تعالى الذى يتخذ الأصنام آلهة يعبدها فاقد لقوى الإدراك التى أكرم الله الإنسان بها ، فهى اتى تمكنه من التصور ، والتحليل ، والحكم .
إن المشرك لا يرى الشئ على حقيقته ، ويتصوره على غير صورته ، ولذلك فهو لا يفهم أسرار الخلق ، ولا يرى فيها دليل وحدانية الله وقدرته ، ويأتيه شيطانه ليصرفه عن الفهم ، ويضله فى فهم لا وجود له فى الواقع .
إن المشركين إذا رأوا السحاب فى أفق السماء ممتلئا بالماء يفسرونه على غير حقيقته ، بينما هو يحمل الخير لهم .
إن من هداه الله للحق ، ينبير بصره وبصيرته ، ويخرجه من الظلمات إلى النور ، ويبير له الصعب ، ويمكنه من سبل الفلاح .

(٩٠٢)

أما المشركون فلا هادى لهم ، ولذلك يتخطبون فى حياتهم ، ولا يعرفون سبيلا للخير .

إن المشركين لا يؤمنون بالله ، ويكذبون بالإشارات التى بلغها لهم رسول الله ﷺ ، وسيستمر المشركون فى هذا الضلال إلى أن يحشرهم الله للحساب لينالوا العقوبة الكبرى على ما قدموا من سوء .

الركيزة الثانية

أمر الرسول ﷺ بمداومة الطاعة

إن المجرمين يكيدون لله ولرسوله وللمؤمنين ، وهذا أمر مزعج للمخلصين الذين يضرهم مواقف الضالين المكذبين .

ولذلك تأمر الآيات رسول الله أن يتحمل ويصبر على أذى المشركين ، ويتوكل على الله ، ويعتمد على توفيقه وعونه ، كما تأمره أن يستمر على عبادة الله تعالى ، ودعوة الناس لله رب العالمين بلا قصور أو مغالاة .
إن العبد المؤمن يستفيد بعمره فى الدنيا ، ويملاها طاعة واستقامة ليسعد فى الدنيا والآخرة .

والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .



إلى هنا ينتهى تفسير سورة "الطور" بعون الله تعالى

وبه ينتهى تفسير المجلد الثانى عشر

الخاتمة

(٩.٤)

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آل وصحبه أجمعين وبعد .
فإنه ليسعدنى أن من الله علي ، وأعاننى على إتمام المجلد الثانى عشر من مؤلفى .

"ركائز القدوة في تفسير الدعوة"

الذى أرجو به التقرب إلى ربى ، وطاعته في أمره بالدعوة إلى دينه .
إن أعظم القربات إلى الله القيام بالدعوة ، وتبليغ الإسلام إلى الناس ، وقد قدر الله لى أن أشرف بالانتساب إلى الدعاة ، إذ جعلنى واحدا منهم ، وشرفنى بالدراسة في الأزهر الشريف ، ووضعنى في سدة علماء الدعوة الذين يتحملون مسئولية تخريج الدعاة في جامعة الأزهر .
إن قافلة العلماء هم رواد العاملين ، وهم القدوة أمام الناس ، وعليهم واجب الحركة بالإسلام بين الناس .
لقد أدى التطور المعاصر إلى ضرورة الاهتمام العلمى ، وصار السبق بالعلم هو الذى يحقق السبق في كافة جوانب الحياة .
ولم يكن عجبا الاهتمام بعلوم الدعوة في العصر الحاضر ، لأن خصومها يعملون بجهد كبير ضدها ، ويستغلون ماديات العصر في إفساد العقول ، ونشر الفواحش ، وإشاعة المنكر ، واتهام المخلصين بمعاييب ليست فيهم ، مستغلين شبهها باطلا ، وحالات منكرة هم سببها وصانعوها .
إنهم يدعون الحرية ، وهم يقصدون الفوضى ... ويطلبون التنوير وهم يريدون العودة إلى ظلام الكفر والمعاصى .
إن الأمل في قدرة الله أن يهزم أعداءه ، وينصر دينه ، ويؤيد العاملين المخلصين .

(٩٠٦)

إنه لشرف كبير أن أصدر هذا المؤلف وسط هذا الجو الذى يحتاج من كل مسلم بذل الجهد ، والسعى الدعوى لنصر دين الله تعالى .
وانى أنادى إخوانى الدعاة ليواصلوا المسيرة ، ويعينونى بالنصح والتوجيه ، ويخلصوا في العمل الدعوى في جانبيه النظرى والعملى .
إنى أرجو من هذا التفسير أن يكون لى ذكرا في الدنيا ، وذخرا في الآخرة ، وأن يكرمنى الله ، ويأمر ملائكته قرنائى بكتابته في صحائف الحسنات لأرفعها بيمينى يوم القيامة .
إن حبى كله لله ورسوله ، وانى أقر بحاجتى الماسة إلى غفران ذنبى ، وستر عيى ، وتنقية ساحتى من أوشاب المادة ، ووساوس مردة الجن ، وشياطين الإنس ، ومغريات الحياة الدنيا .
وأرجو من كل مطلع على كتابى أن يدعو لى بظهر الغيب .
والشكر كله لله صاحب الفضل فهو الذى هدانى لهذا ، وما كنا لنهتدى لو أن هدانا الله ... عليه توكلت ، واليه أنيب .

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

فهرس موضوع الآيات

(٩.٨)

فهرس موضوع الآيات

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٩	المقدمة	.
سورة "الزمر"		
١٣	التعريف بسورة "الزمر"	.
١٥	القرآن الكريم مصدر الهداية والإيمان	[٤ . ١]
٢٨	آيات الله وتحكمه فى عباده	[٦ . ٥]
٣٧	الإنسان مسئول عن عمله	[٩ . ٧]
٤٦	توجيهات الله للمؤمنين	[٢٠ . ١٠]
٥٧	حاجة الإيمان إلى العلم والهدى	[٢٦ . ٢١]
٦٦	أمثال القرآن الكريم	[٣١ . ٢٧]
٧٣	حال المؤمنين والكافرين فى الآخرة	[٤٠ . ٣٢]
٨٤	الله رب العالمين ، وبيده الأمر كله	[٤٦ . ٤١]
٩٤	خيبة الكافرين فى الآخرة	[٥٢ . ٤٧]
٩٩	إرشاد المؤمنين ودعوتهم إلى الإيمان	[٦١ . ٥٣]
١٠٨	آيات الله فى الدنيا وفى الآخرة	[٧٠ . ٦٢]
١١٥	مساق الكافرين والمتقين إلى مصيرهم فى الآخرة	[٧٥ . ٧١]
سورة "غافر"		
١٢٣	التعريف بسورة "غافر"	.
١٢٧	تعظيم الله تعالى وبيان علو القرآن الكريم	[٦ . ١]
١٣٤	دور الملائكة وجزاء المؤمنين	[٩ . ٧]
١٣٨	حسرة الكافرين يوم القيامة	[١٢ . ١٠]
١٤٢	آيات الله المثبتة لقدرته	[١٧ . ١٣]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
١٥١	أهمية الإنذار والتذكير بالماضى	[٢٢ . ١٨]
١٥٦	قصة "موسى" عليه السلام	.
١٥٧	المقطع الأول : عرض "موسى" عليه السلام الدعوة على فرعون	[٢٤ . ٢٣]
١٥٨	المقطع الثانى : رد فرعون على "موسى" عليه السلام ...	[٢٦ . ٢٥]
١٦١	المقطع الثالث : لجوء "موسى" عليه السلام إلى الله	[٢٧]
١٦٢	المقطع الرابع : ظهور الرجل المؤمن ودعوته ...	[٢٩ . ٢٨]
١٦٧	المقطع الخامس : استبداد فرعون برأيه	[٢٩]
١٦٨	المقطع السادس :- المؤمن يخوف قومه من مصير السابقين	[٣٥ . ٣٠]
١٧٢	المقطع السابع : تمادى فرعون فى عتوه	[٣٧ . ٣٦]
١٧٤	المقطع الثامن : المؤمن يحاول نصح قومه	[٤٣ . ٣٨]
١٧٧	المقطع التاسع : نهاية النصح والحوار	[٤٦ . ٤٤]
١٨٩	مخاصمة أهل النار	[٥٠ . ٤٧]
١٩٤	نصر الله لرسله وأوليائه	[٥٩ . ٥١]
٢٠٤	آيات الله وقدرته بين هداية المؤمنين وضلال الكافرين	[٦٨ . ٦٠]
٢١٥	مصير المكذبين الجاحدين	[٧٨ . ٦٩]
٢٢٢	آيات الله التى خلقها الله للناس	[٨٥ . ٧٩]
سورة "فصلت"		
٢٣١	التعريف بسورة "فصلت"	.
٢٣٥	بيان عظمة القرآن الكريم	[٥ . ١]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٢٤٣	الرسول داع إلى الله بالحسنى	[٨ . ٦]
٢٤٨	آيات الله فى كيفية خلق السماء والأرض	[١٢ . ٩]
٢٥٥	إنذار الكافرين بعذاب الله تعالى	[١٨ . ١٣]
٢٦٣	سوء أعداء الله فى الآخرة	[٢٤ . ١٩]
٢٦٩	أسباب ضلال المشركين ومظاهره	[٢٩ . ٢٥]
٢٧٥	جزاء المؤمنين على أعمالهم وقيامهم بالدعوة	[٣٦ . ٣٠]
٢٨٧	آيات وجود الله وقدرته	[٣٩ . ٣٧]
٢٩٤	إنذار المشركين	[٤٦ . ٤٠]
٣٠٥	بعض ما استأثر الله بعلمه	[٤٨ . ٤٧]
٣١٠	تحجير الإنسان بين الخير والشر	[٥١ . ٤٩]
٣١٣	ضرورة التأمل والتفكير فى آيات الله تعالى	[٥٤ . ٥٢]
سورة "الشورى"		
٣٢١	التعريف بسورة "الشورى"	.
٣٢٤	عظمة الله تعالى	[٦ . ١]
٣٣١	الإنذار باليوم الآخر	[١٢ . ٧]
٣٤٠	وحدة الدين أمام ضلال المشركين	[١٦ . ١٣]
٣٥٥	موقف المؤمنين والكافرين من يوم القيامة	[٢٢ . ١٧]
٣٦٣	علو شأن المؤمنين	[٢٦ . ٢٣]
٣٧٢	فضل الله على المؤمنين	[٣٥ . ٢٧]
٣٨٧	صفات المؤمنين	[٤٣ . ٣٦]
٣٩٥	سوء مصير المشركين	[٤٦ . ٤٤]
٣٩٩	الأمر بالدعوة إلى الإيمان	[٥٠ . ٤٧]
٤٠٤	وحى الله للرسول "عليهم السلام"	[٥٣ . ٥١]

سورة "الزخرف"		
الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٤١١	التعريف بسورة "الزخرف"	.
٤١٣	القرآن الكريم كلام الله تعالى	[٥ . ١]
٤١٩	آيات الله ثابتة خالدة	[١٤ . ٦]
٤٢٧	ضلال المشركين في عقائدهم وأعمالهم	[٢٥ . ١٥]
٤٣٦	معارضة المشركين لدين الله تعالى	[٣٥ . ٢٦]
٤٤٨	دور الشيطان مع صاحبه في الدنيا	[٤٥ . ٣٦]
٤٥٩	قصة "موسى" عليه السلام في سورة "الزخرف"	[٥٦ . ٤٦]
٤٦٨	قصة "عيسى" عليه السلام في سورة "الزخرف"	[٦٦ . ٥٧]
٤٧٨	ترابط المؤمنين في الآخرة	[٧٣ . ٦٧]
٤٨٤	مصير المجرمين في الآخرة	[٨٠ . ٧٤]
٤٨٩	عظمة الله ثابتة رغم أنف المشركين	[٨٩ . ٨١]
سورة "الدخان"		
٤٩٧	التعريف بسورة "الدخان"	.
٥٠٠	إنزال القرآن الكريم من عند الله تعالى	[٩ . ١]
٥٠٦	انتظار مجئ يوم القيامة	[١٦ . ١٠]
٥١٠	قصة "موسى" عليه السلام مع فرعون وقومه	[٣٣ . ١٧]
٥١٦	رد أقوال أهل مكة في البعث ، وآيات الله تعالى	[٤٢ . ٣٤]
٥٢١	مشاهد الخزي للمشركين يوم القيامة	[٥٠ . ٤٣]
٥٢٣	علو مقام المتقين في الآخرة	[٥٩ . ٥١]

سورة "الجاثية"		
الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٥٣١	التعريف بسورة "الجاثية"	.
٥٣٣	آيات الله فى الكون والحياة	[٦ . ١]
٥٤٠	الهلاك للمشركين	[١١ . ٧]
٥٤٤	دلائل القدرة فى المخلوقات	[١٥ . ١٢]
٥٤٩	عبرة لرسول الله من قصة بنى إسرائيل	[٢٠ . ١٦]
٥٥٦	سوء تصورات المشركين	[٢٣ . ٢١]
٥٦٤	الرد على منكرى البعث	[٢٩ . ٢٤]
٥٧٠	المؤمنون والكافرون فى مستقرهم الموعود	[٣٧ . ٣٠]
سورة "الأحقاف"		
٥٧٩	التعريف بسورة "الأحقاف"	.
٥٨٢	ثبوت الإيمان أمام عناد المشركين	[٦ . ١]
٥٨٩	رد مزاعم الكفار عن القرآن الكريم	[١٤ . ٧]
٦٠١	الوصية بالآباء والنهى عن العقوق	[٢٠ . ١٥]
٦١٥	قصة "هود" مع قومه عاد	[٢٨ . ٢١]
٦٢٤	إيمان الجن بعد سماع القرآن الكريم	[٣٢ . ٢٩]
٦٣٠	إثبات البعث وتسليية رسول الله ﷺ	[٣٥ . ٣٣]
سورة "محمد"		
٦٣٧	التعريف بسورة "محمد" ﷺ	.
٦٣٩	تقدير الله العادل للمؤمنين والكافرين	[٣ . ١]
٦٤٤	توجيهات عملية للمسلمين فى القتال والجهاد	[٩ . ٤]
٦٥١	المؤمنون والكافرون بين النظر والاعتقاد	[١٤ . ١٠]

الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٦٥٨	عظمة الجنة ورفعتها	[١٥]
٦٦٤	حقيقة المؤمنين والمنافقين فى الدنيا	[٢٤ . ١٦]
٦٧٤	أحوال المنافقين	[٣٢ . ٢٥]
٦٧٩	معارضة الكافرين واهية	[٣٥ . ٣٣]
٦٨٣	دعوة المؤمنين إلى الاستقامة	[٣٨ . ٣٦]
سورة "الفتح"		
٦٨٩	التعريف بسورة "الفتح"	.
٦٩٠	قصة صلح الحديبية	.
٦٩٧	الفتح الكبير	[٣ . ١]
٧٠٣	هداية المؤمنين وعذاب المنافقين	[٧ . ٤]
٧١٠	منزلة الرسول فى أمته	[١٠ . ٨]
٧١٤	حديث القرآن الكريم عن المخلفين	[١٧ . ١١]
٧٢٦	نعم الله وآلاؤه على أصحاب البيعة	[٢٦ . ١٨]
٧٣٦	تكريم الله لرسوله ﷺ	[٢٩ . ٢٧]
سورة "الحجرات"		
٧٤٩	التعريف بسورة "الحجرات"	.
٧٥٢	ضرورة التأدب القولى والعملى مع رسول الله ﷺ	[٣ . ١]
٧٦١	التأدب فى نداء النبى ﷺ	[٥ . ٤]
٧٦٦	ضرورة التثبت من الأخبار	[٨ . ٦]
٧٧٣	وجوب توحيد المسلمين	[١٠ . ٩]
٧٧٨	ضرورة الأخلاق الحسنة	[١٣ . ١١]
٧٩٠	الإيمان فضل الله على المؤمنين	[١٨ . ١٤]

سورة "ق"		
الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٧٩٩	التعريف بسورة "ق"	.
٨٠١	إثبات قضايا الإيمان الأساسية	[٥ . ١]
٨٠٨	دلالة الآيات الكونية على قدرة الله تعالى	[١١ . ٦]
٨١٢	ضلال المشركين في كافة الأمم	[١٥ . ١٢]
٨١٥	عمل الإنسان في الدنيا معلوم	[٢٢ . ١٦]
٨٢٣	تخاصم أهل النار مع قرنائهم	[٣٠ . ٢٣]
٨٢٧	جزاء المتقين في الآخرة	[٣٥ . ٣١]
٨٣٠	أهمية التذكير بالقصص والآيات	[٣٨ . ٣٦]
٨٣٣	نصائح إلهية لرسول الله ﷺ والمؤمنين	[٤٥ . ٣٩]
سورة "الذاريات"		
٨٤٣	التعريف بسورة "الذاريات"	.
٨٤٤	عذاب الله واقع بالظالمين	[٦ . ١]
٨٤٩	مواجهة منكري البعث بآيات الله	[١٤ . ٧]
٨٥٣	مواقف المتقين وجزاؤهم في الآخرة	[٢٣ . ١٥]
٨٦١	مع قصص سورة "الذاريات"	.
٨٦١	طرف من قصتي إبراهيم ولوط "عليهما السلام" ...	[٣٧ . ٢٤]
٨٦٥	طرف من قصة "موسى" ﷺ	[٤٠ . ٣٨]
٨٦٦	أطراف من قصص عاد وثمود وقوم نوح	[٤٦ . ٤١]
٨٦٩	آيات الله دعوة للإيمان	[٥٤ . ٤٧]
٨٧٤	وصايا خالدة لرسول الله ﷺ والمؤمنين	[٦٠ . ٥٥]

(٩١٦)

سورة "الطور"		
الصفحة	الموضوع	رقم الآية
٨٨١	التعريف بسورة "الطور"	.
٨٨٢	تأكيد وقوع البعث والحساب	[١٦ . ١]
٨٨٩	جزاء المتقين في الآخرة	[٢٨ . ١٧]
٨٩٧	نقض أباطيل المشركين	[٤٣ . ٢٩]
٩٠٤	عذاب الكافرين يوم القيامة	[٤٩ . ٤٤]
٩١١	الخاتمة	.
٩١٥	فهرس الموضوعات	.

والحمد لله رب العالمين

كتب
مطبوعة للمؤلف

(٩١٨)

.....

الكتب المطبوعة للمؤلف :

- (١) دعوة الرسل إلى الله تعالى .
- (٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي .
- (٣) السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني .
- (٤) القول الدقيق في سيرة وعصر الصديق ﷺ .
- (٥) نظم الدرر في سيرة وعصر عمر ﷺ .
- (٦) حسن البيان في سيرة وعصر عثمان ﷺ .
- (٧) القول الجلى في سيرة وعصر علي ﷺ .
- (٨) موسوعة في الأديان والنحل (دراسة موسوعية للأديان والمذاهب) .
- (٩) الدعوة الإسلامية . أصولها . ووسائلها من القرآن الكريم .
- (١٠) الدعوة الإسلامية في العصر الحديث .
- (١١) قواعد علم الخطابة وفقه الجمعة والعيدين .
- (١٢) الخطابة العملية .
- (١٣) النظام السياسى في الإسلام .
- (١٤) النظام الاقتصادى في الإسلام .
- (١٥) النظام الاجتماعى في الشريعة الإسلامية .
- (١٦) أصول الدعوة الإسلامية .
- (١٧) عوامل النجاح من خلال تجربة حية ، ونماذج رائدة .
- (١٨) الرسالة الغراء في تربية الأبناء .
- (١٩) خيال الروح في زمن الصبا (ديوان شعري ، كتب قبل ستين عاما) .
- (٢٠) ركائز القدوة في تفسير الدعوة . المجلد الأول .
- (٢١) ركائز القدوة في تفسير الدعوة . المجلد الثانى .
- (٢٢) ركائز القدوة في تفسير الدعوة . المجلد الثالث .

(٩٢٠)

- (٢٣) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الرابع .
- (٢٤) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الخامس .
- (٢٥) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد السادس .
- (٢٦) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد السابع .
- (٢٧) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثامن .
- (٢٨) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد التاسع .
- (٢٩) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد العاشر .
- (٣٠) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الحادى عشر .
- (٣١) ركائز القدوة فى تفسير الدعوة . المجلد الثانى عشر .

والله ولى التوفيق ،،،